فكتور هيغو

قاع الاجراس

(نوتردام دوباري)

ترجمة أمينة كاملة

منشورات عويدات
بيروت - لبنان

فكتور هيغو

أحدب نوتردام

(نوتردام دو باري)

ترجمة أمينة كاملة

ترجمة

بهيج شعبان

منشورات عويدات
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى ١٩٦٩

كلمة لا بد منها

لم تتعرض رواية أجنبية ، في كل ما نقـــل إلى العربية من روايات ، لما تعرضت له وُبليت به رواية « نوتر دام دي باري » لفكتور هيغو .

فقد كانت ، منذ ما بدأ الادباء العرب بنقل روائـــع الغرب إلى لغتهم ، عرضة للتشويه والمسخ والاختصار والتصرف الى ما هنالك من عمليات تدل كلها على أن هذه الرواية لم تنقل الى العربية بعـــد ، وان الروايات المنشورة باسم « أحدب نوتر دام » ليست سوى عمليات بتر وجدع وسمل وبقر لأعضاء هـذه الرواية العظيمة ، وتلويث لأعظم اثر خلقه فكتور هيغو ، وتجارة « رابحة » على حساب الشاعر الفرنسي العظيم .

لقد أخذ ادباؤنا يتصدون لنقل هذا الأثر الضخم منذ ايام المرحوم طانيوس عبده . وبدون ان نسرد التاريخ الطويل لهذه المهزلة فاننا نقفز رأساً الى بضع سنوات خلت ، حيث قامت مؤسسة « روايات الجيـــب » بنشر رواية باسم « احدب نوتر دام » بلغت صفحاتها المئة او تزيد قليلاً ، مع ان هذه الرواية لو ترجمت بأمانة لزادت صفحاتها عن الألف من قطع صفحات روايات الجيب .

ثم ترجمها واحد من عندنا لدار نشر معروفة ، فاجتزأ منها ما اجتزأ ، واقتصر على ما اقتصر ، وألقاها الى الناس تحفة خفيفة ظريفة على انهـــا الترجمة الكاملة لرواية « نوتر دام دي باري » لفكتور هيغو .

وترجمها آخر من قطر شقيق (بتصرف) كما كتب فوق اسمه . وقد اعجبتني كلمة « بتصرف » هذه ، إذ جعلتني اغبط ذلك القطر العزيز على وجود واحـد من ابنائه « يتصرف » بآثار فكتور هيغو بهـــذا الشكل الجريء الذي يشبه

تصرف سيد بأشياء عبيده . ومن الامثلة على هذا التصرف اختصار خمسين صفحة بصفحة ونصف فقط .

وماذا يعني هذا « التصرف » ؟..

انه يعني ، على أقل تقدير ، ان المترجم الفذ يقوّم اعوجاج الأصل ويحذف منه ويضيف عليه ما شاءت له عبقريته ، ثم يقذف وجوه القرّاء بهذه المجزرة الادبية حاملة اسم « احدب نوتر دام » لفكتور هيغو .

وبعد ، فهل من سبب لهذه الجرائم المتعمدة ؟

هناك أسباب عديدة في رأينا نقتصر منها على ما يلي :

١ً – ان في رواية « نوتر دام دي باري » كمعظم روايات ذلك العصر ، اغراقاً في الواقعية تضيع معه حوادث القصة في خضم من الوقائع الجانبية والتفاصيل والأوصاف الدقيقة مما يصعب نقله احياناً على المترجم فيكتفي بفهم الحكاية الاساسية ثم ينشئها من جديد ، او انه يترجم ولكنه يقفز فوق عبارات وصفحات وفصول بأكملها ليصل الى خيط القصة الضائع فيوصله بما سبق .

٢ً – العادة التي درج عليها بعض الناشرين الذين يبيعون اليوم منشوراتهم على عربات الفجل والبصل . اذ يقدمون للمترجم قصة اجنبية لترجمتها ، محددين له عدد الصفحات . أي انهم يطلبون اربعماية صفحة عربية مثلاً مقابل مئة صفحة اجنبية ، او بالعكس . وهكذا تصدر الرواية ، وعليها اسم المؤلف والمترجم ، على انها ترجمة كاملة نزيهة .

٣ً – في رواية « نوتر دام دي باري » بشكل خاص صعوبات كثيرة تعترض المترجم ، منها :

أ – استعمال كثير من كلمات اللغة العامية السائدة في عصر حوادث الرواية ، وهي كلمات لا وجود لها في المعاجم العادية .

ب استعمال الكثير من العبارات اللاتينية وبعض العبارات اليونانية والاسبانية .

ج – الاشارات الكثيرة الى اشخاص وحوادث ميثولوجية تحتاج الى ايضاح .

د – ذكر انواع الاسلحة المستعملة آنذاك ، وانواع الاقطاع ، واسماء طبقات اللصوص ، وانواع الملابس المدنية والكهنوتية ، وكل ما يتعلق بفن العمارة والنحت والنقش الخ..الخ.. واكثرها اشياء لا وجود لها بالعربية ، وتقتضي ترجمتها نحت ووضع اسماء جديدة لها .

لهذا كله ركب المترجمون المركب السهل ، وقدموا لنا مسخاً متأنقاً أحياناً لهذه الرواية ، على انها رائعة هيغو الشهيرة .

وبعد ، فلا نريد ان نطيل ، وقد أصبحت ترجمتنا لرواية « نوتر دام دي باري » بين يدي القارىء منقولة الى العربية بدقة وأمانة نقلاً كاملاً تاماً يكاد يكون حرفياً ، لعلها تكون كفّارة عما جنى المترجمون بحقها في السابق . إلا أن الدار رأت ان تطلق على الرواية اسم « قارع الاجراس » على اعتبار ان عمل بطل القصة الاساسي هو « قارع اجراس » كنيسة نوتر دام بالاضافة الى عاهاته الجسدية التي جعلت منه ليس احدب فقط ، بل أعور واعرج وأفقد ايضاً . وبهذا فقط نكون قد اخللنا بالترجمة .

بهيج شعبان

المقدمة

بقلم
صموئيل س. دي ساسي

أحقيقة ان شاتوبريان اطلق نعت « الطفل العظيم » على فكتور هيغو الذي بدأ يتألق ، وهو لا يزال طفلاً ، في عصرٍ داكن لأدبنا ؟.. لقد نسبت هذه الكلمة اليه ، وهو نفسه أنكر انه قالها : ويبدو لنا محتملاً انه قالهـا فعلاً ولكن . . .

ولكن الكوكب الصاعد ألقى فيما بعد شيئاً من الظلمة على النجم القديم . فقد افرط التلميذ في استعمال حربته بسرعة تسبب الدوار . امـا في السياسة فان شاعر العرش ومرتل المذبح كان قد اتخذ أبعاده . وبالاختصار ، ومع الاعتبار الذي استمر الطفل واصدقاؤه في اظهاره نحو شاتوبريان ، فان هـذا وجد ان الطفل مهتاج جداً ، كثير الجلبة ، كثير الازعاج ، معرّض نوعاً مـا للخطر . فالاسنان حادة جداً .

والمضحك هو ان الكلمة الدالة على معرفة نادرة للمستقبل في اللحظة التي قيلت فيها ، لم تبدأ ان تصبح صحيحة بشكل حقيقي الا يوم أُنكرت . ونحـن نعلم ان لجميع الاولاد عبقرية ، ولكن كم هم اليافعون الذين يظلون جديرين بعبقرية طفولتهم ؟.. ان المدهش والاعجوبة عند هيغو هو انه ظل عبقرياً من سنٍ الى سن حتى حين اصبح في سن الشيخوخة .

« والطفل العظيم » المخلص لنفسه كان قد اتم التاسعة والعشرين من سنه حين نشر روايته « نوتردام دي باري » في ١٦ اذار ١٨٣١ . ولم يعلم الجمهور انه أعطي احدى اعظم روايات العصر .

ويجاهر هيغو بشجاعة ان « مـــا ينتج من ثورة سياسية هو ثورة ادبية » . وهذه العبارة الفخور تتحقق احياناً في بعض الظروف، وتحت بعض الظروف... وقد ثبتت صحتها عام ١٨٣٠ .

قبل خمسة اشهر من القتال في الشوارع جرى قتـــال في المسرح في سبيل « هرناني » او ضدها . ولكن لنترك المسرح ، والشعر ايضاً ، وكذلك كل الفنون الاخرى ، وما دام الامر يتعلق هنا برواية فلن نتكلم بغير الروايات . فقد شاهد عام ١٨٢٩ ظهور رواية « الناعقون[٢] Les Chouans »، وعام ١٨٣٠ ظهور رواية «الاحمر والاسود[١]» ، وعام ١٨٣١ سيشاهد ظهور « نوتر دام دي باري »... والثورة الادبية ليست تقريباً « نتيجة » الثورة السياسية : انها على الاقل ترافقها ؛ والنوع الروائي يقف في الصف الاول من الانواع الكبرى ، وقد انبعثت الرواية الفرنسية الكبرى يافعة في نفس الوقت الذي ولدت فيه المملكة البورجوازية .

مع انه لا شيء في الظاهر يقرب بين ستاندال وبلزاك وهيغو . انهم مختلفون بالسن ، بالولادة ، بالتربية ، بالتكوين ، وبالاوساط التي وضعتهم الصدفة فيها او التفضيل . ولم يقودوا معاً معركة ولا بحثاً . اما ما يجمعهم بدون ان يعلموا فهي سلسلة من الاتجاهات نحو غاية واحدة .

وحدة الغاية في الرفض . فهم لم يستطيعوا التفكير باعادة كتابة « اميرة كليف » ولا « جيل بلاس » ولا « مانون لسكو » ولا حتى « أدولف او اتالا او رنيه » وهي الاكثر قرباً من اشكال الاحساس المعاصرة . انهم اصبحوا متحولين بالمسعى وبأساليب الادب التقليدي : الانسان بوجه عام ، والبطل الروائي بشكل خاص لن يكون من الآن وصاعداً مقياساً لكائن .

لقد جاء ظهور والتر سكوت واكتشاف شكسبير في الوقت المناسب لاجل

١ — الاحمر والاسود ، تأليف ستاندال (منشورات عويدات)
الناعقون ، تأليف بلزاك « «

اعطاء احداث ومواضيع ووسائل تعبير لما يشعرون به بغموض : اتفاق آخر في الغاية . ولم يكن ما يشعرون به سوى مفعول ريح التاريخ العظيمة التي جاءت تهب فوقهم وعليهم كالاعصار . وليس هو التاريخ الذي نلاحظه دون غرض ، بل الذي نشعر به ؛ المعارك او تبادل عواطف القوى الذاهبة ! المحتوم، المقدّر ، القضاء والقدر : بدون ان يتواطأ الروائيون الجدد للقيام بعمل مشترك فهم متفقون على ان الشخصيات التي يضعونها في رواياتهم تمسك بها بعض القوى التي تفوقها كثيرا ، وانها ضربت بالسياط ، وعوقبت بالموت ، وأزيلت من الوجود - والاكثر قوة هي التي ُغلبت بشكل اكثر وحشية بواسطة سلسلة من الحوادث المتجاوزة الحد . ومع ذلك فلن يلزمها اقل من ذلك ليسمح لها بالنماء فضيلتها .

واخيراً وحدة اخرى في الغاية ، وهذه لا تقبل التحليل : هي تلاقي ثلاثة روائيين عباقرة في وقت واحد . حيث كانت وتكون عصور اخرى استطاعت فيها حالة وحركة الاشياء، وتستطيع، انتاج تأثيرات مماثلة: مما يؤسف له ان كل شيء يجري آنذاك كما لو ان الآلهة كانت تهتم بأمور اكثر اهمية او اكثر تفاهة.

في نفس السنة التي ولد فيها هيغو ، عام ١٨٠٢ ، فان شاتوبريان الذى تعتبره الشبيبة الماجنة باستمرار قد بذل جهده ، ليس بدون حق ، في كتابه « عبقرية المسيحية » لإعادة الاعتبار الى فن البناء القوطي ، وتحريضه على ذلك ينتشر بلا انقطاع . وشهرة الدراسات التاريخية التي تسندها شهرة روايات والتر سكوت (إلا اذا كانت هذه لا تسند تلك) ، قد اجتاحت النفوس . وتنتشر حملة ضد تحطيم ما بقي من انصابنا التذكارية القديمة . و « الطفل العظيم » يسر بالتفكير فيما يجب ان يكون عليه الفن الروائي في العصور الحديثة . وفكرة القضاء والقدر تلون كل تلك المشارق ، وتستطيع « نوتر دام دي باري » منذ ذاك ان تظهر تحت مناخها الحقيقي .

ولكن الظروف المناسبة لا تكفي لصنع رواية عظيمة : بل يجب ان يكون

الروائي جديراً بالظروف . وكان فكتور هيغو يملك هـــذه الجدارة حتى أعلى درجة . ففي بضعة اشهر من حياة رهبانية حرّر وأثار حماسة القوى التي كدسها في نفسه منذ عدة سنوات . وقد القاها كلها في بوتقة بديعة . ملائكة ومسوخ ، ابتسامات متألقة وكشرات ميازيب ، مخططات كبيرة واضحة بتألق وقرقرات مزعجة لشعوب الليل ، والخفة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بثقل الفاجع ، والمضحك المرتبط بالدرامي ، والتراخي الهزلي بالتوتر النهائي ، والتجربة المتراكبة في السرد ، والعرض التاريخي المستغل بلباقة ، ومزج قوي للافكار كأنها اشخاص وللمفردات كأنها انواع .

وهناك سمة جوهرية عنده ، فهيغو هو مشّاء . فقد ظل اثناء نزهات لا تحصى مطيلًا الاحلام التي تبعثها فيه إلفته للحجارة القديمة . انه يستوحي، وهو متشرب ومسمّم بالمدينة وكاتدرائيتها . اما ما سوف يشرحه فهو ذلك الاحساس الذي اصبح تأثراً، وذلك التأثر الذي اصبح عاطفة ، وتلك العاطفة التي اصبحت فكرة. وقد كتب الى ناشر كتبه غوسلان يقول : « اذا كان للكتاب من قيمة فلأنه عمل مخيلة ، ونزوة وخاطرة » . وليست « مصادره » سوى روافد يكبر منهـــا النهر تارة بشكل سيول وطوراً يهيب بالاحلام ليجعلهـا حقيقة . ان المصدر الحقيقي للرواية هو طبيعة الروائي نفسه ، وقوة مخيلته العظيمـــة ، والذاكرة العجيبة التي تعضد فيه منح السماء ، والذوق الحسي للكلمات التي تقود الى صميم الاشياء .

صموئيل س. دي ساسي

حياة فكتور هيغو

١٧٩٧ ـ زواج جوزف ليوبولد سيجيسبير هيغو ، المولود في نانسي عـــام ١٧٧٣ ، وصوفي تريبوشه المولودة في نانت عام ١٧٧٢ · ودخل الجيش عام ١٧٩١ كمتطوع في جيش الجمهورية ·

١٨٠٢ ـ ٢٦ شباط : ولادة فكتــور ماري هيغو في بيزانسون وهو ولدهما الثالث (بعد آبيل المولود عام ١٧٩٨، واوجين المولود عام ١٨٠٠) · وكان ضعيف الصحة مشكوكا في قدرته على الحياة ·

١٨٠٣ ـ رقي الاب الى رتبة كولونيل · ولادة آديل فوشيه التي سيتزوجها الشاعر عام ١٨٢٢ ·

١٨٠٢ ـ ١٨٠٣ ـ في باريس ارتبطت مدام هيغو بعلاقة غرام مع الجنرال لاهوري وهو احد اصدقاء صباها وقد وجدت فيه رقة في العاطفة وارستقراطية غير موجودتين عند زوجها · وكان اب العائلة يهتم بالاولاد في مرسيليا ، ثم في باستيا ، ثم في جزيرة البا حيث انضمت اليه زوجته اخيرا · ولكنها علمت انه اتخذ عشيقة فعادت الى باريس مع اولادها ·

١٨٠٣ ـ ١٨١٢ ـ اصبح الكولونيل هيغو جنرالا وسافر الى اسبانيا · وقد تركت هذه الرحلة أثرا في فكتور الذي كان يعيش معه احيانـــا · وحين جاءت الام تفاجىء زوجها الجنرال في مدريد طلب هذا الطلاق وقد سحب هذا الطلب بناء على أمر من مرجع عال ·

١٨١٢ ـ ١٨١٣ ـ عودة العائلة الى فيانتين وسكنت شارع شرش ـ ميدي · اما الجنرال لاهوري فقد لاحقه البوليس لمؤامرته ضد الحكم القائم ، وقد عاش متخفيا · وقد كان يتنكر ليزور صديقته · واخيرا قبض عليه ونفذ فيه حكم الاعدام عام ١٨١٢ ·

١٨١٤ _ ١٨١٨ _ اوجين وفكتور هيغو درسا في مدرسة كورديه وديكوت ٠ وقد اصبح فكتور بسرعة ماهـرا باللاتينية ٠ وكتب مسرحيـات وقصائد ٠ وكان قد كتب في مذكراته عام ١٨١٦ : « اريد ان اكون شاتوبريان او لا شيء ٠ »

١٨١٨ _ انفصال شرعي للزوجين هيغو ٠ فترك اوجين وفكتور البانسيـون وسكنا مع والدتهما في شارع بونابرت الحالي ٠

١٨١٩ _ رأى فكتور هيغو ان قصيدتين من قصائده قد توجا في تولوز في مهرجانات الزهور ٠ وفي ٢٦ نيسان عقد خطبتـه سرا عـلى اديل فوشيه صديقة الصبا ٠ وفي كانون الاول اسس مجلة « المحـافظ الادبي » التي والت الظهور حتى عام ١٨٢١ ٠

١٨٢٠ _ قصائد متنوعة ٠ عدة نجاحات ٠ في ٢٦ نيسان نشب خلاف بين العائلتين ادى الى فسخ الخطوبة ٠ اول علاقة له مع الفريد دي فيني٠

١٨٢١ _ شباط ٠ عاد فكتور هيغو يلتقي بأديل خفية ٠ ٢٧ حزيران : موت مدام هيغو ٠ وبعد ذلك بقليل تزوج الجنرال عشيقته واصطلح مع ولده ٠ واصطلحوا مع عائلة فوشيه ٠ وعادت الخطبة من جديد ٠

١٨٢٢ _ نشر « أود وقصائد متنوعة » ٠ وحصل فكتور على راتب ١٣٠٠فرنكا فتزوج اديل فوشيه وسكنا معا في شارع شرش _ ميدي ٠ واوجين الذي كان عاشقا لأديل منذ عدة سنـوات اصيب بمرض عقلي ، واضاعته الغيرة فأصبح مجنـونا نهائيا ليلة الزفاف وادخـل الى مستشفى الامراض العقلية في شارنتون عام ١٨٢٣ ومـات عام ١٨٣٧ ٠

١٨٢٣ _ اعادة طبع « الأود » و « هان ديسلند » ٠ راتب جديد ٢٠٠٠ فرنكا٠ أول لقاء مع نوديه ٠ تأسيس « لاميز فرانسيز » وهي مجلة اختفت بعد سنة ٠ ولادة اول ولد له عاش اربعة اشهر ٠

١٨٢٤ _ قصائد بعنوان « أود جديدة » ٠ انتقال الى شارع فو جيرار ٠ ولادة ليوبولدين أول ابنة له ٠

١٨٢٥ _ عين هيغو فارسا في جوقة الشرف (في نفس الوقت مع لامارتـين الذي يكبره باثنتي عشرة سنة ٠

١٨٢٦ ــ ولادة ولده شارل · « أود وبالاد » · مقال من سانت بوف ادخل النقد الى حياة الشاعر · شروع بكتابة « كروموبل » ·

١٨٢٧ ــ سكن في شارع نوتردام ديشان · زاد تأثيره على الكتاب والفنانين·

١٨٢٨ ــ موت الاب هيغو وهو برتبة ليوتنان جنرال · ولادة ولده الثالث فرنسوا فكتور الذي سيترجم شكسبير · في الخامس من تشرين الثاني عقد اتفاقا مع الناشر غوسلان لاجل « المشرقيات » و « آخر ايام محكوم » ورواية « نوتردام دي باري » ·

١٨٢٩ ــ « المشرقيات » · « آخر ايام محكوم » · اول احتجاج ضد عقوبة الاعدام · كتب هيغو « هرناني في ٢٩ آب حتى ٢٤ ايلول · وسانت بوف الذي يجب ان يعيش على حافة وكنة الغير بدأ يتقرب من اديل هيغو وأصبح عشيقا لها ·

١٨٣٠ ــ أول تمثيل لهرناني · ولادة ابنة ثانية دعيت باسم امها ، اديل ، وكان سانت بوف عرابا لها ·

١٨٣١ ــ انتهاء العمل برواية « نوتردام دي باري » · ١٦ اذار : اول نشر للرواية · اول تمثيل « لماريون ديلورم » و « اوراق الخريف » ·

١٨٣٣ ــ أول تمثيل لمسرحية «لوكريس بورجيا» ·بدء علاقته بالممثلة الهزلية جوليت درويه · وستظل من الان فصاعدا « زوجة حياته » · أول تمثيل لمسرحيته « ماري تيدور » ·

١٨٣٤ ــ « أدب وفلسفة مختلطان » · رحلة الى بريتانيا · قطع علاقته بسانت بوف الذي نشر « لذة » ·

١٨٣٥ ــ اول تمثيل لمسرحية « انجيلو » · رحلة الى بيكارديا ونورمنديا · « اناشيد الغسق » ·

١٨٣٦ ــ رحلة الى بريطانيا ونورمنديا · « لا ازميرالدا » وهي اوبرا · شباط وكانون الثاني : اخفاقات في المجمع العلمي ·

١٨٣٧ ــ « الاصوات الداخلية » · نال هيغو وسام جوقة الشرف الى رتبة ضابط · رحلة الى بلجيكا وشمال فرنسا ·

١٨٣٨ ــ اول تمثيل لمسرحية « روي بلاس » ·

١٨٣٩ ــ رحلة الى الالزاس على الرين ، وسويسرا ، والبروفانس وبورغونيا. طلب ثالث للمجمع العلمي . الغي الانتخاب .

١٨٤٠ ــ اخفاق جديد في المجمع العلمي الفرنسي . رئيس جمعية اهل الادب. « الاشعة والظلمات » . رحلة في الحوض الريناني .

١٨٤١ ــ انتخب وقبل في المجمع العلمي الفرنسي .

١٨٤٢ ــ « الرين » .

١٨٤٣ ــ تزوجت ليوبولدين ابنته من شارل فاكييري . اول تمثيل لمسرحية « بورغراف » . رحلة الى البيرينه واسبانيا . وعند عودته علم من الصحف بغرق الزوجين الشابين في فيلليكيه .

١٨٤٥ ــ شرع هيغو بكتابة « البؤساء » .

١٨٤٦ ــ ١٨٤٧ ــ زاد من عمله السياسي وصار يلقي خطبا عديدة .

١٨٤٨ ــ بعد ثورة شباط اصبح محافظا للدائرة الثامنة عشرة في باريس ثم نائبا عن باريس في الجمعية التأسيسية ودخل في غمار الحياة السياسية .

١٨٤٩ ــ انتخب ، كمحافظ ، نائبا عن باريس في الجمعية التشريعية .

١٨٥٠ ــ خطاب في جنازة بلزاك .

١٨٥١ ــ خطاب في الجمعية التشريعية ضد الامير ــ الرئيس . وبعد انقلاب الثاني من كانون الاول اصبح عضوا في لجنة المقاومة . في ١١ كانون الاول ذهب منفيا الى بروكسل .

١٨٥٢ ــ صدور مرسوم بطرد هيغو من الاراضي الفرنسية . ذهابه من بلجيكا الى جرسي . « نابليون الصغير » .

١٨٥٣ ــ بدء تجارب النزعة الروحية . « العقوبات » .

١٨٥٤ ــ ١٨٥٥ ــ بدء تأليف « نهاية الشيطان » . طرد من جرسي فقطن غرينزي .

١٨٥٦ ــ « التأملات » .

١٨٥٨ ــ مرض مرضا خطيرا .

١٨٥٩ ــ « اسطورة العصور » ، اول سلسلة . اهتم هيغو منذ الآن بمشاكل

عصره ليس السياسية فقط ، بل الاجتماعية والفلسفية والاقتصادية ايضا .

١٨٦١ ـ رحلة الى بلجيكا (انهى رواية البؤساء بالقرب من واترلو) . ثم الى هولندا .

١٨٦٢ ـ « البؤساء » . رحلة الاردين البلجيكي ولوكسمبورغ والرين .

١٨٦٣ ـ « فكتور هيغو يكتبه شاهد من حياته » كتاب الفته مدام هيغو تحت رقابة زوجها ، ونشر دون ذكر اسم المـــؤلف . رحلة الى الاردين وشاطىء الرين .

١٨٦٤ ـ « وليم شكسبير » نشر هذا المؤلف لمساندة الترجمة التي قام بها ولده فرنسوا فكتور ونشرها عام ١٨٥٨ الى عام ١٨٦٤ .

١٨٦٥ ـ اقامة في بروكسل وعودة الى غرنيزي . رحلة الى الاردين وضفــاف الرين . « أناشيد الشوارع والغابات » .

١٨٦٦ ـ « عمال البحر » . رحلة الى بلجيكا .

١٨٦٧ ـ اول لقاء مهيأ بين اديل هيغو وجولييت درويه .

١٨٦٨ ـ موت زوجة فكتور هيغو في بروكسل .

١٨٦٩ ـ « الرجل الذي يضحك » . رحلة الى بلجيكا وسويسرة .

١٨٧٠ ـ ١٩ تموز : اعـــلان الحرب بين فرنسا وروسيا . عـودة هيغو الى بروكسل . ثورة الرابع من ايلول ـ في باريس .

١٨٧١ ـ انتخب نائبا عن باريس . استقال في ٨ آذار . عاد الى بلجيكا حيث طرد . تقدم للانتخابات من جديد فأخفق .عاد الىباريس فيايلول.

١٨٧٢ ـ اخفاق جديد في الانتخابات . «السنة الرهيبة» .أصبحت رغباته الجنسية منحطة . كان على علاقة بخادمة عشيقته جوليت درويه .

١٨٧٤ ـ كتابه « كاتر ـ فان ـ تريز »

١٨٧٥ ـ « اعمال واقوال » « قبل المنفى » و « بعد المنفى » .

١٨٧٦ ـ انتخب شيخا عن باريس . نشر الجزء الثالث والاخير من « اعمال واقوال » .

١٨٧٧ ـ « اسطورة العصور » ، السلسلــة الثانيــة . « الفــن في كيــف تكون جدا » .

١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ ـ « تاريخ جريمة » ٠ سكن في غرنيزي ٠ « البابا » ٠
١٨٧٩ ـ ١٨٨٠ ـ « الشفقة السامية » ٠ « أديان ودين » ٠ « الحمار » ٠
البدء بطبع « نوفاريتير » ٠ في ٤٨ مجلدا ٠
١٨٨١ ـ احتفالات عامة ببلوغه الثمانين من عمره ٠ « رياح العقل الاربع » ٠
١٨٨٢ ـ « توركيمادا » ٠
١٨٨٣ ـ موت جولييت درويه ٠ « اسطورة العصور » السلسلة الثالثة ٠
١٨٨٤ ـ رحلة الى سويسرة وايطاليا ٠
١٨٨٥ ـ ١٥ ايار : احتقان رئوي ٠ موت هيغو في ٢٢ ايار ٠ وفي ٢٦ منه
دفن في البانتيون ٠ واقيمت له مآتم وطنية في اول حزيران ٠

الكتاب الأول

١

القاعة الكبرى

لقد مضى حتى اليوم ثلاثماية وثمانية واربعون عاماً وستة اشهر وتسعة عشر يوماً منذ ما استيقظ الباريسيون على رنين جميع الاجراس التي كانت تقرع بشدة في النطاق المثلث ، نطاق « لا سيته » والجامعة والمدينة .

ومع ذلك فليس السادس من كانون الثاني عام ١٤٨٢ يوماً حفظ له التاريخ ذكرى . اذ ليس هناك شيء ذو شأن في الحادث الذي حرك اجراس وبورجوازيي باريس منذ الصباح . انه لم يكن غارة البيكارديين والبورغونيين ، ولا صندوقاً للذخائر المقدسة يطاف به ، ولا تمرد طلاب في كروم لاس Laas ، ولا دخول « مولانا صاحب المهابة السيد الملك » ، ولا عملية شنق جميلة للسارقين والسارقات في عدلية باريس . ولم يكن أيضاً الوصول المفاجيء الذي يحدث غالباً في القرن الخامس عشر لإحدى السفارات المزينة بالأوسمة والريش . لم يكد يمضي يومان على الكوكبة الاخيرة من هذا النوع ، كوكبة سفراء الفلاندر المكلفين بعقد الزواج بين ولي العهد ومرغريت دي فلاندر التي دخلت باريس مع الغم الشديد الذي شعر به الكاردينال دي بوربون والذي اضطر ، لكي يرضي الملك ، ان يظهر البشاشة لكل هذه الجموع الريفية من الحكام الفلاندريين ، وان يولم لهم في قصر البوربون بينما المطر المنهمر يغمر الطنافس البديعة على الباب .

ان ما أحدث هذا التأثر، في السادس من كانون الثاني، في كل الطبقة الشعبية

في باريس ، كما قال جهان دي تروي ، هو الاحتفال المزدوج الذي يجمع منذ القدم بين يوم الملوك وعيد المجانين .

ففي ذلك اليوم يجب ان توقـد نار الفرح في ساحة غريف Grève ، ويقام بغرس شجرة أيار [1] في كنيسة براك ، وتمثل مسرحية – لغز في قصر العدل . لقد احدث الصراخ أرقاً على صوت النفير في مفارق الطرق بواسطة رجال الحاكم ذوي الصدرات البنفسجية والصلبان البيضاء على الصدر .

اذن فقد كان جمهور البورجوازيين والبورجوازيات يسير منذ الصباح ومن جميع الانحاء ، باتجاه واحدٍ من ثلاثة أمكنة معينة ، والبيوت والمتاجر مقفلة . وكل فرد قام بنصيبه ، ان كان لنار الفرح ، او لشجرة ايار ، او للمسرحية – اللغز . ويجب القول في معرض الثناء على الذوق السليم للمتسكعين الباريسيين ان القسم الأكبر من هذا الجمهور كان يسير نحو نار الفرح التي اشعلت في اوانها ، ونحو المسرحية التي يجري تمثيلها في قاعة القصر الكبرى المغطاة والمقفلة جيداً ، وان الفضوليين قد اتفقوا على ان يتركوا شجرة ايار المسكينة المزينة بالزهور بشكل سيء ترتجف من البرد وحيدة تحت سماء كانون الثاني في مقبرة كنيسة براك .

كان الشعب يزدحم على الخصوص في اروقة قصر العدل لأنـه اصبح معلوماً ان سفراء الفلاندر الذين وصلوا منذ امس قد عزموا على حضور تمثيل المسرحية – اللغز وانتخاب بابا المجانين الذي سيجري ايضاً في القاعة الكبرى .

ولم يكن من السهل الدخول في ذلك اليوم الى تلك القاعة الكبرى المشهورة آنذاك بأنها اكبر مكان مغطى في العالم (صحيح ان سوفال لم يكن قد قاس القاعة الكبرى في قصر مونتارجي .) وساحة القصر الملأى بجماهير الشعب تقدم لفضوليي النوافذ منظر بحر فيه خمسة او ستة شوارع كأنها مصبّات انهـار ، تقذف كل لحظة موجات جديدة من الرؤوس . وكانت موجات هذا الجمهور التي تتضخم دون انقطـاع تصطدم بزوايا البيوت الناتئة هنا وهناك كأنها رؤوس

---

١ – شجرة خضراء مزينة بالشريط تغرس باحتفال في اول أيار في مكان يراد تشريفه . وهذا التقليد يعود الى عهود قديمة .

جغرافية في حوض الساحة غير المنتظم . وفي منتصف واجهة القصر القوطية العالية يوالي الصعود والنزول على الدرج الكبير ذلك التيار المزدوج الذي ينتشر امواجاً عريضة على منحدريه الجانبيـــين بعد ان يتكسر تحت قرص الدرج المتوسط ، وكان الدرج الكبير يصب دون انقطاع في الساحة كشلال في بحيرة . وكانت الصرخات ، والضحكات ، ودبدبة تلك الآلاف من الاقدام تشكل ضجة كبرى وجلبة عظيمة . وكانت هذه الجلبـة وتلك الضجة تتضاعفان من وقت لآخر ، والمجرى الذي يدفع كل هذه الجماهير نحو الدرج الكبـــير كان يعود القهقرى ، ويتبلبل ، ويتدحرج . انها رمية رامٍ او جواد رقيب عسكري في الولاية كان يرفس لاعادة اقرار النظام ؛ وانه لتقليد يستحق الاعجاب ذلك الذي تنيطـــه حاكمية المدينة بقيادة الجيش ، وقيـــادة الجيش بالدرك ، والدرك بشرطتنا في باريس .

في الابواب ، في النوافذ ، في الكوى ، وعلى السطوح تكثر كالنمال الوف من الوجوه الجميلة البورجوازية ، الهادئة الفاضلة ، الناظرة الى القصر ، المتطلعـة الى الجماهير ، غير طالبة اكثر من ذلك ؛ لان كثيراً من أهالي باريس يكتفون بمشاهدة المتفرجين ، وهذا شيء عجيب جداً بنظرنا كجدارٍ يجري وراءه شيء ما.

ولو اتيح لنا ، نحن رجال عام ١٨٣٠ ، ان نختلط بالفكر مـع اولئك الباريسيين في القرن الخامس عشر ، وان ندخل معهم ، منجذبين ، مدفوعين بالمرافق ، منكبّين على وجوهنا في تلك القاعة الفسيحة من القصر والضيقة جداً ، في السادس من كانون الثاني عام ١٤٨٢ ، فان النظر لن يكون بدون فائـــدة ولا جمال ، ولن يكون حولنا سوى اشياء قديمة جداً وتبدو لنا جديدة كل الجدة.

وسنحاول ، لو رضي القارىء بذلك ، ان نجد بالفكر ذلك التأثير الذي يشعر به معنا ونحن نجتاز عتبة تلك القاعة الكبرى بـــين الجماهير ذات الالبسة المختلفة .

اولاً طنين في الآذان ، وبهر في العيون . وفوق رؤوسنا قبة مزدوجة مخروطيـة مصفحة بالخشب المحفـور ، مدهونة بلون اللازورد ومزدانة بالازهار

الذهبية ؛ وتحت اقدامنا يتناوب البلاط الابيض والاسود . وعلى بضع خطوات منا عمود ضخم ، ثم آخر ، ثم آخر ؛ والكل اعمدة سبعة على طول القاعة تحمل في منتصف عرضها ما يسند القبة المزدوجة . وحول الاعمـــدة الاربعة الاولى دكاكين باعة ، تتألق كلها بالزجاج والصفائح ؛ وحول الثلاثة الاخرى مقاعد من خشب السنديان رثـة ملساء من سيقان السراويل واثواب وكلاء النيابـة .
وحول القاعة ، على طول الجدار المرتفع ، بين الابواب ، بـين النوافذ ، بـين الاعمدة، ذلك الصف الذي لا ينتهي من تماثيل جميع ملوك فرنسا منذ فاراموند؛ الملوك الكسالى ، والاذرع المتدلية ، والعيون المنخفضة ؛ والملوك البسلاء المحاربون ، الرأس والايدي مرتفعة الى السماء بجرأة. وعلى النوافذ الطويلة المقببة زجاج ذو الف لون ؛ وفي منافذ القاعـــة الفسيحة ابواب نفيسة محفورة بدقة ، والكل ، من قباب واعمدة وجدران وأطر نوافذ ، وما صفحت به الجدران ، والابواب ، والتماثيل ، مغطاة من اعلى الى اسفل بتزاويق رائعة زرقاء وذهبية ، وكانت قاتمة قليلاً في العصر الذي رأيناها فيه ، وقد كادت تختفي تماماً تحت الغبار ونسيج العناكب في سنة الرحمة ١٥٤٩ حيث كان دي برول لا يزال معجباً بها تقليدياً .

لنتخيل الآن هذه القاعة الفسيحة المستطيلة ، المضـاءة بنور شاحب من احـد ايام كانون الثاني ، والتي يجتاحها جمهور مبرقش صاخب يحيد عن طول الجدران ويدور حول الاعمدة السبعة ، وستتكوّن عندنا فكرة مشوشة عن مجموع اللوحة التي سنحاول الاشارة بشكل اوضح الى تفاصيلها الغريبة .

من المؤكد ان رافاياك لو لم يقتل هنري الرابع لما كان هناك اوراق دعوى رافاياك موضوعة في خزانة سجلات قصر العدل ؛ وليس هناك شركاء في الجريمة يهتمون باخفاء المستندات المذكورة ؛ وانطلاقاً من ذلك لن يكون هنـــاك مشعلو حرائق يضطرون لاحراق خزانة السجلات لاجل احراق المستندات ، واحراق قصر العدل لاجل احراق خزانة السجلات ؛ وبالتالي لن يكون هناك حريق عام ١٦١٨ . والقصر القديم لا يزال منتصباً بقاعته الكبرى القديمة ؛

وأستطيع القول للقارىء : اذهب وشاهده، وهكذا سوف نتوزع نحن الاثنان، انا لأصفه كما هو ، والقارىء ليقرأ هذا الوصف . – وهذا ما يثبت تلك الحقيقة الجديدة : ان للحوادث العظيمة تتات لا تحصى .

صحيح انه سوف يكون ممكناً قبل كل شيء انه لم يكن لرافاياك شركاء ، ثم ان شركاءه ، ان كان له شركاء ، ليس لهم اي يد في حريق ١٦١٨ . ويوجد لذلك تفسيران قريبان جداً من المعقول . اولاً النجمة الكبرى الملتهبة ، بعرض قدم وارتفاع زراع ، والتي سقطت من السماء على القصر ، كما يعرف كل فرد ، في السابع من اذار بعد منتصف الليل . وثانياً رباعية تيوفيل :

بالتأكيد كانت لعبة كئيبة
حين اقدمت السيدة العدالة في باريس
على إشعال النار في القصر كله
لانها أكلت كثيراً من التوابل

مهما تضاربت الافكار في هذا التفسير المثلث السيامي والطبيعي والشعري لحريق قصر العدل عام ١٦١٨ فان ما يؤسف له هو ان الحادث اكيد ، انه الحريق . ويبقى اليوم شيء قليل جداً بفضل هـــذه الكارثة ، وعلى الخصوص بفضل الترميمات المتنوعة المتابعة التي قضت على ما وفرته الكارثة ، فقد ظل شيء قليل جداً من ذلك المسكن الاول لملوك فرنسا ، من ذلك القصر الذي هو الشقيق الاكبر لقصر اللوفر ، والذي كان هرماً من ايام فيليب لوبل حيث كان يُبحث فيه عن آثار الابنية البديعة التي شادها الملك روبير ووصفها هلغادوس. لقد اختفى كل شيء تقريباً . كيف اصبحت غرفة حامل الاختام التي اجرى فيها القديس لويس زواجه ؟.. والحديقة التي كان يقضي فيها بالعدل « مرتدياً صدرة" دون أكمام ومعطفاً وخفاً أسود ، وينام على الطنفسة مع جوانفيل ؟.. » اين غرفة الامبراطور سيجيسموند ؟ غرفة شارل الرابع ؟ وغرفة جان سان تير ؟ اين الدرج الذي اعلن شارل السادس من فوقه امر الرحمة ؟ والبلاطة التي ذَبح عليـــها مرسيل ، بحضور ولي العهد ، روبير دي كليرمون والمارشال

دي شامبانيه ؟ والكوة التي مزقت فيها مراسيم عدو البابا بنديكت وانطلق منها اولئك الذين حملوها، مرتدين ملابس الكرادلة والاساقفة من باب السخرية، معترفين بذنوبهم في كل باريس ؟ والقاعة الكبرى ، بذهبّاتها ولازوردها ، وقبابها ، وتماثيلها ، واعمدتها ، وقبتها الفسيحة المقطعة بالمحفورات ؟ والغرفة المذهبة ؟ والاسد الحجري الرابض على الباب ، منخفض الرأس والذيل بين الفخذين كأسود عرش سليمان ، في الوضع الذليل الذي يناسب القوة امام العدالة ؟ والابواب الجميلة ؟ والزجاجيات البديعة ؟ والحدائد المنقوشة التي اخمدت شجاعة بيسكورنيت ؟ وخشبيات دي هانسي الدقيقة ؟ ماذا فعل الزمن وماذا فعل الناس في هذه البدائع ؟ . . ماذا اعطونا لكل ذلك ، لكل هذا التاريخ الغالي – نسبة الى غاليا – ، لكل ذلك الفن القوطي ؟ . . اقواس السيد دي بروس الثقيلة المنخفضة ، ذلك المهندس المعماري الاخرق لبوابة سان جرفيه ، هذا فيما يتعلق بالفن ؛ اما في التاريخ فعندنا تذكارات العمود الكبير الثرثارة ، والتي لا تزال تدوي بثرثرات باتروس .

ليس هذا بالأمر الهام . – لنعد الى القاعة الكبرى الحقيقية للقصر القديم الحقيقي .

كان طرفا هذا المتوازي الاضلاع الضخم مشغولين ، واحد بالطاولة الرخامية الشهيرة ، الطاولة العريضة السميكة ، بحيث تقول الاوراق العقارية القديمة انه لا يُرى في نسق يثير شهية غرغنتيا قطعة رخامية مثلها في العالم ؛ والطرف الآخر تشغله الكنيسة التي حفر فيا تمثال للويس الحادي عشر وهو راكع امام العذراء حيث امر بنقل تمثالي شارلمان والقديس لويس ، القديسين اللذين كان يفترض ان لهما حظوة في السماء كملكين على فرنسا ، وذلك دون ان يهتم بترك مخدعين فارغين في صف التماثيل الملكية . وهذه الكنيسة التي لا تزال جديدة ، ولم يمض على بنائها ست سنوات ، كانت تلائم ذلك الذوق البديع للبناء الدقيق ، والحفر الفاخر ، والنقش الدقيق العميق الذي يشير عندنا الى نهاية العصر القوطي ويستمر حتى منتصف القرن السادس عشر في تخيلات عصر النهضة السحرية .

والرسم الوردي الصغير المثقوب فوق البوابة كان طرفة في الدقة والظرافة ، حتى ليقال انه نجمة من المخرمات (الدانتلا).

في وسط القاعة ، تجاه الباب الكبير ، يوجد منصة من البروكار المذهب مسندة الى الحائط ، صنع فيها مدخل خاص بواسطة نافذة رواق الغرفة المذهبة، ونصبت لاجل مبعوثي الفلاندر والاشخاص الكبار الآخرين المدعوين الى مشاهدة تمثيل مسرحية اللغز .

والمسرحية يجب ان تمثل على الطاولة الرخامية حسب العادة . وكانت قد جهزت لهذه الغاية منذ الصباح ؛ ولوحها الرخامي الثمين الذي خطته اعقاب رجال القانون سيحمل قفصاً مرتفعاً لهيكل بناء ، وسطحه الاعلى المعرض للانظار يستعمل كمسرح ، وداخله المغطى بالطنافس يقوم مقام غرفة ملابس لاشخاص المسرحية. وهناك سلّم موضوع في الخارج لتأمين الاتصال بين المسرح وغرفة الثياب ، وتستعمل درجاته الصلبة للدخول والخروج . ولم يكن هناك شخص متوقع ، ولا حادثة مؤثرة ، ولا ضربة مسرحية لم تكن معدّة للصعود على هذا السلّم . انها طفولة الفن والآلات ، بريئة ومحترمة .

وهناك اربعة عسكريين برتبة رقيب من قبل قاضي القصر ، وهم حراس مكلفون بكل مسرات الشعب ايام العيد وايام التنفيذ ، كانوا يقفون على زوايا الطاولة الرخامية الاربع .

وعلى المسرحية ان تبدأ حين تدق ساعة القصر الكبرى دقتها الثانية عشرة ظهراً ، ومما لا شك فيه ان هذا يعتبر تأخيراً بالنسبة للتمثيل المسرحي ؛ ولكن كان من الواجب مراعاة ساعة السفراء .

ان هذا الحشد الكبير كله كان ينتظر منذ الصباح . وكان عدد لا بأس به من اولئك الفضوليين البسطاء يرتجفون من البرد منذ الفجر امام درج القصر الكبير ، حتى ان بعضاً منهم اكدوا انهم قضوا الليل معترضين الباب الكبير ليكونوا اول الداخلين . كان الجمهور يتكاثف في كل لحظة ، وكالماء الذي يتجاوز مستواه ، بدأ يصعد على طول الجدران ، ويتعاظم حول الاعمدة ،

ويفيض على اعـالي الاسوار ، وعلى الافاريز ، وعلى مستندات النوافـذ وجميـع طنوف البناء ، وعلى جميـع نتوءات القصر . وكذلك الانزعاج ، وفراغ الصبر، والضجر، وحرية يوم من الوقاحة والجنون ، والمعارك التي تشتجر في كل مناسبة بسبب مرفق مروّس او حذاء محدد ، وتعب الانتظار الطويل ، كل هذا يعطي قبل الساعة التي يجب ان يصل فيها السفراء لهجةً شرسة لاذعة في ضوضاء هـذا الشعب المحصور ، المعلّب ، المضغوط ، المداس ، المختنق. لم يكن يسمع سوى الشكاوى واللعنات ضد مبعوثي الفلاندر ، ورئيس التجار ، والكاردينال دي بوربون ، وقاضي القصر ، ومدام مرغريت النمساوية ، والرقباء الحاملين العصي، والبرد ، والحر ، والطقس السيء ، واسقف باريس ، وبابا المجانين ، والاعمدة والتماثيل ، وذلك الباب المغلق ، وتلك النافذة المفتوحة ! وكان كل هذا موضع تسلية عظيمة لعصابة من الطلاب والخدم المنتشرين بين عـامة الشعب ، والذين كانوا يمزجون مناكدتهم وخبثهم بكل هذا الاستياء ، ويقرصون بدبابيسهم ، اذا صح القول المزاج العام السيء .

وتوجد بين هؤلاء فرقة من تلك الشياطين المرحة التي جلست على اعلى السور بعد ان حطمت زجاج احدى النوافذ ، واخذت من هناك ترسل نظراتها وسخرياتها دورياً الى الداخل والخارج ، الى جمهور القاعة وجمهور الساحة . ومن حركاتهم الساخرة ، وضحكاتهم المجلجلة ، والنداءات الهازئة التي كانوا يتبادلونها مع رفاقهم من طرف الى آخر في القاعة ، كان من السهل الحكم ان هؤلاء الخدم الفتيان لا يقاسمون ضجر وتعب الباقـــين من الحضور ، وانهم يعرفون جيداً ، للذتهم الخاصة ، ان يستخرجوا مما يرونه مشهداً يجعلهم ينتظرون المشهد الآخر بصبر .

وصرخ احدهم موجهاً كلامه الى شيطان صغير اشقر ، ذي وجه جميـــل وخبيث ، متعلق بتاج احد الاعمدة :

– اهذا انت يا جوان فرولو ! لقد اطلق عليك بحق اسم جهان دي مولان لأن ذراعيك وساقيك تشبه اربعة اجنحة منطلقة في الهـــواء . – منذ كم من الوقت انت هنا ؟..

فاجاب جوان فرولو :

– ورحمة الشيطان لقد مضى عليّ اكثر من اربع ساعات وآمل ان تحسم هذه الساعات من وقتي في المطهر . لقد سمعت مرتلي ملك صقلية الثانية وهم يترنمون بالمقطع الاول من قداس الساعة السابعة العالي في سان شابيل .

فاجاب الآخر :

– مرتلون جميلون يملكون صوتاً ذلقاً اكثر من قلنسوتهم ! لقد كان على الملك ، قبل إقامة قداس السيد القديس يوحنا ، ان يستعلم اذا كان يحب اللاتينية المرتلة بلهجة ريفية .

فصرخت بحدة امرأة هرمة بين الجمهور في اسفل النافذة :

– انه فعل ذلك ليستخدم اولئك الملاعين مرتلي ملك صقلية . انني اطلب منكم شيئاً قليلاً ! الف ليرة باريسية لأجل قداس ! وعلى مزروعة سمك بحري في أسواق باريس ايضاً !

فأجاب شخص ضخم وقور كان يسد انفه بالقرب من بائعة السمك :

– هدوءاً ايتها الهرمة ؛ كان من اللازم إقامة قداس . اتريدين ان يصاب الملك بالمرض ؟.

فصرخ الطالب الصغير المتعلق برأس العمود :

– لقد تكلم السيد جيل ليكورنو ، مجهز ملابس الملك بالفرو ، بكل شجاعة .

واستقبل الاسم المزعج للمسكين مجهز ملابس الملك بالفرو بضحكات رنانة اطلقها جميع الطلاب . وقال البعض .

– ليكورنو ! جيل ليكورنو !

وقال آخر : كورنولوس وهيرسولوس [١] .

وتابع الشيطان الصغير على رأس العمود :

– هيه ! لا شك في ذلك . ولكن ما بهم يضحكون ؟ الرجل الشريف

١ – عبارة لاتينية في الاصل معناها : الأقرن المشاكس .

جيل ليكورنو ، شقيق المعلم جهان ليكورنو القيم على قصر الملك ، وابن المعلم ماهيه ليكورنو اول ساع في غاب فانسين ، جميعهم بورجوازيون من باريس ، والكل متزوجون من الأب حتى الابن !..

وتضاعف المرح . وحاول الفرّاء الزيغان عن الانظار الموجهة اليه من جميع الجهات دون ان يجيب بكلمة ؛ ولكنه كان يرشح عرقاً وينفخ على غير طائل : كاسفين ينغرز في الخشب، لم ينتج من الجهود التي بذلها سوى ان وجهه الارجواني من الغم والغضب قد حُصر بين اكتاف جيرانه .

واخيراً جاء لنجدته احد هؤلاء الجيران ، وهو ضخم ، قصير ، ومحترم مثله اذ قال :

– يا للسفاهة ! اطلاب يقولون كلاماً كهذا لبورجوازي ! في ايامي كانوا يُجلدون بحزمة من القضبان ثم يُحرقون بعد ذلك .

وانفجرت العصابة كلها بالضحك .

– هولا ! من هو الذي لفظ هذا التوبيخ ؟.. من هو هـــذا الهر الذي يموء بالشقاء ؟

وقال أحدهم : لقد عرفته ؛ انه المعلم اندريه مونيه .

وقال الآخر : لانه احد اصحاب المكتبات الاربعة المحلفين من قبل الجامعة.

وصرخ ثالث : في هذه الدكان كل شيء مؤلف من اربعة : الامم الاربع[1] الكليات الاربع ، الاعيـاد الاربعة ، الوكلاء الاربعة ، المنتخبون الاربعة ، اصحاب المكتبات الاربعة .

واجاب جان فرولو : يجب ان نوقف لهم الشيطان على اربعة .

– مونيه ، سنحرق كتبك .

– مونيه ، سنضرب خادمك .

– مونيه ، سنُحزن امرأتك .

---

١ – كان الطلاب موزعين بين اربعة انواع من « المجامـــع » : فرنسا ، بيكارديا ، نورمانديا ، المانيا ، وكانت تعد كجمعيات ، واخويات ، ومؤسسات ادارية معاً .

- الآنسة أودارد الطيبة الضخمة .
- التي لا تزال ناضرة ومرحة كأنها ارملة .
ودمدم المعلم اندريه مونيه :
- ليأخذكم الشيطان .
واجاب جهان الذي لا يزال معلقاً برأس العمود :
- اسكت يا معلم اندريه والا سقطت على رأسك !

فرفع المعلم اندريه عينيه وبدا للحظةٍ كأنه يقيس ارتفاع العمود ومقدار ثقل ذلك المداعب الحقير ، وضرب ذهنياً هذا الثقل بربع السرعة ، وصمت .

اما جهان فقد تابع بانتصار وقد اصبح سيد المعركة :
- هذا لانني سأفعل ذلك بالرغم من انني شقيق احد الكهنة .
- ايها السادة ، على جماعتنا في الجامعة الا يكتفوا باحترام امتيازاتنا في يوم كهذا ! هناك ايار ونار الفرح في المدينة ؛ وهنـاك مسرحية اللغز وبابا المجانين وسفراء الفلاندر في الحي ؛ اما في الجامعة فلا شيء !

واجاب احد الكهنة المحتلين قاعدة النافذة :
- مع القول ان ساحة موبير فسيحة بما فيه الكفاية .
وصرخ جوان : ليسقط عميد الجامعة ، والناخبون ، والوكلاء !
وتابع الآخر :
- يجب اقامة نار الفرح هذا المساء في حقل غايار بكتب المعلم اندريه .
فقال جاره : وبقماطر الكتبة !
- وبعصي خدم الكنائس !..
- وبمتافل الشيوخ !..
- وبمقاصف الوكلاء !.
- وبمعاجن الناخبين !.
- ودرج عميد الجامعة !..
وتابع جهان الصغير كأنه يرتل :

– ليسقط المعلم اندريه وخدم الكنائس والكتبة ؛ واللاهوتيون والاطباء ومصدرو الاوامر ؛ والوكلاء والناخبون وعميد الجامعة !

فتمتم المعلم اندريه وهو يسد اذنيه :

– اذن فهي نهاية العالم !

وصرخ احد الواقفين في النافذة :

– اما فيما يختص بعميد الجامعة فها هو يمر في الساحة .

وكانت هذه العبارة موجهة لمن يلتفت نحو الساحة .

وسأل جهان فرولو دي مولان الذي كان متعلقاً بعمود في الداخـــل ولا يستطيع رؤية ما يجري في الخارج :

– احقيقةٌ هو عميدنا المحترم السيد تيبو ؟..

فأجاب الآخرون كلهم :

– نعم ، نعم ، انه هو ، تماماً هو السيد تيبو عميد الجامعة .

وبالفعل فقد كان هو العميد ومعه جميع اصحاب المقامات في الجامعة الذين كانوا يأتون بموكب جليل الى امام السفارة وفي ، هذه اللحظة كانوا يجتازون ساحة القصر . اما الطلاب المزدحمون في النافذة فقد استقبلوهم بالسخرية والتصفيق الهازىء عند مرورهم . واما العميد الذي كان يسير على رأس فرقته فقد مسح اول وابل ؛ وكان هذا الوابل شديداً .

– عم صباحاً ايها السيد العميد ؛ هولاهيه ! صباح الخير !

– كيف حدث ان جاء المقامر القديم الى هنا ؟.. اذن فقد ترك زهره[1] ؟

– انظروا كيف يخب على بغلته ، اذناها اقصر من اذنيه .

– هولاهيه !.. عم صباحاً ايها العميد تيبو !.. ايها الابله الهرم ! والمقامر القـــديم !

– ليحرسك الله ! هل رافقك الحظ هذه الليلة ؟

---

١ – المقصود به زهر النرد .

– اوه ! يا للوجه الهرم ، الكامد ، المنهوك ، المحطم في سبيل حب القمار والزهـــر !

– الى اين تسير هكذا يا تيبو صاحب الزهر ، مديراً ظهرك للجامعة وانت تخب نحو المدينة ؟

وصرخ جهان دي مولان :

– لا شك في انه يسير باحثاً عن مسكن في شارع تيبوتوديه.

ورددت العصابة كلها هذه المزحة الجناسية بصوت راعد وتصفيق مهتاج .

– اذن انت ذاهب لتبحث عن مسكن في شارع تيبوتوديه اليس كذلك ايها السيد العميد ؟ ايها المقامر من فريق الشيطان ؟

ثم جاء دور اصحاب المقامات الآخرين .

– ليسقط خدم الكنائس ! ليسقط حجاب الكلية !

– قل يا روبين بوسيبان ، من هو ذاك ؟

– انه جيلبر دي سويلي حافظ الختم في كلية اوتان ...

– خذ حذائي : لقد ُوضعتَ في مركزٍ افضل من مركزي : اقذفه في وجهـــه .

– ليسقط اللاهوتيون ؟.. كنت اعتقد ان هؤلاء هم الأوزّات البيض الست اللواتي قدمتهن القديسة جنفياف الى المدينة في سبيل اقطاعة روني Roogny .

– ليسقط الاطباء !

– لتسقط المجادلات الكردينالية .

– لك قلنسوتي يا حافظ ختم القديسة جنفياف ! لقد منحتني امتيازاً . – وهذا صحيح ! فقد اعطى مكاني في الامـة النورماندية الى اسكانيو فلزاسبادا الصغير الذي هو من مقاطعة بورج ، لانه ايطالي .

فقال الطلبة كلهم :

– هذا ظلم ليسقط حامل ختم القديسة جنفياف !

– هو هيه ! المعـــلم جواشيم دي لا ديهور ! هو هيه ! لويس داويل !

هو هيه ! لامبير هوكتان !

– ليختنق الشيطان وكيل الامة الالمانية !

– وكهنة سان شابيل وبطرشيلاتهم الشهباء !

– وقمصانهم الشهباء !

– هولاهيه ! والاساتذة في الفنون ! وجميع الملابس السوداء الجميلة ! وكل الملابس الحمراء الجميلة !

– هذا يشكل ذيلاً جميلاً للعميد .

– حتى ليقال انه دوق البندقية يسير الى عرس البحر .

– انتبه يا جهان ! ها هم كهنة القديسة جنفياف !

– ليأخذ الكهنوت الشيطان !

– ايها الاب كلود شورت ! ايها الدكتور كلود شورت ! هل تبحث عن ماري لاجيفارد ؟

– انها في شارع غلاتيني .

– وهي تصلح سرير ملك الفسّاق .

– وتدفع دراهمها الاربعة .

– اتريد ان تدفع لك امام عينيك ؟

– ايها الرفاق ! المعلم سيمون سانغان ناخب بيكارديا وقد اردف زوجته وراءه .

– الفارس يردف وراءه الهم الاسود .

– عظيم يا سيد سيمون !

– عم صباحاً ايها الناخب !

– ليلة سعيدة ايتها السيدة الناخبة !

وقال جوان دي مولندينو متأوهاً وهو لا يزال متعمشقاً بين اوراق تاج عموده :

– انهم سعداء برؤية كل ذلك .

اما صاحب مكتبة الجامعة المحلف ، المعلم اندريه مونيه ، فقد انحنى على اذن فرّاء الملك المعلم جيل ليكورنو وقال :

– الحق اقول لك ايها السيد ، انها نهاية العالم . لم يحدث ابداً ان ظهر فجور الوسط الطلابي بهذا الشكل . انها ابتكارات العصر الملعونة التي تقضي على كل شيء . المدفعية ، والسربنتين [1] والمنجنيقات ، وخصوصاً الطباعة ذلك الطاعون الالماني الآخر . كثير من المخطوطات ، كثير من الكتب! ان الطباعة تقتل المكتبة . لقد جاءت نهاية العالم .

وقال الفرّاء :

– اني اشعر بتقدم الاقمشه المخملية .

في هذه الساعة دقت الساعة معلنة وقت الظهر .

وصرخ الجمهور كله بصوت واحد : ها !

وسكت التلامذة ، ثم حدثت حركة نقل أثاث كبيرة ، وحركة كبيرة بالاقدام والرؤوس ، ودوي عظيم عام من السعال والمناديل ؛ واصلح كل فرد شأنه ، واستقر ، وارتفع ، وتجمع ؛ ثم ساد صمت طويل ، وظلت الاعناق كلها متلعة ، والافواه مفتوحة ، والانظار كلها ملتفتة نحو الطاولة الرخامية . ولم يظهر شيء عليها . وكان رقباء قاضي القصر الاربعة لا يزالون في اماكنهم ، ثابتين جامدين كأربعة تماثيل مرسومة . وكل العيون تلتفت نحو المنصة المحفوظة لمبعوثي الفلاندر . وظل الباب مغلقــاً ، والمنصة فارغة . كان الجمهور ينتظر ثلاثة اشياء منذ الصباح : وقت الظهر ، وسفارة الفلاندر ، ومسرحية اللغز . ولكن الظهر وحده حل في الوقت المعين .

كانت الضربة قوية .

وامتد الانتظار دقيقة ، اثنتين ، ثلاثاً ، خمس دقائق ، ربع ساعة ، ولم يأت احد . وظلت المنصة مقفرة ، والمسرح صامت . وجاء الغضب بعد فراغ الصبر ، وابتدأت الاقوال المهتاجة تدور بصوت منخفض ، وهذا صحيح .

---

١ – نوع قديم من المدافع .

اللغز !.. اللغز !.. هكذا كانوا يتمتمون . واختمرت الرؤوس. والعاصفة التي لم يبد منها حتى الآن سوى الزمجرة اخذت تطوف على مستوى هذا الجمهور . وكان جهان دي مولان هو الذي استخرج منها الشرارة الاولى ، اذ صرخ بكل ما في رئتيه من قوة وهو يلتف كالافعى حول عموده :

– مسرحية اللغز وليذهب الفلاندريون الى الشيطان !

وصفق الجمهور بالأكف واخذ يردد :

– اللغز ، ولتذهب الفلاندر الى كل الشياطين !

وتابع الطالب :

– نريد اللغز حالاً ، وإلا فمن رأيي ان نشنق قاضي القصر عوضاً عن المهزلة والاخلاق .

وصرخ الشعب :

– كلام جميل ، ولنبدأ بشنق رقبائه .

وتلا ذلك هتاف عظيم . وبدأ لون المساكين الاربعة يشحب ، واخذوا يتطلعون الى بعضهم البعض . وتحرك الجمهور نحوهم وعندئذٍ رأوا الحاجز الخشبي الهش الذي يفصلهم عنه ينطوي ويقع تحت ضغط الجمهور .

وكانت اللحظة حرجة .

وجاء الصراخ من جميع النواحي :

– الى النهب ! الى النهب !

وارتفعت في تلك اللحظة طنفسة غرفة الملابس التي وصفناها سابقاً وفسحت ممراً لشخص كان مرآه كافياً لإيقاف الجمهور الذي تحول غضبه الى فضول ، كأن ذلك بفعل السحر .

– الصمت ! الصمت !

لم يكن ذلك الشخص رابط الجأش بل كان يرتجف بكل اعضائه ، وقد تقدم حتى حافة الطاولة الرخامية بكثير من الاحترام الذي كان يشبه السجود كلما زاد اقترابه . وقال :

– ايها السادة البورجوازيون والآنسات البورجوازيات ، يشرفنا ان نلقي وتمثل امام نيافة الكردينال مسرحية اخلاقية جميلة اسمها : « الحكم الصالح للسيدة العذراء مريم ». وانا امثل دور جوبتير . وصاحب النيافة يوافق في هذه اللحظة سفـــارة الدوق دوتريش العظيمة الشرف ، والتي تقف في هذه الساعة لتستمع الى خطاب السيد عميد الجامعة على باب بوديه . وسنبدأ حالما يصل نيافة الكاردينال .

ومن المؤكد انه لم يكن يلزم اقل من تدخل جوبتير لإنقاذ رقبـاء قاضي القصر البؤساء الاربعة . ولو كان من حسن حظنـــا ان نخترع هذه الحكاية الحقيقية وبالنتيجة نكون مسؤولين عنها امام النقد ، فلا يمكن الاستشهاد ضدنا بالقاعدة الكلاسيكية : « لا يتدخلنّ اي إله [1] ». والنتيجة فان ملابس السيد جوبتير كانت جميلة ولم تكن مساهمتها قليلة في تهدئة الجمهور باجتذاب كل انتباهه . كان جوبتير يرتدي رداءً قصيراً من الزرد مغطى بالمخمل الاسود وذا مسامير مذهبة ؛ ويعتمر قبعة صغيرة مزينة بأزرار فضية مذهبة ؛ ولم يكن الاحمر واللحيـــة الكبيرة اللذان يغطي كل منها نصف وجهه ، ولم تكن لفّة الكرتون المذهّب المبذورة بسيور من الصفيح الساطع والتي يحملها بيده وتتعرف فيها العيون المتمرسة بسهولة على الصاعقة ، ولم تكن قدمـاه التي بلون اللحم والمحاطة بشرائط على الطريقة الاغريقية ، فقد استطاع احتمال المقارنة ، بسبب قساوة هيئته ، بنبّال بريتوني بجسم السيد دي بيرّي Berry .

---

١ – عبارة لاتينية في الاصل .

٢

يار غرنغـــوار

ان السرور والاعجاب اللذين أثارتهما ملابسه حين كان يخطب قــد تبددا بسبب اقواله ؛ وحين وصل الى هذه النتيجة السيئة : « سنبدأ عندمـــا يصل صاحب النيافة » ضاع صوته بين رعود من الصراخ الساخر . وصاح الشعب :

– ابدأوا حالاً ! اللغز حالاً !

وارتفع فوق جميع الاصوات صوت جهان دي مولاندينو الذي كان يخرق الضجيج كالمزمار في موسيقى نيم المتنافرة الالحان .

وصرخ الطالب بصوت حاد : ابدأوا حالاً !

وهتف روبين بوسيبان والمستخدمون الجاثمون في النافذة :

– ليسقط جوبتير والكاردينال دي بوربون .

وردد الجمهور :

– الموعظة حالاً ! في التو واللحظة ! حـــالاً ! الموت للممثلين الهزليين والكاردينال !

وجوبتير المسكين ، الشارد البصر ، المشدوه ، الشاحب تحت طيلسانه الاحمر ، اسقط صاعقته ، واخذ قبعته الصغيرة بيده ؛ ثم حيا الجمهور وارتجف متمتماً :

– صاحب النيافة ... السفراء ... مدام مرغريت دي فلاندر ...

لم يكن يعرف ماذا يقول . كان في اعماقه يخاف ان يُشنق .

يشنقه الدهماء بسبب الانتظار ، يشنقه الكاردينال لانه لم ينتظر ، لم يكن يرى من الناحيتين سوى هاوية ، اي مشنقة .

ولحسن الحظ جاء من ينتشله من الورطة ويتحمل المسؤولية . فقد كان هناك شخص يقف من ناحية الحاجز (الدرابزين) في الفسحة الفارغة حول الطاولة الرخامية ، ولم يكن قد شاهده احد بعد ، لأن شخصه الطويل النحيف كان بمعزل عن كل شعاع نظري بواسطة قطر العمود المستند اليه ، وهذا الشخص ، كما قلنا ، كبير ، هزيل ، شاحب اشقر ، لا يزال شاباً مع ان الغضون تكسو جبهته وخديه ، بعينين لامعتين ، وفم مبتسم ، يرتدي مسوحاً سوداء رثة ، لامعة من القدم ؛ وقد اقترب من الطاولة الرخامية واشار الى المسكين المحكوم بالموت ، ولكن الآخر ، المحجوز عليه لم يكن يرى .

وتقدم القادم الجديد خطوة الى الامام وقال :

– جوبتير ، يا عزيزي جوبتير !..

ولم يسمع الآخر . واخيراً فرغ صبر الاشقر الكبير وصرخ في وجهه :

– ميشال جيبورن !..

فقال جوبتير كمن استيقظ مرتجفاً :

– من يناديني ؟..

فاجاب الشخص الذي يرتدي الملابس السوداء : انا .

وهتف جوبتير : آه !

فقال الآخر :

– ابدأ حالاً ، إرضِ الشعب وانا أتكفل بارضاء قيّم القصر الذي سيطيّب بدوره خاطر الكاردينال .

فتنفس جوبتير الصعداء ، وصرخ بكل ما في رئتيه من قوة في الجمهور الذي ما زال يوالي صراخه :

– ايها السادة البورجوازيون ، سنبدأ حالاً .

وصرخ الطلاب : برافو جوبتير . صفقوا ايها المواطنون !

وصاح الشعب : نويل ! نويل !

وجرى تصفيق حاد ، وكان جوبتير قد دخل وراء طنفسة بينما كانت القاعة لا تزال تدوي بالهتاف .

ثم ان الشخص المجهول الذي حول « العاصفة الى هدوء » بشكل يشبه السحر كما يقول صديقنا العزيز القديم كورناي ، دخل بتواضع في ظل عموده ، وكان سيبقى هناك دون شك بعيداً عن الانظار ، جامداً وصامتاً كما في السابق لو لم تسحبه من هناك فتاتان تجلسان في الصف الاول من المشاهدين ، وكانتا قد لاحظتا حديثه مع ميشال جيبورن - جوبتير - وقالت احداهن مشيرة اليه ان يقترب : يا معلم [١] .

فقالت جارتها ، وهي جميلة ناضرة وشجاعة ، ترتدي ثياب الأحد :

– اسكتي يا عزيزتي ليينارد ، انه ليس اكليركياً بل علماني ولا يجب ان تقولي له « معلم » بل سيد Messire .

فقالت ليينارد : يا سيد !

فاقترب المجهول من الحاجز وسأل بجرارة :

– ماذا تريدان مني يا آنستي ?

فقالت ليينارد مضطربة : اوه ! لا شيء ، ان جارتي جيسكيت لاجانسيين هي التي تريد ان تكلمك .

فأجابت جيسكيت وقد احمرت خجلاً : كلا ، ان ليينارد هي التي قالت لك : يا معلم ! فقلت لها انه يقال : ياسيد .

وخفضت الفتاتان عيونهن . اما هو الذي لا يطلب افضل من ان يعقد حديثاً فقد نظر اليها مبتسماً وقال :

---

١ – لم نجد افضل منها لترجمة كلمة Maitre مع القول انه ليس المقصود المعلم بالمعنى المدرسي ، بل هو لقب كان يطلق في القرن السابع والثامن عشر على افراد الطبقة البورجوازية . واينما وردت هذه الكلمة في الرواية فبهذا المعنى .

– المعرب –

– أليس عندكما ما تقولانه لي يا آنستيّ ؟
فأجابت جيسكيت : اوه !... لا شيء ابداً .
وقالت ليناردو : لا شيء .
وقام الرجل بخطوة لينسحب ، ولكن الفضوليتين كانتا غـير راغبتين في إفلاته ، فقالت جيسكيت بحرارة ، وباندفاع سدّ قد فتح او امرأة متحزبة :
– ايها السيد . اتعرف ذلك الجندي الذي سيمثل دور السيدة العـذراء في اللغز ؟
فأجاب المجهول : تريدين ان تقولي دور جوبتير ؟
فقالت ليناردو : هيه ! نعم، هل هي حمقاء ؟ اذن فأنت تعرف جوبتير ؟
فأجاب المجهول : ميشال جيبورن ؟ نعم يا سيدتي .
فقالت ليناردو : انه ذو لحية فخور !
وسألت جيسكيت بخفر : هل سيقولون شيئاً جميلاً هناك ؟..
فأجاب المجهول دون تردد : جميل جداً يا آنسة .
وقالت ليناردو : وما سيكون ذلك ؟..
– حكم السيدة العذراء الصالح، مسرحية اخلاقية، اذا ارضاك ذلك يا آنستي.
فأجابت ليناردو : آه ! هذا يختلف.
وساد صمت قصير قطعه المجهول قائلاً :
– انها مسرحية اخلاقية جديدة لم تمثّل بعد .
فقالت جيسكيت : اذن ليست هي نفس المسرحية التي مثلت منذ سنتين يوم دخول السيد القاصد الرسولي ، وحيث كان هناك ثلاث فتيـات جميلات ممثلات في المسرحية ...
فقالت ليناردو : جنّيات !..
واضاف الشاب : وعاريات تماماً .
فخفضت ليناردو عينيها حياءً وتطلعت اليها جيسكيت وفعلت مثلهـا ، فتابع مبتسماً :

– هذا شيء رؤيته تسر . اما مسرحية اليوم فأخلاقية كتبت خصوصاً لأجل الآنسة دي فلاندر .

وسألت جيسكيت : هل ستنشد فيها اغاني الرعاة ؟..

فقال المجهول : اف ! يجب الا تمزج الانواع في مسرحية اخلاقية . اما اذا كانت من مسرحيات الجنون (١) فلا بأس .

وقالت جيسكيت : انه امر يدعو للأسف . فقد كان في ذلك النهار رجال ونساء متوحشون على نبع بونسو يتقاتلون ويقومون بعدة اعمال ويغنون اغاني دينية واغاني رعاة .

فأجاب المجهول بنشوفة : ان ما يصلح للقاصد الرسولي لا يصلح لأميرة .

وتابعت ليينارد : وكانت تتصارع بالقرب منهم عدة آلات بدائية تعزف الانغام الكبرى .

وتابعت جيسكيت : ولاجل انعاش المارة كان النبع يقذف الخمر والحليب والنبيذ المحلّى من ثلاثة افواه ، يشرب منه من يريد .

وتابعت ليينارد : وتحت نبع بونسو بقليل ، في محلة الثالوث الاقدس ، كانت هناك آلام يمثلها اشخاص بدون كلام .

وهتفت جيسكيت : اذا صدقت ذاكرتي كان الرب على الصليب واللصان على اليمين والشمال !

وهنا نشطت المرأتان لذكرى دخول القاصد الرسولي فأخذتا تتكلمان معاً ؛

– وقبل ذلك ، على جسر الرسامين ، كان هناك اشخاص آخرون يرتدون ملابس ثمينة .

– وعلى نبع سان إينوسان ، ذلك الصياد الذي كان يلاحق وعلاً مع جلبة الكلاب وابواق الصيد !

– وفي مسلخ باريس تلك المقاصل التي تمثل حصن ديبب !

– وحين مر القاصد الرسولي ، وانت تعرفين يا جيسكيت ، حصلت غارة

١ – نوع مسرحي من القرنين الرابع والخامس عشر جميع اشخاصه من المجانين .

واصبحت اعناق الانكليز كلها مقطوعة .

– وامام باب شاتليه كان يوجد اشخاص في منتهى الجمال !

– وعلى جسر او – شانج الذي كان ممدوداً فوق !

– وحين مر القاصد الرسولي جرى تطيير اكثر من مائتي دزينة من جميع انواع الطيور على الجسر . لقد كان هذا جميلاً جداً ياليينارد .

واخيراً تناول الكلام محدثها الذي بدا انه يستمع اليها بملل :

– سيكون اليوم اجمل من ذلك .

فقالت جيسكيت : أتعدنا ان مسرحية اللغز هذه ستكون جميلة ؟

فأجاب : دون شك .

ثم اضاف بشيء من التفخيم : يا آنستي ، انني المؤلف .

– احقيقة ؟..

هكذا اجابت الفتاتان مبهورتين .

واجاب الشاعر بشيء من الغطرسة :

– حقيقة !.. اي اننا اثنان : جهان مارشان الذي نشر الاخشاب واقام هيكل المسرح وجميع التجهيزات الخشبية ، وانا كتبت المسرحية . اني ادعى بيار غرنغوار .

ولم يكن بامكان مؤلف مسرحية « السيد » ان يقول بكبرياء اكثر : انا بيار كورناي .

يستطيع قراؤنا ان يلاحظوا ان بعضاً من الوقت قد مرّ منذ ما دخل جوبتير وراء الطنفسة الى اللحظة التي كشف فيها مؤلف المسرحية الاخلاقية الجديدة عن نفسه هكذا فجأةً امام اعجاب جيسكيت وليينارد الساذج . وهناك شيء جدير بالملاحظة : ان هذا الجمهور كله الذي كان صاخباً منذ بضع دقائق اصبح ينتظر الآن بتؤدة معتمداً على وفاء الممثل الهزلي ، الامر الذي يثبت تلك الحقيقة الخالدة التي نشعر بها في مسارحنا كل يوم ، والقائلة ان افضل وسيلة

لنجعل الجمهور ينتظر دون ملل هي ان نؤكد له ان المسرحية ستبدأ حالاً .

ولكن الطالب جوان لم يكن نائمـــاً ، اذ صرخ فجأة وسط ذلك الانتظار الهادىء الذي تلا الاضطراب :

– هولاهيه!.. جوبتير، السيدة العذراء ، بمخرقو الشيطان ! أتسخرون؟.. المسرحية ! المسرحية ! ابدأوا او نبدأ ..

ولم يكن الامر يحتاج اكثر من ذلك .

وسمعت من داخل الصقالات المنصوبة موسيقى صادرة عن آلات راقيـــة وبدائية ؛ وارتفعت الطنفسة ، وخرج اربعة اشخاص مبرقشين مخضبين، وتسلقوا سلّم المسرح المتين ووصلوا الى السطح الاعلى ووقفوا صفاً واحداً امام الجمهور وحيوه تحية عميقة ، وحينئذٍ صمتت السمفونية . لقد بدأت مسرحية اللغز .

وبعد ان قبض الاشخاص الاربعة بسخاء ثمن احترامانهم من التصفيق ، شرعوا ، وسط سكوت ديني ، بتمهيد للرواية نقوم به عن طيبة خاطر بفضل القارىء . والخلاصة ، ان ما زال يحدث في ايامنا هو ان الجمهور يهتم بالملابس التي يرتدونها اكثر من اهتمامه بالدور التمثيلي الذي يلقونه ؛ وهـــذا كان عدلاً بالحقيقة . كان الاربعة يرتدون اثواباً صفراء وبيضاء لا تتميز فيما بينها إلا بطبيعة القماش . كان الاول من البروكار ، ذهباً وفضة ؛ والثاني من الحرير ، والثالث من الصوف ، والرابـع من الكتان . وكان اول الاشخاص يحمل في اليد اليمنى سيفاً ، والثاني مفتاحين من ذهب ، والثالث ميزاناً ، والرابـع رفشاً ؛ ولمساعدة العقول الكسولة التي لم تكن ترى بوضوح خلال شفافية هذه الخصائص ، فقـد كان بالامكان القراءة بحروف كبيرة سوداء مطرزة : في اسفل ثوب البروكار « انا ادعى طبقة النبلاء » ؛ وفي اسفل الثوب الحريري : « انا ادعى طبقـــة الاكليروس » ؛ وفي اسفل الثوب الصوفي : « انا ادعى التجارة » ؛ وفي اسفل الثوب الكتاني : « انا ادعى الزراعـــة » ؛ وكان المتفرج الحصيف يستدل على جنس الرمزين الدالين على الذكور بواسطة اثوابها القصيرة وبالقبعة التي يعتمرانها

بينما الرمزان الدالان على الاناث فقد كانت ملابسهما اقل قصراً وكانا يعتمران قبعة صغيرة .

كان يلزمنا الكثير من الارادة السيئة لكي لا ندرك ، من خلال القصيدة التمهيدية ، ان « الزراعة » متزوجة من « التجارة » وان طبقة الاكليروس متزوجة من طبقة النبلاء ، وان الزوجين السعيدين كانا يملكان بصورة مشتركة دلفيناً ذهبياً ويزعمان انهما لن يخصّا به إلا اجمل النساء . اذن فقد كانا يسيران بين الناس يفتشان ويبحثان عن هذا الجمال . وبعد ان رفضا بالتتابع ملكة غولكوند واميرة طرابزوند وابنة الخان الاكبر لملكة التتار ، الخ.. فان الزراعة والاكليروس وطبقة النبلاء والتجارة كانوا قد جاءوا يرتاحون على منضدة قصر العدل الرخامية ويلقون على الحضور الفضلاء كثيراً من الامثال والحكم التي كانوا ينفقونها آنذاك في كلية الفنون أثناء الامتحانات ، ومن السفسطات والاقوال المأثورة والصور والاعمال التي ينال الاساتذة من جرائها قبعاتهم الخاصة بالشهادة الجامعية .

بالفعل ، لقد كان كل هذا جميلاً .

ومع ذلك ، ففي هذا الجمهور الذي كانت الرموز الاربعة تسكب عليه امواجاً من الاستعارات الكلامية لم يكن هناك اذن اكثر انتباهاً ، ولا قلب اكثر خفقاناً ، ولا عين اكثر شروداً ، ولا عنق اكثر امتداداً من عين واذن وعنق وقلب المؤلف والشاعر ، بيار غرنغوار الشجاع الذي لم يكن يستطيع ، في اللحظة السابقة ، مقاومة السرور في ذكر اسمه للفتاتين الجميلتين . كان قد عاد الى خلف عموده ، على بعد بضع خطوات منها ، وهناك كان يصيخ السمع ، وينظر ، ويتذوق . والتصفيق اللطيف الذي تلقاه في بدء خطابه التمهيدي لا يزال يدوي في احشائه . كان مستغرقاً تماماً في هذا النوع من التأمل الذهولي حيث يرى المؤلف افكاره تتساقط واحدة واحدة من فم الممثل في صمت المشاهدين الكثر . ما أجدر بيار غرنغوار !. .

ان الامر يقضي ان نقول ذلك . ولكن هذا الذهول الاول قد تعكر

بسرعة. فما كاد غرنغوار يقرب شفتيه من تلك الكأس المسكرة بالسرور والنصر حتى جاءت قطرة من الغم تمتزج بها .

فقد كان هناك متسول رث الثياب لم يستطع تحصيل شيء ، ضائع في وسط الجمهور ، ومما لا شك فيه انه لم يجد تعويضاً كافياً في جيوب جيرانه ، فقرر ان يجلس في مكان يكون فيه قبلة الناظرين ليستجلب الانظار والصدقات . واثناء الابيات الاولى من القصيدة التمهيدية ، وبمساعدة اعمدة المنصة المحفوظة ، تسلق حتى الافريز المحيط بالحاجز (الدرابزين) في قسمه الاسفل ، وهناك جلس متطلباً الانتباه والشفقة من الجمهور بواسطة اسماله وبواسطة جرح فظيع يغطي ذراعه الايمن . ولم يلفظ اية كلمة .

وصمته هذا جعل الخطاب التمهيدي يسير دون عائق ، ولم يكن ليحدث اي إخلال بالنظام لو لم يكن سوء الحظ قد شاء ان يرى الطالب جوان من فوق عموده ذلك الشحاذ ورياءه . اذ انطلقت ضحكة مجنونة من الشيطان الصغير الذي صرخ بانشراح دون ان يهتم بمقاطعة المشهد وبعث الاضطراب في ذلك الانتباه العام :

– انظروا هذا المريض الذي يطلب إحساناً !

كل من القى حجراً في مستنقع مليء بالضفادع او اطلق طلقة من بندقيته في سرب من الطيور يستطيع تكوين فكرة عن الاثر الذي احدثته هذه الكلمات الماجنة وسط الانتباه العام . لقد ارتجف غرنغوار كمن اصابته هزة كهربائية. وبقي الخطاب التمهيدي قصيراً ، والتفتت جميع الرؤوس بجلبة نحو المتسول الذي رأى ، دون دهشة ، في هذا الحادث فرصة مناسبة للحصاد . فبدأ يقول بهيئة المنتحب ، مغلقاً عينيه نصف إغلاقة :

– حسنة لله ، من فضلكم !

وقال جوان :

– إيه ! ولكن ، اقسم انه كلوبان ترويفو . هولاهيه ! ايها الصديق ، لقد كان جرحك يؤلمك في ساقك ، وها قد وضعته على ذراعك .

قال ذلك وقذف بمهارة القرد قطعة طبشور صغيرة في اللبادة القذرة التي كان المتسول يمد بها ذراعه المريض . وتلقى هذه الحسنة والسخرية دون ان يحرك ساكناً ، وتابع بلهجة تستدر الشفقة : حسنة لله ، من فضلكم !

ان هذا الحادث العارض ألهى الحاضرين بشكل ملحوظ ، وكان عدد كبير من المشاهدين ، وروبين بوسيبان والاكليركيون كلهم على رأس الجميع يصفقون بمرح لهذا الثنائي الغريب الذي ارتجله ، اثناء الخطاب التمهيدي ، ذلك الطالب بصوته الصارخ والمتسول بترتيله الهادىء .

وكان غرنغوار شديد الاستياء ، وقد افاق من وهلته الاولى وبذل جهده وهو يصرخ في الاشخاص الاربعة على المسرح : – اكملوا ! بحق الشيطان ، اكملوا ! – دون ان يكلف نفسه إلقاء نظرة ازدراء على الاثنين المقاطعين .

الا انه شعر في هذه اللحظة ان هناك من يشده بطرف ثوبه الخارجي ؛ فالتفت بشيء من العصبية ، وبذل كثيراً من الجهد ليبتسم . وكان ذلك ضرورياً. انها يد جيسكيت لاجانسين الجميلة التي تطلبت انتباهه بهذه الطريقة بعد ان مرّت من خلال الحاجز . وقالت الفتاة :

– هل سيكملون ايها السيد ؟

فأجاب غرنغوار وقد صدمه السؤال : دون شك.

فقالت : في هذه الحالة هل تتلطف ايها السيد وتوضح لي ...

فقاطعها غرنغوار : ما سوف يقولون ؟ اصغي .

فقالت جيسكيت : كلا ، بل ما قالوه حتى الآن.

فارتجف غرنغوار كرجل مس جرحه . وقال بينه وبين نفسه :

– الطاعون للفتاة الحمقاء التي لا تفهم .

واختفت جيسكيت من تفكيره منذ هذه اللحظة .

واطاع الممثلون امره . ورأى الجمهور انهم عادوا الى الكلام فعاد الى الاصغاء ، ليس بدون اضاعة الكثير من الجمال في نوع من اللحام بين قسمي

المسرحية التي قطعت فجأة . وقد ابدى غرنغوار هذه الملاحظة المرة بصوت منخفض ، وساد الاطمئنان شيئاً فشيئاً ، وصمت الطالب ، وكان المتسول يحصي بعض القطع النقدية في قبعته ، واستعادت المسرحية سيرها .

كانت بالفعل عملاً قوياً جميلاً بحيث يبدو لنا ان بالامكان الاستفادة منها في هذه الايام شرط اجراء بعض التنسيقات . كان العرض طويلاً وفارغاً نوعـاً ، اي انه كان بسيطاً حسب القواعـد ، وغرنغوار في قرارة نفسه كان معجباً بوضوحه . وكما هو منتظر فان الاشخاص الاربعة الرمزيـين اصابهم شيء من التعب لطوافهم اجزاء العالم الثلاثة دون ان يجدوا فرصة للتخلص بشكل مناسب من دلفينهم الذهبي . وهناك فوق ، مديح للسمكة الفاخرة مع الف كتابة لطيفة لخطيب مرغريت دي فلاندر الشاب [1] الذي كان آنذاك منعزلاً بشكل محزن في امبواز ، ولا يعتوره أي شك في ان الزراعة وطبقتي الاكليروس والنبلاء والتجارة قد طافوا العالم لاجله . لقد كان ولي العهد المذكور اذن فتياً، جميلاً ، وقوياً ، وخصوصاً فهو ابن اسد فرنسا (وهذا أصل بديع لجميع الفضائل الملكية) . واصرح ان هذه الاستعارة المجازية الجريئة تستحق الاعجاب ، وان التاريخ الطبيعي للمسرح ، يومٌ من الرمز وقصيدة العرس الملكي ، لا ينفر ابداً من ولي عهدٍ وابن اسد . ان هذا المزيج البنداري [2] النادر هـو بالفعل الذي يبرهن على الحماسة . ولكي نقوم بحصة الناقد ايضاً نقول انه كان بامكان المؤلف ان يوضح هذه الفكرة الجميلة بأقـل من مائتي بيت من الشعر . وصحيـح ان مسرحية اللغز يجب ان تستمر من الظهر حتى السابعة الرابعـة وفقاً لأمر الحاكم وان من اللازم قول شيء ما . ومع ذلك فقد اصغى الناس بصبر .

وفجأة اثناء معركة بين الآنسة تجارة والسيدة طبقة النبلاء ، وفي اللحظة التي كان فيها السيد زراعة يلقي هذا البيت المدهش :

---

١ – كان شارل الثامن (في المستقبل) في الثانية عشرة من سنه آنذاك .

٢ – نسبة الى الشاعر الاغريقي بندار .

ان أونك لم ير في الغابات حيواناً اكثر انتصاراً ؛

فان باب المنصة المحفوظة ، والذي ظل حتى الآن مغلقاً بشكل سيء ، قد انفتح بشكل أسوأ ، وفجأة اعلن صوت الحاجب المجلجل :

– صاحب النيافة المونسنيور الكاردينال دي بوربون .

٣

السيد الكاردينال

مسكين غرنغوار ! ان قرقعة جميع صواريخ سان جان الكبيرة المزدوجة ، واطلاق عشرين بندقية ذات كــلاّب ، ودوي انفجار مدفع برج بيللي الشهير الذي قتل سبعة من البورغونيين دفعة واحدة اثناء حصار باريس نهار الاحد في ٢٩ ايلول ١٤٦٥ ، وتفجير كل بارود المدافع المخزون في باب التامبل، كان اقل تمزيقاً للأذن في هذه اللحظة الاحتفالية المسرحية من تلك الكلمات القليلة التي سقطت من فم احد الحجاب : « صاحب النيافة المونسنيور الكاردينال دي بوربون » .

ولا يعني هذا ان غرنغوار يخشى السيد الكاردينال او يكرهه ، لانه لا يملك هذا الضعف ولا هذا الزهو . فغرنغوار ، وهو احد اتبــاع المذهب الاختياري الحقيقيين كما يقال اليوم [١] ، كان واحداً من تلك العقول السامية الثابتة ، المعتدلة الهادئة ، التي تعرف دائماً ان تقف موقفاً وسطاً في كل شيء ، والملأى بالعقل والفلسفة الحرة ، محترمة الكرادلة في الوقت نفسه . عرق ثمين لم يقاطعه الفلاسفة الذين تبدو عندهم الحكمة ، كآريان اخرى ،انها اعطت مكباً من الخيوط يعملون على حله منذ بدء العالم خــلال متاهة الامور الانسانية . ونجدهم هم انفسهم في جميع الازمنة ، اي انهم يتكيفون وفق جميع الازمنة .

---

١ ـ إشارة الى عمل فكتور كوزان الفلسفي الذي اتخذ مذهباً ، بعد ليبنيتز ، بأن « القواعد صحيحة بما تؤكده وخاطئة بما تنكره » .

وبدون ان نحسب غرنغوار الذي كان سيمثلهم في القرن الخامس عشر اذا توصلنا الى ان نعيد اليه الشهرة التي يستحقها ، فما لا شك فيه ان روحهم هي التي حرضت الاب دي بورول حين كتب في القرن السادس عشر هذه الاقوال السامية الجديرة بكل العصور : « انا باريسي بالنسبة للامة وباريزي بالكلام ما دامت باريزيا Parrhisia اليونانية تعني حرية الكلام . واني احتفظ حيال الكاردينالين عم وشقيق المونسنيور الامير دي كونتي : وبكل احترام لعظمتهما وبدون اهانة اي شخص من حاشيتهما ».

اذن ليس هنالك بغض للكاردينال ولا اشمئزاز من حضوره ، في التأثير المزعج الذي اصاب بيار غرنغوار من هذا الحضور . بل الامر على العكس ، فان شاعرنا كان يتحلى بالكثير من سلامة الذوق ويملك عباءة رثة تمنعه من ان لا يعلق اهمية خاصة على ان تلتقط اذنٌ لصاحب النيافة بعض التلميحات في خطابه الافتتاحي ، وخصوصاً تمجيد ولي العهد ابن اسد فرنسا . ولكن ليست الفائدة هي التي تسيطر على طبيعة الشعراء النبيلة . وأفترض انه لو كان جوهر الشاعر ممثلاً بالرقم عشرة ، فمن المؤكد ان كيميائياً وهو يحلله سيجده مؤلفاً من جزء من الفائدة مقابل تسعة اجزاء من حب الذات . وفي اللحظة التي فتح فيها الباب للكاردينال فان الاجزاء التسعة من حب الذات عند غرنغوار ، الشامخة الانف ، المنتفخة من نسمة الاعجاب الشعبية ، كانت في حالة تكاثر مدهش تختفي تحته ، كأنها مخنوقة ، تلك الذرة الكثيرة الدقة من الفائدة التي نميزها الآن في تركيب الشعراء ؛ جوهر ثمين مثقل بالحقيقة والانسانية وبدونه لن يمسّوا الارض . وكان غرنغوار يتمتع بالشعور ، بالنظر ، بملامسة ندوة بكاملها من الجبناء ، وهذا صحيح ، ولكن لا يهم ، فهي ندوة مندهشة ، مذهلة ، وكأنها مختنقة امام اقوال لا تدخل تحت الحصر كانت تنبجس في كل لحظة من جميع اجزاء قصيدته . واؤكد انه كان ، هو نفسه يتقاسم الغبطة العامة ، بعكس لافونتين الذي سأل اثناء تمثيل مهزلته « فلورانتان » : من هو ذلك

القليل الادب الذي صنع شعر الجوالين [1] هذا ؟ وقد سأل غرنغوار جاره : لمن هذه الطرفة ؟.. والآن يمكن تقدير التأثير الذي احدثه عليه مجيء الكاردينال الفجائي غير المتوقع.

ان ما كان يخشاه قد تحقق بشكل واسع . فدخول نيافته بعث الاضطراب في الحاضرين ، والتفتت جميع الرؤوس نحو المنصة ، ولم يعد يُسمع شيء . ورددت جميع الافواه : الكاردينال ! الكاردينال ! وظل الخطاب التمهيدي البائس قصيراً مرة اخرى .

وتوقف الكاردينال لحظة على عتبة المنصة . وبينما كان يجيل نظراً لامبالياً في الحاضرين ، تضاعفت الجلبة . واصبح كل فرد يريد ان يرى افضل من غيره . وتحقق ذلك لمن يضع رأسه على كتفي جاره .

انه بالفعل شخص سامٍ وكان المشهد يستحق منزلة غير هذه . فشارل ، كاردينال دي بوربون ، اسقف وكونت دي ليون ، ورئيس اساقفة الغاليين ، كان حليفاً للويس الحادي عشر بواسطة اخيه بيار ، سيد بوجو الذي تزوج ابنة الملك الكبرى ، وفي الوقت نفسه حليف لشارل المتهور بواسطة امه أنيس دي بورغونيا . وكانت السمة المسيطرة التي تطبع وتميز طباع رئيس اساقفة الغاليين ، هي روح التملق والتعبد للسلطات . ويمكن الحكم على ان هذه القرابة المزدوجة قد كلفته مزعجات لا حصر لها وكذلك تلك العثرات الزمنية التي اضطر فيها مركبه الروحي الى السير ضد الريح لكي لا يتحطم امام لويس وامام شارل ، هذا الشاريبد Charybde وذلك السيللا Scylla [2] اللذان افترسا الدوق دي

---

١ – تفسير كلمة Raspodie. وهو الاسم الذي كان يطلقه الاغريق على الشعراء الجوالين الذين يتنقلون من بلد الى آخر منشدين اشعاراً مستعارة من هوميروس في اغلب الاحيان .
– المعرب –

٢ – شاريبد وسيللا إعصار ومهلكة مشهوران في مضيق مسينا كانا مصدر رعب للملاحين القدامى الذين كانوا يتجنبون الاول فيقعون في الثاني ، الامر الذي فسح مجالاً للمثل المعروف : سقط من شاريبد الى سيللا ، اي كما يقول المثل العربي : هرب من الدب فوقع في الجب . المعرب

تيمور وقائد جيش سان بول. وقد خرج سالماً بفضل السماء من هذا السفر الطويل ووصل الى روما بدون عائق . ومها فعل في المرفأ ، وبوضوح لأنه كان في المرفأ ، فانه لن يتذكر ابداً دون قلق تلك الخطوط المتنوعة لحياته السياسية التي ظلت مذعورة وشاقة وقتاً طويلاً . وكان من عادته القول ايضاً ان عام ١٤٧٦ كان بالنسبة اليه « ابيض واسود » ؛ ويفهم من ذلك انه في تلك السنة فقد امه الدوقة دي بوربونيا وابن عمه الدوق دي بورغونيا وان مصاباً قد عزّاه عن الآخر.

الخلاصة انه كان رجلاً طيباً . وكان يعيش عيشة كاردينال مرحة ، مبتهجاً بمنبته الملكي في شاليو ، لا يكره ريشار لاغارمواز ولا توماس لاسايارد ، ويتصدق على الفتيات الجميلات وكذلك النسوة العجائز ، ولكل هذه الاسباب كان مستلطفاً من عامة الشعب الباريسي . ولم يكن يسير الا وهو محاط ببلاط صغير من الاساقفة وكهنة من سلالة نبيلة ، ظرفاء ، خالعي العذار ، يفرطون في الطعام والشراب عند الحاجة ؛ واكثر من مرة فان تقيّات سان جرمان دوكسير الشجاعات ، وهن يمررن مساء تحت نوافذ مسكن دي بوربون المضاءة ، كنّ يشعرن بالمهانة لسماعهن نفس الاصوات ، التي رتلت لهن في صلاة العصر نهاراً ، ترتل على رنين الكؤوس مثل بنوا الثاني عشر الباخومي ، ذلك البابا الذي اضاف تاجاً ثالثاً الى التاج البابوي : — لنشرب بابوياً [1].

لقد كانت دون شك تلك الشعبية التي اكتسبها بحق هي التي صانته عند دخوله من اي استقبال سيء من قبل هذا الجمع الغفير الذي كان مستاءً قبلاً ، والذي لم يكن معداً لاحترام كاردينال في نفس اليوم الذي سينتخب فيه بابا . ولكن الباريسيين قليلاً ما يحملون الضغينة ؛ ثم ان البورجوازيين الطيبين بعد ان بدأوا بتمثيل السلطة ، تغلبوا على الكاردينال . وكان هذا الانتصار يكفيهم . ومع ذلك فالكاردينال دي بوربون كان رجلاً جميلاً ، وله رداء احمر جميل يرتديه بشكل رائع ، وهذا يعني ان النساء جميعهن كن من حزبه ، اي افضل نصف من الحاضرين . ومما لا شك فيه انه سيكون من الظلم وسوء الذوق الصراخ

١ — عبارة لاتينية في الاصل .

هزءاً بكاردينال لانه ترك المسرح ينتظره ، خصوصاً اذا كان جميلاً ويرتدي رداءه الاحمر بشكل رائع .

اذن فقد دخل . وحيا الحاضرين بتلك الابتسامة الوراثية ، ابتسامة الكبار لجمهور الشعب . وسار بخطى متمهلة نحو مقعده المخملي القرمزي ، وبهيئة تدل على انه يفكر بشيء يختلف تماماً . وموكبه ، اي ذلك الذي ندعوه اليوم اركان حربه من الاساقفة والكهنة ، فقد قام وراءه بغزوة المنصة ، مثيراً ضجة مضاعفة وفضولاً في أسفل المسرح . ذلك ان الناس كانوا يذكرون اسماء من يشيرون اليهم ، لأن كلّا منهم كان يعرف واحداً على الأقل ، كألوديه Alaudet اسقف مرسيليا اذا كانت ذاكرتي صالحة ، والمتقدم في كهنة سان دنيس ، وروبير دي لسبيناس ، كاهن سان جرمان دي بريه ، ذلك الأخ الداعر لاحـدى عشيقات لويس الحادي عشر : والجميع باحتقار ونفور . اما الطلاب فقد كانوا يحلفون . وكان اليوم يومهم ، عيد المجانين ، عيد فجورهم ، عيد النهم السنوي المفرط بالطعام والشراب لرجال القصر والمدرسة. ليس هناك قباحة في هذا اليوم لا تكون مباحة وشيئاً مقدساً. ثم ان هناك نساء ثرثارات مجنونات بين الجمهور ، كسيمون كاترليفر وآنييس لاغادين ، وروبين بياديبو . الم يكن هذا اقل ما يعد به ويستاء من اسم الله يوم جميل كهذا في صحبة جميلة من رجال الكنيسة وبنات الهوى ؟.. ولم يكونوا يكفّون عن الخطأ ؛ وفي وسط الضجة الشديدة كان هناك جلبة مخيفة من التجديف والفواحش، جلبة جميع تلك الألسنة المتفلتة، ألسنة الاكليركيين والطلبة الصامتة بقية السنة خوفـاً من حديدة سان لويس المحمّاة . يالالتمديس لويس المسكين ! اي احتقار كانوا يوجهون اليـه في قصر عدليته ! ان كلّا من الآتين الجدد الى المنصة قد اخذ جبة سوداء او شهباء او بيضاء او بنفسجية . اما جوان فرولو دي لامولاندينو ، بصفته شقيق كاهن ابرشية ، فقد هاجم الاحمر بجرأة ، وكان يغني بملء صوته ، مثبتاً عينيه الوقحتين بالكاردينال : « طيلسان مليء بالخمر ! [1] ».

---

١ – عبارة لاتينية في الاصل .

كل هذه التفاصيل التي نصفها واضحة هنا لتنوير القارىء كانت مغطاة بالضجة العامة التي طمستها قبل الوصول الى المنصة المحفوظة . ومع ذلك فقليلاً ما تأثر الكاردينال ما دامت حريات هذا النهار كائنة ضمن العادات . لقد كان له ، والقلق بادٍ على محياه ، هم آخر يتبعه عن قربٍ ، وقد دخل معه تقريباً الى المنصة . انه سفارة الفلاندر .

لا لأنه كان متضلعاً بالسياسة ، وقام بعمل ذي عواقب ممكنة لزواج ابنة عمه مدام مرغريت دي بورغونيا بابن عمه شارل ولي عهد النمسا ؛ اما كم سيدوم الذكاء الكاذب لدوق النمسا وملك فرنسا ، وكيف سيتلقى ملك انكلترا ازدراء ابنته ، فهذا لم يكن يقلقه الا قليلاً ، وكان يحتفل كل مساء بخمر شايو الملكي بدون ان يرتاب ان بضع زجاجات من هذا الخمر (بعد ان اعاد النظر به واصلحه الطبيب كوالتيه) والتي قدمها لويس الحادي عشر بمحبةٍ الى ادوارد السادس سوف تنقذ ذات صباح جميل لويس الحادي عشر من ادوارد السادس . « ان الكثيرة الشرف سفـــارة دوق النمسا » لم تحمل الى الكاردينال اياً من هذه الهموم ولكن من ناحية اخرى ازعجته . كان بالفعل على شيء من القساوة . وقد قلنـــا في السابق كلمة في الصفحة الثانية من هذا الكتاب عن ذلك ، بانه مضطر لاقامة حفلة ولأن يحسن ، هو شارل دي بوربون ، استقبال ما لا ادري اي بورجوازيين ؛ وككاردينال ،ان يحسن استقبال شيوخ البلدان، وكفرنسي، مؤاكل فرح ، ان يحسن استقبال جماعة من الفلاندر من شاربي البيرة ؛ وكل هذا يجري في حفل عام . لقد كانت بالفعل واحدة من اكثر الكشرات مجلبة للضجر والتي قام بها في حياته لإرضاء الملك .

اذن التفت نحو الباب ، واظهر افضل كياسة (لانه تمرن عليها) ، حين اعلن الحاجب بصوت رنان : السادة مبعوثو دوق النمسا . ولا فائدة من القول ان القاعة كلها فعلت كذلك .

وبوقارٍ يسبب تناقضاً في موكب شارل دي بوربون الاكليركي ، وصل سفراء مكسيمليان النمساوي الثمانية والاربعون اثنين اثنين ، وعلى رأسهم

الاب المحترم بالله ، جهان ، كاهن سان برتان ، حامل اختام الجزة الذهبية ، وجاك دي غوي ، والسيد دوبي الحاكم الاعلى لغاند . وساد في الحاضرين صمت عميق مصحوب بضحكات مخنوقة لسماع جميع الاسماء المضحكة وجميع النعوت البورجوازية التي كان كل فرد من هؤلاء الاشخاص ينقلهـــا برباطة جاش الى الحاجب الذي كان يقذف خلال الجمهور اسماءً وألقاباً ممزوجة مخلّعة . لقد كان هناك المعلم لويس رولوف شيـخ مدينة لوفان ؛ والسيد كلاي دتوالد شيـخ بروكسل ؛ والسيد بول بوست ، والسيد دي فوار ميزيل رئيس الفلاندر ؛ والمعلم كولغن حـاكم مدينة انفرس ؛ والمعلم جورج ديـلامور ، شيـخ اول مدينة غاند ، والسيد شلدوف فان ديرهاج شيـخ اول المدينة المذكورة ايضاً ، والسيد بيربيك ، وجهان بينوك ، وجهان ديامزيل ، الخ . الخ. الخ. ؛ حاملو اختام ، وشيوخ ، وحكام ؛ وحكام وشيوخ وحاملو اختام ؛ الجميع جامدون، متكلفو الوقار ، متصنعون ، يرتدون ملابس نهـــار الاحد من المخمل والحرير الموشى ، ويعتمرون قبعات من المخمل الاسود ذات شراريب كبيرة من خيوط قبرص الذهبية ؛ ورؤوس فلاندرية جميلة ، ووجوه ذات جدارة وصرامة من نفس عائلة تلك الوجوه التي جعلها رامبرانت تتدفق قوية شديدة على ارضية لوحته السوداء « رقصة الليل » ؛ واشخاص يحملون كل شيء مكتوباً على الجبهة بحيث ان مكسيميليان النمساوي كان على حق بأن يثق ، كما يقول بيانه ، بشعورهم وبسالتهم وتجربتهم وامانتهم .

ومع ذلك فهناك استثناء . انه وجـــه ناعم ، ذكي ، ماكر ، نوع من فم القرد والدبلوماسي ، وقد قام الـكاردينال بثلاث خطواته نحوه واظهر الاحترام العميق مع انه لا يدعى سوى غليوم ريم مستشار مدينة غاند ورئيس السلطة التنفيذية فيها .

وكان القليل من الناس يعرفون من هو غليوم ريم . عبقرية نادرة ظهرت متألقة زمن الثورة على سطح الحوادث ، ولكنها في القرن الخامس عشر تحولت الى مكائد الدياميس ، والى « العيش في الحفر » كما قال الدوق دي سان سيمون.

والنتيجة فقد كان معروفاً من افضل « حافر تحت حائط » في اوروبا ، ويدير الدسائس مع لويس الحادي عشر بكثير من الدالّة ، وفي اغلب الاحيـــان يتدخل في اعمال الملك السرية . لقد كانت كل هـــذه الاشياء مجهولة من ذلك الجمهور الذي ادهشه تأدب الكاردينال اما هذا الوجه الهزيل لحامل الاختـــام الفلاندري .

٤

جاك كوبنول

بينما كان رئيس السلطة التنفيذية في مدينة غاند وصاحب النيافة يتبادلان الاحترامات بصوت منخفض ، وبعض الاقوال بصوت اكثر انخفاضاً ، فان رجلاً ذا بنية عالية ، ووجه عريض ، وكتفين متينين جاء ليدخل في مقارنة مع غليوم ريم : ككلب بجانب ثعلب . وكانت قبعته اللبّادية وصدرته الجلدية يشكلان بقعة بين المخمل والحرير المحيطين به . وقد تبادر الى الذهن انه سائس ضل طريقه . وقد اوقفه الحاجب قائلاً :

– هيه ، ايها الصديق ! المرور ممنوع .

فدفعه الرجل ذو الصدرة الجلدية بكتفه وقال بصوت رنان جعل القاعة كلها في حالة انتباه لهذه المحادثة الغريبة :

– ماذا يريد مني هذا الصعلوك ؟ الا ترى انني أتبعه ؟

وسأل الحاجب : ما اسمك ؟

– جاك كوبنول .

– صفاتك ؟

– صانع جوارب ، بعنوان « السلاسل الثلاث » في غاند .

وتقهقر الحاجب . الإعلام عن الشيوخ والحكام ، لا بأس ، اما عن صانع جوارب فهذا كثير . كان الكاردينال شديد القلق . وكان الناس كلهم يسمعون وينظرون . ولقد مضى يومان على صاحب النيافة وهو يبذل جهده في لحس هذه

الدببة الفلاندرية ليجعلها صالحة لتقديمها للجمهور ، وكانت الاهانة قاسية . ولكن غليوم ريم ، بابتسامته الناعمة ، اقترب من الحاجب وهمس بصوت منخفض :

– اعلن اسم المعلم جاك كوبنول مستخدم لدى شيوخ مدينة غاند .

وقال الكاردينال بصوت مرتفع :

– ايها الحاجب ، اعلن اسم المعلم جـــاك كوبنول المستخدم لدى شيوخ مدينة غاند الشهيرة.

وكانت غلطة . وغليوم ريم وحده اخفى الصعوبة ؛ ولكن كوبنول كان قد سمع الكاردينال ، فصرخ بصوته الراعد :

.. كلا ، وصليب الرب ! جاك كوبنول صانع جوارب . اتسمع ايها الحاجب ؟ لا اكثر ولا أقل . وصليب الرب ، صانع جوارب ، وفي هـذا جمـال كافٍ . لقد بحث السيد الارشيدوق اكثر من مرة عن قفازه في سراويلي .

وانفجر الضحك والتصفيق . فقد كان الجناس المستقبح [1] يُفهم حـالاً في باريس وينال التصفيق .

ولنضف ان كوبنول كان من الشعب ، وان الناس المحيطين به هم من الشعب . وكان الاتصال بينهم وبينه سريع الحدوث ، كهربائياً ، متساوياً . وبادرة الغضب المتغطرسة التي بدرت من صانع الجوارب الفلاندري ، باهانته رجال البلاط ، حركت في نفوس طبقة العوام ما لا ادري اية عـــاطفة من الكرامة كانت لا تزال مبهمة وغير مميزة في القرن الخامس عشر . لقد كان صانع الجوارب هذا نظيراً للكاردينال جاء يعارضه ! انه تفكير سائغ لمساكين معتادين على الاحترام والطاعة حيال خدم رقباء كاهن سان جنفياف حـامل ذيل ثوب الكاردينال .

وحيًّا كوبنول صاحب النيافة بكبرياء ، فرد هذا التحية الى العظيم القدرة

---

١ ـ الجناس هنا بين كلمة Chaussetier (صانع جوارب) وكلمة Chausses (سراويل). المعرب

الرهيب بورجوازي لويس الحادي عشر . وبينما كان غليوم ريم « العاقل الخبيث » كما قال فيليب دي كومين ، يتبعها بابتسامة سخرية وتعـالٍ ، بلغ كل منهما مكانه ، الكاردينال حائر مهموم ، وكوبنول مطمئن فخور ، معتقداً دون شك ان لقبه كصانع جوارب يساوي اي لقب آخر ، وان ماري دي بورغونيا ، ام مرغريت التي يزوجها كوبنول اليوم تخاف صانع الجوارب اكثر من الكاردينال : لانه ليس كاردينالاً ذلك الذي أثار الغانديين ضد حاشية ابنة شارل المتهور ؛ وليس كاردينالاً ذلك الذي حصّن الجمهور بكلمة ضد دموع وتضرعات هذه الحاشية حين اتت المدموازيل دي فلاندر تستعطف شعبها لاجل افراد هذه الحاشية وهم على قاعدة مقصلتهم ؛ بينما صانع الجوارب لم يكن يحتـاج الا لرفع ذراعه الجلدي ليسقط رأسيكما ايها السيدان الشهيدان ، غي دي دامبركور ، وحامل الاختام غليوم هيغونيه .

ولكن لم يكن قد انتهى كل شيء بالنسبة للكاردينـال المسكين وعليه ان يشرب حتى الثمالة كأس وجوده مع رفقة سيئة كهذه .

من المحتمل ان القارىء لم ينس المتسول الوقح الذي جاء منذ بدء الخطـاب التمهيدي يتعلق بمخمل منصة الكاردينـال . ووصول المدعوين العظـام لم يجعله يترك ما تعلق به ، وبيـنما كان الاحبار والسفراء يتعلبون كسمك فلاندري حقيقي في مقاعد المنصة ، كان هو جالساً في راحة تامة وقد شبك ساقيه بشجاعة على القوس . كانت وقاحته قليلة ولم يشاهدها احد لأول وهلة لان الانتبـاه كان منصباً الى ناحية اخرى . وهو من ناحيته لم يفطن الى شيء في القاعة ؛ وكان يهز رأسه بعدم اهتمام نابوليتاني ، مردداً بين وقت وآخر خـلال الضوء كأن ذلك بفعل عادة آلية : « حسنة ، من فضلكم ! » وكان هو الوحيد بين جميع الحاضرين الذي لم يتنازل ويلتفت الى منازعة كوبنول والحاجب . وقد شاءت الصدفة ان صانع الجوارب الغـاندي الذي تعاطف مع الشعب بشدة وتركزت عليه جميع العيون ، جاء يجلس في الصف الاول من المنصة فوق المتسول ؛ ولم تكن الدهشة قليلة لرؤية سفير الفلاندر وهو يربت بصداقة على

ذلك الكتف المغطى بالحرق ، وهذه ملاحظة قام بها صعلوك رأى ذلك . والتفت المتسول . وكانت هناك دهشة ، وتعارف ، واشراق وجهين ، الخ.. ثم ان صانع الجوارب والشخص الضعيف البنية اخذا يتحدثان بصوت منخفض ، بدون ان يبديا اي اهتمام بالمشاهدين ، مبقين اليدين باليدين بينما كان مفعول اسمال كلوبان ترويفو المنشورة على غطاء المنصة الذهبي كمفعول اسروع على ليمونة.

وقد أثارت جدة هذا المشهد الغريب ضوضاء من الجنون والمرح في القاعة ، ولن يتأخر الكاردينال في ان يفطن الى ذلك ؛ فقد انحنى نصف انحناءة ولم يستطع من مكانه ان يلمح رداء ترويفو المعيب الا بشكل ناقص ، ومن الطبيعي ان يتصور ان المتسول يطلب احساناً ، فصرخ وقد اثارته الجرأة :

– يا قاضي القصر ، إلق بهذا الحقير الى النهر .

فقال كوبنول بدون ان يترك يد كلوبان :

– وصليب الرب يا سيدي الكاردينال ، انه أحد اصدقائي .

وصرخ الجمهور : نويل ! نويل !

ومنذ تلك اللحظة اصبح للسيد كوبنول في باريس كما في غاند « حظوة كبيرة لدى الشعب ؛ لأن اناساً من هـذا الطراز تكون لهم تلك الحظوة حين يكونون مشوشين هكذا » كما قال فيليب دي كومين .

وعض الكاردينال شفتيه . وانحنى على جـاره الاب رئيس دير القديسة جنفياف وقال له بصوت منخفض :

– انهم مضحكون اولئك السفراء الذين ارسلهم الينا السيد الارشيدوق ليعلنوا لنا عن وصول مدام مرغريت .

فأجاب الاب : لقد اضعت يا صاحب النيافة آدابك مع خراطيم الخنازير الفلاندريين . خنازير مرغريت .

فأجاب الكاردينال بابتسامة : قل بالاحرى ، لآلىء دقيقة امام خنازير .

واصابت الدهشة كل ذلك البـلاط الصغير من الطيالس بسبب اللعب على الكلمات . وشعر الكاردينال بشيء من الترويح عن النفس ؛ واصبح متعـادلاً

مع كوبنول ، وكان له ايضاً مزحته الجناسية [1] التي نالت التصفيق .

والآن فان اولئك الذين يملكون القدرة من قرائنا على تعميم صورة او فكرة ، كما يقال اليوم في النسق الانشائي ، يسمحون لنا ان نسألهم اذا كانوا يتصورون بوضوح المنظر الذي يقدمه متوازي الاضلاع الواسع لقاعة القصر الكبرى ، في اللحظة التي استلفتنا انتباههم فيها . في وسط القاعة منصة عريضة فاخرة من البروكار المذهب مسندة الى الجدار الغربي ، يدخلها بشكل طواف ، من باب صغير مخروطي ، اشخاص وقورون يعلن عنهم بالتتابع صوت الحاجب الجهوري . وعلى المقاعد الاولى سحنات موقرة تعتمر قلانس من السمور الابيض ، والمخمل ، والنسيج القرمزي . وحول المنصة التي تبقى صامتة رصينة ، وتحت ، وامام ، وفي كل مكان ، جمهور كبير وضجة كبيرة . ألف نظرة من الشعب على كل وجه على المنصة ، وألف همسة عن كل اسم . لقد كان المنظر غريباً بالتأكيد ويستحق انتباه المشاهدين . ولكن هناك تحت ، على الطرف ، ما هي قائمة السرير تلك ، ذات الدمى الاربع المبرقشة من فوق ، واربع اخرى من تحت ؟ ومن هو ذلك الرجل الجالس بجانب القائمة ، والذي يرتدي عباءة سوداء ووجهه شاحب ؟ للأسف يا عزيزي القارىء انه بيار غرنغوار وخطابه التمهيدي .

لقد نسيناه نسياناً عميقاً .

وهذا بوضوح ما كان يخشاه .

في اللحظة التي دخل فيها الكاردينال ، لم ينقطع غرنغوار عن التململ دفاعاً عن سلامة خطابه التمهيدي . فقد فرض اولاً على الممثلين الذين ظلوا مترددين ان يستمروا ويرفعوا اصواتهم ؛ ثم اوقفهم حين رأى ان احداً لا يستمع . وطوال الانقطاع الذي استمر ربع ساعة لم يكف عن الرفس برجليه ، والتحرك باضطراب ، وسؤال جيسكيت وليينارد ، وتشجيع جيرانه على متابعة الخطاب التمهيدي ؛ لقد ذهب كل شيء على غير طائل . ولم يتحرك شيء من الكاردينال،

---

١ ـ كانت المزحة الجناسية في اللعب على كلمات لاتينية ولا تظهر بالترجمة .

والسفارة والمنصة ، المركز الوحيد لتلك الدائرة الواسعة من الاشعة البصرية . ويجب الاعتقاد ايضاً ، ونقول ذلك بحسرة ، ان الخطاب التمهيدي بدأ يزعج الحاضرين ازعاجاً خفيفاً ، في اللحظة التي بدأ فيها صاحب النيافة يتلهى بشكل مخيف . وبعد كل شيء ، فان المشهد كان هو نفسه على المنصة وعلى الطاولة الرخامية : نزاع الزراعة مع الاكليروس ، وطبقة النبلاء مع التجارة . وكان كثير من الناس يحبون ان يروهم احياءً بلحمهم وعظمهم ، يتنفسون، ويعملون، ويتدافعون بالمرافق ، في تلك السفارة الفلاندرية ، وفي ذلك البلاط الاسقفي ، وتحت ثوب الكاردينال ، وتحت صدرة كوبنول ، بدلاً من ان يروهم مخضبين ، متزينين ، يتكلمون شعراً ، كأنهم محشوون بالقش تحت القمصان الصفراء والبيضاء ، وقد ألبسهم غرنغوار ملابس غريبة .

وحين رأى شاعرنا ان الهدوء قد استتب قليلاً تخيل حيلة تنقذ كل شيء ، فقال ، ملتفتاً نحو أحد جيرانه وهو رجل شجاع ضخم ذو وجه جلود :

– ايها السيد ، ماذا لو استأنفنا ؟

فسأل الجار : ماذا ؟

فقال غرنغوار : مسرحية اللغز .

فقال الجار : كما يحلو لك .

ان هذا الاستحسان النصفي يكفي غرنغوار ، ولما كان يقوم بأعماله بنفسه فقد بدأ يصيح ، مختلطاً بالجمهور جهد استطاعته :

– استأنفوا اللغز ، استأنفوا !

فقال جوان دي مولاندينو :

– يا للشيطان ! ماذا يغنون هناك ، وعلى الطرف ؟ (لان غرنغوار كان يحدث ضجة كأنه اربعة) . قولوا اذن ايها الرفاق . الم تنته مسرحية اللغز بعد ؟ انهم يريدون البدء بها من جديد . هذا ليس عدلاً .

فصرخ الطلبة كلهم : كلا ! كلا ! لتسقط مسرحية اللغز ، لتسقط !

ولكن غرنغوار تنشط وصرخ بقوة اكثر :

– ابدأوا من جديد . ابدأوا من جديد !

واستلفتت هذه الضوضاء انتباه الكاردينال فقال لرجل كبير اسود واقف على بضع خطوات منه :

– ايها السيد قاضي باريس ، هل هؤلاء الصعاليك في جرن المـــاء المقدس ليقوموا بهذه الضجة الجهنمية ؟

كان قاضي القصر نوعاً من الحاكم البوماني ، نوعاً من خفاش النظام القضائي ، فيه من الجرذ والعصفور معاً ، من القاضي والجندي . وقد اقترب من صاحب النيافة خائفاً من استيائه واوضح له سبب عدم اللياقة الشعبية متلعثماً : بأن وقت الظهر قد حل قبل مجيء نيافته ، وان الممثلين قد أرغموا على البدء بالتمثيل بدون انتظار نيافته .

فانفجر الكاردينال ضاحكاً :

وايماني ، ان عميد الجامعة كان يضطر ان يفعل كذلك . ما قولك يا يا معلم غليوم ريم ؟

فاجاب غليوم ريم : لنقنع يا سيدي بإفلاتنا من نصف المسرحية الهزلية . ان في ذلك ربحاً .

وسأل القاضي : ايستطيع هؤلاء الاوغاد الاستمرار في تمثيلهم المضحك ؟

فقال الكاردينال : استمروا ، استمروا ؛ لا فرق عندي . اني سأقرأ صلاتي اثناء ذلك .

وتقدم القاضي الى امام المنصة وأسكتهم بحركة من يده وصاح :

-- ايها البورجوازيون والقرويون والسكان . في سبيـل إرضاء الذين يريدون الاستمرار والذين يريدون انتنتهي ، فان نيافته يأمر بالاستمرار .

لقد كان مضطراً الى ارضاء الفئتين . ومع ذلك فالمؤلف والجمهور احتفظوا بكراهية الكاردينال طويلاً .

اذن استأنف الممثلون على المسرح ملاحظاتهم الانتقادية ، وأمل غرنغوار ان يصغوا الى ما بقي من مسرحيتـــه على الأقل . ولم يلبث هذا الأمل ان اخفق

كأوهامه الأخرى ؛ لقد كان الصمت مستتباً بالفعـــل بين المستمعين ؛ ولكن غرنغوار لم يكن قد لاحظ عدم امتلاء المنصة حين أصدر الكاردينـــال امره بالاستمرار، وان اشخاصاً جدداً اصبحوا جزءاً من الموكب بعد ان جاء مبعوثو الفلاندر وقد قـُذفت اسماؤهم والقابهم ، متخللة حواره ، بواسطة صراخ الحاجب المتقطع ، وقد احدث ذلك ضرراً بالغاً. ولنتصور فعلاً أثناء قطعة مسرحية عواء حاجب بين قافيتين ، وفي الغالب بين شطرين ، بجمل معترضة كهذه :

– السيد جاك شارمولو ، وكيل الملك في ساحة الكنيسة !

– جهان دي هارلي ، فارس ، حارس مكتب رئيس عسس مدينة باريس !

– السيد غاليو دي جنوالاك ، فارس ، سيد بروساك ، رئيس مدفعية الملك.

– المعلم درو - راغييه محقق مياه وغابات مولانا الملك ، فيمادة بلاد فرنسا، شامبانيا وبري Brie !

– السيد لويس دي غرافيل، فارس ، مستشار وخادم غرفة الملك ، اميرال فرنسا ، بواب غابة فانسين !

– المعلم دنيس لومرسيه ، حارس بيت العميان في باريس ! الخ . الخ .

وقد اصبح هذا غير محتمل .

وهذه المرافقة الغريبة التي جعلت متـابعة المسرحية صعبـة زادت من غضب غرنغوار الذي لا يستطيع الاعتراف ان الاهتمام يتزايد وان المسرحية لا ينقصها الا الاستماع . وبالفعل فقد كان من الصعب تخيل كلام اكثر ابداعاً واكثر تأثيراً . كان اشخاص الخطاب التمهيدي الاربعة يجأرون بالشكوى في ورطتهم المميتة حين مثلت امامهم فينوس بشخصها، والإلهة تـُعرف منمشيتها، مرتدية ثوباً جميلاً رمم عليه مركب مدينة باريس كشعار . لقد جاءت بنفسها تتلمس ولي العهد الموعودة به اجمل الجميلات. وكان يسندها جوبتير الذي سمعت صاعقته وهي تزمجر في غرفة الملابس ، وكادت الإلهة تختطفه ، يعني بدون مواربة ، تتزوج ولي العهد ، حين جاء طفل صغير يرتدي الحرير الابيض ويمسك بيده زهرة مرغريت (تجسيد شفاف لمدموازيل دي فلاندر)، واخذ يتصارع مع فينوس . انها ضربة

مسرحية ونهاية مؤثرة لتمثيليـــة . وبعد الجدال اصبحت فينوس ومرغريت والكوليس متفقين على ان يسلموا امرهم الى عدالة العذراء المقدسة . وكان هناك ايضاً دور جميل ، هو دور الدوم بيدر ملك ميزوبوتامية. ولكن كان من الصعب تمييز فائدته من خلال كثير من المقاطعة . وكل هذا جرى رفعه على السلم .

ولكن كل ذلك قد جرى . وكل هذه الجمالات لم يشعر بها احد ولم تُفهم . فكأن خيطاً سحرياً غير منظور قد اجتذب بسرعة عند دخول الكاردينال جميع الانظار من الطاولة الرخامية الى المنصة ، من طرف القـــاعة الجنوبي الى الجهة الغربية. ولم يكن باستطاعة اي شيء ازالة السحر عن المستمعين ، اذ ظلت جميع العيون متطلعة الى هناك، وكان القادمون الجدد، واسماؤهم الملعونة، ووجوههم، وملابسهم، كل ذلك يشكل ألهية مستمرة. وكان كل هذا محزناً. وباستثناء جيسكيت وليينارد اللتين كانتا تلتفتـــان بين وقت وآخر حين يجذبها غرنغوار من الكم ، وباستثناء الجار الضخم الجلود ، فما من شخص كان يصغي ، وما من شخص يتطلع في وجه القيم الاخلاقية المهملة . ان غرنغوار لم يكن يرى سوى الناحية الجانبية من الوجوه .

بأية مرارة كان يرى انهيار ما اعده من المجد والشعر قطعة قطعة ! والتفكير بان هذا الشعب كان على اهبة التمرد على القـــاضي مدفوعاً بفراغ صبره لاستماع مسرحيته ! انها له الآن وهو لا يعيرها اهتماماً . ذلك التمثيل نفسه الذي بدأ وسط هتاف موحد ! مد وجزر ابدي من الحظوة الشعبيـــة ! والتفكير بانهم كادوا يشنقون جنود القاضي ! ما الذي لم يعطه ليتمتع بهذه الساعة العسلية !

ومع ذلك فقد انقطع خطاب الحاجب العنيف. ووصل الناس كلهم، وتنفس غرنغوار الصعداء. وكان الممثلون قد استأنفوا تمثيلهم بشجاعة. ولكن ها هو المعلم كوبنول صانع الجوارب ينهض فجأة ، وقد سمعه غرنغوار وهو يلفـــظ هذه العبارة المقيتة وسط الانتباه العام :

— ايها السادة البورجوازيون ونبلاء باريس ، اني وصليب الرب لا اعرف ماذا نفعل هنـــا . واني ارى هناك ، في تلك الزاوية وعلى تلك الحاملة ، أناساً

تبدو هيئاتهم انهم يريدون القتـــال . وانا اجهل اذا كان هذا هو ما تسمونه « اللغز » ؛ ولكنه ليس مسليـــاً . فهم يتقاتلون باللسان ولا شيء غير ذلك .
وقد مضت ربع ساعة وانا انتظر الضربة الاولى فلم يحدث شيء . انهم جبنـــاء لا يتخادشون الا بالاهانات، وكان يجب الاتيان بمصارعين من لندن او روتردام؛ وعند ذلك تشاهدون لكمات تسمع من الساحة . ولكن هؤلاء يثيرون الشفقة . كان عليهم على الاقل ان يقدموا لنـــا رقصة من رقصات مسلمي اسبانيا ، او اضحوكة اخرى ! ليس هذا مـا قيل لي عنه . لقد وُعدت بعيد مجـانين يتخلله انتخاب البابا . ونحن في غاند عندنا بابا للمجانين ، ولسنا متخلفين في هذا وحق الصليب ! واليكم كيف نصنع . نجمع جمعاً حاشداً كما هو الامر هنا . ثم يذهب كل واحد بدوره ويدخل رأسه في ثقب ويكشر في وجوه الآخرين . وينتخب بابا باتفاق الآراء من يصنع اقبح كشرة . ارأيتم ! ان هذا يبعث على التسلية . اتريدون ان نصنع لكم بابا على طريقة بلادنا ؟.. سيكون هذا اقل إملالاً من الاستماع الى هؤلاء الثرثارين . واذا ارادوا المجيء ليضعوا كشرتهم في الكوة فسيكونون مشتركين في اللعبة . ماذا تقولون ايها السادة البورجوازيون ؟ يوجد هنا مسطرة غريبة كافية من الجنسين للضحك على طريقة الفلاندر ووجوهنا قبيحة بشكل كاف لنحصل على كشرة جميلة .

واراد غرنغوار ان يجيب. ولكن الدهشة ، والغضب، والاشمئزاز سلب منه الكلام. واستُقبل اقتراح صانع الجوارب الشعبي بحماسة من اولئك البورجوازيين الذين فتنهم إطلاق اسم نبلاء عليهم ، واصبحت كل مقاومة بدون فائدة . ولم يعد هناك سوى ان يأخذ السيل مجراه . فخبأ غرنغوار وجهه بيديه ولم يسعده الحظ بوجود معطف معه ليغطي رأسه مثل اغاممنون تيمانت .

٥

كازيمودو

بلمحة عين اصبح كل شيء جاهزاً لتنفيذ فكرة كوبنول. واخذ البورجوازيون والتلامذة والمستخدمون يعملون . واختيرت الكنيسة الصغيرة القائمة امام الطاولة الرخامية لتكون مسرحاً للكشرات . والزجاج المكسور في شكل الوردة الجميل فوق الباب افسح المجال لدائرة حجرية جرى الاتفاق ان يدخل المتنافسون رؤوسهم منها. ولبلوغها كان يكفي الصعود على برميلين جيء بهما لا ادري من اين، ووضع احدهما فوق الآخر كيفما اتفق. وجرى الاتفــاق انه يجب على كل متسابق ، رجلاً كان او امرأة ، (لانه كان ممكناً انتخاب بابا من النساء) ، ان يغطي وجهه ليترك تأثير كشرته خالصاً وكاملاً ، ويبقى مختبئاً في الكنيسة حتى اللحظة التي يجب الظهور فيها . وفي اقل من لحظة امتلأت الكنيسة بالمتنـــافسين الذين اغلق الباب عليهم .

وكان كوبنول يلقي اوامره من مكانه ، ويدير كل شيء ، ويرتب كل شيء. واثنـاء الضوضاء ، فان الكاردينـــال الذي لم يكن اضطرابه اقل من غرنغوار انسحب مع حاشيته كلها بحجة الاعمال والصلاة ، وبدون ان يتـأثر برحيله هذا الجمهور الذي اضطرب بشدة عند مجيئه . وكان غليوم ريم هو الوحيـــد الذي لاحظ فرار نيافته . وكان الانتباه الشعبي كالشمس يتابع ثورته فسار من طرف القاعةواصبح الآن في الطرف الآخر بعد ان توقف قليلاً في الوسط. وكان للطاولة الرخامية ومنصة البروكار دورهما ؛ اما الآن فدور كنيسة لويس الحادي عشر .

وكان المجال حراً امام كل جنون ، اذ لم يبق سوى الفلاندريين والرعاع .

وبدأت الكشرات . وظهر اول وجه في الكوة بجفون حمراء ، وفم مفتوح كالحلقوم ، وجبهة متغضنة كجزماتنا على طريقة فرسان الامبراطورية ، ففجر ضحكة لا تخمد وتجعل هوميروس يحسب كل هؤلاء القرويون آلهة [1] . والقاعة الكبرى لم تكن اقل من الاولومب وجوبتير غرنغوار المسكين يعرف ذلك اكثر من اي شخص . وتتابعت كشرة ثانية وثالثة ، ثم كشرة اخرى ، ثم اخرى ، والضحك وفحص الارض بالارجل يتضاعف دائماً وذلك علامة السرور . كان يوجد في هذا المشهد لا ادري اي دوار خاص ، واية قوة من النشوة والسحر من الصعب اعطاء فكرة عنها للقارىء في ايامنا وفي صالوناتنا . لنتصور سلسلة من الوجوه التي تقدم جميع الاشكال الهندسية بالتتابع ، من المثلث حتى شبه المنحرف ، من المخروطي حتى متعدد الوجوه ؛ وجميع التعبيرات البشرية من الغضب حتى الفجور ؛ وجميع الاعمار ، منذ غضون الطفل الوليد حتى غضون الهرمة المشرفة على الموت ؛ وجميع الخوارق الدينية من فون Faune حتى بلزبيت Belzébuth ؛ وجميع المظاهر الجانبية لأوجه الحيوانات ، من الحلقوم حتى المنقار ، ومن رأس الخنزير البري حتى الخرطوم . ولنتخيل جميع وجوه بون – نوف المشوهة ، وتلك الكواليس المذهلة تحت يد جرمان بيلون وهي تأخذ حياةً ونفساً وتأتي بالدور لتنظر الى وجهك بعيون مشتعلة ؛ وجميع اقنعة عيد المرافع في مدينة البندقية متتابعة امام منظارك ، وبكلمة ، كاليدسكوب بشري .

واصبح الموقف المفرط في المجون فلاندرياً اكثر فأكثر . ولن يعطي تانيه [2] Teniers عنه سوى فكرة ناقصة . لنتصور معركة سلفاتور روزا في عيد

١ – جاء في الاليـاذة : « . . . انه يركض وهو يعرج قليلا ليقدم الرحيق الى الآلهة الآخرين . ولدى منظر البركان انبجست فجأة ضحكة لا تخمد بين الآلهة » .

٢ – تانيه : رسام فلاندري (١٥٨٢ – ١٦٤٩) وقد نجح مع ولده تانيه الصغير في رسم المناظر الشعبية في الفلاندر .

باخوس . لم يكن هناك طلاب ، ولا سفراء ، ولا بورجوازيون ، ولا رجال ولا نساء ؛ ليس هناك كلوبان ترويفو وجيل ليكورنو وماري كاترليفر وروبين بوسيبان . لقد اختفى الجميع في الاجازة المشتركة . ولم تكن القاعة الكبرى سوى اتون واسع من الوقاحة والمرح حيث كان كل فم صرخة ، وكل عين برقاً ، وكل وجه كشرة ، وكل فرد هيئة . الجميع يصرخون ويزعقون . والوجوه الغريبة التي كانت تأتي دورياً لتصر بأسنانها في الدائرة التي بشكل وردة كانت كأنها جذوات القيت على نار . وكان يتفلت من كل هذا الجمهور الفائر كبخار الأتون ضوضاء فظة ، حادة ، لاذعة ، صافرة كأجنحة ذبابة صغيرة .

– هوهيه ! اللعنة !

– انظروا اذن هذا الوجه !

انه لا يساوي شيئاً !

– الى وجه آخر !

– انظري يا غيليمت موجربوي الى خطم الثور ، لا ينقصه سوى القرون . أليس هذا زوجك ؟.

– وجه آخر !

– يا لطيف ! ما هذه الكشرة ؟

هولاهيه ! انها زعبرة . يجب الا يري سوى وجهه .

– تلك الملعونة بيريت كاليبوت ! انها جديرة بذلك .

– نويل ! نويل !

– اني اختنق !

– هذا واحد لا تستطيع اذناه المرور !

الخ.. الخ..

الا انه يجب انصاف صديقنا جهان . لاننا ما زلنا نميزه في اعلى عموده وسط هـذه الضوضاء كالطحلب في قلوع الصاري . كان يتحرك بهيجان . وكان فمه

مفتوحاً على مصراعيه وتفلت منه صرخة لم تكن تسمع لا لان الضجيج العام الشديد يغطي عليها بل لأنها بلغت دون شك حدود الاصوات الحادة ، الممكن ادراكها ، اهتزازات سوفار الاثني عشر الفاً او الآلاف الثمانية من اهتزازات بيو [1] Biot .

اما غرنغوار فان اول حركة من الوهن قد مرت. وكان قد استعاد هدوءه ، واشتد امام المصيبة ، فقال لممثليه المزليين للمرة الثالثة :

-- اكملوا ! ايتها الآلات المتكلمة .

ثم اخذ يمشي بخطى عريضة امام الطاولة الرخامية . ومر بباله ان يذهب بدوره ويظهر من كوة الكنيسة ، لا لسبب الا ليتلذذ بالتكشير لهذا الشعب العقوق . ولكنه ردد بينه وبين نفسه :

– ولكن كلا، لن يكون هذا خليقاً بنا؛ بدون ثأر ! لنناضل حتى النهاية. ان سلطة الشعر كبيرة على الشعب ؛ سأعيدهم . وسنرى من يفوز ، الكشرات ام الآداب الجميلة .

ولكن للأسف فقد ظل هو المشاهد الوحيد لمسرحيته . وهذا اسوأ من السابق ، انه لم يعد يرى سوى الاقفية .

لقد اخطأت . فالرجل الضخم الجلود الذي استشاره قبلًا في لحظـــة حرجة ظل مديراً وجهه الى المسرح . اما جيسكيت وليينارد فقد تركتا منذ وقت طويل .

وتأثر غرنغوار من اعمـــاق قلبه لإخلاص متفرجه الوحيد . فاقترب منه وخاطبه هازاً يده هزاً خفيفاً ، لان الرجل الشجاع كان متكئاً على الحاجز وقد راح في تهويمة خفيفة . وقال غرنغوار :

– اني اشكرك يا سيد .

فأجاب الرجل الضخم متثائباً : لأجل ماذا ياسيد ؟

---

١ ـ جان بابتيست بيو ، عالم طبيعي وفلكي فرنسي (١٧٧٤ - ١٨٦٢) مؤلف عدة ابحاث عن الكهرباء المغناطيسية واستقطاب الضوء .. الخ..

فأجاب الشاعر : اني اعلم ما يزعجك. انها تلك الضجة التي تمنعك من الاستماع مرتاحاً . ولكن كن مطمئناً : فاسمك ستحفظه الاجيال الآتية . ما هو اسمك، اذا اردت ؟

– رينو شاتو حامل اختام شاتليه باريس ، في خدمتك .

فقال غرنغوار :

– ايها السيد ، انت هنا الممثل الوحيد لربة الشعر .

فأجاب حافظ اختام شاتليه باريس : انت كثير الطيبة .

وقال غرنغوار : انت الوحيد الذي استمع الى المسرحية بشكل مناسب. كيف وجدتها ؟..

فأجاب حافظ الاختام الضخم وقد استيقظ نصف استيقاظة :

– هيه ! هيه ! بالفعل انها قوية تماماً .

كان يجب ان يكتفي غرنغوار بهذا المديح لان رعوداً من التصفيق ممزوجة بهتافات عظيمة قطعت حديثها . لقد انتخب بابا المجانين .

وكان الجمهور يصرخ من جميع النواحي :

– نويل ! نويل !

لقد كانت بالفعل كشرة بديعة ، تلك التي تتألق في هذه اللحظة في ثقب الشكل الوردي . فبعد تلك الوجوه المخمسة الاضلاع ، والمسدسة ، والخارجة عن المألوف ، والتي تتابعت على تلك الكوة دون ان تحقق ذلك المثل الاعلى المضحك الذي تكوّن في مخيلات أثارها الافراط، لم يكن يلزم للفوز بالتصويت الا الكشرة السامية التي تبهر المجتمعين . لقد صفق المعلم كوبنول نفسه ؛ اما كلوبان ترويفو الذي دخل المسابقة ، ويعلم الله اي درجة من القبح يمكن ان يبلغها وجهه ، فقد اعترف بالغلبة . وسنفعل نحن مثله ، ولن نجرب ان نعطي القارىء فكرة عن ذلك الانف المربع الشكل ، والفم الذي يشبه نعل الحصان ، والعين اليسرى الصغيرة المسدودة بحاجب امغر منفوش بينما تختفي العين اليمنى تماماً تحت ثؤلولة ضخمة ، وتلك الاسنان غير المرتبة ، المثلومة هنا وهنـــاك

كسنّنات احـــد الحصون ، وتلك الشفة المكنبة التي تطاول عليها احد هذه الاسنان كسن الفيل ، وتلك الذقن المتشعبة ، وخصوصاً تلك السحنة المنتشرة على كل ذلك ، وهذا المزيج من الخبث والدهشة والحزن . لنتخيل هذا المجموع اذا استطعنا .

وكان الهتاف موحداً . وقد انقض الحشد على الكنيسة وأخرج منهـــا بابا المجانين باحتفال. وعندئذٍ بلغت المفاجأة والاعجاب الذروة . فقد كانت الكشرة هي كل وجهه .

او بالاحرى فان شخصه كله كان كشرة . رأس كبـــير منفوش الشعر الأمغر ؛ وبين الكتفين حدبة ضخمة جعلتها الضربة المعاكسة تظهر من امام ؛ وجهاز من الافخاذ والسيقان تشوهت بشكل غريب حتى لا يمكن ان تتلامس الا عند الركب ، ومنظرها من الامام يشبه هلالين من المناجل يلتصقـــان عند القبضة ؛ وقدمان عريضان ، ويدان متسختـــان ؛ ويمشي مع كل هذا التشويه مشية مربعة فيها من القوة والخفة والشجاعة ؛ شذوذ غريب عن القـاعدة الخالدة القائلة ان القوة، كالجمال ، تنتج من التناسق. هذا هو البابا الذي اختاره المجانين.
انه يشبه عملاقاً تحطم وأعيد تجبيره بشكل سيء .

حين ظهر هذا النوع من العملاق على عتبة الكـنيسة ، جامداً ، مكردماً ، كأن عرضه اكبر من طوله ، « مربع بواسطة القاعدة » كما قال رجل كبير ، نصفه احمر والنصف الثاني بنفسجي،قد انتثرت عليه اجراس فضية لإتقان بشاعته، عرفه الناس حالاً وهتفوا بصوت واحد :

– انه كازيمودو . قارع الاجراس ! انه كازيمودو احدب نوتردام !
كازيمودو الاعور ! كازيمودو المعوج الساقين ! نويل ! نويل !

ويُرى ان للشيطان المسكين ألقابا يختار من بينها ما يشاء . وصرخ الطلاب:
– لتحذر النسوة الحوامل .
وتابع جوان : او اللواتي يتمنين الحمل .
وبالفعل فقد خبأت النسوة وجوههن .

وقالت احداهن : اوه ! يا للقرد القبيح .

وقالت اخرى : انه شرير بقدر ما هو قبيح .

وقالت ثالثة : انه الشيطان .

– من سوء حظي انني ابقى بالقرب من كنيسة نوتردام ؛ واسمعه يجوس خلال الميازيب طول الليل .

– مع الهررة .

– يظل دائماً على سطوحنا .

– يلقي الينا انصبتنا من المداخن .

– جاء ذات مساء الى كوتي ليريني كشرته . لقد اعتقدت انه انسان . وانتابني الخوف !

– انا متأكدة انه يذهب الى مجمع السحرة . وذات مرة ترك مكنسةً في وعائي [1] .

– اوه ! يا لوجه الاحدب الكريه !

– اوه ! يا للروح الشنيعة !

اما الرجال فعلى العكس ، فقد كانوا منتشين وكانوا يصفقون .

وكازيمودو موضوع الصخب ، كان لا يزال واقفـاً على باب الكنيسة ، عابساً ، رزيناً ، يدعو للاعجاب .

وهناك تلميذ ، وأظنه روبين بوسيبان ، جاء يضحك في وجهه وفي مكان قريب جداً . فاكتفى كازيمودو بأن امسكه من حزامه وألقاه على بعد عشرة اقدام بين الجمهور . ولم ينبس احد بكلمة .

ودهش كوبنول واقترب منه قائلاً :

– وحق صليب الرب ! والقديس بطرس ! انك تملك اجمل بشاعة رأيتها في حياتي . أنت تستحق البابوية في روما كما في باريس .

وفيما كان يتكلم القي يده على كتفه متحبباً ، فلم يحرك كازيمودو ساكناً.

---

١ ــ لقد اشتهر عن السحرة انهم يذهبون إلى مجمع السحرة خلال الهواء ممتطين مكنسة.

وتابع كوبنول :

– انت رجـــل عجيب ولي رغبة مفرطة في الاكل معك . حتى لو كلفني ذلك دوزان [1] جديد من اثنتي عشر تورنوا [2] . فما رأيك ؟

فلم يجب كازيمودو . وقال صانع الجوارب :

– يا لصليب الرب ! هل انت اصم ؟

وكان بالفعل اصم .

إلا انه بدأ يتضجر من تصرفات كوبنول ، واستدار فجأة نحوه وهو يصر على اسنان ضخمة حملت العمـــلاق الفلاندري على التراجع ، ككلب من نوع البولدوغ امام هر .

وحينئذٍ ارتسمت حول الشخص العجيب دائرة من الرعب والاحترام كان شعاعها خمسة عشر قدماً هندسياً . وقد اوضحت امرأة هرمة لصانع الجوارب ان كازيمودو اصم . فقال صانع الجوارب بضحكته الفلاندرية الضخمة :

– اصم ! يا لصليب الرب ! انه بابا كامل .

وهتف جهان الذي هبط اخيراً عن تاج العمود ليرى كازيمودو عن قرب :

– هيه ! اني اعرفه ، انه قارع الاجراس عند اخي كاهن الابرشية .

– صباح الخير يا كازيمودو !

وقال روبين بوسبان الذي ما زال متألماً من سقطته :

– يا له من رجل شيطان. انه يبرز وهو احدب، ويمشي وهو معوج الساقين، وينظر اليك وهو اعور . وتكلمه وهو اصم . ماذا يفعل هذا العملاق بلسانه ؟

فقالت العجوز :

– انه يتكلم ساعة يشاء . وقـــد اصابه الصمم من قرع الاجراس . وهو ليس أخرس .

فقال جهان ملاحظاً : هذا ينقصه .

---

١ – دوزان : عملة فرنسية قديمة.

٢ – تورنوا : عملة فرنسية قديمة ضربت في مدينة تور .

واضاف روبين بوسيبان : وله عين زائدة .

فقال جهان مصححاً : كلا ، فالاعور اكثر نقصاً من الاعمى . فهو يعرف ما ينقصه .

واجتمع المتسولون والخدم والنشالون كلهم الى الطلبة وكانوا قد بحثوا في خزانة الحاشية عن التاج الكرتوني ورداء السخرية لبابا المجانـــين . وقد تركهم كازيمودو يلبسونه دون ان يتحرك وبنوع من الطاعة الفخور . ثم اجلسوه على محمل مبرقش . ورفعه اثنا عشر ضابطاً من اخوية المجانين على اكتافهم . وارتسم نوع من السرور الكئيب الاحتقاري على وجه العملاق الشرس حين رأى تحت قدميه المشوهتين جميع تلك الرؤوس لرجال جميلين ، مستقيمين ، حسني التكوين ثم سار الموكب العاوي الرث الثياب ليقوم حسب العادة بدورة داخليـــة في اروقة القصر ، قبل نزهة الشوارع ومفارق الطرق .

٦

ازمير الدا

يسرنا ان نعلم قراءنا ان غرنغوار ومسرحيته قد أحسنا المقاومة اثناء هـذا المشهد كله . فمثلوه ، وقد تبعهم ، لم ينقطعوا عن إلقاء مسرحيته المزليـة ، ولم ينقطع هو عن سماعها . وقد نال نصيبه من الجلبة ، وكان مزمعاً على السير إلى النهاية ، غير يائس من عودة الجمهور الى الانتباه . وقد عاد هذا الألق من الأمل الى الحياة حين رأى كازيمودو وكوبنول وموكب بابا المجانين الذي يصم الآذان يخرجون من القاعة بضجة كبيرة . واسرع الجمهور بنهم على اثرهم . فقال لنفسه : ــ حسناً ، ها قد ذهب جميع المفسدين . ــ ولكن مما يؤسف له ان المفسدين كانوا الجمهور كله . وقد اصبحت القاعة فارغة بطرفة عين .

ونقول للحقيقة انه قد بقي بعض المشاهدين ، قسم منهم مبعـــثر ، والقسم الآخر متجمع حول الاعمدة ، نساء وشيوخ واطفال يقومون بشيء غير قليل من الضجة والصخب وكان بعض الطلبة قد ظلوا ممتطين اعلى النوافذ متطلعـــين الى الساحة .

وفكـّر غرنغوار :

ــ لا بأس ، لا يزال يوجد اكـــثر مما يلزمنا لاستماع نهاية مسرحيتي. انهم قلائل ولكنهم جمهور من النخبة ، جمهور متعلم .

وبعد لحظة ، فان السمفونية التي كان يجب ان تحدث اعظم الأثر عنـــد وصول العذراء لم تكن موجودة . فقـــد رأى غرنغوار ان موسيقاه جرفهـا

الاحتفال بطواف بابا المجانين . الا انه قال بعزم :

– اصرفوا النظر .

واقترب من جماعة من البورجوازيين ظاناً انهم يتحدثون عن مسرحيته . وهذا هو الجزء الذي التقطه من الحديث :

– اتعرف يا معلم شنيتو قصر النافار الذي كان للسيد دي نيمور ؟

– نعم ، انه مقابل كنيسة براك ..

– لقد اجّرته مصلحة خزينة الدولة الى غليوم ألكسندر ، المؤرخ، بمبلـــغ ست ليرات وثمانية سول باريسية بالسنة .

– لـكم ارتفعت الايجارات !

فقال غرنغوار متأوهاً :

– لا بأس ، فالآخرون يستمعون .

وصاح فجأة احد المجانين الموجودين في النوافذ :

– ايها الرفاق . الأزميرالدا ! الأزميرالدا في الساحة !

وأحدثت هذه الكلمة تأثيراً سحرياً . فقد اسرع كل من بقي في القاعة الى النوافذ ، وتسلقوا الاسوار ليروا ، وهم يرددون : الأزميرالدا ! الأزميرالدا !

وفي الوقت نفسه تناهت من الخارج ضجة تصفيق عظيمة . وقال غرنغوار وهو يجمع يديه بحزن :

– ماذا يعني هـــذا ، الازميرالدا ؟ آه ! يا إلهي ! يبدو الآن انه دور النوافذ .

والتفت الى الطاولة الرخامية فرأى ان التمثيل قد انقطع . انها تماماً اللحظة التي يجب ان يظهر فيها جوبتير مع صاعقته . ولكن جوبتير كان يقف جامداً في اسفل المسرح . وصرخ الشاعر مهتاجاً :

– ميشال جيبورن ! ماذا تفعل هناك ؟ هل جـاء دورك ؟ اصعد اذن .

فقال جوبتير : للأسف ، فان احد الطلبة اخذ السلّم .

وتطلع غرنغوار . كان الأمر صحيحاً . وكان كل اتصال قد انقطع بين

عقدته ونهايته . فقال متمتماً :

– يا للشيطان ! ولماذا اخذ السلّم ؟.

فأجابه جوبتير بشكل يثير الشفقة :

– ليذهب لرؤية الازميرالدا ! فقد قال : هـــذا سلّم لا يستعمل !.. واخـذه .

وكانت هذه هي الضربة الاخيرة ، وقد تلقاها غرنغوار باستسلام . وقال للممثلين :

– ليأخذكم الشيطان . ولو دُفع لي لدفعت لكم .

ثم كان التقهقر ، منخفض الرأس ، ولكنه الاخير ، كقائد خسر المعركة .

وكان يتمتم بين اسنانه وهو يهبط ادراج القصر الملتوية :

– ان هؤلاء الباريسيين حشد جيل من الحمير والحمقى ! لقد جاءوا لاستماع مسرحية اللغز ولم يسمعوا منها شيئاً !.. واهتموا بجميع الناس ، بكلوبان ترويفو ، والكاردينال ، وكوبنول ، وكازيمودو ، والشيطان ! اما بالسيدة العذراء فلا . لو كنت اعلم لأعطيتكم الكثير من عذارى مريم ايها المتهوون بالنظر الى كل شيء ! وانا ! آتي لارى وجوهاً ولم ارَ سوى اقفيـــة ! اكون شاعراً وانجح نجاح صيدلي ! صحيح ان هوميروس قد تسول بواسطة القرى الاغريقية ، وان نازون [1] مات في المنفى عند الموسكوفيت . ولكني اريد ان يسلخني الشيطان اذا فهمت ما يعنون بكلمة الازميرالدا ! وقبل كل شيء ما هي هذه الكلمة ؟ أهي من اللغة الغجرية !

١ – انه أوفيد .

الكتاب الثاني

١

من شاريبد الى سيللا

(هرب من الدب فوقع في الجب)

يهبط الليل باكرا في كانون الثاني . وكانت الشوارع آنذاك مظلمة حين خرج غرنغوار من القصر . وقد راقه هذا الليل الهابط : اذ اخره عن الاقتراب من زقاق مظلم وضيق لكي يترك العنان فيه لتأملاته ولكي يضع الفيلسوف اول ضمادة على جرح الشاعر . كانت الفلسفة ملجأه الوحيد لانه لم يكن يعرف الى اين يأوي . وبعد الاجهاض الطنان لتجربته لم يكن يجرؤ على الدخول الى المسكن الذي يشغله في شارع غرنيه – سير – لو ، تجاه بور – اوفوان، بعد ان كان معتمداً على عطاء الحاكم عن قصيدته ليدفع الى المعلم غليوم دوسير ، المستكري حسب العادة في باريس ، اجرة ستة اشهر كان مديناً بها له ، اي اثني عشر سول باريسي ؛ يعني اكثر من قيمة ما يملك في هذه الدنيا باثنتي عشرة مرة ، بما في ذلك سرواله وقميصه وقبعته . وبعد ان فكر لحظة ، وقد اوى بشكل احتياطي الى ما تحت الكوة الصغيرة لسجن خازن سان شابيل ، في المأوى الذي يختاره لقضاء الليل ، وجميع بلاط باريس تحت تصرفه يختار منها ما يشاء، تذكر انه لمح في الاسبوع الماضي، في شارع سافاتيري على باب مستشار في البرلمان ، درجة تستعمل للصعود على ظهر البغلة ، وانه قال لنفسه ان هذا الحجر

سيكون عند الحاجة وسادة ممتازة لمتسول او لشاعر . وشكر العناية الالهية التي ارسلت اليه هذه الفكرة الجيدة ؛ ولكن فيما كان يتهيأ لاجتياز ساحـــة القصر ليصـــل الى متاهة الحي الملتوية حيث تتعرج كل تلك الأخوات المسنّات ، وشوارع باريلليري ، ولافياي درابيري ، ولاسافاتيري ، وشارع اليهود الخ .. التي لا تزال اليوم قائمة ببيوتها ذات الطوابق الجديدة ، رأى موكب طواف بابا المجانين الذي خرج من القصر واثباً خلال طريقه ، تصحبه صرخات عظيمة ، ونور عظيم من المشاعل ، وموسيقاه ، موسيقى غرنغوار . وقد بعث هذا المنظر الحياة في خدوش حب الذات عنده ؛ فهرب . ومرارة حادثته المأساتية جعلت كل مـــا يذكره بحفلة اليوم يثير غضبه وينزف جرحه .

واراد اجتياز جسر سان ميشال ولكن كان هنالك اطفال يركضون عليه ذهابا وايابا حاملين رماحا عليها مشاعل واسهم نارية .

– ليأخذ الطاعون الشموع الاصطناعية !

قال ذلك وانعطف باتجاه جسر اوشانج . وقـد ركزت في البيوت التي على الجسر ثلاثة اعلام تمثل الملك وولي العهد ومرغريت دي فـــلاندر ، وستة اعلام صغيرة تمثل دوق النمسا ، والكاردينال دي بوربون ، والسيد دي بوجو ، ومدام جان دي فرانس ، وبندوق البوربون ، ولا ادري من ايضا ؛ وكلهـــا مضاءة بالمشاعل وموضع اعجاب هذا الجمع الغفير . وقال غرنغوار مع آهة كبيرة :

– يا لجهان فوربوا الرسام السعيد !.

وادار ظهره للاعلام . وكان امامه شارع ؛ فوجده سيئا ومهجورا بحيث امل ان يتخلص فيه من كل دوي وبهاء الحفلة . ودخل فيه . واصطدمت رجله بعد لحظـات بعائق ، فترنح ووقع . انها حزمة ايار التي وضعها احـد خدم القصر الملكي صباحاً على باب رئيس في البرلمان على شرف احتفالات النهار . وقد احتمل غرنغوار هذا اللقاء الجديـد ببطولة ، ونهض وسار الى حـافة الماء تاركاً وراءه البرج المدني وبرج الاجرام ومشى محاذياً جدار حـدائق الملك ، على تلك الارض الرملية غير المبلّطة التي بلغ الوحل فيها كعبه ، ووصـل الى النقطة الغربية من

الحي وتأمل بعض الوقت جزيرة (باسور - او - فاش) التي اختفت منذ زمن تحت الجواد البرونزي والجسر الجديد ، وبدت له الجزيرة الصغيرة في الظلام ككتلة سوداء من وراء مجرى الماء الضيق الابيض الذي يفصله عنها. وكان يُرى، على شعاع ضوءٍ خفيفٍ نوعٌ من الكوخ على شكل قفير يأوي اليه المار ليلاً الى البقرات (باسور - او - فاش) .

وفكر غرنغوار :

- انها المار السعيد الى البقرات ! انت لا تفكر بالمجد ولا تنظم قصائد الاعراس ! ماذا يهمك الملوك الذين يتزوجون ودوقات بورغونيا ! انت لا تعرف زهرات ربيع اخرى سوى تلك التي تعطيها ارضك الخضراء في نيسان لبقراتك كي تقضمها ! وانا ، كشاعر ، فقد كنت موضع هزء ، وها انا ارتجف من البرد ، ومدين باثني عشر فلساً ، ونعلي شفاف جداً بحيث يمكن استعماله زجاجاً لفانوسك . شكراً ! ايها المار الى البقرات ! ان كوخك اراح حياتي وجعلني انسى باريس !

وايقظه من ذهوله شبه الغنائي صاروخ سان جان المزدوج الضخم الذي انطلق فجأة من الكوخ السعيد . انه المار الى البقرات الذي نال نصيبه من متع النهار فأطلق نيراناً اصطناعية .

لقد أثار هذا الصاروخ غضب غرنغوار فصاح :

- ايها الاحتفال الملعون ! اتتبعني الى كل مكان ؟ اوه ! يا إلهي ! حتى الى عند المار الى البقرات ؟..

ثم تطلع الى نهر السين تحت قدميه واجتاحته رغبة مرعبة ، فقال :

- اوه ! لكم احب ان أغرق بكل طيبة خاطر لو لم يكن الماء بارداً !

وحينئذٍ جاءه حل بائس . ذلك لأنه لا يستطيع التخلص من بابا المجانين ، ومن اعلام جهان فوربو ، ومن حزمات ايار ، ومن الرماح الملتهبة والصواريخ

ولا ان يتغلغل بجرأة في قلب الاحتفال ، وان يذهب الى ساحة غريف . وقد قال مفكراً :

— سيكون لي على الاقل جذوة من نار الفرح اتدفأ عليها ، واستطيع ان اتعشى بقطعة من ثلاثة شعارات كبيرة من السكر الملكي التي يجب ان توضع على مقصف المدينة العام .

٢

ساحة غريف

لم يبق اليوم سوى اثر طفيف جداً من ساحة غريف كما كانت آنذاك . وهذا الاثر هو البرج اللطيف الذي يحتل الزاوية الشمالية من الساحة ، والذي كان مخبأ تحت طلاء رديء يلوث زوايا حفّاريه الناتئة ، وقـــد اختفى تقريباً بعد ذلك ، مغموراً بتلك البيوت الجديدة غير اللائقة والتي تفترس بسرعة جميع واجهات بيوت باريس القديمة .

والاشخاص مثلنا الذين لم يمروا في ساحة غريف دون ان يلقوا نظرة شفقة وتعاطف على ذلك البرج الصغير المخنوق بين خربتين من زمن لويس الخامس عشر ، يستطيعون بسهولة ان يعيدوا في فكرهم بناء مجموع الابنية التي كانت فيها ويجدوا بها كلها الساحة القوطية القديمة من القرن الخامس عشر .

لقد كانت ، كاليوم ، شبه منحرف غير منتظم محاطاً بالرصيف من جهة ، ومن الجهات الثلاث الاخرى بسلسلة من البيوت العالية ، الضيقة ، المظلمة . وفي النهار يمكن الاعجاب بتنوع ابنيتها المحفورة بالحجر او بالخشب ، ممثـــلة عينات كاملة من فنون البناء العائلية المتنوعة في القرون الوسطى ، صعوداً من القرن الخامس عشر الى القرن الحادي عشر ، منذ النافذة المربعة التي بدأت تحل محل الشكل المخروطي ، حتى العقد الروماني الذي حل الشكل المخروطي محـــله ، والذي لا يزال يشغل تحته الطابق الاول من ذلك البيت القديم في تور – رولان ، في زاوية الساحة على السين ، من ناحية شارع لا تانيري . وفي الليل لا يمكن

التميز من تلك الكتلة السوداء من الابنية سوى التسنين الاسود للسطوح الناشرة حول الساحة سلسلة زواياها الحادة . لان ذلك هو احد الفروق الجذرية بين مدن الماضي ومدن الحاضر ، واليوم فالواجهات هي التي تتطلع الى الساحات والشوارع بينما في الماضي كانت جدران السقف (الجملون) . ومنذ قرنين انقلبت البيوت .

في الوسط ، من الناحية الشرقية من الساحة ، ارتفع بناء غير انيق ينتمي الى طرازين ومؤلف من ثلاثة مساكن متصلة . وله ثلاثة اسماء توضح تاريخه ، والغاية منه ، وهندسة بنائه : بيت ولي العهد ، لأن شارل الخامس كان قد سكنه وهو ولي للعهد ؛ والبضاعة ، لانه كان يستعمل كدار للبلدية ؛ والبيت ذو الاعمدة ، بسبب سلسلة من الاعمدة الضخمة تسند طوابقه الثلاثة . وكانت المدينة تجد هناك كل ما يلزم لمدينة جميلة كباريس : كنيسة لأجل الصلاة لله ؛ وقاعة مرافعة لاجل الجلسات وتعنيف رجال الملك عند الحاجة ؛ وفي اعلى البناية مخزن للاسلحة مليء بالمدفعية . لان بورجوازيي باريس يعرفون انــه لا تكفي الصلاة والمرافعة عند كل فرصة لاجل حرية المدينة ، وهم يحتفظون دائماً ببعض البنادق الصدئة في احدى علالي دار البلدية .

كان لساحة غريف منذ ذلك الوقت هذا المنظر المشؤوم الذي لا تزال تحفظه له الى اليوم تلك الفكرة المقرتة المستيقظة ودار دومينيك بوكادور المظلمــة ، التي حلت محل بيت الاعمدة . ويجب القول ان آلة للتعذيب وعموداً يربط به المذنب دائمين ، او عدالة ّ وسلماً ، كما كان يقال آنذاك يقومان جنباً الى جنب وسط الشارع ، ولا يساعدان على تحويل الانظار عن ذلك المكان المشؤوم الذي لاقت فيه حتفها كثير من الكائنات المليئة بالصحة والحياة ؛ وحيث يجب ان تنشأ بعد خمسين سنة « حمّى سان فاليه » ، مرض الرعب من المقصــلة ، وهو الاشنع بين جميع الامراض لانه لا يأتي من الله ، بل من الانسان .

ولنقل في معرض الحديث انها فكرة معزية ان نظن بان عقوبة الموت التي لا تزال منذ ثلاثمائة سنة ترحم بدواليبها الحديدية ، وبآلة تعذيبهــا الحجرية ، وبكل عتادها التعذيبي الدائم المتمكن في الشارع ، ساحة غريف ، والاسواق ،

وساحة دوفين ، وصليب تراهيـور ، وسوق الخنازير ، ومونفوكون القبيحة ، وحاجز الرقباء ، وساحة المررة ، وباب سان دنيس ، وشامبو ، وباب بوديه ، وباب سان جاك ، دون ان نذكر ادراج الحكام التي لا مثيل لها ، والاسقف، ومجلس الرهبان والكهنة ، والمصلين الناشدين العدالة ؛ ودون ان نذكر عمليات الغرق القانوني في نهر السين ؛ ومما يبعث على التعزية ان هذه الاقطاعات القديمة للمجتمع الاقطاعي ، الموضوعة تقريباً خارج قوانيننا ومدننا ، والمطرودة من قانون الى قانون ، ومن مكان الى مكان ، بعد ان خسرت بالتتابع جميع قطع اسلحتها ، وفخامة تعذيبها ، ونظام عقوبات مخيلتها واوهامها ، وعملية عذابها التي كانت تصنع لها كل خمس سنوات سريراً جلدياً في غراند شاتليه ، ليس لها في باريس الفسيحة سوى زاوية مشينة في ساحة غريف ، وسوى مقصلة بائسة ، خفية ، قلقة ، خجلة ، تبدو دائماً انها خائفة ان تؤخذ بالجرم المشهود ما دامت تختفي بسرعة بعد ان تقوم بضربتها !

٣

قبلات مقابل ضربات[١]

حين وصل غرنغوار الى ساحة غريف كان يرتعد . وكان قد سار في طريق جسر اومنيه ليتجنب الحشد على جسر اوشانج وبيارق جهان فوربو ؛ ولكن دواليب جميع طواحين الاسقف قد لطخته اثناء مروره ، وكانت عباءته مبللة . وفضلا عن ذلك فقد بدا ان سقوط مسرحيته جعله اكثر تأثراً بالبرد . وقد اسرع بالاقتراب من نار الفرح التي كانت تشتعل بشكل لطيف في وسط الساحة ولكن جمهوراً عظيماً كان يشكل دائرة حولها . فقال لنفسه ، لأن غرنغوار كشاعر مسرحي حقيقي كان يميل الى المناجاة :

– الباريسيون الهالكون ! ها هم يسدّون على النار ! مع انني بحاجة الى زاوية بقرب الموقد . ان حذائي يشرب ، وهذه الطواحين الملعونة كلها بكت علي ! يا لأسقف باريس الشيطان مع طواحينه ! لكم اريد ان اعرف ما يستطيع اسقف ان يفعله بطحنة ! هل ينتظر ان يصبح اسقفاً طحاناً ؟ اذا لم يعوزه سوى لعنتي لاجل ذلك ، فاني اعطيه اياها ، ولكاتدرائيته ، ولطواحينه ! انظر قليلا اذا كان هؤلاء المضيعو الوقت قد حادوا عن عملهم ! اني اسألك ماذا يفعلون هناك ! انهم يتدفأون ؛ ما اجملها لذة ! انهم يرون احتراق مئة حزمة من الحطب ؛ ما اجمله منظراً !

وحين تفحص عن قرب رأى ان الدائرة كانت اكبر بكثير مما يلزم للتدفئة

---

١ – عبارة باللغة الاسبانية في الاصل .

بنار الملك ، وان ازدحام المتفرجين لم يكن سببه جمال المئة حزمة من الحطب التي تحترق .
ففي فسحة واسعة تركها الجمهور والنار فارغة كانت هنالك فتاة ترقص .
ولم يستطع غرنغوار ان يقرر لأول وهلة ، مهما كان فيلسوفاً ارتيابياً او شاعراً ساخراً ، فيما اذا كانت هذه الفتاة كائناً بشرياً ، او جنية ، او ملاكاً ، مع انه اصيب بالذهول لهذا المنظر الباهر .
لم تكن كبيرة ولكنها تبدو كذلك ما دامت قامتها الدقيقة تنطلق بجرأة . كانت سمراء ولكن بشرتها في النهار ينعكس عليها نور الاندلسيات والرومانيات المذهب . ورجلها الصغيرة اندلسية ايضاً لانها كانت بمجموعها محصورة ومرتاحة في حذائها الظريف . كانت ترقص ، وتدور على سجادة فارسية قديمة ملقاة باهمال تحت قدميها ؛ وفي كل مرة تدور كان وجهها المتألق يمر امامك ، وعيناها الكبيرتان السوداوان تقذفانك بالبرق .
كانت جميع الانظار حولها متطلعة اليها ، وجميع الافواه مفتوحة ؛ وبالفعل ، فقد كانت مخلوقة فوق الطبيعة حين كانت ترقص على طنين دف باسكي ، وذراعاها المستديران الناصعان يرتفعان فوق رأسها ، رقيقة ، واهنة ، حية كالزنبور ، بقميصها الاعلى الذهبي الذي لا طيات فيه ، وثوبها المبرقش المنتفخ ، وكتفيها العاريين ، وساقيها الناعمين اللذين تكشفهما تنورتها احياناً ، وشعرها الاسود وعينيها الملتهبتين . وقال غرنغوار مفكراً :
– بالحقيقة انها سمندل ، انها حورية ، انها إلهة ، انها احدى كاهنات باخوس في جبل مينالين .
في تلك اللحظة انحلت احدى ضفائر « السمندل » وتدحرجت قطعة نحاسية كانت معلقة بها على الارض ، فقال :
– هيه ، كلا ! انها غجرية .
وزال كل وهم .
وعادت الى الرقص . واخذت من الارض سيفين اسندت رأسيها الى جبهتها

وجعلتها يدوران في جهة بينما هي كانت تدور الى الجهة الاخرى . لقد كانت بالفعل غجرية ، ولكن مهما كان تخلص غرنغوار من السحر فان مجموع هذه اللوحة لم يكن دون فتنة ودون سحر ؛ كانت نار الفرح تلقي عليها نوراً احمر يرتجف لامعاً على دائرة وجوه الجمهور وعلى جبهة الفتاة السمراء ويلقي في اعماق الساحة نوراً منعكساً شاحباً ممزوجاً بذبذبات ظلال الجمهور ، على واجهة بيت الاعمدة القديمة السوداء المتغضنة من ناحية ، ومن الناحية الاخرى على الذراع الحجري لآلة التعذيب .

من بين الوف الوجوه التي يصبغها هذا الألق باللون القرمزي كان هناك واحد يبدو مستغرقاً في تأمل الراقصة اكثر من الوجوه الاخرى . انه وجه رجل صارم ، هادىء ، وعابس . هذا الرجل الذي كان الجمهور المحيط به يخفي ملابسه، لم يكن يبدو ان عمره يتجاوز الخامسة والثلاثين ؛ ومع ذلك فهو اصلع ، يكاد لا يكون على صدغيه بعض من الشعر الاشهب ، بجبهة عريضة عالية بدأت تحفرها الغضون ، ولكن في عينيه الغائرتين يلتمع شباب خارق للعادة ، وحياة ملتهبة ، وعاطفة عميقة . كان يبقي عينيه دون انقطاع عالقتين بالغجرية . وحين كانت الفتاة المجنونة بنت السادسة عشرة ترقص وتطير بين سرور الجميع كانت احلامه الخاصة تزداد دكنة . وكان يلتقي على شفتيه من وقت لآخر آهة وابتسامة ، ولكن الابتسامة كانت اكثر إيلاماً من الآهة .

وتوقفت الفتاة اخيراً وقد ضاق نفسها ، وصفق لها الجمهور بمحبة ، ونادت الغجرية :

– دجالي !

وحينئذٍ رأى غرنغوار معزاة صغيرة ، جميلة ، بيضاء ، ناشطة ، نبيهة ، مجلوة ، بقرنين مذهبين ، واقدام مذهبة ، وطوق مذهب . ولم يكن قد شاهدها قبلاً لانها ظلت حتى ذلك الوقت مقعية على احدى زوايا السجادة ، متطلعة الى صاحبتها وهي ترقص .

وقالت الراقصة : جاء دورك يا دجالي .

وجلست وقدمت دفها الباسكي بلطف الى المعزاة وقالت :
– دجالي ، في اي شهر نحن من السنة ؟ ..
فرفعت المعزاة رجلها الامامية وضربت ضربة واحدة على الدف وقد كنا فعلاً في الشهر الاول . وصفق الجمهور .
وتابعت الفتاة وهي تدير دفها الباسكي من الناحية الاخرى :
– دجالي ، في اي يوم من الشهر نحن ؟ ..
فرفعت دجالي قدمها الذهبية الصغيرة وضربت ست ضربات على الدف .
وتابعت الغجرية بعد ان قامت بحركة جديدة من الدف :
– دجالي ، في اية ساعة نحن من اليوم ؟
فضربت دجالي سبع ضربات . وفي اللحظة نفسها دقت ساعة بيت الاعمدة سبع دقات .
وكان الناس في منتهى الدهشة .
– هنا يوجد سحر .
هكذا قال صوت مشؤوم بين الجمهور . انه صوت الرجل الاصلع الذي لم يفارق نظره الغجرية .
وارتجفت ، والتفتت ؛ ولكن التصفيق قد انفجر وغطى على الهتاف الشرس.
لقد محاه التصفيق من نفسها تماماً لانها استأنفت سؤال معزاتها :
– دجالي ، كيف يصنع المعلم غيشار غران – ريمي قائد حملة الخناجر في المدينة في عيد دخول المسيح الى الهيكل ؟..
فانتصبت دجالي على قدميها الخلفيتين واخذت تثغو وهي تمشي بتوازن لطيف مما جعل دائرة المتفرجين كلها تنفجر ضاحكة لهذا التقليد الساخر لورع قائد حملة الخناجر النفعي .
وتابعت الفتاة وقد زادها نجاحها المتزايد جرأة :
– دجالي ، كيف يعظ المعلم جاك شارمولو وكيل الملك في ساحة الكنيسة ؟
فجلست المعزاة على مؤخرها وبدأت تثغو محركةً قدميها الاماميتين بشكل

غريب باستثناء الفرنسية الرديئة واللاتينية السيئة ، اما الحركة واللهجة والهيئة ، فكما هو المعلم جاك شارمولو .

وصفق لها الجمهور كأجمل ما يكون التصفيق . وتابع صوت الرجل الاصلع:

– انه تدنيس وانتهاك لحرمة المقدسات !

والتفتت الغجرية مرة اخرى وقالت :

– آه ! انه ذلك الرجل الدميم !

ثم مطت شفتها السفلى الى ما فوق الشفة العليــــا ، ورسمت كشرة خفيفة بدت انها معتادة عليها ، ثم دارت على عقبيها واخذت تتلقى اعطيات الجمهور في الدف الباسكي .

واخذت القطع النقدية تتساقط كالمطر . وفجأة مرت امام غرنغوار فوضع يده بطيش في جيبه ثم هتف : – يا للشيطان ! وذلك حين وجد الحقيقة في اعماق جيبه ، اي الفراغ . الا ان الفتاة الجميــلة كانت هناك تنظر اليه بعينيها الكبيرتين ، مادة اليه دفها وهي تنتظر . وسال العرق من غرنغوار بقطرات كبيرة .

لو كانت بلاد البيرو في جيبه لاعطاها الراقصة بكل تأكيد ؛ ولكن البيرو لم تكن مع غرنغوار ، وكذلك فان اميركا لم تكن قد اكتشفت بعد .

وشاء حسن الحظ ان تأتيه النجدة من حادث غير منتظر ، إذ صرخ صوت شرس آتٍ من زاوية الساحة الاكثر ظلاماً :

– ألا تذهبين يا جرادة الغجر ؟

فالتفتت الفتاة خائفة . انه لم يكن صوت الرجل الاصلع ؛ لقد كان صوت امرأة ، صوتاً ورعاً وشريراً .

والنتيجة ان هذا الصوت الذي أخــــاف الغجرية بعث السرور في فرقة من الاولاد كانت تطوف هناك . وصرخ الاولاد بضحكات مشوشة .

– انها حبيسة برج رولان ، انها الراهبـــة المزمجرة !.. الم تتناول عشاءها بعد ؟ لنحمل اليها شيئاً من بقايا مقصف المدينـــة .

وامرع الجميع نحو بيت الاعمدة .

واغتنم غرنغوار فرصة اضطراب الراقصة ليختفي . فقد ذكّره هتاف الاولاد انه لم يتناول عشاءه بعد ، وركض الى المقصف ، ولكن الشياطين الصغار كانوا ذوي سيقان افضل منه ؛ فحين وصل كانوا قد مسحوا المائدة ، حتى انه لم يبق اية قطعة من الحلوى التي تساوي الليبرة منها خمسة سول . ولم يكن قد بقي على الجدار سوى ازهار الزنبق اللطيفة مختلطة بأغراس الورد التي رسمها ماتيو بيترن عام ١٤٣٤ . لقد كان عشاءً هزيلاً .

ان النوم دون عشاء امر مزعج ؛ وعدم العشاء وعدم معرفة مكان النوم امر اقل إضحاكا ، وكان غرنغوار في صميم هذه الحالة . لا خبز ولا مأوى ؛ وقد رأى الحاجة تضغط عليه من جميع النواحي ، ووجد الحاجة صعبة جداً . وكان قد اكتشف منذ وقت طويل هذه الحقيقة ، بأن جوبتير خلق الناس في نوبة من النفور منهم ، وانه طوال حياته كحكيم كان مصيره يحاصر فلسفته ، بينما هو فانه لم يرَ الحصار كاملاً بهذا الشكل ابداً ؛ كان يسمع معدته وهي تقرع الطبل علامة الاستسلام . وقد رأى ان استيلاء الحظ السيء على فلسفته بواسطة المجاعة أمر في غير موضعه .

وكان قد ازداد استغراقه في هذا الحلم الكئيب حين انتزعه منه غناء غريب مليء بالعذوبة . لقد كانت الغجرية الفتية هي التي تغني .

كان في صوتها ما في رقصها وما في جمالها . كان شيئاً جذاباً لا يمكن تحديده؛ شيئاً نقياً ، رناناً ، هوائياً ، مجنحاً اذا صح القول . كان بشراً مستمراً وانغاماً، وايقاعات غير منتظرة ، ثم عبارات بسيطة مذاعة بألحان لاذعة منغمة ، ثم وثبات موسيقية تحير البلبل الا ان التناسق موجود فيها دائماً ، ثم تموجات طربة من اللحن الثامن كانت ترتفع وتنخفض كصدر المغنية الشابة. وكان وجهها الجميل يتبع بحركة غريبة جميع نزوات اغنيتها، من الاغراء الاكثر احتداماً حتى الوقار الاكثر عفة . حتى ليقال انها تارة مجنونة وطوراً ملكة .

كان الكلام الذي تغنيه من لغة يجهلها غرنغوار ، وكان يبدو انها هي نفسها

تجهلها لان التعبير الذي كانت تعطيه للغناء قليلاً ما يتعلق بمعنى الكلام . وهكذا كانت هذه الابيات الاربعة مرحة في فمها :

صندوق ثمين جداً
وجدوه في عمود ،
وفي داخله رايات مجهولة
ذات صور مرعبة [1] .

وبعد لحظة من اللهجة التي اعطتها لهذه القطعة :

عرب على خيولهم
لا يستطيعون التحرك ،
وسيوفهم في حمائلها ،
وقسي بعيدة المدى .

وشعر غرنغوار ان دموعه صعدت الى عينيه ، مع ان غناءها يشتم منه السرور ، وكانت تبدو انها تغني كالعصفور ، بطلاقة وعدم اكتراث .

لقد شوشت اغنية الغجرية احلام غرنغوار ولكن كما تشوش البجعة الماء . وكان يصغي اليها بنوع من النشوة ونسيان كل شيء . انها اول لحظة لم يشعر فيها بالالم منذ عدة ساعات .

فصوت المرأة نفسه الذي قطع رقص الغجرية جاء يقطع غناءها ، اذ صرخت من نفس الزاوية المظلمة في الساحة :

– ألا تسكت ايها الصرصور !

وتوقف الصرصور المسكين فجأة ، وسد غرنغوار اذنيه وقال :

– اوه ! لعن الله ذلك المنشار المفلول الذي كسر القيثارة .

وكذلك تمتم المتفرجون مثله ، وقال اكثر من واحد :

---

١ – هذه الابيات والتي بعدها استخرجت من رومانسيرو اسباني حول دخول الملك رودريغ الى طليطلة . وقد نشرها آبيل هيغو غير خالية من الاخطاء عام ١٨٢١ وترجمها في السنة التالية لويس روانيه . وهي في النص بالاسبانية .

- لتذهب الحبيسة الى الشيطان !..

كان من الممكن ان يجعل الجمهور تلك الهرمة المختبئة ، مشوشة الحفلات ، تندم على مهاجمتها الغجرية لو لم يكن ملتهياً في تلك اللحظة بموكب طواف بابا المجانين الذي اندفع الى ساحة غريف بجميع مشاعله وصخبه ، بعد ان طاف الشوارع ومفارق الطرق .

ان هذا الموكب الذي رآه قراؤنا يسير من القصر كان قد تنظم اثناء الطريق واجتذب كل ما في باريس من لصوص وسارقين وفارغي الاشغال وأفاقين جاهزين ؛ وكان يمثل منظراً محترماً حين وصل الى ساحة غريف .

كان الغجر يسيرون في المقدمة وعلى رأسهم دوق مصر على جواده ومعه اركان حربه يسيرون على الاقدام ويمسكون باللجام والركاب ؛ ووراءهم الغجر نساءً ورجالاً مختلطين مع اطفالهم الصارخين على اكتافهم ، والجميع من دوقات وكونتات وعامة الشعب بالاسمال والثياب البالية . ثم مملكة الأرغو : يعني جميع لصوص فرنسا مرتبين حسب الجدارة ؛ والاقل جدارة يسيرون أولاً . وهكذا تتابعوا اربعةً اربعة مع شعارات رتبهم المتنوعة في تلك الكلية العجيبة، وينقص معظمهم عضو ، فهؤلاء عرج واولئك كتع ، وأقزام ، الخ ... انه احصاء يتعب هوميروس . ومن الصعب تمييز ملك الارغو في وسط هذا المجمع ، اذ ان القيصر الكبير كان مقعياً في عربة صغيرة يجرها كلبان كبيران . وبعد مملكة الارغو جاءت امبراطورية الجليل . وكان غليوم روسو امبراطور الجليل يمشي بعظمة في ثوبه الارجواني المبقع بالنبيذ ، يتبعه مهرجون يتعاركون ويرقصون بالسلاح ، ويحيط به حجابه ومساعدوه، ومستخدمون من غرفة مدققي حسابات الخزينة ، واخيراً جاء رجال الحاشية يحملون اشجار ايار متوجة بالزهر وملابسهم سوداء ، وموسيقاهم جديرة بجمع السحرة ، ومصابيحهم الضخمة من الشمع الاصفر . والضباط الكبار من جمعية المجانين في وسط هذا الجمهور يحملون على اكتافهم محملاً عليه من الشموع اكثر مما يكون على صندوق ذخائر القديسة جنفياف ايام الطاعون . وعلى هذا المحمل بابا المجانين الجديد ، قارع اجراس

كنيسة نوتردام ، كازيمودو الاحدب ، متألق يحمل الصولجان ، ويرتدي طيلسان الكرادلة ويعتمر التاج الاسقفي .

ولكل فصيلة من هذا الموكب الغريب موسيقاها الخاصة . الغجر يقرعون طبولهم الافريقية ، والارغو ، وهم جنس غير موسيقي إلا في النادر ، يعزفون على كمنجة كبيرة ، وبوق ، وربابة من القرن الثاني عشر . ولم تكن امبراطورية الجليل متقدمة ، اذ هناك في موسيقاها نوع تافه من الربابة لا يكاد يبين ، ويعود الى طفولة الفن ولا تتعدى انغامه ري – لا – مي في السلم الموسيقي . ولكن كانت تنتشر حول بابا المجانين باصوات متباينة بديعة ، جميع الثروات الموسيقية في ذلك العصر . ولم يكن ذلك سوى انواع متقدمة من الربابة ، دون ان نعد مجموعة الناي والآلات النحاسية . ومما يدعو للأسف ان قراءنا سيتذكرون ان هذه الموسيقى هي جوقة غرنغوار .

ومن الصعب اعطاء فكرة عن درجة الانشراح الفخور المغتبط التي توصل اليها كازيمودو الحزين البشع في الرحلة من القصر الى ساحة غريف . لقد كانت اول متعة لحب الذات شعر بها في حياته . فهو لم يكن يعرف حتى الآن سوى الاهانة والاحتقار لوضعه ، والتقزز من شخصه . ومع انه أصم فقد تذوق ، كبابا حقيقي ، هتاف ذلك الجمهور الذي يكرهه ، لشعوره انه مكروه منه . وليكن شعبه لمامة من المجانين ، والمقعدين ، والسارقين والمتسولـــين ، فهذا لا يهم !.. انه دائماً شعب وهو ملك. وقد حمل على محمل الجد كل ذلك التصفيق الساخر، وكل تلك الاحترامات الهازئة التي يجب ان نقول انها تمتزج عند الجمهور بخوف حقيقي ، لان الاحدب كان شديد القوة ؛ ولأن معوج الساقين كان خفيف الحركة ، ولأن الأصم كان شرساً : صفات ثلاث تلطّف المضحك .

اما القول بان بابا المجانين الجديـد قدم لنفسه حساباً عن العواطف التي شعر بها والعواطف التي اوحاها فهذا ما لم نعتقده . فالروح الساكنة في هـذا الجسد الناقص كان عندها بالضرورة شيء من الناقص والأصم . وما يشعر به في تلك اللحظة كان مبهماً وغـــير واضح ومشوشاً . ولكن السرور فقط كان ظاهراً

والكبرياء مسيطرة . لهذا كان هناك تهلل حول ذلك الوجه الداكن التعس .

وفي اللحظة التي كان فيها كازيمودو يمر بانتصار امام بيت الاعمدة لم تكن دون مفاجأة او ذعر رؤية رجل من الجمهور ينطلق لينتزع من يديه بحركة غضب عكازه الخشبي المذهب ، شعار بابويته المجنونة .

وذلك الرجل ، ذلك المجازف ، كان نفس الشخص ذي الجبهة الصلعاء الذي اختلط قبل لحظة بجمهور الغجرية وارعب الفتاة المسكينة بكلامه المليء بالتهديد والبغض . كان يرتدي ثياباً كهنوتية. وفي اللحظة التي خرج فيها من بين الجمهور عرفه غرنغوار الذي لم يكن لاحظه حتى الآن ، وقال بصرخة دهشة :

– انه استاذي في السحر الدوم كلود فرولو كاهن الابرشية !

ماذا يريد بهذا الاعور البشع ؟ انه سيصبح فريسة .

وبالفعل فقد ارتفعت صرخة رعب . اذ اسرع كازيمودو بالنزول الى اسفل المحمل ، وحولت النساء عيونهن لئلا يرونه وهو يمزق الكاهن .

إلا انه قفز قفزة نحو الكاهن ، وتطلع اليه وخر راكعاً .

فنزع الكاهن عنه تاجه ، وكسر عصاه ، ومزق ثوبه المطرز . وظل كازيمودو راكعاً ، وخفض رأسه وضم يديه .

ثم جرى بينهما حوار غريب بالاشارات والحركات لان احداً منهما لم يتكلم . الكاهن واقف ، ثائر مهدد ، متغطرس ، وكازيمودو ساجد ، خاضع ، متوسل . إلا ان من المؤكد ان بامكان كازيمودو ان يسحق الكاهن بابهامه .

واخيراً هز الكاهن بشدة كتف كازيمودو المتين واشار اليه ان ينهض ويتبعه . ونهض كازيمودو .

وبعد ان زال الذهول ارادت جمعية المجانين ان تدافع عن البابا الذي اسقط فجأة عن عرشه . وجاء الغجر والارغو والحاشية يعوون حول الكاهن .

فوقف كازيمودو امام الكاهن ، ولاعب عضلات قبضته وتطلع الى المهاجين وهو يصر باسنان نمر غاضب .

واستعاد الكاهن وقاره واشار الى كازيمودو ، وانسحب بصمت . وكان

كازيمودو يمشي امامه مشتتاً الجمهور عند مروره .

وحين اجتاز الناس والساحة اراد جمهور الفضوليين والعاطلــين عن العمل اللحاق بهما ، فمشى عندئذٍ كازيمودو في المؤخرة للحراسة ، وتبع الكاهن ماشياً الى الوراء ، مكردماً ، متجهماً ، مسيخاً ، منتفشاً ، ململماً اعضــاءه ، لاحساً اسنانه التي تشبه اسنان الخنزير البري ، مزمجراً كالحيوان ، محدثاً في الجمهـور تحركات كبيرة بحركة او بنظرة .

وتركوهما يدخلان في شارع ضيق مظــلم لا يجرؤ احد على المخاطرة فيه وراءهما ، ما دام كابوس كازيمودو صار" باسنانه يسد المدخل . وقال غرنغوار :

– ما ابدع هذا ! ولكن بحق الشيطان اين اجد عشائي ؟

٤

مساوىء ملاحقة امرأة جميلة

مساءً في الشوارع

اخذ غرنغوار يتبع الغجرية . فقـــد رآها تسير مع معزاتها في شارع كونتللري ، فسار في شارع كونتللري قائلًا : ولماذا لا ؟

وغرنغوار كفيلسوف عملي لشوارع باريس ، كان قد لاحظ انه ما من شيء يناسب الاحلام سوى ملاحقة امرأة جميلة دون ان يعلم الى اين يسير . ويوجد في هذا التخلي الارادي عن حرية ارادته ، في ذلك الوهم الذي يخضع لوهم آخر ، والذي لا شك فيه ، مزيج من الاستقلال الجامع والطاعة العمياء وما لا اعرف من وسيط بين العبودية والحرية يعجب غرنغوار ، روح مختلطة بشكل جوهري مترددة ومعقدة ، آخذة بطرف كل النهايات ، معلقة دون انقطاع بين جميع الميول الانسانية وتجمدها الواحدة بعد الآخرى . كان يقارن نفسه بقبر نبي[1] ، يجذبه الى اتجاه معاكس حجرا مغناطيس ، ويتردد ابداً بين الاعلى والاسفل ، بين القبو والشارع ، بين السقوط والصعود ، بين سمت الرأس وسمت القدم .

---

١ – يتهجم فكتور هيغو في مؤلفاته كثيراً على الاديان والانبياء ونبيهم ومن اراد التثبت من ذلك فليراجع بوجه خاص ديوانه « المشرقيات » .

المعرب

لو كان غرنغوار يعيش في ايامنا ، فأي محيط جميل يبقيه بين الكلاسيك والرومانتيك !

ولكنه لم يكن بدائياً بشكل كاف ليعيش ثلاثماية سنة ، وهذا مؤسف . وغيابه فراغ لا يمكن اليوم الا ان نشعر به .

والنتيجة ، فملاحقة المارة في الشوارع (وخصوصاً المارّات) ، وهذا ما يفعله غرنغوار مختاراً ، لا يوجد حالة مزاج افضل من ان لا يعرف اين ينام.

اذن فقد كان يسير مستغرقاً في افكاره وراء الفتاة التي كانت تسرع الخطى وتجعل معزانها تخب وراءها حين رأت عودة البورجوازيين الى بيوتهم ، وإقفال الحانات ، وهي المتاجر الوحيدة التي كانت مفتوحة هذا النهار . وفكّر بعد قليل :

– بعد كل هذا يجب ان تكون ساكنة في احدى النواحي ؛ ان للغجر قلوباً طيبة – من يدري !

وكان في نقاط التوقف في كلامه لا ادري اية افكار لطيفة . ومع ذلك ، فمن وقت لآخر ، واثناء مروره امام الجماعات الاخيرة من البورجوازيين وهم يغلقون ابوابهم ، كان يلتقط بعض النتف من احاديثهم التي قطعت سلسلة افتراضاته الضاحكة .

فتارة اثنان من الشيوخ يقتربان :

– اتدري يا معلم تيبو فرنيكل ان الطقس بارد ؟..

(كان غرنغوار يعرف ذلك منذ بدء الشتاء) .

– نعم ، كثيراً يا معلم بونيفاس ديتروم ! ايمكن ان يكون شتاؤنا هذا كالشتاء الذي مرّ منذ ثلاث سنوات ، في السنة الثمانين ، حيث كان سعر قالب الحطب ثمانية سول ؟

– باه ! هذا لا شيء يا معلم تيبو ، انه قريب من شتاء عام ١٤٠٧ حيث بدأ الجليد من سان مارتان حتى لاشدلير ! وبشكل مهتاج بحيث ان ريشة كاتب

البرلمان كانت تتجمد في القاعة الكبرى بين كل ثلاث كلمات ! الامر الذي قطع تسجيل العدالة .

وفي مكان اكثر بعداً كان هناك جيران في نوافذهم يحملون مصابيح جعلها الضباب تتشنج .

– هل حدثك زوجك عن المصيبة يا سيدة لا بودراك ؟

– كلا ، ما ذاك يا سيدة توركان ؟

– ان جواد السيد جيل غودان كاتب عدل شاتليه قد اجفل من الفلاندريين وطوافهم وقد قلب المعلم فيليبو امزيو خادم رهبانية سلستين .

– احقيقة ؟

– نعم .

– حصان بورجوازي! انه قليل القوة . ولو كان حصاناً من فرقة الخيالة ، حبذا ذلك !..

واغلقت النوافذ . ولكن غرنغوار كان قد اضاع خيط افكاره . ولحسن الحظ عاد فوجده بسرعة وعقده دون جهد بفضل الغجرية ، وبفضل دجالي اللتين كانتا تسيران امامه دائماً ؛ مخلوقتان ناعمتان ، لطيفتان ، فاتنتان ، كان يعجب بالاقدام الصغيرة والاشكال الجميلة ، والصور الظريفة ، ويمزج كل ذلك في تأملاته ؛ وكان يظنهما فتاتين من ناحية الذكاء والصداقة الطيبة ؛ اما من ناحية الخفة والنشاط ، ومهارة المشية فيجدهما معزاتين .

وفي كل لحظة كانت الشوارع تصبح اكثر سواداً وإقفاراً . وقد دقت إشارة منع التجول ليلاً منذ وقت طويل . ولم يعد يلتقي الا في فترات طويلة بأحدٍ من المارة في الشارع ، او بنور في النوافذ . وكان غرنغوار مرتهناً بالسير على اثر الغجرية في تلك المتاهة المستغلقة في الشوارع الصغيرة ، ومفارق الطرق ، والازقة التي تجاور مقبرة سان اينوسان القديمة والتي تشبه كبة من الخيوط خلطها هر .

– هذه شوارع فيها القليل من المنطق !

هكذا قال وهو ضائع في تلك الحلقات الألف التي تعود دون انقطاع من حيث بدأت ، ولكن الفتاة تتبع طريقاً يبدو انه معروف جيداً ، بدون تردد وبخطى تزداد سرعة . اما هو فقد كان يجهل تماماً اين صار لو لم يشاهد اثناء مروره ، وعلى عطفة شارع ، تلك الكتلة المثمنة الزوايا لعمود السوق ، حيث قمته المضاءة كانت تفصّل قصاصته السوداء على نافذة لا تزال مضاءة في شارع لافيرديليه .

منذ بضع لحظات كان قد استلفت نظر الفتاة ؛ وقد التفتت نحوه بقلق مرة بعد مرة ! حتى انها وقفت في احدى المرات واغتنمت فرصة انفلات شعاع نور من مخبز نصف مفتوح لتنظر اليه من اعلى الى اسفل ؛ وحين القت هذه النظرة رآها غرنغوار ترسم تلك الكشرة الصغيرة التي لاحظها سابقاً . وسارت في طريقها.

هذه الكشرة الصغيرة جعلت غرنغوار يفكر . مما لا شك فيه ان هنالك احتقاراً وسخرية في تلك الكشرة الظريفة . وكان قد بدأ يخفض رأسه ، ويعد بلاط الشارع ، ويتبع الفتاة على مسافة اكثر بعداً ، حين سمعها تطلق صرخة حادة عند منعطف شارع جعلها تختفي عن نظره .

واسرع الخطى .

كان الشارع مليئاً بالظلام . الا ان فتيلاً مشبعا بالزيت كان يشتعل في قفص حديدي على قدمي العذراء في زاوية الشارع اتاح لغرنغوار ان يميز الغجرية وهي تتخبط بين اذرع رجلين كانا يحاولان اخفات صوتها . اما المعزاة الصغيرة المسكينة المذعورة فكانت تخفض قرنيها وتثغو .

وصرخ غرنغوار : النجدة ايها العسس .

وتقدم بشجاعة . والتفت نحوه احد الرجلين الممسكين بالفتاة . انه وجه كازيمودو المخيف .

ولم يهرب غرنغوار الا انه لم يتقدم خطوة .

وجاء كازيمودو اليه ، والقاه على البلاط على بعد اربع خطوات بضربة من قفا يده ، ثم تغلغل في الظلام بسرعة حاملا الفتاة ملتوية على احد ذراعيه كمنديل

حريري . وكان رفيقه يتبعه ، والمعزاة المسكينة تركض وراء الجميع بثغائها الشاكي .

وكانت الغجرية البائسة تصرخ : الى القاتل ! الى القاتل !

– قفوا مكانكم ايها الاشقياء واتركوا لي هذه البغيّ !

هكذا قال فجأة بصوت راعد فارس خرج من المفترق المجاور .

انه قائد الرماة التابعين للملك وهو مسلح من القدم الى الرأس وسيفه في يده .

وانتزع الغجرية من ذراعي كازيمودو الذاهل ، واردفها خلفه على الجواد ، وفي اللحظة التي استفاق فيها الاحدب الرهيب من المفاجأة وهجم عليه ليستعيد فريسته ، فان خمسة عشر او ستة عشر من الرماة الذين كانوا يتبعون قائدهم عن قرب ، ظهروا وسيوفهم في ايديهم . انها كوكبة من جنود الملك كانت تقوم بالتفتيش على العسس بأمر من السيد روبير ديستوتفيل رئيس شرطة باريس .

واحاطوا بكازيمودو وامسكوا به واوثقوه . وكان يزمجر ، ويزبد ، ويعض ، ولو كان الوقت نهاراً لكان وجهه الذي يزيد الغضب من قبحه بعث الكوكبة كلها على الهرب دون شك . ولكنه في الليل اعزل من سلاحه المرعب ، من بشاعته .

واختفى رفيقه اثناء الصراع .

وانتصبت الغجرية بكياسة على جواد الضابط ، واسندت يديها الى كتفي الشاب وحدقت به بضع ثوان كأنها منتشية بهيئته الجميلة ونجدته اياها . ثم قطعت حبل الصمت اولا وقالت له ، جاعلة صوتها العذب اكثر عذوبة :

– ما اسمك ايها السيد الدركي ؟

فأجابها الضابط منتصبا :

– النقيب فوبوس دي شاتوبير في خدمتك يا جميلتي !

فأجابت : شكراً .

وبينما كان النقيب فوبوس يرفع شاربيه على النسق البورغوني ، انزلقت عن

الجواد كالسهم الساقط في الارض ، وهربت .
انه برق اختفى بسرعة .
وقال النقيب وهو يشد وثاق كازيمودو :
– كنت افضل الاحتفاظ بالبغي .
فقال احد الدركيين :
– ماذا تريد ايها النقيب ؟ لقد طار البلبل وبقي الخفّاش .

٥

تتمة المساوىء

كان غرنغوار الذي اذهلته سقطته قد ظل على البلاط امام العذراء في زاوية الشارع . وقد استعاد وعيه شيئاً فشيئاً ؛ وظل اولاً ، ولبضع دقائق ، سابحا في نوع من احلام نصف غافية ، لا تخلو من العذوبة لان الصور الهوائية للغجرية والمعزاة كانت تقترن بثقل قبضة كازيمودو . ودامت هذه الحال قليلاً . وقد استيقظ فجأة بسبب تأثير البرد الشديد على القسم الذي يلامس البلاط من جسمه وعادت روحه الى السطح . وقال لنفسه :

– من اين تأتيني هذه الرطوبة ؟

وحينئذ رأى انه كان في وسط الساقية . وقال مدمدما بين اسنانه : العملاق الاحدب الشيطاني !

واراد النهوض الا انه كان مصابا بالحذر ومنهوكا ، وكان لا بد له من البقاء في مكانه . وكانت يده طليقة ؛ فسد انفه واسلم امره الى الله ، وفكر :

– وحل باريس !

(لانه كان واثقا من ان الساقية ستكون مأواه) .

« ماذا يفعل المرء في مأوى سوى ان يحلم على الاقل [1] » !

ان وحل باريس نتن بشكل خاص . ويجب ان يكون محتويا على كثير من

---

١ – كان هيغو يدخل اشعار لافونتين في كتابته ويبدلها وفقا لطريقة انشائه ، وهذا البيت من اسطورة «الارنب والضفادع» .

الملح المتبخر والنطروني ، وهذا هو رأي المعلم نقولا فلاميل والحبساء .

و كلمة « حبساء » جلبت فجأة الى ذهنه فكرة كاهن الابرشية كلود فرولو . فقد تذكر الشهد العنيف الذي رآه ، وان الغجرية كانت تتخبط بين رجلين ، وانه كان لكازيمودو رفيق . ومرت في ذاكرته بشكل مشوش صورة الكاهن الشرسة المتعالية وقال مفكراً :

– ما اغرب هذا !..

وبدأ مع هذه المعطيات وعلى تلك القاعدة ُيعدّ بناء الافتراضات الغريب ، ذلك القصر من بطاقات الفلاسفة . ثم عاد فجأة الى الواقع مرة اخرى وهتف :

– آه ! اني انجمد !

وبالفعل فقد تضاءل امكان البقاء في الساحة ، لان كل ذرة من ماء الساقية كانت تنتزع ذرة من الحرارة المشعة في صلب غرنغوار ، وبدأ التوازن بين حرارة جسده وحرارة الساقية يتوطد بشكل قاس .

ولكن قلقاً من طبيعة مختلفة جدا جاء يهاجمه .

ان جماعة من الاولاد ، من اولئك المتوحشين الصغار ، الحفاة الذين يدوسون بلاط باريس تحت اسم «الزعران» والذين كانوا يقذفوننا بالحجارة كل مساء عند الخروج من المدرسة يوم كنا اطفالاً لان سراويلنا لم تكن ممزقة ، ان سرباً من اولئك الشياطين الصغار كانوا يركضون نحـو مفترق الطريق حيث كان يضطجع غرنغوار ، ويطلقون ضحكات تبدو انها لا تهتم كثـــيراً بنوم الجيران . كانوا يجرّون وراءهم نوعاً من الكيس غير مهندم ؛ وقرقعة احذيتهم وحدها توقـــظ ميتاً . اما غرنغوار الذي لم يكن قد مات تماماً بعد فانه نهض نصف نهضة .

وصرخوا بملء اصواتهم :

– اوهيه ! هانيكان دانديش ! اوهيه ! جهان بانسبورد ! اوستاش موبون الهرم ، ان التاجر الذي على الزاوية قد مات ، وفراشه المحشو بالقش هو لنا ، وسنوقد منه نار الفرح . انهم الفلاندريون اليوم !

وها هم يقذفون الفراش المحشو بالقش على غرنغوار واصبحـــوا بالقرب منه

دون ان يروه . وفي الوقت نفسه اخذ احدهم قبضة من القش ليشعلها من فتيل العذراء .

ودمدم غرنغوار :

– يا للمسيح ! ايصيبني الكثير من الحرارة الآن ؟

كانت اللحظة حرجة ، لقد كاد يقع بين الماء والنار ؛ فقام بجهد غير طبيعي، جهد مزيف نقودٍ يقومون بسلقه وهو يحاول التخلص ، فنهض واقفاً والقى فراش القش على الاولاد وهرب . وصرخ الاولاد :

– ايتها العذراء ! انه تاجر الزاوية يعود !

واطلقوا سيقانهم للريح .

وظل فراش القش سيد المعركة. ويؤكد بلفوريه والاب القاضي و كوروزيه ان الفراش قد التقطه صباح الغد اكليروس الحي باحتفال عظيم وحملوه الى كنز كنيسة سانت اوبورتين ، حيث حصل القندلفت على دخل جيد استمر حتى عام ١٧٨٩ وذلك بواسطة الاعجوبة الكبرى لتمثال العذراء في زاوية شارع موكونساي ، ذلك التمثال الذي بوجوده وحده في تلك الليلة التذكارية ليلة ستة وسبعة كانون الثاني ١٤٨٢ ، قرأ العزائم على المرحوم اوستاش موبون الذي اراد ان يصنع عشاً للشيطان فخبأ روحه بخبث ، وهو يحتضر ، في فراش القش .

٦

الجرة المكسورة

بعد ان ظل الشاعر لمدة طويلة مطلقاً ساقيه للريح دون ان يدري الى اين ، سائراً في عدة زوايا من الشوارع ، قاطعاً عدة سواقي ، مجتازاً عـــدة دروب وعدة ازقة وعدة مفارق ، باحثـــاً عن الهرب والمرور خلال كل منعطفات الاسواق القديمة ، منقباً في خوفه الذي لا داعي له عمـا تدعوه لاتينية القوانـين الجميلة « كل حياة تقود الى طريق مستقيم » ، توقف فجأة من الالتهاث اولاً ، ثم كأن برهاناً ذا حدين انبجس في ذهنه وامسك بخناقه . فقال لنفسه بعد ان اسند اصبعه الى جبهته :

– يبدو لي ، يا معلم بيار غرنغوار ، انك تركض هنا كالمجنون . والصعاليك الصغار يخافونك اكثر مما تخافهم . ويبدو لي انـك سمعت قرقعـة قباقيبهم وهم يهربون جنوباً بينما كنت تهرب شمالاً . اذن فهناك احد امرين : اما انهم هربوا، وعندئـذٍ يصبح فراش القش الذي اضطروا الى نسيانه بسبب الرعب هـو فعلاً ذلك السرير المضياف الذي ما زلت تركض وراءه منذ هذا الصباح ، وان السيدة العذراء قد ارسلته اليك بشكل اعجوبة لتكافئك لأنك مثّلت على شرفها رواية اخلاقية مصحوبة باحتفالات واضاحيك ؛ واما ان الاولاد لم يهربوا ، وفي هـذه الحالة اشعلوا فراش القش ، وهي فعلاً تلك النار الممتازة التي انت بحاجة اليهـا لتبتهج ، وتجفف ثيابك ، وتتدفأ . وفي كلا الحالتين نار جيـدة او سرير جيد ، وسرير القش هو هدية من السماء . والعـــذراء مريم الموجودة في زاوية شارع

موكونساي لم تمت اوستاش موبون الا لاجل ذلك ؛ وهذا جنون منك ان تهرب كبيكاردي امام فرنسي ، تاركاً وراءك ما تبحث عنه امامك ؛ انت أبله!

لقد عاد على اعقابه اذن ، عارفاً طريقه . انفه يتشمم الهواء واذنه بالمرصاد ، وقد بذل جهده ليجد فراش القش السعيد ، ولكن على غير طائل . اذ لم يكن هناك سوى تقاطيع بيوت ، وازقة ، وملتقى طرق كان يتردد بينها ويساوره الشك بصورة دائمة ، معاقاً ، متعثراً في تشابك تلك الازقة السوداء التي لم يجد مثيلاً لها في متاهة فندق تورنيل . واخيراً فرغ صبره وهتف بصوت احتفالي :

– لعن الله مفارق الطرق! ان الشيطان هو الذي صنعها على صورة مذراته.

وقد روّح عنه هذا المتاف قليلاً . ورفع من معنويته نوع من انعكاس النور الاحمر شاهده في نهاية زقاق طويل ضيق . فقال :

– الحمد لله ! انه هناك ! انه فراشي القش الذي يحترق .

وأضاف بورع ، كربان السفينة الذي يغرق ليلاً :

– النجاة ، يا نجمة البحر !

هل كان يوسل هـــذا المقطع من طلبته الى العذراء المقدسة ام الى فراش القش ؟ هذا ما نجهله تماماً .

وما كاد يخطو بضع خطوات في الزقاق الطويل المنحدر غير المبلط والذي يزداد انحناؤه ووحله كلما توغلت فيه حتى لاحظ شيئاً غريباً . انه لم يكن مقفراً فهنا وهناك على طوله كانت تدب كتل مبهمة غير مهندمة تسير كلها نحو الضوء الذي يتذبذب في طرف الشارع ، كتلك الحشرات الثقيلة التي تزحف ليلاً من قشة الى قشة نحو نار الرعاة .

ما من شيء يجعل المرء مقداماً سوى عدم معرفته الى ان يسير . وقد استمر غرنغوار في تقدمه وسرعان ما ادرك ذلك الزاحف على أثر الآخرين بكثير من الكسل . وعندما اقترب منه رأى انـــه ليس سوى مقعد يقفـــز على يديه كعنكبوت جريح ليس له سوى رجلين . وفي اللحظة التي مرّ فيها بالقرب من هذا النوع من العنكبوت ذي الوجه البشري رفع هذا نحوه صوتاً متوسلاً :

– الحسنة يا سيد ! الحسنة [1] !

فقال غرنغوار :

– ليأخذك الشيطان وليأخذني معك اذا كنت اعرف ما قلت !

وتجاوزه . ولحق بآخر من هذه الكتل المتنقلة وتفحصه . لقد كان كسيحاً ، وهو اعرج واكتع معاً ، اكتع واعرج بحيث ان جهاز العكازات المعقـــد والارجل الخشبية التي تسنده اكسبته هيئة صقالة بناء وهي تمشي . وغرنغوار ذو المقارنات النبيلة والكلاسيكية قارنه في فكره بمشجب فولكان الحي .

هذا المشجب الحي حيّاه اثنـــاء مروره ، ولكن بايقاف قبعته على مستوى ذقن غرنغوار ، كصحن ذي لحية ، صارخاً في اذنيه :

– يا سيدي الفارس ، لاجل شراء قطعة خبز [2] !

فقال غرنغوار :

– يبدو ان هذا ايضاً يتكلم ؛ ولكنها لغة خشنة ، وهو اكثر سعادة مني اذا كان يفهمها .

ثم ضرب جبهته على اثر انتقال مفاجيء لتفكيره :

– بالمناسبة ، ماذا بحق الشيطان كانوا يريدون ان يقولوا هذا الصباح بكلمة ازميرالدا ؟

واراد ان يضاعف الخطى ؛ ولكن شيئاً ما سد عليه الطريق للمرة الثالثة . وهذا الشيء ، او بالاحرى هذا الانسان ، كان اعمى ، انه اعمى صغير ذو وجه يهودي ملتح كان يجذف حوله في الفضاء بعصا ، ويجره كلب كبير ، وقد اخذ يخن له بلهجة هنغارية قائلاً .

– حسنة لله [3] !

فقال غرنغوار :

---

١ – عبارة بالايطالية في الاصل .

٢ – عبارة بالاسبانية في الاصل .

٣ – عبارة لاتينية في الاصل .

حسناً ! اخيراً هوذا واحد يتكلم لغةً مسيحية . يبدو ان سحنتي تدل على عمل الخير حتى تطلب مني حسنةً هكذا في الوقت الذي تكون فيه محفظتي ضامرة . يا صديقي (والتفت الى الاعمى) لقد بعت آخر قميص لي في الاسبوع المنصرم ، اي ما دمت لا تفهم سوى لغة شيشرون (هنا عبارة لاتينية تعني انه باع قميصه في الاسبوع المنصرم) .

قال عبارته اللاتينية وادار ظهره للاعمى وتابع طريقه ؛ ولكن الاعمى اخذ يطيل الخطى مثله . وها هو الكسيح ، والمقعد ايضاً قد وصلا الى جانبه بسرعة عظيمة وضجة كبيرة احدثتها طاسة التسول والعكازات على البلاط . ثم اخذ الثلاثة يتشقلبون على اثر غرنغوار المسكين وبدأوا يغنون له اغنيتهم .

فقال الاعمى منشداً : حسنة لله ! (باللاتينية) .

وغنى الكسيح : الحسنة ! (بالايطالية) .

ورفع الاعرج الجملة الموسيقية مردداً : قطعة خبز ! (بالاسبانية) .

وسد غرنغوار اذنيه ، وهتف : انه برج بابل !

واخذ يركض . وركض الاعمى ، والاعرج والكسيح .

وكان كلما تغلغل في الشارع تتكاثر حوله المقعدون والعميان والعرج بسرعة ، وكتع وعور ومجذومون بجروحهم الظاهرة ، منهم من يخرج من البيوت ، ومنهم من يخرج من الشوارع الصغيرة الملاصقة ، ومنهم من نوافذ الاقبية ، عاوين ، ثاغين ، ضاغين ، واثبين نحو النور ، متمرغين في الوحول كالحلازين بعد المطر .

كان غرنغوار متبوعاً دائماً بمضطهديه الثلاثة غير عارف بما سوف يحصل ، وكان يمشي مذعوراً بين الآخرين ، متحولاً عن العرج ، متجاوزاً المقعدين ، ورجلاه متعثرتان في تلك المنملة من المعوهين ، كذلك القائد الانكليزي الذي غاص بين سرب من السراطين .

وفكر في محاولة العودة ، الا ان الوقت فات . فهذا الجمع الغفير سد وراءه والمتسولون الثلاثة يمسكون به . فتابع طريقه مدفوعاً بتلك الموجة التي لا تقاوم ،

وبالخوف وبدوار صنع له من كل ذلك نوعاً من الحلم الرهيب .

واخيراً بلغ نهاية الشارع الذي كان ينفتح على ساحة واسعة حيث الوف من الاضواء المتناثرة تتذبذب في ضباب الليل المشوش . وألقى غرنغوار نفسه فيها آملاً ان يتخلص بواسطة سرعة ساقيه من الاشباح الثلاثة المعوهين الذين كانوا متعلقين به .

– الى اين تسير يا رجل [1] ؟

هكذا صرخ المقعد ملقياً عكازيه جانباً وراكضاً وراءه بأفضل ساقين رسمـا خطوة هندسية على بلاط باريس .

ثم ان الكسيح ، الواقف على رجليه ، وضع على رأس غرنغوار صحنه الحديدي الثقيل ، والاعمى حدق في وجهه بعينين ملتهبتين .

وقال الشاعر مرتعباً : اين انا ؟

فاجاب شبح رابع اقترب منهم : في بلاط العجائب .

فقال غرنغوار : اني ارى جيداً العميان يبصرون والعرج يركضون ؛ ولكن اين المخلّص ؟

فأجابوا بضحكة خبيثة .

والقى الشاعر المسكين نظره فيما حوله . لقد كان بالفعل في بلاط العجائب الرهيب الذي لا يدخله رجل فاضل في مثل هذه الساعة ؛ انها دائرة سحرية كان يختفي فيها ضباط الشاتليه ورقباء حاكمية المدينة الذين كانوا يغامرون بدخولها ؛ انها حي اللصوص، ودمل شنيع في وجه باريس ، وبالوعة تتفلت منها كل صباح وتعود اليها نتنة كل ليلة ، تلك الساقية من العيوب والتسول والتشرد الفائضة دائماً في شوارع العواصم ؛ انه مستشفى كاذب حيث الغجري ، والخالع ثوب الرهبنة ، والتلميذ الفاسد ، وسفلة جميع الامم ، من اسبانيين وايطاليين والمان ومن جميع الاديان ، يهود ومسيحيين ومسلمين وعبدة اوثان ، تغطيهم الندوب الكاذبة ؛ انهم متسولون نهاراً ويتحولون ليلاً الى قطاع طرق ؛ وبكلمة ، غرفة

١ – عبارة بالاسبانية في الاصل .

ملابس واسعة كان يلبس فيها ويخلع في ذلك العصر جميع ممثلي تلك المهزلة الابدية التي تمثلها السرقة والبغاء والقتل على بلاط باريس .

انها ساحة واسعة ، غير منتظمة ومبلطة بشكل سيء كجميع ساحات باريس آنذاك . ونيران تتكاثر حولها جماعات غريبة تومض فيها هنا وهناك . وكل هذا يروح ويجيء ويصرخ . وكانت تسمع ضحكات شديدة وصراخ اطفال واصوات نساء . وايدي ورؤوس هذا الجمهور ، السوداء على الارضية اللامعة ، كان يقطعها الف حركة غريبة . وعلى الارض حيث يرتجف ضياء النيران ممزوجاً بظلال كبيرة غير محدودة ، كان بالمستطاع رؤية مرور كلب يشبه انساناً ، وانسان يشبه كلبا . ويبدو ان حدود الاعراق والانواع تمحي في هذا الحي كما في مقر الشياطين . رجال ، نساء ، حيوانات ، عمر ، جنس ، صحة ، مرض ، كل هذا يبدو مشتركاً بين هذا الشعب ؛ وكل شيء يسير معاً ، ممزوجاً ، مختلطاً ، متراكباً ؛ وكل فرد فيه يساهم في كل شيء .

وتألق النيران الضعيف المتأرجح اتاح لغرنغوار ان يميز من خلال اضطرابه كل ما يجاور الساحة الواسعة . إطار شنيع من البيوت القديمة التي تبدو واجهاتها النخرة ، المتخددة ، المسيخة ، المثقوب كل منها بنافذة او نافذتين في الظلام ذات رؤوس ضخمة لعجائز مصفوفات بشكل دائرة ، مسيخات ، مقطبات ينظرن الى مجتمع السحرة ويطرفن بعيونهن .

لقد كان ذلك كعالم جديد مجهول لم يسمع به احد ، مشوه ، زاحف ، متكاثر ، غريب .

وغرنغوار الذي زاد رعبه ، امسكه المتسولون الثلاثة كثلاث كماشات ، واصمّه جمهور من الوجوه الاخرى المجعدة الشعور كان ينبح حوله ، وقد حاول غرنغوار المشؤوم ان يجمع شتات ذهنه ليتذكر اذا كان النهار نهار سبت . ولكن جهوده كانت على غير طائل ؛ وكان خيط ذاكرته وتفكيره مقطوعا ؛ ومن جراء شكه بكل شيء ، وحيرته بين ما رآه وما شعر به ، عرض هذا السؤال الذي لا حل له :

– اذا كنت انا كائن ، فهل هذا كائن ؟ واذا كان هذا كائن فهل انا كائن ؟

في هذه اللحظة ارتفعت صرخة واضحة بين الحشد الداوي الذي يحيط بـه :

– لنأخذه الى الملك ! لنأخذه الى الملك !

فتمتم غرنغوار : يا للعذراء القديسة ! يجب ان يكون ملك هذا الحي تيسا .

ورددت جميع الاصوات : الى الملك ! الى الملك !

وجروه . وقد كان فريسة لمن يضع مخالبه عليه . ولكن المتسولين الثلاثة لم يتركوه وانتزعوه من الباقين وهم يعوون : انه لنا !

اما قميص الشاعر الذي كان مريضا متهافتاً من قبـل فقد لفظ آخر انفاسه في هذا الصراع .

وافـاق من دواره باجتياز الساحة المرعبة . وبعد بضـع خطوات عـاد اليه الشعور بالواقـع ، فبدأ يعتاد جـو المكان . وفي اللحظة الاولى ، ومن رأسه كشاعر ، او تقريباً بكل بساطة ، وبشكل لا جمال فيه ، من معدته الفارغة ، ارتفع دخان او بخار اذا صح القول ، لم يكن يـدعه يرى ، عندما انتشر بينه وبين الاشياء ، الا من خلال ضباب كابوسه المشوش ، في ظلمات الاحلام تلـك التي ترتجف منها كل النواحي المحيطة ، وتتغضن جميع الاشكال ، وتترا كم اشياء اكداساً متجاوزة الحد ، ممددة الاشياء الى أخيلة والرجال الى اشباح . وشيئاً فشيئاً تبعث هذه الاوهام نظرة اقل تيهاناً واقل تضخيماً . وبرز الواقـــع من حوله ، وصدم عينيه ، وصدم قدميه ، وهـدم قطعة قطعة كل الشاعرية المخيفـة التي ظن نفسها محاطاً بهـا اولاً . واضطر ان يـــدرك انـه لم يكن يسير في الستيكس Styx [1] بل في الوحل ، وان الشياطين ليست هي التي تدفعه بالمرافق بل اللصوص ؛ وانه لم يكن يسير فيها بروحه بل بحياته (ما دام ينقصه ذلـك المصلح القيم الذي يقف بشكل فعال بين اللص وبين الرجل الفاضل : المحفظة) . واخيراً بتفحصه هذا الاحتفال الباخومي عـــن قرب وبكثير من الدم البارد ،

---

١ – نهر في الجحيم ، وهـــو النهر الذي جرت عـــادة جوبتير والآلهة ان يقسموا به فيكون قسمهم غموساً .

سقط من مجتمع السحرة الى الحانة .

وبالفعل لم يكن بلاط العجائب سوى حانة ، ولكنها حانة لصوص ، حمراء من الدم اكثر من الخمر .

ان المنظر الذي بدا لعينيه ، حين ألقاه حرسه ذوو الاسمال في نهاية الشوط ، لم يكن صالحاً لإعادته الى الشاعرية ، حتى ولا لشاعرية الجحيم . انه واقـــع الخمارة العنيف العادم الجمال ، ولو لم نكن في القرن الخامس عشر لقلنا ان غرنغوار هبط من ميكلانج الى كالو .

فحول نار كبيرة تشتعل على بلاطة عريضة مستديرة وتخترق بلهيبها السيقان المحمرّة لمنصب قدرٍ فارغٍ موقتاً ، تقـــوم بعض الطاولات النخرة هنا وهناك حسب الصدف دون ان يكلف احد الخـدم المهندسين نفسه باصلاح متوازياتها او ان يسهر على الاقل على ان لا تتقاطع الى زوايا غير مألوفة . وتلمع على هـــذه الطاولات بعض الآنية التي ترشـــح بالخمرة والبيرة ، وتحتشد حول هذه الآنية وجوه باخوسية اصبحت قرمزية من النار والخمر . وكان هناك رجـل ذو بطن كبير ووجه بشوش يعانق بشكل صاخب واحدة سمينة بدينة من بنات الهوى . وهناك ايضاً واحد من الجنود المزيفين ، ماكر كما يقولون بلغـة الآرغو ، كان يتخلص وهـو يصفر من اربطة جرحه الزائـف ، وينشط ركبته السليمة القوية الملفوفة منذ الصباح بألف رباط . وبعكس ذلك كان هناك رجل ضعيف الصحة يجهز رجله للغد بواسطة الصباغ ودم الثور . وعلى مسافة ابعد يوجد طاولتان ، وواحد بلون الطبشور بملابس الحاج الكاملة ، يتهجأ اغنية سانت ـ رين الدينية دون ان ينسى الترتيل والخنخنة . وفي موضـــع آخر شاب يأخذ درساً بالصرع (داء النقطة) من هرم يكثر التوبيخ ويعلمه فـــن اظهار الزبد على الاشداق بعلك قطعة من الصابون . وفي ناحية ، واحد مصاب بالاستسقاء يزيل انتفاخه ويسد انوف اربع او خمس من السارقات كن يتنازعن على نفس الطاولة طفلاً مسروقا في المساء . انهـــا الظروف جميعها التي كانت تبدو مضحكة في البلاط منذ قرنين ، كما قـال سوفال ، وتستعمل كتسلية للملك ومـــدخل الى باليه

« الليل » الملكي المقسوم الى اربعة اقسام والذي يجري رقصه على مسرح بتي – بوربون . وقد اضاف شاهد عيان عام ١٦٥٣ : « ان التغييرات الجوهرية السريعة لبلاط العجائب لم تعرض بأفضل ذلك . وقد هيأ بنسيراد لنا ذلك بأبيات لطيفة » .

كانت القهقهة تنفجر في كل مكان وكذلك الاغنية البذيئة . وكل فرد يغني على ليلاه ، شارحاً ومقسماً دون ان يصغي الى جاره . والآنية والاقداح تتقارع ، وتتولد المعارك من اصطدام الاقداح ، وكانت الاقداح المثلومة تمزق الاسمال .

وهناك كلب ضخم مقعٍ يتطلع الى النار ، وبعض الاولاد المشتركون في هذه الوليمة ، والولد المسروق الذي كان يبكي ويصرخ . وآخر ، وهو طفل كبير في الرابعة من سنه ، يجلس مدليا رجليه على مقعد مرتفع بحيث تصل الطاولة الى ذقنه ، ولا يتلفظ بأية كلمة . وثالث ينشر على الطاولة باصبعه شمعاً ذائباً يسيل من شمعة . وواحد اخير ، صغير ، مقعٍ في الوحل ، يكاد يختفي في قدر صغيرة كان يكشطها بقطعة آجر ويخرج صوتاً يسبب الاغماء لستراديفاريوس .

وهناك برميل بقرب النار ، وعليه متسول . انه الملك على عرشه .

والثلاثة الذين امسكوا بغرنغوار قادوه الى امام البرميل ، وساد الصمت احتفال باخوس للحظة ، باستثناء القدر التي يسكنها الولد .

ولم يجرؤ غرنغوار على التنفس ولا على ان يرفع عينيه . وقال احد الصعاليك الثلاثة :

– اخلع قبعتك ايها الرجل [١] .

وقبل ان يفهم ما يعني ذلك اخذ الآخر قبعته . انها قبعة حقيرة وهذا صحيح ولكنها لا تزال صالحة ليوم شامس او يوم ماطر . وتأوه غرنغوار .

ثم ان الملك وجه اليه الكلام من فوق مقعده :

– من هو هذا الحقير ؟

وارتجف غرنغوار . فهذا الصوت المشبع بنبرة التهديد ذكّره بصوت آخر

١ – عبارة بالاسبانية في الاصل .

كان قد وجه الضربة الاولى في الصباح الى مسرحيته وهـــو يحن بين المستمعين قائلاً : حسنة لله من فضلكم ! فرفع رأسه . انه بالفعل كلوبان ترويفو .

كلوبان ترويفو الذي يرتدي الشارات الملكية لم يكن عليه خرقة اكـــثر ولا خرقة اقل . الا ان الجرح من ذراعه قد اختفى . وفي يده سوط ذو سيور من الجلد الابيض كان يستعمله آنذاك الرقباء العسكريون الذين يحملون المقارع لمحاصرة الجمهور . وعلى رأسه نوع من غطـــاء الرأس مؤطر ومقفل من أعلى ؛ ولكن كان من الصعب التمييز اذا كان وسادة طفل او تاج ملك ما دام الاثنان يتشابهان .

ولكن غرنغوار استعاد بعض الامل دون ان يدري لماذا ، لتعرفه في ملك بلاط العجائب على متسوله اللعين في القاعة الكبرى . وقال متمتماً :

– يا معلم .. مونسنيور .. يا صاحب الجلالة .. كيف يجب ان ادعوك ؟

قال ذلك وقد وصل الى ذروة حيرته بدون ان يعرف كيف يصعد او يهبط .

– مونسنيور ، صاحب الجـــلالة ، او رفيق . ادعوني كما تشاء . ولكن اسرع . ما عندك لتقوله دفاعاً عن نفسك ؟

ففكر غرنغوار : دفاعاً عن نفسك ! هذا لا يعجبني .

ثم تابع متلجلجاً : انا ذلك الذي كان هذا الصباح ..

فقاطعه كلوبان :

– بحق اظافر الشيطان ! اسمك ايها الحقير ، ولا شيء اكـــثر من ذلك . اسمع . انت امام ثلاثة ملوك عظام : انا ، كلوبان ترويفو ملك الطون ، سليل كويصر (1) Coësere الكبير ، صاحب مملكة الآرغـو السامي ؛ وماتياس هونغادي سبيكالي دوق مصر وبوهيميا ، ذلك الهرم الأصفر الذي تراه هنـــاك يحيط رأسه بخرقة ؛ وغليوم روسو امبراطور الجليل ، ذلك الضخم الذي لا يسمعنا والذي يداعب احدى البغايا . نحن قضاتك . فقد دخلت الى مملكة الآرغو دون

1 – لقب كانوا يطلقونه في الماضي على ملك المتشردين .

ان تكون منهم . لقد انتهكت امتيازات مدينتنا ويجب ان تعاقب ، إلا اذا كنت لصاً ، او متسولاً ، او متشرداً . فهل انت شيء من ذلك ؟ بور نفسك . اظهر صفاتك .

فقال غرنغوار :

– مع الأسف ! لا املك هذا الشرف . انا مؤلف ...

فقال ترويفو دون ان يدعه يكمل :

-- هذا يكفي . ستشنق . أمر بسيط جداً . ايها السادة البورجوازيون الفضلاء ! كما تعاملون رجالنـــا عندكم سنعامل رجالكم عندنا . والقانون الذي وضعتموه للمتشردين ، فان المتشردين يضعونه لكم. والخطأ منكم اذا كان سيئاً. اننا بحاجة الى ان نرى بين وقت وآخر كشرة رجل فاضل فوق انشوطة القنّب. ان هذا يزيد الامر شرفاً. هيا ياصديقي . اقسم ثيابك الرثة بين هؤلاء الأوانس. سأشنقك تسليةً للصوص وستعطيهم محفظتك ليشربوا . واذا كان لك بعض الاضاحيك تقوم بها ، فهناك في الجرن اله يمثل الإله – الاب من حجر وقد سرقناه من سان بيار – او – بوف . لديك اربع دقائق لتلقي بروحك على رأسه.

كان الخطاب رهيباً .

وهتف امبراطور الجليل كامراً طاسته ليسند طاولته :

– كلام جميل ! ان كلوبان ترويفو يعظ كالبابا الاب الاقدس .

وقال غرنغوار بهدوء (لا ادري كيف عاوده الحزم فقد تكلم بعزم) :

– ايها السادة الاباطرة والملوك. انتم لا تذكرون. اني ادعى بيار غرنغوار وانا الشاعر الذي مُثلت له هذا الصباح مسرحية اخلاقية في قاعة القصر الكبرى.

فقال كلوبان :

– آه ! اهـــذا انت يا معلم ! لقد كنت هناك ورأس الرب ! حسناً ايها الرفيق ، ايكون ازعاجك لنا هذا الصباح سبباً لكي لا تشنق هذا المساء ؟

وقال غرنغوار في نفسه: سألاقي صعوبة كبرى في التخلص من هذه الورطة. إلا انه بذل جهداً جديداً وقال :

– لا ادري لماذا لا يصنف الشعراء مع المتشردين . متشرد . كان ايزوبوس كذلك ؛ متسول . كان هوميروس كذلك ؛ سارق . كان مركيروس كذلك.

وقاطعه كلوبان :

– اظن انك تنوي اللعب بعقولنا بخطابك المبهم . دعهم يشنقونك واقلل من هذه الاساليب .

فأجاب غرنغوار وهو ينازعهم الارض قدماً قدماً :

– عفواً يامولاي ملك الطون . ان الامر يستحق الجهد ... لحظة ! اصغ اليّ .. لن تحكم عليّ دون ان تسمعني .

كانت الضجة القائمة حوله تغطي صوته البائس . فالغلام الصغير كان يكشط قدره بشدة ؛ ولزيادة المصيبة فان امرأة هرمة جاءت تضع على النصب المشتعل مقلاة ملأى بالشحم ، كانت تخرج على النار صوتاً ذا دوي يشبه صرخة فرقة من الاولاد تلاحق ساحرة .

وبدا كلوبان ترويفو انه يتشاور لحظة مع دوق مصر وامبراطور الجليـــل اللذين كانا بحالة سكر تام . ثم صرخ بحدة : الزموا الصمت !

وبما ان القدر والمقلاة لم تسمعاه واستمرتا بالغناء ، فقد هبط عن برميله ، ورفس القدر التي تدحرجت عشر خطوات مع الطفل ، ورفس المقلاة التي انقلب ما فيها من شحم في النار ، ثم صعد على عرشه بوقار دون ان يهتم بالبكاء المكتوم الصاعد من الطفل، ولا بدمدمة العجوز التي تحول عشاؤها الى لهيب جميل ابيض.

وباشارة من ترويفو جاء الدوق والامبراطور والرؤساء والمعوهون يقفون بالصف حوله كنعل الحصان ، بينما كان غرنغوار المقبوض عليه يحتل الوسط . انها نصف دائرة من الخرق والاسمال والصفائح، والمذاري والفؤوس ، والسيقان التي تعتعها السكر ، والاذرع الضخمة العارية، والوجوه القذرة، المطفأة البلهاء . وفي وسط تلك الطاولة المستديرة من الفاقــة ، كان كلوبان ترويفو ، كرئيس لمجلس الشيوخ هذا ، كملك لهذه الاقطاعة ، كبابا لمجمع الكرادلة هذا ، يسيطر اولاً من فوق برميله ، ثم بما لا ادري من هيئة متعالية ، وحشية ، مخيفـــة ،

جعلت حدقته تتوقـــد وتصلح في منظر وجه الجاني الوحشي النموذج البهيمي لعرق المتشردين ، حتى كأنه راس خنزير بري بين الخراطيم .

وقال لغرنغوار وهو يداعب ذقنه المشوهة بيده المكنّبة :

– اسمع ، اني لا ادري لماذا لا تكون مشنوقاً . وصحيح ان هذا يناقض رأيك ؛ انه بسيط جداً . فأنتم جماعـــة البورجوازيين لم تعتادوا ذلك . انكم تكوّنون عنه فكرة كبيرة. وبعد فنحن لا نريد بكم شراً . واليك هذه الوسيلة التي تنقذك الآن . اتريد ان تكون منا ؟

بالامكان ان نحكم على التأثير الذي أحدثه هذ الاقتراح على غرنغوار الذي كان يرى ان الحياة افلتت منه وانه بدأ يفلتها . لذلك تعلق بها بقوة وقال :

– اريد ذلك بالتأكيد ، بطيبة خاطر .

فقال كلوبان :

– اتوافق على ان تتجند بين جماعة السوسنة الصغيرة ؟

فأجاب غرنغوار : السوسنة الصغيرة ، بالتأكيد .

وقال ملك الطون :

– اتعترف بأنك عضو في البورجوازية الصادقة ؟

– البورجوازية الصادقة .

– ومن رعايا مملكة الآرغو ؟

– من مملكة الآرغو .

– ومتشرد ؟

– متشرد .

– في الروح ؟

– في الروح .

فقال الملك :

– يجب ان تلاحظ ان ذلك لن ينجيك من الشنق .

فقال الشاعر : ياللشيطان !

وتابع كلوبان هادئاً :

– فقط ، ستشنق فيما بعد ، وبكثير من الاحتفال ، على نفقة مدينة باريس الطيبة ، على مشنقة من الحجر ، وبواسطة اناس فضلاء . وهذه تعزية لك .

فأجاب غرنغوار : كما تقول .

– بصفتك من البورجوازية الصادقة فهناك ميزات اخرى . لن تدفع وحولاً ، ولا فقراء ، ولا قناديل كبورجوازيي باريس .

فقال الشاعر :

– آمين . اني ارضى . فأنا متشرد ، من الآرغو ، وبورجوازي صادق ، وسوسنة صغيرة ، وكل ما تريدون . وقد كنت كل هذا قبلًا يا مولاي ملك الطون لأني فيلسوف ، « وكل شيء موجود في الفلسفة ، وكل انسان في الفيلسوف [1] » ، كما تعلم .

فعبس ملك الطون وقال .

– من تظنني ايها الصديق ؟ وبأي لغة آرغو من يهود هنغاريا تحدثنا ؟ اني لا اعرف العبرية . ولكي تكون لصاً لا تكون يهودياً . حتى اني لا اسرق ، انا فوق ذلك ، انا اقتل . اقطع العنق ، نعم . اما ان اقطع محفظة ، فلا .

فحاول غرنغوار تقديم شيء من الاعتذار خلال كلامه المقتضب الذي جعله الغضب اكثر اهتزازاً :

– استميحك عفواً يا مونسنيور . ليست هذه لغة عبرية بل لاتينية .

فقال كلوبان بهياج :

– قلت لك انني لست يهودياً ، وانني سأشنقك وحق كنيس اليهود ! وكذلك هذا المتسول اليهودي الصغير الذي بجانبك وآمل ان اراه ذات يوم مسمراً على منضدة متجر كقطعة عملة مزيفة مثله .

واخيراً هدأ المونسنيور كلوبان وقال لشاعرنا :

– ايها الحقير ، اتريد اذن ان تكون متشرداً ؟

فأجاب الشاعر : دون شك .

---

١ – عبارة باللاتينية في الاصل .

فقال كلوبان الفظ :

– الارادة ليست كل شيء . والارادة الطيبة لا تضع بصلة زائدة في الشورباء ، ولا تصلح الا للذهاب الى الجنة ؛ مع ان الجنة والآرغو اثنان . ولكي تستقبل عند الآرغو يجب ان تبرهن انك تصلح لشيء ما ولهذا عليك ان تفتش هذا التمثال .

فقال غرنغوار : سأفتش التمثال ، وكل ما يوضيك .

واتى كلوبان باشارة ، فانفصل بعض رجال من الآرغو عن الدائرة وعادوا بعد لحظة وهم يحملون وتدين ينتهي طرفاهما الاسفلان بملعقتين على شكل (جملون) تجعلانها يركزان رجليها في الارض بسهولة . وقد ركبت خشبة بالعرض في الطرف الاعلى من الوتدين واصبح الكل يؤلف مشنقة جميلة جدا يمكن حملها ، حتى ان غرنغوار سر برؤيتها تنتصب امامه بلمحة عين . لم يكن ينقصها شيء حتى الحبل الذي كان يتأرجح بلطف تحت الخشبة .

وتساءل غرنغوار بشيء من القلق : الى اين يريدون ان يصلوا ؟

ولكن صوت جرس سمعه في تلك اللحظة وضع حداً لقلقه . انه تمثال كان المتشردون يعلقونه من العنق بالحبل ؛ نوع من الفزاعة التي يخيفون بها الطيور ترتدي الاحمر ومثقلة بالجلاجل والاجراس الصغيرة التي يمكن ان تجهز بها ثلاثون بغلة قشتالية . هذه الجلاجل التي تبلغ الالف كانت ترتجف بعض الوقت من تأرجح الحبل ثم يختفي صوتها شيئاً فشيئاً وتصمت اخيراً حين يصبح التمثال في حالة جمود وفقاً لقانون الساعة ذاك الذي اسقط الساعة المائية والساعة الرملية عن عرشيها .

وحينئذٍ دل كلوبان غرنغوار على كرمي قديم متونح موضوع تحت التمثال وقال : اصعد على هذا .

فقال غرنغوار معترضاً .

– يا للشيطان ! سيدق عنقي . ان كرسيك يعرج كبيتين من شعر

مارتيال [١] . له رجـــل من الشعر اللاتيني المسدس التفاعيـل ورجـــل من الشعر المخمس .

فقال كلوبان : اصعد .

وصعد غرنغوار على الكرسي وتوصل الى حفظ توازنه ليس بدون شيء من الاهتزاز اصاب الرأس والذراعين . وتابع ملك الطون :

– ادر رجلـك اليمنى الآن حـــول ساقـك الايسر وقـــف على رأس قدمك الايسر .

فقال غرنغوار :

– مونسنيور . انت اذن تحرص على ان اكسر احد عظامي .

فهز كلوبان رأسه وقال :

– اسمع ايها الصديق ، لقـد اكثرت الكلام . اليـك المقصود بكلمتين . ستقف على رأس قدمك كما قلت لك ؟ وبهذه الطريقة ستستطيع الوصول حتى جيب التمثال ؟ وستبحث فيها وتخـرج منها محفظة موجودة فيها ؟ واذا فعلت ذلك دون ان يسمع صوت جرس يكون حسناً ؟ وستصبح لصاً ، ولن يبقى علينا الا ان نوسعك ضرباً طوال ثمانية ايام .

فقال غرنغوار : لن احرص على ذلك . واذا سمع صوت الاجراس ؟

– اذن تشنق ، افهمت ؟

فأجاب غرنغوار : لم افهم شيئاً .

– اسمع مرة اخرى ايضا ستفتش جيب التمثال وتأخذ منها المحفظة . واذا تحرك جرس واحد اثناء العملية فستشنق . اتفهم هذا ؟

فقال غرنغوار : حسناً ، افهم هذا . وبعد ؟

اذا توصلت الى نشل المحفظة دون ان يسمع رنـين الاجراس فـأنت لص وستوسع ضرباً طوال ثمانية ايام متتابعة . لا شك في انك فهمت الآن .

---

١ – شاعر لاتيني ولد في اسبانيا نحو (٤٠ – ١٠٤) وديوانه مفيد لمعرفة عادات روما في زمنه .

– كلا يا سيدي ، لم افهم . اين منفعتي اذن ؟ مشنوق في حالة ومضروب في الاخرى .

فأجاب كلوبان :

– ولص ؟ هل هذا لا شيء ؟ اننا سنضربك لاجل منفعتك ، لكي تستطيع تحمل الضرب .

فأجاب الشاعر : شكرا جزيلا .

فقال الملك ضارباً برجله على برميله الذي رن كصندوق كبير :

– هيا ولنسرع . فتش جيوب التمثال ولينته كل ذلك . اني احذرك للمرة الاخيرة انك ستحتل مكان التمثال اذا سمعت جلجلا واحداً .

وصفقت عصابة الآرغو لكلام كلوبان ووقفت بشكل دائرة حول المشنقة والكل يضحكون ضحكة لا رحمة فيها حتى ان غرنغوار رأى الا يخافهم ما دام يسليهم كثيراً . اذن لم يبق له امل اذا لم يسعفه الحظ الضعيف بالنجاح في العملية المخيفة التي فرضت عليه . وقد عزم على المجازفة الا انه لم يفعل ذلك دون ان يرسل أولاً رجاءً حاراً للتمثال الذي سيسلبه المحفظة والذي كان استدرار رحمته اسهل من استدرار رحمة اللصوص . وهذه الآلاف العشرة من الاجراس الصغيرة بألسنتها النحاسية الصغيرة كانت تبدو له كافواه صلال مفتوحة ، على اهبة العض والفحيح . وقال بصوت منخفض :

– اوه ! ايمكن ان تتوقف حياتي على اقل اهتزاز من اقل جلجل من هذه !

واضاف ويداه مضمومتان :

– اوه ! ايتها الجريسات لا ترّني ! ايتها الاجراس لا تقرعي ! ايتها الجلاجل ، لا تجلجلي !

وحاول ان يبذل جهداً مع ترويفو فسأل :

– واذا هبت نسمة ريح ؟

فاجاب الآخر دون تردد : ستشنق .

وحين رأى انه ليس هناك مهلة ولا تأخر ولا تهرب ممكن ، تقدم الى عمله

بشجاعة . وادار رجله اليمنى حول قدمه الايسر ، وانتصب على قدمه الايسر ومد ذراعه ؛ ولكن في اللحظة التي لمس فيها التمثال فان جسده الذي لم يكن له سوى رجل واحدة ترنح على الكرسي الذي ليس له سوى ثلاث ارجل ؛ واراد الاستناد الى التمثال فأضاع التوازن وسقط على الارض وقد اصابه الصمم من الاهتزاز المشؤوم لألوف من جريسات التمثال الذي استجاب لتحريك يده فرسم اولاً دورة على نفسه ثم تأرجح بعظمة بين الوتدين .

– اللعنة !

هكذا صرخ وهو يسقط ، وظل كالميت ووجهه الى الارض . ثم سمع قرع الاجراس الرهيب فوق رأسه وقهقهة اللصوص الشيطانية ، وصوت ترويفو الذي كان يقول :

– ارفعوا لي هذا الحقير واشنقوه بعنف .

فنهض . وكانوا قد علقوا التمثال قبلًا ليفسحوا له مكاناً .

واصعده رجال الآرغو على الكرسي . وجاء كلوبان نحوه ووضع له الحبل في عنقه وضربه على كتفه قائلًا :

– وداعاً ايها الصديق ، لن تستطيع الخلاص الآن .

وماتت كلمة « الرحمة » على شفتي غرنغوار ، فأجال انظاره حوله . ولكن ليس هناك اي امل ، فالجميع كانوا يضحكون .

وقال ملك الطون للص ضخم خرج من الصفوف :

– تعمشق على هذه الخشبة يا بلفينيه دي لتوال .

فصعد بلفينيه دي لتوال برشاقة على الخشبة المتعارضة، وفي لحظة رفع غرنغوار عينيه فرآه برعب مقعياً على الخشبة فوق رأسه .

وقال كلوبان ترويفو :

– الآن . حين اصفق بيدي . فأنت يا اندري لوروج ستقذف الكرمي على الارض برفسة ؛ وانت يا فرنسوا شانت ـ برون ، تتعلق بقدمي الصعلوك ؛ وانت يا بلفينيه ستقذف بنفسك على كتفيه . اسمعتم انتم الثلاثة ؟

وارتجف غرنغوار .

– امستعدون انتم ؟

قال كلوبان ترويفو ذلك للصوص الثلاثة المستعدين للانقضاض على غرنغوار كثلاث عناكب على ذبابة . اما المعذب المسكين فقد مرت عليه لحظة انتظار رهيبة بينما كان كلوبان يدفع برجله ، وباطمئنان ، بعضاً من عيدان الزرجون لم يبلغها اللهب ، الى النار .

– أأنتم مستعدون ؟

ردد ذلك وفتح يديه ليصفق . ثانية اخرى ويتم كل شيء .

ولكنه توقف كأن فكرة مفاجئة اندرته ، فقال :

– لحظة ! لقد نسيت ! هناك عادة تقضي بألا نشنق رجلًا دون ان نسأل اذا كانت هناك امرأة تريده . ايها الرفيق ، انه سبيلك الاخير . عليك ان تتزوج لصة او الحبل .

ان هذا القانون الغجري ، مهما بدا غريباً للقارىء ، فهو اليوم لا يزال مكتوباً في التشريع الانكليزي القديم . راجع « ملاحظات بورنغتون » .

وتنفس غرنغوار الصعداء . انها المرة الثانية التي يعود فيها الى الحياة منذ نصف ساعة . ولن يجرؤ على الركون الى ذلك .

وصرخ كلوبان وقد عاد الى مقعده :

– هولا ! ايتها النساء والاناث ، هل يوجد بينكن ، من الساحرة حتى الهرة ، داعرة تريد هذا الداعر ؟ هولا ! كوليت لاشارون ! اليزابيت تروفان ! سيمون جودوين ! ماري بيديبو ! تون لالونغ ! بيرارد فانويل ! ميشال جيناي ! كلوه رونج ـ اوراي ! ماتورين جيرودرو ! هولا ! ايزابو لا تييري ! اقدمن وانظرن ! رجل مقابل لا شيء ، من تريده ؟

كان غرنغوار في هذه الحالة البائسة قليل الشهية دون شك . وبدا للصوص انهم اصيبوا بخيبة امل من هذا الاقتراح . وسمعهم المسكين وهم يجيبون: كلا ! كلا ! اشنقه وسيكون هناك ملذات لجميع النساء .

وخرج ثلاث نساء من الجمهور ورحن يتشممنه . كانت الاولى فتاة ضخمة ذات وجه مربع . ففحصت بانتباه سترة الفيلسوف التي تستحق الرثاء . كانت العباءة مهترئة وفيها من الثقوب اكثر مما في قدر تشوى عليه الكستناء . وقد كشرت الفتاة وقالت : بـيرق قديم ! ثم وجهت الكلام الى غرنغوار :

– لتر طيلسانك .

فقال غرنغوار : لقد اضعته .

– قبعتك ؟

– اخذت مني .

– وحذاؤك ؟

– لم يعد فيه نعل .

– محفظتك ؟

فقال غرنغوار متلعثماً : مع الاسف ليس معي اي باريزي .

فأجابت اللصة وهي تدير ظهرها : دعهم يشنقونك وقل شكراً .

والثانية عجوز سوداء ، متغضنة ، شنيعة ، ذات قبح يعتبر قذارة في بلاد العجائب ، دارت حول غرنغوار . وكان يرتجف خوفا من ان ترفضه . ولكنها قالت من بين اسنانها : – انه كثير الهزال .

وابتعدت .

وكانت الثالثة صبية لا تزال نضرة وليست كثيرة القبح . فقال لها المسكين بصوت منخفض : انقذيني .

فتأملته لحظة بشفقة ثم خفضت عينيها وثنت تنورتها وظلت مترددة . وكان يتبع بعينيه كل حركاتها . لقد كانت آخر شعاع من الامل . وقالت الفتاة اخيراً :

– كلا ! سيضربني غليوم لونغجو .

ثم دخلت بين الجمهور . وقال كلوبان :

– ايها الرفيق ، ان الشقاء يلازمك .

ثم نهض واقفاً على برميله وصرخ مقلداً لهجة منادي للبيع بالمزاد بين مرور الجميع وانبساطهم :

- الا يريده احد ؟

قال ذلك مرة ، مرتين ، ثلاث مرات . ثم التفت نحو المشنقة واتى باشارة من رأسه وقال :

- ايها المحكوم !

فاقتوب بلفينيه دي لتوال واندريه لروج وفرنسوا شانت برون من غرنغوار .

وفي تلك اللحظة ارتفعت صيحة بين جماعة الآرغو :

- ازميرالدا ! ازميرالدا !

فارتجف غرنغوار والتفت الى الناحية التي اتت منها الضجة . وانفتح الحشد وترك ممراً لوجه نقي رائع .

لقد كانت هي الغجرية .

- ازميرالدا !

هتف غرنغوار منذهلاً بين تأثراته بالطريقة الفجائية التي عقدت فيها هذه الكلمة السحرية جميع ذكريات نهاره .

هذه المخلوقة الضئيلة بدت انها تمارس سلطتها من الفتنة والجمال حتى في بلاط العجائب . ووقف الآرغو بالصف رجالاً ونساءً بهدوء على طريقها وقد تألقت وجوههم الشرسة لدى رؤيتها .

واقتربت من المسكين بخطوتها الرشيقة ، ومعزاتها الجميلة دجالي تتبعها . وكان غرنغوار اقرب الى الموت منه الى الحياة . فتأملته برهة وهي صامتة ثم قالت لكلوبان : اتريد شنق هذا الرجل ؟

فأجاب ملك الطون : نعم ايتها الاخت ، الا اذا اتخذته زوجاً لك .

فقلبت شفتها السفلى الجميلة وقالت : آخذه .

كان غرنغوار يعتقد هنا مؤكداً انه في حلم منذ الصباح وان هذه تتمته .

وبالفعل فان النهاية ، مع انها لطيفة ، كانت عنيفة .

وحلت العقدة ، وانزل الشاعر عن الكرسي . واجبر على الجلوس ، مع ان الهزة كانت شديدة .

وجـــاء دوق مصر بجرة فخارية دون ان يلفظ كلمة . وقدمتها الغجرية لغرنغوار قائلة : إلقها ارضاً [1] .

وانكسرت الجرة اربـع قطـــع . وحينئذٍ قال دوق مصر واضعاً يديه على جبهتيهما :

– ايها الاخ ، انها زوجتك ؛ ايتها الاخت ، انه زوجك لأربـع سنوات . اذهبا .

---

١ – حين تتزوج الغجرية يقتصر الاحتفال على كسر طاسة فخارية امام الرجل الذي تريد ان تصبح رفيقته . وتعيش معه عيشة زوجية طوال السنين التي تبقى فيها قطـــع الطاسة موجودة . وفي نهاية هذا الوقت يصبح الزوجان حرين في ان يفترقا او ان يكسرا طاسة جديدة .

(من ملاحظات هيغو على احد فصول رواية هان الاسلندي ١٨٢٣) .

٧

ليلة عرس

بعد بضع لحظات وجد شاعرنا نفسه في غرفة صغيرة مقببة مقفلة تماماً ودافئة، جالساً امام طاولة وبـدا انه لا يطلب شيئاً افضل من استعارة شيء من خزانـة الطعام المعلقة قريباً منه ، وان يكون عنده سرير ، ويجلس وجهاً لوجه امام فتاة جميلة . لقد اكتسبت المغامرة شيئا من السحر . وبدأ يحسب نفسه شخصا من حكايات الجن جدّياً ؛ وكان بين وقت وآخر يلقي بنظره على ما حوله كأنه يبحث عما اذا كانت مركبة النار المقطورة الى خيالين مجنحين ، والتي استطاعت وحدها ان تنقله بسرعة من بـين التتار الى الجنـة ، لا تزال موجودة هناك . وكان ايضاً يحدق باصرار في ثقوب سترته متشبثاً بالواقع ولكي لا يغيب بصره عن البر . اما عقله المهتز في الفضاءات الخيالية فلم يتعلق الا بهذا الخيط .

وبـدت الفتاة غـير منتبهة له ؛ كانت تروح وتجيء ، وتغـير ترتيب بعض المقاعد وتحدث معزاتها ، وترخي شفتها هنا وهناك . واخيراً جاءت تجلس بقرب الطاولة واستطاع غرنغوار ان يتأملها كما يشاء .

لقد كنت طفلاً ايها القارىء ويمكن ان تكون سعيداً لانـك لا تزال طفلاً . وقد تبعت اكثر من مرة من عليقة الى اخرى على ضفة ماء ، وفي يوم شامس ، فراشةً جميلة خضراء او زرقاء ، قاطعاً طيرانها بزوايا مفاجئة ، مقبّلاً طرف جميع الاغصان . (اما انا فقـد امضيت اياماً كاملة هي افضـل ايام حياتي) . وانت تذكر بأي فضول عاشق كان تفكيرك ونظرك يتعلقان بتلك

العاصفة الصغيرة الصافرة ، الطنانة ، ذات الاجنحة القرمزية واللازوردية ، وكان يطوف في وسطها شكل لا يمكن امساكه ، مقنّع بسرعة حركتها نفسها . والكائن الهوائي الذي ارتسم بشكل مشوش خلال خفقات الاجنحة يبدو لك وهمياً ، خيالياً ، مستحيلاً على اللمس ، مستحيلاً على النظر . ولكن حين ترتاح الفراشة اخيراً على رأس قصبة، ويصبح باستطاعتك ان تفحص ، ممسكاً انفاسك، تلك الاجنحة الطويلة البخارية، والثوب الطويل من المينا ، وكرتي الكريستال، فأية دهشة لا تشعر بها واي خوف يعتريك من ان ترى هذا الشكل يتحول الى ظل والكائن الى خيال ! تذكر هـــذه التأثيرات وستدرك بسهولة ما شعر به غرنغوار وهو يتأمل هذه الازميرالدا تحت شكلها المنظور الملموس والتي لم يرها حتى الآن إلا من خلال عاصفة من الرقص والغناء والضوضاء .

وقال لنفسه وهو مستغرق في احلامه ونظره يتبعها بشكل مبهم :

– اليكم اذن ما هي الازميرالدا ! مخلوقة إلهية ! راقصة شوارع ! اقـل من ذلك ! انها هي التي اطلقت رصاصة الرحمة على مسرحيتي هذا الصباح ، وهي التي انقذت حياتي هذا المساء . شيطاني الشرير ! ملاكي الصالح ! الصحيح انها امرأة جميلة ـ ويجب ان تحبني بجنون لانها اخذتني بهذا الشكل .

ثم قال وهو ينهض فجأة مع عاطفةالواقع التي تشكل اساس طباعه وفلسفته:

– لا أعرف كيف جرى ذلك ، ولكني زوجها .

واقترب من الفتاة ، وهـــذه الفكرة في رأسه وفي عينيه بشكل حربي وظريف ، فتقهقرت وقالت :

– ماذا تريد مني ؟

فاجاب غرنغوار بلهجة عاطفية دهش هو نفسه عندما سمع نفسه يقولها :

– ايمكن ان تسأليني يا ازميرالدا المعبودة ؟

ففتحت الغجرية عينيها الكبيرتين وقالت :

– لا أعرف ماذا تريد ان تقول .

فقال غرنغوار متحمساً اكثر فأكثر ظاناً انه ليس هناك سوى احدى فضائل بلاط العجائب :

- ايه ! ماذا ! ألستُ لكِ يا صديقتي الحلوة ؟ ألستِ لي ؟

وبكل سلامة نية أمسك بقامتها .

وزلق قميص الغجرية بين يديه كثوب الخنكليس . وقفزت الى الطرف الآخر من الغرفة ، وانحنت ثم استقامت وفي يدها خنجر صغير قبل ان يجد غرنغوار وقتاً ليرى من اين خرج هذا الخنجر ؛ وكانت مهتاجة ، متعالية ، والشفتان منتفختان ، والمنخران مفتوحان ، والخدان احمران كتفاحة ، والحدقتان تشعان بالبروق . وفي الوقت نفسه وقفت المعزاة البيضاء امامها واظهرت لغرنغوار جبهةً حربية يبرز منها قرنان جميلان مذهّبان ومروّسان . كل هذا جرى بلمحة عين .

واصبحت الفراشة زنبوراً كل همها ان تلدغ .

وظل فيلسوفنا عاجزاً يدير انظاره الذاهلة دورياً بين المعزاة والفتاة . وقال اخيراً حين سمحت له المفاجأة بالكلام :

- ايتها العذراء : ها هما اثنتان حازمتان !

وقطعت الغجرية الصمت من ناحيتها وقالت :

- يظهر انك كثير الجرأة !

فقال غرنغوار مبتسماً :

- عفواً يا آنسة ، ولكن لماذا اتخذتني زوجاً اذن ؟

- اكان من اللازم ان اتركك لتشنق ؟

فقال الشاعر وقد شعر بشيء من الخيبة في آماله الغرامية :

- هكذا اذن، الم يكن لديك فكرة اخرى عندما تزوجتني الا ان تنقذيني من المشنقة ؟

- واية فكرة اخرى تريد ان تكون لدي ؟

فعض غرنغوار شفتيه وقال :

– لا بأس ، لست منتصراً بعد في كيوبيد كما ظننت . ولكن ما فائدة كسر تلك الجرة اذن ؟

إلا ان خنجر ازميرالدا وقرني المعزاة كانت لا تزال على اهبة الدفاع .

وقال الشاعر :

– يا آنسة ازميرالدا . لنتعاقد . انا لست كاتباً في قلم محكمة الشاتليه ولن اوبخك على حمل خنجر في باريس امام لحية جنود وممنوعات السيد الحاكم . ومع هذا فأنت لا تجهلين ان نويل لسكريبفان قد غُرِم منذ ثمانية ايام بدفع عشرة سول باريزي لحمله سيفاً صغيراً . ولكن هذا ليس شغلي وها انا اصل الى الواقع . اقسم لك على نصيبي من الجنة انني لن اقربك دون اذن منك ؛ ولكن هاتي لي طعام العشاء .

كان غرنغوار في اعماقه ، كالسيد ديسبرو ، « ليس شهوانياً » . ولم يكن من ذلك النوع الفروسي الذي يهجم على الفتيات . ففي مادة الحب ، كما في اي امر آخر ، كان من دعاة التأني والحدود الوسطى؛ وعشاء جيد مع شخص محبوب كان يبدو له ، خصوصاً اذا كان جائعاً، كاستراحة ممتازة بين الخطاب الافتتاحي ونهاية مغامرة غرامية .

ولم تجب الغجرية . ولكنها اظهرت كشرتها الاحتقارية ، ورفعت رأسها كعصفور ، ثم انفجرت ضاحكة ، واختفى الخنجر الصغير كما جاء ، دون ان يتمكن غرنغوار من رؤية المكان الذي تخبىء فيه النحلة حمتها .

وبعد لحظة، اصبح على الطاولة خبز جاودار ، وقطعة شحم خنزير ، وبعض التفاحات المتجعدة ، ووعاء فيه بيرة . واخذ غرنغوار يأكل بحماسة . ولدى سماع الصليل المهتاج لشوكته الحديدية وصحنه الفخاري كان يخيل ان حبه كله تحول الى شهية .

وكانت الفتاة الجالسة امامه تتطلع اليه بصمت وهو يأكل، ويبدو انها كانت منشغلة بفكرة اخرى اذ كانت تبتسم لها بين الفينة والفينة ، بينما كانت يدها الحلوة تداعب الرأس الذكي للمعزاة التي تلبدت باسترخاء بين ركبتيها .

وكانت شمعة صفراء تنير هذا المشهد من الشراهة والاحلام . وما ان هدأت اولى عواءات معدة غرنغوار حتى شعر بشيء من الخجل المزيف حين رأى انه لم يبق سوى تفاحة ، وقال :

– ألا تأكلين يا آنسة ازميرالدا ؟

فردت باشارة نفي من رأسها ، ونظرها المفكر استقر على قبـــو الغرفة . وقال غرنغوار لنفسه :

– بحق الشيطان ما الذي يشغلها ؟

وتطلع الى ما تتطلع اليه وقال بينه وبين نفسه :

– من المستحيل ان تكون كشرة هذا القزم الحجري المنحوت في قفل القبو هي التي تستغرق انتباهها . يا للشيطان ! أأستطيع احتمال هذه المقارنة ؟

ورفع صوته قائلًا : يا آنسة !

فلم تبد انها سمعته . واعاد بصوت اكثر ارتفاعاً : يا آنسة ازميرالدا !

جهد ضائع . كان عقل الفتاة في غير مكان ، ولم يكن لصوت غرنغوار من القوة ما يعيده . ولحسن الحظ تدخلت المعزاة واخذت تسحب سيدتها من كمها بلطف ، فقالت الغجرية بحدة كأن غارة ايقظتها :

– ماذا تريدين يا دجالي ؟

فقال غرنغوار وقد شاقه ان يبدأ المحادثة :

– انها جائعة .

فأخذت ازميرالدا تفتت الخبز الذي كانت دجالي تأكله بكياسة من كف سيدتها .

ولكن غرنغوار لم يترك لها الوقت لتعاود احلامها فجازف بسؤال دقيق :

– ألا تريدينني زوجاً لك ؟

فحدقت الفتاة في وجهه وقالت : كلا .

وتابع غرنغوار : كعشيق لك ؟

فأظهرت كشرتها وقالت : كلا .

وتابع غرنغوار : كصديق لك ؟
فحدقت ايضاً في وجهه وقالت بعد لحظة تفكير : ممكن .
ان هذه « الممكن » العزيزة على الفلاسفة جرأت غرنغوار فسأل :
– اتعرفين ما هي الصداقة ؟
فأجابت الغجرية : نعم . هي ان نكون اخاً واختاً . روحان تتلامسان ولا تمتزجان ، كأصبعي الكف .
فتابع غرنغوار : والحب ؟
فقالت وقد ارتجف صوتها وتألقت عيناها :
– اوه ! الحب ! هو ان يكون هناك اثنان ولا يكونان سوى واحد . رجل وأمرأة ينسكبان ملاكاً . انها السماء .

كانت راقصة الشوارع وهي تفوه بهذا الكلام ذات جمال ادهش غرنغوار بشكل غريب وخيل اليه انه على علاقة تامة بحماسة كلامها شبه الشرقية، وكانت شفتاها الورديتان النقيتان تبتسمان نصف ابتسامة؛ واصبحت جبهتها النقية المشرقة مضطربة من تأثير تفكيرها ، كمرآة تحت الانفاس ؛ وكان يتفلت من اهدابها الطويلة السوداء المنخفضة نوع من النور فائق الوصف يكسب منظر وجهها الجانبي تلك العذوبة المثالية التي وجدها رافايل في نقطة التقاطع السحرية للبتولية والامومة والألوهة .

وكان غرنغوار يتابع ذلك فقال :
– اذن كيف يجب ان يكون لينال رضاك ؟
– يجب ان يكون رجلًا .
فقال : وانا ، ماذا انا اذن ؟
– رجل على رأسه خوذة ، وفي يده سيف ، ومهمازان ذهبيان على عقبيه .
فقال غرنغوار : حسناً ! ليس هناك رجل بدون جواد . – اتحبين احداً ؟
– للحب ؟
– للحب .

فظلت لحظة مفكرة ، ثم قالت بتعبير خاص : سأعرف ذلك فيما بعد .
وقال الشاعر بحنو :
– ولماذا ليس هذا المساء ؟ ولماذا لست أنا ؟
فألقت عليه نظرة رزينة وقالت :
– لا استطيع ان احب سوى رجل يحميني .
فاحمر غرنغوار خجــلًا لانها تعرّض به . ومن المؤكد ان الفتاة تشير الى المساندة القليلة التي اسداها لها في الظروف الحرجة التي تعرضت لها منذ ساعتين .
لقد عادت اليه هذه الذكرى التي محتها مغامرات المساء الاخرى . وضرب على جبهته .
– بالمناسبة يا آنسة ، كان عليّ ان ابدأ من هنا . اغفري لي تشتت افكاري الجنونية . كيف فعلت حتى تخلصت من مخالب كازيمودو ؟
هذا السؤال جعل الغجرية ترتجف :
– اوه ! يا للأحدب المرعب !
قالت ذلك وهي تخبىء وجهها بيديها ، وارتجفت كمن أصابه البرد .
وقال غرنغوار الذي لم يترك فكرته :
– مرعب فعلًا . ولكن كيف استطعت التخلص منه ؟
فابتسمت ازميرالدا ، وتأوهت ، ولزمت الصمت .
وقال غرنغوار محاولاً العودة الى سؤاله باستعمال الحيلة :
– اتعرفين لماذا لحق بك ؟
فقالت الفتاة : لا ادري .
ثم اضافت بحرارة : ولكنك تبعتني انت . فلماذا كنت تتبعني ؟
فأجاب غرنغوار :
– يقيناً ، لا ادري .
وساد صمت . وكان غرنغوار يبضع الطاولة بسكينه . وكانت الفتاة تبتسم وتبدو كأنها ترى شيئاً خلال الجدار . وفجأة اخذت تغني بصوت يكاد لا يبين .

حين تصمت الطيور المبرقشة
فان الارض [1] ...

وانقطعت فجأة واخذت تداعب دجالي . وقال غرنغوار :

– ان عندك حيواناً جميلاً .

فأجابت : انها اختي .

وسأل الشاعر : لماذا يدعونك ازميرالدا ؟

– لا ادري .

– ولكن ايضاً ؟

فأخرجت من صدرها كيساً صغيراً مستطيلاً معلقاً في عنقها بسلسلة من حبوب الأدريزاراك Adrézarach . وكان هذا الكيس يتضوع رائحة الكافور القوية ، وهـــو مغطى بحرير اخضر وفي منتصفه خرزة كبيرة خضراء تقليداً للزمردة . وقـــالت :

– يمكن ان يكون بسبب هذه .

واراد غرنغوار اخذ الكيس فتراجعت قائلة :

لا تلمسه ، انه تميمة . ستسيء الى السحر او ان السحر سيسيء اليك .

واستيقظ فضول الشاعر اكثر فأكثر ، فقال :

– من اعطاك اياه ؟

فوضعت اصبعاً على فمه وخبأت التميمة في صدرها . وحـــاول إلقاء اسئلة اخرى ولكنها تكاد لا تجيب .

– ما معنى هذه الكلمة : لا ازميرالدا ؟

فقالت : لا ادري .

– الى اية لغة تنتمي ؟

– انها من اللغة الغجرية كما اعتقد .

فقال غرنغوار : كنت اشك في ذلك . ألست من فرنسا ؟

---

١ – بالاسبانية في الاصل .

– لا ادري .

– ألكِ اهل ؟

فأخذت تغني على لحن قديم :

ابي عصفور ،

وامي عصفورة ،

اجتاز الماء دون زورق ،

اجتاز الماء دون قارب ،

امي عصفورة ،

وابي عصفور .

فقال غرنغوار :

– حسناً ، في اي سنٍ أتيت الى فرنسا ؟

– صغيرة جداً .

– والى باريس ؟

– السنة الماضية . وفي اللحظة التي دخلت فيها من الباب البابوي رأيت طائر القصب يسير في الهواء . وكان ذلك في اواخر آب . وقد قلت : سيكون الشتاء قاسياً .

فقال غرنغوار ، وقد انتشى من بدء هذه المحادثة :

– وقد كان . فقد امضيت الشتاء نافخاً في اصابعي . اذن فأنت تملكين موهبة التنبؤ ؟

فعادت الى الكلام المختصر : كلا .

– وذلك الرجل الذي تدعونه دوق مصر هل هو رئيس قبيلتك ؟

– نعم .

فقال غرنغوار ملاحظاً بحياء :

– انه هو الذي عقد زواجنا .

فأظهرت كشرتها العادية الجميلة وقالت :

– حتى اسمك فاني لا اعرفه .

– ولكن اسمي ؟ اذا اردت معرفته فهذا هو : بيار غرنغوار .

فقالت : اعرف اسماً اجمل منه .

فقال الشاعر :

– يا للخبيثة . لا يهم ، فلن تثيري غضبي . ربما تحبينني عندما تعرفينني بصورة افضل ، ثم انك مردت علي قصتك بكثير من الثقة وانا مدين لك بثقتي ايضاً . تعرفين انني ادعى بيار غرنغوار ، وانني ابن مزارع من دائرة كتابة عـــدل غونيس . وابي شنقه البورغونيون وامي بقر بطنها البيكارديون اثنـــاء حصار باريس ، وذلك منذ عشرين سنة . اذن كنت يتيماً في السادسة من عمري وليس لي نعل في رجلي سوى بلاط باريس . ولا اعرف كيـف اجتزت المسافة بـين سن السادسة وسن السادسة عشرة . هنا بائع اثمار يعطيني خوخة ، وهناك آخر يلقي الي كسرة خبز ؛ وفي المساء يلتقطني الحراس ليضعوني في السجن حيث اجد هناك حزمة قش . وكل هذا لم يمنعني من ان اكبر واهـزل كما ترين . في الشتاء اتدفأ بالشمس تحت مدخل فندق سانس ، واجد من المضحك الاحتفاظ بنار سان جان لأيام الحر . وفي سن السادسة عشرة اردت الاستقرار على حال . وجربت كل شيء بالتتابـــع . وعملت جندياً ولكنني لم اكن شجاعاً بشكل كاف . وعملت راهباً ؛ ولكني لم اكن ورعاً بشكل كاف . ثم ساءت الامور ، ودفعني اليأس الى العمل كصانع نجار ، ولكني لم اكن قوياً بما فيه الكفاية . وكان عندي ميل كبير لأكون معـــلم مدرسة ؛ وصحيح اني لم اكن اعرف القراءة ؛ ولكن هذا ليس سبباً . وفي احد الاوقات رأيت انه ينقصني شيء ما ، ورأيت اني غير صالح لشيء ، فأقدمت بملء اختياري على ان اعمل شاعراً ومؤلفاً موسيقياً . وهي حالة يمكن اتخاذها دائماً عندما يكون المرء متشرداً ، وهذا افضل من السرقة ، كما كان ينصحني بعض ابناء اللصوص من اصدقائي . ومن حسن الحظ فقد التقيت ذات يوم بالدوم كلود فرولو كاهن ابرشية نوتردام ، فاهتم بي . وبفضله اصبحت اليـــوم اديباً حقيقياً ، اعرف اللاتينية ابتداء من

واجبات شيشرون حتى موريتيولوج الآباء السلستيين ، ولم اكن بربرياً لا في الفلسفة الكلامية ولا في الناحية الشعرية ، ولا في الالحان ، حتى ولا في عملية تحويل المعادن . وانا مؤلف مسرحية اللغز التي مثلت اليوم بنجاح كبير وتسابق كبير من عامة الشعب في قاعة القصر الكبرى . وسأؤلف كتاباً يضم ستمائة صفحة حول المذنب المدهش عام ١٤٦٥ الذي سبب الجنون لاحد الناس . ونلت ايضاً نجاحات اخرى . وكنت الى حدٍ ما نجار مدفعية ، واشتغلت في ذلك المنجنيق الضخم لجان موغ الذي تعرفينه والذي قُتل على جسر شارنتون في اليوم الذي اجريت فيه التجربة ، وقتل اربعة وعشرين فضولياً . وهكذا ترين انني لست نصيباً رديئاً في الزواج ، وأعرف جيداً طرقاً وحيلاً حسنة سأعلمها لمعزاتك ؛ مثلاً ، التشبه بأسقف باريس ، ذلك الفريسي الملعون الذي تلوث طواحينه المارّة على طول جسر اومونيه . ثم ان مسرحيتي اللغز ستأتي بكثير من الفضة المسكوكة اذا دفعوا لي . واخيراً فأنا رهين امرك ، انا وعقلي وعلمي وادبي ، مستعد للعيش معك يا آنسة كما يحلو لك ، بطهارة او بمرح ، زوج وزوجة اذا راق لك ذلك ، واخ واخت اذا رأيت ذلك افضل .

وسكت غرنغوار منتظراً تأثير خطابه على الفتاة . وكانت عيناها محدقتين بالارض . وقالت بصوت منخفض : فوبوس Phœbus . ثم التفتت نحو الشاعر وقالت : ما معنى كلمة فوبوس ؟

ان غرنغوار الذي لم يفهم العلاقة الممكن ايجادها بين خطبته وهذا السؤال ، لم يكن غاضباً لإظهار تألق علمه الواسع . فأجاب منتفخاً بكبرياء :

– هي كلمة لاتينية معناها : الشمس .

فقالت : الشمس !

واضاف غرنغوار : انه اسم نبّال جميل جداً وكان إلهاً .

فرددت الغجرية : إلهاً !

وكان في نبرتها شيء من المفكر والعاشق .

في تلك اللحظة انقطع سوارها وسقط ، فانحنى غرنغوار بحرارة ليلتقطه .

وحين نهض كانت الفتاة والمعزاة قد اختفتا . وسمع صوت مزلاج . انه باب صغير موصل دون شك الى غرفة مجاورة ويقفل من الخارج . وقال فيلسوفنا :

– الم تترك لي سريراً على الاقل ؟

ودار في الغرفة . لم يكن هناك قطعة اثاث صالحة للنوم سوى صندوق خشبي طويل الا ان غطاءه محفور، الامر الذي ينيل غرنغوار ، حين يتمدد عليه، احساساً يشبه تقريباً الاحساس الذي شعر به ميكروميغاس حين تمدد بطوله على جبال الألب . وقال مقتنعا :

– لا بأس ، يجب ان نخضع . ولكنها ليلة عرس غريبة . وانه لمؤسف . يوجد في هذا الزواج على طريقة الجرة المكسورة شيء من الساذج والسابق للطوفان وهذا يعجبني .

الكتاب الثالث

١

كنيسة نوتردام

مما لا شك فيه ان كنيسة نوتردام في باريس لا تزال حتى اليوم بناء جليلاً عظيماً . ولكن مهما كان احتفاظها بجمالها مع الكبر فان من الصعب ألا يتحسس المرء وألا يغضب امام التلف والتشويهات التي لا حصر لها والتي حملها الزمن والناس بالتناوب الى هذا الأثر التذكاري المقدس ، دون احترام شارلمان الذي وضع الحجر الاسامي لها ، وفليب اوغست الذي وضع الحجر الاخير .

وعلى وجه هذه الملكة العجوز لكاتدرائياتنا ، يوجد دائماً ندبة الى جانب اخدود . « الزمن قارض ، والانسان قارض اسوأ » [١] .

وهذا ما اترجمه هكذا : « الزمن اعمى ، والانسان ارعن » .

ولو كان لدينا الوقت الكافي من الفراغ لنفحص آثار الخراب المتنوعة الظاهرة على الكنيسة الأثرية أثراً اثراً لرأينا ان حصة الزمن هي الاقل ، وان حصة الناس هي الأسوأ ، وخصوصاً رجال الفن . ويجب ان اقول « رجال الفن » لأن هناك افراداً اتخذوا لأنفسهم صفة مهندسين معماريين في القرنين الماضيين .

ومن المؤكد اولاً ، ولكي لا نذكر سوى بضعة امثلة رئيسية ، ان تلك الواجهة هي واحدة من اجمل الصفحات المعمارية القليلة ، حيث البوابات الثلاث

١ — عبارة لاتينية في الاصل .

المحفورة بالتتابع أو معاً بشكل محرابي ، والحجارة الناتئة المطرزة المسننة بثمان وعشرين كوة ملكية ، والوردية Rosace الواسعة في الوسط والمجنحة بنافذتيها الجانبيتين كالشماس ومرؤوسيه ، ورواق الاقواس البرسيمي المرتفع الواهن الذي يحمل سطحاً ثقيلاً على اعمدته الدقيقة الصغيرة ، واخيراً البرجان الاسودان الضخمان بأفاريزهما المصنوعة من الحجارة الطرية الزرقاء ، اجزاء متناسقة منضدة بشكل بديع في خمس طبقات ضخمة ، تكبر في العين ، وبالجمهور وبدون اضطراب في تفاصيلها التي لا تحصى في فن النحت والحفر ، والمضمومة بقوة الى عظمة المجموع الهادئة ؛ انها سمفونية كبيرة من الحجر اذا صح القول ؛ وعمل عملاق لرجل ولشعب ، والمجموع كله واحد ومعقد كالالياذة والرومانسيرو والتي هي اختها ؛ وهو نتاج اعجوبي ساهمت فيه جميع قوى عصر ، حيث تتدفق على كل حجر ، في مئة طريقة ، خواطر العامل التي نظمتها عبقرية الفنان ؛ وبكلمة ، نوع من الخليقة البشرية قوية مخصبة كالخليقة الالهية التي يبدو انها سرقت منها صفتها المزدوجة : التنوع والخلود .

ما قلناه هنا عن الواجهة يجب قوله عن الكنيسة بكاملها ؛ وما قلناه عن الكنيسة الكاتدرائية في باريس ، يجب قوله عن جميع كنائس المسيحية في القرون الوسطى . كل شيء موجود في هذا الفن الآتي من نفسه ، المنطقي الحسن التناسب . ان قياس ابهام الرجل يعني قياس العملاق .

لنعد الى واجهة كنيسة نوتردام كما لا تزال تبدو لنا في الوقت الحاضر حين نعجب بشيء من الورع بالكاتدرائية الوقور القوية التي تبعث الرعب ، وفقاً لقول ناقلي اخبارها : ان كتلتها ترعب اولئك الذين يتأملونها [١] .

هناك ثلاثة اشياء هامة تنقص هذه الواجهة اليوم . اولاً درج مؤلف من احدى عشرة درجة كان يرفعها فوق الارض ؛ ثم السلسلة السفلى من التماثيل التي كانت تحتل نوافذ البوابات الثلاث ، والسلسلة العليا لثمانية وعشرين ملكا قديماً من ملوك فرنسا ، ابتداء من شيلدبير حتى فيليب اوغست ممسكاً بيده

---

١ — عبارة باللاتينية في الاصل .

« التفاحة الملكية » .

ان الزمن هو الذي اخفى الدرج بوفعه مستوى التراب وذلك بتقدم بطيء لا يمكن دفعه . ولكن المد الصاعد لشوارع باريس بالتهامه درجة درجة تلك الدرجات الاحدى عشر المضافة الى ارتفاع العمارة المهيب ، فان الزمن اعاد للكنيسة اكثر مما اخذ منها ، لأن الزمن هو الذي نشر على الواجهة ذلك اللون الداكن للعصور والذي يجعل من كبر الأبنية التذكارية سن جمالها .

ولكن من هو الذي القى الصفين من التماثيل ارضاً ؟ ومن ترك النوافذ فارغة ؟ ومن حفر في نصف البوابة الوسطى ذلك القوس الجديد المبندق ؟ ومن تجرأ ان يضع اطاراً لذلك الباب الخشبي ، التافه ، الثقيل ، المحفور للويس الخامس عشر الى جانب نقوش بيسكوونيت الورقية ؟ الناس ؛ المعماريون ، فنانو ايامنا .

واذا دخلنا الى داخل البناء ، فمن هو الذي قلب ذلك التمثال العملاق للقديس كريستوف ، وهو مضرب المثل بين التماثيل التي من نوعه ، كقاعات القصر الكبرى بين القاعات ، وكقبة جرس كنيسة ستراسبورغ بين قباب الاجراس ؟ وتلك العشرات من الوف التماثيل التي كانت تعمر ما بين اعمدة صحن الكنيسة والخورس ، راكعة ، واقفة ، وعلى الخيل ، رجالاً ، نساءً ، اطفالاً ، ملوكاً ، اساقفة ، جنوداً ، من حجر ، ورخام ، وذهب ، وفضة ، ونحاس ، ومن شمع ايضاً . من الذي كنسها بعنف ؟ انه ليس الزمن .

ومن ابدل في المذبح القوطي القديم المزدحم بشكل رائع بصناديق الذخائر المقدسة وصناديق بقايا القديسين ، ذلك الناووس الرخامي الثقيل ذا الرؤوس الملائكية والغيوم والذي يشبه عينةً لا مثيل لها لفال دي غراس والانفاليد ؟ ومن ثبّت بحمق هذا الخطأ التاريخي الحجري الثقيل في بلاط هركاندوس الكارلوفنجي ؟ اليس هو لويس الرابع عشر متمماً نذر لويس الثالث عشر [1] ؟

---

١ — لقد يئس لويس الثالث عشر من ولادة ولي للعهد بعد زواج دام ٢٣ سنة ، فنذر فرنسا للعذراء عام ١٦٣٨ ونذر ان يجدد زخارف خورس نوتردام . ولكن لويس الرابع عشر ، ثمرة ذلك النذر ، هو الذي دشن العمل في الكنيسة عام ١٦٩٩ .

ومن وضع زجاجاً ابيض بارداً مكان ذلك الزجـاج « السامي في الالوان » الذي جعل عيون آبائنا المندهشة تحتار بين شكل البوابة الكبرى الوردي وبين الاشكال القدسية في صدر الكنيسة ؟ وماذا يقول مرتل من القرن السادس عشر حين يرى طلاء الجدران الاصفر الجميـــل الذي لوث به اساقفتنا الهادمو الآثار كاتدرائياتهم ؟ انه سوف يتذكر انه هو اللون الذي يطلي به الجلاد الابنية « الشريرة » ؛ وسوف يتذكر قصر بتي - بوربون المصمغ بالاصفر لاجل خيانة قائد الجيش الاعلى . وقد قال سوفال : « اصفر قبل كل شيء ذو طينة جيدة وموصى به بحيث ان اكثر من قرن لم يستطع تغيير لونه » . وسوف يظن ان المكان المقدس اصبح مرذولاً وسوف يهرب .

واذا صعدنا الى سطح الكاتدرائية ، دون ان نتوقف على الف همجية من كل نوع ، ماذا جرى بقبة الجرس الصغيرة البديعة المستندة الى نقطة تقاطع الصليب والتي ترتفع في السماء ، والتي ليست اقل هشاشة ولا جرأة من جارتها قبة سان شابيل (المهدمة ايضاً) ، والغارزة في السماء قبـــل الابراج المشيقة ، الحادة ، الرنانة ؟ لقد بترها مهندس معماري ذو ذوق سليم (١٧٨٧) وظن انه يكفي ان يغطي الجرح بتلك اللزقة الرصاصية الواسعة التي تشبه غطاء حلة .

وهكذا فان فن القرون الوسطى البديع قد عولج في جميع البلدان تقريباً وفي فرنسا على الخصوص . ويمكن ان نميز على خرائبه ثلاثة انواع من الآفـات التي تنخره على اعماق مختلفة : اولاً الزمن الذي يثلم سطحها هنا وهناك بشكل لاشعوري وينشر الصدأ على وجهها كله ؛ ثم الثورات السياسية والدينية ، وهي عمياء غاضبة بطبيعتها ، تنقض عليها بدون نظـــام ، وتمزق ملابسها الثمينة من النحت والنقش ، وتفقأ وردياتها ، وتكسر اطواقها من النقوش الورقيـــة والصورية ، وتنتزع تماثيلها ، تارة لاجـــل تيجان هذه التماثيل الاسقفية وطوراً لاجل تيجانها الملكية ؛ وأخيراً الانماط (الموض) التي تزداد غرابة وحمقاً ، والتي تتابعت في انحطاط فن البناء منذ انحرافات عصر النهضة الرائعـــة الفوضوية . وكانت الانماط مجلبة للشر اكثر من الثورات ، فقد قطعت في الحي ، وهاجمت

عمود الفن الفقري ، وقطعت ، وفصلت ، وشوشت ، وقتلت البناء في الشكل والرمز ، في منطقه كما في جماله . ثم رممت ! وقـــد اسبغت بشكل وقح ، وبداعي « الذوق السليم » ، على جراح الهندسة المعمارية القوطية زينتها الحقيرة ، وعصائبها الرخامية ، وخيوطها المعدنية ، جـــذام حقيقي من النقوش البيضوية الشكل ، والحلزونية ، والدائرية ، والزينـــات ذات الرفارف ، واكاليـــل الازهار ، والمخمليات ، والشعلات الحجرية ، والغيـــوم البرونزية ، والعشاق البدينين ، والاطفال المتورمين ، والتي بـدأت تلتهم وجه الفن في معبـد كاترين دي مديسيس ، وتجعـــله يسلم الروح بعـد قرنـــين ، معذبـــاً مكشراً في بهو دوباري .

وهكذا ، ولاختصار النقاط التي ذكرناها ، نقول ان ثلاثة انواع من التلف تشوه اليوم هندسة البناء القوطية . اخاديد وثآليل في البشرة ، وهذا من عمـل الزمن ؛ آثار عمل ، واعمال فظة ، ورضوض وكسور الـخ . وهـذا من عمل الثورات منذ لوثر حتى ميرابو . بـتر وتشويه ، وقطـــع ، وتفسـخ في هيكل البناء ، و « ترميات » ، وهـــذا عمل يوناني ، روماني ، بربري من الاساتذة وفقاً لفيتروف وفينيول . هذا الفن البديع الذي انتجه هادمو الآثار الفنية قتلته الاكاديميات . وقد جاء يساعد العصور والثورات التي تكتسح على الاقل بتجرد وعظمة حشداً من مهندسي مـدرسة ، ملـتزمين ، محلفين ، مستحلفين ، مخلوعين بسبب تمييز واختيار الذوق السيء ، مستبدلين هندبائيات (رسوم بشكل هندباء) لويس الخامس عشر بالمخرمات القوطية في سبيل اعظم مجد لبارتينون . انها رفسة الحمار للاسد الميت . وهي السنديانة القديمة التي تتوج ، والتي نقرها وعضها ومزقها الدود لزيادة المصيبة .

ما ابعد ذلك العصر حين قارن روبير سيناليس بين كنيسة نوتردام الباريسية ومعبد ديانا الشهير في إفيز الذي طالما استغاث به الوثنيون وخلـّد اروستراث ، فوجـد ان الـكاتدرائية الغالية — نسبة الى غـاليا — « تتفوق بالطول والعرض والارتفاع والبناء » !

وليست كنيسة نوتردام الباريسية هي ما يمكن تسميته اثراً تذكارياً كاملاً ، محدوداً ، مصنفاً . فهي ليست كنيسة رومانية ، ولا كنيسة قوطية . وهذا البناء ليس نموذجاً . ونوتردام الباريسية ليست كدير تورنوس ، البناء العظيم الضخم ، والقبة المستديرة العريضة ، والعري الجليدي ، والبساطة الجليلة للابنية التي يكون فيها العقد هو العلة . انها ليست ككاتدرائية بورج ، ذلك النتاج البديع ، الخفيف ، الكثير الاشكال ، الكثيف ، المتنفش ، المزدهر للعقد . من المستحيل وضعها في صف واحد مع هذه العائلة القديمة من الكنائس الداكنة الغامضة ، المنخفضة التي كأن العقد قد سحقها ؛ شبه المصرية في السقف ، والهيروغليفية ، الكهنوتية ، الرمزية ؛ وفي زخرفتها من المعينات والخطوط المتعرجة اكثر من الزهور ، ومن الزهور اكثر من الحيوانات ، ومن الحيوانات اكثر من البشر ؛ انها عمل مهندس معماري اقل مما هي عمل اسقف ؛ اول تحول للفن ، مطبوع كله بالنظام التيوقراطي والحربي ، ويأخذ جذوره من الامبراطورية البيزنطية متوقفاً عند غليوم الفاتح . ومن المستحيل وضع كاتدرائيتنا في تلك العائلة الاخرى من الكنائس العالية ، الهوائية ، الغنية بالزجاجيات والمنحوتات ، الحادة الشكل ، الجريئة في الهيئة ؛ ريفية وبورجوازية كرموزٍ سياسيين حرين ، جامحين كعمل فني ؛ تحول ثان لهندسة البناء ، ليس هيروغليفياً ، مستقراً ، وكهنوتياً ، بل فني تقدمي وشعبي ، يبدأ بعودة الصليبيين وينتهي في ايام لويس الحادي عشر . وكنيسة نوتردام الباريسية ليست من العرق الروماني النقي كالكنائس الاولى ولا من العرق العربي النقي كالكنائس الثانية [1] .

انها بناء انتقال . فالمعماري الساكسوني كان قد انتهى من اقامة الاعمدة الاولى لصحن الكنيسة حين جاء العقد المحرابي مع الصليبيين ليستقر كفاتح على التيجان العريضة للاعمدة الرومانية التي لم يكن عليها ان تحمل سوى العقود Plein - cintre . والعقد المحرابي ، السائد منذ ذلك الوقت ، قد بنى بقية

١ – ان العقد المحرابي Ogive هو بناء عربي .

بكنيسة . وبما انه غير مجرب وخجول في بدء امره ، فقد توسع وامتد وقاوم ولم يجرؤ ان ينطلق قباباً مروسة ومشارط كما فعل فيما بعد في كثير من الكاتدرائيات الرائعة . وسوف يقال انه تأثر بمجاورة الاعمدة الرومانية الثقيلة .

ومع ذلك فهذه الابنية الانتقالية من الروماني الى القوطي ليست اقل قيمة للدرس من النماذج الصافية . انها توضح فرقاً في الفن يضيع بدونها . انه تطعيم العقد المحرابي Ogive على العقد Plein cintre .

ونوتردام الباريسية هي بشكل خاص عينة عجيبة من هذا التنوع . فكل وجه ، وكل حجر من الأثر التذكاري المقدس هو صفحة ليست من تاريخ البلاد فقط بل من تاريخ العلم والفن ايضاً . وهكذا ، ولكي لا نشير هنا الا الى التفاصيل الرئيسية ، بينما الباب الاحمر الصغير يكاد يبلغ حدود الدقة القوطية في القرن الخامس عشر ، فان اعمدة صحن الكنيسة ، بحجمها وثقلها تتراجع حتى دير سان جرمان دي بريه الكارلوفنجي . ويعتقد ان هناك ستة قرون بين هذا الباب وتلك الاعمدة . وليس هناك حتى الحبساء من لا يجد في رموز البوابة الكبرى مختصرا مرضياً لعلمهم ، وحيث كنيسة سان جان ديلا بو شيري كانت هيروغليفاً تاماً . وهكذا فان الدير الروماني ، والكنيسة المفلسفة ، والفن القوطي ، والفن الساكسوني ، والعمود الثقيل المستدير الذي يذكرنا بغرنغوار السابع ، والرمزية الهيروغليفية التي بموجبها مهد نقولا فلاميل للوثر ، والوحدة البابوية ، والانفصال عن الكنيسة ، وسان جرمان دي بريه ، وسان جاك ديلا بو شيري ، كلها ذابت ، ورُكّبت ، ومزجت في نوتردام . تلك الكنيسة المركزية المولّدة التي هي نوع من الوهم بين كنائس باريس القديمة ؛ لها رأس هذه واعضاء تلك ، وردف الاخرى . انها شيء من كل شيء .

ونكرر ان تلك الابنية الخلاسية ليست هي التي تثير اهتمام الفنان وعالم الآثار والمؤرخ اقل من غيرها . انها تجعلنا نشعر الى اية درجة تكون هندسة البناء شيئاً بدائياً ، فيما تثبته ، وما تثبته ايضاً آثار الابنية القديمة الضخمة ، واهرامات مصر ، والباغودات الهندوسية الضخمة ، ان اكبر انتاجات الفن

المعماري هي اعمال شخصية اقل مما هي اعمال اجتماعية ؛ وبالاحرى ، طفولة شعوب في الشغل اقل مما هي امية عباقرة ؛ والمستودع الذي تتركه امة ؛ والاكوام التي تصنعها العصور ؛ وبقايا التبخرات المتتابعة للمجتمع البشري ؛ وبكلمة ، انواع من التكوينات . وكل موجة زمن تنضد طميها ، وكل عرق يضع طبقته على الاثر التذكاري ، وكل فرد يحمل حجره . هكذا تفعل القنادس ، وهكذا يفعل النحل ، وهكذا يفعل الناس . ان اكبر رمز للفن المعماري ، بابل ، هي قفير .

والعمارات الكبرى ، كالجبال الكبرى ، من عمل العصور . وفي اغلب الاحيان يتغير الفن وتظل معلقة ؛ « الاعمال المقطوعة تظل معلقة [١] » . انها تستمر بهدوء وفقاً للفن المتغير . والفن الجديد يأخذ الاثر التذكاري اينما وجده ، فيرصعه ، ويتمثله ، وينميه على هواه ، ويكمله اذا استطاع . والشيء يكتمل دون اضطراب ، دون جهد ، دون رد فعل ، وفقاً لقانون طبيعي وهادىء . انه تطعيم يحدث ، ونسغ يدور ، ونبات ينتعش . وبالتأكيد ، يوجد مادة لكتب ضخمة وفي الغالب تاريخ عام للانسانية ، في تلك الامتزاجات المتتابعة لعدة فنون على عدة ارتفاعات وعلى نفس الاثر التذكاري . والانسان ، والفنان ، والفرد يمّحي على تلك الكتل الكبيرة التي لا اسم لصانعها ؛ والذكاء الانساني يختصر فيها ويتم بجملته . ان الزمن هو المهندس المعماري ، اما الشعب فهو البنّاء .

ولكي لا نتصفح هنا سوى فن البناء الاوروبي المسيحي فان تلك الاخت الثانية للعمارات الكبرى في الشرق تظهر للعيون كتشكيل كبير مقسوم الى ثلاث مناطق مقطعة جيداً ومنضدة : المنطقة الرومانية [٢] ، والمنطقة القوطية ،

---

١ — عبارة لاتينية في الاصل لفرجيل .

٢ — هي نفسها التي تدعى ايضاً : لومباردية وساكسونية وبيزنطية وفقاً للاماكن والمناخ والانواع . انها فنون معمارية متوازية لكل منها طابعه الخاص ولكنها مشتقة من نفس المبدأ : العقد .

ومنطقة النهضة . والطبقة الرومانية التي هي الاقـــدم والاعمق مشغولة بالعقد الذي يبـــدو محمولاً على العمود الاغريقي في الطبقة الحـــديثة العليا من عصر النهضة . والعقد المحرابي بين الاثنتين . والعمارات التي تنتمي كلياً الى احـدى تلك الطبقات الثلاث هي مميزة تماماً ، واحدة وكاملة ، كدير جو ميـــج ، وكاتدرائية ريمس ، وسان كروا في اورليـان . ولكن المناطـق الثلاث تمتزج وتختلط بواسطة الحـــافـّات ، كالالوان في الطيف الشمسي . ومن هنا كانت الابنية التذكارية المعقدة ، وعمارات التنوع والانتقال . ان الواحدة منها رومانية في الاسفـل ، قـوطية في الوسط ، واغريقية – رومانية في الراس . وهـذا ما جعل بنـاءها يستمر ستمائة سنة . وهـذا التنوع نادر . وبرج قصر ايتامب عينة منـه . ولكن العمارات ذات التشكيلين اكثر وجـوداً . انهـا كنيسة نوتردام الباريسية ، بناء مخروطي يرتكز بأعمدته الاولى على تلك المنطقة الرومانية التي ادخلت فيها بوابة سان دنيس وصحن كنيسة سان جرمان دي بريه . انها القاعة البديعة النصف قوطية ، الخاصة بجمـع الرهبان في بوشيه – فيل التي تصـل فيها الطبقة الرومانية حتى نصفها . وهي كاتدرائية روان التي كان من الممكن ان تكـون قوطية بكاملها لو لم تبلـــل اطراف قبة اجراسها الوسطى في منطقة النهضـــة [1] .

والنتيجة ، فأن كل هذه التنوعات وكل هذه الفروقات لا تؤثر الا على وجه البناء . والفن هو الذي بدل جلده . اما تركيب الكنيسة المسيحية فلم يهاجم . هو دائمـاً نفس الجـلون الداخلي ونفس التنظيمات المنطقيـة للاجزاء . ومهما كان الغلاف المحفور المطرز لكاتدرائية ما ، فاننا نجد دائماً تحته الكـنيسة الملكية الرومانية في حالة البذرة والبدء على الاقـل . انهـا تنمو ابدياً على الارض وفقاً لنفس القانون . صحنان يتقاطعان بشكل صليب حيث الطرف الاعلى المستدير بشكل دعامة يشـكل الخورس ؛ ونواح منخفضة لاجـل الطواف الداخلي ، ولاجل الكنائس ، وهي نوع من الردهات الجانبية حيث الصحن الرئيسي ينفتح

١ – هذا القسم من القبة الذي كان بشكل جملون قد احرقته صاعقة عام ١٨٢٣ .

على ما بين الاعمدة . فاذا تم ذلك فان عدد المعابد ، والبوابات ، وقباب الاجراس ، والمسلات يتغير الى ما لا نهاية له ، وفقاً لأهواء العصر ، والشعب ، والفن . وحين تتأمن خدمة المذهب فان فن البناء يفعل ما يبدو له صالحاً . تماثيل ، زجاجيات ، ورديات ، ارابيسك ، مخرمات ، تيجان اعمدة ، نتوءات . انه ينظم كل تلك التخيلات وفقاً لجدول حسابي يناسبه . ومن هنا كان التنوع العجيب الخارجي لهذه العمارات التي يكمن في اعماقها كثير من النظام والوحدة . ان جذع الشجرة ثابت لا يتغير اما الإنبات فيتبع هواه .

٢

باريس على خط مستقيم

حاولنا ان نرمم للقارىء كنيسة نوتردام الباريسية الرائعة . وأشرنا باختصار الى معظم ما كان فيها من جمـــال في القرن الخامس عشر وما ينقصها اليوم ؛ ولكننا اهملنا الامر الرئيسي، انه منظر باريس كما يبدو آنذاك من اعلى ابراجها.

وبالفعل ، فبعد التلمس طويلاً في ذلك الدرج اللولبي المظـــلم الذي يخترق عامودياً الجدار السميك لقباب الاجراس، فان هذا الجدار ينفتح فجأة على واحد من سطحين مرتفعين يغمرهما النور والهواء ، وانها للوحة جميـلة تلك التي تنبسط تحت نظرك من جميع النواحي ، ومشهد يستطيع قراؤنا ان يكـوّنوا عنه فكرةً بسهولة ، اولئك الذين اسعدهم الحظ برؤية مدينة قوطية كامـلة ، تامة ، متجانسة ، كتلك التي لا يزال بعضها موجوداً : نورمبرغ في بافاريا ، وفيتوريا في اسبانيا ، وايضاً عينات صغيرة جداً بشرط ان تكون محفوظة ، مثل فيتربه في بريتانيا ، ونورهاوسن في بروسيا .

وباريس منذ ثلاثمـــائة وخمسين سنة ، باريس القرن الخامس عشر ، كانت آنذاك مدينة عملاقة . ونخطىء نحن الباريسيين على العموم حول الميدان الذي نعتقد اننا ربحناه منذ ذاك . فباريس منذ لويس الحادي عشر لم تزدد بأكثر من ثلثها . ومن المؤكد انها خسرت من الجمال اكثر مما ربحت من الكبر .

لقد ولدت باريس، كما هو معلوم، في جزيرة لاسيته القديمة التي اتخذت شكل مهد . وكانت رملة هذه الجزيرة هي سورها الاول ، والسين حفرتها الاولى .

وظلت باريس عدة قرون جزيرة مع جسرين ، واحـــد في الشمال والآخر في الجنوب ، وكان رأسا جسرهما ابوابها وحصونها ، الشاتليه الكبير على الضفة اليمنى والشاتليه الصغير على الضفة اليسرى . ثم اجتازت باريس الماء منذ ملوك العرق الاول الذي كان محصوراً في جزيرته وغير قادر على الانصراف عنها . وبدأ اول سور من الجدران والابراج ، فيما وراء الشاتليه الكبـــير والشاتليه الصغير ، يشق الحقول من ناحيتي السين . وكانت بعض الآثار لا تزال باقية في القرن الماضي من هذا السور القديم. اما اليوم فلم يبق سوى الذكرى ، وسوى تقليد هنا وهناك ، وباب بوديه او بودوابيه . وشيئاً فشيئاً اخذت موجة البيوت المندفعة من قلب المدينة الى الخارج تفيض وتقرض وتنهك وتمحو ذلك السور . وصنع لها فيليب اوغست سداً جديداً. وسجن باريس في سلسلة دائرية من الابراج الضخمة العالية المتينة. وظلت البيوت طوال اكثر من قرن تتزاحم ، وتتكدس وترتفع مستواها فوق ذلك الحوض كالماء في خزان . لقد بدأت تصبح عميقـة ، فهي تضع طبقة فوق طبقة ، وتنضد الواحدة فوق الاخرى ، وتندفـــع علواً ككل نسغ محصور كمن يدع رأسه يمر فوق جيرانه ليحصل على شيء من الهواء. واخذ الشارع يتجوف اكثر فأكثر ويضيق ؛ وكل مكان يمتلىء ويختفي، واخيراً تقفز البيوت فوق جدار فيليب اوغست وتتناثر بسرور في السهل دون نظـــام وبشكل معكوس كالهاربين . وهناك ، تستريح وتقتطع حدائق في الحقـول ، وتأخذ راحتها . ومنذ عام ١٣٦٧ والمدينة تتدفق في الضاحيـة بحيث اصبح من اللازم بناء سور جديد وخصوصاً على الضفة اليمنى ، وقد بناه شارل الخامس . ولكن مدينة كباريس هي في ازدياد مستمر . وليس هناك سوى تلك المدن التي تصبح عواصم . انها اقماع تنتهي اليها جميع المصبّات الجغرافيـة والسياسية والاخلاقية والفكرية للبلاد ، وجميع المنحدرات الطبيعية للشعب ؛ وآبار من المدينة اذا صح القول ، وبالوعات ، حيث التجـــارة ، والصناعة ، والذكاء ، والسكان ، وكل ما هو نسغ ، وكل ما هو حياة ، وكل ما هو روح في امة ، يرشح ، ويتراكم دون انقطاع قطرة قطرة وقرناً قرناً . اذن فقـد كان لسور

شارل الخامس مصير سور فيليب اوغست فقد قفز فوقه منذ اواخر القرن الخامس عشر ، واجتيز ، وركضت الضاحية الى مكان اكثر بعداً . وفي القرن السادس عشر بدا للنظر انه يتقهقر وينغمس اكثر فأكثر في المدينة القديمة ، ما دامت مدينة جديدة كانت تتكاثف في الخارج . وهكذا ، فمنذ القرن الخامس عشر ، لكي نقف هناك ، كانت باريس قد استهلكت دوائر الجدران الثلاث ذات المركز المشترك ، والتي كانت منذ ايام جوليان لابوستا بذرة في الشاتليه الكبير والشاتليه الصغير . وكانت المدينة القادرة قد قطعت بالتتابع احزمتها الاربعة من الجدران ، كالطفل الذي يكبر ويمزق ثياب السنة الماضية . وفي ايام لويس الحادي عشر كان يُرى من الساحات بعض الابراج الخربة من الاسوار القديمة تنفذ من ذلك البحر من البيوت كرؤوس التلال اثناء الفيضان وكأرخبيلات من باريس القديمة تغوص تحت الجديدة .

ومنذ ذلك الوقت ما زالت باريس تتغير على اعيننا وياللأسف ؛ ولكنها لم تجتز سوى سور واحد زيادة مما سبق ، هو سور لويس الخامس عشر ، ذلك الجدار الرديء من الوحل والتفالة ، والجدير بالملك الذي بناه وبالشاعر الذي انشده :

الجدار المحيط بباريس يجعل باريس متذمرة [1] .

وفي القرن الخامس عشر كانت باريس لا تزال مقسمة الى ثلاث مدن متميزة ، منفصلة ، ولكل منها سيماؤها الخاصة ، وخصائصها ، واخلاقها ، وعاداتها ، وامتيازاتها ، وتاريخها : لاسيته ، والجامعة ، والمدينة . وكانت لاسيته التي تشغل الجزيرة هي الاقدم ، والأصغر ، وام الاثنتين الاخريين ، ومحصورة بينهما كعجوز قميئة بين فتاتين جميلتين كبيرتي الجثة . وكانت الجامعة تغطي الضفة اليسرى من السين ، من حدود قنطرة لاتورنيل حتى برج فيل ، وهما نقطتان تشبه الواحدة منها في باريس اليوم سوق الخمور والاخرى

١ ــ هذا البيت بالفرنسية مبني على الجناس اللفظي وهو هكذا :

Le mur murant Paris rend Paris murmurrant !

لامونيه . وكان سورها يقعر بشكل هلال تلك الحقول التي بنى فيها جوليان حمّاماته العامة . وكان جبل سانت جنفياف في داخله . وكان ذروة هذا الخط المنحني في الجدران هو الباب البابوي ، اي مكان البانتيون الحالي . والمدينة التي كانت اكبر اقسام باريس الثلاثة كانت تحتل الضفة اليمنى . وكان رصيفها ، المقطوع او المقاطَع في عدة اماكن يمتد على طول نهر السين من برج بيللي الى برج ديبوا ، اي من المكان الذي تقوم عليه اليوم اهراء الفائض الى المكان الذي يقوم عليه التويلري . وهذه النقاط الاربع التي يقطع فيها السين سور العاصمة ، والمسماة لاتورنيل وبرج فيل الى الشمال ، وبرج بيللي وبرج ديبوا الى اليمين تدعى « ابراج باريس الاربعة » . وكانت المدينة تدخل في الاراضي بشكل اكثر عمقاً مما تدخل الجامعة . وذروة سور المدينة (سور شارل الخامس) كانت على ابواب سان دنيس وسان مارتان ، ولم يتغير مكانها .

وكما قلنا سابقاً ، فان كلاً من اقسام باريس الثلاثة هذه كان مدينة ، ولكنها مدينة خاصة جداً لتكون تامة ، مدينة لا تستطيع الاستغناء عن الاثنتين الاخريين . وهي أيضاً ثلاثة مناظر على حدة . ففي قسم لاسيته تكثر الكنائس ، وفي المدينة القصور ، وفي الجامعة المدارس . ولكي نهمل هنا الاصالات الثانوية لباريس القديمة ونزوات حقوق دائرة الطرق العمومية ، فسوف نقول من وجهة نظر عامة ، غير مهتمين بسوى المجموع والكتل في اختلاط السلطات القضائية الاقليمية ، ان الجزيرة كانت للاسقف ، والضفة اليمنى لرئيس التجار ، والضفة اليسرى لعميد الجامعة . وحاكم باريس ، وهو ضابط ملكي وليس بلدي ، هو على الجميع . وكان لقسم لاسيته ، نوتردام ، الاسواق ، وللمدينة اللوفر ودار البلدية ، وللجامعة السوربون . وكان للمدينة الاسواق ، ولقسم لاسيته المستشفى (اوتيل ديو) ، وللجامعة لوبريه ـ او كليرك . والجريمة التي كان الطلاب يرتكبونها على الضفة اليسرى في بريه ـ او ـ كليرك ، كانوا يحاكمون عليها في الجزيرة ، في قصر العدل . وكانو يعاقبون على الضفة اليمنى ، في مونفوكون . الا اذا تدخّل عميد الجامعة ، وقد شعر ان الجامعة قوية

والملك ضعيف ؛ لان من امتيازات الطلاب ان يشنقوا في اماكنهم .

(ولنسجل ان معظم هذه الامتيازات قـــد اغتصبت من الملك بواسطة الانتفاضات والعصيان. انه السلوك العريق في القدم. فالملك لا يُفلت الا عندما الشعب ينتزع . وهناك دستور يقول ذلك بسذاجة بصدد الولاء : « ان موالاة المواطنين للملكية ، مـع ان هناك انتفاضات تقطع هذه الموالاة ، قد أكسبتهم كثيراً من الامتيازات [1] ») .

في القرن الخامس عشر كان السين يبلل خمس جزر في باريس : جزيرة لوفيه ، حيث كان يوجد اشجار آنذاك ولم يعد يوجـد سوى خشب ؛ وجزيرة البقر (اوفاش) وجزيرة نوتردام ، والاثنتان مقفرتان على خربة قريبة ، وهما اقطاعتان للاسقف (لقد صنع في القرن السابع عشر من هاتين الجزيرتين جزيرة واحدة ، بنيت وندعوها جزيرة سان لويس) ؛ واخـــيراً لاسيته وعلى رأسها جزيرة المار الى البقر (باسور اوفاش) التي غرقت منذ زمن تحت ركام تراب الجسر الجديد . وكان لقسم لاسيته يومذاك خمسة جسور ؛ ثلاثـة الى اليمين ، هي جسر نوتردام وجسر اوشانج من حجر ، وجسر اومونيـــه من خشب ؛ واثنان الى اليسار ، الجسر الصغير من حجر ، وجسر سان ميشال من خشب : وكلها محملة بالبيوت . وكان للجامعة ستة ابواب بناهـا فيليب اوغست : وهي ، ابتداء من قنطرة لاتورنيل، باب سان فكتور ، وباب بورديل، والباب البابوي، وباب سان جاك ، وباب سان ميشال ، وباب سان جرمان . وكان للمدينة ستة ابواب بناها شارل الخامس : وهي ابتداء من برج بيللي ، باب سان انطوان ، وباب التامبل ، وباب سان مارتان ، وباب سان دنيس ، وباب مونمارتر ، وباب سان هونوريه . وكل هذه الابواب كانت قوية وجميـــلة ايضاً . وجمالها لم يفسد قوتها . وهناك حفرة واسعة، ذات مجرى قوي في فيضانات الشتاء ، كانت تغسل اسفل الجدران حول باريس ؛ والسين يجهز الماء . وفي الليل تقفـل الابواب ، ويسوّر النهر من طرفي المدينة بسلاسل ضخمة من الحديد، وتنام باريس مطمئنة.

---

١ – عبارة لاتينية في الاصل .

واذا نظرنا الى هذه الضياع الثلاث بخط مستقيم فان لاسيته والجامعة والمدينة تمثل كل منها للعين مطرزات مستبهمة من الشوارع المشوشة بشكل غريب . الا اننا نعرف لاول وهلة ان هذه الاجزاء الثلاثة من المدينة تشكل جسماً واحداً . ويُرى حالاً شارعان طويلان متوازيان دون ان يقطعها شيء ودون اختلال ، بخط مستقيم تقريباً كانا يقطعان المدن الثلاث معاً من طرف الى آخر من الجنوب الى الشمال ، عمودياً على السين ، ويربطانها ببعضها ، ويمزجانها ، ويدخلان ، ويسكبان ويفرغان دون انقطاع شعب هذه في جدران الاخرى ، ولا يصنعان من الثلاث سوى واحدة . واول هذين الشارعين يسير من باب سان جاك الى باب سان مارتان ؛ وهو يدعى في الجامعة شارع سان جاك ، وفي لاسيته شارع اليهودية ، وفي المدينة شارع سان مارتان ، ويجتاز الماء مرتين تحت الجسر الصغير وجسر نوتردام . والثاني الذي كان يدعى شارع لاهارب على الضفة اليسرى ، وشارع لاباريليري في الجزيرة ، وشارع سان دنيس على الضفة اليمنى . وجسر سان ميشال على شعبة من السين ، وجسر اوشانج على الشعبة الاخرى، ويسير من باب سان ميشال في الجامعة الى باب سان دنيس في المدينة. والنتيجة فيها لم يكونا سوى شارعين تحت اسماء كثيرة متنوعة ، ولكنهما الشارعان الرئيسيان ، الشارعان القائدان ، شريانا باريس . وكل الاوردة الاخرى من المدينة المثلثة تغترف منها او تصب فيها .

بصرف النظر عن هذين الشارعين الرئيسيين ، القطريين اللذين يخترقان باريس من ناحية الى اخرى بالعرض ، والمشتركين بالعاصمة كلها ، فان لكل من المدينة والجامعة شارعها الكبير الخاص الذي يسير باتجاه طولها ، على موازاة السين ويقطع الشارعين الشريانين بشكل زاوية قائمة عند مروره . وهكذا ففي المدينة كان المرء يهبط في خط مستقيم من باب سان انطوان الى باب سان هونوريه ؛ وفي الجامعة ، من باب سان فكتور الى باب سان جرمان . وهذان الطريقان الكبيران المتصالبان مع الاثنين الاولين يشكلان النسيج (الكنفا) الذي تستند اليه وتتعقد وتنضم من جميع الجهات شبكة متاهات شوارع باريس .

وفي رسم هـذه الشبكة الذي لا تحـل رموزه بيز فضلاً عن ذلـك عند الفحص بانتباه ، حزمتان من الشوارع الكبيرة تنفتح على الجسور والابواب ، كحزمتين موسعتين الاولى في الجامعة والثانية في المدينة .

ان شيئاً من هذا المخطط الهندسي لا يزال حتى اليوم .

والآن ، تحت اي منظـر يبدو هـذا المجموع من اعلى ابراج نوتردام عـام ١٤٨٢ ؟ هذا ما سنحاول قوله .

يرى المشاهد الذي يصل لاهثاً الى اعلى هذا البناء اولاً غشاوة من لمعان السطوح ، والمداخن ، والشوارع ، والجسور ، والساحات ، واعلى الابراج ، وقباب الاجراس . كل شيء يبهر عينيك ، الجملون الجاهز ، والسقف الحـاد ، والبرج المعلق في زوايا الجدران ، والهرم الحجري من القرن الحادي عشر ، والمسلة القرميدية من القرن الخامس عشر ، وبرج القصر العاري المستدير ، وبرج الكنيسة المطرز المربـع ، والكبير ، والصغير ، والضخم ، والهوائي . ان النظر يضيع طويلاً في اعماق هذه المتاهة حيث لا يوجد شيء الا وله اصالته ، وسببه ، وعبقريته ، وجماله ، وما من شيء الا وقد جاء من الفن ، من اصغر بيت ذي واجهة مدهونة ومنحوتة ، وهيـكل خارجي ، وباب منخفض وطوابق مائلة ، الى اللوفر الملكي الذي كان له آنذاك صف من الابراج والاعمدة . ولكن اليـكم الكتل الرئيسية التي تظهر حين تبدأ العين بالاعتياد على هذه البلبلة من الابنية .

اولاً لاسيته . ان جزيرة ، لاسيته كما يقول سوفال ، لهـا شيء من حسن الحظ في نسق البناء من خلال ما فيها من اشياء مختلفة ، « صنعت جزيرة لاسيته كسفينة كبيرة غارزة في الاناء وقد مست الماء مندفعة نحو وسط السين » . وقد شرحنا ان هذه السفينة كانت قد ربطت في القرن الخامس عشر بضفتي النهر بواسطة خمسة جسور . وكان شكل السفينة هذا قد ادهش علماء الانساب ؛ لان تلك السفينة التي تصور ترس شعارات الشرف القديم لباريس قد جاءت من هنـا وليس من حصار النورمانديين ، وفقاً لرأي فافـين وباسكيه . واشعرة

الشرف لمن يعرف ان يحل رموزها هي علم الجبر ، وهي لغة . والتاريخ الكامل للنصف الثاني من القرون الوسطى قد كتبت في مجموع اشعرة الشرف ، كما كتبت تاريخ النصف الاول في رمزية الكنائس الرومانية . انها هيروغليفية الاقطاع بعد هيروغليفية التيوقراطية .

ان لاسيته اذن تبدو اولاً للاعين بؤخرتها في المشرق ومقدمتها في المغرب . واذا التفتنا نحو المقدمة نجد امامنا قطيعاً لا يحصى من السطوح القديمة يستدير عليها باتساع طرف كنيسة سان شابيل الرصاصي الشبيه بردف فيل يحمل برجها. وهنا فقط ، كان هذا البرج هو السهم الاكثر جرأة ، والاكثر انفتاحاً ، والاكثر نجارة ، والاكثر تقطيعاً ، والذي يدع السماء تظهر من خلال مخروطه المخرم . وامام نوتردام ، وفي اقرب نقطة ، تنفتح ثلاثة شوارع على الساحة ، وهي مكان جميل ذو بيوت قديمة . وعلى الجهة الجنوبية من هذه الساحة تتعلق واجهة اوتيل ديو المخططة العابسة وسطحه الذي يبدو مغطى بالبثور والثآليل . ثم الى اليمين ، والشمال ، والشرق ، والغرب في ذلك الاطار الضيق من حي لاسيته كانت تنتصب ابراج اجراس كنائسها الواحدة والعشرين ، من كل عصر ، ومن كل شكل ، ومن كل عظمة ، من الجريس الروماني المنخفض المنخور في سان دنيس دي با ، حتى مسلات سان بيار ـ او بوف وسان لندري الدقيقة . ووراء نوتردام الى الشمال كان ينبسط الدير بأروقته القوطية ؛ والى الجنوب قصر الاسقف نصف الروماني ؛ والى الشرق طرف تيران[1] Terrain المقفر . وفي هذه الاكداس من البيوت لا تزال العين تميز على ذلك القرميد العالي فوق المداخن من الحجر المثقوب الذي يتوج آنذاك ، وعلى السطح نفسه ، نوافذ القصور الاكثر ارتفاعاً ، ذلك القصر الذي اعطته المدينة في ايام شارل السادس الى جوفينال ديزورسان ، وأبعد من ذلك بقليل ، اكواخ مارشيه ـ بالوس المدهونة بالزفت ، وهناك ايضاً صدر كنيسة سان جرمان لوفيو الجديد ، الممدد عام ١٤٥٨ مع طرف شارع او فوف ، ثم في اماكن مختلفة ، مفترق طرق

١ ـ المكان الحالي لتربيعة الاسقفية .

محتشد بالشعب ، ووتد منصوب في زاوية شارع ، وقطعة جميلة من بلاط فيليب اوغست ، وتبليط بديع مخطط لاجل اقدام الخيل في وسط الطريق وقد استبدل ، بشكل سيء في القرن السادس عشر ، بالحصر المسماة « بلاط التحالف » وباحة خلفية مقفرة مع احد تلك الابراج الصغيرة الشفافة للدرج كما كانوا يصنعونه في القرن الخامس عشر ، وكما لا يزال يُرى في شارع بوردونيه . واخيراً الى يمين سانت - شابيل نحو الغرب فان قصر العدل يُجلس مجموعة ابراجه على حافة الماء . وغابات جنائن الملك التي كانت تغطي الطرف الغربي من لاسيته ، تغطي اليوم جزيرة باسور او - فاش . بينما الماء لم يكن يرى ابداً في جانبي لاسيته من اعلى برج نوتردام . وكان السين يختفي تحت الجسور ، والجسور تحت البيوت .

واذا اجتاز النظر هذه الجسور التي تبدو سطوحها للعين مخضوضرة ، متعفنة منذ القدم من بخار الماء ، واذا سار الى الشمال نحو الجامعة ، فان اول بناء يلتقي به هو مجموعة ضخمة ومنخفضة من الابراج ، الشاتليه الصغير ، حيث مدخله المسقوف الفاغر فاه يلتهم طرف الجسر الصغير ، ثم لو أجلت النظر من الشرق الى الغرب ، من لاتورنيل حتى برج نيل ، فهو شريط طويل من البيوت ذات الاخشاب المحفورة ، والزجاج الملون ، يزيد عن الشارع من طبقة الى طبقة بتعرج لا ينتهي من سقوف الجملون البورجوازية التي يقطعها عادة مدخل شارع ، ومن وقت الى آخر ، وجه او مرفق قصر كبير من الحجر ، يقف مطمئناً ، وساحات وحدائق ، واجنحة ومنازل ، بين ذلك الحشد الكبير من البيوت المحشورة الضيقة كسيد عظيم بين حشد من القرويين . وكان يوجد خمسة او ستة من تلك القصور على الرصيف ، ابتداء من مسكن لورين الذي كان يقتسم مع لوبرناردان السور القديم الكبير المجاور لقنطرة لاتورنيل حتى اوتيل دي نيل الذي كان برجه الرئيسي يحد باريس ، وحيث السقوف المدببة كان بامكانها طوال ثلاثة اشهر من السنة ان تقعر بمثلثاتها السوداء القرص القرمزي للشمس المشرفة على المغيب .

هذه الناحية من السين كانت هي الاقل تجارة . فقد كان الطلاب يحدثون فيها من الضجة والزحمة اكثر من الصناع ، ولم يكن يوجد بالمعنى الصحيح رصيف سوى تلك البقعة الممتدة من جسر سان ميشال حتى برج نيل . وما بقي من ضفة السين كان احياناً رملة فيما وراء البرناردان ، وكدسة من البيوت اسسها في الماء كما بين الجسرين . وكانت هناك ضوضاء عظيمة تحدثها الغسالات ، فقد كن يصرخن ، ويتكلمن ، ويغنين من الصباح حتى المساء على طوال الضفة ، ويغسلن الغسيل ، كما في ايامنا ، وليس هذا اقل ابتهاجات باريس .

وكانت الجامعة تشكل كتلة للعين . فمن طرف الى آخر كان هناك كلٌ متجانس وكثيف . وتلك الالوف من السطوح المحصورة ، المقرّنة ، المتلاصقة ، المؤلفة كلها من نفس العناصر الهندسية تقريباً ، تقدم ، اذا نُظرتْ من اعلى ، منظر تبلور المادة نفسها . والوحدة الجامحة للشوارع لم تكن تقطع هذا المجموع من البيوت الى قطع غير متناسبة . وكانت المدارس الاثنتان والاربعون متناثرة فيها بشكل متساوٍ ويوجد منها في كل مكان ؛ والقمم المتنوعة المسلية لهذه العمارات الجميلة كانت من انتاج فن السطوح البسيطة التي تجاوزتها ، ولم تكن في النهاية سوى عدة مربعات ومكعبات لنفس الشكل الهندسي . انها اذن تعقد المجموع دون ان تشوشه ، وتكمله دون ان تثقل كاهله . ان الهندسة هي تناسق . وبعض القصور الجميلة كانت تشكل هنا وهناك طنوفاً بديعة على اهراء الضفة الشمالية الجديرة بالاعجاب ، كقصر ينفير ، وقصر روما ، وقصر ريمس وكلها اختفت ؛ وقصر كلوني الذي لا يزال قائماً لتعزية الفنان والذي ازيلت تيجان برجه منذ بضع سنوات . وبالقرب من كلوني ، ذلك القصر الروماني ذو الاقواس الجميلة المعقودة ، كانت هناك حمّامات جوليان . وكان يوجد ايضاً اديرة ذات جمال ورع ، وعظمة اكثر وقاراً من القصور ، ولكنها ليست اقل جمالاً ولا اقل كبراً . امـا التي كانت تستلفت النظر فهي البرناردان بقباب اجراسها الثلاث ؛ وسانت جنفياف حيث برجها المربع الذي لا يزال باقياً يجعلنا نأسف على ما بقي ؛ والسوربون ، وهي نصف مدرسة ونصف دير حيث

لا يزال باقياً صحن كنيسة يستحق الاعجاب ، ودير ماتوران الجميـــل الرباعي الاضلاع ؛ وجاره دير سان بنوا الذي اتاح الوقت لهم ان يقيموا على جدرانه ، وعلى عجل ، مسرحاً بين الطبعة السابعة والطبعة الثامنة من هـذا الكتاب [1] ؛ والكورودوليه بسقوفها الثلاثة الضخمة بجـ انب بعضها البعض ؛ والأوغستان بسلتها اللطيفة التي تشكل بعـد برج دي نيل التسنين الثاني في هـذه الناحية من باريس ابتداء من الغرب . والمدارس التي هي فعلًا الحلقة الوسيطة بين القصور والاديرة مع صرامة ملأى بالاناقة ، ونحت اقـــل خفة من القصور ، وفنّ معماري اقل جدية من الاديرة . ومن سوء الحظ لم يبق شيء تقريباً من تلـــك الابنية التذكارية حيث الفن القوطي يفصل بكثير من الوضوح بـــين الغنى والاقتصاد . والكنائس (وكانت عديدة ورائعة في حي الجامعة ، ومرتبة على درجات هناك ايضاً في جميـع عهود فن البناء من عقود سان جوليان حتى محاريب سان سيفران) ، لقـد كانت الكنائس تسيطر على كل شيء ، وكـزيادة في التناسق في تلـك الكتلة من التناسق ، كانت تخترق في كل لحظة تلـك القطاعة المتنوعة الاجزاء للجملونات ذات القباب المبضوعة ، وقباب الاجراس المثقوبة ، والمسلات الدقيقة حيث الخط لم يكن سوى مبالغة بديعة بزاوية السطوح الحادة.

وارض الجامعة جبلية . وجبل سانت جنفياف يجعل منها في الجنوب الشرقي انبـوباً ضخماً ، وكان الامر الذي يستدعي النظر من اعـالي نوتردام هـو تلك الشوارع العديدة الضيقة العوجاء (الحي اللاتيني اليـوم) ، وتلـك العناقيد من البيوت المنتشرة في جميـع نواحي قمة تلك التلة كانت تتهافت بغير انتظام وعمودياً تقريباً ، على جوانبها حـتى حافة الماء ويبدو بعضها انـه يسقط والبعض الآخر يتعمشق ، وكلها متعلقة ببعضها البعض . انـه مـد مستمر لألف نقطـة سوداء تتقاطع على الشارع وتحرك كل شيء في العيـون ، انه الشعب كما يرى من اعلى ومن بعيـد .

واخيراً من بين فسحات هذه السطوح ، وهـذه القباب ، وعوارض تلـك

١ – الطبعة الاولى في اذار ١٨٣١ والثامنة في عام ١٨٣٢ .

الابنية التي لا حصر لها والتي تطوي وتثني وتسن بشكل غريب خط الجامعة النهائي ، كان يستشف من فضاء الى فضاء جانب كبير من حائط مغطى بالطحلب ، وبرج سميك مستدير ، وباب مدينة مسنن يشبه الحصن : انه دير فيليب اوغست . وفيما وراء ذلك تخضوضر المروج ، وتبتعد الطرقات ، وعلى طولها لا تزال تنسحب بعض بيوت الضاحية ، ويقل عددها بقدر ابتعادها . وبعض هذه الضواحي كانت ذات اهمية . انها اولاً ، وابتداء من قنطرة لاتورنيل ، ضيعة سان فكتور بجسرها ذي القنطرة على لابيافر La Bièvre ، وديرها حيث تقرأ الكتابة على قبر لويس الكبير ، وكنيستها ذات البرج المثمن الزوايا والمحصن باربعة ابراج اجراس صغيرة من القرن الحادي عشر (ويمكن رؤية مثيل لها في ايتامب ؛ ولم يهدم بعد) ؛ ثم ضيعة سان مارسو التي كان فيها آنذاك ثلاث كنائس ودير . ثم اذا تركنا الى الشمال طاحونة غوبلان وجدرانها البيضاء الاربعة فاننا نجد ضاحية سان جاك بالصليب الجميل المحفور من مفارق طرقها ، وكنيسة سان جاك دي هو - با التي كانت آنذاك قوطية ، مروسة ، ولطيفة ؛ وسان ماغلوار ، وصحن الكنيسة الجميل الذي يعود الى القرن الرابع عشر ، وقد جعله نابليون مخزناً للعلف ، ونوتردام ديشان حيث كان يوجد فسيفساء بيزنطية . واخيراً بعد ان نترك الشارترو ، تلك العمارة القيمة المعاصرة لقصر العدل ، بحدائقها الصغيرة وخرائب فوفير المعمورة ، فان العين تقع في الغرب على مسلات سان جرمان دي بريه الرومانية الثلاث . وفي ضيعة سان جرمان ، وهي آنذاك مديرية كبيرة ، من خمسة عشر الى عشرين شارعاً خلفياً . وقبة جرس سان سوبليس المروسة تؤلف احدى زوايا الضيعة . والى جانب ذلك يميز السور المربع لسوق سان جرمان العام حيث يوجد السوق مكانه اليوم ؛ ثم عمود رئيس الدير ، وهو برج صغير مستدير في رأس مخروط من الرصاص . والتويلري اكثر بعداً ، وشارع ديفور المفضي الى فرن العامة ، والطاحونة على تلته ، ومستشفى الجذام وهو بيت صغير معزول قبيح المنظر . اما ما يستلفت النظر بوجه خاص ويبقيه ثابتاً على هذه النقطة وقتاً طويلاً فهو

الدير نفسه . من المؤكد ان هـذا الدير الذي كان ذا منظر عظيم ، ككنيسة وكإمارة ، هذا القصر الرئاسي حيث كان اساقفة باريس يعتبرون انفسهم سعداء اذا ناموا فيه ليلة واحدة ، وغرفة الطعام تلك التي اكسبها المهندس هيئة وجمالاً وروعة وردية كاتدرائية ، وتلك الكنيسة الصغيرة الانيقة ، كنيسة العذراء ، وقـاعة النوم الاثرية ، وتلـك الجنائـن الفسيحة ، وتلـك المسلفة ، والجسر المتحـرك ، وذلـك الغطاء من الشرفات الذي يحز في العيـون خضرة المروج المحيطة ، وتلك الساحات حيث يلمع رجال حرب قد مزجوا بطيالس مذهبة ، والكل محتشدون ومنضمون حول ثلاثة ابراج مرتفعة ذات قنطرة مستندة الى صدر كنيسة قوطي ويشكلون في الافق صورة بديعة .

واخيراً ، بعد ان تأملت حي الجامعة طويلاً فانك تلتفت نحو الضفة اليمنى ، نحو المدينة ، وفجأة يتغير طابع المنظر . فالمدينة ، وهي بالفعل اكبر بكثير من حي الجامعة ، كانت ايضا اقل وحدة . وترى لأول وهلة مقسومة الى عدة كتل تتميز بشكل غريب . فأولاً ، في الشرق ، في ذلـك الجـزء من المدينة الذي لا يزال الى اليوم يتلقى اسمه من المستنقع حيث كامولوجين ورّط قيصر ، كان يوجد ركام قصر . والبيوت تصل حتى حافة الماء . وهناك اربعة قصور شبه متلاصقة هي جوي ، وسانس ، وبربو ، ومنزل الملكة ، كانت تـتراءى في نهر السين اعـاليها المصنوعة من القرميد والمقطعـة الى ابراج صغيرة بـديعة . هذه العمارات الاربـع تملأ الفضاء من شارع نونانديير الى دير سلستين الذي ترفع مسلته خط جملوناتها وشرفاتها بشكل بديـع . وبعض الخرائب المـــائلة الى الخضرة والمنحنية على الماء امـــام تلك القصور الفخمة لم تكن تمنع رؤية زوايا واجهاتها الجميلة ، ونوافذها الواسعة ، المربعة ، المتصالبة ، الحجرية ، ومداخلها المحرابية المملوءة بالتماثيل ، وزوايا جدرانها الناتئة المقطعة ، وكل تلك الصدف الجميلة لفن البناء التي تظهر ان الفن القوطي يبدو انه يعيد تنظيماته في كل اثر . ووراء هذه القصور كان يركض في جميع الجهات ، تارة مشقوقاً ، مسيجاً ، مسنناً كالقلعة ، وطوراً مغطى باشجار كبيرة كدير ، ذلك النطاق الفسيح المتعـدد الاشكال

لقصر سان بول الاعجوبي حيث كان لملك فرنسا ما يمكنه من ان يسكن بفخامة اثنين وعشرين اميراً من نوع ولي العهد والدوق دي بورغونيا مع خدمهم وحاشيتهم ، دون ان نعد السادة الكبار والامبراطور حين جاء ليزور باريس ، والاسود التي كان لها قصرها على حدة في القصر الملكي . ولنقل هنا ان جناحاً للامير لم يكن يتألف آنذاك من اقل من احدى عشرة قاعة ، من غرفة الأبهة حتى المصلّى ، دون ان نتكلم عن الاروقة والحمامات ، وغرف البخار و « اماكن اخرى غير مفيدة » حيث كل جناح كان مجهزاً ؛ ودون ان نتكلم عن الجنائن الخاصة بكل ضيف للملك ؛ ودون ان نتكلم ايضاً عن المطابخ ، والسقائف ، والمكاتب ، وقاعات الطعام العامة في البيت ؛ وافنية للطيور حيث كان يوجد اثنان وعشرون مختبراً عاماً ؛ وألعاب من الف نوع ، المطرقة ، الكرة ، الخاتم ؛ واقفاص ، واسواق سمك ، ومعارض وحوش ، واسطبلات ، وبواخير ؛ ومكتبات ، ومخازن اسلحة ، ومسابك . هذا ما كانه في الماضي قصر ملك ، اللوفر ، اوتيل سان بول . انه مدينة في المدينة .

من البرج حيث كنا ، فان قصر سان بول المغطى نصفه بالمنازل الاربعة الكبرى التي تكلمنا عنها ، كان لا يزال مرموقاً ورائعاً للنظر . ويميز منه جيداً ، مها كانت ملتصقة بمهارة بالبناء الرئيسي بواسطة اروقة طويلة ذات زجاج واعمدة صغيرة ، القصور الثلاثة التي كان شارل الخامس قد الحقها بقصره ، وقصر بتي – موس بدرابزينه المخرم الذي يشكل حاشية رائعة لسطحه ؛ وقصر الاب دي سان مور وله نتوءات شبيهة بنتوءات الحصن ، وبرج ضخم ، وشرفات للرماية ، ومرام ، وعصافير حديدية ، وعلى الباب الساكسوني الواسع يوجد ترس الاب الرئيس بين فرضتي الجسر المتحرك ؛ وقصر الكونت ديتامب وبرجه الخرب في قمته يبدو للنظر مستديراً ، وهو مثلوم كعرف الديك ، وهنا وهناك ثلاث او اربع سنديانات ضخمة تشكل بمجموعها باقة كأنها قنّبيطات ضخمة ، ولهو بجع في مياه برك صافية متغضنة بسبب الظلال والاضواء ، وساحات دور تظهر اطرافها العجيبة ، وقصر الاسود بعقوده المحرابية المنخفضة

على اعمدة قصيرة ساكسونية ، ومسالفه الحديدية وزنيره الدائم ، وقبة ايف - ماريا من خلال هذا المجموع وقد زالت قشرتها ، والى اليسار منزل حاكم باريس المحصن باربعة ابراج صغيرة مجوفة ، وفي الوسط ، وفي الداخل ، فان قصر سان بول بواجهاته المتعددة ، وغناه المتتابع منذ شارل الخامس ، والزيادات الخلاسية التي الحقتها خيالات المهندسين منذ قرنين بجميع صحون كنائسه ، وكل جملونات اروقته ، والف دوارة هواء ذات الرياح الاربع ، وبرجيه العاليين الملتصقين حيث السقف المخروطي المحاط بسنات في قاعدته يبدو كتلك القبعات المروسة ذات الحافة المرتفعة .

باستمرارنا في صعود طبقات هذا المسرح المدرج للقصر القائم من بعيد على التراب ، وبعد اجتياز وهدة عميقة محفورة في سطوح المدينة والتي يدل عليها شارع سان انطوان ، فان العين ، ونحن نقتصر دائماً على الآثار الرئيسية ، تصل الى قصر انغوليم ، وهو بناء واسع من عدة عصور ، حيث كان يوجد اقسام جديدة وبيضاء لم تكن تذوب في المجموع افضل من ذوبان قطعة حمراء في ملابس زرقاء . الا ان سطح القصر الحديث المروس بشكل غريب ، والمرتفع ، المزين بالميازيب المنقوشة ، المغطى بطبقات رصاصية رقيقة ويتقلب في الف نوع من منحوتات بشكل اوراق مشتبكة (ارابيسك) غريبة ملبسة بالنحاس اللامع المذهّب ، هذا السقف المرصع بشكل غريب كان يندفع من وسط خرائب البناء القديم السمراء ، حيث الابراج القديمة الضخمة التي حدّبها القدم كالدنان تنخسف على نفسها من العتق متمزقة من اعلى الى اسفل ، وكانت تشبه بطوناً ضخمة مفككة الازرار . وفي الخلف ترتفع غابة من مسلات قصر تورنيل . وما من نظرة الى العالم ، ولا الى شامبور ، ولا الى الحمراء ، اكثر سحراً ، واكثر هوائية ، واكثر فتنة من تلك الغابة من القباب ، وقباب الاجراس ، والمداخن ، والدوارات الهوائية ، والحلزونيات ، واللولبيات ، والقناديل التي ثقبها النهار والتي تبدو كأنها مضروبة بمشارط الابنية المربعة ، والابراج الصغيرة التي تشبه المغزل ، والمتنوعة الاشكال والارتفاع والهيئة . حتى كأنها رقعة

شطرنج من حجر .

والى بين التورنيل ، هناك تلك الحزمة من الابراج الضخمة بسواد الحبر ، بعضها داخل في بعض ، ومربوطة اذا صح القول بحفرة دائرية ، وذلك الجلون الذي تثقبه المرامي اكثر من النوافذ ، وذلك الجسر المتحرك القائم دائماً ، وتلك المسلفة الدائمة السقوط ، انها الباستيل . وتلك الانواع من المناقير السوداء التي تخرج من بين الشرفات ونحسبها من بعيد ميازيب ، انها مدافع .

وتحت قذيفتها ، في اسفل البناء الهائل ، يوجد باب سان انطوان المختبىء بين برجيه .

وفيما وراء التورنيل ، حتى اسوار شارل الخامس تنبسط بأقسام غنية بالخضرة والزهور سجادة مخملية من المزروعات والمروج الملكية ، وفي وسط هذه المروج تتعرف الى حديقـــة ديدالوس الشهيرة بتاهاتها من الاشجار والممرات ، والتي اعطاها لويس الحادي عشر الى كواكتيه . ومرصد الدكتور يرتفع فوق هذه المتاهة كعمود ضخم منفرد على رأسه بيت صغير كتاج . وتجري في هذا المختبر اعمال فلكية رهيبة .

واليوم فالساحة الملكية هي الموجودة هناك .

وكما قلنا ، فان حي القصر الذي حاولنا ان نعطي فكرة عنه للقارىء بان لا نذكر سوى الاطراف ، كان يملأ الزاوية التي يشكلها سور شارل الخامس مع السين الى الشرق . وكان وسط المدينـة مشغولاً بكدسة من بيوت الطبقة الشعبية . وهناك بالفعل كانت تنفتح جسور لاسيته الثلاثـة على الضفة اليمنى ، والجسور تشكل بيوتاً قبل القصور. ان هذه الكدسة من المساكن البورجوازية المحصورة كالنخاريب في القفير كان لها جمالها . ففيها سطوح عاصمة كأمواج بحر. اولاً الشوارع المتصالبة المشوشة تشكل في الكتلة مائـة صورة مسلية . وحـول السوق كان شيء يشبه نجمة ذات الف شعاع . وشارعا سان دنيس وسان مارتان بتفرعاتها الكثيرة ، كان الواحد منهما يتصاعد بعد الآخر كشجرتين كبيرتين مختلطتي الاغصان . ثم خطوط عوجـــاء ، شوارع مصانع الجص والزجاج

والتيكسيراندري . الخ.. كانت تتلوى على الجميع . وكان يوجد ايضاً عمارات جميلة تخترق التموجـات المدهشة لذلك البحر من سقوف الجملونات . وهنـاك على رأس جسر شانجور كان السين يبدو مزبداً تحت عجلات جسر اومونيه . والشاتليه ليس برجاً رومانياً كما كان في ايام جوليـان لابوستا بل برج من العصر الاقطاعي في القرن الثالث عشر ، ومن حجر قاسٍ حتى ان المطرقـــة لا تأخذ منه في ثلاث ساعات ما يعادل سماكة الكف . وبرج جرس سان جاك ديلابوشيري المربع بزواياه التي اضعفها النحت كان يثير الاعجاب مع انه لم يكن قد تم في القرن الخامس عشر . وكان ينقصه بوجه خاص تلك المسوخ الاربعة التي لا تزال الى اليوم جاثمة على زوايا سطحه ، والتي تشبه اربعة من امثال ابي الهول تعطي باريس الجديدة حلاً للغز باريس القديمة ؛ ورول النحات لم يضعها إلا عام ١٥٢٦ ونال عشرين فرنكاً اجرة اتعابه. وهناك ايضاً البيت ذو الاعمدة المنفتح على ساحة غريف والذي اعطينا عنه فكرة للقارىء . وسان جيرفه الذي شوهته بوابة « ذات ذوق سليم » ؛ وسان ميري حيث العقود المحرابية القديمة تشبه الاقواس ؛ وسان جاك التي كانت مسلتها مضرب المثل ؛ وهناك عشرون من الآثار التذكارية التي لا تتورع عن اخفاء مفاتنها في ذلك الحشد من الشوارع السوداء الضيقة العميقة. اضف الى ذلك الصلبان الحجرية المنحوتة الاكثر وجوداً من المشانق على مفارق الطرق؛ ومقبرة الابرياء التي يشاهد سورها الهندمي بعيداً من فوق السطوح ؛ والاعمدة التي تنصب للمذنبين في السوق حيث تظهر قممها بين مدخنتين من شارع لاكوسونيري ؛ ودرج صليب تراهوار في مفرقه الدائم السواد من كثرة الناس؛ وخرائب سوق القمح الدائرية ؛ وشذرات جدار فيليب اوغست القديم التي تبدو هنا وهناك غارقة في البيوت ، وابراج قرضها اللبلاب ، وابواب متهدمة ، وشقوق جدران منهـارة ومشوهة ؛ والرصيف بدكاكينه التي تبلغ الالف ومسالخه الدامية ؛ والسين المثقـل بالقوارب من بورت اوفوان الى فورليفيك ؛ كل هذا يعطيك صورة مشوشة لما كان عليه شكل المدينـــة شبه المنحرف عام ١٤٨٢ .

مع هذين الحيين ، الاول بقصوره والثاني ببيوته ، فان العنصر الثالث في المنظر الذي تقدمه المدينة هو منطقة طويلة من الاديرة مبنية على كل محيطها تقريباً ، من الشرق الى الغرب ، وتشكل وراء سور التحصينات الذي يغلق باريس سوراً ثانياً داخلياً من الاديرة والكنائس . وهكذا ، فالى جانب حديقة التورنيل تماماً ، بين شارع سان انطوان وشارع التامبل القديم كان يوجد حديقة سانت كاترين بزراعتها الفسيحة التي لم تكن محدودة الا بسور باريس . وبين شارعي التامبل القديم والجديد يوجد سجن التامبل ، وهو حزمة مشؤومة من الابراج ، مرتفع ، واقف ومنعزل في وسط نطاق مسنن . وبين شارع التامبل الجديد وشارع سان مارتان يوجد دير سان مارتان وفي وسط حدائقه كنيسة رائعة محصنة حيث نطاق الابراج وتيجان قباب الاجراس لا تخضع بالقوة والروعة إلا لسان جرمان دي بريه. وبين شارعي سان مارتان وسان دنيس يقوم سور الترينتيه : واخيراً ، بين شارع سان دنيس وشارع مونتورغي يقوم لوفي - ديو . والى جانب ذلك يمكن تمييز السقوف المتعفنة والنطاق الذي نزع بلاطه لبلاط العجائب . انها الحلقة الوحيدة الدنيوية التي اختلطت بتلك السلسلة الورعة من الاديرة .

واخيراً فان القسم الرابع الذي يرتسم من تلقاء نفسه في تمازج سطوح الضفة اليمنى والذي كان يشغل الزاوية الغربية من السور وضفة الماء حتى سافلة النهر هو عقدة جديدة من القصور والفنادق المضمومة الى اقدام اللوفر . ولوفر فيليب اوغست القديم ، ذلك البناء غير المنتظم الذي يجمع برجه الكبير ثلاثة وعشرين برجاً حوله، دون ان نعد البريجات التي كانت تبدو من بعيد مدمجة بذلك الحشد القوطي لقصر دالنسون، وبتي - بوربون . وتلك المدرية [1] من الابراج الحارسة العملاقة لباريس برؤوسها الاربعة والعشرين الدائمة الانتصاب ، وارادفها المسيخة الرصاصية او الملبسة بالقرميد والسابحة في انعكاسات نور معدنية ، كانت تنهي شكل المدينة عند المغيب بطريقة اخاذة .

١ — المدرية Hydre : ثعبان ذو سبعة رؤوس .

وهكذا ، فان مجموعة ضخمة من البيوت البورجوازية، مبنية على يمين وشمال كلتي القصور المتوجة احداهما باللوفر والاخرى بالتورنيل ، ومحاطة من الشمال بنطاق طويل من الاديرة والاراضي المسورة المزروعة ، والكل ممتزج وذائب لدى النظر ؛ وعلى تلك الالف عمارة التي يقطع بعض سقوفها القرميدية البعض الآخر بسلاسل غريبة ، تبدو قباب الاجراس الموشومة ، المدموغة ، المزينة بخطوط متموجة متقاطعة لاربع واربعين كنيسة على الضفة اليمنى ؛ وهناك الوف من الشوارع العرضية ، والحد عبارة عن نطاق من الجدران العالية ذات الابراج المربعة (سور الجامعة ذو ابراج مستديرة) من جهة ، ومن الجهة الاخرى ، السين تقطعه الجسور وتسير فيه القوارب : هذه هي المدينة في القرن الخامس عشر .

وبعض الضواحي تتزاحم على الابواب فيما وراء الاسوار، ولكنها اقل عدداً واكثر تناثراً من ضواحي الجامعة . انها ، فيما وراء الباستيل ، عشرون مسكناً حقيراً متجمعة حول منحوتات عجيبة لصليب فوبان وانصاف قناطر دير سان انطوان ديشان ؛ ثم بدبانكور الضائع بين القمح ، ثم لاكورتيل وهي قرية مرحة من الحانات ، وضيعة سان لوران بكنيستها التي تبدو قبة جرسها من بعيد كأنها مضافة الى ابراج باب سان مارتان المروسة ، وضاحية سان دنيس مع حقل سان لادر الواسع ؛ وخارج باب مونمارتر ، توجد الباتيلير الكبيرة مسورة بجدران بيضاء ولم تحتفظ بسوى الطواحين ، لان المجتمع لا يطلب الآن اكثر من خبز الجسد . واخيراً ، فيما وراء اللوفر تظهر ضاحية سان هونوريه ممتدة في الحقول وكانت ذات شأن آنذاك وتضفي على بريتانيا الصغرى اللون الاخضر ، وينبسط سوق الخنانيص الذي يستدير في وسطه الفرن الرهيب الذي كان يغلي به مزيفو النقود . وبين لاكورتيل وسان لوران تلاحظ عينك على رأس مرتفع جاثم على سهول قفراء نوعاً من البناء يشبه من بعيد صف اعمدة في حالة الخراب ويستقر على اساس زال عنه التراب . ان هذا ليس بانتيون ، ولا معبداً

اولومبياً لجوبتير . انه مونفوكون [1] .

والآن اذا كان احصاء كثير من العمارات ، مهما اردنا ان يكون مختصراً ، لم يكن مفصلاً ، بنوع اننا بنينا في ذهن القارىء صورة عامة لباريس القديمة ، فاننا سنختصرها ببضع كلمات . في الوسط جزيرة لاسيته تشبه بشكلها سلحفاة ضخمة وتخرج جسورها المرصعة بالقرميد كالارجـــل ، وتحت درعها الاشهب سطوح . والى الشمال حي الجامعة وهو بشكل شبه منحرف موحد ، كثيف ، ملزوز . والى اليمين نرى المدينة بشكل نصف دائرة واسع وهي اكثر امتزاجاً بالجنائن والابنية الاثرية ، والكتلات الثلاث ، لاسيته ، والجامعة ، والمدينة ، رخامية الشوارع بدون عدد ، وبينها السين « السين المرضعـــة » كما قال الاب دي برول ، مسدود بالجزر والجسور والقوارب . وحول ذلك سهل فسيح مقطع الى الف نوع من المزروعات ، مبذور بالقرى الجميلة ؛ والى الشمال ، إيسي فانغر ، فوجيرار ، مونتروغ ، جنتيلي ببرجها المستدير وبرجها المربـع ، الخ .. والى اليمين عشرون قرية اخرى من لونفلان الى فيل ليفيك . وفي الافق حاشية من التلال مرتبة بشكل دائرة كحافة حوض . واخيراً في البعيد ، الى الشرق ، فانسين وابراجها السبعة المربعة الزوايا ، وفي الجنوب بيساتر وابراجها الصغيرة المروسة ؛ وفي الشمال سان دنيس ومسلتها ؛ وفي الغرب سان كلود وبرجها ، هذه هي باريس التي رآها الغربان التي كانت تعيش عام ١٤٨٢ من اعلى ابراج نوتردام.

قال فولتير عن هذه المدينة انه « لم يكن فيها قبل لويس الرابع عشر سوى اربع عمارات جميلة » : قبة السوربون ، وفال دي غراس ، واللوفر الحديث ، ولا اعرف الرابعة ، ويمكن ان تكون اللوكسمبورغ . ومن حسن الحظ فان فولتير لم يكن على الاقل كتب « كانديد » ، ولم يكن فيها بين جميع الرجال الذين تتابعوا في سلسلة الانسانية الطويلة هو الذي يملك افضل ضحكة شيطانية . وهذا يثبت ان بامكان المرء ان يكون عبقرياً ولا يفهم شيئاً في فن غـير حائز عليه . الم يكن موليير يعتقد انه اكسب رافايل وميكلانج كثيراً من الشرف

١ — مكان نصبت فيه آلات الاعدام في تلك الايام .

بان دعاها : « لطفاء عصرها ؟ »

لنعد الى باريس والى القرن الخامس عشر .

انها يومذاك لم تكن مدينة جميلة فقط ؛ بل مدينة متجانسة : نتاج معماري ، تاريخي من القرون الوسطى ، خبر من حجر. انها مدينة مؤلفة من طبقتين فقط. الطبقة اللاتينية والطبقة القوطية ، لان الطبقة الرومانية كانت قد اختفت منذ وقت طويل باستثناء حمامات جوليان حيث كانت لا تزال تخترق القسم السميك المتصلب من القرون الوسطى . اما الطبقة السلتية فلم نجد عينة منها حتى عند حفر الآبار .

وبعد مضي خمسين سنة ، حين جاءت النهضة تمزج في هذه الوحدة الشديدة القساوة الكثيرة التنـــوع فخامة اوهامها واساليبها الباهرة وافراطها في العقود الرومانية والاعمدة الاغريقية، وانخفاض اوساط القباب القوطية، ونحتها اللطيف المثالي ، وذوقها الخاص بالاوراق المشتبكة (الآرابسك) والآكانت Acanthe ، ووثنيتها المعمارية المعاصرة للوثر ، فان باريس كانت اجمـــل مع انها اقل تناسقاً للنظر والفكر . ولكن هذه اللحظة الباهرة دامت قليلاً . والنهضة لم تكن غير متحزبة ؛ انها لم تكتف بالبنـــاء بل ارادت ان تهدم . وصحيح انها بحاجة الى مكان . وباريس القوطية ايضاً لم تكن كاملة الا دقيقة واحدة . فمـــا كادوا يكملون سان جاك ديلابوشيري حتى بدأو بهدم اللوفر القديم .

ومنذ ذلك الوقت فان المدينـــة الكبرى كانت تتشوه من يوم الى آخر . وباريس القوطية التي انطمست تحتها باريس اللاتينية قـــد انطمست بدورها . ولكن ايمكن القول ان باريس حلت محلها ؟

هناك باريس كاترين دي مدسيس في التويلري وباريس هنري الثاني في دار البلدية ، وهما عمارتان لا تزالان على شيء عظيم من الذوق ؛ وباريس هـــنري الرابـــع في الساحة الملكية : واجهـات من الآجر وزوايا حجرية وسقوف من القرميـــد ، وبيوت مثلثة الالوان ؛ وباريس لويس الثالث عشر في فـــال دي غراس : بناء مسطح ومكتل ، واقواس بشكل مسكة السلة ، وشيء اكرش

في العمود واحدب في القبة ؛ وباريس لويس الرابع عشر في الانفاليد : كبير ، غني ، مذهّب وبارد ؛ وباريس لويس الخامس عشر في سان سوبليس : نقوش حلزونية الشكل ، وعقد اوشحة ، وغيوم ، وشعيريات ، واشكال هندبائية ، والجميـــع من حجر ؛ وباريس لويس السادس عشر في البانتيون : عبارة عن كنيسة القديس بطرس في روما منقولة بشكل سيء (كدست العمارة بشكل اخرق ، الامر الذي لم يصلح الخطوط) ؛ وباريس الجمهورية ، في كلية الطب : ذوق اغريقي وروماني فقير يشبه الكوليزيه او البانتيون كدستور السنة الثالثة مـــع قوانين مينوس ، ويدعى في فن البناء : « ذوق مسّيدور » ؛ وباريس نابليون في ساحة فاندوم : انها جليلة ، عمود من البرونز مصنوع من المدافع ؛ وباريس عودة الملكية في البورصة : اعمدة ناصعة البياض تحمل افريزاً مصقولاً ، والكل مربع ، وقد بلغت التكاليف عشرين مليوناً .

ويتصل بكل من هـذه الابنية الاثرية المتميزة بالتشابه في الذوق والطريقة والهيئة ، بيوت متناثرة في احياء مختلفة تميزها عـــين الخبير وتؤرخها بسهولة . وحين يعرف المرء ان يرى ، فبالامكان ايجاد روح عصر وسيماء ملـك حتى في مطرقة باب .

فباريس الحالية اذن ليس لها اي قسمات عامة . انها مجموعة عينات من عصور مختلفة ، وأجملها قد اختفى . ولا تتكاثر العاصمة الا في البيوت ، واي بيوت ! فالقطار الذي تسير فيه باريس يتجدد كل خمسين عاماً . وكذلك فان المعنى التاريخي لهندسة البناء فيها يندثر في جميع الايام . والابنية الأثرية فيها تتزايد ندرتها ويبدو انها تُبتلع شيئاً فشيئاً وتغرق في البيوت . لقد كان لآبائنا باريس من حجر ، وسيكون لأبنائنا باريس من جص .

اما الابنية التذكارية الحديثة في باريس الجديدة ، فاننا نعتذر عن التحدث عنها . ولا يعني ذلك اننا غير معجبين بها كما يجب . فسانت جنفياف العائدة للسيد سوفلو هي بالتأكيد اجمل حلوى في السافوى صنعت من حجر . وقصر جوقة الشرف هو ايضاً قطعة من الحلوى الممتازة جداً . وقبة سوق القمح هي

قبعة جوكي انكليزي بقياس كبير . وبرجا سان سوبليس هما بوقان كبيران ، وهذا شكل يشبه شكلاً آخر ؛ والتلغراف [1] الاعقف المتغضن يشكل حادثاً محبياً على سطحيها . ولسان روك مدخل لا مثيل له في الفخامة الا في سان توماس دا كان . ولهـــا ايضاً جلجلة ذات نقش بارز في قبو وشمس من خشب مذهّب . انها اشياء بديعة . ومصباح متاهة حديقة النبات هو ايضاً متقن . اما قصر البورصة الاغريقي بأعمدته ، والروماني بعقده وابوابه ونوافـــذه ، ومن عصر النهضة بقبتـه الكبيرة المنخفضة الوسط ، فهو بالحقيقة بنـاء كثير الاتقان والنقاء . والبرهان هو انه متوج بطبقة في اعلى البناء كما لم يشاهد مثلها في اثينا ، وخط مستقيم جميل تقطعه بلطف هنا وهناك انابيب الموقد . ولنضف انـه اذا كان هناك قاعدة تقضي بوجوب مطابقة بناء العمارة لغاية استعمالها بنوع ان غاية الاستعمال هذه تعلن عن نفسها بمجرد منظر العمارة ، فلن نعجب كثيراً من بناء تذكاري يمكن ان يكون ، بـــدون فرق ، قصر ملك ، او مجلساً للعموم ، او داراً للبلدية ، او مدرسة ، او ميداناً لترويض الخيل ، او مجمعاً علمياً ، او مستودع بضائع ، او محكمة ، او متحفاً ، او ثكنة ، او ضريحاً ، او معبداً ، او مسرحاً ، انه بورصة . وفضلاً عن ذلك فالبناء التذكاري يجب ان يكون ملائماً للمناخ ، وذلـــك البناء بني خصوصاً لسمائنا الباردة الممطرة . سقفه شبه مسطح كما في الشرق ، الامر الذي يتيح كنس السطح في الشتاء عندما يتساقط الثلج ، ومن المؤكد ان السطح يصنع لكي يكنّس . اما غاية الاستعمال هذه التي تحدثنا عنها قبل قليل ، فقد حققها تماماً ؛ انه بورصة في فرنسا كما يكون معبد في اليونان . وصحيح ان المهندس المعماري قـــد اغتم لإخفاء مينا الساعة التي اتلفت نقاوة الخطوط الجميلة في الواجهة ؛ ولكن كان لنا مقابل ذلك تلك الاعمدة التي تدور حول البناء ، وفي ايام الاحتفالات الدينية العظيمة يمكن ان ينتشر تحتها علم فن الصيرفة وسمامرة التجارة .

---

١ — المقصود هنا التلغراف المسمى دي شاب . وقد كان هيغو يراه من غرفته في فندق كورديه ونظم فيه قصيدة هجائية بعنوان « التلغراف » .

انها دون شك ابنية تذكارية رائعة جداً . ولنضف اليها الشوارع الجميلة ، المسلية ، المنوعة كشارع ريفولي ، ولن أيأس من ان باريس اذا نُظرت من المنطاد لا تمثل ذات يوم للعيون تلك الثروة من الخطوط ، وتلك السعة بالتفاصيل ، وذلك التنوع بالمناظر ، وما لا اعرف من عظمة في البسيط ومن غير المنتظر في الجميل الذي يطبع رقعة الشطرنج بطابعه .

مهما بدت لك باريس الحاضرة بديعة فاستعد في خاطرك باريس القرن الخامس عشر ، وأعد بناءها في فكرك ، وانظر الى النهار من خلال ذلك السياج الأخّاذ من مسلات الابراج وقباب الاجراس ، وانتشر في وسط المدينة الواسعة ، ومزّق على رؤوس الجزر ، واصقل في قناطر جسور السين ذات الغدران الواسعة الخضراء والصفراء والمتغيرة اكثر من جلد افعى ، وافصل عن الافق اللازوردي ذلك المنظر الجانبي القوطي لباريس القديمة ، دع نطاقها يطفو في ضباب شتاء يتعلق بدواخنها العديدة ، واغرقها في ليل عميق ، وانظر الى اللعب الغريب للظلمات والانوار في تلك المتاهة القاتمة من العمارات ، ألقِ عليها شعاع قمر يرسمها بشكل غير واضح وأخرج من الضباب رؤوس الابراج الكبيرة ، او استعد ذلك الخيال الاسود ، انعش من الظل الف زاوية حادة من القباب والجملونات ودعها تسيل ، مسننة اكثر من فك كلب البحر ، على سماء نحاسية من المغيب . — ثم قارن .

واذا اردت ان تتلقى من المدينة القديمة انطباعاً لا تعطيكه المدينة الحديثة فاصعد صباح عيد كبير ، عند شروق شمس عيد الفصح والعنصرة ، الى بعض الاماكن المرتفعة بحيث ترى العاصمة كلها ، واحضر يقظة الاجراس ، وشاهد عند مجيء اشارة من السماء ، لان الشمس هي التي تعطيها ، الوف الكنائس تهتز معاً ، انه اولاً رنين متفرق ذاهب من كنيسة الى اخرى كأن هناك موسيقيين اتتهم اشارة البدء بالعزف ، ثم انظر فجأة ، اذ يبدو ان للاذن نظرها في بعض اللحظات ، الى هذا الرنين يرتفع في اللحظة نفسها من كل قبة جرس ، كعمود من الضجيج ، كدخان من التناسق . انه اولاً اهتزاز كل جرس يصعد مستقيماً، نقياً ، ومنفردا عن الاجراس الاخرى ، في سماء الصباح الرائعة

وفيا تتعالى هـــذه الاهتزازات فانها تذوب شيئاً فشيئاً ، وتمتزج ، ويضمحل الواحد منها في الآخر ، ثم تمتزج كلها في كونسرتو بديـع . انها ليست سوى كتلة من الاهتزازات الرنانة تتفلت دون انقطاع من قباب اجراس لا تحصى ، فتطفو ، وتتموج ، وتقفز ، وتزوبع على المدينة ، وتمد الى ما وراء الافق دائرة ذبذباتها المصمّة . الا ان هذا البحر من التناسق ليس تشويشاً . رهو لا يفقد شفافيته مهما كان كبيراً وعميقاً . وتشاهد فيه كل مجموعة من الانغام الناجمة عن الرنين تتلوى على حدة، وبامكانك متابعة الحوار الوقور والصارخ دورياً والصادر عن الجرس الخشبي والجرس الكبير . وتشاهد فيه الالحان الثانية وهي تقفز من قبة جرس الى اخرى ، تشاهدها وهي تندفع مجنّحة ، خفيفـــة ، صافرة من الجرس الفضي ، وساقطة ، متكسرة ، عرجاء من الجرس الخشبي ، وسيعجبك في اثناءها السلم الموسيقي الصاعد الهابط دون انقطاع على اجراس سان اوستاش السبعة ، وترى كل شيء يركض خلال انغام واضحة وسريعة تؤلف ثلاثـة او اربعة خطوط منكسرة لامعة وتختفي كالبرق . وهنـــاك تحت ، يوجد دير سان مارتان ، وهو مغنٍ خشن ومتصدع ، هنا ، صوت الباستيل المشؤم ، وفي الطرف الآخر برج اللوفر الضخم . والجـــرس الملكي في القصر يقذف دون توقف ، ومن جميـع الجهات ، الحاناً مكرورة مسرعة بهيئة تهبط عليها في اوقات متساوية رنات من جهة واحدة ، من برج نوتردام الذي يجعلها تتلألأ كالسندان تحت المطرقة . وستشاهد بشكل متواتر مرور اصوات من جميع الاشكال آتية من دقات سان جرمان دي بريه المثلثة . ثم من وقت لآخر تنفتح هذه الكتلة من الضجيـــج العظيم وتفسح ممراً لنهــــاية موسيقى ايف ماريا التي تنفجر وتحتدم كباقـة من النجـوم . وتحت ، في اعماق الكونسرتو ، تميز بشكل مشوش غنـاء الكنائس الداخلي الذي يتنفس من خلال مسام قبابها المهتزة . — وبالتأكيد انها اوبرا تستحق ان تستمع . والضوضاء المنبعثة من باريس نهاراً تعني عادة ان المدينة تتكلم ، وليلاً ، تعني ان المدينة تتنفس : وهنا ، فالمدينة تغني . أعر اذنك اذن لرنين الاجراس هذا ، وانشر

على المجموع دمدمة نصف مليون انسان ، وشكوى النهر الابدية ، ونسمات الهواء اللامنتهية ، والعزف الرباعي الوقور البعيد الصادر عن الغابات الاربع الراتعة على تلال الافق كأنها مقاصف اورغن ، اطفىء فيها كما في لون بين المشبع والباهت كل ما في الرنين المركزي من بحة وحدّة ، وقل اذا كنت تعرف في الدنيا شيئا اكثر غنى واكثر مرحاً واكثر تذهيباً واكثر روعة من ضجة الاجراس والرنات هذه ، ومن هذا الاتون الموسيقي ، ومن تلك الآلاف العشرة من الاصوات النحاسية المغنية معاً في نايات حجرية قائمة على ارتفاع ثلاثمائة قدم ، ومن تلك المدينة التي ليست سوى اوركسترا ، ومن تلك السمفونية التي تحدث ضجة زوبعة .

الكتاب الرابع

١

النفوس الطيبة

قبل ست عشرة سنة من الوقت الذي جرت فيه هذه الحكاية ، وفي صباح يوم جميل من آحاد كازيمودو [١] ، ُوضع مخـــلوق حي بعد القداس في كنيسة نوتردام على خشبة سرير موضوع في ساحة الكنيسة لناحية الشمال ، تجاه صورة القديس كريستوف الكبيرة ، حيث الصورة المنحوتـة للسيد انطوان ديزيار ، الفارس ، تتطلع راكعةً منذ عام ١٤١٣ منذ ما ضرب عرض الحائط بالقوانين والشرائع الاخلاقية . وعلى خشبة السرير هذه جرت العادة ان يعرض الاولاد اللقطاء على فاعلي الخير . فيأخذهم من هناك من يشاء . وكان امام خشبة السرير آنية نحاسية للصدقات .

والكائن الحي الذي كان مضطجعاً على ذلك اللوح من صباح يوم كازيمودو من عام الرب ١٤٦٧ بدا انه يثير الى اعلى درجة فضول جمهور كبير كان قد احتشد حول خشبة السرير . وكان الجمهور مؤلفـــاً في قسم كبير منه من اشخاص من الجنس الجميل . ولم يكن هؤلاء سوى عجائز .

ويلاحظ في الصف الاول ان الاكثر انحناءً على السرير كن اربعاً يرتدين لباس الرهبنة الازرق بدون اكمام ، وهو نوع من الجبة ، وُيعرف انهن تابعات

---

١ – احد كازيمودو : هو الاحد الجديد او اول احد بعد عيد الفصح .

لاحدى الاخويات الدينية . ولا ارى لماذا لا ينقل التاريخ الى الاجيال القادمة اسماء اولئك الأوانس الأربـــع الرصينات المحترمات . انهن أنياس لاهيرم ، وجيهان ديلاتارم ، وهنرييت لاغولتـــير ، وغوشير لافيوليت ، والأربع هن ارامل ، وكلهن نساء طيبات من كنيسة آتيين هوردري ، خرجن من بيتهن بعد استئذان رئيستهن ووفقاً لانظمة بيار ديلي ، ليسمعن الموعظة .

وبعد ، فاذا كان هؤلاء الراهبات الباسلات يحافظن في الوقت الحاضر على انظمة بيار ديلي فانهن يخالفن دو شك وبقلب فرح انظمـــة ميشال دي براش والكاردينال دي بيز التي تفرض عليهن الصمت بشكل غير انساني .

قالت انياس لغوشير وهي تتأمـــل المخلوق الصغير المعروض الذي يعوي ويتلوى على السرير الخشبي خائفاً من النظرات الكثيرة : ما هذا يا اختي ؟

وقالت جيهان : ماذا نصبح اذا كانوا يضعون اولاداً كهـــذا في الوقت الحاضر ؟

فأجابت انياس : انا لست خبيرة بالاولاد ، ولكن النظر الى هذا يجب ان يكون خطيئة .

– انه ليس ولداً يا انياس .

ولاحظت غوشير : انه قرد ناقص .

وقالت هنريت لاغولتير : انه اعجوبة .

ولاحظت انياس : اذن فهو الثالث منذ نهار احد المخلـّع . ولم يمض ثمانيـة ايام على حدوث اعجوبة الساخر من الحجاج الذي عاقبته نوتردام دوبرفيليه بالقوة الالهية ، وهذه ثاني اعجوبة في الشهر .

وقالت جيهان : هذا اللقيط المزعوم مسخ حقيقي مقيت .

وتابعت غرشير : انه يصرخ بشكل يصيب المرتل بالصمم . اسكت ايها العاوي الصغير !

واضافت لاغولتير وهي تضم يديها : الحق ان السيد ريمس هو الذي يرسل هذه الفاحشة الى السيد دي باريس !

وقالت اناس لاهيرم : بخيل اليّ ان هـــذا بهيمة ، حيوان ، نتاج يهودي مع خنزيرة ؛ اخيراً انه شيء غير مسيحي ، ويجب القاؤه في الماء او في النار .

فقالت لاغولتيير : آمل ألا يلح احد في طلبه .

وهتفت اناس :

– آه يا الهي ! اولئك الرضّع المساكين الموجودون هناك في مأوى اللقطاء الواقع في اسفل الزقاق عند هبوط النهر بالقرب من السيد الاسقف، ماذا يحدث لو حمل اليهم هذا المسخ الصغير ليرضع ؟ اني افضل اعطاءه لخفّاش لكي يرضعه .

وقالت جيهان :

– يا لآناس لاهيرم البريئة المسكينة ! الا ترين يا اختي ان لهـــذا المسخ الصغير من العمر اربع سنوات على الاقل وان شهيته لثديك اقل من شهيته للآلة التي تدير سفود الشواء ؟

وبالفعل فالمسخ الصغير لم يكن وليداً رضيعاً (سنمنع انفسنا من ان نصفه بغير ذلك) . لقد كان كتلة صغيرة مقرّنة ، متحركة ، مسجونة في كيس من القماش طبعت عليه ارقام السيد غليوم شارنيه اسقف باريس آنذاك ، الا ان الرأس يخرج منه . وهذا الرأس كان شيئاً مشوهاً . فلم يكن يرى منه سوى غابة من الشعر الامغر ، وعـــين ، وفم واسنان . كانت العين تبكي ، والفم يصرخ ، والاسنان تبدو انها لا تطلب سوى ان تعض . وكل ذلك يتخبط في الكيس ، مع دهشة الجمهور الذي كان يتكاثر ويتجدد حوله دون انقطاع .

والسيدة ألويز دي غونديلوريه ، وهي امرأة ثرية نبيلة تمسك بيدها طفلة جميلة في السادسة من عمرها تقريباً وتجر قناعاً طويلاً على قرن قبعتها الذهبي ، وقفت امام السرير وتأملت المخلوق البائس لحظة بينما كانت ابنتها البديعة فلور – دي – لي دي غونديلوريه ، المرتدية الحرير والمخمـــل ، تهجىء باصبعها الجميل الاعلان الدائم المعلق بخشب السرير : اللقطاء .

وقالت السيدة وهي تدير وجهها تقززاً :

– بالحقيقة ، كنت اعتقد انهم لا يعرضون هنا سوى اولاد .

وادارت ظهرها بعدما القت في آنية الصدقة فلورين من فضة رنّ بين القطع النقدية الصغيرة وجعل عيون نساء كنيسة إتيين هودري الطيبات تتفتح دهشة .

وبعد لحظة مرّ روبير ميستريكول العالم الوقور ومسجل الوثائق الصادرة عن الملك ، وتحت ذراعه كتاب ضخم للقداس وتحت الذراع الآخر امرأته (السيدة غيليميت لاميريس) ، وبهذا يكون منظماه الروحي والجسدي الى جانبيـــه . وقد قال بعد ان فحص الشيء :

– ولد لقيط ! كما يبدو على حاجز نهر فليجيتو ! [1] Phlégéto .

ولاحظت السيدة غيليميت : لا يرى له سوى عين واحـدة . امـا الاخرى فعليها ثؤلولة .

فقال المعلم روبير ميستريكول : ليست هذه ثؤلولة ، انها بيضة في داخلها شيطان آخر مشابه ، وهذا بدوره يحمل بيضة اخرى صغيرة تحتوي على شيطان آخر ، وهكذا .

فسألت غيليميت لاميريس : كيف تعرف ذلك ؟

فأجاب مسجل وثائق الملك : اعرفه حق المعرفة .

وسألت غوشير : ايها السيد مسجل الوثائق . بماذا تتنبأ لهذا اللقيط المزعوم ؟

فأجاب ميستريكول : بأعظم المصائب !

فقالت عجوز من الحاضرين : آه يا الهي ! في السنة الماضية حدث طاعون بسبب هذا ويقال ان الانكليز يبحرون مترافقين الى هارفلو .

وقالت اخرى : هذا ربما منع الملكة من المجيء الى باريس في شهر ايلول . والبضاعة تزداد سوءاً .

فهتفت جيهان ديلاتارم : انا من هذا الرأي ، ومن الافضل لأجلاف باريس ان ينام هذا الساحر الصغير على حزمة حطب وليس على لوح خشب .

واضافت العجوز : حزمة حطب جميلة مشتعلة .

وقال ميستريكول . هذا أسلم .

---

١ – نهر في الجحيم حسب زعم قدماء الاغريق .

منذ بضع لحظات كان كاهن شاب يستمع الى تعليلات الراهـبات واحكام مسجل الوثائق . لقد كان وجهاً صارماً ، وجبهة عاليـة ، ونظرة عميقة . وقـد أبعد الجمهور صامتاً ، وفحص « الساحر الصغير » وبسط يده عليه . كان لا يزال هنـاك متسع من الوقت . لان جميـع المتدينات كن يلبسن ملابس « حزمة الحطب المشتعلة » .

وقال الكاهن : اني اتبنى هذا الطفل .

ولفه في جبته وحمله . وتبعه الحاضرون بعيون مشدوهة . وبعد لحظة كان قد اختفى في الباب الاحمر الذي كان يوصل آنذاك من الكنيسة الى الدير .

وحين زالت الدهشة الاولى انحنت جيهان ديلارم على اذن لاغولتيير :

– لقد قلت لك يا اختي ان هـذا الاكليركي الشاب السيد كلود فرولو هـو ساحر .

٢

كلود فرولو

بالفعل ، لم يكن كلود فرولو شخصاً من عامة الناس . فهو ينتمي الى احدى تلك العائلات الوسطى التي كانت تدعى بلا تمييز في لغة القرن الاخير السفيهة بورجوازية عليا او طبقة نبلاء صغيرة. وكانت هذه العائلة قد ورثت عن الاخوان باكليه اقطاعة تيرشاب التي كانت لأسقف باريس ، حيث الواحد والعشرون بيتاً كانت في القرن الثالث عشر موضوع كثير من الدعاوى امام السلطات الرسمية . وكلود فرولو ، كمالك لهذه الاقطاعة ، كان واحداً من السادة اصحاب الاقطاع في باريس وضواحيها ؛ وكان بالمستطاع رؤية اسمه لمدة طويلة مسجلاً بهذه الصفة ، بين قصر تانكارفيل الذي يخص المعلم فرنسوا لوريز ومدرسة تور ، في اللائحة الموضوعة في سان مارتان ديشان .

وكان كلود فرولو قد كرسه اهله منذ الطفولة للوظيفة الكهنوتية . فتعلم القراءة باللاتينية ، وأُنشىء على خفض العيون والتكلم بصوت منخفض . وحبسه والده ، وهو لا يزال طفلاً ، في مدرسة تورشي في حي الجامعة . وكبر هناك ، على كتاب القداس وفقه اللغة .

ومع ذلك فقد كان ولداً كئيباً ، رزيناً ، جدّياً يدرس بحمية ويتكلم بسرعة . وفي فترات التنفس لم يكن يتعالى صراخه ، وقليلاً ما كان يختلط بضوضاء شارع فوار ولا يعرف « اعطاء الصفعات وانتزاع الشعر[1] » . ولم يتدخل في عصيان

---

١ – عبارة لاتينية في الاصل .

عام ١٤٦٣ الذي سجله مؤرخو الحوليات تحت عنوان «اضطراب الجامعة السادس». وقليلا ما حدث له ان سخر من تلامذة مونتاغو المساكين بسبب المعاطف القصيرة التي كانوا يستقون اسمهم منها، او اصحاب المنح في مدرسة دورمان بسبب رأسهم الاكليركي المحلوق بهيئة اكليل وثوبهم ذي اللونين الأزرق والبنفسجي كما جاء في ميثاق الكاردينال ديكاتر - كورون.

وعوضاً عن ذلك فقد كان ملازماً المدارس الكبيرة والصغيرة في شارع جان - دي - بوفيه. واول تلميذ كان يشاهده الاب دي سان بيار دي فال حين يبدأ قراءة القوانين الكنسية، ملتصقاً بعمود من مدرسة سان فندرجيزيل تجاه منبره، هو كلود فرولو، متسلحاً بمحبرته التي تشبه القرن، عالكاً ريشته، مخربشاً على ركبته المهترئة، نافخاً في اصابعه في الشتاء. واول مستمع يراه السيد ميل ديسليه، دكتور في الحق الكنسي، واصلاً كل صباح اثنين، لاهثاً، عند افتتاح ابواب مدرسة شيف - سان دنيس، هو كلود فرولو. وفي سن السادسة عشرة ايضاً استطاع الاكليركي الشاب ان يجابه في اللاهوت الصوفي احد آباء الكنيسة، وفي اللاهوت الكنسي احد آباء مجمع الاساقفة، وفي لاهوت الفلسفة الكلامية احد دكاترة السوربون.

وبعد ان انتهى من اللاهوت اندفع في دراسة الحق الكنسي. وهبط من «معلم في الاحكام» الى «مجموعة شرائع شارلمان». والتهم بالتتابع، في قابليته للعلوم، رسائل بابوية تتلوها رسائل اخرى، ورسائل تيودور اسقف هيسبال، ورسائل بوشار اسقف وورم، ورسائل ايف اسقف شارتر؛ ثم مرسوم غراتيان الذي تبع مجموعة شرائع شارلمان؛ ثم مجموعة غريغوار التاسع؛ ثم رسالة هونوريوس الثالث. وكان واضحاً ومألوفاً ذلك الدور الكبير الصاخب للحقوق المدنية، والحقوق الكنسية في النضال وفي الشغل في صخب القرون الوسطى، دور يفتحه الاسقف تيودور عام ٦١٨ ويغلقه البابا غريغوار عام ١٢٢٧.

وبعد ان انتهى من دراسة الحق الكنسي انقض على الطب وعلى الفنون المتحررة.

فدرس علم الاعشاب ، وعلم المراهم . واصبح خبيراً بالحميات وعلم الرضوض ، والجراح والدمامل . واستقبله جاك ديسبار طبيباً وعالماً بالطبيعيات ، وريشار هيلان طبيباً جراحاً . وتنقل بين جميع درجات الاجازة والاستذة والدكتورة في الفنون . ودرس اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية ، معابد ثلاثة قل من يألفها آنذاك . لقد كانت حمّى حقيقية لاكتساب واكتناز العلوم. وكان يبدو للشاب ان للحياة هدفاً وحيداً : المعرفة .

في ذلك الوقت تقريباً ، في صيف عام ١٤٦٦ اندلع ذلك الطاعون الكبير الذي اختطف من فيكونتية باريس اكثر من اربعين الف شخص من بينهم ، كما قال جان ديتروي « المعلم ارنول فلكي الملك الذي كان رجل خير ، عاقلاً مرضياً » . وانتشرت الضجة في حي الجامعة بان شارع تيرشاب بشكل خاص قد اجتاحه الوباء. وهناك كان يسكن اهل كلود في اقطاعتهم. وهرول الطالب الشاب الى البيت الابوي مذعوراً . وحين دخله كان والداه قد ماتا منذ الامس. اما اخوه الرضيع الذي لا يزال في اقمطته فكان لا يزال حياً، متروكاً في مهده وهو يصرخ . لقد كان هذا الاخ هو كل ما بقي لكلود من عائلتـــه . وأخذ الشاب الطفل تحت ابطه وخرج مفكراً . لم يكن قد عاش الا في العلم حتى الآن . ولذلك فقد بدأ يعيش في الحياة .

هذه الفاجعة احدثت ازمة في حياة كلود . يتيم ، الابن البكر ، رئيس عائلة وهو في التاسعة عشرة . لقد شعر ، بقساوة ، انـــه استدعي من احلام المدرسة الى وقائع هذا العالم . وحينئذ ، وقد تأثر بداعي الشفقة ، اجتاحته عاطفة الحب والاخلاص لهذا الطفل ، لأخيه ، انها شيء غريب وعذب تلك العاطفة الانسانية عنده ، هو الذي لم يحب سوى الكتب حتى الآن .

لقد نمت هذه العاطفة الى درجة غريبة . وكانت في تلك النفس التي لا تزال جديدة كالحب الاول . انه منفصل عن اهله الذين لا يكاد يعرفهم منذ الطفولة ، ومحصور وكأنه سجين كتبه ، جشع قبل كل شيء الى الدرس والتعلم ، منتبه فقط حتى ذلك الوقت الى ذكائه الذي كان يتوسع في العـــلم ، والى مخيلته التي

كبوت في الآداب ، ولم يكن الطالب المسكين من الوقت ما يجعله يشعر بمكان قلبه . وهذا الأخ الصغير الذي لا اب له ولا ام ، ذلك الطفل الذي سقط فجأة من السماء على ذراعيه ، جعل منه انساناً جديداً . لقد شعر ان في العالم شيئاً آخر غير دروس السوربون وقصائد هوميروس ، وان الانسان بحاجة الى العطف وان الحياة الخالية من الحنو والحب ليست سوى مجموعة دواليب جافة ، صارخة ومزعجة ؛ الا انه تخيل ، لأنه كان في سن لا تحل فيه الاوهام الا محل الاوهام ، ان عواطف الدم والعائلة هي الوحيدة الضرورية ، وان أخاً صغيراً يحبه يكفي لملء كل حياة .

اذن فقد ارتمى في حب اخيه الصغير جهان بعاطفة ذات طابع عميق ، مشتعل ، مركّز . ان ذلك المخلوق المسكين ، الهش ، الجميـــل ، الاشقر الوردي ، الاجعد ، ، ذلك اليتيم الذي لا سند له سوى يتيم ، قد حركه حتى اعماقه ؛ ومع انه مفكر رصين ، فقد اخذ يفكر بجهان برأفة لا نهاية لها . وقد اهتم به واعتنى كأنه شيء مريع العطب او موصى به كثيراً . وكان للطفل اكثر من اخ ، لقد اصبح له اماً .

وقد فقد جهان الصغير امه وهو لا يزال رضيعاً ، فأصبح له كلود مرضعاً ، وكان له من ابيه ، عدا عن اقطاعة تير شاب ، ارث اقطاعة مطحنة متعلقة ببرج جنتيلي المربع . انها مطحنة على تلة بقرب قصر ونشستر (بيستر) . وكانت زوجة الطحان ترضع طفلاً جميلاً ؛ ولم يكن المكان بعيداً عن حي الجامعة . فحمل اليها كلود اخاه الصغير جهان بنفسه .

وشعر منذ ذلك الوقت بحمل ثقيل عليه ان يقوم به ، واخذ الحياة على محمل الجد . وفكرة اخيه الصغير لم تعد فترة تنفس فقط ، بل هدفاً لدراسته . لقد عزم على تكريس نفسه تكريساً كاملاً لمستقبل اصبح مسؤولاً عنه امام الله وان لا يكون له زوجة ولا ولد سوى سعادة وحفظ اخيه . اذن فقد تعلق بدعوته الاكليركية اكثر من اي وقت . وجدارته ، وعلمه ، وصفته كنائب مباشر لأسقف باريس فتحت له ابواب الكنائس على مصاريعها . ففي العشرين من عمره

وباعفاء خاص من الكرسي البابوي ، صار كاهناً ، وكأصغر كهنة نوتردام خدم المذبح الذي يدعى بسبب القداس المتأخر « مذبح الكسالى » .

وهناك ، وقد انغمس اكثر من اي وقت مضى في كتبه العزيزة التي لم يكن يتركها الا ليركض ساعة في اقطاعة المطحنة ، فان هذا المزيج من المعرفة والتقشف ، النادر في مثل سنه ، قد اعاد اليه احترام واعجاب الدير . وشهرته كعالم انتقلت من الدير الى الشعب حيث تحرفت قليلاً ، وهذا شيء مألوف آنذاك ، الى لقب ساحر .

كان ذلك في اللحظة التي عاد فيها ، في يوم كازيمودو ، من تلاوة قداس الكسالى في مذبحهم الواقع بجانب باب الخورس ، باتجاه صحن الكنيسة ، الى اليمين ، بقرب صورة العذراء ، حيث استلفت انتباهه جمهور من العجائز العاويات حول سرير اللقطاء .

وقد تقدم عند ذلك من المخلوق الصغير البائس ، المكروه المهدد ، وهذا الشقاء وتلك الدمامة ، هذا الاهمال وفكرة اخيه الصغير ، والخيال الذي حل في نفسه فجأة بانه اذا مات فمن الممكن ان يُلقى اخوه العزيز على لوحة اللقطاء بشكل بائس ، لقد حل كل هذا في قلبه دفعة واحدة . وتحركت شفقة عظيمة في داخله ، وحمل الولد .

وحين سحب هذا الولد من الكيس وجده بالفعل مشوهاً . فقد كان للشيطان الصغير ثؤلول على عينه اليسرى ، وكان رأسه غارقاً بين كتفيه ، والعمود الفقري مقوس ، وعظام الصدر ناتئة ، والساقان معوجّان ، ولكن كان يبدو انه طويل العمر ؛ ومع انه يستحيل معرفة اللغة التي يغمغم بها ، فان صرخته كانت تعلن عن شيء من القوة والصحة . وازدادت رأفة كلود لدى هذه الدمامة ؛ ونذر ان يربي هذا الولد في سبيل محبته لاخيه ولتكون هذه الحسنة بجوزة اخيه لانها صنعت لأجله مهما كانت اخطاء جهان الصغير في المستقبل . لقد كان ذلك نوعاً من توظيف الاعمال الصالحة التي اجراها لمصلحة اخيه ؛ انها بضاعة من العمل

الصالح اراد ان يختزنها مقدماً لان هذا الصغير سيجد نفسه ذات يوم معدماً من هذه العملة الوحيدة المقبولة كرسم مرور الى الجنة .

وعمّد ولده بالتبني ، واسمـــاه كازيمودو . اما لأنه اراد بذلك ان يشير الى اليوم الذي وجده فيه ، واما لأنه اراد ان يشير بهذا الاسم الى اية درجة كان المخلوق الصغـــير المسكين ناقصاً ولا يكاد يكون مرسوماً . وبالفعل ، فان كازيمودو ، الاعور ، الاحدب ، الاقفد [1] لم يكن سوى « تقريباً [2] » .

---

١ ــ الأقفد من يكون ساقاه متقاربين في اعلى الركبتين ومتباعدين عند القدمين .

٢ ــ ان كلمة كازيمودو باللاتينية معناها : « تقريباً » .

٣

حارس القطيع المسيخ مسيخ اكثر منه[1]

في عام ١٤٨٢ كان كازيمودو قد كبر ، واصبح منذ عـــدة سنوات قارعاً لاجراس كنيسة نوتردام بفضل ابيه بالتبني كلود فرولو الذي اصبح خوراسقف اول بفضل رئيسه لويس دي بومون الذي اصبح بدوره اسقفاً لباريس عام ١٤٧٢ بعد موت غليوم شارتيه بفضل معلمه اوليفيه لودام حلاق لويس الحادي عشر بنعمة الله .

اذن فكازيمودو اصبح قارع اجراس كنيسة نوتردام .

ومع الزمن تكوّن ما لا اعرف من الصلة الوثيقة التي وحدت بين قارع الاجراس والكنيسة . ان البائس المسكين المنفصل الى الابد عن العالم بسبب القدر المزدوج : مولده المجهول وطبيعته البشعة ، والسجين منذ الطفولة في تلك الدائرة المزدوجة التي لا يمكن اجتيازها ، كان قد اعتاد على ألا يرى شيئاً في هذا العالم وراء الجدران الدينية التي اظلته . لقد كانت نوتردام بالنسبة اليه ، وبالتتابع وفقاً لنموه وتطوره ، هي البيضة ، والعش ، والمنزل ، والوطن ، والكون .

ومن المؤكد انه كان هناك نوع من التناسق الخفي بين هـذا المخلوق وذاك البناء . وحين كان يجر نفسه بشكل متعرج ايام طفولته ويقوم بقفزات صغيرة تحت ظلمات قبابه ، كان يبدو بوجهه البشري واعضائه الحيوانية كأنه الحيوان

---

١ ــ هذا العنوان جاء باللغة اللاتينية في الاصل . وكان عنوان هذا الفصل في السابق : قارع الاجراس .

الزاحف الطبيعي لهذا البلاط الرطب القاتم الذي كانت ظلال تيجان الاعمدة الرومانية تلقي عليه كثيراً من الاشكال الغريبة .

وفيا بعد ، فحين تعلق للمرة الاولى آلياً بحبـل الابراج وقرع الجرس فان ذلك كان بنظر كلود ، والده بالتبني ، بادرة طفل تنحل عقــدة لسانه ويبدأ بالتكلم .

وهكذا ، فبنموه شيئاً فشيئاً ، باتجاه الكنيسة دائماً ، عائشاً فيها ، نائماً فيها ، غير خارج منها إلا في النادر ، متحملاً الضغط الخفي كل ساعة ، توصل الى ان يصبح شبيهاً بها ، وان يتلبسها اذا صح القول ، وان يجعل منها جزءاً متمماً . وكانت زواياه الناتئة متداخلة في زوايا العمارة الداخلة، وليسمح لنا بهذه الصورة، وكان يبدو انه ليس الساكن فقط بل المحتوى الطبيعي ايضاً . وبالمستطاع القول انه اتخذ شكلها كما تأخذ البزاقة شكل صدفتها ؛ لقد كانت مسكنه ، وجحره، وغطاءه . وكان يوجد بين الكنيسة القديمة وبينه تعاطف غريزي كثير العمق ، كثير التجاذب المغناطيسي والتجاذب المادي ، وكان يلازمها كما تـلازم السلحفاة درعها . لقد كانت الكاتدرائية الصلبة درعه .

ولا فائدة من تنبيه القارىء الا يأخذ حرفيـــاً هذه الصور التي اضطررنا لاستعمالها هنا لإيضاح هذا الازدواج العجيب ، المتناسب ، المباشر ، الجوهري لإنسان ولعمارة . ولا فائدة من القول ايضاً الى اية درجة اصبحت الكنيسة كلها مألوفة في مساكنة طويلة وخاصة كهذه. لقد كان هذا المسكن خاصاً به . ولم يكن فيه عمق لم يخترقه كازيمودو ولا ارتفاع لم يتسلقه . وقد حدث له اكثر من مرة ان يرتقي واجهة المبنى على عدة ارتفاعات مستعيناً بخشونة النحت فقط . وكان يشاهَد غالباً على وجه البرجين الخارجي كالحرذون الزالق على حائط قائم . هذان العملاقان التوأمان ، المرتفعان ، المهددان ، المخيفان ، لم يكونا يسببان له دواراً ولا هزة خدر ؛ وبرؤيتها لطيفين تحت يـده ، يسهل تسلقهما ، يصبح بالامكان القول انه روّضهما . وباستمراره على القفز والتسلق واللهو وسط مهاوي الكاتدرائية الجبارة ، اصبح بطريقةٍ ما قرداً وشاموا كالطفـــل الكابري الذي

يسبح قبل ان يمشي ، ويلعب مع البحر وهو لا يزال طفلاً .

وبعد ، فليس جسم كازيمودو وحده هو الذي تكيف وفقاً للكاتدرائية ، بل ذهنه ايضاً . اما في اي حال كانت هذه النفس ، وابة عادة اعتادتها ، واي شكل اتخذت تحت ذلك الغطاء المعقد ، في تلك الحياة الوحشية فهذا يستصعب تحديده . لقد ولد كازيمودو اعور ، احدب ، اعرج . وبجهد عظيم وصبر اعظم توصل كلود فرولو الى تعليمه الكلام. ولكن قدراً مشؤوماً كان مرتبطاً بالقيط المسكين . لقد اصبح قارعاً لأجراس نوتردام وهو في الرابعة عشرة ، ثم جاءت عاهة جديدة تكمله : لقد مزقت الاجراس طبلة اذنه واصيب بالصمم . ان الباب الوحيد الذي تركته له الطبيعة مفتوحاً على العالم قد اقفل فجأة الى الأبد .

وبانغلاق هذا الباب حجب الشعاع الوحيد من السرور والنور والذي كان لا يزال ينفذ الى نفس كازيمودو . وسقطت هذه النفس في ليل عميق . واصبحت كآبة المسكين غير قابلة للشفاء وكاملة كبشاعته. ولنضف ان صممه اصابه بنوع من الخرس لانه ، وقد اصبح اصم ، عزم على الصمت لا يقطع حبله الا حين يكون وحيداً، وذلك لكي لا يتيح للآخرين فرصة السخرية منه . وعقد مختاراً هذا اللسان الذي بذل كلود فرولو كثيراً من الجهد لحل عقدته . وهكذا اصبح لسانه متخدراً ، اخرق حين ترغمه الضرورة على الكلام ، كالباب الذي صدئت رزّاته .

واذا حاولنا الآن الدخول الى نفس كازيمودو من خلال تلك القشرة السميكة القاسية ؛ واذا استطعنا سبر اغوار هذا الجهاز المصنوع بشكل سيء ؛ ولو اتيح لنا ان نرى بواسطة مشعال ما وراء تلك الاعضاء الخالية من الشفافية ، واكتشاف الاعماق المظلمة لهذا المخلوق الكثيف ، وإنارة زواياه المظلمة وازقته المستحيلة ، وإلقاء ضوء قوي بصورة مفاجئة على تلك المرآة المقيدة في اعماق ذلك الكهف ، لوجدنا المسكينة في موقف يائس ، غير نامية ، وكسيحة كما يكون سجناء مدينة البندقية الذين يشيخون وهم منحنون في علبة من الحجر منخفضة وقصيرة .

من المؤكد ان الروح تتشوه في جسم ناقص . فقد كان كازيمودو لا يكاد يشعر في داخله بحركة تلك النفس المصنوعة على صورته . وانطباعات الاشياء كانت تتعرض لانحراف ملحوظ قبل الوصول الى فكره . وكان دماغه موضعاً خاصاً : فالأفكار التي تجتازه كانت تخرج منه عوجاء . والانعكاسات الناجمة عن هذا الانحراف كانت بالضرورة متباعدة ومنحرفة .

ومن هنا نشأ الف وهم بصري والف خطأ في الحكم ، وألف انحراف يضيع فيها تفكيره المجنون حيناً والأبله حيناً آخر .

واول اثر لهذا الجهاز المنحوس بدا في اضطراب النظرة التي يلقيها على الاشياء فهو لم يكن يتلقى منها أي مفهوم مباشر . والعالم الخارجي كان يبدو له اكثر بعداً مما يبدو لنا .

اما الأثر الثاني لمصيبته فهو انه اصبح شريراً .

كان شريراً بالفعل لانه كان متوحشاً ؛ وكان متوحشاً لانه كان بشعاً . وكان في طبيعته منطق كما في طبيعتنا .

وكانت قوته النامية غير العادية سبباً لكثير من الشر . ويقول هولب : ان الولد القوي هو شرير .

ومع ذلك يجب ان ننصفه . فالشر لم يكن مولوداً معه . فمنذ خطواته الاولى بين الناس احس ثم رأى نفسه مهاناً ، معاباً ، مطرودا ، وكان الكلام البشري بنظره دائماً سخرية او لعنة . وعندما كبر لم يجد سوى الكراهية حوله وقد استولت عليه . واكتسب الخبث العام . والتقط السلاح الذي جرح به .

وبعد فلم يكن يدير وجهه لناحية الناس الا مرغماً . وكانت كاتدرائيته تكفيه ، كانت آهلة بالصور الرخامية من ملوك وقديسين واساقفة ، صور كانت تنفجر ضاحكة في وجهه على الاقل ولا تنظر اليه الا نظرة مطمئنة ملاطفة . اما التماثيل الاخرى ، تماثيل الممسوخ والشياطين فلم تكن تكرهه ، هو كازيمودو ولذلك فهو يشبهها الى حد بعيد . وكانت تسخر من الرجال الآخرين . أما الشياطين فكانوا اصدقاءه وهم يحرسونه . وكان يعقد معهم مناجاة طويلة ويقضي

احياناً ساعات كاملة وهو جاثم امام أحد هذه التماثيل ليتحدث منفرداً معه. واذا فاجأه احد فأنه يهرب كعاشق فوجىء وهو في نشوة مناجاته لحبيبه.

والكاتدرائية لم تكن بالنسبة اليه مجتمعاً فقط، بل هي الكون، هي الطبيعة كلها. ولم يكن يحلم بعرائش غير الزجاج المزدان بالزهور الدائمة، وبظلال غير ظلال اوراقها الحجرية التي تتفتح محملة بالعصافير في باقات تيجان الاعمدة الساكسونية، وبجبال غير ابراج الكنيسة العملاقة، وبأوقيانوس غير باريس التي تدوي على اقدام الكنيسة.

اما ما كان يحبه قبل كل شيء في تلك العمارة الأم، وما كان يوقظ نفسه ويفتح له جناحيه اللذين كان يبقيهما مطويين في كهفه، وما كان يجعله سعيداً احياناً فهي الاجراس. لقد كان يحبها، ويداعبها، ويحدثها، ويفهمها، ابتداءً من الجرس الصغير الموجود في مسلة النافذة حتى جرس البوابة الكبير، وكان يحنو عليها كلها. وبرج جرس النافذة، والبرجان كانوا بالنسبة اليه كثلاثة اقفاص كبيرة لا تغني عصافيرها التي رباها إلا له. ومع ذلك فهذه الاجراس هي التي اصابته بالصمم، ولكن الامهات في اغلب الاحيان يبالغن في حب الولد الذي سبب لهن من الضرر اكثر من غيره.

وصحيح ان اصوات هذه الاجراس هي الوحيدة التي لا يزال يستطيع سماعها. وبهذا فان الجرس الكبير كان احبها اليه. فهو المفضل في تلك العائلة من البنات [١] المدوّيات اللواتي يصخبن حوله ايام الاعياد. وهذا الجرس الكبير كان يدعى ماري. وكان وحيداً في البرج الجنوبي مع اخته جاكلين، وهو جرس اصغر حجماً ومسجون في قفص اقل كبراً بجانب قفصه. والجرس جاكلين دعي هكذا باسم زوجة جان دي مونتاغي الذي اعطاه للكنيسة، الامر الذي لم يمنعه من ان يتصور دون رأس في مونفوكون [٢] وفي البرج الثاني كان يوجد ستة اجراس اخرى. واخيراً الاجراس الستة الاصغر حجماً

١ ــ الجرس بالفرنسية مؤنث **La cloche**.

٢ ــ اشارة الى ان رأسه قد قطع على مقصلة مونفوكون.

والموجودة في برج النافذة مع الجرس الخشبي الذي لم يكن يقرع الا بعد ظهر يوم الخميس المقدس [١] حتى صباح اليوم الذي يسبق الفصح . اذن فقد كان لكازيمودو خمسة عشر جرساً في سرايه ولكن الجرس الكبير ماري كان هو المفضل .

ولا يمكن تكوين فكرة عن سروره ايام الاعياد . ففي اللحظة التي يفلته فيها الخوراسقف ويقول له : اذهب! فانه يصعد درج برج الجرس اللولبي بأسرع مما يهبط منه آخر . كان يدخل لاهثاً غرفة الجرس الكبير الهوائية ، ويتأمله لحظة بجمع حواسه وحبه ؛ ثم يخاطبه بعذوبة ويلاطفه بيده كجواد جيد سيقوم بسباق طويل . ويرثي له مما يصيبه من الهم . وبعد هذه المداعبات الاولى ، كان يصرخ بمساعديه الموجودين في الطابق الاسفل ان يبدأوا . ويكون هؤلاء متعلقين بالحبال ، وتصرخ الرافعة ، وتهتز الكبسولة المعدنية الضخمة بهدوء . وكان كازيمودو يتبعه بنظره مرتجفاً . واول اصطدام بين مقرعة الجرس والحاجز النحاسي تبعث الرعشة في السقف فوقه . وكان كازيمودو يهتز مع الجرس ، ويصرخ مع قهقهة مجنونة : فاه ! الا ان حركة الجرس الكبير تتسارع ، وبمقدار ما يجتاز زاوية اكثر انفتاحاً فان عين كازيمودو كانت تنفتح اكثر فأكثر فوسفورية ومشتعلة . ثم يبدأ الرنين العظيم والبرج كله كان يهتز ، والصقالات ، والرصاص ، والحجارة المقصبة كانت كلها تزمجر معاً ، من اوتاد اساس البناء حتى الازهار الموجودة على مشارفه . وحينئذ كان كازيمودو يغرغر بالزبد ؛ وكان يروح ويجيء ، ويرتجف مع البرج من الرأس الى القدمين . والجرس المتفلت من قيوده ، الهائج ، كان يعرض على جداري البرج الداخلين ، وبالمناوبة ، حلقومه البرونزي الذي كانت تتفلت منه رياح تلك العاصفة التي تسمع على مسافة اربعة اميال . وكان كازيمودو واقفاً امام هذا الحلقوم المفتوح ؛ وكان يجثم ، وينهض مع عودات الجرس ، ويتنفس هذه النسمة المذهلة ، وينظر بالدور الى المكان العميق المليء بالناس على مائتي قدم

١ ـ الخميس المقدس او يوم حل الغفران . لم تكن تقرع الاجراس من الخميس المقدس حتى السبت ليلة الفصح ، بل يدق جرس خشبي فقط .

تحته ، واللسان النحاسي الضخم الآتي بين ثانية واخرى يعوي في اذنه . لقد كان ذلك هو الكلام الوحيد الذي يسمعه ، وهو الصوت الوحيد الذي يبعث الاضطراب في الصمت العام عنده. كان يتمدد كالعصفور في الشمس . وفجأة ينتقل اليه هيجان الجرس ؛ فيصبح نظره غير عادي ؛ وكان ينتظر الجرس وهو يمر كما ينتظر العنكبوت الذبابة ، فينقض فجأة عليه مغامراً بحياته . وحين يصبح معلقاً فوق الهاوية يقذفه تأرجح الجرس المخيف ، فانه يمسك المسخ النحامي من اذنيه ، ويحتضنه بين ركبتيه ، وينخسه بعقبيه كالمهماز ، ويضاعف بكل صدمة وبكل ثقل جسده من هيجان الجرس. وكان البرج يرتج ؛ وكان هو يصرخ ويصر بأسنانه ، وشعره الامغر ينتفش ، وصدره يخرج صوتاً كضجة منفخ الكور ، وعينه تقذف اللهب ، والجرس المسيخ يصهل لاهثاً تحته ، وحينئذ لا يبقى هناك جرس نوتردام ولا كازيمودو ، انه حلم ، اعصار ، عاصفة ؛ انه دوار يمتطي جواداً على الضجة ؛ وروح ناشبة اظفارها في ردف طائر ؛ وسنتور عجيب نصف انسان ، ونصف جرس ؛ ونوع من أستولف Astolphe الرهيب محمول على جواد مجنح اعجوبي من البرونز الحي [1] .

ووجود هذا الكائن غير العادي يبعث في كل انحاء الكاتدرائية ما لا اعرف اية نسمة حياة . كان يبدو انه يتفلت منه ، وفقاً لاعتقادات الجمهور الباطلة ، المبالغ فيها ، روائح غامضة تبعث الحياة في كل حجارة نوتردام وتلامس اعماق الكنيسة المرمة . ويكفي ان يُعرف انه هناك حتى يُعتقد برؤية الالف تمثال في الاروقة والبوابة وقد بعثت فيها الحياة وتحركت . وبالفعل ، فقد كانت الكاتدرائية تبدو مخلوقاً ذلولاً طائعاً تحت يده ؛ كانت تنتظر مشيئته لترفع صوتها الضخم ، وكانت معمورة وملأى بكازيمودو كأنها معمورة بروح مألوفة. وقد قيل انه يجعل البناية الفسيحة تتنفس . وبالفعل فقد كان في كل مكان فيها ويتضاعف على جميع نقاط البناء الاثري . فتارة يشاهَد بهلع على اعلى برج فيها

١ ـــ الشخص والحادث من رواية « رولان هائج » لأريوست . وقد شوهد فيها استولف وقد خطفه حصان مجنح الى القمر .

قزم غريب يتسلق ، ويتلوى كالافعى ، ويدب على اربع ، ويهبط خارجاً على المهواة ، ويقفـــز من طنف الى آخر ويذهب باحثـــاً في بطن بعض النباتات الاسفنجية المنحوتة ، انه كازيمودو يخرج الغربان من اعشاشها ، تارة يُصدم في زاوية مظلمة من الكنيسة بنوع من الخيال الحي ، جاثماً وكالحاً ، انه كازيمودو وهو يفكر ، وطوراً يُنتبه تحت برج جرس الى رأس ضخم وصرة من الاعضاء غير المنتظمة ، يتأرجح بشدة على طرف حبـــل ، انه كازيمودو يقرع الجرس لصلاة الغروب او لصلاة التبشير . وغالباً ما يُشاهد في الليل شكل بشع تائه على الحاجـز الواهن المخرم كالدانتيلا الذي يتوج الابراج ويحيط صدر الكنيسة بدائرة ؛ انه أيضاً احدب نوتردام . اذن فالكنيسة ، كما كانت تقول الجارات كانت تأخذ شيئاً مما هو وهمي غريب ، وما فوق الطبيعي ، ومما هو رهيب ؛ عيون وافواه تتفتح فيها هنا وهنـاك ، ويُسمع نبـاح كلاب ، وفحيح افاعي ، والتماثيل الحجرية الساهرة ليـــلاً ونهاراً ، متلعة العنق مفتوحـة الحلقوم حـول الكاتدرائية الممسخة ؛ واذا كانت الليلة ليلة عيد الميلاد ، وبينما الجرس الكبير الذي يبدو محشرجاً يدعو المؤمنين الى قداس نصف الليل المحتدم ، تكون هناك هيئة غريبة منتشرة على واجهة البنـاء القاتمة حتى يخيـل ان البوابة الكبرى تلتهم الجمهور وان الوردية تتطلع اليه . وكل هذا متأتٍ عن كازيمودو . لقد كانت مصر جديرة بأن تجد فيه إلهاً لهذا الهيكل ؛ والقرون الوسطى تعتقده شيطاناً ؛ لقد كان روحه .

ان نوتردام بالنسبة الى اولئك الذين يعرفون ان كازيمودو كان موجوداً هي اليوم قفراء ، خاوية ، ميتة . ويشعر المرء ان هناك شيئاً قد غاب . وهذا الجسم الكبير فارغ ، انه هيكل عظمي ، لقد تركته الروح ، ويمكن رؤية مكانها ، هذا كل شيء . انها كالجمجمة التي لا يزال فيها ثقوب للعينين ولكن لا يوجد نظر .

٤

الكلب وسيده

الا ان هناك شخصاً واحداً كان يستثنيه كازيمودو من خبثه وحقده من دون الناس ، ويكاد يحبه اكثر من كاتدرائيته ، انه كلود فرولو .

والامر بسيط . فكلود فرولو التقطه ، وتبناه ، وغذّاه ، ورباه . وحين كان صغيراً اعتاد على اللجوء الى حجره حين تنبح الكلاب والاولاد وراءه . وكلود فرولو هو الذي علمه الكلام والقراءة والكتابة . وكلود فرولو اخيراً هو الذي جعل منه قارعاً للاجراس . وزواج الجرس الكبير من كازيمودو يعني زواج جولييت من روميو .

وكان عرفان كازيمودو للجميل عميقاً ، عاطفياً ، دون حدود ؛ وبالرغم من ان وجه والده بالتبني يكون في اغلب الاحيان متجهماً صارماً ، وبالرغم من ان كلامه يكون عادة مقتضباً ، قاسياً ، متغطرساً ، فان عرفان كازيمودو لجميله لم يتغير لحظة واحدة . وكان للخوراسقف في كازيمودو العبد الاكثر خضوعاً ، والخادم الاكثر طاعة ، والكلب الاكثر يقظة . وحين اصيب قارع الاجراس المسكين بالصمم تقررت بينه وبين كلود فرولو لغة من الاشارات ، غامضة يفهمها الاثنان وحدهما . وبهذا كان الخوراسقف هو الكائن البشري الوحيد الذي احتفظ كازيمودو بالاتصال به. ولم تكن له علاقة في هذا العالم إلا بشيئين: كنيسة نوتردام وكلود فرولو .

وما من شيء يشبه سلطة الخوراسقف على قارع الاجراس ، ومحبة قارع

الاجراس للخوراسقف . كان يكفي اشارة من كلود ، ولمجرد ادخال السرور الى نفسه ، ليقذف كازيمودو نفسه ، من اعلى ابراج نوتردام . وانه لما يستلفت النظر ان كل هذه القوة الجسدية التي بلغت عند كازيمودو نمواً غير عادي قد وضعها بنفسه ، وبدون تبصر ، تحت تصرف رجل آخر . ولا شك بانه يوجد هنا برّ بنوي وتعلق عائلي ؛ ويوجد ايضاً انجذاب عقل بعقل آخر . انها بنية بائسة خرقاء يظل رأسها منخفضاً وعيناها متوسلتين امام ذكاء متفوق عميق ، قوي ، عالٍ . واخيراً فهو علاوة على كل ذلك ، الاعتراف بالجميل . اعتراف بالجميل الى اقصى الحدود ولا ندري باذا نقارنه. وليست هذه الفضيلة من الفضائل التي يكون افضل مثل لهـا من الناس . سنقول اذن ان كازيمودو كان يحب الخوراسقف كما لم يحب كلب ، ولا جواد ، ولا فيل ، سيده .

٥

تتمة كلود فرولو

في عام ١٤٨٢ كان كازيمودو قد بلغ العشرين من سنه تقريباً ، وكلود فرولو بلغ السادسة والثلاثين . احدهما كبر والآخر بلغ سن الهرم .

ولم يكن كلود فرولو ذلك الطالب البسيط في مدرسة تورشي ، والحامي الحنون لطفل صغير ، والفيلسوف الشاب الحالم الذي يعرف كثيراً من الاشياء ويجهل الكثير . لقد كان كاهناً صارماً ، رصيناً ، شكساً ؛ مكلفاً بالنفوس ؛ السيد الخوراسقف دي جوزا ، الشماس الثاني للاسقف ، والحامل على عاتقه مشيختي مونتيري وشاتوفور ومائة واربعة وسبعين خورياً ريفياً. لقد كان شخصاً مهيباً ، قاتماً يرتجف امامه اولاد الخورس ذوو الاستيخارة [١] والجاكيت ، واعضاء اخوية القديس اوغسطين، واكليركيو نوتردام الصباحيون حين يمر بهدوء تحت قناطر الخورس المرتفعة ، جليلا ، مفكراً ، متصالب الذراعين منحني الرأس على الصدر بحيث لا يُرى من وجهه سوى جبهته الكبيرة الصلعاء .

والدوم كلود فرولو لم يهمل العلوم ولا تربية أخيه الصغير الامرين اللذين يشغلان حياته . ولكن مع الزمن فقد امتزج شيء من المرارة بهذه الامور العذبة . ويقول بول دياكر [١] ان أفضل شحم خنزير ينتن مع الزمن . وجهان

١ ـ ثوب ابيض يرتديه الكهنة .

٢ ـ كان هيغو قد كتب اولاً « سان بول » بدلاً من « بول دياكر » . ويبدو ان المقصود هنا هو بول وارنفريد الكاتب باللغة اللاتينية في القرن الثامن .

فرولو الصغير الملقب « ديولان » بسبب المكان الذي رضع فيه لم يكن قد كبر في الاتجاه الذي أراد كلود ان يرسمه له . كان الاخ الكبير يعتمد على تلميذ ورع ، مطيع ، عالم ، شريف . الا ان الاخ الصغير ، كتلك الاشجار الفتية التي تخدع جهود البستاني وتولي وجهها بعناد شطر الناحية التي يأتيها منها الهواء والشمس ، لم ينم ، ولم يضاعف ، ولم ينبت اغصاناً جميلة غضة غزيرة الا من ناحية الكسل والجهل والفجور . لقد كان شيطاناً حقيقياً ، كثير الاضطراب ، الامر الذي جعل الدوم كلود يتجهم ، ولكنه مزّاح فطن يبعث الاخ الكبير على الضحك . كان كلود قد او كله الى مدرسة تورشي نفسها حيث قضى سنواته الاولى في الدرس والتحصيل ؛ وكان مما يؤلمه ان هــذا المعبد الذي جعل في السابق قدوة حسنة من اسم فرولو قد فضحه اليوم . كان في بعض الاحيان يوجه الى جهان كلمات قاسية وعظات طويلة يسمعها هذا بجرأة . إلا ان التافه الصغير كان ذا قلب طيب ، كما يُشاهَد ذلك في جميع المسرحيات الهزلية ، وما ان تنقضي الموعظة حتى يعود الى معاصيه السابقة وفواحشه . فتارة يضرب تلميذاً حديث عهد بالجامعة احتفاءً به ؛ وهو تقليد ثمين لا يزال مستمراً بعناية الى يومنا هذا . وطوراً يحرض عصابة من الطلاب انقضوا على حانة وضربوا صاحبها (بعصي هجومية) ، ونهبوها فرحين حتى انهم يكسرون اوعية الخمور في القبو . ثم يتلو ذلك تقرير جميل باللاتينية يحمله نائب رئيس مدرسة تورشي مشفقاً الى كلود مع تلك الحاشية . « شغب ! اول سبب ! شرب نبيذاً جيداً [١] » . وأخيرا كان يقال ، وهو أمر هائل بالنسبة الى ولد في السادسة عشرة ، ان فجوره كان يصل في اكثر المرات الى شارع غلاتيني .

وبسبب ذلك ، فان كلود المغتم ، الخامد الهمة في عواطفه الانسانية ، اندفع في كثير من الحدة الى ذراعي العلم [٢] ، تلك الاخت التي لا تضحك في وجهك على الاقل وتدفع لك دائماً ثمن اعتنائك بها ، ولو كان عملة مزيفة في

١ ــ عبارة باللاتينية في الاصل .
٢ ــ العلم مؤنث بالفرنسية .

بعض الاحيان . اذن فقد أصبح عالماً أكثر فأكثر ، وفي الوقت نفسه ، وبنتيجة طبيعية ، صلباً أكثر فأكثر ككاهن ، وحزيناً أكثر فأكثر كانسان . ان لكل منا شيئاً من الموازاة بين ذكائنا ، وأخلاقنا ، وطبعنا ، وهذه الموازاة تنمو دون انقطاع ولا تنقطع الصلة فيما بينها الا امام اضطرابات عظيمة في الحياة .

وبما ان كلود فرولو قد اجتاز منذ صغره الدائرة شبه الكاملة للمعارف الانسانية الوضعية والخارجية ، والمباحة ، فقد كان عنده من القوة ، الا اذا وقف حيث لا توجد الدائرة ، بما يجعله يسير بعيداً ويبحث عن أغذية أخرى لفعالية ذكائه الشرهة . والرمز القديم للأفعى التي تعض ذيلها يناسب العلم بشكل خاص . ويبدو ان كلود فرولو قد جربه . وقد أكد بعض الاشخاص من ذوي الرزانة انه تجرأ على الدخول الى ما هو غير مباح بعد ان استنفد ماهو مباح من المعرفة الانسانية . وقيل انه تذوق كل تفاح شجرة الذكاء بالتتابع ، وانتهى ، عن جوع وتقزز ، الى قضم الثمرة المحرمة . واحتل مكانه دورياً ، كما رأى قراؤنا ، في محاضرات علماء اللاهوت في السوربون ، وفي جمعيات الفنانين على نسق سان هيلير ، وفي مجادلات علماء الحق الكنسي على نسق سان مارتان ، وفي مجامع الاطباء عند جرن الماء المقدس في نوتردام ؛ وجميع الاطعمة المسموح بها والتي نالت الاستحسان ، والتي باستطاعة هذه المطابخ الاربعة الكبرى التي ندعوها كليات ان تعدها وتجعلها في خدمة الذكاء ، كان قد التهمها وشعر بالشبع قبل ان يسد جوعه ! وحينئذٍ تعمق متقدماً الى الامام ، والى أسفل ، تحت كل ذلك العلم المنتهي ، المادي ، المحدود ! لقد خاطر بحياته تقريباً ، وجلس في الكهف الى تلك المنضدة الغامضة ، منضدة الكيماويين ، والمنجمين ، والحبساء حيث ابن رشد ، وغليوم دي باري ، ونيقولا فلاميل يسكون بالطرف في القرون الوسطى ويمتد في الشرق على أضواء الشمعدان ذي الفروع السبعة ، حتى سليمان ، وفيثاغورس وزرادشت .

هذا على الاقل ما كان يفترض ، عن خطأ أو عن صواب .

من المؤكد ان الخوراسقف كان غالباً ما يزور مقبرة سان اينوسان حيث دفن والداه، وهذا صحيح، مع ضحايا اخرى لطاعون عام ١٤٦٦؛ ولكنه كان يبدو أقل ورعاً أمام صليب قبرهما منه أمام الصور الغريبة المثقل بها قبر نيقولا فلاميل وكلود بيرنيل المبني جانباً.

ومن المؤكد انه غالباً ما كان يشاهد سائراً في شارع اللومبارديين حيث يدخل خفية الى بيت صغير يشكل زاوية شارع الادباء وشارع ماريفو. انه البيت الذي بناه نيقولا فلاميل ومات فيه عام ١٤١٧ والذي ظل غير مأهول منذ ذاك الوقت، وبدأ يتساقط خراباً، يضاف الى ذلك أن الكيماويين الباحثين عن الحجر الفلسفي من جميع البلدان قد أتلفوا جدرانه لا لسبب الا ليحفروا عليه أسماءهم. وقد أكد بعض الجيران انهم رأوا الخوراسقف ذات مرة من احدى الكوى وهو يحفر ويحرك ويجرف الارض في ذينك القبوين حيث نيقولا فلاميل نفسه لوث جوانبها بأبيات من الشعر وبخطوط هيروغليفية لا حصر لها. وكان يفترض ان فلاميل خبأ الحجر الفلسفي في اقبيتـــه. والكيماويون طوال قرنين، من ماجستري حتى الاب باسيفيك لم يكفوا عن البحث في الارض الا عندما اصبح البيت، بعد أن نبش وقلب بشكل عنيف، غباراً تحت اقدامهم.

ومن المؤكد ان الخوراسقف قد كلف كلفاً غريباً ببوابة نوتردام الرمزية، تلك الصفحة من كتاب السحر المكتوبة بالحجر بواسطـــة الاسقف غليوم دي باري الذي كان هالكاً دون شك لانه ربط عنواناً جهنمياً بالقصيدة المقدسة التي ينشدها ما بقي من البناء الى الابد. والخوراسقف كلود يعتبر هالكاً ايضاً لانه عمّق تمثال سان كريستوف وذلك التمثال الطويـل اللغزي الذي كان منتصباً آنذاك في مدخل فناء الكنيسة والذي كان الشعب يدعوه «السيد ليغري» على سبيـل السخرية. اما ما استطاع جميع الناس ان يلاحظوه فهي الساعات التي لا تنتهي والتي كان يقضيها في الغالب وهو جالس على سور الساحة متأملاً منحوتات البوابة، متفحصاً تارة العذراوات المجنونات بقناديلهن المقلوبة، وطوراً العذراوات

العاقلات بقناديلهن المستقيمة ، وحاسباً في حين آخر زاوية النظر لذلك الغراب الموجود على البوابة لناحية اليسار ناظراً في الكنيسة الى نقطة غامضة خبيء فيها الحجر الفلسفي دون شك اذا لم يكن في قبو نيقولا فلاميل . لقد كان ذلك ، ولنقلها في معرض الحديث ، حظاً غريباً لكنيسة نوتردام في ذلك العصر ان تكون محبوبة بدرجتين مختلفتين وبكثير من الورع من كائنين لا يتشابهان ، هما كلاود وكازيمودو ، يحبها واحد هو نوع من نصف رجل غريزي متوحش لاجل جمالها وتقاطيعها ، وللتناسق المنبعث من مجموعها البديع ؛ ويحبها الآخر ، وهو مخيلة عالمة وعاطفية ، لاجل معناها ، واسطورتها ، وللمعنى الذي تحتويه ، وللرمز المتناثر تحت منحوتات واجهتها كالنص الاول تحت الثاني في رق مكتوب ؛ وبكلمة ، لاجل اللغز الذي تعرضه على الذكاء بشكل دائم .

ومن المؤكد أخيراً ان الخوراسقف اكتفى في مكان بين البرجين مطل على ساحة غريف الى جانب قفص الاجراس بحجرة صغيرة خفية لم يدخلها أحد بدون اذنه حتى الاسقف نفسه . وهذه الحجرة بنيت على قمة البرج تقريباً بين اعشاش الغربان بواسطة الاسقف هيغو دي بيزانسون [1] ، الذي كان يؤذي فيها بواسطة الرقى في زمنه . اما ما كانت تحتويه هذه الغرفة فهذا ما لم يعرفه احد ؛ ولكن كان يُرى في الغالب من رمال تيران ، وفي الليل ، في نافذة صغيرة تطل على مؤخر البرج ، وفي فترات قصيرة ومتساوية ، اختفاء وظهور ضوء أحمر متقطع ، غريب كان يبدو انه يتبع شهيقاً وزفيراً لاهثاً لمنفخ ، وصادرا عن نار اكثر مما هو صادر عن نور ، وكان ذلك يحدث تأثيراً غريباً في الظلام وعلى ذلك الارتفاع . وكان النساء يقلن : ها هو الكاهن ينفخ والجحيم يحتدم .

لم يكن يوجد في كل ذلك براهين كثيرة على مزاولة السحر . بل كان ما فيها من دخان كثير كافياً لافتراض وجود النار ، وكان للكاهن شهرة رهيبة . ويجب أن نقول ان علوم مصر ، واستحضار الموتى ، والسحر ، حتى

---

١ — هيغو الثاني دي بيزونسيو (١٣٢٦ – ١٣٣٢) .

الاكثر بياضاً والاكثر براءة ، لم يكن لها اعداء اكثر ضراوة ولا وشاة اكثر قساوة من السادة قضاة دائرة نوتردام . وسواء أكان هذا رعباً صادقاً او لعبة يلعبها لص يصيح : الى السارق ، فان ذلك لم يمنع العلماء زعماء الكنيسة من اعتبار الكاهن روحاً تتعرض للخطر في دهاليز الجحيم ، وضائعة في مغاور الارواح الموهومة ، متخبطاً في ظلمات العلوم السحرية . وأما الشعب فلم يكن خيراً من ذلك . اما عند اولئك الذين يملكون شيئاً من الفطنة فقد كان كازيمودو بنظرهم هو الشيطان وكلود فرولو هو الساحر . وكان من الراهن ان على قارع الاجراس ان يخدم الكاهن طوال مدة معينة وفي نهايتها يحل روحه بدلاً من الاجرة . وكذلك كان الكاهن ، رغم تقشف حياته المفرط ، ذا رائحة كريهة بين النفوس الطيبة ، ولم يكن هناك انف لورعة ، مهما كانت عديمة الخبرة ، الا واشتمت منه رائحة ساحر .

واذا كان كلود ، وقد كبر ، قد اصبح علامة في علمه ، فانه اصبح كذلك في قلبه . هذا على الاقل ما يتبادر الى الذهن عند تفحص ذلك الوجه الذي لا تلتمع روحه عليه الا خلال سحب قاتمة . من اين اتته هذه الجبهة الصلعاء وذلك الرأس الدائم الاطراق ، والصدر الدائم الارتفاع من التنهدات ؟ واية فكرة خفية جعلت فمه يبتسم بكثير من المرارة في نفس اللحظة التي يتقارب فيها حاجباه العابسان كثورين على اهبة النطاح ؟ ولماذا اصبح ما بقي من شعره رمادياً ؟ وما هي تلك النار الداخلية التي تندلع احياناً في نظراته حين تصبح عينه كثقب في جدار اتون ؟

هذه الاعراض الدالة على قلق اخلاقي عنيف قد اكتسبت درجة عالية من الشدة في العصر الذي جرت فيه هذه القصة . وحدث اكثر من مرة ان هرب احد الاولاد الذين يخدمون القداس خوفاً من ان يجده وحده في الكنيسة ما دامت نظرته غريبة صاعقة . واكثر من مرة سمعه جاره على المقعد الخشبي ، في الخورس وفي ساعات القداديس الاحتفالية ، وهو يخلط بالترتيل الكنسي جملاً معترضة مبهمة . واكثر من مرة لاحظت غسالة تيران المكلفة « بغسل مكان

انعقاد مجلس الرهبان » ، وبشيء من الرعب ، آثار اظافر واصابع متشنجة في قميص الخوراسقف دي جوزا .

الا انه كان يضاعف من صرامته ، ولم يكن اكثر مثالية مما هو الآن . وكان ، بجلالته وبطبعه ، يظل بعيداً عن النساء ؛ وكان يبدو انه شديد الكره لهن . ورعشة وحيدة لثوب حريري تجعله ينزل غطاء رأسه على عينه . وكان حيال هذه النقطة شديد الغيرة على التقشف والتحفظ حتى انه عارض بشدة دخول السيدة دي بوجو ابنة الملك ، حين جاءت في شهر كانون الاول من عام ١٤٨١ لتزور نوتردام ، مذكراً الاسقف بنظام الكتاب الاسود الذي يعود تاريخه الى اليوم السابق لعيد القديس برتلمي عام ١٣٣٤ والذي يمنع دخول الدير على كل امرأة « مهما كانت ، عجوزاً ام صبية ، سيدة ام وصيفة » . وقد اصبح الاسقف مجبراً على ان يسرد عليه الأمر الصادر عن سفير البابا اودو الذي يستثني بعض السيدات العظيمات « اللواتي لا يمكن ابعادهن دون اثارة فضيحة [١] » . واحتج الكاهن ايضاً ، معترضاً بأن امر نائب البابا الذي يعود الى عام ١٢٠٧ يسبق الكتاب الاسود بمائة وسبع وعشرين سنة ، وبالنتيجة فقد بطل العمل به . ورفض الظهور امام الاميرة .

ويلاحظ فضلاً عن ذلك ان نفوره من الغجريات والنور الرحّل كان يتضاعف منذ بعض الوقت . وكان قد التمس من الاسقف امراً يعتبر دفاعاً صريحاً عن الغجريات ليأتين ويرقصن ويقرعن الطبول في ساحة الكنيسة ، وبحث منذ ذلك الوقت في محفوظات القاضي المتعفنة ليجمع حوادث السحرة والساحرات المحكوم عليهم بالحريق او بالشنق ، بسبب الاشتراك في الرقى المؤذية مع التيوس والخنزيرات والماعز .

---

١ – عبارة لاتينية في الاصل .

٦

لا شعبية

قلنا ان الخوراسقف وقارع الاجراس كانا مكروهـــين من كبار الناس وصغارهم حول الكاتدرائية . وحين كان كلود وكازيمودو يخرجان معاً ، وهو امر يحدث عدة مرات ، وبشاهدان وهما يجتازان الشوارع الرطبة ، الضيقة ، القاتمة حول نوتردام ، والخادم يتبع سيده ، فان اكثر من كلمة رديئة ، واكثر من دمدمة ساخرة ، واكثر من مزحة مهينة كانت تتحرش بهما وهما يمران ، الا اذا كان كلود فرولو ، وهـــذا لا يحدث الا في النادر ، يسير برأس مستقيم مرتفع ، مظهراً جبهته الصارمة الجليلة للساخرين العاجزين .

لقد كان الاثنان في حيهما « كالشعراء » الذين قال عنهم رنيه .

جميع انواع الناس يسيرون وراء الشعراء ،

كما تسير بعض الطيور وراء البوم .

في بعض الاحيان يكون هناك طفل مراء يخاطر بجلده وعظامه ليتمتع بغرزة دبوس في حدبة كازيمودو . وتارة فتاة جميلة ، نشيطة ، وقحة اكثر من اللازم ، تلامس ثوب الكاهن الاسود وتغني في وجهه الاغنية المازئة: « خداع ، خداع ، لقد علق الشيطان » . واحياناً مجموعة من العجائز واقفات بالصف ومقعيات في الظل على درجات احد المداخل يصخبن متذمرات لدى مرور الكاهن وقارع الاجراس ويقذفنهما بهذا الترحيب المشجع : « هوم ! هوذا واحد صنعت روحه على شكل جسد الآخر ! » او ايضاً عصابة من التلامذة وقاذفي الحصى يلعبون

(الماريل) ، فكانوا ينهضون دفعة واحدة ، ويحيونها تقليدياً ببعض الهتافات باللغة اللاتينية : « هو ! هيه ! كلود مع الاعرج [1] » !

ولكن في اغلب الاحيان كانت الاهانة تمر دون ان يلحظها الكاهن وقارع الاجراس . وكان كازيمودو شديد الصمم وكلود شديد الصرامة لسماع كل هذه الامور اللطيفة .

---

١ – هذه العبارة تعتمد في الفرنسية على الجناس اللفظي :
Claude avec le claudicant .

الكتاب الخامس

١

رئيس سان مارتان

لقد امتدت شهرة كلود الى بعيد . وقد كلفته هذه الشهرة ، يوم رفض رؤية السيدة دي بوجو ، زيارة ظل يحتفظ بذكراها مدة طويلة .

كان ذلك ذات مساء. وقد انسحب بعد الصلاة الى حجرته الكهنوتية في دير نوتردام. ولم تكن هذه الحجرة تقدم شيئاً غريباً او غامضاً باستثناء بعض القوارير الزجاجية المبعدة في احدى الزوايا والمليئة بمسحوق غير معروف يشبه بارود القذائف . وكان يوجد هنا وهناك بعض الكتابات على الجدار ، ولكنها عبارات علمية بحتة او دينية مقتبسة من بعض المؤلفين الصالحين . وجلس الكاهن على ضوء شمعدان نحاسي ذي ثلاثة اشعة امام خزانة كبيرة مثقلة بالمخطوطات . وقد اسند مرفقه الى كتاب هونوريوس دوتان المفتوح ، وكان يتصفح بتفكير عميق نصف طلحية مطبوعة كان قد اتى بها ، وهي الشيء الوحيد من نتاج المطبعة الموجود في حجرته . وبينما كان في منتصف احلامه اذ بالباب يطرق ، فصاح العالم بلهجة لطيفة لكلب جائع جاؤوا يزعجونه عن عظمه: من هناك ؟

فأجاب صوت من الخارج : صديقك جاك كواكتيه .

فقام ليفتح .

وبالفعل فقد كان القادم طبيب الملك ؛ شخص في الخمسين من عمره ذو ملامح

قاسية لم تصلحها سوى نظرة محتالة . وكان يرافقه رجل آخر . وكان الاثنان يرتديان ثوباً طويلاً بلون القرميد المشوي على نار قليلة ، محمولاً ومقفلاً بقلنسوة من نفس القماش واللون . وايديها تختفي تحت اكمامها ، واقدامها تحت ثوبيهما ، وعيونها تحت قلنسوتيهما .

وقال الكاهن وهو يدخلها :

– كان الله في عوني يا سادة ؛ لم اكن انتظر هذه الزيارة المشرفة في ساعة كهذه .

وفيما كان يتكلم بهذه الطريقة اللطيفة كان يجيل بين الطبيب ورفيقه نظرة قلقة فاحصة .

واجاب الدكتور كواكتيه ولهجته الفرنكو - كومتوا تجر كل عباراته مع جلالة ثوب ذي ذيل .

– ليس هناك وقت متأخر للمجيء لزيارة عالم شهير كالدوم كلود فرولو دي تيرشاب .

وحينئذٍ بدأ بين الطبيب والكاهن احد تلك التمهيدات المهنئة التي كانت تسبق في ذلك الوقت ، حسب العادة ، كل محادثة بين العلماء ، والتي لم تكن تمنعهم من التباغض بأعظم محبة في العالم . وهي لا تزال موجودة حتى اليوم ، فكل فمٍ لعالمٍ يمدح عالماً آخر هو وعاء من حقد معسول .

وكان في تهنئات كلود فرولو لجاك كواكتيه طعن بالفوائد الزمنية العديدة التي عرف الطبيب الفاضل ان يستخرجها اثناء مزاولته مهنته المتمناة من كل مرض يصيب الملك. انها عملية كيماوية مؤكدة افضل واكثر من متابعة الحجر الفلسفي.

– بالحقيقة ! يا سيدي الدكتور كواكتيه انني شعرت بسرور عظيم عندما علمت بأسقفية ابن اخيك سيدي المبجل بيار فرسيه . اليس هو اسقف اميان ؟

– نعم ياسيدي الكاهن ؛ انها نعمة ورحمة من الله .

-- اتدري ياسيدي الرئيس انك كنت ذا هيئة عظيمة يوم عيد الميلاد وانت على رأس فرقتك من ديوان المحاسبة ؟

– نائب رئيس يا دوم كلود ، ليس اكثر مع الأسف .

– اين من ذلك بيتك الفخم في شارع سان اندريه ديزارك ؟ انه كاللوفر . ولكني احب شجرة المشمش المحفورة على الباب مع ذلك اللعب المسر بالكلمات : الى ملجأ كوتيه [1] .

– مما يؤسف يامعلم كلود ان هذا البناء كلفني الكثير . وكان الخراب يحل بي بمقدار ارتفاع البيت .

– هو! اليس لك مدخول من لاجول ومن ايجار القصر ومن جميع البيوت؟ ودكاكين اللحامين ، والاروقـــة ، وحوانيت الدير الخشبية ؟ هذا يعني حلب ثدي جميل .

– ان الحصن الذي املكه في بوامي لم يعد عليّ بشيء هذه السنة .

– ولكن رسوم المرور في تريال ، وسان جيمس ، وسان جرمان – ان – لاي ، هي دائماً جيدة .

– ست وعشرون ليرة . ولا باريزي زيادة .

– ولك وظيفتك كمستشار للملك . ان هذا يثبت ذاك .

– نعم يا زميلي كلود ، ولكن امارة بوليني اللعينة التي اثارت ضجـــة لا تساوي ستين ديناراً ذهبياً . سنة جيدة وسنة سيئة .

كان في كلمات المجاملة التي يقولها الدوم كلود لجاك كواكتيه تلك اللهجة الهازئة ، الفظـــة ، الساخرة بشكل خفي ، وتلك الابتسامة الكئيبة الشرسة لرجل عالٍ وتعيس يلعب لحظةً عن ذهول مع نجاحٍ عظيمٍ لرجل عامي . اما الآخر فلم يلاحظ شيئاً .

وقال كلود اخيراً وهو يشد على يده : انا مسرور لرؤيتك بصحة جيدة .

– شكراً يا معلم كلود .

وقال الدوم كلود : بالمناسبة ، كيف صحة مريضك الملكي ؟

فاجاب الطبيب ملقياً نظرة جانبية على رفيقه : انه لا يدفع كثيراً لطبيبه .

---

١ – العبارة بالفرنسية àl'abri - cotier وفيها جناس مع كلمة مشمش اي abricotier

وقال الرفيق : اتجده كذلك ايها الرفيق كوا كيته ؟

هذا الكلام الذي قيل بلهجة المفاجأة واللوم حوّل الى هذا الشخص المجهول انتباه الكاهن الذي لم يتحول عنه لحظة واحدة والحق يقال ، منذ اللحظة التي اجتاز فيها هذا الغريب عتبة الحجرة . وكان يلزمه الالف سبب التي يختزنها لمجاملة الدكتور جاك كوا كتيه الطبيب القوي للملك لويس الحادي عشر وليستقبله مصحوباً بغيره. ولم يكن في هيئته الكثير من المحبة حين قال له جاك كوا كيته :

— بالمناسبة يا دوم كلود ، لقد اتيتك بزميل اراد رؤيتك بسبب شهرتك .

— هل السيد من اهل العلم ؟

القى الكاهن سؤاله هذا مثبتاً على رفيق كوا كتيه عينه النافذة . ولم يجد تحت حاجبي المجهول نظرة اقل نفاذاً واقل حذراً من نظرته .

وبقدر ما كان نور المصباح الضعيف يسمح بالحكم عليه فقد كان هرماً في الستين من عمره ، بقامة متوسطة ، وكان يبدو مريضاً ومحطماً . وكان في وجهه الجانبي شيء من القوة والصرامة مع انه ذو خط بورجوازي جداً ، وكانت حدقته تلمع تحت قوس من الحاجبين عميق جداً كنور في اعماق مغارة ؛ ويشعر المرء بالمخططات العريضة لجبهة عبقري تحت القلنسوة المنخفضة الساقطة على انفه .

واجاب بنفسه على سؤال الكاهن فقال بصوت رزين :

— ايها المعلم المحترم ، لقد انتهت شهرتك الي ، واودت ان استشيرك . انا لست سوى نبيل مسكين من الاقاليم يخلع نعليه قبل الدخول على العلماء ويجب ان تعرف اسمي . اني ادعى تورانجو .

— اسم غريب لرجل نبيل !

هكذا فكر الكاهن . الا انه شعر انه امام امر قوي وجدي . وغريزة ذكائه العظيم جعلته يشعر بذكاء ليس اقل عظمة من ذكائه تحت تلك القلنسوة السميكة ، قلنسوة الرفيق تورانجو ؛ وبتأمله ذلك الوجه الوقور رأى ان فتحة الفم الساخرة التي جعلها وجود جاك كوا كتيه تتفتح على وجهه الشرس قد اختفت شيئاً فشيئاً كالشفق على افق ليلي . كان قد جلس مقطباً صامتاً على مقعده الكبير

واستعاد مرفقه مكانه المعتاد على الطاولة ، وجبهته على يده . وبعد بضع لحظات من التأمل اشار الى الزائرين بالجلوس ، ووجه الكلام الى الرفيق تورانجو .

– هل جئت تستشيرني يامعلم ؟ وفي اي علم ؟

فأجاب تورانجو : ايها المحترم ، انا مريض ، مريض جداً . وقد قيل لي عنك انك طبيب كبير ، فأتيت اسالك نصيحة في الطب .

- في الطب !..

قال الكاهن ذلك هازاً رأسه . وقد بدا انه يجمع افكاره لحظة وقال :

– ايها الرفيق تورانجو ، ما دام هذا هو اسمك ، ادر رأسك وستجد جوابي مكتوباً على الجدار .

فأطاع الرفيق تورانجو وقرأ هذه الكتابة المحفورة على الجدار فوق رأسه :

– « الطب ابن الاحلام » . – جامبليك [1] .

الا ان الدكتور جاك كواكتيه سمع سؤال رفيقه بحزن غاضب ضاعفه جواب كلود ، فانحنى على اذن تورانجو وقال بصوت منخفض حتى لا يسمعه الكاهن :

– لقد انذرتك بأنه مجنون . وشئت ان تراه !

فأجاب تورانجو بنفس اللهجة وبابتسامة مرة :

– من الممكن جداً ان يكون على حق .

فأجاب الدكتور بنشوفة : كما يحلو لك !..

ثم وجه الكلام الى الكاهن :

– انت حاذق في الشغل يا دوم كلود ، ولست ممنوعاً من هيبوقراط كقرد من بندقة . الطب حلم !.. اني اشك بأن يتهالك الصيادلة والاطباء عن رجمك لو كانوا هنا . اذن انت تنكر تأثير الأشربة على الدم ، والمراهم على اللحم ! وتنكر تلك الصيدلية الابدية من الزهور والمعادن والتي تسمى العالم ، والمصنوعة

---

١ – كان جامبليك من المدرسة الافلاطونية الحديثة في القرن الثالث والرابع للمسيح ، وكان يهتم بالتنجيم والسحر .

عن قصد لاجل ذلك المريض الابدي الذي يدعى الانسان .

فقال الدوم كلود ببرود :

– انا لا انكر الصيدلية ولا المريض ، وانما انكر الطب .

فأجاب كواكتيه بحرارة :

– اذن ليس صحيحاً ان داء المفاصل يكون قوباء[1] في الداخل ، وان جرح المدفعية يشفى بدلكه بفارة مشوية ، وان دماً فتياً مصبوباً بشكل ملائم يعيد الشباب الى الشرايين الهرمة ؛ وليس صحيحاً ان اثنين واثنين يساويان اربعة !..

فأجاب الكاهن بدون تأثر :

– هناك بعض امور افكر فيها بطريقة معينة .

فاحمر وجه كواكتيه من الغضب ؛ الا ان الرفيق تورانجو قال :

– مهلاً ، مهلاً ، يا كواكتيه الطيب ، يجب الا نغضب ، فالسيد الكاهن صديقنا .

فهدأت حدة كواكتيه وهو يدمدم بصوت منخفض قائلاً : وبعـــد ، فهو مجنون !..

وقال الرفيق تورانجو بعد صمت :

– لقد اقلقتني جداً يا معلم كلود . لقد كان هناك استشارتان اطلبها منك ، الاولى تتعلق بصحتي ، والثانية بطالعي .

فقال الكاهن :

– ايها السيد . اذا كان هذا هو تفكيرك ، فقد كان من الافضل الا تتجشم عناء صعود درجات السلّم . فأنا لا أؤمن بالطب ولا بالتنجيم .

فقال الرفيق تورانجو بدهشة : احقاً ما تقول ؟

وضحك كواكتيه ضحكة مغتصبة وقال بصوت منخفض لتورانجو :

– ها انت ترى جيداً انه مجنون ، فهو لا يؤمن بالتنجيم !..

وتابع الدوم كلود :

---

١ – مرض جلدي .

– وسيلة التخيل ان كل شعاع كوكب هو خيط يمسك برأس انسان !..
فصرخ الرفيق تورانجو : بماذا تؤمن اذن ؟..
فظل الكاهن متردداً لحظة ، ثم افلت ابتسامة قاتمة بدت انها تناقض جوابه وقال : أؤمن بالله .
– وبنا .
اضاف الرفيق تورانجو راسماً اشارة الصليب .
وقال كواكتيه : آمين .
وقال الرفيق توانجو :
– ايها المعلم المحترم ، لقد فرحت نفسي لرؤيتك على الدين القويم . ولكن ألى هذه الدرجة لا تؤمن بالعلم وانت العالم الكبير ؟..
فقال الكاهن وقد امسك بذراع تورانجو وبريق من الحماسة انار حدقتــــه القاتمة :
– كلا ، انا لا انكر العلم . ولم ازحف على بطني هذا الوقت الطويـــل واظافري تجوس خلال فروع الكهف العديدة دون ان اشاهد امامي بعيداً ، في طرف الرواق المظلم ، نوراً ، لهباً ، شيئاً ما، انعكاس المختبر المركزي الباهر دون شك حيث فاجأ الصابرون والحكماء الله .
فقاطعه تورانجو :
– واخيراً ، اي شيء تحسبه حقيقياً واكيداً ؟
– الكيمياء .
فهتف كواكتيه : صحيح يا دوم كلود ان الكيمياء ما يبررها دون شك ، ولكن لماذا التجديف على الطب والتنجيم ؟
فقال الكاهن بتسلط : باطل علمك عن الانسان ، باطل علمك عن السماء !
فأجاب الطبيب ضاحكاً :
– انها معاملة بلا شفقة لأبيدوروس [1] Epidaurus وبلاد الكلدان .

---

١ – معبد ابيدور على شاطىء بحر ايجه وكان يقصده المرضى من جميع بلاد الاغريق لاستشارة هاتف الآلهة .

– اسمع يا سيد جاك . لقد قيل هذا بحسن نية . انا لست طبيباً للملك ، وجلالته لم يمنحني حديقة ديدالوس لاراقب فيها البروج . – لا تغضب واصغ الي – اية حقيقة استخرجتها ، لا اقول من الطب الذي هو امر كثير الجنون ، بل من التنجيم ؟ اسرد علي فضائل الكتابة العامودية [1] ولقى عـــدد الزيروف Ziruph وعد الزيفيرود Zephirod.

فقال كواكتيه :

– اتنكر قوة الترقوة الانجذابية وان كل ما هو سحري يصدر عنها ؟

– ضلال يا سيد جاك ، ما من نظرية لك تقود الى الحقيقة . بينها للكيمياء اكتشافاتها . اتنكر نتائج كهذه ؟.. – ان الجليد المسجون تحت الارض طوال الف عام يتحول الى بلور حجري. – وان الرصاص هو جد جميع المعادن (لان الذهب ليس معدناً . فالذهب هو النور) . – والرصاص لا يحتاج الا الى اربعة ادوار وكل دور مائتا سنة لينتقل بالتتابع من حالة الرصاص الى حالة الزرنيخ الاحمر ، ومن الزرنيخ الاحمر الى قصدير ، ومن القصدير الى الفضة.– أليست هذه حقائق ؟.. ولكن الاعتقاد بالترقوة وبالخط المتليء وبالنجوم فهو مضحك كالاعتقاد مع سكان كاتي الكبرى (الصين) بأن طائر الصفاري يتحول الى خلد ، وحبوب القمح الى سمكة من نوع الشبوط !.

فصاح كواكتيه : لقد درست العلوم العامة وأؤكد ..

الا ان الكاهن الثائر لم يدعه يكمل ، وقال :

– وانا درست الطب والتنجيم والعلوم العامة . هنا الحقيقة فقط (وكان وهو يتكلم قد اخذ زجاجة من الخزانة ملأى بذلك المسحوق الذي تكلمنا عنه سابقاً) ، هنا النور فقط !.. هيبوقراط ، انه حلم ، اورانيـــا ، انه حلم ، هرمس ، انه فكرة . الذهب ، انه الشمس . ان تصنع ذهباً يعني انك إله . هذا هو العلم الوحيد . لقد سبرت غور الطب والتنجيم ، واقول لك : باطل ،

١ – Boustrophédon : نوع من الكتابة الاغريقية القديمة جداً تسير خطوطها دون انقطاع من الشمال الى اليمين ومن اليمين الى الشمال .

باطل . الجسم الانساني ، ظلمات ؛ الكواكب ، ظلمات !..

وعاد الى الجلوس على مقعده بهيئة قوية ملهمة . وكان الرفيق تورنجو يلاحظه صامتاً. اما كواكتيه فقد بذل جهده ليضحك، وهز كتفيه بدون شعور وردد بصوت منخفض : مجنون !

وقال تورنجو فجأة : والهدف العجيب ، هل بلغته ؟ هل صنعت ذهباً ؟

فأجاب الكاهن وهو يلفظ كلامه بهدوء كرجل يفكر :

– لو صنعته لكان ملك فرنسا يدعى كلود وليس لويس .

فقطب الرفيق حاجبيه . وتابع كلود بابتسامة ازدراء :

– ماذا قلت هنا ؟ ماذا يفيدني عرش فرنسا ما دام ، باستطاعتي اعادة بناء امبراطورية المشرق .

فقال الرفيق : حبذا !

وتمتم كواكتيه : اوه !.. يا للمجنون المسكين !..

وتابع الكاهن مظهراً انه لا يجيب الا على افكاره :

– ولكن كلا ، اني لا ازال أدبّ ، اني اقشر الوجــه والركبتين بحصى الصوت السردابي . اني استشف ، ولا اتأمل ! اني لا اقرأ ، بل اهجىء .

فسأل الرفيق : وحين تعرف القراءة ، اتصنع ذهباً ؟

فقال الكاهن : من يشك بذلك ؟

– في هذه الحالة تعرف نوتردام اني بحاجة ماسة الى المال واريد ان اتعلم القراءة في كتبك . قل لي ايها المعلم المحترم ، هل علمك عدو لنوتردام وغــير مسر لها ؟

فاكتفى كلود بالاجابة على هذا السؤال بتعال مطمئن قائلًا :

– لمن انا كاهن اذن ؟..

– هذا صحيح يا سيدي . حسناً !.. ايرضيك ان تشركني في المعرفة ؟.. دعني اتهجأ معك .

فاتخذ كلود هيئة صموئيل الجليلة الحبرية وقال :

- انت هرم ، والتصدي لهذه الرحلة خلال الأشياء الغامضة يحتاج الى سنوات اطول مما بقي لك . ان رأسك علاه الشيب !.. ولا يمكن الخروج من الكهف الا بشعر ابيض ، ولا يُدخل اليه الا بشعر اسود ، والعلم وحده يعرف ان يحفر ، ويذبل ، ويجفف الوجوه البشرية ؛ وهو ليس بحاجة الى الشيخوخة لتأتيه بوجوه ملأى بالغضون . ومع هذا فاذا تملكتك الرغبة في تتبع النظام وانت بهذا السن ، وان تحل رموز ألفباء الحكماء الرهيبة ، فتعال معي ، لا بأس ، سأجرب . لن اقول لكم ، انتم الشيوخ المساكين ، ان تذهبوا لزيارة غرف القبور في الاهرام التي تكلم عنها هيرودوتوس القديم . ولا برج الآجر في بابل ، ولا المعبد الفسيح من الرخام الابيض لهيكل اكلانغا. انني لم أر اكثر منكم الابنية الكلدانية التي بنيت وفقاً لشكل سيكرا المقدس، ولا هيكل سليمان الذي تهدم ، ولا الابواب الحجرية المحطمة لمدفن ملوك اسرائيل . انما سنكتفي بشذرات من كتاب هرمس الذي نملكه هنا . وسأشرح لك تمثال القديس كريستوف ، رمز البـاذر ، وتمثال الملاكين الموجودين على مدخل سانت شابيل حيث يد احدهما في اناء والأخرى في سحابة ..

هنا ، فان جاك كواكتيه الذي قلبته عن السرج اجوبة الكاهن الثائرة عاد واستوى على سرجه ، وقاطعه بلهجة منتصرة لعالم يقوّم اعوجاج عالم آخر :

- انت مخطىء يا عزيزي كلود . فالرمز ليس العدد . وحسبت اورفوس انه هو هرمس .

فأجاب الكاهن بوقار :

- انت المخطىء . ان ديدالوس هو الاساس ، وارفوس هو الجدار ، وهرمس هو العمارة . انه الكل .

وتابع ملتفتاً نحو تورانجو :

- ستأتي حين تشاء ، وسأريك النتف الذهبية الباقية في قرارة بوتقة نيقولا فلاميل ، وستقارنها بذهب غليوم دي باري . وسأعلمك الخواص السرية الكلمة

الاغريقية Peristera . ولكن قبل كل شيء سأجعلك تقرأ حروف الالفباء الرخامية ، وصفحات الكتاب الغرانيتية ، الواحدة بعد الاخرى . سنسير من بوابة الاسقف غليــوم وسان جان لوروند الى سانت - شابيل ، ثم الى بيت نيقولا فلاميل في شارع ماربغو ، والى قبره في سان اينوسان ، والى مصحَّيه في شارع مونمورانسي . سأجعلك تقرأ الهيروغليفية التي تغطي المساند الحجرية الاربعة على مدخل مستشفى سان جيرفيه وشارع لافيرونيري . وسنهجىء معاً ايضاً واجهات سان كوم وسانت جنفيان ديزاردان ، وسان مارتان ، وسان جاك ديلابوشيري .

منذ وقت طويل لم يفهم كلود بالرغم من نظراته الذكية ، فقاطعه :

- يا لله !.. ما هي كتبك اذن ؟

فقال الكاهن : هذا واحد منها .

وفتح نافذة الحجرة ، واشار باصبعه الى كنيسة نوتردام الواسعة التي كانت تبدو كأبي الهول ضخم ذي رأسين وهو جالس في وسط المدينة ، شاقة السماء الزاهرة بالشبح الاسود لبرجيها ، ولأضلاعها الحجرية ، ومؤخرتها الهائلة .

وتأمل الكاهن البناء الضخم صامتاً لبعض الوقت ، ثم مد يده اليمنى متأوهاً نحو الكتاب المطبوع الذي كان مفتوحاً على المنضدة ويده اليسرى نحو نوتردام ، واجال نظراً كئيباً بين الكتاب والكنيسة ، وقال :

- للأسف ! هذا سيقتل تلك .

وكواكتيه الذي كان قد اقترب من الكتاب بسرعة لم يستطع منع نفسه من الصياح :

- هيه ! ولكن ! ما هو المخيف في هذا : « كلوسان ابيستولاس تأليف د. بولي ، نورمبرغ ، انطونيوس كوبرجر ، ١٤٧٤» . انه ليس بالشيء الجديد. وهو كتاب لبيار لومبارد ، سيد الاحكام . ألأنه مطبوع ؟.

- لقد قلتها .

هكذا اجاب كلود الذي بدا مستغرقاً في تأمله العميق وظل واقفاً مسنداً

سبابته المطوية على كتاب من القطع النصفي الخارج من مطابع نورمبرغ الشهيرة. ثم اضاف هذه الاقوال الغامضة :

– مؤسف ! مؤسف ! الاشياء الصغيرة تأتي على نهاية الكبيرة ؛ سن تنتصر على كتلة . جرذ النيل يقتل التمساح . السيف العريض يقتل الحوت . الكتاب سيقتل العمارة !

ورن جرس المساء في الدير حين كان الدكتور كواكتيه يردد بصوت منخفض لرفيقه لازمته الابدية : انه مجنون . والتي رد عليها رفيقه بقوله هذه المرة :

– اعتقد ان هذا صحيح .

انها الساعة التي لا يستطيع بعدها اي غريب ان يظل في الدير . لذلك انسحب الزائران ، وقال تورانجو مستأذناً بالذهاب :

– ايها المعلم ! اني احب العلماء والعقول الكبيرة، واحفظ لك اعتباراً غريباً فتعال غداً الى قصر تورنيل واسأل عن رئيس كهنة سان مارتان دي تور .

ودخل الكاهن الى حجرته منذهلا ، مدركاً اخيراً اي شخص هو الرفيق تورانجو ، ومتذكراً ذلك المقطع من لائحة الحقوق الزمنية لسان مارتان ديتور « ان رئيس سان مارتان ديتور ، اي ملك فرنسا ، هو كاهن قانوني حسب العادة ؛ وله دخله القانوني الضئيل كدخل سان فينان ويجب ان يجلس على كرسي رئيس الخزينة[١]» .

وباتوا يؤكدون منذ ذلك الوقت ان الكاهن اخذ يجري مقابلات كثيرة مع لويس الحادي عشر ، عندما كان جلالته يأتي الى باريس ، وان حظوة الدوم كلود اخفت اوليفيه لودام وجاك كواكتيه الذي كان ينتقد الملك بشدة ، حسب طريقته .

١ – عبارة باللاتينية . في الاصل .

٢

هذا سيقتل تلك[1]

ستعذرنا قارئاتنا لوقوفنا لحظة باحثين عما يمكن ان تكون الفكرة المخيفة الكامنة تحت هذا الكلام اللغزي الذي قاله الكاهن : هذا سيقتل تلك ، الكتاب سيقتل العمارة .

لهذه الفكرة وجهان في رأينا : اولا انها فكرة كاهن. فهي خوف الكهنوت امام عامل جديد ، المطبعة . وهي رعب وانبهار رجل المعبد امام مطبعة غوتنبرغ الساطعة . انها المنبر والمخطوطة ، الكلام المحكي والكلام المكتوب ؛ المتخوفون من الكلام المطبوع ؛ انها شيء مما يشبه ذهول عصفور من الجوارح حين يرى الملاك لجيون Légion وهو يفتح الملايين الستة من اجنحته . انها صرخة النبي الذي يسمع الانسانية المتحررة تدوي وتتكاثر ، ويرى الذكاء يقوض الايمان في المستقبل ، والرأي يزيل اليقين عن عرشه . والعالم يهز روما . وهو حدس فيلسوف يرى التفكير البشري ، وقد حولته الطباعة ، يتبخر من الوعاء الالهي . ورعب الجندي الذي يتفحص الكبش النحاسي ويقول : البرج سينهار . وهذا يعني ان سلطة ستحل محل اخرى . ويعني : ان المطبعة ستقتل الكنيسة .

ولكن تحت هذه الفكرة التي هي الاولى والاكثر بساطة دون شك يوجد،

١ – هذا النص كله لا يتفق مع العلوم التاريخية الحديثة .

بنظرنا ، فكرة اخرى اكثر جدة ، وتابعة للاولى ، واقل سهولة للمشاهدة ؛ واكثر سهولة للمجادلة ، ونظرة فلسفية ليست من الكاهن فقط بل من العالم والفنان . انها التوقع بأن يغير الفكر الانساني طريقة التعبير عند تغيير شكله، وان الفكرة الرئيسية لكل جيل لن تكتب بنفس المادة ونفس الطريقة ، وان الكتاب الحجري ؛ المتين الباقي سيوسع مكاناً للكتاب الورقي الاكثر متانة والاكثر ديمومة . وتحت هذه العلاقة فان لصيغة الكاهن المبهمة معنى ثانياً : فهي تعني ان فناً سيزيل فناً آخر . كانت تريد ان تقول : المطبعة ستقتل فن البناء .

وبالفعل ، فمنذ اصل الاشياء حتى القرن الخامس عشر من التاريخ المسيحي كان فن البناء هو كتاب الانسانية الاكبر ، وهو التعبير الرئيسي للانسان في مختلف حالات نموه سواء اكان قوة ام ذكاء .

وحين شعرت ذاكرة الاعراق الاولى انها مثقلة ، وحين اصبحت امتعة ذكريات الجنس البشري ثقيلة ومشوشة بحيث ان الكلام العاري المجنح خشي ان يضيعها على الطريق ، فانها سجلت على التراب بشكل اكثر ظهوراً واكثر ديمومة وطبيعية معاً . لقد ُختم كل تقليد تحت بناء تذكاري .

وكانت الابنية التذكارية الاولى احياء بسيطة من الصخر « لم يلمسها الحديد » كما قال موسى . وبدأ فن العمارة ككل كتابة . كان اولا ألفباء . وغُرس حجر واقفاً ، وكان هذا حرفاً ، وكل حرف كان خطاً غامضاً ، وعلى كل خط غامض ترتاح جماعة من الافكار كالتاج على العمود . هكذا كانت الاعراق الاولى في كل مكان ، وفي نفس اللحظة ، على سطح العالم بكامله. ووجد « حجر السليتين المرفوع » في سيبريا ، في آسيا ، وفي سهوب اميركا .

وصنعت الكلمات فيما بعد . ونضد الحجر فوق الحجر ، وقرنت تلك المقاطع الغرانيتية ، وجرب الصوت بعض التركيبات . فالمنضدة الحجرية[1] ، والدائرة

---

١ - المنضدة الحجرية dolmen : عبارة عن حجر كبير مسطح مرفوع افقياً على حجارة اخرى عامودية .

الحجرية[1] السلتيتان ، والكومة المخروطية[2] الاتروسكية ، والسرداب[3] العبري ، هي كلمات . وبعض منها ؛ كالكومة المخروطية على الخصوص ، هي اسماء علم . وفي بعض الاحيان تكتب جملة حين يكون لدينا كثير من الحجارة وشاطىء فسيح . وركام الكرنك الواسع هو صيغة كاملة .

واخيراً صنعت الكتب . وكانت التقاليد قد وضعت الرموز واصبحت تختفي تحتها كجذع الشجرة تحت اوراقها؛ وكل هذه الرموز التي كانت الانسانية تؤمن بها اخذت تنمو ، وتتضاعف ، وتتشابك ، وتتعقد اكثر فاكثر . والابنية التذكارية الاولى لم تكن تكفي لاحتوائها ؛ فقد طفحت بها من جميع النواحي ؛ وهذه الآثار التذكارية لا تكاد توضح التقليد البدائي، البسيط مثلها ، العاري المضطجع على التراب . كان الرمز بحاجة الى التفتح في عمارة . وحينئذ نما فن البناء مع التفكير الانساني ، واصبح عملاقاً ذا الف رأس والف ذراع ، وأقر تحت شكل ابدي منظور وملموس كل هذه الرمزية الطافية. بينما ديدال الذي هو القوة كان يقيس ، واورفه التي هي الذكاء كانت تغني ، والعمود الذي هو حرف، والقنطرة التي هي مقطع ، والهرم الذي هو كلمة ، كلها تحركت معاً بقانون هندسي وقانون شعري ، وتجمعت ، وتركبت ، واختلطت ، وهبطت ، وصعدت ، ووضعت بجانب بعضها البعض على التراب ، ونضدت في السماء الى ان كتبت ، باملاء فكرة العصر العامة ، هذه الكتب الرائعة التي كانت ايضاً عمارات رائعة : باغودا اكلنغا ، ورامسيون Rhamseïon مصر ، وهيكل سليمان .

---

١ — الدائرة الحجرية Cromlech حجارة واقفة بشكل دائرة حول حجر كبير احياناً .

٢ — الكومة المخروطية Tumulus : كومة ترابية مخروطية الشكل كان القدماء يرفعونها فوق المدفن .

٣ — السرداب Galgal : ركام من تراب وحصى فوق سرداب لدفن الموتى .

ونسبة هذه الانواع المختلفة من الكلمات الى حضارات خاصة هي اليوم بدون قيمة تاريخية .

والفكرة الام ، الكلمة ، لم تكن فقط في اعماق كل هذه العمارات ، بل في الشكل ايضاً . فهيكل سليمان مثلاً لم يكن تجليداً لكتاب مقدس ، بل كان هو الكتاب المقدس نفسه . وعلى كل من اسواره ذات المركز المشترك كان بامكان الكهنة قراءة الكلمة المترجمة الظاهرة للعيون، ومتابعة تغييراتها من معبد الى معبد الى ان يمسكوها فيمظلتها الاخيرة تحت الشكل الاكثر حسيّة والذي كان لا يزال من فن العمارة : القوس . وهكذا كانت الكلمة مسجونة في العمارة ولكن صورتها كانت على غلافها كالصورة البشرية على ناووس مومياء .

وليس فقط شكل العمارات بل ايضاً الموضع الذي يختارونه ليكشف عن الفكرة التي يمثلونها . ووفقاً لما يكون عليه الرمز الواجب ايضاحه لطيفاً او قاتماً كانت اليونان تتوج جبالها بمعبد يبدو متناسقاً للعين ، والهند تشق جبالها لتنقش فيها تلك الباغودات الشنيعة السردابيـة التي تحملها صفوف ضخمة من الفيلة الغرانيتية .

وهكذا ، طوال الستة آلاف سنة الاولى من العالم ، منذ الباغودا الاكثر قدماً في هندستان حتى كاتدرائية كولونيا ، فان فن البناء كان هو الكتابة الكبرى للجنس البشري . وهذا حقيقي بنوع انه ليس كل رمز دين فقط بل كل فكر بشري له صفحته في هذا الكتاب الضخم واثره التذكاري .

ان كل مدنية تبدأ بالتيوقراطية وتنتهي بالديموقراطية. وقانون الحرية الذي يلي الوحدة مكتوب في فن البناء . لانه لايجب الاعتقاد ، ولنشدد على هذه النقطة، ان البنـاء لايكون قوياً الا اذا كان في بناء الهيكل ، وفي ايضاح الاسطورة والرمزية الكهنوتية ، وفي تدوين لوحات القانون الغامضة بالهيروغليفية على تنك الصفحات الحجرية . ولو كان الامر كذلك ، كما تأتي في كل مجتمع بشري لحظة يبلى فيها الرمز المقدس وينطمس تحت الفكر الحر، وحيث الانسان يتخلص من الكاهن ، وحيث نمو الفلسفات والقواعد ينخر وجه الدين ، فان فن البنـاء لايستطيع احداث هذه الحالة الجديدة للروح البشرية ، وصحائفه المكتوب على وجهها تصبح فارغة على قفاها ، ويصبح عمله مقطوعاً وكتابه ناقصاً. ولكن كلا .

لنأخذ القرون الوسطى كمثل ، حيث نرى بشكل اكثر وضوحاً لانها اكثر قرباً منا. فطوال دورها الاول، بينما كانت التيوقراطية تنظم اوروبا، والفاتيكان يجمع حوله ويعيد ترتيب عنـــاصر روما المنوعة مع روما النائمة منهارةً حول الكابيتول، والمسيحية تذهب باحثة في انقاض المدينةالقديمة عن جميعطبقات المجتمع وبهذه الخرائب تعيد بناء عالم جديد قائم على نظام الرتب يكون فيه الكهنوت مفتـاح العقد ، فقد سمُع اولاً من هذا الخليط ، ثم روئي شيئاً فشيئاً تحت نسمة المسيحية وتحت يد البرابرة، نشوء ذلك الفن المعماري الروماني الغامض من ركام الابنية الميتة الاغريقية والرومانية، وهو شقيق البناء التيوقراطي في مصر والهند، ورمز الكاثوليكية الصافية الذي لايتغير ، وهيروغليف ثابت للوحدة البـابوية . وبالفعل فان فكر ذلك الزمن كله مكتوب في ذلك النسق الروماني القـائم . ويحس في كل مكان فيه بالسلطة، والوحدة، والمغلق، والمستبد، غريغوار السابع؛ الكاهن في كل مكان اما الانسان فلا وجود له؛ والطبقة في كل مكان وليس الشعب. ولكن الحروب الصليبية جاءت. انها حركةشعبية كبيرة، وكل حركة شعبية كبيرة، مهما كان سببها وهدفها. تعتق دائماً روح الحرية من سرعتها الاخيرة. وهناك اشياء جديدة رأت النور. فها هو دور الجاكية[1] والبراغية[2] والعصبات قد انفتح. والسلطة ترتج، والوحدة تتفرق. والاقطاعية تطلب القسمة مع التيوقراطية، بانتظار الشعب الآتي لامحالة، والذي سينال حصة الاسد[3] كما هو الامر دائماً. ولأنني ادعى اسداً، والسيادة

---

١ – الجاكية Jacquerie : اسم يطلق عـــلى انتفاضة الفلاحين في ايل دي فرانس ، ويسمون جاكيين ، ضد النبلاء في ٢٨ ايار ١٣٥٨ . واصبح يطلق على كل انتفاضة شعبية تلعب فيها الاحكام الاستبدادية الدور الرئيسي .

٢ – البراغية Praguerie : انتفاضة اندلعت في فرنسا عـــام ١٤٢٠ ضد اصلاحات شارل السابع . ودعيت كذلك لمشابهتها بالانتفاضة التي قام بهـــا الهوسيون – اتباع جان هوس – في براغ .

٣ – اشارة الى مقطع في اسطورة فيدر حيث يخص الاسد بالحصة الكبرى من القسمة بسبب سلطته المطلقة . – المعرب –

تحفـر تحت الكهنوت كالوحدة الادارية تحت السيادة . ان وجـه اوروبا قد تغير . لابأس . ووجه فن البنـاء قد تغير ايضاً . فقد قلب الصفحة كالمدينة . والروح الجديدة للأزمنة وجدتـه مستعداً ليكتب ماتملي عليه . وقد عـاد من الحروب الصليبية بالقوس المحرابي Ogive ، كما عادت الشعوب بالحرية . وحينئذ ، بينما كانت اوصال روما تتقطع شيئـاً فشيئاً ، كان فن البنـاء الروماني يموت . والهيروغليف ترك الكاتدرائيـة وذهب يصور البرج ليجعـل للاقطاعية حظوة . والكاتدرائية نفسها، تلك العمارة العقيدية في السابق ، قد اجتاحتها البورجوازية، والكومونه ، والحرية ، وافلتت من الكاهن لتقع تحت سلطة الفنان . وقـد بناها الفنان على هواه . وداعاً ايها السر ، ايتها الاسطورة ، ايها القانون . هـذا هو الخيـال والهوى . ليس هناك ما يقـال شرط ان يكون للكاهن كنيسته ومذبحـه . اما الجدران الاربعـة فهي للفنان ، والكتاب المعماري لا يخص الكهنوت ، والدين ، وروما ، انه للمخيلة ، للشعر ، للشعب . ومن هنا كانت التغييرات السريعـة التي لا تحصى لذلك الفن المعماري الذي لم يمض عليـه سوى ثلاثة قرون ، والمدهشة جداً بعد الجمود الراقد لفن البنـــاء اللاتيني الذي مضى عليه ستة او سبعة قرون . ومـع ذلك فالفن يسير بخطى عمـلاق . والعبقرية والاصالة الشعبيتان تقومان بالعمل الذي كان يقوم به الاساقفة . ان كل عرق يكتب سطره من الكتاب اثناء مروره ، فيشطب الهيروغليفات اللاتينية القديمة عن مقدمة الكاتدرائيات ، هذا اذا كانت العقيدة لا تزال تحفر هنـا وهناك تحت الرمز الجديد الذي وضعته لها . ان زينة الرفارف الشعبية لا تكاد تبرز العظام الدينية . ولا يمكن تكوين فكرة عما يبيح البناؤن لانفسهم عمله حتى حيال الكنيسة . انها تيجان اعمدة مطرزة بالرهبان والراهبات المتقارنين بشكل معيب ، كما هو الامر في قاعة المداخن في قصر العدل في باريس. وهي مغامرة نوح منحوتة « بالاحرف » كما هو الامر تحت بوابة بورج الكبرى . وهو راهب باخومي بأذني حمار والكأس في يده، يضحك في وجه جماعة كاملة من الرهبان، كما هو الامر على مغسل دير بوشرفيل . وكان للفكرة المكتوبة بالحجر في ذلك

الوقت امتياز شبيه بحريتنا الحالية في الطباعة . انها حرية البناء .

وهذه الحرية تسير بعيداً . فأحياناً بوابة ، واجهة بناء ، كنيسة بكاملها تقدم معنى رمزياً غريباً تماماً عن العبادة ، او حتى معادياً للكنيسة . وغليوم دي باري من القرن الثالث عشر ، ونيقولا فلاميل من القرن الخامس عشر كتبا من هذه الصفحات المتمردة . وكنيسة سان جاك ديلاتوشري كانت كنيسة معارضة .

ولم يكن التفكير آنذاك حراً الا بهذه الطريقة ، ولم يكن يكتب بكامله الا في تلك الكتب التي كانت تدعى عمارات . ولولا شكل العمارة هذا لرأيناها تحرق في الساحة العامة بيد الجلاد تحت شكل مخطوطة اذا كانت قليلة الحذر لتقدم على هذه المغامرة . ولكان الفكر المتجسد في بوابة كنيسة يحضر عقاب الفكر المتجسد في كتاب . ولما لم يكن للبناء سوى هذه الطريقة ليرى النور ، فقد تهافت عليها من جميع النواحي . ومن هنا كان عدد الكاتدرائيات الكبير الذي غطى اوروبا ، وهو عدد مدهش لا يكاد يصدق حتى بعد التحقق من صحته . فقد كانت جميع القوى المادية وجميع القوى الفكرية في المجتمع تتوجه الى نفس النقطة : فن العمارة . وبهذه الطريقة ، وبحجة بناء كنائس للرب ، كان الفن ينمو بنسب عظيمة .

وحينئذٍ ، فكل من ولد شاعراً اصبح بناء . والعبقرية المبعثرة في عامة الناس ، والتي كانت محاصرة في عهد الاقطاع من جميع النواحي كأنها تحت سلحفاة من الدروع النحاسية لا تجد مخرجاً الا من ناحية فن العمارة ، قد تفتحت بواسطة هذا الفن واخذت إلياذاتها شكل كاتدرائية . وكانت جميع الفنون الاخرى تطيع فن البناء وتنتظم تحته . انها عمال العمل العظيم . والمهندس المعماري ، والشاعر ، والمعلم كان يكمل بشخصه النحت الذي نقش له واجهاته والرسم الذي لوّن زجاجه ، والموسيقى التي جعلت جرسه يرن وينفخ في ارغنه . لم يكن هناك حتى الشعر الفقير البحت ، ذلك الذي كان يلح على ان ينبت في المخطوطات ، والذي لم يكن مضطراً ليكون شيئاً ذا قيمة ان يوضع ضمن

اطار في العمارة تحت شكل نشيد او « نثر » ؛ وبعـــد ، نفس الدور الذي كانت تلعبه تراجيديات اشيل في اعياد اليونان الكهنوتية ، وسفر التكوين في هيكل سليمان .

وهكذا ظل فن البناء ، حتى غوتنبرغ ، هو الكتابة الرئيسية ، الكتابة العالمية . وهذا الكتاب الغرانيتي الذي بـدأ في الشرق ، واستمر بواسطة العصور الاغريقية والرومانية، فان القرون الوسطى كتبت فيه الصفحة الاخيرة. وبعد ، فهذه الظاهرة لفن بناء شعبي تلا فن بناء طبقي لاحظناه في القرون الوسطى ، تظهر ثانية مع كل حركة مشابهة في الذكاء البشري في عصور التاريخ الكبرى الاخرى . وهكذا، ولكي لا نتكلم هنا الا باختصار عن قانون يطلب ان ينمو في مجلدات ، في الشرق الاعلى مهد العصور البدائية ، بعـد فن البناء الهندومي يأتي فن البناء الفينيقي وهو الام الثرية لفن البناء العربي ؛ وفي العصور القديمة، بعد فن البناء المصري حيث النسق الاتروسكي والآثار التذكارية العملاقة ليست سوى متنوعات ، يأتي فن البنـاء الاغريقي حيث النسق الرومـاني ليس سوى امتداد مثقل بالقبة القرطاجية ، وفي الازمنـة الحديثة ، فان فن البنـاء القوطي يأتي بعد فن البناء اللاتيني. وبتجزئة هذه الفئات الثلاث نجد نفس الرمز على الاخوات البكر الثلاث ، فن البناء الهندوسي ، وفن البناء المصري ، وفن البناء اللاتيني : اي الثيوقراطية ، والطبقة ، والوحدة ، والعقيدة ، والاسطورة والله ؛ وللاخوات الثلاث الثانيات ، فن البناء الفينيقي ، وفن البناء الاغريقي ، وفن البناء القوطي مهما كان تنوع الشكل الملازم لطبيعتها ، نفس المدلول ايضاً: اي الحرية ، والشعب ، والانسان .

وسواء أسمّي براهما او رئيساً او باباً فيالبنايات الهندوسية والمصرية واللاتينية فاننا نشتم منه دائماً رائحة الكاهن ، وليس غير الكاهن . والامر ليس كذلك في العمارات الشعبية . فهي اكثر غنى واقل قداسة . وفي البنيان الفينيقي يشتم رائحة التاجر ، وفي البنيان الاغريقي يشتم رائحة الجمهوري ؛ وفي البنيان القوطي يشتم رائحة البرجوازي .

والسمات العامة لكل فن بناء تيوقراطي هي عـدم التقلب ، والخوف من التقدم ، والمحافظة على الخطوط التقليدية ، وتكريس النماذج البدائية ، والاعتياد الثابت لجميع اشكال الانسان والطبيعة على اهواء الرمز غير المفهومة. انها كتب ظلامية والعلماء وحدهم يعرفون حل طلاسمها . وبعـد ، فكل شكل ، وكل شناعة لها معنى يجعلها لا تمس. لا تطلبوا من البنيان الهندوسي والمصري واللاتيني ان يصلح رسمه او يحسن فن نحته . ان كل اتقان بنظره يعد كفراً . وفي فنون البناء هـذه يبدو ان تصلب العقيـدة منتشر على الحجر كتحجر ثانٍ . والسمات العامة للبنيان الشعبي ، على العكس ، هي التنوع والتقدم والاصالة ، واليسر ، والحركة الدائمة. لقد انفصلت كفاية عن الدين لتفكر بجمالها وتعتني به ، ولتصلح دون انقطاع زينتها بالتماثيل والاوراق المشجرة (الارابيسك) انها من العصر . وفيها شيء انساني تمزجه دائماً بالرمز الالهي الذي لا تزال تظهر تحته . ومن هنـا كانت عمارات تنفذ اليهـا كل نفس ، وكل ذكاء ، وكل مخيـلة ، وهي رمزية ايضاً ، الا انها سهلة الفهم كالطبيعة . والفرق بـين فن البناء التيوقراطي وهـذا كالفرق بين لغـة مقدسة ولغة عاميـة ، بـين الهيروغليف والفن ، بـين سليمان وفيدياس .

ولو اختصرنا ما ذكرناه حتى الآن مهملين الف برهان والف اعتراض في التفاصيل ، فاننا نصل الى ما يلي : كان فن البناء حتى القرن الخامس عشر هو السجل الرئيسي للانسانية ، وانه لم يظهر في هذه الفترة فكرة معقدة قليـلاً في العالم الا وصنعت عمارة ، وان كل فكرة شعبية ككل قانون ديني لها ابنيتهـا التذكارية ؛ وان الجنس البشري اخـيراً لم يفكر بشيء ذي اهمية الا وكتبه حجراً . ولماذا ؟.. ذلك لأن كل فكر ، سواء اكان دينيـاً او فلسفياً ، يهتم بان يخلد ، وذلك لأن الفكرة التي حركت جيلاً تريد ان تحرك اجيالاً اخرى وتترك اثراً . اي خلود وقتي هو خلود المخطوطة !.. وان عمارة هي كتاب متين وباق ومقاوم !.. ولإتلاف الكلام المكتوب يكفي ممحاة وتركي . ولهدم الكلام المبني يلزم ثورة اجتماعية ، ثورة ارضية . لقد مر البرابرة على الكوليزيه،

والطوفان تقريباً على الاهرام .

في القرن الخامس عشر تغير كل شيء .

والفكر البشري يكشف وسيلة للخلود ليست فقط اكثر بقاء واكثر مقاومة من فن البناء ، بل ايضاً اكثر بساطة واكثر سهولة . ان فن البناء سقط عن عرشه . وحروف حجر اورفه تلتها حروف غوتنبرغ الرصاصية .

الكتاب سيقتل العمارة .

ان اختراع المطبعة هو اكبر حادث في التاريخ . انه الثورة الام . انه وسيلة تعبير الانسانية التي تتجدد كلياً ، انه الفكر الانساني الذي نضا عنه شكلاً وارتدى شكلا آخر ، انه التغيير الكامل والنهائي لجلد الافعي الرمزية التي تمثل الذكاء منذ آدم .

والفكر تحت شكل المطبعة اصبح اكثر خلوداً ، فهو طائر لا يمكن امساكه ، لا يمكن تخريبه . انه يمتزج بالهواء . في زمن فن البناء اصبح جبلاً ، وتقلب بقوة على عصر وعلى مكان . والآن يصبح سرب طيور مشتتاً في الرياح الاربع ويحتل معاً جميع نقاط الهواء والفضاء .

ونكرر ، ايكون اكثر خلوداً من لا يرى الا بهذه الطريقة . ومن الجماد الذي كانه الفكر ، اصبح رشيقاً . وهو ينتقل من الديمومة الى الخلود . بالامكان تقويض كتلة ، فكيف نستأصل الوجود من كل مكان ؟ يأتي طوفان ، والجبل يغيب منذ وقت طويل تحت الامواج حيث الطيور لا تزال تطير ! وان سفينة واحدة تعوم على وجه الطوفان ، فتحط الطيور عليها ، وتعوم معها ، وتشاهد معها هبوط المياه ، والعالم الجديد الذي سيخرج من هذا الخواء سيرى عند استيقاظه فكر العالم الذي ابتلعته المياه يحوم فوقه مجنحاً ، حياً .

وحين نلاحظ ان طريقة التعبير هذه ليست فقط هي الاكثر محافظة بل الاكثر سهولة ، والاكثر استعمالاً للجميع حين نفكر بانها لا تجر وراءها كثيراً من المتاع ولا تحرك عتاداً ثقيلاً ، وحين نقارن الفكر المجبر على ان يعبر عن نفسه بعمارة بان يحرك اربعة او خمسة فنون اخرى واطناناً من الذهب ،

وجبلًا بكامله من الحجر ، وغابة من الصقالات ، وشعباً بكامله من العمال ، حين نقارنه بالفكر الذي يصبح كتاباً ، والذي يكفيه قليل من الورق ، وقليل من الحبر وقلم ، كيف ندهش لأن الذكاء البشري ترك فن البنـاء الى المطبعـة ؟.. اقطع فجأة المجرى الاولي لنهر ، لقنـــاة محفورة تحت مستواه ، فان النهر يترك مجراه .

ثم انظر كيف ان فن البناء ابتداء من اكتشاف المطبعة قـــد جف شيئاً فشيئاً ، وهزل ، وتجرد . كما نشعر بان الماء ينخفض ، وان النسغ يذهب ، وان فكر الازمنة والشعوب قد انسحب منه !.. كان الفتور محسوساً تقريباً في القرن الخامس عشر ، والطباعة لا تزال ضعيفة تسرق من فن البنـــاء القوي غزارة الحياة . ولكن منذ القرن السادس عشر اصبح مرض فن البنـاء ظاهراً للعيان ؛ لم يعد يعبر بشكل اسامي عن المجتمع ؛ واصبح فناً كلاسيكياً بشكل بائس ؛ ومن الغالي – نسبة الى بلاد غالية – والاوروبي ، والبلدي يصبح يونانياً ورومانياً ، قديماً وعصرياً ، صحيحاً وكاذباً . ان هذا الانحطاط هو الذي يدعى نهضة . ومع ذلك فهو انحطاط بديع لان العبقرية القوطية القديمة ، تلك الشمس التي تغيب وراء مطبعة مايانس الضخمة لا تزال لبعض الوقت تخترق بأشعتهـــا الاخيرة كل هذا الركام الخلاسي من القناطر اللاتينية والاعمدة الكورنثية .

ان هذه الشمس الغاربة هي التي حسبناها فجراً .

ومع ذلك فحين لم يعد فن البناء الا كأي فن آخر ، ومنذ ما لم يعـد هو الفن الكلي ، الفن الحاكم ، الفن المستبد ، لم تعـــد له القوة على الاحتفاظ بالفنون الاخرى . اذن فقد تحررت ، وكسرت قيد فن البنـاء . وسار كل منها في سبيله . وكل منها كان رابحاً في هذا الطلاق . والانفراد جعل كل شيء يكبر . فالنحت اصبح صناعة تماثيـل ، وصناعـة الصور وتجارتهـا اصبحت فن الرسم ، والمدفع اصبح موسيقى . فكأنهـا امبراطورية تمزقت على أثر موت اسكندرها ، والمقاطعات اصبحت ممالك .

ومن هنا كان رافاييل وميكلانج وجان غوجون وبالسترنيا ، تلك اللمع من القرن السادس عشر الباهر .

وفي الوقت الذي تحررت فيه الفنون فان الفكر انعتق من جميع النواحي . واحدث هراطقة القرون الوسطى جراحاً كبيرة في الكثلكة . والقرن السادس عشر حطم الوحدة الدينية. والاصلاح قبل المطبعة لم يكن سوى انشقاق، والمطبعة جعلته ثورة . احذف المطبعة تضعف الهرطقة. وغوتنبرغ سواء اكان مشؤوماً او مبعوث العناية الآلهية فهو الممهد للوثر .

ومع ذلك فحين غابت شمس القرون الوسطى تماماً ، وحين انطفأت العبقرية القوطية الى الابد في افق الفن، اخذ فن البناء يعتم ويكمد، ويتلاشى اكثر فأكثر. والكتاب المطبوع، ذلك الدودة الناخرة في العمارة، يمتصها، ويلتهمها، انها تتجرد، وتتساقط اوراقهـا ، وتهزل لدى النظر . انها مسكينة ، فقيرة ، انها لاشيء . لاتشرح شيئاً ، حتى ولا ذكر فن زمن آخر . مقتصرة على نفسهـا ، مهملة من الفنون الأخرى لان الفكر البشري تخلى عنها ، وهي تدعو عمالاً غير مـــاهرين عدم وجود فنانين. وحـــل الزجاج محل زجاج الكنيسة المقطع ، وحل مقصب الحجارة محل النحات. وذهب كل نسغ، كل اصالة، كل حياة، كل ذكاء. واخذت تزحف ، كمتوسلة مشغـل محزنة ، من نسخة الى نسخة . وميكلانج الذي شعر بموتها منذ القرن السادس عشر، كوّن عنها فكرة اخيرة، فكرة يأس . وعملاق الفن هـذا ، كدس البانثيون على البانثيون ، وصنع كنيسة القديس بطرس في روما. وهذا عمل عظيم يستحق ان يظل وحيداً، انه آخر إصالة لفن البناء وتوقيـع فنان عملاق في اسفل سجل ضخم من الحجر قد أُطبق . لقد مات ميكلانج ، فماذا يفعل فن البناء البائس الذي عدم عقله وبقي في حالة الشبح والظل ؟ يأخذ كنيسة القديس بطرس في روما ، والتشبه المفرط ، والتحريف. انه هوس . انها شفقة. فلكل عصر كنيسته البطرسية في روما ؛ في القرن السابع عشر كنيسة فال دي غراس وفي القرن الثامن عشر كنيسة القديسة جنفياف . ولكل بلاد كنيستها

البطرسية في روما . فلندن لها كنيستها ، ولبطرسبرج كنيستها ، ولباريس اثنتان او ثلاث . وصية لا معنى لها ، وآخر هذيان لفنٍ عظيم فانٍ عاد الى الطفولة قبل موته .

لو فحصنا المظهر العام للفن من القرن السادس عشر حتى الثامن عشر بدلاً من هذه الابنية الاثرية ذات الطابع الخاص كتلك التي تكلمنا عنها، فاننا نلاحظ نفس ظاهرات النقص والهزال . ان الشكل البنائي للعمارة اخذ يتلاشى اكثر فاكثر منذ عهد فرنسوا الثاني ويفسح مجالاً لتدفق الشكل الهندسي ، كالهيكل العظمي لمريض ناحل. وخطوط الفن الجميلة تركت مكاناً لخطوط المهندس الباردة المتصلبة. فالعمارة ليست عمارة، انها شكل متعدد الوجوه . ومع ذلك ففن البناء يضطرب ليخفي هذا العري. هذاهو المثلث الاغريقي في اعلى مقدم البناء يتسجل في المثلث الروماني وبالعكس . انه دائماً البانتيون في البارتينون ، كنيسة القديس بطرس في روما . وهذه هي بيوت هنري الرابع القرميدية ذات الزوايا الحجرية ؛ الساحة الملكية ، ساحة دوفين ، وهذه هي كنائس لويس الثالث عشر ، ثقيلة، مكتلة ، منخفضة ، ملمومة ، مثقلة بقبة كأنها الحدبة . وهذا هو فن البناء الهازاراني ، الباستيكشيو الايطالي السيء في الكاتوناسيون . وهذا قصر لويس الرابع عشر ، ثكنات طويلة ، للحاشية الملكية ، متصلبة ، متجمدة ، مزعجة . واخيراً هذا لويس الخامس عشر مع الهندبائيات والشعيريات وجميع التآليل التي تشوه ذلك الفن المعماري القديم المتداعي ، الاثوم ؛ المتبرج . ومن فرانسوا الثاني الى لويس الخامس عشر زاد السوء بتصاعد هندسي . ولم يبق للفن على عظامه سوى الجلد . انه يحتضر بشكل بائس .

ومع ذلك ماذا صار بالمطبعة ؟ ان كل تلك الحياة التي تركت فن العمارة اتت اليها . وبقدر انحطاط فن العمارة كانت المطبعة تتعاظم وتكبر . وهذا الرأسمال من القوة الذي انفقه الفكر البشري في الابنية صار ينفقه من الآن فصاعداً في الكتب . ومنذ القرن السادس عشر فان المطبعة التي كبرت عن

مستوى فن البناء الآخذ في النقص بعد ان تصارعه وتقتله . وفي القرن السابع عشر كانت قد بلغت مداهـــا من السيطرة والانتصار والاستقرار في انتصارها لتعطي العالم عيد عصر ادبي كبير . وفي القرن الثامن عشر ، وقد ارتاحت وقتاً طويلاً في بلاط لويس الرابـــع عشر ، كانت تقاوم سيف لوثر القديم ، وتسلح فولتير ، وتركض صاخبة لمهاجمة اوروبا القديمة التي كانت قد قتلت التعبير المعماري وفي اللحظة التي انتهى فيها القرن الثامن عشر ، كانت قد أتلفت كل شيء . اما في القرن التاسع عشر فستعيد البناء .

الا اننا نتساءل الآن أي الفنَين يمثل الفكر الانساني حقيقة منذ ثلاثة قرون؟ وايهما يعبر عنه ؟ وايهما بوضح ، ليس فقط ميوله الادبية والمدرسية ، بل حركته الواسعة، العميقة ، العالمية ؟ وايهما يتنضدد باستمرار ، دون قطع ودون ثغرة ، مع الجنس البشري الذي يسير ، كالمسخ ذي الالف رجل ؟ هل هو فن البناء ام المطبعة ؟..

انها المطبعة ، ويجب الا نخطيء . ففن البناء مـــات دون رجعة ، لقد قتله الكتاب المطبوع، وهو مقتول لأنه اقل ديمومة، ومقتول لأن اكلافه اكثر من اكلاف الكتاب بكثير . فكل كاتدرائية هي مليار. ولنتخيل الآن اي رأسمال يلزم لإعادة كتابة الكتاب المعماري ؟ ولحشد آلاف من العمارات على الارض من جديد ؛ والعودة الى تلك العصور حيث مجموعة الابنية التذكارية كانت كما قال احد الشهود العيان ! «يخيل ان العالم باهتزازه قد خلـــع ملابسه القديمة ليرتدي لباساً كنائسياً ابيض » .

والكتاب يصنع بسرعة، ويكلف قليلاً ، وباستطاعته السير بعيداً ! فكيف ندهش لان الفكر البشري كله يجري في هذا المنحدر ؟ الا ان هـذا لايعني انه لم يعد لفن العمارة هنا وهناك بناية تذكارية جميلة، وطرفة منعزلة. وبالمستطاع الحصول بين وقت آخر، فيعهد المطبعة،على عمود صنعه جيش كامل بمدافع ممزوجة كما افترض ، كما انه كان يوجد في عهـــد فن العمارة الياذات وورومانسيروس ، وماهبراتا ، ونيبيلونجن صنعها شعب من قصائد هوميرية متراكمة ومذابة. والحادث

العظيم لمهندس عبقري يمكن ان يحدث في القرن العشرين، كحادث دانتي في القرن الثالث عشر . ولكن فن البناء لن يكون الفن الاجتماعي، الفن الجماعي، الفن المسيطر. فالقصيدة العظيمة، والعمارة العظيمة ، وعمل الانسانية الفني العظيم ان يُبنى ابداً ولكنه سيطبع .

ولو نهض فن البناء من الآن فصاعداً بشكل عرضي فانه لن يكون سيداً . فهو سيخضع لقانون الادب الذي تلقاه منه في السابق . ووضعيات الفنين الخاصة ستكون عكسية . ومن المؤكد في عصر البناء ان القصائد النادرة وهذا صحيح، كانت تشبه الابنية الاثرية . فقصائد فيازا[1] Vyasa في الهند كثيفة ، غريبة ، لا يُنفذ اليها كالباغودا . وفي الشرق المصري فان الشعر ، كالعمارات ، ذو عظمة وخطوط مطمئنة ؛ وفي اليونان القديمة ، الجمال ، والصفاء والهدوء ؛ وفي اوروبا المسيحية ، الجلالة الكاثوليكية ، والسذاجة الشعبية ، وانبات غني ووافر لعصر من التجديد . فالتوراة تشبه الاهرام ، والالياذة تشبه البارتينون ، وهوميروس يشبه فيدياس. ودانتي في القرن الثالث عشر هو آخر كنيسة لاتينية؛ وشكسبير في القرن السادس عشر هو آخر كاتدرائية قوطية .

وهكذا، فلكي نختصر ما قلناه حتى الآن بطريقة ناقصة ومبتورة بالضرورة، فان للجنس البشري كتابين، سجلين ، وصيتين، البناء والمطبعة. التوراة الحجرية والتوراة الورقية . وحين نتأمل هاتين التوراتين المفتوحتين بشكل واسع في العصور ، فلا يسعنا الا الأسف على جلالة الكتابة الغرانيتية المرئية ، تلك الالفباءات الضخمة المصاغة اعمدة ، وابنية مربعة الوجوه على مداخل المعابد ، ومسلات ، تلك الانواع من الجبال البشرية التي تغطي العالم والماضي منذ الهرم حتى برج جرس شيوب في ستراسبورغ . يجب اعادة قراءة الماضي على تلك الصفحات الرخامية ، ويجدر الاعجاب والتصفح الدائم لهذا الكتاب الذي كتبه فن البناء ؛ ولكن يجب الا ننكر عظمة العمارة التي شادتها المطبعة بدورها .

---

١ ـ فيازا : ناسك اسطوري نسبت اليه قصائد عظيمة مقدسة في الهند.

هذه العمارة العملاقة ، ولا اعرف اي صانع اخصائي اجرى حساباً انه اذا نضد جميع المجلدات الخارجة من المطبعة منذ ايام غوتنبرغ، الواحد فوق الآخر، فانها تملأ المسافة بين الارض والقمر؛ ولكن ليس عن هذا النوع من العظمة نريد ان نتكلم . حين يحاول المرء ان يلتقط في فكره صورة كلية لمجموع انتاجات المطبعة حتى ايامنا ، فان هذا المجموع الا يبدو لنا كبناء كبير مستند الى العالم كله، وتشتغل فيه البشرية دون انقطاع، ورأسه المسيخ يختفي في ضباب المستقبل العميق ؟ انه منملة الذكاء . وهو القفير الذي تصل اليه جميع المخيلات ، تلك النحال المذهبة، مع عسلها. ان للعمارة الف طبقة. وترى هنا وهناك كهوف العلم المظلمة المتشابكة في داخلها تنفتح على ادراجها . وفي كل مكان على صفحتهـــا يكثر الفن في العين من اوراقها المشجرة وورديّاتها ومخرماتها . هنا لكل عمل فردي مكانه ولطافته مهما يبدو وقتياً ومنفرداً . فالتناسق ينتج من الكل . ومن كاتدرائية شكسبير حتى مسجد بيرون ، آلاف من ابراج الاجراس الصغيرة تزدحم على غير ترتيب على ذلك المتروبول للفكر العالمي . لقد اعيدت على قاعدته كتابة بعض الالقاب القديمة للبشرية والتي لم يسجلها فن البنـــاء . وعلى يسار المدخل أرسيت نواتىء هوميروس القديمة من الرخام الابيض ، والى اليمين ترفع التوراة المكتوبة بلغات شتى رؤوسها السبعة ، وهدرية (الافعى ذات الرؤوس السبعة) الرومانسيرو تتميز غضبـاً في مكان بعيـد ، وبعض الاشكال الخلاسية الاخرى ، كالفيدا ، والنيبيلونجن . وبعد فالعمارة العجيبة تبقى دائماً غير كاملة . والمطبعة ، تلك الآلة العملاقة ، التي تنضح دون توقف كل النسغ الفكري من المجتمع فانها تتقيأ باستمرار مواد جديدة لاجل صنيعها . والجنس البشري بكامله واقف على الصقالة . وكل عقل هو بنـاء . واحقرها يفتح ثقبـه ويضع حجره . وحرون من البريتون يحمل قفته المملوءة بالجبس . وفي كل يوم يرتفع مدماك جديد . وهناك حصص جماعية بصرف النظر عن الحصة الاصلية والفردية لكل كاتب . ان القرن الثامن عشر اعطى الانسكلوبيديا ، والثورة اعطت صحيفة

المنبه[1] (المونيتور) . ومن المؤكد ان هناك ايضاً بناء يكبر ويتراكم بشكل لولبي دون نهاية ؛ وهنا ايضاً يوجد اختلاط لغـات ، وفعاليـة لا تنقطع ، وجهد لا يتعب ، ومسابقـة ضارية للانسانيـة كلها ، وملجـأ موعود للذكاء ضد طوفان جديد ، ضـد فيضان البرابرة . انه برج بابل ثانٍ من الجنس البشري .

---

١ ـ المنبه العالمي ظهر من عام ١٧٨٩ الى ١٨٦٨ ثم اعقبته الجريدة الرسمية . ولم يكن ينشر النصوص الرسمية فقط بل كان يضم اليها مواد وايضاحات كانت الحكومات المتعاقبة تستعملها عند الضرورة لتوجيه الرأي العام .

الكتاب السادس

١

نظرة محايدة في القضاء القديم

لقد كان سعيداً جداً في عام الرحمة ١٤٨٢ ذلك الرجل النبيل روبير ديستوتفيل ، الفارس ، سيد بين Beyne ، وبارون ايفري وسان - اندري في المارش ، ومستشار وخادم الملك ، وحارس حاكمية باريس . وقد مضى ما يقارب السبع عشرة سنة على تلقيه منالملك،في السابع من تشرين الثاني ١٤٦٥، سنة المذنب[١] ، تلك الوظيفة الجميلة ، وظيفة حاكمية باريس التي كانت مشهورة انها امارة اكثر منها وظيفة . وكما قال جوان لومنوس : « جدارة انيط بها سلطة محدودة جداً تضم الشرطة وامتيازات وحقوق متنوعة » . وكان الامر رائعاً عام ٨٢ ان يحمل رجل نبيل تفويضاً من الملك ، حيث كانت وسائل التأسيس تعود الى عصر زواج ابنة لويس الحادي عشر الطبيعية بالسيد بندوق البوربون . وفي نفس النهار الذي حل فيه روبير ديستوتفيل محل جاك دي فيليه في حاكمية باريس فان المعلم جان دوفيه حل محل السيد هيلاي دي توريت في الرئاسة الاولى لمحكمة البرلمان ، واختلس جان جوفنيل ديزورسان مركز بيار دي مورفيه في منصب رئيس قضاء فرنسا ، ورينيول ديدورمان خيب امل

١ ـ لقد امر البابا كاليكست ، عم بورجيا ، باقامة الصلوات العامـة ضد هذا المذنب الذي عاد الى الظهور عام ١٨٣٥ . (ملاحظة كتبها فكتور هيغو) .

بيار بوي في وظيفة مقدم العرائض العادية في قصر الملك. ولكن ما اكثر الرؤوس التي تنزهت عليها الرئاسة ورئاسة القضـــاء ووظيفة مقدم العرائض منذ ما تسلم روبير ديستوتفيل منصب حاكمية باريس!. ولا شك بأنه احتفظ جيداً بهذا المنصب، وتشبث به، وامتزج به واتحد به ذاتياً. مع انه افلت من فورة التغيير التي كانت تسيطر على لويس الحادي عشر، الملك الحذر، اللجوج، العامل، الحريص على صيانة مرونة سلطته بواسطة التنصيب والعزل. وهناك اكثر من ذلك، فالفارس الشجاع كان قد حصل لولده على ان يخلفه في منصبه بعد وفاته. وكان قد مضى سنتان على كتابة اسم الرجل النبيل جاك ديستوتفيل، الحامـــل السلاح، بجانب اسمه في رأس سجل اسقف حاكمية باريس. انها لحظوة نادرة وعظيمة! وصحيح ان روبير ديستوتفيل كان جندياً ممتازاً، وانه رفع الراية باخلاص ضد « عصبة الخير العام»، وانه قدم للملكة وعلا مدهشاً من الحلويات يوم دخولها باريس عام ١٤... وفضلاً عن ذلك فهو يتمتع بصداقة السيد تريستان لرميت رئيس ماريشالية قصر الملك. اذن فحياة السيد روبير ديستوتفيل هانئة ومرضية جداً. فهناك اولاً رهونات جميلة جداً ترتبط بها وتتعلق كعناقيد مضافة الى ما في كرمته، ومداخيل قلم محكمة الحاكمية الجنائية والمدنية، ثم العائدات المدنية والجنائية من مشاهدي امبا الشاتليه دون ان نذكر بعض المكوس الصغيرة على جسر مانت وكورباي، وبعض المكاسب من مكتالي الحطب والملح. اضف الى ذلك ملذته اثناء جولته في المدينة، في ان يسط على اثواب شيوخ البلد، التي نصفها احمر والنصف الثاني مدبوغ، ثوبه الحربي الجميل الذي لايزال بامكانك الاعجاب به الى اليوم حين تراه محفوراً على قبره في دير فالمون في نورمانديا، وخرذته المحدبة في مونتلري. ثم الا تعدّ شيئاً سلطته على الرقباء الاثني عشر وبواب ومراقب الشاتليه، والموظفين المكلفين بوضع صورة الاحكام في الشاتليه، والمفوضين الستة عشر للاحياء الستة عشر، وسجان الشاتليه، والرقباء الاربعة اصحاب الاقطاعات، والرقباء الفرسان المائة والعشرين، والرقباء المائة والعشرين من اصحاب المقارع، والفارس المكلف مع عسه بالمراقبة، ومرؤوسي العسس، والذين هم ضد العسس، والعسس الاحتياطي؟

الا يعد شيئاً بممارسة القضاء العالي والواطيء ، وحق الدوران والشنق والسحل دون ان نذكر السلطة القضائية في الاحكام الصغيرة القابلة للمراجعة ، كما تقول القوانين ، من فيكونتية باريس ، والمقسمة بشكل جيد على سبع محاكم نبيلة ؟ وهل يمكن تخيل شيء اكثر حلاوة من اصدار قرارات اعتقال واحكام كما كان يفعل يومياً السيد روبير ديستوتفيل في الشاتليه الكبير ، تحت قناطر فيليب اوغست الواسعة المسطحة ؟ والسير ، كما كانت عادته كل مساء ، في ذلك البيت البديع الواقع في شارع غاليليه ضمن تصوينة الباليه رويال والذي اخــــذه من زوجته السيدة امبرواز دي لورين ، ليستريح من تعبه لانه ارسل شيطاناً مسكيناً ليقضي الليل الى جانبـــه في « ذلك المسكن الصغير في شارع اسكور شيري الذي اراد رؤساء شرطة باريس وشيوخهـا ان يجعلوا منـه سجنهم ؛ وحيث قياساته احد عشر قدماً طولاً ، وسبعة اقدام واربع بوصات عرضاً ، واحـد عشر قدماً ارتفاعاً ؟ » .

ولم يكن للسيد روبير ديستوتفيل قضاؤه الخاص فقط كحاكم وفيكونت باريس ، بل كان له ايضــاً نصيب ، ونظرة ، وعضة في القضايا الكبرى التي يقضي فيها الملك . لم يكن هناك رأس على شيء من الارتفاع الا ومر بين يديه قبل ان يصير الى الجلاد . فهـو الذي ذهب الى باستيل سان انطوان ليأتي بالسيد دي نيمور الى السوق ، وليأتي الى ساحـــة غريف بالسيد سان بول الذي كان عابساً صائحاً امام سرور الحاكم الذي لم يكن يحب قائد الجيش .

وبالتأكيد فهذا اكثر مما يلزم للعيش حياة سعيدة مشهورة ، وليستحق ذات يوم صفحة عظيمة في ذلك التاريخ الشائق لحكام باريس حيث نعـــلم ان اودار دي فيلنيف كان له بيت في شارع دي بوشيري وان غليوم دي هانجيست اشترى السافوى الكبرى والصغرى ، وان غليــوم تيبوست اعطى راهبات القديسة جنفياف بيوته في شارع كلوبان ، وان هوغ اوبريول كان يسكن قصر بورك — ابيك . وبعض الاعمال المنزلية الاخرى .

مع الاسباب الكثيرة التي تجعل روبير ديستوتفيل يأخذ الحياة بصبر وسرور ،

فانه استيقظ صباح السابع من كانون الثاني ١٤٨٢ شكساً، فاسد المزاج. فمن اين جاءه هذا المزاج المتعكر؟.. هذا ما لم يستطع هو نفسه ان يقوله. ألأن السماء كانت قاتمة؟.. ام لأن ابزيم حزامه المونليري كان مشدوداً بشكل مسيء ويشد بدانته كحاكم باريس بشكل عسكري؟ ام لأنه رأى في الشارع تحت نافذته مرور بعض الفسّاق مستخفين به، سائرين وكل عصابة مؤلفة من اربعة، بسترة (جاكيت) دون قميص، وقبعة دون قعر، والخرج والزجاجة الى جانب؟ هل كان شعوراً مبهماً بالثلاثماية والسبعين ليرة وستة عشر سولاً وثمانية دنيه Deniers التي اراد ملك المستقبل شارل الثامن ان يقتطعها في السنة التالية من مداخيل الحاكمية؟ بامكان القارىء ان يختار؟ اما نحن، فاننا سنميل، بكل بساطة، الى الظن انه كان ذا مزاج متعكر لانه كان ذا مزاج متعكر.

ومع ذلك، فقد كان اليوم غد العيد، وهو يوم ملل لجميع الناس وخصوصاً للحاكم المكلف بكنس جميع الاقذار، بالمعنى الحقيقي والمجازي، التي تنتج عن عيد في باريس. ثم، عليه ان يحضر جلسات الشاتليه الكبير، اذ اننا لاحظنا ان القضاة ينظمون امورهم بشكل عام بنوع ان يوم جلساتهم يكون ايضاً يوم اهوائهم وذلك ليكون عندهم دائماً من يضعون على عاتقه عبء القانون والعدالة، من قبل الملك.

الا ان الجلسة بدأت بدونه، ومساعدوه في الدعاوى المدنية والجنائية والخاصة قاموا بعمله حسب العادة؛ ومنذ الساعة الثامنة صباحاً، فان بضع عشرات من البورجوازيين والبورجوازيات المكدسين الملبدين في زاوية مظلمة في قاعة جلسات امبا دي شاتليه، بين حاجز متين من خشب السنديان والجدار، كانوا يشاهدون باغتباط المنظر المتنوع البهيج للقضاء المدني والجنائي الذي يقوم به الاستاذ فلوريان باربيدين، القاضي في الشاتليه. وملازم السيد الحاكم، بشكل مشوش وكيفما اتفق.

كانت القاعة صغيرة، منخفضة مقببة. وهناك منضدة موشاة بأزهار

السوسن في الداخل مع مقعد كبير من خشب السنديان المحفور ، كان للحاكم ، وهو فارغ ، وكرسي صغـــير الى الشمال للقاضي الاستاذ فلوريان . وتحت ، ينتصب كاتب المحكمة مخربشاً ، وفي الوجه كان الشعب ؛ وامام الباب والمنضدة رقباء من قبل حاكمية المدينة بلباس عسكري ذي صلبان بيضاء ، ورقيبان في قاعة البورجوازيين يرتديان سترات ديلاتوسان ، نصف حمراء ونصف زرقـــاء ، ويقومان بالحراسة امـــام باب منخفض مغلق ظاهر في الداخل وراء المنضدة . ونافذة واحدة ذات قوس محرابي معلبة بشكل ضيق في الجدار السميك تنير بشعاع شاحب في كانون الثاني صورتين غريبتين ، همـــا الشيطان الحجري المنحوت على قاعدة مصباح في مفتاح القبة ، والقاضي الجالس في داخل القاعة على زهور الزنابق .

تخيل فعلاً على منضدة الحاكم ، بين كدستين من اوراق الدعاوى ، الاستاذ فلوريان باريبدين ، القاضي في الشاتليه ، مقعياً ، مستنداً على مرفقيه ، وقدمه على ذيل ثوبه المخملي الاسمر ، ووجهه في فروة حمل ابيض ، وحاجباه يبدوان منفصلين ، وهو احمر ، خشن ، يطرف بعينه ، يحمل بجلال شحم خديه اللذين يلتقيان تحت ذقنه .

والقاضي اصم ، وهو عيب خفيف يصاب بـه قاض . والاستاذ فلوريان لم يكن يحكم دون المناداة على المتهم ، وبشكل لائق جداً . كان متأكداً من ان القاضي يكفيه ان يتظاهر بالاصغاء ؛ والقاضي الحقيقي يقوم بهـــذا الشرط جيداً ، وهو الوحيد الجوهري لقضاء صالح ، بنوع ان اية ضجة لا يمكن ان تصرف انتباهه .

وبعد ، فقد كان في قاعة المحكمة مراقب لاعماله وحركاته لايرحم في شخص صديقنا جهان فرولو دي مولان ، طالب الامس الصغير ، ذلك « المشّاء » الذي يمكن التأكد من الالتقاء به في مكان في باريس باستثناء المكان الواقع امام منبر الاساتذة . وكان يقول بصوت منخفض لرفيقه روبين بوسيبان الذي كان يضحك بجانبه ، بينما كان يعلق على المشاهد التي تجري امام اعينهما :

– هذه جيهانتون دي بريسون ابنة كانيـار الجملة في السوق الجديد ! قسماً بروحي ان الهـرم سيدينهـا ! فهو ليس له عيون ولا آذان . خمسة عشر سولاً ، اربعة دنيه باريزي لانها حملت صبحتين . انه غالي الثمن نوعاً . « والقانون قاس في نصوصه [1] . – من هو ذاك ؟ روبين شيف – دي فيل صاحب فندق ! الأنه ادعى انه معلم في تلك المهنة ؟ انه دنيه يدفعه عند دخوله . – هيه ! رجـلان نبـلان بين هؤلاء الجبناء ! إيغليه دي سوان ، وهوثان دي ميلي . « فارسان » وحق جسد المسيح ! آه ! لقد لعبا بالزّد. متى ارى عميد جامعتنا هنا؟ مائة ليرة باريزي غرامة حيال الملك ! القاضي لوبار بيديين يضرب كالاصم . – لكن ذلك ! – اريد ان اكون اخي الحوراـقف اذا منعنيهذا عهد اللعب،عن اللعب نهاراً ، وعن العيش في اللعب والموت في اللعب، واللعب على روحي بعد قميصي! – يالعذراء المقدسة ، كم هناك من بنات ! الواحدة بعد الاخـرى ، نعاجي ! امبرواز لكوبير ! ايزابو لابينيت ! بيرارد جيرونان ! اعرفهن كلهن والله ! الى الغرامة ! الى الغرامة ! هـــذا مايعلمّك ان تلبس احزمة مذهبة ! عشرة سول باريزي، مغناجة ! اوه ! باللحلقوم الهرم للقاضي الاصم الأبله ! اوه ! فلوريان الثقيل الظل ! اوه ! باربيدين الاحمق ! هاهو على المنضدة يأكل المتقاضي، يأكل الدعوى يأكل ويعلك ويلقم ، ويمتلىء . غرامات، اموال لاصاحب لها، رسوم ، نفقات ، مدفوعات شرعية ، اثمان، اجور، اضرار وفوائد، جحيم، سجن وحبس وقيود مع النفقات، هي بالنسبة اليه هدايا ميلادية وحلوى القديس يوحنا انظر اليه، الخنزير ! هيا ! حسناً! امرأة عاشقة اخرى! تيبو لاتيبود ، لا اكثر ولا اقل ! لتكون خارجة من شارع غلاتيني ! – من هو هذا الابن؟ جيفروا مابون، دركي. لقد اغضب اسم الاب . – الى الغرامة، بالاتيبور ! الى الغرامة ياجيفروا ! الى الغرامة انتما الاثنان ! باللأصم الهرم ! لقد افسد القضيتين ! عشرة مقابل واحد انه جعـــل الفتاة تدفع اليمين والدركي الحب ! انتبه ياروبين بوسيبان ! ماذا سيدخلون ! هؤلاء رقباء ! وحق جوبتير ! جميع كلاب الصيد موجودة. هذه يجب

---

١ – باللاتينية في الاصل .

ان تكون مسرحية الصيد الكبرى خنزير بري . — واحد منهم ياروبين . واحد منهم — انه جميل ايضاً ! — وحق هركيل ! انه اميرنا البارحة ، بابا المجانين ، قارع اجراسنا ، اعورنا ، احدبنا ، كشرتنا ! انه كازيمودو !

ولم يكن اقل من ذلك .

انه كازيمودو ، مخروم ، مطوّق ، مربوط ، مصفّد ، تحت حراسة شديدة. وفرقة الرقباء المحيطة به كان يرافقها قائد الحرس شخصياً وقد طرز اسلحة فرنسا على صدره واسلحة المدينة على ظهره . ولم يكن في كازيمودو ، باستثناء قبحه ، ما يبرر هذا الجهاز من الرماح والبنادق . فقد كان متجهماً ، صامتاً ، مطمئناً . ولم تكن عينه الوحيدة تلقي على الاغلال التي تثقله نظرة مرائية وغاضبة الا في النادر ، وبين وقت وآخر .

لقد اجال هذه النظرة فيما حوله ، ولكنها نظرة منطفئة ونائمة حتى ان النساء لم يكنّ يشرن اليه بالاصابع الا ليضحكن .

الا ان الاستاذ فلوريان القاضي تصفح بانتباه ملف الشكوى المقامة ضد كازيمودو ، وكان الكاتب هو الذي قدم الملف اليه . وبدت هذه اللمحة الملقاة انها تستجم لحظة . وبفضل هذا الحذر الذي يهتم دائماً باتخاذه لحظة قيامه باي استجواب ، فقد كان يعرف مقدماً الاسماء والصفات ، وجرائم المتهم ، ويحضّر اجوبة منتظرة على اجوبة منتظرة ويتوصل الى التخلص من جميع التواءات الاستجواب دون ان يدع احداً يشعر بصممه . كان ملف الدعوى بالنسبة اليه ككلب الاعمى . واذا حدث صدفة ان دل على عاهته هنا وهناك بعض الكلام الموجه غير المتلاحم او سؤال غير مفهوم ، فان هذا يعتبر تعمقاً بنظر البعض وبلاهة عند البعض الآخر . وفي الحالتين لا يتلقى الشرف والقضاء اية اصابة ؛ لأن من الافضل للقاضي ان يشتهر بالبلاهة والتعمق ولا يشتهر بالصم . اذن كان يبذل عناية كبيرة لإخفاء صممه عن الجميع ، وكان ينجح عادة في ذلك كنجاحه في توصله الى ايهام نفسه . وهذا اسهل من ان يصدق. فجميع اصحاب الحدبات يسيرون مرفوعي الرأس ، وجميع التمتامين يخطبون باسهاب ، وجميع الصمم

يتكلمون بصوت منخفض . اما هو فكان يعتقد ان اذنه متمردة بعض الشيء . وكان هذا هو المبرر الوحيد الذي يقدمه للرأي العام حول هذه النقطة في اوقات الصراحة وفحص الضمير .

بعد ان اجتر قضية كازيمودو جيداً ، قلب رأسه الى الوراء واغمض عينيه نصف اغماضة ليظهر كثيراً من الجلال وعدم التحيز مع انه كان في هذه اللحظة اصم واعمى وهو شرط مزدوج ليس هناك قاض كامل بدونه . اذن ففي هذه الهيئة اللائقة بقاض ابتدأ الاستجواب .

اسمك ؟

الا ان هذه حالة « لم يستدركها القانون » حالة استجواب اصم من قبـــل اصم .

وكازيمودو الذي لم ينبهه شيء للسؤال الموجه اليه استمر بالتحديق في القاضي ولم يجب بشيء . والقاضي ، وهو اصم ، وما من شيء انبـــأه بصمم المتهم ، اعتقد انه جاوب كما يفعل جميع المتهمين بوجه عـــام ، تابع برباطة جأشه الآلية الحمقاء .

– حسناً ، وسنك ؟

ولم يجب كازيمودو ايضاً على هـــذا السؤال . واعتقد القاضي انه اجاب ، فأكمل :

– والآن ، ما هي قضيتك ؟

دائماً نفس الصمت . الا ان الحاضرين بـدأوا يتهامسون وينظرون الى بعضهم البعض .

وتابع القاضي الرابط الجأش حين افترض ان المتهم استهلك جوابه الثالث :

– يكفي . انت متهم امامنا : أولاً باحداث بلبلة ليلية ، ثانياً بعمل غير فاضل على شخص امرأة مجنونة ، ثم بتمرد وخداع حيال رماة مولانا الملك . اوضح هذه النقاط كلها . – ايها الكاتب ، هل كتبت ما قاله المتهم حتى الآن ؟

لدى هذا السؤال المزعج ارتفع الضحك ، من قلم المحكمة الى الحاضرين ،

عنيفاً ، مجنوناً ، معدياً ، عاماً بحيث فطن له الاطرشان . اما كازيمودو فاستدار وهو يهز حدبته بازدراء ، بينما الاستاذ فلوريان ، وقد دهش مثله ، افترض ان ضحك الحاضرين اثاره جواب وقح من المتهم،وزاد من اعتقاده هذا هز الكتفين، فقال بلهجة لاذعة محتقرة :

– لقد اتيت ايها الحقير بجواب يستحق الشنق ! اتدري مع من تتكلم ؟

لم يكن هذا المخرج صالحاً لايقاف انفجار المرح العام . اذ بدا للجميع كثير الغرابة والبلاهة بحيث ان الضحك المجنون بلغ الرقباء الموجودين في غرفة البورجوازيين للحديث ، وهم نوع من (شباب) البستوني في ورق اللعب عندهم البلاهة متساوية . وكازيمودو وحده احتفظ بجديته لسبب وجيه هو انه لم يفهم شيئاً مما يجري حوله . اما القاضي ، وقد ازداد هياجه ، فقد ظن ان من واجبه الاستمرار بنفس اللهجة ، آملاً بذلك ان يصيب المتهم برعب : يعمل عمله في الحاضرين ويعيدهم الى الاحترام .

– اذن هذا يعني ، ايها الفاسد الناهب انك سمحت لنفسك بالانتقاص من قدر قاضي الشاتليه ، الحاكم المكلف بالشرطة الشعبية في باريس ، والمكلف بالبحث عن الجرائم ، والجنح والسلوك السيء ، ومراقبة كل مهنة ، ومنع كل احتكار ، وصيانة الشوارع ، ومنع بائعي الدجاج والطيور الدواجن وطيور الغدران بالمفرق ، وكيل الاحطاب وانواع اخرى من الخشب ، وتنظيف المدينة من الوحل ، والهواء من الامراض المعدية ، والسعي باستمرار للعمل العام ، وبكلمة ، دون راتب او امل بالأجرة ! اتدري انني ادعى فلوريان باربيدين الضابط الخاص للسيد الحاكم ، وفضلاً عن ذلك فانني مفوض ، ومحقق ومراقب ، وفاحص اتمتع بسلطة معادلة للحاكمية والمحكمة والمحافظة والرئاسة !

ليس هناك من سبب لتوقف اصم وهو يخاطب اصم . والله يعلم اين ومتى كان سيصل الاستاذ فلوريان الى الارض وهو مندفع هكذا على مداه في الفصاحة السامية ، لو لم ينفتح الباب المنخفض في الداخل فجأة ويفسح ممراً للسيد الحاكم نفسه .

وعنـــد دخوله لم ينس الاستاذ فلوربان ما قصد ان يقوله بل دار نصف دورة على عقبيه وصوب فجـأة على الحاكم الخطـاب الذي كان يصعق كازيمودو منذ قليل ، وقال :

– يا صاحب السيادة ، اني اطالب بالعقوبة التي تنال رضاك ضد هذا المتهم الحاضر هنا لانتقاصه الخطير العجيب من احترام العدالة .

وعاد الى الجلوس لاهثاً ، ماسحاً قطرات كبيرة من العرق كانت تتساقط من جبهته وتبلل الاوراق المنشورة امامـه كالدموع . وقطب السيـد روبير ديستوتفيل حاجبيه واشار الى كازيمودو بحركة انتباه متغطرسة بليغـة فهم منهـا الاصم شيئاً ما .

ووجه الحاكم اليه الكلام بصرامة :

– ماذا اقترفت لتكون هنا ايها الخبيث ؟

فاعتقد الشيطان المسكين ان الحاكم سأله عن اسمه، لذلك قطع الصمت الذي يعتصم به عادة واجاب بصوت ابح خارج من الحنجرة :

– كازيمودو .

كان الجواب قليلًا ما يتلاءم مع السؤال ، بحيث ان الضحك المجنون عاد من جديد الى الانتشار ، وبحيث ان السيد روبير صرخ وقد احمرّ من الغضب :

– الا تزال تهزأ بي ايها الصعلوك ؟

فأجاب كازيمودو معتقداً ان الامر يتعلق بايضاح ماهيته للقاضي :

– قارع اجراس !

فقال الحاكم الذي كان قد استيقظ صباحاً متعكر المزاج ، كما اسلفنا، بحيث انه لم يكن بحاجة الى اجوبة كهذه ليحتدم هياجه :

– قارع اجراس ! سأجعل ظهرك جرساً من العصي على مفارق طرق باريس اسمعت ايها الخبيث ؟

فقال كازيمودو :

– اذا كان سني هو الذي تريد ان تعرفه فاني اعتقد اني سأبلغ العشرين في عيد سان مارتان .

لقد كان الامر شديداً هذه المرة ؛ ولم يستطع الحاكم ان يكبح جماح غضبه:

– آه ! اتستخف بمحاكمة المدينة ايها البائس! ايها الرقباء ، خذوا هذا الحقير الى وتد التعذيب في ساحة غريف، واضربوه واجعلوه يدور مقدار ساعة. سيدفع لي غالياً ورأس الرب ! يجب ان ينادى بهذا الحكم بواسطة اربعة ابواق وفي اقطاعات فيكونتية باريس السبع .

فأخذ الكاتب يدون الحكم الظالم .

وهتف الطالب الصغير جهان فرولو دي مولان من زاويته :

– وبطن الرب ! انها محاكمة بديعة.

والتفت الحاكم واثبت من جديد على كازيمودو عينيه اللتين يتطاير منهما الشرر وقال :

اظن ان الحقير قال : « وبطن الرب » ! ايها الكاتب اضف اثنتي عشر دنيه باريزي غرامة اليمين الكاذب ، ولتنل فبركة سان اوستاش النصف . اني اتعبد تعبداً خاصاً للقديس اوستاش .

وببضع دقائق صدر الحكم. وكان فحواه بسيطاً ومقتضباً . وقانون حاكمة وفيكونتية باريس لم يكن قد وصفه الرئيس تيبو بابييه وروجيه بارمن ، محامي الملك ، بعد . انه لم يكن قد 'سد' بعد بتلك الغابة العالية من المحاكمات والاجراءات التي غرسها هذان الفقيهان في بدء القرن السادس عشر . لقد كان كل شيء واضحاً ، سريعاً ، جلياً . كان المسير رأساً الى الهدف حيث يشاهد في في طرف كل طريق ، خال من الاشواك والمنعطفات ، الدولاب ، والمشنقة ووتد التعذيب . لقد كانوا على الاقل يعرفون الى اين يسيرون .

وعرض الكاتب الحكم على الحاكم الذي دمغه بخاتمه ، وخرج ليكمل دورته في المحاكم ، مع استعداد نفسي لملء جميع سجون باريس في ذلك النهار . وكان جهان فرولو وروبين بوسيبان يضحكان تحت الطيلسان . وكان كازيمودو ينظر

الى الجميع بهيئة لا مبالٍ مندهش .

الا ان الكاتب ، في اللحظة التي كان فيها الاستاذ فلوريان باربيديين يقرأ بدوره نص الحكم ليوقعه ، شعر بالتأثر والشفقة على المحكوم المسكين ، وأملاً في الوصول الى بعض التخفيف في الحكم ، اقترب جهد المستطاع من اذن القاضي وقال له مشيراً الى كازيمودو :

-- هذا الرجل اصم .

وكان يأمل ان الصفة المشتركة في العاهة سوف توقظ ما في الاستاذ فلوريان من خير لمصلحة المحكوم . ولكننا لاحظنا اولاً ان الاستاذ فلوريان لا يهتم بأن يفطن الى صممه . وبعد فقد كانت اذنه قاسية بحيث لم يسمع كلمة مما قاله الكاتب ؛ الا انه تظاهر بالسمع واجاب :

-- آه ! آه ! هذا يختلف . لم اكن اعرف ذلك . في هذه الحالة تزداد مدة بقائه على وتد التعذيب ساعة .

ووقع الحكم معوّلاً .

وقال روبين بوسيبان الذي كان يكره كازيمودو :

-- لقد احسن عملاً . سيعلّمه ذلك ان يعامل الناس بعنف .

٢

جحر الجرذان

ليسمح لنا القارىء ان نعود به الى ساحة غريف التي تركناها البارحة مع غرنغوار في لحاقنا بأزميرالدا .

الساعة العاشرة صباحاً . وكل شيء يشعرنا بغـد الاحتفالات . فالشارع مغطى بالبقايا ، والاشرطة ، والخرق ، وريش زينة القبعات ، وقطرات شمع المشاعل، وفتات الوليمة العامة. وهناك عدد كبير من البورجوازيين «يهيمون»، كما نقول ، هنا وهنـاك محركين بارجلهم الجذوات الخامدة من نار الفرح ، مندهشين امام بيت الاعمدة لذكرى مفروشات امس الجميلة ، ناظرين اليوم الى المسامير كأنها آخر مسرة . وبائعو خمر التفاح والبيرة يدحرجون براميلهم بين الجماهير . وبعض المارة المشغولين يروحون ويجيئون . والبائعون يتحدثون ويتنادون من على اعتاب الدكاكين . والحفلة ، والسفراء ، وكوبنول . وبابا المجانين على جميع الافواه . وهذا لمن ينتقد افضل من غيره ويضحك اكثر من غيره . الا ان اربعة رقباء على جيادهم جاؤوا يتمركزون في جوانب وتـد التعذيب الاربعة وقد جمعـوا حولهم قسماً لا بأس به من الناس المتفرقين في الساحـة الحاكمين على انفسهم بالجمود والضجر على امل مشاهدة تنفيـذ عقوبة صغيرة .

ولو ان القارىء الآن ، بعد ان نأمل هذا المشهد الحي الصاخب الذي يمثل على جميع جهات الساحة ، ينقل نظره نحو ذلك البيت القديم الذي نصفه قوطي

ونصفه الآخر لاتيني ، بيت برج رولاند (لاتور رولاند) الذي يؤلف زاوية الرصيف من ناحية الغرب ، فباستطاعته ان يلاحظ على زاوية واجهة البنـــاء كتاباً كبيراً للصلاة ذا زخارف ثمينة ، ويحفظـه من المطر افريز صغير ، ومن اللصوص قفص يسمح بتصفحه . والى جانب كتاب الصلاة هذا كوة ضيقـــة بشكل قوس ، مقفلة بقضيبين حديديين بشكل صليب ، تطـل على الساحة ، وهي الفتحة الوحيدة التي تتيح دخول قليل من النور والهواء الى حجرة صغيرة دون باب مصنوعة في الطـابق الارضي وفي سماكة جـدار البيت القديم ، ملأى بسلام اكثر عمقاً ، وصمت اكثر كآبة من ساحـة عامة هي الاكثر احتشاداً بالناس والاكثر صخباً في باريس التي تعج وتعوي حولها .

هذه الحجرة كانت مشهورة في باريس منذ ما يقارب الثلاثة قرون ، حيث حفرتها السيدة رولاند ديلاتور رولاند حداداً على ابيها ، الذي لاقى حتفـه في الحروب الصليبية ، في جدار بيتها لتسجن نفسها فيها الى الابد ، غير محتفظة من قصرها بسوى ذلك المسكن ذي الباب المسوّر والكوة المفتوحة ، في الشتاء كما في الصيف ، معطية الباقي كله للفقراء ولله . وبالفعل ، فقـــد انتظرت السيدة الحزينة الموت عشرين سنة في ذلك القبر المحفور مسبقاً ، مصلـّية ليـــلاً ونهاراً لراحة نفس والدها ، نائمة على الرماد ، دون ان يكون لها اية وسادة ولو كانت حجراً ، مرتدية كيساً اسود ، لا تعيش الا بما يضعه المارة من الخبز والماء على حافة كوتها ، فهي بذلك تتلقى الصدقة بعد ان تصدقت . وعند موتها ، ساعة الانتقال الى الضريح الآخر ، اوصت بهـذه الحجرة ، والى الابـد ، الى النساء الحزانى ، من امهات وارامل وبنات ، اللواتي يجب ان يصلين كثيراً لأجـــل الغير ولاجل انفسهن ، واللواتي يودن ان يدفنّ احياءً متحملات الالم العظيم وفي ندامة عظيمة . وقد اقام فقراء زمنهـا لها مأتماً جميـلاً من الدموع والبركات ؛ ولكن الابنة الورعـــة ، مع اسفهم الشديد ، لم تستطع ان تطوّب قديسة ، وذلك لعدم وجود من يحميها . والقليلو الالحاد كانوا يعتقدون ان تسوية الامر في الجنة اسهل من تسويته في روما ، وقد تضرعوا الى الله في سبيل المرحومـــة

لعدم وجود بابا . واكتفى معظمهم بحفظ ذكرى رولاند كشيء مقدس وصنع التمائم من اسمالها . اما المدينة من ناحيتها فقد اسست في سبيل السيدة مصلى عام اقيم بالقرب من كوة الحجرة ليقف المارة عنده بين وقت وآخر لأجل الصلاة ، ولتذكرنا الصلاة بالصدقة ولكي لا يموت الحبيسات الفقيرات وارثات سرداب مدام رولاند من الجوع والنسيان .

وبعد، فان هذا النوع من القبور لم يكن بالامر النادر جداً في مدن القرون الوسطى . وكثيراً ما كان المرء يلتقي في الشوارع الاكثر احتشاداً، وفي السوق الاكثر برقشة والاكثر جلبة ، وفي اجمل وسط ، وتحت ارجل الخيل ، وتحت دولاب العربات ، بقبو ، ببئر ، بكوخ صغير مسور ومحـــدد ، يصلي في داخله كائن بشري ليلًا ونهاراً ، باذلاً نفسه في سبيـــل بعض الشكايات الابدية وبعض التكفيرات الكبيرة. وكل الافكار التي يوقظها فينا اليوم هذا المشهد الغريب، وتلك الحجرة المخيفة التي هي نوع من الحلقة الوسيطة بين البيت والقبر، بين المقبرة والمدينة، وذلك المقطوع الحي من الجماعة البشرية والمعدود بين الاموات ، وذلك القنديل الذي استهلك قطرته الاخيرة من الزيت في الظلام، وتلك البقية من حياة تتأرجح في حفرة ، تلك النسمة ، ذلك الصوت ، تلك الصلات الابدية في علبة من حجر ، ذلك الوجه المدار ابداً نحو العالم الآخر ، وتلك العين المتألقة قبلًا بشمس اخرى، وتلك الاذن الملصقة بجدران القبر ، وتلك النفس الحبيسة في ذلك الجسد ، وذلك الجسد الحبيس في تلك الزنزانة وتحت ذلك الغلاف المزدوج من اللحم والغرانيت طنين تلك النفس المعذبة ، لاشيء من كل هـــذا كان يراه الجمهور . ان التقوى القليلة التعقل والبصيرة في ذلك الوقت لم تكن ترى كثيراً من الوجوه في عمـــل ديني . كانت تأخذ الشيء بالجملة ، وتشرّف ، وتحترم ، وتقدس التضحية عند الحاجة ولكنها لم تكن تحلـــل فيها الآلام وتشفق بشكل معتدل . كانت تحمل بين وقت وآخر شيئاً من القوت اليومي الى التائب ، وتنظر من خلال الثقب اذا كان لايزال حياً ، وتجهل اسمه ، ولا تكاد تعرف منذ كم سنة بدأ يموت، واما الغريب الذي كان يسأل الجيران عن الهيكل العظمي الحي الذي يتلف في ذلك القبو فانهم كانوا يجيبونه بكل بساطة ، اذا كان التائب رجلًا : « انه

الحبيس » ؛ واذا كانت امرأة : « انها الحبيسة » .

وهكذا فقد كان كل شيء يرى آنذاك بدون عيبيات، بدون مبالغة، بدون عدسة مكبرة، بل بالعين المجردة . ولم يكن المجهر قد اخترع بعد لأمور المادة ولا لأمور الروح

مع ان الامثلة من هذا النوع من الاعتزال في قلب المدن قليلا ما كانت تثير الدهشة ، فانها بالحقيقة كانت مألوفة كما قلنا قبلا . وكان يوجد في باريس عدد لا بأس به من هذه الزنزانات لاجل الصلاة لله ولفعل الندامة ؛ كانت كلها مشغولة تقريباً . وصحيح ان الاكايروس لم يكونوا يهتمون بتركها فارغة ، الامر الذي يستلزم الفتور عند المؤمنين ، وانهم كانوا يضعون فيها مجذومين حين لا يوجد تائبون . وفضلا عن مأوى ساحة غريف كان يوجد مأوى آخر في مونفوكون ، وآخر في مستودع جثث مقبرة الابنوسانت ، وآخر لا اعرف اين ، في مسكن كليشون كما اعتقد . واخرى في كثير من الاماكن وآثارها موجودة في التقاليد لعدم وجود الآثار التذكارية . وكان لحي الجامعة مأواه ايضاً . فعلى جبل القديسة جنفياف كان هناك نوع من ايوب القرون الوسطى ظل يرتل طوال ثلاثين عاماً مزامير الندامة السبعة على مزبلة ، في داخل صهريج، وحينما ينتهي يعود من جديد ، مرتلا في الليل بصوت مرتفع « بصوت عظيم في الظلام[1]» . واليوم يعتقد عالم الآثار انه لا يزال يسمع صوته عند دخوله شارع « البئر الذي يتكلم » .

ولكي نقتصر على مسكن تور رولاند علينا ان نقول انه لم يخل ابداً من الحبيسات . فمنذ موت مدام رولاند لم يشغر سوى سنة او سنتين . فقد اتى عدة نساء يبكين فيه ، حتى الموت ، الاهل والاحباء والخطايا . والخبث الباريسي الذي يتدخل في كل شيء ، حتى في الاشياء التي يراها اقل من غيرها ، كان يزعم انه رأى فيه قليلا من الارامل .

ووفقاً لنمط العصر ، هناك اسطورة لاتينية مدونة على الجدار تخبر المار الذي لا يعرف القراءة عن وجهة استعمال المرأة التقية لهذه الحجرة . وعادة

١ – العبارات الموجودة بين قوسين حتى نهاية هذا الفصل هي باللغة اللاتينية في الاصل.

التوضيح عن عمارة بواسطة شعار مقتضب مكتوب فوق الباب ظلت محفوظة حتى اواسط القرن السادس عشر . وهكذا ، فلا نزال نقرأ في فرنسا ، مفرق نافذة السجن وبيت تورفيل الاميري ، عبارة « اصمت وتأمل » ؛ وفي ايرلندا تحت ترس اشعرة الشرف الذي يعلو الباب الكبير لقصر فورتسكو « درع قوي » سلامة الدوقات » ؛ وفي انكلترا ، على المدخل الرئيسي لقصر ضيافة الكونت كوبر : « انت في بيتك » . وهكذا فكل عمارة آنذاك كانت فكرة » .

وبما انه لا يوجد باب في زنزانة برج رولاند المسوّرة ، فقد حفرت هاتان الكلمتان بحروف لاتينية كبيرة فوق النافذة :

« انت ، صلِّ » .

اما ما حدث فهو ان الشعب الذي لا يرى حسه السليم كثيراً من الدقة في الاشياء ويفسر عبارة « الى لويس الكبير » بعبارة (باب سان دنيس) ، فانه اطلق على هذه الحفرة السوداء ، القاتمة ، الرطبة ، اسم (حجر الجرذان[1]) . وهو تفسير اقل سمواً من الآخر تقريباً ولكنه مقابل ذلك اكثر تصويراً .

---

١ – العبارة باللاتينية Tu, Ora ومعناها : « انت ، صل » . وقد حرفها الناس فاصبحت **Trou aux rats** أي « حجر الجرذان » .

٣

حكاية كعكة مصنوعة من خميرة الذرة[١]

كانت زنزانة برج رولان مشغولة في العصر الذي تجري فيه هذه الرواية . واذا رغب القارىء في معرفة اسم الشاغل فما عليه الا ان يستمع الى حديث ثلاث نساء باسلات كن في اللحظة التي وجهنا فيها انتباهه الى حجر الجرذان يسرن في نفس الاتجاه ، صاعدات من الشاتليه حتى ساحة غريف ، على طول مجرى الماء .

واثنتـــان من هؤلاء النسوة كانتا ترتديان ملابس بورجوازيات باريس . فطوق الرقبة الناعم الابيض ، وتنورتهما المخططة بالاحمر والابيض ، وسروالهما من التريكو الابيض بزوايا مطرزة بالالوان ، مشدودان جيـــداً على الساق ، واحذيتهما المربعة من الجلد الاشقر ذات نعل اسود ، وخصوصاً غطاء رأسيهما ، ذلك النوع من القرن المزين المثقل بالاشرطـــة والدانتيلا والذي لا يزال نساء شامبينيون يرتدينه ، منافسات بذلك جنـود الحرس الامـبراطوري الرومي . لقد كان كل هذا يعلن انهما تنتميان الى تلك الطبقة من التاجرات الثريات واللواتي تقف في الوسط بين ما يدعوها الخدم «امرأة» وما يدعونها «سيدة» . لم يكن يحملن خواتم ولا صلباناً ذهبية ، ومن السهل رؤية ان ذلك لم يكن بسبب الفقر بل خوفاً من الغرامة . وكانت رفيقتهما متزينة بنفس طريقتهما تقريباً ، ولكن يوجد

---

١ ـ كان عنوان هذا الفصل في المخطوطة : « حكاية ابنة بغي » .

في زيها وفي هيئتها ما لا اعرف مما يشتم منه رائحة زوجة كاتب عدل في الارياف، ويرى في طريقة ارتفاع حزامها الى ما فوق خصرها انها لم تكن في باريس منذ وقت طويل . اضف الى ذلك طوق رقبة ذا ثنيات ، وعقد اشرطة على الاحذية ، وخطوط التنورة كانت بالعرض وليست بالطول . وكثير من الافراطات الاخرى يأنف منها الذوق السليم .

كانت الاثنتان الاوليان تسيران بتلك الخطوة الخاصة بالباريسيات اللواتي يرين باريس لنساء الارياف . وكانت الريفية تمسك بيدها غلاماً كبيراً يحمل بيده كعكة كبيرة .

ويسيئنا ان نضيف انه كان يجعل لسانه منديلاً له بالنظر لقساوة الفصل .

وكان الطفل يُجَرّ « بخطوة غير متساوية » كما قال فرجيل ، وكان يعثر في كل لحظة فتصيح به امه . والواقع انه كان ينظر الى الكعكة اكثر مما ينظر الى بلاط الشارع . ولا شك بأن سبباً خطيراً كان يمنعه من قضمها لانه كان يكتفي بتأملها بحنو . ولكن الام اضطرت الى القيام بعبء الكعكة . وكان هناك شراسة في صنع تانتال[1] من سمين الحدّين .

الا ان الاوانس الثلاث (لان لقب « سيدات » كان محتفظاً به لنساء الاشراف) كن يتكلمن دفعة واحدة . وقد قالت اصغر الثلاث وأسمنهن للريفية :

– لنسرع في السير يا آنسة ماهييت . اني اخاف ان نصل متأخرات . وقد قيل لنا في الشاتليه انهم سيأخذونه حالاً الى وتد التعذيب .

فقالت الباريسية الاخرى :

– ماذا تقولين يا آنسة اودارد مونيه ؟ سيبقى ساعتين على وتد التعذيب .

---

١ – تانال : ملك ليديا ، زاره الآلهة فأطعمهم اعضاء ولده بيلوب . ولكي يثبت الوهته القاه جوبتير في التاتار وحكم عليه ان يظل فريسة الجوع والعطش الضاريين . وفي الادب يشبهون بعقوبة تانتال كل طمع اخفق في اللحظة التي يكون قد بلغ فيها غايته .

المعرب

لدينا الوقت الكافي . هل رأيت مرة مربوطاً معذباً بواسطة الوتــد يا عزيزتي ماهييت ؟

فقالت الريفية . نعم ، في ريمس .

-- آه ! ما هو وتدكم في ريمس ! قفص سيء لا يديرون به سوى فلاحين ، يا له من أمر عظيم !

فقالت ماهييت :

-- سوى فلاحين ! في سوق الجوخ ! في ريمس ! شاهدنا مجرمين على قسط وافر من الجمال ، قتلوا اباً واماً ! فلاحون ! من تحسبيننا يا جيرفيز ؟

من المؤكد ان الريفية كانت على اهبة الغضب لشرف وتدها . ومن حسن الحظ ان الآنسة الرصينـة اودارد مونيـه غـيرت مجرى الحديث في الوقت المناسب :

-- بالمناسبة يا آنسة ماهييت ، ما رأيك بسفرائنا الفلاندريين ؟ هل عندكم في مثل جمالهم في ريمس ؟

فأجابت ماهييت : اعترف انه ليس هنـاك سوى باريس لرؤية فلاندريين كهؤلاء .

وسألت اودارد : ارأيت في السفـارة ذلك السفير الكبير الذي هو صانـع جواوب ؟

فقالت ماهييت : نعم . ان هيئته كهيئة إله الزمان (ساتيرن) .

وتابعت جرفيز :

-- وذلك الضخم الذي يشبه وجهه بطنـاً عارياً ؟ وذلك الصغير ذو العينـين الصغيرتين المحاطتين بجفن احمر كسمك البوري والمشقق كرأسٍ من نبـات شوك الجمال ؟

فقالت اودارد : ان خيولهم هي التي تحلو للنظر . وهم يرتدون ثيابـاً على نسق بلادهم .

فقاطعتها الريفية ماهييت متخذة بدورها هيئة الاستعلاء :

– آه! يا عزيزتي!. ما تقولين اذن لو كنت شاهدت عام٦٦، فيسيامة اسقف ريمس منذ ثماني عشرة سنة ، خيول الامراء وفرقة جنود الملك ! اشعرة وألبسة حربية وقائية من كل نوع ؛ بعضها من جوخ دمشق ، من الجوخ الناعم الذهبي المبطن بفرو السمور الابيض ؛ والبعض الآخر مثقـــل بالمجوهرات وبشكل اجراس ذهبية وفضية ! وما كلف كل ذلك من المال ! والغلمان الحسان الذين كانوا فوق الخيول !

فأجابت الآنسة اودارد :

– هذا لا يمنع ان يكون للفلاندريين خيول جميلة جداً وانهم اقاموا امس مأدبة عشاء فخمة عند رئيس التجـــار في دار البلدية ، حيث قدم لهم حلوى ، وخمور محلاة ، وتوابل ، وغرائب اخرى .

فصاحت جيرفيز : ماذا تقولين يا جارتي ؟ لقد تنـاول الفلاندريون عشاءهم عند السيد الكاردينال في قصر البتي – بوربون .

كلا ، في دار البلدية .

– كلا ، في البتي – بوربون ..

فقالت اودارد بخشونـة : اجـل ، في دار البلدية التى عليهم الدكتور سكورابل خطبة باللاتينية كانوا مسرورين جداً منها . ان زوجي ، وهو صاحب مكتبة محلف ، هو الذي قال لي ذلك .

فاجابت جيرفيز بحدة لا تقل عن رفيقتها :

– اجل ، في البتي – بوربون . واليك ما قدم لهم وكيل الكاردينال : اثني عشر ربعاً مزدوجـاً من الخمر المحلّى الابيض ، والخفيف الحمرة ، والقرمزي ، واربعة وعشرين صندوقاً من الخبز المذهب من ليون ؛ ومثلها مشاعل وكل قطعة تزن ليبرتين ، وستـة انصاف برميل كبير من خمر بون ، ابيض ، وخفيف الحمرة ، وافضل خمر يمكن ايجاده ، وآمل ان يكون هذا مقنعاً فقد عرفته من زوجي الذي هـو رئيس خمسين في قاعة برلوار – او بورجوا ، وقد قام هـذا الصباح بالمقارنة بين سفراء الفلاندر وسفراء القس جان وامبراطور طرابزون

الذين اتوا من ميزوبوتاميا الى باريس في عهد الملك الاخير وكانوا يعلقون حلقاً في آذانهم .

فأجابت اودارد وقد تأثرت قليلاً من هذا العرض :

– صحيح انهم تنـاولوا عشاءهم في دار البلدية بحيث ان احتفـالاً كهذا من اللحوم والحلويات لم يشاهد من قبل .

– انا اقول لك ان الذي قام بخدمتهم هو لوسيك ، رقيب المدينـة ، في قصر البتي – بوربون ، وان هذا ما اوقعك في الخطأ .

– في دار البلدية اقول لك !

– في البتي – بوربون يا عزيزتي ! بحيث انهم اناروا بالزجاج السحري كلمة « امل » المكتوبة على البوابة الكبرى .

– في دار البـلدية ! في دار البـلدية ! حتى انـ هدسون لوفـوار عزف على الناي .

– اقول لك كلا !

– اقول لك بلى !

– اقول لك كلا !

وكانت اودارد السمينة قد تهيأت للاجابة ، وكادت المعركة تصـل الى شد الشعر لو لم تهتف ماهييت فجأة .

– انظروا الى اولئك الناس المحتشدين هناك على طرف الجسر ! انـ في وسطهم شيئاً ينظرون اليه .

فقالت جيرفيز :

– الحقيقة اني اسمع صوت طبـل . واعتقد انهـا اسميرالدا الصغيرة تقوم بأضاحيكها مع معزاتهـا . اسرعي يا ماهييت ! ضاعفي الخطى وجرّي ولدك . انك اتيت الى هنا لتري غرائب باريس . ولقد رأيت الفلاندريين البارحة ويجب ان تري الغجرية اليوم .

فقالت ماهييت وهي ترجع على اعقابها وتشد على ذراع ولدها .

– الغجرية ! ليحفظني الله ! انها سوف تسرق ولدي ! تعال يا اوستاش .
ثم اخذت تركض على الرصيف باتجاه ساحة غريف الى ان تركت الجسر وراءها بعيداً . الا ان الطفل الذي كانت تجره سقط على ركبتيه ؛ فتوقفت وهي تلهث . ولحقت بها اودارد وجيرفيز .
وقالت جيرفيز : هل سرقت هذه الغجرية ولدك ؟ ان لك خيالاً غريباً .
وهزت ماهييت رأسها بهيئة مفكرة . وقالت اودارد ملاحظة :
– الغريب هو ان الراهبة الحبيسة نفس الفكرة عن الغجريات .
فقالت ماهييت : من هي هذه الحبيسة ؟
فأجابت اودارد : الاخت غودول .
فقالت ماهييت : من هي الاخت غودول ؟
فأجابت اودارد : صحيح ، انك لا تعرفين ذلك لانك من مدينة ريمس . انها حبيسة جحر الجرذان .
فسألت ماهييت :
– كيف ! أهي تلك المرأة المسكينة التي نحمل اليها هذه الكعكة ؟
فقالت اودارد باشارة ايجابية من رأسها :
– بالتأكيد ، سترينها حالاً في كوتها في ساحة غريف . ان لها نفس نظرتك بشأن افاقي الغجر هؤلاء الذين يقرعون الطبل ويخبرون الناس عن مستقبلهم . ولا يعرف احد من اين اتاها هذا الرعب من الغجر . ولكن انت يا ماهييت ، لماذا هربت هكذا ، ألمجرد رؤيتهم ؟
فقالت ماهييت :
– اوه ! لا اريد ان يصيبني ما اصاب باكيت لاشانت فلوري .
فقالت جيرفيز ممسكة بذراعها :
– هذه حكاية سترويها لنا يا ماهييت الطيبة .
فاجابت ماهييت :
– بكل طيبة خاطر . ولكن يجب ان تكوني من باريسك لتجهلي ذلك !

سأقول لكم اذن ، – ولكن يجب الا نتوقف لنحكي الحكاية ، – ان باكيت لاشانت فلوري كانت فتاة جميلة في الثامنة عشرة من عمرها عندما بلغت السنة الواحدة من عمري ، اي منذ ثماني عشرة سنة ، وان الخطأ خطأها اذا لم تكن اليوم مثلي اماً صالحة كبيرة ناضرة في السادسة والثلاثين من عمرها ولها زوج وولد . وبعد ، فقد فات الوقت منذ سن الرابعة عشرة ! – لقد كانت اذن ابنة غويبرتو ، وهو شاعر جوال على المراكب في ريمس ، ينشد شعره عازفاً على الكمان ، وهو نفسه الذي عزف امام الملك شارل السابع عند تنصيبه ملكاً ، وعند هبوطه نهر فيسل من سيليري الى مويزون ، وكانت السيدة بوسيل نفسها في المركب . ومات الاب العجوز بينما كانت باكيت لا تزال طفلة ؛ ولم يبق لها سوى امها ، وهي اخت السيد ماثيو برادون ، صانع اواني نحاسية وقدور معدنية في باريس ، شارع باران – غارلان ، والذي مات السنة الماضية . وهكذا ترين انها ابنة عائلة ، وكانت الام امرأة صالحة ، ومن سوء الحظ لم تعلّم باكيت سوى القليل من صناعة الاوشحة ودمى الاطفال التي لم تمنع الصغيرة من ان تصبح كبيرة وان تظل فقيرة . وكانت الاثنتان تسكنان ريمس على شاطىء النهر في شارع فول – بين . سجلي هذه الملاحظة : اعتقد ان هذا هو الذي جلب الشقاء لباكيت . ففي عام ٦١ ، سنة تنصيب مليكنا لويس الحادي عشر حفظه الله ، كانت باكيت كثيرة المرح والجمال بحيث لم تكن تدعى في كل مكان الا بإسم شانت فلوري . – يا للفتاة المسكينة ! كانت ذات اسنان جميلة وتحب الضحك لتري اسنانها . الا ان الفتاة التي تحب الضحك تسير في طريق البكاء ؛ والاسنان الجميلة تضيع العيون الجميلة . وهكذا كانت لاشانت فلوري . كانت هي وامها لا تكسبان معيشتها الا بشق النفس . وقد تدهورت حالتهما منذ موت عازف الكمان . وصناعة الاوشحة لم تعد تكسبهما اكثر من عشرة دنيه في الاسبوع ، وهذا لا يسد رمقاً . اين ذهب الزمن الذي كان الاب غويبرتو يربح فيه اثني عشر سولاً باريزي مقابل اغنية واحدة في حفلة تنصيب واحدة ؟ وفي شتاء تلك السنة ٦١ لم يكن لدى المرأتين حطب كبير او صغير ،

وكان البرد قارساً ، وهذا ما اكسب شانتفلوري الواناً جميلة بحيث صار الرجال يدعونها : باكيت ! وصار عدد كبير منهم يدعونها باكيريت ، وانهـا ضلت الطريق . – اوستاش ، اراك تقضم الكعكة ! – ورأينا حالاً انها ضلت حين اتت في احد ايام الآحاد الى الكنيسة وفي عنقها صليب ذهبي – في سن الرابعة عشرة ! ارأيتن ذلك ! – في بادىء الامر كان عشيقهـا هو الفيكونت دي كورمونتراي الشاب الذي يبعد قصره ثلاثة ارباع الفرسخ عن ريمس ؛ ثم السيد هنري دي تريانكور رئيس اسطبل الملك ؛ ثم اقل من ذلك ، شيار دي بوليون رقيب في السلاح ؛ ثم هبوطاً دائماً ، غوري اوبرجون خادم الملك ؛ ثم ماسيه دي فريبوس حلاق ولي العهد ؛ ثم تيفينان لوموان طباخ الملك ؛ ثم مـع الانحدار الدائم الى الاكبر سناً والاقل نبـلاً ، وقعت على غليوم راسين وهـو عازف موسيقي جوال، وعلى تييري دي مير وهو صانع مصابيح . وعند ذلك ، بالشانت فلوري المسكينة ، اصبحت للجميع . وكانت قد انفقت آخر سول بقي من قطعتها الذهبية . ماذا اقول لكما يا آنستيّ ؟ انها هي التي مهدت سرير ملك الفسّاق في حفلة التنصيب ، في عام ٦١ ! في السنة نفسها !

وتأوهت ماهييت ومسحت دمعة كانت تتدحرج من عينها . وقالت جيرفيز:

– انها قصـة ليست شديدة الغرابة ، ولا ارى في كل ذلك غجراً ولا اطفالاً .

فأجابت ماهييت :

- صبراً ! طفل ، سترين فيها طفلاً . – في عام ٦٦ ، ويكون قـد مضى ستة عشر عاماً في هذا الشهر ، وضعت باكيت طفلة ، يا للبائسة ! وكان سرورها عظيماً بها . فقد كانت تتمنى ان ترزق بولد منذ وقت طويل . وامها ، المرأة الطيبة التي لم تكن تعرف الا ان تغمض عينيها ، كانت قد ماتت . ولم يبق لباكيت من تحبه في هذه الدنيا ولا من يحبها . فبعد خمس سنوات من سقطتها اصبحت شانت فلوري مخلوقة مسكينة . كانت وحيدة في هذه الحياة يشار اليها بالاصابع ، ويُصرخ عليها في الشوارع ، ويضربها رقباء الدرك ، ويسخر منهـا

الغلمان ذوو الاهمال . ثم بلغت العشرين من سنهـا . وعشرون سنة تعتبر شيخوخة بالنسبة للنساء العاشقات . ولم يعد الجنون يأتيها بأكثر مما كان يأتيها من صناعة الاوشحة السابقة ؛ دينار يذهب مقابـل غضن يأتي ؛ وعاد الشتاء فأصبح قاسياً عليها واصبح الحطب نادراً في موقدها وكذلك الخبز في معجنها . ولم تكن تستطيع العمل لأن المرأة عندما تصبح شهوانية تصبح كسولة وكان يزداد عذابها لأنها اصبحت شهوانية بصيرورتها كسولة . — هذا على الاقل ما اوضحه خوري سان ريمي عندما شرح لماذا يصاب هؤلاء النسوة بالبرد والجوع اكثر من الفقيرات الاخريات عندما يبلغن الشيخوخة .

وقالت جيرفيز ملاحظة :

— نعم ، ولكن الغجر ؟

فقالت اودارد التي كان انتباهها اقل مللاً :

— لحظة ، ماذا يبقى للنهاية اذا كان كل شيء في البداية ؟ اكملي يا ماهييت ارجوك . تلك المسكينة شانت فلوري !

فتابعت ماهييت :

— اذن فقد كانت كثيرة الحزن والبؤس ، حفرت خديها بدموعها. ولكن في عارها ، في جنونها ، وفي اهمالها ، كان يبدو لها انها ستكون اقل خجلاً واقل جنوناً ، واقل اهمالاً لو كان هناك شيء في الدنيا او احد تستطيع ان تحبه ويستطيع ان يحبها . وهذا يجب ان يكون ولداً لأن الولد وحده يستطيع ان يتحلى ببراءة تكفي لذلك . — وعرفت هذا بعد ان حاولت ان تحب لصاً ، وهو الوحيد الذي يمكن ان يريدها ؛ ولكنها رأت بعد وقت قليل ان اللص كان يحتقرها . — ان نساء الهوى هؤلاء بحاجة الى عشيق او الى ولد ليملأ قلوبهن . وبغير ذلك يكن تعيسات . — ولما لم تستطع ان تتخذ عشيقاً فانها وجهت كل رغبتها الى الولد . ولما كان لا يزال في نفسها شيء من التقوى فانها صلّت الى الله صلاتها الابدية ، واشفق الله عليها ورزقها بابنة . ولن احدثكن عن فرحها . فقد كان فورة من الدموع والمداعبة والقبلات . وارضعت طفلتها

بنفسها وصنعت لها ملابس داخلية من غطائها ، وهو الوحيد الموجود على سريرها ولم تشعر بالبرد ولا بالجوع . وعادت جميلة . والفتاة الكبيرة تصبح اماً شابة . واستعادت ظرفهـــا ، وعاد الناس الى رؤية شانت فلوري ، ووجدت مشترين لبضاعتها ، وصنعت من كل هـــذه الارجاس اقمطة ، وقلانس ، ومريلات ، وصداري من الدانتللا للطفلة ، وقبعات صغيرة من الحرير الاطلس دون ان تفكر بشراء غطـاء . – لقد قلت لك يا سيد اوستاش الا تأكل الكعكة . وصحيح ان انياس الصغيرة – كان هذا اسم الطفلة ، اسم العماد ، لأن شانت فلوري لم يكن لها اسم عائلة منذ زمن طويل . – من المؤكد ان هذه الصغيرة كانت مقمطة بالاوشحة والمطرزات اكثر من ابنة ملك الدوفينه ! وكان عندها، مع اشياء صغيرة اخرى ، زوج صغير من الاحذية من المؤكد ان لويس الحادي عشر لم يكن عنده مثيل له ! وقد خاطته الام بنفسها وطرزته ، ووضعت فيه كل وقتها كصانعة اوشحة ، وجميع ما في ثوب العذراء من زخارف . انـــه اظرف زوج احذية وردي يمكن رؤيته . كان طويلاً كابهامي ، ويجب ان نرى قدمي الطفلة الصغيرتين وهما يخرجان منه لنتأكد ان بامكانها الدخول فيه . صحيح ان هاتين القدمين كانتا صغيرتين جميلتين بلون الورد ! ولونها الوردي افضل من لون الحذاء! حين يصبح لك اولاد يا اودارد فستعرفين ان ما من شيء اكثر جمالاً من هاتين القدمين الصغيرتين وهاتين اليدين الصغيرتين .

فقالت اودارد متأوهة :

– لا اطلب افضل من ذلك . ولكني انتظر ليصبح ذلك مدعـــاة سرور للسيد اندريه مونيه .

وتابعت ماهييت :

– وبعد ، فطفلة باكيت لم يكن فيها شيء جميل سوى قدميها . وقد رأيتها يوم كان سنها اربعة اشهر . لقد كانت حباً ! كانت عيناها اكبر من فمهـــا . والطف شعر ناعم اسود مجعد . وكان هذا سيجعل منها سمراء فخوراً في سن السادسة عشرة ! وازداد جنون امها بها مع الايام . فكانت تداعبها ، وتقبلها ،

وتدغدغها ، وتغسلها ، وتزينها ، وتطعمها ! لقـد اضاعت عقلها فيها ، وكانت تشكر الله عليها . وكانت قدماها الصغيرتان الورديتان بشكل خاص مثار دهشة دائمة ، كانت نشوة فرح ! وكانت شفتاها ملتصقتين بهما دائماً وظلت في حيرة من صغرهمـا . كانت تضعهما في الحـذاء الصغير ، وتسحبهما وتعجب بهما ، وتندهش منهما ، وترى النور من خلالهما ، وتشفق من ان تعودهما على المشي على السرير ، وتريد ان تقضي حياتها راكعة وهي تُلبس الحذاء وتخلعه من هذين القدمين اللذين يشبهان قدمي الطفل يسوع .

وقالت لاجيرفيز بصوت منخفض :

– القصة جميلة وممتعة ، ولكن اين الغجر في كل ذلك ؟

فاجابت ماهيت :

– ها هم . فقد وصل ذات يوم الى ريمس نوع من الفرسان الغريبي الشكل. متسولون وافّاقون يجولون في البـلاد يقودهم دوقهم وكونتاتهم . وكانوا سمراً مجعدي الشعر ، وفي آذانهم حلقات من فضة . وكانت النساء اكثر قبحاً من الرجال . فوجوههن اكثر سواداً ومكشوفة دائماً . وعلى الجسد صورة كلب صغير ، وعلى الكتف شرشف منسـوج من الحبـال ومطوي . والشعر مقصوص كذيل الحصان . والاطفال الذين سيقانهم تغوص في الوحل يبعثون الخوف في القرود . عصابة من المحرومين . كل هذا اتى بخط مستقيم من بلاد الغجر السفلى الى ريمس بطريق بولونيا . وكان البابا قـــد سمع اعترافهم كما قيل ، وامرهم ، كفعل ندامة ، ان يسيروا سبع سنوات متتالية في العـــالم دون ان يناموا على أسرة . وكانوا يدعون بينانسيه ويتعفنون ، ويبدوا انهم كانوا في المـــاضي من نسل اسماعيل الامر الذي جعلهم يؤمنون بجوبتير ، ويطلبون عشر ليرات من جميع رؤساء الاساقفة ، والاساقفة ، ورؤساء الاديار ، والكهنة المسموح لهـم بحمل العكاز واصحاب التيجان الاسقفية . وهناك مرسوم بابوي سمح لهم بذلك . وقد جاؤوا الى ريمس يقرأون الطالع باسم ملك الجزائر وامبراطور المانيـــا . وانت تعلمين انه لا يلزمهم اكثر من ذلك ليمنعوا من دخول المدينة . وعندئذٍ

عسكرت العصابة كلها بالقرب من باب دي برين على تلك التلة حيث يوجد مطحنة بالقرب من حفر الطباشير القديمة . وفي ريمس كانوا يذهبون لرؤيتهم . كانوا ينظرون في يدك ويقولون لك نبوءات عجيبة . وكانوا من القوة بحيث يتنبأون ليهوذا بانه سيصبح بابا . ومع ذلك فقد انتشرت عنهم شائعات سيئة تتعلق باولاد مسروقين ، ومحفظات مقطوعة ولحم بشري يؤكل . وكان العاقلون يقولون للمجانين : لا تذهبوا اليهم ، ولكنهم كانوا من ناحيتهم يذهبون اليهم خفيـــة . اذن فقد كان هذا فورة . والواقع انهم كانوا يقولون اشياء تدهش كاردينالاً ، وكانت الآمهات تقمن الاحتفالات الكبيرة لاولادهن منذ ما تقرأ الغجريات في أكفهم كل نوع من المعجزات المكتوبة بالوثنيه والتركية . فواحدة سيصبح ولدها امبراطوراً ، والاخرى بابا ، واخرى نقيباً في الجيش ، اما شانت فلوري المسكينة فقد دفعها الفضول ، لقد ارادت ان تعرف ما عندها ، ارادت ان تعرف اذا كانت ابنتها الصغيرة الجميلة انياس ستصبح ذات يوم امبراطورة ارمينيا او شيئاً آخر . ولهذا حملتها الى الغجر ؛ وأعجبت الغجريات بالطفلة ، وداعبنها ، وقبلنها بافواههن السوداء ، ودهشن من يدها الصغيرة . مع مرور الام العظيم ، للأسف ! واقمن حفلة للقدمين الجميلتين والحذاء الجميل على الخصوص . ولم تكن الطفلة قد بلغت السنة من العمر . وكانت تبغم ، وتضحك لأمها كمجنونة صغيرة. وكانت سمينة ومستديرة ، ولها الف حركة صغيرة فاتنة كحركات ملائكة الجنة. لقد اجفلت من الغجريات ، وبكت . ولكن الام قبلتها بقوة وسارت منتشية من الطالع الحسن الذي قالته العرافات عن ابنتها انياس . اذ يجب ان يكون جمالاً ، وفضيلة ، وملكة . اذن فقد عادت الى كوخها في شارع فول ـ بين فخورة بأن تحمل الى الكوخ ملكة . وفي الغد اغتنمت فرصة نوم الطفـــلة في سريرها ، لانها تنيمها معها دائماً ، وتركت الباب نصف مفتوح وخرجت بهدوء مسرعة لتقص على جارة لها في شارع لاسيشيسيري انه سيأتي يوم يقوم فيه بخدمة ابنتها انياس على المائدة ملك انكلترا وارشيدوق اثيوبيا ، ومائة مفاجأة اخرى. وعند عودتها لم تسمع صراخـــاً وهي تصعد الدرج ، فقالت : حسناً ! لا تزال

البنت نائمة . ووجدت بابها مفتوحاً على غير ما تركته ، ودخلت . واسرعت الام المسكينة الى السرير ... لم تكن الطفلة فيه ، وكان المكان فارغاً . ولم يكن هناك شيء من الطفلة سوى فردة حذائها الجميل . واندفعت الام خارج الغرفة ، وقذفت بنفسها الى اسفل الدرج واخذت تضرب الجدران برأسها صارخة : ابنتي ! من معه ابنتي ؟ من اخذ ابنتي ؟ كان الشارع مقفراً ، والبيت منعزلاً ؛ ولم يستطع اي انسان ان يخبرها بشيء . وسارت في المدينة ، وبحثت في جميع الشوارع ، وركضت هنا وهناك طوال النهار ، مجنونة ، تائهة ، مخيفة، متشممة الابواب والنوافذ كحيوان وحشي اضاع صغاره . كانت لاهثة ، مشعثة الشعر ، منظرها مخيف ، وفي عينيها نار جففت دموعها . كانت توقف المارة وتصرخ : ابنتي ! ابنتي ! ابنتي الصغيرة الجميلة ! من يعيد اليّ ابنتي اكون خادمة له ، خادمة كلبه ، وليأكل قلبي اذا اراد . - والتقت بخوري سان ريمي وقالت له : يا سيدي الخوري اني احرث الارض باظافري على ان ترد اليّ ابنتي ! - لقد كان منظراً يمزق القلب يا اودارد ؛ حتى اني رأيت رجلاً شديد القساوة ، هو الاستاذ بونس لاكابر ، النائب العام ، كان يبكي . - آه ! يا للأم المسكينة ! - وفي المساء عادت الى بيتها . في اثناء غيابها رأت احدى الجارات غجريتين صعدتا خفية الى البيت ومعهما صرة ، ثم هبطتا بعد ان اقفلتا الباب وهربتا مسرعتين . ومنذ رحيلهما سمع عند باكيت نوع من صراخ الاطفال وضحكت الام حتى القهقهة ، وصعدت الدرج كأنها تطير بجناحين ودفعت بابها كطلقة مدفع ، ودخلت . - شيء رهيب يا اودارد ! فبدلاً من ابنتها اناس اللطيفة النضرة ، المحمرة الوجه ، والتي كانت عطية من الله ، وجدت مسخاً صغيراً ، شنيعاً ، اعرج ، اعور ، اشوه ، يزحف صائياً على البلاط ، فخبأت عينيها مرتعبة . وقالت : اوه ! هل حولت الساحرات ابنتي الى هذا الحيوان المخيف ؟ واسرع الناس فحملوا ذلك المسخ الصغير . لقد جعلها مجنونة . انه طفل مسيخ لاحدى الغجريات المعطاة للشيطان . وبدا انه يبلغ الرابعة من العمر تقريباً ، ويتكلم لغة ليست بشرية ابداً ؛ انها كلمات لا يمكن فهمها .

– وكانت شانت فلوري قد القت نفسها على الحذاء الصغير ، وهو كل ما بقي لها ممن كانت تحب . وظلت فترة طويلة ، جامدة ، صامتة ، دون نفس بحيث تبادر الى الظن انها ميتة . وفجأة ارتعشت بكل جسدها ، وغطت تميمتها بقبلات مجنونة ، وفاضت دموعها كما لو ان قلبها قد انشق . واؤكد لكن اننا بكينا كلنا ايضاً . كانت تقول: – اوه ! يا ابنتي الصغيرة! يا ابنتي الصغيرة الجميلة ! اين انت ؟ – وهذا يعصر القلوب . واني لا ازال ابكي كلما فكرت بذلك . واولادنا كما ترون هم لب عظامنا. – يا اوستاشي المسكين! ما اجملك!. لو تعرفن كم هو لطيف ! كان بالامس يقول لي : اريد ان اكون دركياً . اوه ! يا اوستاشي ! لو فقدتك ! – لقد نهضت شانت فلوري فجأة واخذت تركض في ريمس وهي تصرخ : – الى معسكر الغجر ! اريد رقباء لإحراق الساحرات !

– كان الغجر قد رحلوا . - وكان الليل شديد الظلام . ولا يمكن اللحاق بهم . وفي الغد على بعد فرسخين من ريمس ، في مكان ينبت فيه الخلنج بين غو Gueux وتيلوا ، وجدت بقايا نار عظيمة ، وبعض الشرائط التي تخص طفلة باكيت ، وقطرات دم ، وروث تيس ماعز . والليل المنقضي كان ليل سبت . ولم يساور الشك احداً بان الغجر عقدوا مجتمعاً للسحرة في ذلك المكان والتهموا الطفلة برفقة بعلزبول كما يحدث ذلك عند المحمديين[1] (؟!...) وعندما علمت شانت فلوري بهذه الامور الرهيبة لم تبك ، بل حركت شفتيها كأنها تريد الكلام ، ولكنها لم تستطع . وفي الغد شاب شعرها . وبعد غد اختفت .

وقالت اودارد : انها بالفعل حكاية مرعبة تحمل بورغينيوني على البكاء .

واضافت جيرفيز :

– لا يدهشني ان يتعقبك الخوف من الغجر بهذه القوة .

وقالت اودارد :

---

١ – مما يؤسف له ان يكون تفكير شاعر عظيم كهيغو ملوثاً بهذا التعصب الجاهل . الناشر

- ولقد احسنت صنعاً بهربك الآن بولدك اوستاش ، لان هؤلاء هم ايضاً من غجر بولونيا .

فقالت جيرفيز : كلا ، يقال انهم من اسبانيا وقطلونيا .

فأجابت اودارد :

- قطلونيا ؟ ممكن ، بولونيا ، قطلونيا ، فالونيا ، اني اخلط دائماً بين هذه المقاطعات الثلاث ، اما المؤكد فهو انهم غجر .

واضافت جيرفيز :

- وان لهم اسناناً طويلة لأكل الاطفال ، ولن افاجأ اذا علمت ان اسميرالدا اكلت ايضاً شيئاً من لحوم الاطفال بينما تتظاهر بعدم الشراهة . ان لمعزاتها البيضاء حيلاً ماكرة تخفي تحتها بعض الاعمال الشائنة .

وكانت ماهييت تسير صامتة. كانت مستغرقة في ذلك الحلم الذي هو امتداد لقصة مؤلمة ، والذي لن يتوقف الا بعد ان ينشر فيها الارتجاج من هزة الى هزة حتى آخر عروق القلب . الا ان جيرفيز وجهت اليها الكلام .

- ألم يستطع احد ان يعرف ماذا صار بشانت فلوري ؟

فلم تجب ماهييت ، واعادت جيرفيز سؤالها هازة لها ذراعها ومنادية باسمها ، وبدت ماهييت انها استيقظت من افكارها . فقالت مرددة بصورة آلية الكلام الذي لا يزال انطباعه طرياً في اذنها :

- ماذا صار بشانت فلوري ؟

ثم بذلت جهداً لتعيد انتباهها الى معنى هذا الكلام ، وقالت بحدة :

- اوه ! لم يرها احد .

واضافت بعد توقف :

- قال البعض انهم رأوها خارجة من ريمس عند حلول الظلام من باب فليشامبول ؛ وقال الآخرون انها خرجت عند الفجر من باب بازيه القديم . وقد وجد احد الفقراء صليبها الذهبي معلقاً بالصليب الحجري في الارض التي تقوم عليها السوق العامة . انها تلك القطعة الذهبية التي كانت سبب ضياعها عام ٦١ .

وهي هدية من الفيكونت دي كوزمونتراي الجميل عشيقها الاول . ولم تكن باكيت تريد التخلي عن الصليب مهما بلغ بها البؤس ، وكانت تتعلق به تعلقها بالحياة . وحين رأينا انها تخلت عن هذا الصليب ساورنا الاعتقاد بأنها ماتت . الا ان هناك اناساً من كاباريه ـ ليفانت يقولون بأنهم رأوهـا تسير على طريق باريس حافيـة على الحصى . ولكن يجب حينئذٍ ان تكون خرجت من باب فيسل Vesle ، وكل هذا فيه اختلاف . او للقـول بشكل افضل ، اعتقد انها خرجت بالفعل من باب فيسل ، ولكنها خرجت من هذا العالم .

فقالت جيرفيز : اني لا افهمك .

فأجابت ماهييت بابتسامة كئيبة : ان فيسل هو النهر .

فقالت اودارد مرتعشة :

ـ مسكينة شانت فلوري ! غريقة !

فقالت ماهييت : غريقة ! ومن قال للاب الطيب غويبرتو حين كان يمر تحت جسر تانكو ، في الماء ، وهو يغني في زورقه ، بان عزيزته الصغيرة باكيت سوف تمر ذات يوم ايضاً تحت هذا الجسر ، ولكن بدون غناء ولا زورق ؟

وسألت جيرفيز : والحذاء الصغير ؟

فأجابت ماهييت : اختفى مع الام .

فقالت اودارد : يا للحذاء الصغير المسكين !

واودارد ، السمينة الحساسة ، تكون راضية جداً اذا تنفست الصعداء مع ماهييت . ولكن جيرفيز ، وهي اكثر فضولاً ، لم تنتـه من اسئلتها ، فقالت فجأة لماهييت : والمسخ ؟

ـ فسألت هذه : المسخ ؟

ـ المسخ الغجري الصغير الذي تركته الساحرات عند شانت فلوري بدلاً من ابنتها ! ماذا فعلت به ؟ آمل ان تكوني قد اغرقته ايضاً .

فأجابت ماهييت : كلا .

ـ كيف ؟ اذن فقد أحرق ؟ في الواقع ان هذا اكثر عدلاً . ابن ساحر !

- لا هذا ولا ذاك يا جيرفيز . لقد اهتم السيد رئيس الاساقفة بالطفل الغجري ، فأخرج الارواح الشريرة منه ، وباركه ، ونزع عنه شيطان الجسد ، وارسله الى باريس ليعرض على السرير الخشبي في نوتردام كولد لقيط .

فقالت جيرفيز متذمرة :

- هؤلاء الاساقفة ، لا يفعلون شيئاً كالآخرين لأنهم علماء . اريد ان اسألك يا اوداود عن وضع الشيطان في الاطفال اللقطاء ! لأن من المؤكد ان هذا المسخ الصغير هو الشيطان . هيه ! يا ماهييت ، ماذا فعلوا به في باريس ؟ اعتقد ان ما من محسن اراد أخذه .

فأجابت ريمواز :

لا ادري ، لان زوجي ، في ذلك الوقت بالذات ، اشترى كتابة عدل بيرو على بعد ميلين من المدينة ، ولم نعد نهتم بهذه الحكاية ، يضاف الى ذلك وجود "تلـتَّنـي" سرناي امام بيرو وهما يحجزان ابراج اجراس كاتدرائية ريمس عن النظر .

وحين كانت البورجوازيات الثلاث يعقدن هذا الحديث بلغن ساحة غريف ، واجتزنها وهن مشغولات دون ان يقفن امام مصلّى برج رولان العام ومررن آلياً نحو وتد التعذيب الذي كان الجمهور يزداد عدده حوله في كل لحظة . ومن الراجح ان المشهد الذي كان ساعتئذٍ يستلفت جميع الانظار جعلهن ينسين جحر الجرذان تماماً والموقف الذي كن اقترحن اتخاذه لو لم ينبههن فجـــأة الى ذلك اوستاش ابن السادسة الذي كانت امه تقوده من يده ، اذ قال كما لو ان غريزة انذرته بأن جحر الجرذان اصبح وراءه :

- امي ، ااستطيع الآن ان آكل الحلوى ؟

لو كان اوستاش اكثر استقامة ، اي اقل بطنة ، لكان انتظر ايضاً ، ولم يكن عليه ان يجازف بهذا السؤال الخجول الا عند العودة ، اي في حي الجامعة وفي المنزل عند المعلم اندريه مونيه ، شارع مدام لافالانس ، حين يحول ذراعا السين وجسور المدينة الخمسة بين جحر الجرذان والكعكة إذ قال :

– أأستطيع ان آكل قطعة الحلوى الآن يا امي ؟

ان هذا السؤال غير الحكيم ، وفي اللحظة التي القاه اوستاش فيها ، ايقظ انتباه ماهييت فقالت :

– بالمناسبة ، لقد نسينا الحبيسة ! اروني جحر جرذانكن لأحمل اليه حلواه .

فقالت اودارد : حالاً ، ففي ذلك عمل خير .

ولم يكن هذا ما توقعه اوستاش، اذ قال وهو يصدم كتفيه بأذنيه بالتناوب ، كعلامة مثلى على الاستياء في حالة كهذه :

– خذي كعكتي !

وعادت النسوة الثلاث ادراجهن ووصلن الى قرب برج رولان ، فقالت اودارد للاثنتين :

– يجب الا ننظر نحن الثلاث من الثقب دفعة واحدة لئلا تخاف الحبيسة . تظاهرا انتما بقراءة كتاب الصلاة بينما انا اطل من الكوة . فالحبيسة تعرفني قليلا . وسأنذركما عندما يصبح بامكانكما ان تأتيا .

وذهبت وحدها الى الكوة . وحين اخترقتها بنظرها ارتسمت شفقة عميقة على جميع قسماتها ، وهيئتها المرحة الصريحة غيرت تعبيراتها ولونها فجأة كما لو انها انتقلت من شعاع شمس الى شعاع قمر . وتبللت عينها وتشنج فمها كأنها على اهبة البكاء . وبعد لحظة ، وضعت اصبعاً على شفتيها واشارت الى ماهييت ان تأتي لترى .

وجاءت ماهييت متأثرة صامتة تسير على رؤوس اصابعها ، كما يقترب من سرير محتضر .

لقد كان بالفعل مشهداً حزيناً ذلك المشهد الذي بدا لعيون المرأتين حين كانتا تنظران دون حركة او تنفس من كوة جحر الجرذان المشبكة بالحديد .

كانت الحجرة ضيقة عريضة اكثر مما هي عميقة ، مقببة بأقواس ، يشبه

منظرها من الداخل مخروب تاج اسقف . وعلى البلاط العاري الذي يشكل ارضها ، وفي احدى الزوايا ، كانت هناك امرأة جالسة ، او بالاحرى مقعية . وكانت تسند ذقنها الى ركبتيها بحيث يصبح ذراعاها المتشابكان مقابل صدرها . وهي ملمومة هكذا على نفسها وترتدي كيساً اسمر ذا طيات عريضة يغطيها كلها، وشعرها الطويل الاشهب المجزوز من الامام يسقط على وجهها وعلى طول ساقيها حتى قدميها . انها لا تمثل لاول وهلة سوى شكل غريب مقطوع على ارضية الغرفة المظلمة ، نوع من المثلث الاسود يقطعه نور النهار الآتي من الكوة الى شطرين ، الاول قاتم والآخر مضاء . انه واحد من تلك الاشباح المقسومة بين النور والظلمة ، كما يبدو في الاحلام ، وفي آثار غويا Goya الغريبة ، الشاحبة الجامدة ، العابسة ، الجاثمة على قبر او مستندة الى حديد سجن . انها لم تكن امرأة ، ولا رجلاً ، ولا كائناً حياً ، ولا شكلاً محدداً ؛ لقد كانت صورة ، نوعاً من الرؤيا يتقاطع عليها الواقع والوهم ، كالظلام والنهار . ولا يكاد يبين جانب وجه هزيل صارم تحت شعرها المنسدل حتى الارض ؛ ولا يكاد ثوبها يترك ممراً لقدم عارية كانت تتشنج على البلاط القاسي الجليدي . اما القليل من الشكل البشري الذي يستشف تحت هذا الغطاء الاسود فكان يبعث على الارتعاش .

تلك الصورة التي تُدخل في الظن انها مطبوعة على البلاط كانت تبدو خالية من الحركة ، والتفكير ، والنفس . فهي مضطجعة تحت الكيس القماشي الرقيق، في كانون الثاني ، على البلاط الغرانيتي العاري ، دون نار ، وفي ظلام سجن لا توصل اليه النافذة المفتوحة من الخارج سوى ريح الشمال ، اما الشمس فلا . ولا تبدو انها تتعذب او تشعر ، حتى ليخيل انها صنعت حجراً مع السجن، وجليداً مع الفصل . وكانت يداها مضمومتين وعيناها ثابتتين . ويخالها المرء من النظرة الاولى شبحاً ، ومن الثانية تمثالاً .

الا ان شفتيها الزرقاوين كانتا تنفتحان بين فترة واخرى لنفخة ، وترتجفان ، الا انهما ميتتان وآليتان كأوراق تنفصل في الهواء .

ومن عينيها المظلمتين كانت تنفلت نظرة ، نظرة لا توصف ، نظرة عميقة ، حزينة ، هادئة ، محلقة دون انقطاع في زاوية من الحجرة لا يمكن رؤيتها من الخارج ؛ نظرة تبدو انها تربط جميع الافكار القائمة في تلك النفس الشقية الى ما لا اعرف من شيء غامض .

تلك كانت المخلوقة التي تلقت من مأواهـــا اسم « حبيسة » ومن ملابسها اسم لاساشيت[1] .

وكانت النسوة الثلاث ، لأن جيرفيز انضمت الى ماهييت واودارد ، ينظرن من الكوة . ورؤوسهن تحجب نور المحبس الضعيف دون ان تعيرهن البائسة التي حرمنها النور اي انتباه . وقالت اودارد بصوت منخفض :

– يجب الا نزعجها ، فهي في حالة ذهول ، انها تصلي .

الا ان ماهييت كانت تتأمل بمزيد من القلق ذلك الرأس الشاحب الذابل ، الاشعث ، وقد امتلأت عيناها بالدموع وتمتمت :

– ما أغرب هذا !

وادخلت رأسها منخلال قضبان النافذة الحديدية وتوصلت الى ايصال نظرها الى الزاوية التي يتعلق بها نظر البائسة بشكل دائم .

وحين سحبت رأسهـا من الكوة ، كان وجههـا مبللاً بالدموع . ووجهت السؤال الى اودارد :

- ماذا تسمون هذه المرأة ؟

فأجابت اودارد : نطلق عليها اسم الاخت غودول .

فقالت ماهييت : وانا ادعوها باكيت لاشانت فلوري .

ووضعت حينئذٍ اصبعاً على فمها ، واشارت الى اودارد المنذهلة ان تدخل رأسها من الكوة وتنظر .

وتطلعت اودارد فرأت في الزاوية المحدقـــة بها عـــين الحبيسة بذلك

---

١ – لاساشيت Sachette : فئة من الراهبات ترتدي الواحدة منهن ثوباً بشكل كيس او برنساً بشكل كيس .

الانذهال القاتم حذاء صغيراً من الحرير الوردي مطرزاً بألف زخرف من الفضة والذهب .

وتطلعت جيرفيز بعد كلود ، وحينئذٍ انخرط النسوة الثلاث بالبكاء بعد ان تأملن الام البائسة .

ولكن نظراتهن ودموعهن لم تله الحبيسة . فقد ظلت يداها مضمومتين ، وشفتاها صامتتين ، وعيناها ثابتتين . وكان الحذاء الصغير الذي تنظر اليه بهذا الشكل يفطر قلب كل من يعرف قصتها .

ولم يكن النسوة الثلاث قد لفظن بعد اية كلمة ؛ لم يكنّ يجرؤن على الكلام حتى بصوت منخفض . وهذا الصمت الكبير ، هذا الألم العظيم ، هذا الضياع الكبير حيث اختفى كل شيء خارج شيء واحد ، كان تأثيره عليهن كتأثير من يترأس الصلاة في الفصح او الميلاد . فصمتن ، وجمعن افكارهن . وكن مستعدات للركوع . وبدا لهن انهن دخلن الى كنيسة يوم الفرض الكنسي في جمعة الآلام .

وجيرفيز ، وهي الاكثر فضولاً بين الثلاث ، وبالنتيجة هي الاقل حساسية ، حاولت ان تجعل الحبيسة تتكلم ، فنادت .

– ايتها الاخت ! ايتها الاخت غودول !

ورددت هذا النداء ثلاث مرات رافعة صوتها في كل مرة . الا ان الحبيسة لم تأت بحركة ، بكلمة ، بنظرة ، بآهة ، حتى ولا بعلامة تدل على الحياة .

وقالت اودارد بدورها ، بصوت اكثر عذوبة ولطفاً :

– ايتها الأخت القديسة غودول !

وكان الجواب صمتاً وعدم حركة . وقالت جيرفيز :

– انها امرأة غريبة ، لن تتأثر ولو بمدفع !

وقالت اودارد متأوهة : ربما كانت صمّاء .

واضافت جيرفيز : وربما عمياء .

وقالت ماهييت : وربما ميتة .

من المؤكد انه اذا لم تكن الروح قد تركت بعد هـذا الجسد العادم الحركة ، النائم ، المستغرق في السبات ، فانها على الاقل تكون قـد انسحبت واختبأت في الاعماق حيث لا تصل اليها مدارك الاعضاء الخارجية . وقالت اودارد :

– علينا اذن ان نترك الكعكة في الكوة . وسيأخذها احـد الاولاد . ما العمل لايقاظها ؟

واوستاش الذي كان حتى الآن مشغولاً بعربة صغيرة يجرهـا كلب كبير مرت امامه، رأى فجأة ان قائداته الثلاث ينظرن الى شيء في الكوة، فاجتاحه الفضول بدوره ، وصعد على نصب ، واستقام على رأس قدمه ، ووضع وجهه السمين القرمزي في الفتحة ، وصرخ :

– امي ، تعالوا وانظرن ما ارى .

وارتجفت الحبيسة لصوت الولد ، الواضح ، الطري ، الرنان ، وادارت رأسها بحركة لولب فولاذي جافة وفجائية ، وابعدت شعرها عن جبهتها بيديها الطويلتين المعروقتين . وركزت على الولد عينين مندهشتين متألمتين يائستين . لم تكن هذه النظرة سوى برق . اذ صرخت فجأة مخبئة رأسها بين ركبتيها ، وبدا ان صوتها الأجش يمزق صدرها وهو يمر به :

– اوه يا ربي ! على الاقل لا ترني ابناء الآخرين !

فقال الطفل برزانة : صباح الخير يا سيدتي .

هذه الهزة ايقظت الحبيسة اذا صح القول . واجتازت جسدها رجفة طويلة من الرأس الى القدمين ، واصطكت اسنانها ، ورفعت رأسها نصف رفعة ، وقالت وهي تشد ذراعيها على خصريها ممسكة قدميها بيديها كأنها تريد تدفئتها :

– اوه ! ما اقسى هذا البرد !

فقالت اودارد بشفقة عظيمة :

– يا للمرأة المسكينة ! اتريدين قليلًا من النار ؟

فهزت رأسها علامة الرفض .

وقالت اودارد وهي تقدم اليها زجاجة :

– حسناً ، هذا شراب مقوّي يبعث فيك الدفء . اشربي .

فهزت رأسها من جديد ، وتطلعت الى اودارد واجابت :

– ماء .

وألحّت اودارد :

– كلا ايتها الاخت . ليس هذا شراب كانون الثاني . يجب ان تشربي قليلاً من الخمر المحلّى وتأكلي هذه الكعكة المصنوعة من خميرة الذرة التي صنعناها لك .

فرفضت الكعكة التي قدمتها اليها ماهييت وقالت :

– خبز اسود .

وقالت جيرفيز ، وقد اجتاحتها عاطفة الاحسان بدورها وفكت غطاءها الصوفي :

– خذي . هذا غطاء اكثر دفئاً من غطائك . ضعيه على كتفيك .

فرفضته كما رفضت الزجاجة والكعكة واجابت :

– كيس .

فقالت اودارد الطيبة: ولكن يجب ان تنتبهي الى ان البارحة كان يوم عيد.

فقالت الحبيسة :

– اني منتبهة . لقد مضى عليّ يومان وليس في جرتي ماء .

واضافت بعد صمت : انه عيد . وقد نسوني . وحسناً فعلوا . لماذا يفكر الناس بي انا التي لم تفكر بهم ? للفحم المنطفىء رماد بارد .

وكأنها تعبت من كثرة الكلام فأسقطت رأسها على ركبتيها . اما اودارد البسيطة المحسنة ، التي ظنت انها فهمت من كلامها الاخير انها لا تزال تشكو البرد ، فقد اجابتها بسذاجة :

– اتريدين اذن شيئاً من النار ?

فقالت بلهجة غريبة :

– نار ! وهل ستشعلين ايضاً قليـــلاً من النار للصغيرة المسكينة الموجودة تحت الارض منذ خمس عشرة سنة ؟

وارتجفت اعضاؤها كلها ، وكان كلامها يهتز ، وعيناها تتألقان ، ونهضت على ركبتيها ومدت فجأة يدها البيضاء المزيلة نحو الولد الذي كان ينظر اليها بدهشة، وصرخت :

– خذوا هذا الولد . ستمر الغجرية !

وحينئذٍ خرّت على وجهها ، وصدمت جبهتها البلاط محدثةً ضجـــة سقوط حجر على حجر . وظن النسوة الثلاث انها ماتت . الا انها تحركت بعد لحظـة ورأينها تزحف على ركبتيها وذراعيها الى الزاوية التي كان فيها الحذاء الصغير . وحينئذٍ لم يعدن يجرؤن على النظر . ولم يشاهدنها ولكنهن سمعن الف قبـــلة والف آهة ممزوجة بصراخ يمزق القلب وبضربات صمّاء كضربات رأس على الجدار. وبعد احدى هذه الضربات العنيفة التي ارتعش لها النسوة الثلاث لم يعدن يسمعن شيئاً . فقالت جيرفيز بعد ان خاطرت بمد رأسها من النافذة :

– اتكون قد قتلت نفسها ؟ ايتها الاخت ! ايتها الاخت غودول !

ورددت اودارد : ايتها الاخت غودول !

وقالت جيرفيز :

– آه ! يا الهي ! انها لا تتحرك ! هل ماتت ؟ – غودول ! غودول !

اما ماهييت التي كانت تجرض بريقها حتى الآن بحيث لا تستطيع الكـــلام فقد بذلت جهدها لتقول :

– إنتظرن .

ثم انحنت نحو الكوة وقالت :

– باكيت ! باكيت لاشانت فلوري !

ان الطفل الذي ينفخ بسذاجة على فتيل صاروخ لم يشعل جيداً ويجعله ينفجر في عينيه لم يكن اكثر رعباً من ماهييت على اثر مفعول هذا الاسم الملقى فجأة في حجرة الاخت غودول . فقد ارتجفت الحبيسة بكل جسدها ، ونهضت واقفة

على قدميها العاريتـــين ، وقفزت الى النافذة بعينين ملتهبتين فجعلت ماهييت واودارد والمرأة الاخرى والولد يتقهقرون حتى حاجز الرصيف .

الا ان وجه الحبيسة العابس ظهر ملتصقاً بحديد النافـــذة . وقد صرخت بضحكة مرعبة :

– اوه ! اوه ! الغجرية هي التي تناديني .

في تلك اللحظة كان هناك مشهد يجري عند وتد التعذيب استقرت عليه عينها الشاردة . فتغضنت جبهتها من الرعب ، ومدت ذراعيها المعروقتـين الى خارج حجرتها وصرخت بصوت يشبه الحشرجة :

– اهذا انت ايضاً يا ابنة الغجر ! اهذا انت التي تنادينني يا سارقة الاطفال ! لا بأس يا ملعونة ! ملعونة ! ملعونة ! ملعونة !

٤

دمعة مقابل قطرة ماء

كان هذا الكلام نقطة التقاء مشهدين تطورا في اللحظة ذاتها بشكل متواز حتى الآن ، وكل منهما على مسرحه الخاص ، الاول ، هو ما قرأناه في جحر الجرذان ، والآخر ، ما سوف نقرؤه على درج وتد التعذيب . لم يكن هناك شهود على الاول سوى النسوة الثلاث اللواتي تعرف القارىء اليهن ؛ اما الثاني فكان مشاهدوه جميع الناس الذين رأيناهم سابقاً يحتشدون في ساحة غريف حول وتد التعذيب والمشنقة .

وذلك الجمهور الذي جعله الرقباء الاربعة المتمركزون من الساعة التاسعة صباحاً في زوايا وتد التعذيب الاربع ، يأمل بمشاهدة تنفيذ حكم ، ليس عملية شنق دون شك ، بل جلد ، صلم اذنين ، او شيء من هذا ، ان هذا الجمهور تكاثر بسرعة كبيرة بحيث اصبح الرقباء الاربعة المحاصرون عن قرب بحاجة اكثر من مرة الى ان « يحصروه » كما كان يقال آنذاك بضربات سوط وكفل حصان .

وهؤلاء السوقة المحافظون على النظام بانتظار عملية التنفيذ لم يبدوا اي ملل ، بل كانوا يتلهون بالنظر الى وتد التعذيب ، وهو نوع من البناء الاثري بسيط جداً ومؤلف من بناء مكعب بعلو عشرة اقدام، واجوف من الداخل . وهناك درج صلب من حجر غير مشذب يدعى « سلّماً » عليه دولاب افقي من خشب السنديان المليء . كان المحكوم يُربط على هذا الدولاب راكعاً على ركبتيه

وذراعاه وراء ظهره . وهناك قضيب خشبي تحركه رافعة مخبأة في داخل البناء الصغير وتحدث دورة للدولاب الذي يبقى دائماً في وضع افقي . وبهذه الطريقة يعرض وجه المحكوم على جميع نواحي الساحة بالتتابع . وهذا ما كانوا يعبرون عنه بعبارة « تدوير المجرم » .

ووتد تعذيب ساحة غريف كما نرى لا يقدم جميع تسليات وتـــد تعذيب السوق . فليس فيه اي شيء يتعلق بفن البناء ، ولا ما يتعلق بالبناء التذكاري ، ولا سطح ذو صليب حديدي ، ولا مصباح مثمن الوجوه ، ولا اعمدة صغيرة واهية تتفتح على حافة السطح تيجاناً وزهوراً ، ولا موازين خيالية ومسيخة ، ولا هيكل بناء منقوش ، ولا نحت دقيق محفور بعمق في الحجر .

كان يجب الاكتفاء بتلك الوجوه الاربعة من الحجر غير المنحوت مـــع بلاطتين من الحجر الرملي ، ومشنقة فظة من الحجر ، هزيلة وعارية على حدة .

انها لمأدبة حقيرة بالنسبة لهواة فن العمارة القوطي . وصحيح انـــه لم يكن هناك شيء اقل غرابة من الابنية التذكارية سوى مضيعي الوقت الشجعـان في القرون الوسطى ، وانهم كانوا قليلي الاهتمام بجمال وتد التعذيب .

واخيراً وصل المحكوم عليه مربوطاً الى مؤخرة عربة ، وحـين رُفع الى السطح ، حين اصبحت رؤيته ممكنة من جميع جهات الساحة وهو مربوط بالحبال والسيور الى دولاب وتد التعذيب ، انفجرت في الساحة جلبة عظيمة ممزوجة بالضحك والهتافات . لقد عرف الناس كازيمودو .

وكان هو بالفعل . وكانت العودة غريبة . تعذيب على الوتد في تلك الساحة نفسها التي كان الجمهور يحييه عليها بالامس ويهتف وينادي به بابا واميراً للمجانين ، في موكب دوق مصر ، وملك الطون ، وامبراطور الجليل . اما ما كان مؤكداً فهو انه لم يكن في الجمهور عقل ، حتى ولا هو نفسه الذي كان محتفلاً ومحكوماً دورياً ، يستخلص هذا التقارب بشكل واضح في فكره . وكان غرنغوار وفلسفته ينقصان هذا المشهد .

وأمر ميشال نواريه ، نافخ البـــوق المحلف لمولانا الملك ، بالصمت وصرخ

بالتوقف وفقاً لامر السيد الحاكم . ثم انعطف وراء العربة مع رجاله .

وكازيمودو الذي لا يتأثر لم تطرف له عين . وكل مقاومة اصبحت مستحيلة بسبب ما كانوا يسمونه آنذاك وفقاً لتعبير الدائرة الجنائية « شدة وصلابة القيود » ، وهذا يعني ان السيور والسلاسل قد غرزت في لحمه . وبعد فهذا هو تقليد السجن والسجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، والذي لم يضع لأن الاصفاد لا تزال محفوظة عندنا نحن الشعب المتمدن الهادىء ، الانساني (السجن بالاشغال الشاقة ، والمقصلة ضمن ذلك) .

لقد تركهم يقودونه ، ويدفعونه ، ويحملونه ، ويقعدونه ، ويربطونه ، ويعيدون ربطه. لم يكن بالمستطاع معرفة اي شيء على وجهه سوى دهشة متوحش او أبله . لقد كانوا يعرفون انه اصم وتخيلوه اعمى .

اركعوه على اللوحة المستديرة وتركهم يفعلون ذلك ، وعروه من قميصه وسترته الى الحزام ، وتركهم يفعلون ذلك . وشبكوه بجهاز جديد من السيور والأبازيم ، وتركهم يشبكونه ويربطونه . الا انه بين وقت وآخر كان ينفخ بشدة كعجل ذي رأس معلق . يهتز على حافة عربة الجزار .

وقال جهان فرولو دي مولان لرفيقه روبين بوسيبان (لان الطالبين تبعا المحكوم عليه) .

– الاحمق ، لا يفهم اكثر من خنفسة مسجونة في علبة !

ومرت ضحكة مجنونة في الجمهور حين رأوا حدبة كازيمودو عارية ، وصدره الذي يشبه صدر الجمل ، وكتفيه المكتنين الاشعرين . واثناء هذا المرح كله ، كان هناك رجل بثياب المدينة ، ذو قامة قصيرة وهيئة متينة ، قد صعد الى السطح ووقف الى جانب المحكوم عليه . وقد دار اسمه بين الحضور بسرعة . انه المعلم بيارا تورتيرو القائم المحلف باعمال التعذيب في الشاتليه .

وبدأ عمله بان وضع على احدى زوايا وتد التعذيب مرملة سوداء كانت كبسولتها العليا ملأى برمل احمر يتساقط في الوعاء الاسفل . ثم خلع ثوبه الخارجي فشوهد سوط رقيق مفتول من سيور طويلة ، بيضاء ولامعة ، معقدة

مجدولة ، مسلحة باظافر معدنية ، يتدلى من يده اليمنى . اما باليد اليسرى فقد ثنى باهمال قميصه حول ذراعه الايمن حتى الابط .

وصرخ جهان فرولو رافعاً رأسه الاشقر الأجعد فوق الجمهور (ولأجل ذلك صعد على كتفي رفيقه روبين بوسيبان) :

– تعالوا وانظروا ايها السادة والسيدات ! انهم سيجلدون المعـلم كازيمودو قارع الاجراس عند اخي الخوراسقف دي جوزا . وهو بنـاء شرقي عجيب ظهره قبة وساقاه عمودان مقوسان .

وانفجر الجمهور ضاحكاً ، وخصوصاً الاولاد والفتيات .

واخيراً ضرب الجلاد برجله ، فأخـذ الدولاب يدور . وترنح كازيمودو تحت قيوده ، والذهول الذي ارتسم فجأة على وجهه القبيح ضاعف من ضحك المحيطين به .

وفجأة ، في اللحظة التي عرض فيها الدولاب ، اثناء ثورته ، ظهر كازيمودو الاحدب على المعلم بيارا رفع هذا ذراعه،والسيور الدقيقة الصافرة في الهواء مجدة كقبضة من الافاعي سقطت مبذورة على كتفي المسكين .

وقفز كازيمودو على نفسه كأنه اوقظ مرتجفاً . لقد بدأ يفهم . وتلوى في قيوده ؛ وفسخ عضلات وجهه انقباض عنيف من المفاجـأة والالم ؛ ولكن لم تصدر عنه اية آهة . لقد ادار رأسه فقط الى الوراء ، والى اليمـين ، ثم الى الشمال وهو يؤرجحه كثور لدغته ذبابة البقر في خاصرته .

والضربة الاولى تلتها ضربة ثانية ، ثم ثالثة ، واخرى ، واخرى ، ودائماً . فالدولاب لم ينقطع عن الدوران ولا الضربات عن التساقط ، ثم سال الدم . لقد رؤي وهو يسيل بألف خيط على كتفي الاحدب السوداوين ، وضربات السيور المتواترة في دورانها الذي يمزق الهواء كانت تنثره قطرات بين الجمهور .

واستعاد كازيمودو ، في الظاهر على الاقل ، عدم شعوره الاول . وقـد حاول في بادىء الامر ان يقطع وثاقه خفية وبدون هزة خارجيـة . ورؤيت عيناه تلمعان وعضلاته تتصلب ، واعضاؤه تتجمع ، والقيود والسلاسل تتمدد .

كان الجهد قوياً ، مدهشاً ، يائساً ؛ ولكن قيود الحاكم القديمة قاومت . لقد قضقضت وهذا كل شيء . وسقط كازيمودو منهوكاً ، وترك الذهول مكانه على قسماته لعاطفة مرة عميقة من خمود الهمة . فأطبق عينه الوحيدة ، واسقط رأسه على صدره وتظاهر بالموت .

ومنذ ذلك الوقت لم يعد يتحرك . ولم يعد أي شيء يستطيع انتزاع حركة منه . لا دمه الذي لم ينقطع عن السيلان ، ولا الضربات التي كانت تتضاعف من الفوران ، ولا غضب الجلاد الذي نشط وانتشى من تنفيذ العقوبة ، ولا ضجة السيور المخيفة الاكثر لذعاً وصفيراً من اقدام البعوض .

واخيراً فان مباشراً من الشاتليه ، يرتدي السواد ويمتطي جواداً اسود ، كان واقفاً الى جانب الدرج منذ بدء التنفيذ ، مد عصاه الابنوسية نحـــو المرملة ، فتوقف الجلاّد وتوقف الدولاب ، وفتح كازيمودو عينه ببطء .

لقد انتهت عملية الجلد . وتقدم خادمان للجلاد المحلف فغسلا كتفي المحكوم الدامين ، وفركاهما بمرهم لا أعرفـــه الا انه اطبق جميع الجراح ، والقيا على ظهره نوعاً من الوزرة، صفراء مفصّلة بشكل حلة القداس. الا ان بيارا تورتيرو عصر السيور الحمراء المشبعة بالدم على البلاط .

ولم يكن قد انتهى كل شيء بالنسبة لكازيمودو . فقد بقي عليه ايضاً ان يتحمل تلك الساعة على وتد التعذيب والتي اضافها الاستاذ فلوريان باربيديين عن حق الى حكم السيد روبير ديستوتفيل ؛ وقد جرى كل شيء لمجد اللعب القديم على الكلمات الفيزيولوجية والسيكلوجية الذي ابتدعه جان دي كومين : اصم ، مستحيل [1] .

اذن فقد اعيدت المرملة ، وترك الاحدب مربوطاً على اللوحة الخشبية لينفذ الحكم حتى النهاية .

---

١ — الكلمتان باللاتينية حيث يبدو اللعب على الكلمات وهما : Surdus, absurdus وبالفرنسية sourd , absurde .

وفي القرون الوسطى على الخصوص ، فان الشعب في المجتمع كالطفـــل في العائلة . وما دام باقياً في تلك الحالة من الجهـــل الاولي ، والقصور المعنوي والفكري ، فيمكن القول عنه كما يقال عن الطفل :

هذا السن لا يرحم [١] .

وقد أبنّا سابقاً ان كازيمودو كان بشكل عام مكروهاً لأكـــثر من سبب وجيه ، وهذا صحيح . ولا يكاد يوجد متفرج في هذا الجمهور لم يكن موضوع شكوى ، او لم يظن انه كذلك ، من احدب نوتردام السيء . وقد كان السرور عاماً لرؤيته على وتد التعذيب ؛ والحكم القاسي الذي تعرض له ، والهيئة المحزنة التي اصبح فيها ولم تثر شفقة احد من عامة الناس ، جعل حقد الجمهور عليه اكثر شراسة وسلّحاه بجرية من المرح .

ومرة اخرى ايضاً ، تمت ملاحقـــة الجرم باسم المجتمع كما يرطن اليوم ذوو القبعات المربعة ، وجاء دور الف ثأر خاص . وهنـــا ، كما في القاعة الكبرى ، ثار غضب النساء .. فقـــد كن جميعهن يحفظن له شيئاً من الكراهية ، بعضهن بسبب خبثه ، والاخريات بسبب قبحه . وهؤلاء الاخيرات كن الاكثر هياجاً. فقد قالت احداهن .

– اوه ! قناع الدجال .

وصرخت الاخرى : الراكب على مسكة مكنسة .

وعوت ثالثة : الكشرة الجميلة المفجعة التي ستجعل منك بابا للمجانين . ما ابعد اليوم عن البارحة !

وقالت عجوز : ما اجمل هـــذا ! ها هي الكشرة على وتد التعذيب . متى تصبح كشرة المشنقة ؟

– متى تعتمر جرسك الكبير على عمق مائة قدم تحت الارض ايها القارع الاجراس الملعون ؟

---

١ – عبارة مأخوذة من اسطورة « اليامتان » للافونتين .

– مع ذلك فهذا الشيطان هو الذي يقرع الجرس لصلاة التبشير .
– اوه ! الاصم ! الاعور ! الاحدب ! المسخ !
– صورة تجهض الحامل افضل من كل طب وصيدلة !

اما الطالبان، جهان دي مولان وروبين بوسيان ، فقد أخذا يغنيان بصوت مرتفع تلك اللازمة الشعبية القديمة :

الحبل لرجل السوء
والمحرقة لقبيح المنظر .

وآلاف من الاهانات الاخرى، وصرخات السخرية ، واللعنات ، والضحكات، والحجارة ، كانت كلها تتساقط هنا وهناك كالمطر .

كان كازيمودو اصم ، ولكنه يرى بوضوح ، فالسخط العام لم يكن ارتسامه على الوجوه اقل من تمثله بالكلام . وكان الرشق بالحجارة يفسر الضحك المتفجر .

لقد تمالك نفسه في بادىء الأمر . ولكن هذا الصبر الذي تصلب تحت سوط الجلاد تراخت عزائمـــه شيئاً فشيئاً واندحر امام لدغات هـــذه الحشرات . وثور استوريا [1] الذي لا يتأثر الا قليلاً من هجمات مصارع الثيران يهتاج من الكلاب والسهام .

لقد اجال اولاً ، وبهدوء ، نظرات تهديد في الجمهور . ولكن نظرته وهو موثق كانت عاجزة عن ابعاد هذه الذبابات التي تعض جراحه . ثم اهتـــاج في قيوده ، ووثباته الفجائية الهائجة جعلت عجلة وتد التعذيب القديمة تصدر ازيزاً على الالواح الخشبية ، الا ان ذلك زاد من الهزء اللاذع والصراخ الساخط .

وحين عجز المسكين عن تحطيم قيوده عاد الى الهدوء . الا ان آهة هياج بين وقت وآخر كانت ترفع تجاويف صدره كلها. ولم يكن على وجهه اي اثر للخجل او الاحمرار . كان بعيداً عن حالة المجتمع وقريباً من حالة الطبيعة ليعرف ما هو الخجل . وبعد ، فهل العار شيء محسوس الى هذه الدرجة من التشويه ؟ ولكن

---

١ – استوريا **Asturies** : مقاطعة اسبانية في جبال البيرينيه .

الغضب ، والحقد ، واليأس نشرت كلها ببطء على هذا الوجه القبيح سحابة كانت تزداد دكنة ، وتزداد فيها شحنة كهربائية تفجرت آلافاً من البروق في عين العملاق الوحيدة .

وبدات هذه السحابة تنقشع عند مرور بغلة تخترق الجمهور ويمتطيها كاهن ، فقد سكن وجه المحكوم المسكين وحل محل الهياج الذي كان يشنجه ابتسامةٌ غريبة ملأى بالعذوبة ، والوداعة ، والحنو الفائق الوصف . واصبحت الابتسامة اكثر وضوحاً ، واكثر ميزة ، واكثر اشراقاً بقدر اقتراب الكاهن . كان ذلك كمجيء مخلِّص ٍ يحيّيه المسكين .

وفي اللحظة التي اصبحت فيها البغلة قريبة جداً من وتد التعذيب بحيث يستطيع راكبها التعرف الى المحكوم ، خفض الكاهن عينيه ، وعاد فجأة ادراجه ، ونخس البغلة بالمهازين كانه متعجل ليتخلص من المتافات المهينة غير مهتم بتحية ومعرفة المسكين له وهو في موقف كهذا .

كان هذا الكاهن هو الخوراسقف الدوم كلود فرولو .

وعادت السحابة اكثر دكنة على وجه كازيمودو ، وامتزجت الابتسامة بها لبعض الوقت ، ولكنها كئيبة ، غير مشجعة وحزينة بشكل عميق .

ومضى الوقت . لقد مضى عليه هناك ساعة ونصف على الاقل وهو يمزق ، مهان ، ينهال الهزء عليه دون انقطاع ، ويُرجم احياناً .

وفجأة تحرك في سلاسله من جديد مع مضاعفة يأس اهتزت له كل الصقالة التي تحمله . وقطع الصمت الذي احتفظ به باصرار حتى الآن ، وصرخ بصوت اجش مهتاج يشبه النباح اكثر مما يشبه صرخة بشرية وغطى على جلبة صراخ السخط :

— اريد ان اشرب !

ان صرخة الشقاء هذه ، البعيدة عن تحريك الرأفة ، زادت من تسلية عامة الشعب الباريسي المحيط بالدرج ، والذي لم يكن اقل شراسة ووحشية ، اذا

أخذ ككتلة ، كجمهور ، من تلك القبيلة من المتشردين التي اخذنا اليها القارىء سابقاً ، والتي كانت الطبقة الاكثر انحطاطاً في الشعب . ولم يرتفع صوت حول البائس الا اذا كان هزءاً من عطشه . ومن المؤكد انه كان في تلك اللحظة مضحكاً وكريهاً اكثر مما يثير الشفقة بوجهه القرمزي المبلل ، وعينه التائهة ، وفمه المزبد من الغضب والألم ، ولسانه المسحوب الى النصف . ويجب القول ايضاً انه كان يوجد في ذلك الحشد بعض النفوس المحسنة من البورجوازيين والبورجوازيات الذين حاولوا ان يحملوا قدح ماء الى ذلك المخلوق البائس المعذب ، الا انه كان يسيطر حول وتد التعذيب عامل من الخجل والخزي كان كافياً لإبعاد السامري الصالح .

واجال كازيمودو في الجمهور نظراً بائساً لبضع دقائق ، وردد بصوت اكثر حزناً : اريد أن اشرب !

وانفجر الضحك .

وصرخ روبين بوسيبان وهو يقذف وجهه باسفنجة مبلولة في الساقية :

– اشرب هذه . خذ ايها الاصم الدميم ! انا مدين لك .

وقذفت امرأة رأسه بحجر وهي تقول :

– سيعلمك هذا ان توقظنا ليلاً بجرسك .

وعوى كسيح باذلاً جهده ليصيبه بعكازه :

– هيه ! الا تزال تلقي علينا الضرر من اعلى ابراج نوتردام :

وقال رجل وهو يرشق صدره بجرة مكسورة :

هذه طاسة للشرب ! انت الذي جعل امرأتي تلد طفلاً برأسين لمجرد مرورك امامها .

وعوت عجوز وهي ترشقه بقرميدة :

– وهرتي ولدت هراً بستة ارجل !

وردد كازيمودو للمرة الثالثة : اريد ان اشرب !

في تلك اللحظة شوهد الجمهور يتنحى جانباً وخرجت منه فتاة ترتدي لباساً غريباً . وكانت ترافقها معزاة بيضاء ذات قرنين مذهبين وتحمل بيدها دفاً باسكياً . وتألقت عين كازيمودو . انها الغجرية التي حاول اختطافها في الليلة السابقة بهجوم مفاجيء كان يشعر بشكل مبهم انه يعاقب بسببه في هذه اللحظة ؛ مع ان الامر لم يكن كذلك ، ما دام لم يعاقب الا لأنه اصم ، ولان محاكمته جرت بواسطة قاض اصم . وكان يعتقد انها جاءت تثأر منه ايضاً وتكيل له بعض الضربات كالآخرين .

ورآها فعلاً تصعد الدرج بسرعة ، فغص بالغضب والحزن ، وكان يريد تحطيم وتد التعذيب ، ولو استطاع بريق عينه ان يصعق لكانت الغجرية اصبحت نثاراً قبل ان تصل الى السطح .

لقد اقتربت ، دون اية كلمة ، من المحكوم الذي انفتل عبثاً ليتخلص منها ، واخذت من حزامها طاسة من القرع اليابس وحملتها بلطف الى شفتي البائس الجافتين .

وحينئذٍ ، شوهدت في تلك العين ، التي كانت حتى الآن جافة ملتهبة، دمعة كبيرة تتدحرج وتسقط ببطء على طول ذلك الوجه القبيح الذي شنجه اليأس طويلاً . كانت اول دمعة سكبها البائس .

الا انه نسي ان يشرب . ورممت الغجرية كشرتها الصغيرة بملل ، واسندت الطاسة الى فم كازيمودو المنكمش وهي تبتسم ، فشرب بجرعات طويلة . لقد كان عطشه محرقاً .

وعندما انتهى ، مد البائس شفتيه السوداوين ليقبل دون شك اليد الجميلة التي جاءت تناصره . ولكن الفتاة لم تتخلَّ عن حذرها ، وتذكرت محاولة الليل العنيفة ، وسحبت يدها بحركة خائفة لطفل يخشى ان تعضه بهيمة .

حينئذٍ تطلع اليها الاصم المسكين بنظرة ملأى باللوم وبحزن لا يوصف .

لقد كان منظراً مؤثراً ، منظر تلك الفتاة الجميلة النضرة ، الطاهرة ، الفاتنة ، الضعيفة في الوقت نفسه ، وهي تركض بشيء من الورع لنجدة هذا الشقاء والتشويه والخبث . كان هذا المشهد سامياً على وتد التعذيب .

لقد اجتاح التأثر الحشد كله واخذ يصفق صارخاً :

– نويل ! نويل !

وفي تلك اللحظة ذاتها شاهدت الحبيسة الغجرية على وتد التعذيب من كوة جحرها فقذفتها بلعنتها المشؤومة :

– ملعونة يا ابنة الغجر ! ملعونة ! ملعونة !

٥

نهاية حكاية الكعكة[١]

شحب لون ازميرالدا وهبطت عن وتد التعذيب وهي ترتعش . وكان صوت الحبيسة لا يزال يلاحقها :

– انزلي ! انزلي يا سارقة الفجر . ستصعدين عليه ذات يوم !

وقال الشعب متمتماً :

– ان الحبيسة في اوج هذيانها .

ولم يحدث شيء اكثر من ذلك لان الناس كانوا يخافون هذا النوع من النساء وهذا ما كان يجعلهن مقدسات . ولن يتعرض احد لمن يقضي نهاره وليله بالصلاة .

وحلت ساعة اعادة كازيمودو . فحل وثاقه ، وتفرق الجمهور .

وبالقرب من الجسر الكبير توقفت فجأة ماهييت التي عادت مع رفيقتيها :

– بالمناسبة يا اوستاش ! ماذا فعلت بالكعكة ؟

فقال الولد :

– بينما كنت تتكلمين يا امي مع تلك السيدة الموجودة في الجحر ، جاء

---

١ – كان عنوان هذا الفصل في المخطوطة : « اوستاش » .

كلب وقضم كعكتي ، وحينئذٍ اكلت منها ايضاً .

فقالت : كيف ايها السيد ؟ أأكلتها كلها ؟

انـه الكلب يا امي . لقد قلت له ولكنـه لم يصغ إلي . وحينئـذٍ قضمت انا ايضاً .

فقالت الام مبتسمة وموبخة معاً :

– انه ولد رهيب . ها انت ترين يا اودارد انه اكل وحـده كل ما على شجرة الكرز الموجودة في حقلنـا في شارليرانج . وقـد قال جده ايضاً انـه سيصبح قائـداً ، – سأعاقبـك عليهـا يا سيد اوستاش . – اذهب ايهـا الاسد الضخم .

الكتاب السابع

١

خطر اثنتان معزاة على سرك[١]

كانت قد مضت عدة اسابيع .

وكنا في الايام الاولى من شهر آذار . والشمس التي لم يكن دوبارتاس ذلك الجد الكلاسيكي للتعريض بالكلام ، قد اطلق عليها بعد اسم « دوق الشمعدانات الاكبر[٢] » ، لم تكن اقل سروراً واشعاعاً بسبب ذلك . لقد كان واحداً من تلك الايام الربيعية المحتوية على كثير من العذوبة والجمال بحيث ان باريس كلها تنتشر في الساحات ، والنزهات ، والاحتفالات كأيام الآحاد . في ايام النور والحرارة والصفاء تلك ، يوجد ساعة يجب فيها اظهار الاعجاب بمدخل كنيسة نوتردام . انها اللحظة التي تكون فيها الشمس المائلة الى المغيب تحدق في وجه الكاتدرائية . وأشعتها التي تزداد افقية تنسحب ببطء عن بلاط الساحة وتصعد على طول واجهة البناء عمودياً حيث تنبجس آلاف النقوش البارزة على ظلها ، بينما الوردة الكبرى في الوسط تلمع كعين عملاق ملتهبة من انعكاسات انوار الكور .

نحن في تلك الساعة .

١ – بدأ هيغو بكتابة هذا الفصل في ٢٦ تشرين الاول ١٨٣٠ .

٢ – لم يخترع هيغو نسبة هذه الكلمة لدوبارتاس بل اتبع تقليداً مغلوطاً .

مقابل الكاتدرائية السامقة المحمّرة من لون المغيب ، وعلى الشرفة الحجرية الكائنة فوق مدخل بيت قوطي غني يشكل زاوية الساحة العامة وشارع بارفي ، كان بعض الفتيات الجميلات يضحكن ويتحدثن ويقمن بالف نوع من التظرف والجنون . ومع طول الخمار المنسدل من قمة غطاء رؤوسهن المروّس الملفوف باللآلىء حتى اعقابهن ، ومع رقة القميص الصغير المطرز الذي يغطي اكتافهن تاركاً للنظر ، وفقاً للنمط السائد آنذاك ، أصول اعناقهن الجميلة كأعناق العذراوات ، ومع سعة تنانيرهن من اسفل التي هي اغلى ثمناً من اثوابهن العليا (استقصاء بديع !) ، ومع الشفوف ، والحرير ، والمخمل الذي كان كله عليهن ، وخصوصاً مع بياض ايديهن الشاهد بانهن فارغات الاشغال ، كسالى ، كان من السهل ان نعرف فيهن وارثات نبيلات وثريات . انهن بالفعل الأوانس فلوردي لي غونديلوريه ورفيقاتها؛ ديان دي كريستاي، اميلوت دي مونميشال، كولومب دي غيفونتين ، والصغيرة دي شانشفريه ؛ جميع بنات البيوت الكبيرة مجتمعات في تلك اللحظة عند السيدة الارملة دي غونديلوريه بسبب المونسنيور دي بوجو والسيدة زوجته اللذين يجب ان يأتيا الى باريس في شهر نيسان ويختارون فيها مرافقات شرف للسيدة مرغريت زوجة ولي العهد عندما يذهبون لاستلامها في بيكارديا من ايدي اهالي الفلاندر . وقد كان جميع نبلاء الارياف ، على مسافة ثلاثين فرسخاً من جميع الجهات ، يسعون سعياً حثيثاً وراء كسب هذه الحظوة لبناتهم. وهناك كثيرون منهم جاؤا ببناتهم وارسلوهن الى باريس ، حيث اوكلت امورهن للحراسة الصارمة المحترمة المكلفة بها السيدة ألويز دي غونديلوريه ارملة رئيس قديم لرماة الملك والمنسحبة مع ابنتها الوحيدة الى بيتها في ساحة نوتردام في باريس .

والشرفة التي كان عليها هؤلاء الفتيات تنفتح على غرفة مفروشة ، بشكل يدل على الغنى ، بجلد من الفلاندر ، ولون اصهب مطبوع بنقوش ذهبية . والاخشاب التي تخطط السقف بشكل متواز كانت تسلي العين بالف نحت ريب ، مرسوم ، مذهّب . وكانت المينا الرائعة تسطع بلون متقلب على

الصناديق المنقوشة . وهناك رأس خنزير من الخزف المطلي يتوج خزانة" لأواني المطبخ بديعة تنبيء درجتاها ان سيدة البيت كانت زوجة وأرملة لفارس اقطاعة. وفي الداخل ، الى جانب موقد عالٍ منقوش من اعلى الى اسفل بأشعرة الشرف كانت السيدة دي غونديلوريه جالسة في مقعد ثمين من المخمل الاحمر ، ولم تكن سنواتها الخمس والخمسون مكتوبة على ملابسها بشكل اقل مما هي مكتوبة على وجهها. والى جانبها يقف شاب ذو هيئة فخور مع انها كاذبة ومتظاهرة بالشجاعة. انه احد اولئك الغلمان الحسان الذين تتفق معهم جميع النساء بينما الرجال الوقورون الماهرون في علم الفراسة يهزون اكتافهم استخفافاً . وكان هذا الفارس الشاب يرتدي الملابس اللامعة كقائد رماة الملك والتي تشبه كثيراً ملابس جوبتير الذي نال الاعجاب في الكتاب الاول من هذه القصة ، حتى لا نعذب القارىء بوصفه .

كانت الأوانس جالسات ، قسم منهن في الغرفة ، وقسم على الشرفة ، والبعض على وسائد مربعة من مخمل اوترخت Utrecht ذات زوايا ذهبية، والبعض الآخر على مقاعد خشبية من السنديان المحفور ازهاراً وصوراً . وكل منهن تمسك على ركبتيها طرف مفرش كبير مشغول بالابرة يشتغلن به مشتركات ، وكان طرف كبير منه ينسحب على البساط الذي يغطي ارض الغرفة .

كن يتحدثن فيما بينهن بذلك الصوت الهامس وتلك الضحكة النصفية التي يكتمها مجتمع فتيات يوجد بينهن رجل . اما الشاب الذي كان وجوده كافياً لاظهار كل حب الذات النسائي فقد بدا قليل الاهتمام ؛ وبما انه كان بين فتيات يوجه انتباهه اليهن ، فقد بدا على الخصوص مهتماً بصقل ابزيم حزامه بقفازه المصنوع من جلد الايل .

وكانت العجوز تحدثه بين وقت وآخر بصوت منخفض فيجيبها بأقصى جهده مع نوع من التأدب الاخرق المكره . ومن الابتسامات ، ومن اشارات السيدة ألويز الدالة على الفطنة ، ومن النظرات التي توجهها الى ابنتها فلور دي لي وهي تكلم الضابط بصوت منخفض ، كان من السهل معرفة ان الامر يتعلق بخطوبة

قد تمت ، وبزواج قريب دون شك بـــين الشاب وفلور دي لي . ومن برودة الضابط المترددة كان من السهل معرفـــة ان الامر لا يتعلق بالحب ، من ناحيته على الاقل . فهيئته كلما كانت تعـبر عن فكرة انزعاج وضجر يعبر عنهـا ضباط حرسنا الملازمون اليوم بشكل يدعو للاعجاب قائلين :

– يا لها من كلبة سخرة !

والسيده الطيبة اللجوج فـيما يتعلق بابنتها وكأم مسكينة كما هي ، لم تفطن لقلة تحمس الضابط وبذلت جهدها لتجعله يلاحظ بصوت منخفض ذلك الاتقان العظيم الذي تجيده فلور دي لي وهي تغرز ابرتها او تلف مكبّها . وكانت تقول له وهي تسحبه من كمه لتهمس في اذنه :

– انظر اليها ! ها هي تنحني يا ابن العم الصغير .

فاجاب الشاب : فعلاً !

ثم عاد الى صمته الذاهل الجليدي .

وبعد لحظة ، وجب الانحناء من جديد ، وقالت له السيدة ألويز :

– ارأيت صورة اكثر بشاشة واكثر بهجة من خطيبتك ؟ وهل هناك اكثر بياضاً منها ؟ هل هناك اكثر شقرة ؟ اليست هذه الايدي تامة ؟ وذلك العنق الذي يبعث النشوة الا يقوم بكل ما يعمله عنق البجعة ؟ لكم اغبطك في بعض الاحيان ! وما اسعدك لكونك رجلاً ، ولو كنت قبيحاً فاجراً ! اليست ابنتي فلور دي لي جميلة وانت موله بها ؟

فأجاب وهو يفكر بشيء آخر : دون شك .

وقالت مدام الويز وهي تدفعه من كتفه :

– ولكن حدثها اذن . قل لها اي شيء . لقد اصبحت كثير الخجل .

باستطاعتنا التأكيد لقرائنا ان الخجل لم يكن من فضائـــل الضابط ولا من عيوبه ، الا انه حاول ان يفعل ما طلب منه ، فاقترب من فلور دي لي وقال :

– هذا المفرش الذي تصنعنه يا ابنة العم الجميلة ، ما موضوعه ؟

فاجابت فلور دي لي بلهجة ازدراء :

– لقد قلت لك ثلاث مرات يا ابن العم الجميل انه مغارة نبتونوس .

من المؤكد ان فلور دي لي كانت ترى بشكل اوضح مما ترى والدتها اساليب الضابط الباردة الذاهلة . وشعر هـذا بضرورة اجراء شيء من الحديث ، فسأل فلور دي لي دون ان يرفع عينيه :

– ولمن كل هذه النبتونية ؟

فاجابت فلور دي لي دون ان ترفع عينيها :

– انها لدير القديس انطوان ديشان .

فامسك الضابط باحدى زوايا المفرش وقال :

– من هو يا ابنة العم الجميلة ذلك الدركي الضخم الذي ينفخ في البوق بكل قـــواه ؟

فأجابت : انه تريتو .

كان في كلام فلور دي لي المقتضب لحن فيه شيء من الحرد . وادرك الشاب انه لا بد ان يقول لها شيئاً في اذنها ، لا فرق ان كان لغواً او مغازلة . فانحنى اذن ، الا انـــه لم يجد في مخيلتـــه شيئاً اكثر طراوة واكثر مودة من هذه العبارة :

-- لماذا ترتدي امك دائماً ثوباً رسمت عليه أشعرة الشرف كالذي كانت ترتديه جداتنا في عهد شارل السابع ؟ قولي لها يا ابنة العم الجميلة ان ذلك لا يمثـــل اناقـة الوقت الحاضر . وان رزّتها واكليلهـا المطرزين بأشعرة الشرف على فستانها يكسبانها هيئة غطاء مدخنة تمشي . بالحقيقـة ليس هناك من يجلس على رايته هكذا . واقسم لك .

فرفعت فلوردي لي اليه عينيها الجميلتين المليئتين بالتوبيخ ، وقالت بصوت منخفض :

– اهذا كل ما تقسم عليه ؟

الا ان السيدة الطيبة ألويز، المنتشية لرؤيتها منحنيين يتهامسان ، كانت تقول وهي تلعب بقفل كتاب الفرض الكنائسي :

– يا لها من لوحة حب مؤثرة ؟

والضابط الذي ازداد ارتباكه عاد موجهاً انتباهه الى المفرش وقال :

– انه بالفعل عمل بديع !

وبهذه المناسبة ، فان كولومب دي غيفونتين ، وهي شقراء جميلة اخرى ذات بشرة بيضاء ، ترتدي نسيجاً موشى ازرق ، غامرت على استحياء بكلمة وجهتها الى فلورد دي لي آملة ان يجيب الضابط عليها :

– ارأيت يا عزيزتي غونديلوريه مفارش قصر لاروش غويون ؟

فسألت ديان دي كريستاي ضاحكة ، وهي ذات اسنان جميلة بيضاء ، اي انها تضحك في كل مناسبة :

– اليس هو القصر الكائن عند تصوينة حديقة لالنجير التابعة لقصر اللوفر ؟

واضافت اميليون دي مونميشال ،وهي سمراء جميلة مجعدة الشعر ناضرة،وكان من عادتها ان تتأوه ، كما ان الاخرى تضحك ، دون ان تدري لماذا :

– وحيث يوجد ذلك البرج الضخم في سور باريس القديم .

وقالت السيدة الوبز :

– الا تريدين يا عزيزتي كولومب ان تحدثينا عن القصر الذي كان من ممتلكات السيد دي بالفيل في عهد شارل السادس ؟ هناك بالفعل مفارش رائعة ذات سدى ممتاز .

ودمدم الضابط الشاب رافعاً شاربيه :

– شارل السادس ! الملك شارل السادس ! يا الهي ! ان السيدة الطيبة تتذكر اشياء قديمة .

وتابعت السيدة دي غونديلوريه :

– بالحقيقة انها مفارش جميلة . شغل معتبر جداً الى درجة انه عديم النظير !

في تلك اللحظة هتفت بيرانجير دي شنشفريه ، وهي فتاة صغيرة ، رشيقة ، في السابعة من عمرها ، وكانت تنظر الى الساحة من فتحات زخارف الشرفة :

-- اوه ! انظري يا عرابتي الجميلة فلور دي لي تلك الراقصة التي ترقص هناك على بلاط الشارع وتدق على الدف بين بورجوازيين قرويين .

وبالفعل فقد تناهى اليهم ارتجاج رنان لدف باسكي ، فقالت فلور دي لي وهي تلتفت الى الساحة بتراخ :

– احدى غجريات بوهيميا .

وصرخت رفيقاتها :

– انترَ !. لترَ !.

وركضن كلهن الى حافة الشرفة بينما فلور دي لي التي كانت تفكر ببرودة خطيبها تبعتهن متمهلة . اما الخطيب الذي تنفس الصعداء من هذا الحديث الذي قطع حديثاً مزعجاً فقد عاد الى داخل البيت بهيئة راضية لجندي أُقيــل من الخدمة . الا ان خدمة فلور دي لي كانت جذابة لطيفة ، وهكذا كانت تبدو له في السابق . ولكن شعور الضابط ضعف شيئاً فشيئاً ، وتوقع الزواج القريب زاد من بروده يوماً بعد يوم . ذلك لأنه كان ذا مزاج متقلب وذوق مبتذل . ومع انه من عائلة نبيلة فقد اعتاد الكثير من عادات الجندي القديم . وكانت تسره الحانة وما يتبعها . ولا يكون على خير حال الا بين الكلمات الخشنة ، والمازحات العسكرية ، والجمالات والنجاحات السهلة . الا انه تلقى من عائلته شيئاً من التربية وشيئاً من السلوك . ولكنه جال في البلاد وانخرط في الجندية صغيراً وكان دهان الرجل النبيل يمحي كل يوم باحتكاكه الشديد بحمالة سيف الدركي . ومع انه لا يزال يزور فلور دي لي بين وقت وآخر بدافع ما بقي من الاحترام الانساني فانه كان يشعر بانزعاج مضاعف عندها ؛ اولاً بسبب بعثرة حبه في جميع انواع الاماكن لذلك لم يحتفظ لها منـــه الا بالقليل القليل ؛ ثم لأنه بين هـــذا الحشد من السيدات الجميــلات ، المتشددات ، المشبعات بالدبابيس ، المحتشمات ، كان يرتجف دائماً خوفــاً من ان فمه المعتاد على التجديف لا يعض على اللجام دفعة واحدة ولا يهرب الى الحانة . لنتخيــل تأثير ذلك .

وبعد ، فهذا كله امتزج عنده بادعاء عظيم بالاناقة ، والزينة والهيئة الجميلة.
وبعد ، فلتسوّ هذه الامور بقدر المستطاع ، لاني لست سوى مؤرخ .

اذن ، فقد ظل منذ لحظات ، مفكراً ام غير مفكر ، مستنداً وهو صامت الى اطار الموقد المنحوت ، بينما التفتت فلور دي لي فجأة ووجهت الكلام اليه ؛ فالمسكينة لا تبدي استياءها منه الا دفاعاً عن قلبها :

– ألم تحدثنا يابن العم الجميل قبلًا عن غجرية صغيرة كنت انقذتها منذ شهرين ، بينما كنت تقوم بمراقبة الحرس ليلًا ، من ايدي دزينة من اللصوص ؟

فقال الضابط :

– اظن ان ذلك صحيح يا ابنة العم الجميلة .

فقالت :

– حسناً ؛ من الممكن ان تكون هي تلك الغجرية التي ترقص هناك في الساحة . تعال وانظر اذا كنت تعرفها يا ابن العم فوبوس .

شعر برغبة خفية في المصالحة من هذه الدعوة الحلوة التي وجهتها اليه ليأتي الى جانبها ، ومن عنايتها بدعوته باسمه . والضابط النقيب فوبوس دي شاتوبير (لأنه هو الذي كان امام القارىء منذ بداية هذا الفصل) اقترب من الشرفة بخطى بطيئة ، فقالت له فلور دي لي وهي تضع يدها بحنو على ذراعه :

– انظر الى تلك الصغيرة التي ترقص هناك . هل هي غجريتك ؟

فتطلع فوبوس وقال :

– نعم ، لقد عرفتها من معزاتها .

فقالت اميلوت وهي تضم يديها اعجاباً :

– اوه ! يا لهذه المعزاة الصغيرة الجميلة !

وسألت بيرانجير : هل قرناها من ذهب حقيقي ؟

وتناولت السيدة الويز الكلام دون ان تتحرك من مقعدها :

– أليست واحدة من اؤلئك الغجريات اللواتي وصلن السنة الماضية من باب جيبار ؟

فقالت فلور دي لي بلطف :

– ان ذلك الباب يدعى اليوم باب الجحيم يا امي .

وكانت الآنسة دي غونديلوريه تعرف مقدار انزعاج الضابط من طرق امها القديمة في الكلام . وبالفعل فقد بدأ يضحك قائلاً بينه وبين نفسه :

-- باب جيبار ! باب جيبار ! لقد صنع ليمر منه الملك شارل السادس !

وهتفت بيرانجير التي كانت عيناها المتحركتان دائمـاً ترتفعان فجأة الى ابراج نوتردام :

– من هو ذلك الرجل الاسود الموجود هناك في الاعالي يا عرابتي ؟

ورفعت جميع الفتيات عيونهن . وبالفعل فقد كان هناك رجل يتكىء على الحاجز الاعلى للبرج الشمالي المشرف على ساحة غريف . وكان كاهنـاً . تظهر ملابسه بوضوح وكذلك وجهه المستند الى يديه . وكان كالتمثال لا يتحرك ابداً. وعينه محدقة بالساحة .

كان شيئاً من جمود حدأةٍ اكتشفت وكنة عصافير وهي تنظر اليها .

وقالت فلور دي لي : انه السيد الخوراسقف دي جوزا .

فلاحظت غيفونتين : اذا استطعت معرفته من هنا فعيناك قويتان !

وقالت ديان دي كريستاي : انه يتطلع الى الراقصة الصغيرة !

وقالت فلور دي لي : حذار ايتها الغجرية ، انه لا يحب بلاد الغجر .

واضافت اميلوت دي مونميشال :

– من المؤسف ان يتطلع اليها ذلك الرجل بهذا الشكل لانها تبهر برقصها .

وقالت فلور دي لي فجأة :

– يا ابن العم فوبوس ، ما دمت تعرف هذه الغجرية الصغيرة فأشر اليها ان تصعد . ففي ذلك تسلية لنا .

– اوه ! نعم !

هكذا هتفت الفتيات جميعهن وهن يصفقن بأيديهن .

واجاب فوبوس :

ــ ولكنه جنون . لقد نسيتني دون شك ، ولا اعرف حتى اسمها . ومع ذلك فاني سأحاول ما دمتن ترغبن في ذلك .

واخذ يصرخ : يا صغيرة !

لم تكن الراقصة تقرع دفها في هذه اللحظة فالتفتت نحو مصدر النداء ، واستقر نظرها اللامع على فوبوس ، وتوقفت .

وكرر الضابط نداءه : يا صغيرة !

وأشار اليها باصبعه ان تأتي .

ونظرت اليه الفتاة ايضاً ، ثم احمر وجهها كما لو ان لهباً صعد الى خديها ، واخذت دفها تحت ابطها وسارت خلال المتفرجين المبهورين نحو باب البيت الذي ناداها فوبوس منه بخطى بطيئة مترنحة وبنظرة مضطربة لعصفور خضع لسحر افعى .

وبعد لحظة ارتفع ستار الباب وظهرت الغجرية على عتبة الغرفة ، محمرة الوجه ، مضطربة ، لاهثة ، وعيناها الكبيرتان منخفضتان ، ولم تجرؤ على ان تخطو خطوة واحدة الى الامام .

وصفقت بيرانجير بيديها .

الا ان الراقصة ظلت جامدة على عتبة الباب . وقد احدث ظهورها تأثيراً غريباً على هذا السرب من الفتيات . ومن المؤكد ان رغبة مبهمة غير واضحة في ارضاء الضابط الجميل كانت تحركهن معاً ، وان اللباس العسكري الباهر كان هدف كل ما فيهن من تبرج وغنج ، وان شيئاً من المنافسة السرية الخفية قامت بينهن منذ حضوره ، لا يكدن يعترفن بها لانفسهن ، الا انها كانت ظاهرة في كل لحظة في حركاتهن ومقاصدهن . ولما كان جمالهن من عيار واحد تقريباً فقد كن يتصارعن بأسلحة متساوية وتستطيع كل منهن ان تأمل باحراز النصر . الا ان وصول الغجرية أخل فجأة بهذا التوازن . فقد كانت ذات

جمال نادر حتى انها حين ظهرت على مدخل البيت بدت انها تنشر فيه نوعاً من النور الخاص بها . وفي تلك الغرفة الضيقة او تحت ذلك الاطـــار القاتم من الطنافس والخشبيات كانت اكثر جمالاً وتألقاً منها في الساحة العامة . لقد كانت كمشعال نقل من ضوء النهار الى الظلام . وانبهرت من جمالها الفتيات النبيلات رغماً عنهن . وشعرت كل منهن انها جرحت في جمالها الى حدٍ ما . وكذلك جبهتهن الحربية التي عبرنا عنها فقد تغيرت فجأة دون ان يفهن بكلمة ، ولكنهن كن متفاهمات جيداً . وغرائز النساء تتفاهم وتتجاوب اسرع من ذكاء الرجال . فقد جاءتهن عدوة : وشعرن كلهن بذلك ، وسخرن من انفسهن . ان قطرة خمر كافية لتصبغ لون كأس من الماء بالاحمر ؛ ولتخضب ببعض الحمرة مجمعاً بكامله من النساء الجميلات . يكفي ان تأتيهن بامرأة اكثر جمالاً . – وخصوصاً حين لا يكون هناك سوى رجل واحد .

وكان استقبال الغجرية جليدياً بشكل رائع . فقـــد تأملنها من اعلى الى اسفل ، ثم تبادلن النظرات وقلن كل شيء . لقد كن متفاهمات . الا ان الفتاة كانت تنتظر ان يوجه الكلام اليها . وكانت من التأثر بحيث لم تجرؤ على رفع جفونها .

وقطع الضابط الصمت اولاً وقال بلهجته المتغطرسة الجريئة :

– الحق يقال انها مخلوقة فاتنة ! ما رأيك يا ابنة العم ؟

لو قال هذه الملاحظة معجب اكثر كياسة وبصوت منخفض على الاقـل لما كان من شأنها ان تبدد الغيرة النسائيـة التي وقفت موقف المراقب امام الغجرية .

واجابت فلور دي لي الضابط ببرودة عذبة فيها الكثير من الازدراء :

– لا بأس بها !

وتهامست الاخريات .

واخيراً فان السيدة إلويز التي لم تكن اقل غيرة بسبب ابنتها وجهت الكلام الى الراقصة : اقتربي يا صغيرة !

فرددت بيرانجير ، التي لم تصل الا الى خصرها ، بجدارة مضحكة :

اقتربي يا صغيرة !

وتقدمت الغجرية نحو السيدة النبيلة .

وقال فوبوس بانتفاخ ، متقدماً نحوها بضع خطوات :

– ايتها الطفلة ، لا ادري اذا كانت لي السعادة الفائقة بأن اكون معروفاً منك .

فقاطعته وقد رفعت نحوه ابتسامةً ونظرةً ملأى بعذوبة فائقة وقالت :

– اوه ! نعم .

فلاحظت فلور دي لي : انها ذات ذاكرة جيدة .

وتابع فوبوس : لقد اسرعت بالهرب في ذلك المساء . فهل اخفتك ؟

فقالت الغجرية : اوه ! كلا .

كان في اللهجة التي لفظت بها عبارة « اوه ! كلا ! » على اثر «اوه ! نعم !» شيء لا يمكن التعبير عنه وقد جُرحت منه فلور دي لي . وتابع الضابط الذي حلت عقدة لسانه لتحدثه مع ابنة شوارع .

– لقد تركت لي بدلاً عنك يا جميلتي مخلوقاً عابساً ، صعلوكاً ، اعور ، احدب ، وقارع اجراس الاسقف على ما اعتقد . وقد قيل انه بندوق خوراسقف وشيطان بالولادة . وله اسم مضحك ، فهو يدعى كاتر – تان ، باك فلوري ، ماردي – غرا ، ولا اعرف اكثر من ذلك ! اخيراً اسم عيد تقرع فيه الاجراس ! اذن فقد اتاح لنفسه ان يختطفك كما لو انك خلقت لمستخدمي الكنائس ! هذا كثير . ماذا يريد منك هذا الهر الصائت ؟ قولي !

فأجابت : لا ادري .

– انها لوقاحة مفهومة ! قارع اجراس يختطف فتاة كأنه فيكونت ! قروي فظ يصطاد طريدة النبلاء ! هذا ما هو نادر الحدوث . الا انه دفع ثمن فعلته غالياً . فالاستاذ بيرا تورتيرو هو اقسى سائس ٍ حك جلد شخص خبيث .

سأقول لك اذا كنت تستلطفين ذلك بأن جلد قارع الاجراس قد سلخ من يديه بأمانة .

فقالت الغجرية التي احيت هذه الكلمات عندها مشهد وتد التعذيب :

-- يا للرجل المسكين !

فانفجر الضابط ضاحكاً :

– وقرن الثور ! انها شفقة في مكانها تماماً كريشة في دبر خنزير ! اريد ان اكون بطيناً كالبابا ، اذا ...

وتوقف فجأة وقال : عفواً سيداتي ، اعتقد انني كنت سأفلت بعض الحماقات .

فقالت غيفونتين : اف لك يا سيد !

واضافت فلور دي لي بصوت منخفض وقد تزايد حزنها الغضوب لحظة بعد لحظة :

– انه يكلم هذه المخلوقة بلغتها .

ولم ينقص هذا الحزن الغاضب حين رأت الضابط المفتون بالغجرية وبنفسه يدور على عقبيه مردداً بمزحة خشنة وعسكرية :

– لعمري ، انها فتاة جميلة !

فقالت ديان دي كريستاي بضحكتها التي تظهر اسنانها الجميلة :

– وترتدي زياً وحشياً !

كانت هذه الفكرة شعاعاً من النور للاخريات . فقد أرتهن الناحية الحرية بالمهاجمة عند الغجرية . لم يستطعن نهش جمالها فهجمن على ملابسها .

وقالت مونميشال :

– ولكن هذا صحيح يا صغيرة . الى اين تركضين في الشارع هكذا دون غطاء للرأس او طوق للرقبة ؟

واضافت غيفونتين : هذه تنورة قصيرة تبعث على الارتعاش .

وتابعت فلور دي لي بكثير من الشراسة :

- يا عزيزتي ، هل تجعلين رقباء الحرس يلتقطونك لاجل حزامك المذهّب؟

وقالت لا كريستاي بابتسامة لا ترحم :

- ايتها الصغيرة ، ايتها الصغـــيرة ، لو وضعت على ذراعك كما بشيء من الحشمة لقلّ احراق الشمس له .

كان بالحقيقة مشهداً جديراً بان يراه مشاهد اكثر ذكاء من فوبوس ، وان يرى كيف ان هؤلاء الفتيات الجميـــلات بألسنتهن السامة المهتاجة ، يتلوين ، ويزحفن ، وينحنين حول راقصة الشوارع . كن شرسات وظريفات . وكن ينقبن ، ويبحثن عن الكلام بخبث في زينتها الفقيرة المجنونـة المصنوعة من القش والتطريزات الزائفة . كانت ضحكات ، وسخريات ، واهانات لا نهاية لهـــا . وكانت عبارات التهكم تنهـــال على الغجرية كالمطر ، وكذلك اللطف المتعالي والنظرات الخبيثة. حتى ليخيل الينا اننا نرى اولئك السيدات الشابات الرومانيات وهن يتسلين بغرز الدبابيس في ثدي عبدة جميلة ، او كان كلاباً سلوقية صائدة تدور مفتوحة المنخرين ، مشتعلة العينين حول غزال مسكين في الغابات تمنعها نظرة سيدها من التهامه .

وبعد ، فمن تكون امام بنات البيوت الكبيرة هؤلاء سوى راقصة بائسة في الساحة العامة ! فقد بدون وكأنهن لا يعرن اي اهتمام لوجودها ، وكن يتكلمن عنها ، امامها ، ولها ، بصوت مرتفع كما يتحدثن عن شيء قذر ، حقير ، وجميل .

ولم تكن الغجرية غير شاعرة بوخزات الدبابيس تلك ، فقـــد كانت حمرة الخجل وبرق الغضب يلهبان عينيها او خديها بـين وقت وآخر ؛ وكان كلام الازدراء يبدو متردداً على شفتيها ؛ ورسمت باحتقار تلك الكشرة الصغيرة التي يعرفها القارىء ؛ ولكنها سكتت .

وكانت في جمودها تنظر الى فوبوس نظرة خاضعة ، حزينة ، وعذبة . لقد كان في تلك النظرة سعادة وحنو . حتى ليعتقد انها اكتفت بها لئلا تطرد .

وفوبوس نفسه كان يضحك ، وقد اتخذ جانب الغجرية مع مزيج من الوقاحة والشفقة . وقال وهو يرن مهازيه الذهبين .

-- دعيهن يقلن يا صغيرة ، لا شك بأن زينتك غريبة ووحشية ؛ ولكن ما قيمة هذا ما دمت فاتنة ؟

فهتفت غيفونتين الشقراء رافعة عنقها الذي يشبه عنق البجعة وعلى فمها ابتسامة كئيبة :

- يا الهي ! ارى ان السادة رماة الملك يهتمون كثيراً بالعيون الغجرية الجميلة .

فقال فوبوس : ولمَ لا ؟

لدى هذا الجواب الذي القاه الضابط باهمال كحجر تائه لا يعرف اين يقع استغرقت كولومب بالضحك ، اما ديان واميلوت وفلور دي لي فقد جالت الدموع في عيونهن .

واما الغجرية التي كانت مطرقة بنظرها الى الارض بسبب كلام كولومب دي غيفونتين فقد عادت ورفعته متهللة من الفرح والكبرياء واثبتته من جديد على فوبوس . لقد كانت رائعة الجمال في تلك اللحظة .

والسيدة العجوز التي كانت تراقب هذا المشهد شعرت بالاهانة ولم تفهم ، الا انها صرخت فجاة :

– ايتها العذراء المقدسة ! ما هذا الذي يتحرك على ساقي ? آه ! الحيوان الكريه !

انها المعزاة التي جاءت تبحث عن سيدتها، وفيما كانت مسرعة نحوها احاطت قرنيها بكومة القماش المتجمعة من ملابس السيدة النبيلة على قدميها وهي جالسة.

كانت ألهية . وقد خلصتها الغجرية دون ان تفوه بكلمة . اما بيرانجير فقد قالت وهي تقفز من الفرح :

– اوه ! هذه المعزاة الصغيرة ذات الاقدام الذهبية .

وركعت الغجرية على ركبتيها واسندت رأس المعزاة المداعب الى خدها ، كأنها تعتذر لها عن تركها .

وكانت ديان منحنية على اذن كولومب :

– ايه يا الهي ! لماذا لم افكر حالاً بذلك ؟ انها الغجرية ومعزاتها . وقد قيل لي انها ساحرة ، وان معزاتها تقوم باضاحيك عجائبية .

فقالت كولومب :

– حسناً . يجب ان تسليّنا المعزاة بدورها وتصنع لنا اعجوبة .

وتوجهت ديان وكولومب بالكلام الى الغجرية :

– ايتها الصغيرة ، دعي معزاتك تصنع لنا اعجوبة .

فاجابت الراقصة :

– لا ادري ماذا تريدان ان تقولا .

– اعجوبة ، سحر ، شعوذة .

– لا اعرف .

واخذت تداعب البهيمة الجميلة مرددة : دجالي ! دجالي !

في تلك اللحظة لاحظت فلور دي لي كيساً جلدياً صغيراً مطرزاً ومعلقاً بعنق المعزاة ، فسالت الغجرية :

– ما هذا ؟

فرفعت الغجرية عينيها الكبيرتين نحوها واجابت بوقار : هذا سرّي .

ففكرت فلور دي لي : اريد ان اعرف ما هو سرك .

الا ان السيدة الطيبة نهضت بملل وقالت :

– انت ايتها الغجرية ، اذا لم ترقصي لنا انت ومعزاتك فماذا تفعلين هنا ؟

فسارت الغجرية نحو الباب متمهلة دون ان تجيب . ولكن خطواتها كانت تتباطأ كلما اقتربت منه ، كأن مغناطيساً لا يمكن التغلب عليه يمسك بهـــا .

وفجأة ادارت عينيها المبللتين بالدموع نحو فوبوس ، وتوقفت . فهتف الضابط :

– والرب الحقيقي ! لا يمكن ان تذهبي هكـــذا . عودي وارقصي بعض الرقصات . وبالمناسبة ، مااسمك ايتها الجميلة ؟

فقالت الراقصة دون ان تحيد نظرها عنه : ازميرالدا .

وانفجر ضحك جنوني بين الفتيات لسماع هذا الاسم الغريب . وقالت ديان:
– يا له من اسم مخيف لفتاة !
وقالت امياوت : انت ترين انها ساحرة .
وصرخت السيدة ألويز باحتفال :
– يا عزيزتي ان اهلك لم يخطئوا باطلاق هذا الاسم عليك في جرن العماد .

الا ان بيرانجير توفقت منذ بضع دقائق باجتذاب المعزاة الى احدى زوايا الغرفة بواسطة قطعة حلوى عجينية دون ان ينتبه اليها احد . وبلحظة اصبحت الاثنتان صديقتين . وانتزعت الطفلة الفضولية الكيس المعلق في عنق المعزاة وفتحته وافرغت محتوياته على البساط . انها حروف هجائية كل حرف منها مكتوب على قطعة من خشب البقس . وما كادت هذه اللعب تتبعثر على البساط حتى رأت الطفلة بدهشة ان المعزاة ، وهذه احدى « عجائبها » دون شك ، قد سحبت برجلها الذهبية بعض الاحرف ورتبتها ، وهي تدفعها بلطف ، في نظام خاص . وتألفت بلحظة كلمة يبدو ان المعزاة تمرنت على كتابتها اذ ترددت قليلاً وهي تؤلفها . وصرخت بيرانجير فجأة وهي تضم يديها باعجاب .
– انظري يا عرابتي فلور دي لي ماذا فعلت المعزاة .

واسرعت فلور دي لي وارتجفت . فالحروف المرتبة على ارض الغرفة كانت تؤلف كلمة : فوبوس .

وسألت بصوت مضطرب : هل المعزاة هي التي كتبت ذلك ؟

فأجابت بيرانجير : نعم يا عرابتي .

كان الشك بذلك مستحيلاً ، فالصغيرة لا تعرف الكتابة .

وفكرت فلور دي لي : هذا هو السر !

وكان الجميع قد ركضوا عند صراخ الطفلة ، الام والفتيات والغجرية والضابط .

ورأت الغجرية الحماقة التي قامت بها المعزاة فاحمر وجهها ، ثم شحب لونها

واخذت ترتجف كالمذنب امام الضابط الذي كان ينظر اليها بابتسامة رضى ودهشة.
وتهامست الفتيات المذهلات :

– فوبوس ! انه اسم الضابط !

وقالت فلور دي لي للغجرية الخائفة : ذاكرتك عجيبة !

ثم انخرطت بالبكاء متمتمة بألم ، وهي تخبىء وجهها بيديها الجميلتين :

– اوه ! انها ساحرة !

وسمعت صوتاً اكثر مرارة يقول في اعماق قلبها : انها منافسة لك !

وسقطت فاقدة الوعي .

وصرخت الام مرتعبة :

– ابنتي ! ابنتي ! اذهبي الى الجحيم ايتها الغجرية !

وبلمحة عـين جمعت ازميرالدا الحروف المشؤومة ، واشارت الى دجالي ، وخرجت من باب ، بينما حملت فلور دي لي من الباب الآخر .

اما الضابط فوبوس الذي ظل وحيداً فقد تردد لحظة بين البابـين ؛ ثم لحق بالغجرية .

٢

بأن كاهناً وفيلسوفاً هما اثنان[1]

الكاهن الذي رأته الفتيات في اعلى البرج الشمالي منحنياً على الساحة و كثير الانتباه لرقص الغجرية ، كان بالفعل هو الخوراسقف كلود فرولو .

ولم ينس قراؤنا الحجرة السرية التي كان الخوراسقف يحتفظ بها في ذلك البرج . (ولا اعلم اذا كانت هي ذاتها التي يمكن رؤية داخلها اليوم من نافذة صغيرة مربعة مفتوحة من الشرق ، وعلى علو انسان ، على السطح الذي تنطلق منه الابراج ؛ وهي حجرة صغيرة ، عاريه حالياً ، فارغة وخربة ، وجدرانها المجصصة بشكل سيء « مزينة » هنا وهناك ، في ذلك الوقت ، ببعض صور خبيثة صفراء تمثل واجهات كاتدرائيات . واظن ان هذا الوكر مسكون بالخفافيش والعناكب معاً وانه بنتيجة ذلك اعلنت فيه على الذباب معركة استئصال مزدوجة) .

في جميع الايام ، وقبل مغيب الشمس بساعة كان الخوراسقف يصعد درج البرج ويحبس نفسه في تلك الحجرة حيث كان يقضي فيها ليلتين كاملتين احياناً . وفي ذلك النهار ، في اللحظة التي وصل فيها الى امام المسكن المنخفض ووضع في القفل المفتاح الصغير المعقد الذي يحمله دائماً في المحفظة الكبيرة المعلقة الى جانبه، تناهى الى سمعه صوت دف وصناجات . وكانت الضجة آتية من ساحة باروفي .

---

١ ـ كان عنوان هذا الفصل في المخطوطة : « الفيلسوف المتزوج » .

وكما قلنا سابقاً ، فان الحجرة لم يكن لها سوى نافذة واحدة تطل على مؤخرة الكنيسة . فاستعاد كلود فرولو المفتاح بسرعة ، وبعد لحظة كان على قمة البرج بتلك الهيئة القاتمة المتأملة التي شاهدته الفتيات بها .

لقد كان هناك ، وقوراً ، جامداً ، مستغرقاً في نظرة وفي فكرة . وكانت باريس كلها تحت قدميه مع الوف مسلات عماراتها وأفقها الدائري من التلال الناضرة، ونهرها الذي يتلوى تحت جسورها ، وشعبها المائج في شوارعها ، وسحب مداخنها وسلسلة سقوفها الوعرة الضاغطة على كنيسة نوتردام بحلقاتها المتضاعفة . ولكن الخوراسقف لم يكن يرى في كل هذه المدينة سوى نقطة من الشارع : ساحة بارفي ؛ وفي كل هذا الجمهور سوى وجه : الغجرية .

كان من الصعب التكهن بطبيعة هذه النظرة ومعرفة مصدر اللهب المتدفق منها . كانت نظرة ثابتة ، الا انها ملأى بالاضطراب والبلبلة . ومع الجمود العميق لجسده الذي لا يكاد يتحرك بارتعاشة آلية في بعض الفترات ، كشجرة في مهب الريح ، ومع تصلب مرفقيه الرخاميين اكثر من تصلب الحاجز المستندين اليه ، وبرؤية الابتسامة المتخوفة التي تشنج وجهه ، يخيل انه لا يوجد شيء حي في كلود فرولو سوى عينيه .

كانت الغجرية ترقص ، وكانت تدير دفها على رأس اصبعها وترميه في الهواء وهي ترقص الرقصات الريفية ؛ نشيطة ، خفيفة ، مرحة ، غير شاعرة بثقل النظرة المخيفة الساقطة عمودياً على رأسها .

وكان الجمهور يتكاثر حولها ؛ ومن وقت لآخر كان رجلاً يرتدي رداء اصفر واحمر ذا كمّين واسعين يدور الدورة ثم يعود ليجلس على كرسي على بضع خطوات من الراقصة ويضع رأس المعزاة على ركبتيه . هذا الرجل كان يبدو انه رفيق الغجرية . ولم يستطع كلود فرولو ان يميز قسماته من المكان المرتفع الذي كان واقفاً فيه .

وفي اللحظة التي شاهد فيها الكاهن هذا المجهول ، اصبح انتباهه منقسماً بين

الراقصة وبينه . وازداد وجهه عبوساً ، ووقف فجأة ، واجتاحت اسنانه هزة ، وقال لنفسه :

ما هذا الرجل ؟ كنت اراها دائماً وحدها !

وحينئذٍ هبط تحت قبو الدرج الملتوي اللولبي ونزل . وعند مروره امام باب الاجراس الذي كان مفتوحاً قليلًا رأى امراً ادهشه ، لقد رأى كازيمودو منحنياً على احدى فتحات الافاريز الاردوازية التي تشبه شعريات نوافذ ضخمة ، وكان يتطلع ايضاً الى الساحة . وكان فريسة لتأمل عميق بحيث لم ينتبه لمرور والده بالتبني ، ولعينه الوحشية تعبير غريب ، كانت نظرة مفتونة وهادئة . وتمتم كلود:

– ما اغرب هذا ! اكان ينظر الى الغجرية ؟

وواصل هبوطه . وببضع دقائق خرج الكاهن المغموم الى الساحة من الباب الموجود في اسفل البرج . واختلط بجمهور المتفرجين الذين جمعهم صوت الدف وقال :

– ماذا حدث للغجرية ؟

فأجابه احد جيرانه :

– لا اعلم . فقد اختفت . واعتقد انها ذهبت لتقوم ببعض الرقصات الاسبانية في البيت المقابل ، فقد نودي عليها من هناك .

ولم يرَ الكاهن في مكان الغجرية ، على تلك الطنفسة نفسها التي كانت رسومها تمحّي منذ قليل تحت رسوم رقص الغجرية الجامح ، سوى الرجل الاحمر والاصفر الذي كان يحاول ربح بعض الدريهات بان يطوف حول الدائرة ومرفقاه على خصره ، مقلوب الرأس ، احمر الوجه ، ممتد العنق ، واضعاً كرسياً بين اسنانه وقد ربط على هذا الكرسي هراً اعارته اياه احدى الجارات وكان خائفاً جداً . وصرخ الكاهن حين مر المهرج امامه وهو يرشح عرقاً مع هرمه المؤلف من كرسي وهر :

– بحق السيدة العذراء ! ماذا يفعل هنا المعلم بيار غرنغوار ؟

ان صوت الكاهن الصارم اصاب المسكين بهزة شديدة جعلته يفقد توازنه

مع ما يحمل بحيث ان الكرسي والهر سقطا مختلطين على رؤوس المشاهدين وسط صياح سخرية لا يخمد .

من الراجح انه كان للمعلم بيار غرنغوار (فقد كان هو نفسه) حساب عسير يجب تصفيته مع الجارة صاحبة الهر ومع جميع الوجوه المرضوضة والمخدشة التي كانت تحيط به لو لم يسرع مغتنماً فرصة الجلبة ويلجأ الى الكنيسة ، حيث اشار اليه كلود فرولو ان يتبعه .

كانت الكاتدرائية آنذاك مظلمة ومقفرة . والاروقة ملأى بالظلمات وقد بدأت مصابيح الكنيسة تتفصم على شكل نجمة بقدر ما تصبح الاقبية سوداء . الا ان الوردة الكبرى في الواجهة والتي كانت الوانها الألف مغمسة بشعاع شمس افقي، كانت تلمع في الظلام كبرقشة الماس وتدفع طيفها الباهر الى الطرف الآخر من صحن الكنيسة .

وبعد ان قاما ببضع خطوات اسند الدوم كلود ظهره الى احد الاعمدة وحدق في غرنغوار . وهذه النظرة لم تكن هي التي يخافها غرنغوار ، رغم خجله من مفاجأة شخص وقور وعالم له وهو في ثياب المهرج . فنظرة الكاهن لم تكن نظرة ساخر وهازىء ؛ كانت جدية ، هادئة ، نافذة . وقطع الكاهن الصمت اولاً فقال :

– تعال الى هنا يامعلم بيار . عليك ان توضح لي كثيراً من الامور . اولاً لماذا لم نرك منذ شهرين ثم نجدك على مفارق الطرق مع حاشية جميلة ، حقيقة ! نصفك اصفر والنصف الثاني احمر كتفاحة من غوديبك ؟

فقال غرنغوار مشفقاً :

– انه بالفعل لباس مضحك وعجيب يا سيدي وتراني فيه اكثر خجلاً من هر يضع قرعة على رأسه . واني لأشعر انه عمل مسيء ان نجعل رقباء العسس يضربون بالعصا ، تحت ذلك الرداء الواسع الكمّين ، عظم عضد فيلسوف من اتباع فيثاغورس . ولكن ماذا تريد يامعلمي المحترم ! كان الخطأ ناتجاً عن ثوبي القديم الذي تركني بجبن في بدء الشتاء بحجة انه سقط مزقاً وانه بحاجة الى ان يذهب

ويرتاح في سلة جامع الحرق . ماذا افعل ؟ فالمدنيـة لم تصل بعـد الى درجة يستطيع معها الانسان ان يسير عارياً كما كان يريد ديوجـين القديم . اضف الى ذلك هبوب ريح باردة جداً ولا يمكن في شهر كانون الثاني تجربة القيام بنجاح بهذه الخطوة للانسانية . وقد عرض هـذا الرداء الواسع الكمين فأخذتـه ، وتركت هناك عباءتي السوداء التي كانت لحبيس مثلي ُمحكمة السد قليلاً وها انذا في ثياب مؤرخ ، كالقديس جينيست . ماذا تريد ؟ انه كسوف . وأبولو رعى جيداً السائمة [1] عند أدميتيس .

فقال الكاهن :

– انت تمارس بذلك مهنة جميلة !

– انا مقتنع يا استاذي ان التفلسف ونظم الشعر ، ونفخ اللهب في الأتون او تلقيه من السماء افضل من حمل هررة على ترس . وكذلك حـين كنت توجه الي كلاماً لاذعاً فقد كنت ابله كالحمار امـام آلة تدير سفود الشواء . ولكن ماذا تريد ياسيدي ؟ يجب ان نعيش كل الايام . واجمل الابيات الشعرية لا تساوي تحت الاسنان قطعة من جبن بري Brie . وقد نظمت للسيدة مرغريت دي فلاندر قصيدة العرس الشهيرة التي تعرفها ، فلم تدفع المدينة لي ثمنها بحجة انها ليست ممتازة ، كما لو ان بالامكان اعطاء مسرحية مأساة لسوفوكليس باربعة دنانير . اذن كدت اموت جوعـاً . ومن حسن الحظ وجـدت نفسي على شيء من القوة في الفك ، وقلت لهذا الفك : – قم باعمـال قـوة وتوازن ، وغـذّ نفسك . وقد علمني جماعة من الصعاليك الذين اصبحوا افضل اصدقاء لي عشرين نوعاً من الحيل الحركيلية . والآن فاني اقدم لأسناني في جميـع الامسيات الخبز الذي ربحته في النهار بعرق جبيني . وبعد فاني اسلّم بان هذا العمل يعد استعمالاً حقيراً لمواهبي الفكرية ، وان الانسان لم يخلق ليقضي حياته وهو يضرب على الدف ويعض على الكرسي . ولكن ايها الاستاذ المحترم ، لا يكفي الانسان ان ُيمضي حياته بل ان يربحها .

[1] – خيول وثيران كان ابولون يرعاها عند ادميت في تساليا .

كان الدوم كلود يصغي صامتاً . وفجأة اتخذت عينه الغائرة تعبيراً فطناً نافذاً شعر معه غرنغوار ان هذة النظرة قد نبشت اعماق نفسه .

– حسناً يامعلم بيار . ولكن كيف حدث ان اصبحت مرافقاً لتلك الراقصة الغجرية ؟

فقال غرنغوار :

– لعمري ، قد حدث ذلك لانها امرأتي وانني زوجها .

والتهبت عين الكاهن المظلمة . وصرخ وهو يمسك ذراع غرنغوار بهياج :

– افعلت ذلك ايها البائس؟ ألى هذا الحد تخلى الله عنك حتى تضع يدك على هذه الفتاة ؟

فاحاب غرنغوار وقد ارتعشت كل اعضائه :

– اقسم بنصيبي من الجنة يا سيدي . اقسم اني لم المسها ابداً ، اذا كان هذا ما يقلقك .

فقال الكاهن :

– اذن ما معنى كلامك عن زوج وعن امرأة ؟

فأسرع غرنغوار وسرد بقدر الامكان كل ما عرفه القارىء قبلًا عن مغامرته في بلاط العجائب وعن زواجه بواسطة الجرة المكسورة . وقد بدا بالنتيجة ان هذا الزواج لم تصبح له اية نتيجة بعد ، وان الغجرية في كل مساء تسرق منه ليلة عرسه شأنها في اليوم الاول ، وقال منهياً كلامه :

– انها خيبة ، ولكن هذا يعود الى سوء حظي لاني تزوجت عذراء .

وهدأت ثائرة الكاهن تدريجياً لهذه القصة وسأل :

- ماذا تريد ان تقول ؟

فأجاب الشاعر :

– هذا أمر شرحه صعب . انها خرافة . فزوجتي ، حسب ما قاله لص قديم يدعى عندنا دوق مصر ، هي طفلة لقيطة او ضائعة ، والامران واحد .

وهي تحمل في عنقها تميمة من شأنها ان تجعلها تلتقي بأهلها ذات يوم كما يؤكدون. وهذه التميمة تفقد فضيلتها اذا فقدت الفتاة فضيلتها . ونتج عن ذلك اننا ، نحن الاثنين ، ظللنا فاضلين جداً .

فقال كلود الذي ازداد صفاء جبهته :

– اذن انت تعتقد يا معلم بيار ان هذه المخلوقة لم يقربها رجل ؟

– ماذا تريد يا معلم كلود ان يفعل انسان بخرافـة . لقد وضعت ذلك في رأسها . وهذا الحرص على العفة نادر بالتأكيد فهي كالراهبة تحفظ نفسها نفورة بين فتيات الغجر اللواتي يصبحن أليفات بسرعة . ولكن هنالك ثلاثـــة اشياء تحافظ عليها : دوق مصر الذي اخذها تحت حمايته وربما يأمل ان يبيعها لرئيس دير ؛ وكل قبيلتها التي تحفظ لها احتراماً غريباً كأنها نوتردام ؛ وخنجر صغير تحمله معها دائماً في احدى الزوايا رغم اوامر الحاكم ، ويظهر في يدها حين يغامر احد بهصر قامتها . انها زنبور فخور ، هيا !

وضايق الكاهن غرنغوار بالاسئلة .

كانت ازميرالد ، حسب رأي غرنغوار ، مخلوقة غير مؤذية ، فاتنة ، جميلة، يضاف الى ذلك كشرة صغيرة خاصة بها ؛ انها فتاة ساذجة ، عاطفية ، تجهل كل شيء وتتحمس لكل شيء ؛ لا تزال تجهل الفرق بين رجل وامرأة حتى في الحكم ؛ هكذا خلقت ؟ مجنونة بالرقص على الخصوص ، وبالضجيج ، وبالهواء الطلق ؛ نوع من المرأة النحلة ، في قدميها اجنحـــة غير منظورة ، تعيش في دوامة ، وهي مدينة بهذه الطبيعة للحياة التائهة التي تعيشها دائماً . وقـد توصل غرنغوار الى معرفة طوافها ، وهي طفلة ، في اسبانيا وقطلونية حتى صقلية ! وكان يعتقد انها ذهبت مع قافلة من النور ، كانت عضواً فيها ، الى مدينـــة ألجه ، وهي بلاد موجودة في آشاي التي تحد البانيا واليونان من جهـــة ، ومن الجهة الثانية بحر صقلية الذي هو طريق القسطنطينية . ويقول غرنغوار ان الغجر كانوا اصحاب اقطاعات عند ملك ألجه بصفته رئيساً لأمة المغاربة البيض . امـا

الأكيد فهو ان ازميرالدا جاءت الى فرنسا وهي صغيرة جداً من هنغاريا . وقد حملت الفتاة من كل تلك البلاد نتفاً من الرطانات الغريبة ، واغاني وافكاراً غريبة جعلت من لغتها شيئاً اكثر برقشة من ملابسها التي نصفها باريسي والنصف الآخر افريقي . وبعد فان سكان الاحياء التي تتردد اليها يحبونها لمرحها ، ولطفها ، ولمشيتها الحية ، ورقصها واغانيها . وهي تعتقد انها غير مكروهة في المدينة كلها الا من شخصين غالباً ما كانت تتحدث عنهما برعب : حبيسة برج رولان ، وهي حبيسة شنيعة تحفظ للغجريات كراهية لا ادري كنهها ، وتلعن الراقصة المسكينة كلما مرت امام النافذة ؛ وكاهن لا يلتقي بها الا ويقذفها بنظرات وكلمات تبعث الخوف في نفسها . وهذا الظرف الاخير بعث الاضطراب في الكاهن دون ان يفطن غرنغوار الى ذلك ؛ والشهران كافيان لينسيا الشاعر الغافل التفاصيل الغريبة لتلك الامسية التي التقى فيها بالغجرية ، وحضور الكاهن في كل ذلك . وبعد فالراقصة الصغيرة لم تكن تخشى شيئاً ، ولم تكن تكشف الطالع ، الامر الذي جعلها في مأمن من دعاوى السحر التي تقام غالباً على الغجريات . ثم ان غرنغوار حل عندها محل الاخ بدلاً من الزوج. وكان الفيلسوف يتحمل بصبر عظيم ذلك النوع من الزواج الافلاطوني . فهناك دائماً مأوى وخبز . وفي كل صباح كان يسير من حي المتسولين مع الغجرية في اغلب الاحيان ، ويساعدها في مفارق الطرق على جمع القطع النقدية ؛ ويعود معها في كل مساء الى تحت سقف واحد ويتركها تقفل على نفسها في مأواها وينام هو نوم العادلين . انها حياة حلوة جداً ، يأخذ فيها كل شيء كما كان يقول ، وملائمة للاحلام . ثم ان الفيلسوف في روحه وضميره لم يكن متأكداً من انه مشغوف بالغجرية . فهو يحب المعزاة اكثر منها تقريباً . لقد كانت بهيمة لطيفة ، حلوة ، ذكية ، روحية ، معزاة عالمة . وما من شيء كان مألوفاً في القرون الوسطى اكثر من هذه الحيوانات العالمة التي تثير الدهشة ، وتقود اصحابها في الغالب الى المحرقة . الا ان شعوذات المعزاة ذات الاقدام الذهبية كانت مساوىء بريئة . وقد شرحها غرنغوار للكاهن بحيث كانت هذه التفاصيل

تثير اهتمامه . وكان يكفي في معظم الاحيان ان تقدم الدف للمعزاة بهذه الطريقة او بتلك لتحصل منها على مضحكات متمناة . فقد علمتها الغجرية ذلك وكان عندها في هذه الامور الدقيقة موهبة نادرة يكفيها شهران لتعلّم المعزاة ان تكتب بحروف متحركة كلمة « فوبوس » .

وقال الكاهن :

- فوبوس ! ولماذا فوبوس ؟

فاجاب غرنغوار :

- لا ادري ، لعلها كلمة تعتقد انها ذات فضيلة سحرية وسرية. فهي ترددها غالباً بصوت منخفض عندما تعتقد انها وحدها .

فقال كلود بنظرته النافذة :

- امتأكد انت انها ليست سوى كلمة ، وانها ليست اسماً ؟

فقال الشاعر : اسم من ؟

فقال الكاهن : وما يدريني ؟

- اليك ما اتخيله يا سيدي . هؤلاء الغجر من الفرس ، من اتباع زرادشت ويعبدون الشمس . ومن هنا جاءت كلمة فوبوس (معناها الشمس باللاتينية) .

- هذا لا يبدو لي واضحاً كما يبدو لك يا معلم بيار .

- ومع ذلك فهذا لا يهمني . لتدندن بفوبوسها كما يحلو لها . اما المؤكد فهو ان دجالي تحبني مثلها تقريباً .

- ما هي دجالي هذه ؟

- انها المعزاة .

ووضع الكاهن ذقنه على يده وبدا حالماً للحظة . ثم التفت فجأة الى غرنغوار :

- او تقسم لي انك لم تلمسها ؟

فقال غرنغوار : لم ألمس من ؟ المعزاة ؟

– كلا ، بل تلك المرأة .

– زوجتي ! اقسم لك انني لم ألمسها .

اتظل وحيداً معها في اغلب الاحيان ؟

– ساعة في كل مساء .

وعبس الدوم كلود وقال :

– اوه ! اوه ! هو وهي وحيدان ، لن يعتقد احد انهما كانا يصليان « ابانا »[1] .

– قسماً بروحي اني استطيع ان اتلو « ابانا » و « السلام عليك يا مريم » وغيرهما من الصلوات دون ان تنتبه الي الا كما تنتبه دجاجة الى كنيسة .

فكرر الكاهن بعنف :

– اقسم لي ببطن امك انك لم تلمس هذه المخلوقة بطرف اصبعك .

– واقسم ايضاً برأس ابي لان للاثنين اكثر من علاقة . ولكن اسمح لي يا سيدي المحترم ان اسألك بدوري .

– تكلم يا سيد .

– ماذا يضيرك هذا ؟

واصبح وجه الكاهن الشاحب اكثر حمرة من خد فتاة . وظل لحظة دون ان يجيب ثم قال بانزعاج ظاهر :

اسمع يا معلم بيار . انت لم تصبح من الهلكى بعد كما اعلم . وانا احبك واريد لك الخير لأن اقـل احتكاك مع غجرية الشيطان تلك تجعلك صاحب اقطاعة في مملكة الشياطين . وانت تعـلم ان الجسد هو الذي يهلك الروح . والويل لك اذا اقترنت من هذه المرأة ! هذا كل شيء .

فقال غرنغوار وهو يحك اذنه :

– حاولت مرة . وذلك في اول يوم ، ولكنني لدغت .

---

١ – هذه العبارة كلها باللاتينية في الاصل .

– اراودتك هذه الوقاحة يا معلم بيار ؟

واسودت جبهة الكاهن . وتابع الشاعر مبتسماً :

– مرة اخرى . فقد تطلعت قبل ان انام من ثقب غرفتها فرأيت ألذ سيدة في غلالةٍ جعلت فراش سرير يصدر حفيفاً تحت قدميها العاريتين .

فصرخ الكاهن بنظرة مخيفة :

– اذهب الى الشيطان !

ودفع غرنغوار المنذهل بمنكبيه ، وغاص بخطوات كبيرة تحت اكثر القناطر ظلاماً في الكاتدرائية .

٣

الاجراس

منذ صباح وتد التعذيب لاحظ جيران كنيسة نوتردام ان حمية كازيمودو في دق الاجراس قد بردت كثيراً . في السابق كانت الاجراس تقرع في كل مناسبة ، صباحيات طويلة كانت تدوم من فرض الساعة الاولى حتى صلاة النوم، ودقات انذار بقداس كبير ، وسلالم موسيقية غنية تخطر على الجريسات بسبب زفاف ، بسبب عماد ، وتختلط ببعضها في الهـــواء كمطرزات من جميع انواع الاصوات الجذابة . والكنيسة القديمة ، المهتزة كلها ، والرنانة كلها ، كانت في فرح اجراس مستمر . كان المرء يحس فيها دون انقطاع بوجود روح ضجة وهوى كانت تغني بجميع تلك الافواه النحاسية . اما الآن فهذه الروح تبدو انها اختفت ؛ وبدت الكاتدرائية عابسة تلتزم الصمت مختارة. واصبح للاعياد والجنائز دقاتها البسيطة ، الجافة ، العارية ، اي ما تطلبه طقوس . ليس اكثر . ومن الضجة المزدوجة التي تحدثها كنيسة ، ضجة الارغن في الداخـــل والجرس في الخارج ، لم يبق سوى الارغن ، حتى بات يخيـــل انه لا يوجد موسيقيون في ابراج الاجراس . ومع ذلك فكازيمودو موجود فيها دائماً . فماذا حدث له اذن؟ الأن العار واليأس الناتجين عن وتد التعذيب لا يزالان في اعماق قلبه، وضربات سوط الجلاد لا تزال تتردد في نفسه دون نهاية ، والحزن من معاملة كهذه اطفأ كل شيء فيه حتى عاطفته نحو الاجراس ؟

ام ان هناك منافسة لماري – اسم جرس – في قلب قارع اجراس نوتردام

وان اهمال الجرس الكبير واخوته الاربعة عشر ناتج عن شيء اجمـــل وادعى للمحبة ؟

لقد حدث في تلك السنة ان عيد البشارة وقع نهار الثلاثاء في ٢٥ آذار [1] . وكان الهواء في ذلك النهار نقياً وخفيفاً شعر معه كازيمودو برجوع شيء من المحبة لاجراسه فصعد الى البرج الشمالي بينما الخـــادم تحت كان يفتح جميع ابواب الكنيسة على مصاريعها ، تلك الابواب التي كانت آنذاك ذات صفائح ضخمة من الخشب المكسو بالجلد ، مطرزة بالمسامير الحديدية المذهبة ، ومؤطرة بمنحوتات « متقنة جداً بشكل اصطناعي » .

وحين بلغ قفص الاجراس الاعلى تأمل الاجراس الستة لبعض الوقت بهزة رأس حزينة كما لو انه يتحسر بسبب امر غريب حال في قلبـــه بينها وبينه . ولكن حين حركها ، حـين شعر ان ذلك العنقود من الاجراس يتحرك تحت يده ، وحين رأى ، لانه لا يسمعه ، اللحن الثامن المرتجف يعلو ويهبط على ذلك السلم الرنان كعصفور يقفز من غصن الى غصن ، وحين استحوذ شيطان الموسيقى ، على الاصم المسكين ، ذلك الشيطان الذي يهز باقة لامعة من نهايات الالحان ، ومن تكرار لحنين بشكل سريع ، ومن توافق الانغام ، فانه يعود سعيداً ، وينسى كل شيء ، وقلبه المنشرح يهلل وجهه .

كان يروح ويجيء ويضرب بيديه ويركض من حبل الى آخر، ويبعث الحياة في المغنين الستة بالصوت والحركة ، كقائد فرقة موسيقية يحضّ موسيقيين ماهرين اذكياء . وكان يقول :

– سر ، سر يا غبريال . وصب ضجتك كلها في الساحة . اليوم عيـد ... وأنت يا تيبو لا تكسل . فقد تمهلت . سر ، سر اذن ، هل اصابك الصدأ ايها الكسول ؟ حسناً ! بسرعة ! بسرعة ! حتى لا يظهر المضرب . اجعـل الجميع

---

١ – عيد البشارة ليس متنقلا كعيد الفصح ولكنه « يقع » دائماً في ٢٥ اذار . ولكن هيغو هنا ، كما في مقاطع كثيرة من روايته ، يظهر تشككاً في معلوماته المختصة بالطقوس الدينية .

صماً مثلي . هكذا يا تيبو ، بشجاعة ! غليوم ! غليوم ! انت الاكبر ، وباسكيه هو الاصغر . الا ان باسكيه يسير بشكل افضل . اراهن بأن الذين يسمعون هم يسمعونه افضل منك ! حسناً ! غبريال ، بقوة ! بزيد من القوة! هيه ! ماذا تفعلان فوق ايها العصفوران الدوريان ؛ لم اجدكما تحدثان اقل ضجة . ما هي تلك المناقير النحاسية التي تبدو انها تتثاءب بينما يجب ان تغني ؟ هكذا . لنقم بالعمل ! انه عيد البشارة . الشمس جميلة ويلزمنا جرس جميل ، — مسكين يا غليوم ! ها قد ضاق نفسك يا كبيري !

كان مشغولاً بنخس اجراسه الستة التي كانت تتنافس بالقفز وهز الارداف اللامعة كبغال اسبانية مقرونة صاخبة تخزها نخسات المكاري هنا وهناك .

وفجأة ، حين القى نظره من بين القشور العريضة المغطاة بالواح حجرية والتي تغطي الجدار العمودي لبرج الجرس على شيء من الارتفاع ، رأى في الساحة فتاة ترتدي زياً غريباً ، وكانت واقفة تفرش على الارض بساطاً جاءت معزاة صغيرة وجلست عليه ، واستدار حولهما جمهور من المتفرجين . لقد غيّر فجأة هذا المنظر مجرى افكاره ، وجمد حماسته الموسيقية كنسمة هواء تجمد صمغاً في حالة الذوبان . ووقف ، وادار ظهره للجرس ، وأقعى وراء الافريز الحجري مثبتاً على الراقصة ذلك النظر الحالم ، الحنون ، العذب الذي ادهش الخوراسقف ذات مرة . . الا ان الاجراس المنسية سكتت كلها دفعة واحدة . وأصيب بخيبة أمل هواةُ رنين الاجراس الذين كانوا يصغون بايمان متين الى الجرس الموجود فوق بون — اوشانج ، ويسيرون مذهولين ككلب أروه عظماً واعطوه حجراً .

٤

قضاء وقدر [١]

حدث في صباح يوم جميل من شهر اذار نفسه ، واظنه السبت في ٢٩ منه ، يوم عيد القديس اوستاش ، ان صديقنا الشاب الطالب جهان فرولو دي مولان انتبه وهو يرتدي ثيابه ان مرواله المحتوي على محفظة دراهمه لا يردد اي صوت معدني . فقال وهو يسحب المحفظة من جيبه :

ــ يا للمحفظة المسكينة ! ماذا ! حتى ولا اصغر باريزي ! لكم شق النرد وطاسات البيرة وفينوس بطنك بشراسة ! لكم انت فارغـــة ، متجعدة ، مسترخية ! انت تشبهين عنق امرأة غضوب . واني اوجه السؤال اليك ايها السيد شيشرون والسيد سينيكا ، حيث أرى نسخ كتبكما مبعثرة على البلاط ، ماذا يفيدني ان اعرف ، افضل من قائد عملة او يهودي على جسر الصيارفة ، ان ديناراً ذهبياً في التاج يساوي خمسة وثلاثين اونزان Unzains قيمة كل منهـــا خمسة وعشرون فلساً وثمانية دنيه باريزي ؛ وان ديناراً عثمانياً يساوي ستة وثلاثين اونزان كل منها بستة وعشرين فلساً وعشرة دنيه من النقد القديم ، اذا لم يكن معي ربع فلس اسود اجازف به على الرقم ستة المزدوج (دوشيش) ! اوه ! ايها القنصل شيشرون ! ليست هناك ابة بلية عظمى يمكن التخلص منها بواسطة الكلام وبعبارات من امثال « بنوع ان » و « لكن بالحقيقة » .

---

١ ــ عبارة باليونانية في الاصل .

ارتدى ثيابه حزيناً . وكانت قد مرت بباله فكرة وهو يربط اشرطة حذائه ، ولكنه ابعدها اولاً ؛ الا انها عادت . وكان ان ارتدى صدرته على القفا وهذه علامة اكيدة على نشوب معركة داخلية عنيفة . واخيراً قذف قبعته على الارض بقوة وصرخ .

— لا يهمني ! ليحدث ما يحدث ! سأذهب الى اخي . اني سأنال موعظة توبيخية ولكني سأنال ديناراً .

ولبس رداءه المبطن بالفرو بسرعة ، والتقط قبعته وخرج بحالة يأس .

هبط شارع لاهارب نحو حي لاسيته . وحين مر امام شارع لاهوشيت جاءت رائحة تلك السفافيد الرائعة الدائرة دون انقطاع تدغدغ جهاز الشم عنده ، والقى نظرة حب على دكان الشواء الفسيحة العتيقة التي انتزعت ذات يوم هذا الهتاف المؤثر من كالاتا جيرون الجبّال : « بالحقيقة ان هؤلاء الشوائين هم اشياء مدهشة[1] » . ولكن لم يكن مع جهان ثمن ما يأكله ، فغاص مع آهة عميقة تحت مدخل الشاتليه الصغير ، وهو بناء ضخم من الابراج الثقيلة كان يحرس مدخل حي لاسيته .

ولم يكن لديه متسع من الوقت ليلقي حجراً اثناء مروره ، كما هي عادته ، على ذلك التمثال المسكين ، تمثال بيرينه لوكليرك الذي سلّم في الماضي باريس شارل السادس الى الانكليز ، وهي جريمة كفّر عنها تمثاله ، فقد ظل وجه التمثال مسحوقاً بالحجارة وملوثاً بالوحول طوال ثلاثة قرون ، كما لو انه على وتد تعذيب ابدي .

واجتاز جهان دي مولاندينو الجسر الصغير ، وتخطى شارع القديسة جنفياف الجديد ووجد نفسه امام كنيسة نوتردام . عندئذ عاوده تردده ومشى لبضع لحظات حول تمثال ليغري وهو يردد بقلق : الموعظة مؤكدة اما الدينار فموضع شك !

واوقف خادماً للكنيسة كان خارجاً من الدير وسأله :

---

١ — عبارة باللاتينية في الاصل .

- اين السيد الخوراسقف دي جوزا ؟

فقال الخادم :

- اعتقد ان صومعته في البرج ، ولا انصحك ان تزعجه فيها الا اذا كنت آتياً من قبل احدٍ كالبابا او الملك .

وضرب جهان بيديه قائلاً :

- يا للشيطان ! انها فرصة جميلة لمشاهدة غرفة الشعوذات الشهيرة .

ودخل بعزم تحت الباب الصغير الاسود ، مسيّراً بهذه الفكرة ، واخذ يصعد درج سان جيل الحلزوني الذي يقود الى الطبقات العليا من البرج . وكان يقول لنفسه اثناء صعوده :

- سأرى ! وحق السيدة العذراء ! يجب ان تكون شيئاً عجيباً تلك الصومعة التي يخبئها اخي المحترم كأعضائه التناسلية ! يقال انه يشعل فيها مطابخ جهنمية وانه يطبخ فيها الحجر الفلسفي على نار حامية . وحق الرب اني اهتم بالحجر الفلسفي اهتمامي بحصاة ، وافضل ان اجد على أتونه عجة بيض الفصح بشحم الخنزير اكثر من اكبر حجر فلسفي في العالم !

ووصل الى رواق الاعمدة الصغيرة ، ونفخ لحظة . واقسم ضد الدرج اللامنتهي بملايين كثيرة من احمال عربات من الشياطين ، ثم تابع صعوده من الباب الضيق للبرج الشمالي الممنوع دخوله اليوم على عامة الناس . وبعد بضع لحظات ، بعد ان اجتاز الاجراس ، وصل الى سطح صغير في وهدة جانبية ، وتحت القبة باب صغير مقوس ، حيث فتحة منقوبة امامه ، في جدار الدرج الداخلي الدائري، تتيح له رؤية القفل الضخم والقطعة المعدنية القوية. والاشخاص الذين يدفعهم الفضول اليوم الى زيارة ذلك الباب فسيعرفونه من ذلك الوصف المحفور بحروف بيضاء في الجدار الاسود : أعبد كورالي ، ١٨٢٩ ، التوقيع : اوجين . وكلمة « التوقيع » موجودة في النص .

وقال الطالب :

- اوف ! انه هنا دون شك .

كان المفتاح في القفل . والباب قريب . فدفعه باسترخاء وادخـــل رأسه من الفتحة .

لا بد ان القارىء تصفح الآثار المدهشة لرامبرانت ، شكسبير الرسم . فبين كثير من الصور الرائعة يوجد واحدة تمثل الدكتور فوست ، على ما يُظن ، يستحيل على المرء تأملها دون ان ينبهر . انها صومعة مظلمة . في وسطها منضدة عليها اشياء قبيحـــة ، رؤوس موتى ، كرات ، انابيق ، بركارات ، رقوق هيروغليفية . والدكتور امام هذه المنضدة يرتدي معطفه الواسع ورأسه غارق حتى الاذنين بقبعته المبطنة بالفرو . ولا يظهر منه سوى نصف جسمه . وكان ناهضاً نصف نهضـــة من مقعده الواسع ، وقبضتاه المتشنجتان تستندان الى المنضدة ، وهـو يراقب بفضول وهلع دائرة كبيرة مضيئة مؤلفـة من حروف سحرية ، تلمع على الجدار في الداخل كالطيف الشمسي في الغرفة السوداء . وهذه الشمس السحرية تبدو للعين انها ترتجف وتملأ الصومعة الشاحبة بشعاعها الغريب . انه شيء مخيف وجميل .

ان شيئاً ما يشبه صومعة فوست بدا لعيني جهان حين جازف وادخل رأسه من الباب المفتوح قليلاً . لقد كان مسكناً مظلماً يكاد لا يكون مناراً . وكان هناك مقعد كبير ومنضدة كبـــيرة . وبركارات ، وانابيق ، وهياكل عظمية لحيوانات معلقة في السقف ، وكرة متدحرجة على البلاط ، واشياء مختلطة بقماقم تهتز فيها اوراق ذهبية ، ورؤوس موتى موضوعة على قراطيس مبرقشة بالصور والحروف ، ومخطوطات كبيرة منضــــدة وهي مفتوحة على زوايا القراطيس المتكسرة ، واخيراً جميع قذارات العلم ، في كل مكان ، على تلك الفوضى والغبار ونسيج العنكبوت ؛ ولكن لم يكن هناك اية دائرة حروف مضيئة ، ولا دكتور في حالة ذهول يتأمل المنظر الملتهب كما ينظر النسر الى شمسه .

الا ان الصومعة لم تكن مقفرة . فهناك رجل على المقعد ومنحنٍ على المنضدة ، وبما انه كان يدير ظهره الى جهان فان هذا لم يستطع ان يرى سوى كتفيه ومؤخرة جمجمته ؛ ولكن الامر لا يحتاج الى جهد لمعرفة ذلك الرأس

الاصلع الذي صنعت له الطبيعة اكليلاً ابدياً كما لو انها كانت تريد ان تدمغ دعوة الخوراسقف الكهنوتية التي لا تقاوم برمز خارجي .

اذن فقد عرف جهان اخاه. ولكن الباب انفتح بهدوء وليس هناك ما ينذر كلود بوجود اخيه . وقد اغتنم الطالب الفضولي الفرصة ليتفحص الصومعة بضع لحظات وعلى مهل . موقد واسع لم يلاحظه لأول وهلة ، كان على شمال المقعد تحت النافذة . ونور النهار الداخل من هذه الفتحة كان يجتاز نسيجاً مستديراً لعنكبوت رسمت بكثير من الذوق شكل ورديتها الدقيقة في قوس النافذة ، وقد استقرت الحشرة المهندسة في وسطها جامدة كنقطة المركز في هذا الدولاب من المخرمات . وتكدست على المقعد بدون ترتيب انواع الاواني ، وزجاجات رمل ، وقرعات زجاجية ، وآنية زجاجية طويلة العنق ملأى بالفحم . ولاحظ جهان متأوهاً عدم وجود مقلاة صغيرة .

فقال مفكراً :

– ان ادوات المطبخ جديدة !

وبعد ، فلم يكن هناك نار في الموقد، ويبدو انه لم يشعل منذ وقت طويل. وهناك قناع زجاجي لاحظه جهان بين اواني الكيمياء يستعمل دون شك ليحفظ وجه الكاهن اثناء تحضير بعض المواد المخيفة ، كان في احدى الزوايا وكأنه منسي . والى جانبه منفخ ملقى في الغبار وصفحته العليا تحمل هذه الكتابة المرصعة بالنحاس : انفخ وتأمل .

وكتابات اخرى مكتوبة على نسق خط الحبساء على الجدران بعدد كبير ؛ بعضها مرسوم بالحبر، والبعض الآخر منقوش بنقاش معدني . ثم حروف قوطية وعبرية ، ويونانية ، وحروف رومانية مختلطة ، والتدوينات تزداد كيفما اتفق ، هذه على تلك ؛ والاحداث تمحو الاقدم ، وتتشابك كلها كفروع الاشواك ، كحراب معركة . انها بالفعل معركة مشوشة لجميع الفلسفات ، لجميع الاحلام، ولجميع الحكمات الانسانية ، وهنا وهناك توجد واحدة تلمع على الاخريات كعلم بين حدائد الرمح . وتكون في معظم الاحيان شعاراً مقتضباً لاتينياً او

رومانياً كما تصوغه القرون الوسطى : « من اين ؟ من هنـــاك ؟ الانسان مسخ الانسان . — كواكب ، معسكر ، اسم ، الوهة (والعاب اخرى لاتينية على الكلام لا تترجم) . — كتاب كبـير شر كبـير . — تجرأ ان تعرف . — ينفخ حيث يشاء [1] » . واحياناً كلمة معراة من كل معنى ظاهر ، يمكن ان تخبىء تحتها اشارة لاذعة الى نظـــام الدير ؛ واحياناً نصيحة بسيطة في النظام الاكليركي مصاغة بشعر مسدس التفصيلات حسب الاصول: ليسمّ الرب سماوياً، فالرب ارضي [2] » . ويوجد ايضاً هنا وهناك كلمات عبرانية غامضة . وجهان الذي لا يعرف الا القليل جداً من اليونانية لم يكن يفهم شيئاً من تلك الكلمات، ويخترق الجميع في كل مناسبة نجوم ، وصور رجـــال او حيوانات ومثلثات تتقاطع ، الامر الذي لا يساعد قليـلاً على تشبيه جدار الصومعة الملوث بطلحية ورق اجرى عليها قرد قلماً مليئاً بالحبر .

وبعد فمجموع المسكن يمثل منظراً عاماً للاهمال والخراب ، وحالة الاواني السيئة تفسح مجـالاً للافتراض ان صاحبها قد الهته شواغل اخرى عن اشغاله منذ وقت طويل .

وصاحبها المنحني على مخطوطة كبيرة مزينة برسوم غريبـة كان يبـدو معذباً بفكرة تأتي دائماً وتختلط بتأملاته . هذا على الاقل ما ادركه جهان حين سمعه يهتف مع التقطع المفكر لصاحب اوهام يحلم بصوت مرتفع :

— نعم ، فهاني قال ذلك ، وعلّمه زرادشت ، الشمس تولد من النار ، والقمر من الشمس ، والنار هي روح الكل الكبير . وذراتها الاولية تفيض وتسيل على العالم دون انقطاع في مجاري لا نهاية لها . وفي النقـاط التي تتقاطع فيها هذه المجاري في السماء ، تنتج النور ؛ وعند نقاط تقاطعهـا في الارض تنتج الذهب . — النور ، الذهب ، شيء واحد . من النار الى الحالة المجردة . — والفرق بين المنظور والملموس ، بين المائع والجامد من المادة نفسها ، ومن بخار

---

١ — هذه العبارات باليونانية واللاتينية في الاصل .

١ — عبارة لاتينية في الاصل .

الماء حتى حالة الجليد ، لا شيء. وهذه ليست احلاماً، انها قانون الطبيعة العام. – ولكن ما العمل لنسترق من العلم سر هذا القانون العام ؟ ماذا ! هذا النور الذي يفيض على يدي انه الذهب ، انها نفس الذرات المتمددة وفقاً لأحد القوانين ! – ما العمل ؟ – لقد تخيل بعضهم ان يدفن شعاع الشمس . – ابن رشد – نعم ، انه ابن رشد ، – لقد دفن ابن رشد واحداً منها تحت اول عمود لناحية الشمال في معبد القرآن ، في جامع قرطبة الفسيح ، ولكن لا يمكن فتح القبو لترى اذا ما كانت العملية قد نجحت الا بعد ثمانية آلاف سنة .

فقال جهان بينه وبين نفسه :

– وحق الشيطان ! انه انتظار طويل للدينار !

وتابع الكاهن الحالم :

– ... وفكر آخرون ان من الافضل اجراء العملية على شعاع سيريوس[١] ولكن الحصول على هذا الشعاع النقي امر صعب بسبب الوجود المتناوب لنجوم اخرى تختلط به . ويرى فلاميل ان من الابسط اجراء العملية على النار الارضية . – فلاميل ؛ يا له من اسم لأحد مختاري السماء ، فلاميل ! – نعم ، النار . هذا كل شيء . – الالماس في الفحم ، والذهب في النار ، – ولكن كيف يستخرج منها ؟ – يؤكد ماجيستري وجود بعض اسماء نسائية ذات سحر كثير العذوبة والغموض ، يكفي ان نلفظها اثناء العملية . – لنقرأ ما قاله ماني عن ذلك : « حيث تكرم النساء تفرح الآلهة ؛ وحيث يحتقرن فلا فائدة من التضرع الى الله . – فم المرأة طاهر دائماً ؛ انه ماء جار ، انه شعاع الشمس . – واسم المرأة يجب ان يكون لطيفاً ، عذباً ، خيالياً ، ينتهي باحرف صوتية طويلة ويشبه عبارات البركة » . نعم ، ان الحكيم على حق ؛ وبالفعل فاسم ماريا وصوفيا وازميرالا .. – يا للعنة ! دائماً هذه الفكرة !

واطبق الكتاب بعنف. ووضع يده على جبهته كأنه يريد ان يطرد الفكرة التي كانت تزعجه . ثم اخذ عن المنضدة مسماراً ومطرقة رممت قبضتها بشكل

١ – احد نجوم الشعرى اليانية .

ومجروف سحرية . وقال بابتسامة كئيبة :
– منذ زمن والاخفاق يلازمني في جميع تجاربي ! والفكرة الثابتة تتملكني وتذبل دماغي كذائرة من نار . اني لم اتوصل على الاقل الى ايجاد سر كاسيودور حيث المصباح يشتعل بدون فتيل ولا زيت . مع انه امر بسيط !
وقال جهان في نفسه : الطاعون !
وتابع الاسقف :
– ... اذن ففكرة حقيرة وحيدة تكفي لتجعل الرجل ضعيفاً ومجنوناً ! اوه ! سوف تضحك مني كاود بيرنيل التي لم تستطع ان تحول نيقولا فلاميل ولو للحظة عن متابعة العمل العظيم ! ماذا ! اني امسك بطرقة زيشيليه السحرية ! وفي كل ضربة كان الكاهن المخيف يضربها من اعماق زنزانته على هذا المسمار بتلك المطرقة ، فان مسمار اعدائه الذين أدانهم ، مع انهم على بعد الفي فرسخ ، كان يغرز مقدار ذراع في الارض التي ابتلعته . وملك فرنسا نفسه غاص في شارعه في باريس حتى الركبتين لانه اصطدم ذات مساء ، وبدون انتباه ، بباب صانع المعجزات. جرى ذلك منذ اقل من ثلاثة قرون – حسناً ! فالمطرقة والمسمار معي وهما في يدي ليس اكثر هولاً من مطرقة خشبية في يد صانع ادوات حديدية . – الا ان المقصود ليس سوى ايجاد الكلمة السحرية التي كان يلفظها زيشيليه وهو يضرب على مسماره .
وقال جهان : ترهات !
وتابع الكاهن بجدة :
– انر ، لنجرب ، اذا نجحت فسأرى الشرارة الزرقاء تنبجس من رأس المسمار . – امين–هيتان! امين هيتان[1]– ليس هذه. - سيجياني! سيجياني[2] !

---

١ – Emen - hétan : صرخة الخفافيش عند وصولهم الى مجمع السحرة ، وقد فسرها هيغو في الفصل التالي .

٢ – ان الروح سيجياني في مملكة آرا تدير العناصر وتقذف الصاعقة والبروق . (ملاحظة من هيغو) .

- ليفتح هذا المسمار القبر لمن يحمل اسم فوبوس ! اللعنة ! دائماً الفكرة نفسها الى الابد .

والقى المطرقة بغضب ، ثم هبط على المقعد وعلى الطاولة بحيث لم يعد يراه جهان وراء الملف الضخم . وفي فترة امتدت حتى بضع دقائق لم يرَ سوى قبضته المتشنجة على كتاب . وفجأة نهض الدوم كلود واخذ بوكاراً وحفر به ، وهو صامت ، على الجدار ، وبحروف كبيرة هذه الكلمة اليونانية :

قضاء وقدر

وقال جهان لنفسه :

- اخي مجنون ؛ لقد كان اسهل عليه ان يكتب كلمة فاتوم . وليس كل الناس مجبرين على معرفة اليونانية .

وعاد الكاهن الى الجلوس على مقعده ووضع رأسه بين يديه كما يفعل مريض ثقيل الجبهة مشتعلها .

وكان التلميذ يراقب اخاه بدهشة . هو الذي يضع قلبه في الهواء الطلق ، ولا يلاحظ اي قانون في العالم سوى قانون الطبيعة الصالح ، هو الذي ترك عواطفه تسير وفقاً لميوله ، وبحيرة التأثرات العظيمة عنده كانت دائماً جافة ما دام يشق فيها كل صباح ، وبشكل واسع ، اقنية جديدة ، لم يكن يعرف بأي فوران يثور ويغلي هذا البحر من العواطف البشرية حين يأبون عليه اي منفذ ، وكيف يتجمع ، ويطغي ويفيض ، ويحفر القلب ، وكيف ينفجر بالبكاء الداخلي وبتشنجات خفية الى ان يمزق سدوده ويبقر ارضه . ان غلاف كلود فرولو العابس الجليدي ، ذلك السطح البارد من الفضيلة الوعرة الصعبة المنال ، قد خدع جهان دائماً . ولم يكن الطالب المرح يفكر ابداً بما هناك من حمم تغلي ، هائجة وعميقة تحت جبهة بركان اتنا الثلجية .

اننا لا نعرف اذا كان اهتم فجأة بهذه الافكار ، ولكنه مهما كان بخارياً ، فهو يدرك انه رأى ما لا يجب ان يراه ، وانه فاجأ روح اخيه الاكبر في

مواقفها الاكثر مريبة وان كلود يجب الا يفطن اليه . ولذلك حين رأى الكاهن وقد عاد الى التردي في جوده الاول ، سحب رأسه بكل هــدوء ، واحدث صوت وقع اقدام وراء الباب كأن احداً قد اتى وأنبأ بقدومه. فصرخ الكاهن من داخل الصومعة :

ادخل ! اني انتظرك . وقد تركت المفتاح بالباب عمداً . ادخــل يا معلم جاك .

ودخل الطالب بجرأة . والكاهن الذي تزعجه زيارة كهذه في مكان كهذا ارتجف على مقعده وقال :

– ماذا ! اهذا انت يا جهان ؟

فقال الطالب بوجهه الاحمر الوقح المرح : انه على كل حال حرف ج .

واستعاد وجه الدوم كلود تعبيره الصارم :

– ماذا جئت تفعل هنا ؟

فأجاب الطالب باذلاً جهده لبلوغ هيئة محتشمة ، متواضعة ، تستحق الشفقة، وهو يدير قبعته بيديه بهيئة البراءة :

– جئت اطلب منك يا اخي . . .

ماذا ؟

– شيئاً من الاخلاق التي انا بحاجة ماسة اليها .

ولم يجرؤ على ان يضيف بصوت مرتفع :

– وقليلاً من المال انا بحاجة ماسة اليه ايضاً .

وهذا العضو الاخير من عبارته ظل غير منشور

وقال الكاهن بلهجة باردة :

– ايها السيد ، انا مستاء جداً منك .

فتأوه الطالب قائلاً : امر مؤسف !

ورسم الدوم كلود ربع دائرة على مقعده وحدق بجهان وقال :

– انا مسرور جداً لرؤيتك .

انه استهلال مخيف . واستعد جهان لصدمة قاسية .

– في كل يوم يحملون الي شكاوى منك يا جهان . فما تلك المشاجرة التي أصبت بهـــا الفيكونت الصغير البير دي رامونشان ببعض الرضوض بسبب ضربه بالعصا ؟

فقال جهان :

– اوه ! شيء مهم ! غلام خبيث كان يلهو بتلويث التلامذة وهو يركض جواده في الوحول .

وقال الكاهن :

– وما هي قصة ماهيال فارجيل الذي مزقت ثوبه ؟ فالشكوى تقول : « تمزيق ثوب » .

– آه ! معطف حقير من مونتيغي . الا ترى ذلك !

– تقول الشكوى « ثوب » وليس معطفاً ، اتعرف اللاتينية ؟

فلم يجب جهان . وتابع الكاهن هازاً رأسه ؟

– نعم ! انظر اين اصبحت الدروس والآداب الآن . فاللغـة اللاتينية لا تكاد تسمع ، والسريانية مجهولة ، واليونانية بغيضة بحيث لم يعد من الجهـــل ان يقفز اكثر الناس علماً عن كلمة يونانية دون ان يقرأها ، وان يقال : انها يونانية لا تقرأ .

فرفع الطالب عينيه بعزم وقال :

– ايرضيك يا سيدي الاخ ان اشرح لك بفرنسية سليمـــة تلك الكلمة اليونانية المكتوبة هناك على الجدار ؟

– اي كلمة ؟

– ANAΓKH (قضاء وقدر) .

وتفتح احمرار خفيف على خدي الكاهن الصفراوين كنفخة من الدخان تعلن في الخارج عن ارتجاجات بركان خفية . ولم يستطع الطالب ملاحظة ذلك . وتمم الاخ البكر بجهد :

– ايه ، يا جهان ، ماذا تعني هذه الكلمة ؟
– القضاء والقدر .
فعاد الدوم كلود الى الشحوب ، وتابع الطالب بعدم اكتراث :
– وتلك الكلمة الموجودة تحت ، فقد حفرت بنفس اليد وتعني « دنس ». ها أنت ترى انني اعرف يونانيتي .
وظل الكاهن صامتاً . لقد جعله هذا الدرس باليونانية حالماً . وجهان الصغير المتمتع بجميع حذاقات الولد المرح ادرك ان اللحظة ملائمة ليجازف بطلبه . فأكسب صوته عذوبة متناهية ، وبدأ قائلاً :
– اتكرهني يا اخي الطيب الى درجة انك تظهر لي هيئة كارهة بسبب بعض اللطمات المؤذية والضربات الموزعة أثناء حالة حرب مع من لا اعرف من غلمان واطفال [1] ؟ – ها انت ترى يا اخي كلود اني اعرف لاتينيتي .
ولكن هذه المداهنة اللطيفة كلها لم يكن لها تأثيرها المعتاد على الأخ الاكبر الصارم . والبواب الشرس لم يقضم حلوى العسل، وظلت جبهة الكاهن متغضنة. وقال بنبرة جافة :
– الى اين تريد ان تصل ؟
فأجاب جهان بشجاعة :
حسناً . لندخل في الموضوع ! انا بحاجة الى مال .
عند هذا التصريح الوقح اتخذت سيماء الكاهن تعبيراً تربوياً ابوياً .
– انت تعلم ياسيد جهان ان اقطاعتنا في تيرشاب لا تأتينا الا بتسع وثلاثين ليرة واحد عشر فلساً وستة دنيه باريزي ، اذا حسمنا الضرائب وايرادات الواحد والعشرين بيتاً . وهذا النصف يزيد عما كان في ايام الاخوة باكليه ولكنه ليس بالكثير .
فقال جهان بعزم : انا بحاجة الى مال .
– انت تعلم ان القاضي حكم بان بيوتنا الواحد والعشرين داخلة ضمن اقطاعة

– ١ هاتان الكلمتان الاخيرتان قالهما باللاتينية .

الاسقفية ، واننا لا نستطيع اقتداء هذه الهبـــة إلا بأن ندفع للاسقف المحترم قطعتين من النقود الفضية المذهبة بثمن ست ليرات باريزي . وهاتان القطعتان لم استطع جمع قيمتها بعد . وانت تعرف ذلك .

فكرر جهان للمرة الثالثة :

– اعرف اني بحاجة الى مال .

– وماذا تريد ان تفعل بالمال ؟

هذا السؤال جعل شعاعاً من الأمـــل يلمع في عيني جهان ، فاستعاد هيئته الوادعة العذبة وقال :

– اسمع يا اخي العزيز كلود . اني لم اتوجه اليك بقصد سيء . والامر لا يتعلق بالتجمل في الحانات ، والتنزه في شوارع باريس بسرج من البروكار المذهب مع خادمي . كلا يا اخي . اني اطلب المال لعمل صالح .

فسأل كلود بشيء من الدهشة :

– اي عمل صالح ؟

– هناك اثنان من اصدقائي يريدان شراء اقمطة لطفل ارملة فقيرة وراهبة مضيافة . انه احسان . والامر يكلف ثلاثة فلورينات واريد ان اساهم بذلك .

– ما اسم صديقيك ؟

– بيار ضارب النبوت (لاسومير)، وبابتيست قاضم فرخ الأوز (كروك - وازون) .

فقال الكاهن :

– يا لها من اسماء تليق بعمل خيري لياقة منجنيق على معلم عقيدة .

من المؤكد ان جهان لم يحسن ابداً اختيار اسمي صديقيه . وقد شعر بذلك متأخراً . اما كلود الفطن فقد قال متابعاً :

– ثم ما هو هذا القماط الذي يكلف ثلاثة فلورينات ؟ وهذا لطفل راهبة مضيافة ؟ منذ متى كان للأرامل راهبات الضيافة اطفال في الاقمطة ؟

وكسر جهان الجليد مرة اخرى :

— ايه ، نعم ! انا بحاجة الى مال لأذهب هذا المساء واشاهد ايزابو لاتيري في فال دامور .

فصرخ الكاهن : ايها البائس الدنس .

فقال جهان : دنس [1] .

هذا الاستشهاد الذي استعاره الطالب بخبث عن جدار الصومعة احدث على الكاهن تأثيراً غريباً . فعض على شفتيه وأنطفأ غضبه في احمرار وجهه . وقال لجهان : اذهب ، فأنا بانتظار احدهم .

وبذل الطالب جهداً اخيراً فقال :

— يا اخي كلود ، اعطني على الاقل باريزي صغيراً لكي آكل .

فسأل الدوم كلود :

— اين صرت في رسائل غراتيان ؟

— اضعت دفاتري .

— واين صرت في الانسانيات اللاتينية ؟

— لقد سرقوا مني كتاب هوراتيوس .

— واين صرت في ارسطاطاليس ؟

— لعمري يا اخي من هـــو ذلك الأب للكنيسة الذي قال بأن ضلالات المراطقة تجد مأواهـا في كل زمن في اشواك ميتافيزيق ارسطا طاليس ؟ هشيم ارسطا طاليس ! لا اريد تمزيق ديني بغيبياته .

فقال الكاهن :

— ايها الشاب . عند عودة الملك الاخيرة كان هناك شاب نبيل يدعى فيليب دي كومين قد طرز على مؤخرة سرج جواده شعاراً انصحك بان تتأمله ملياً ؛ « من لا يشتغل لا يأكل [2] » .

ظل الطالب صامتاً لحظة واصبعه في اذنه، وعينه محدقة بالارض بهيئة حردة.

---

١ — كلمة باليونانية في الاصل .

٢ — عبارة لاتينية في الاصل .

وفجأة التفت الى كلود بتلك المهارة الحية لطائر القوبعة [1] وقال :

– اذن ترفض ايها الأخ الطيب اعطائي فلساً باريزي لشراء كسرة خبز ؟

– من لا يشتغل لا يأكل .

ولدى هذا الجواب من الكاهن الذي لا يلين خبأ جهان رأسه في يديه كامرأة تنتحب وهتف بتعبير يائس :

– اوه [2] !

فسأل الكاهن وقد فاجأته هذه البادرة :

– ما معنى هذا ؟

فقال الطالب : ايه ! ماذا !

ورفع الى كلود عينين وقحتين غمس فيهما قبضتيه ليكسبها احمرار الدموع .

– هذا من اللغة اليونانية ! انه مقطع من اخيلوس يعبر تماماً عن الألم .

وانفجر هنا بضحكة هازلة عنيفة جعلت الكاهن يبتسم . لقد كان الخطأ خطأ كلود فعلاً . فلماذا امعن في تدليل هذا الولد ؟

وقال جهان وقد جرأته هذه الابتسامة :

– اوه ! يا اخي الطيب كلود . انظر الى حذائي المثقوب . وهل هناك حذاء اكثر مأساة في الدنيا من الاحذية التي يسحب نعلها لسانه ؟

وكان الكاهن قد عاد بسرعة الى صرامته الاولى وقال :

– سأرسل اليك حذاء جديداً . ولكن لن اعطيك مالاً .

فتابع جهان المتوسل :

– لا شيء سوى باريزي صغير حقير يا اخي . سأحفظ غراتيان عن ظاهر قلب . وسأؤمن جيداً بالله ، وسأصبح فيثاغورس حقيقياً بالعلوم والفضيلة . ولكن اعطني باريزي صغيراً من فضلك! اتريد ان يعضني الجوع بحلقومه الموجود هنا فاغراً فاه امامي ، ذلك الحلقوم الاكثر سواداً والاكثر نتناً والاكثر عمقاً

---

١ – طائر يحرك ذيله باستمرار .

٢ – هنا ردد الطالب حرفين يونانيين خمس مرات .

من تتري او أنف راهب ؟

فهز كلود رأسه المتغضن وقال :

– من لا يشتغل ...

فقاطعه جهان وصرخ :

– لا بأس ، الى الشيطان ! ليعش المرح ، سألازم الحانـــة ، وسأقاتل ، وسأكسر الكؤوس ، وسأذهب لرؤية الفتيات .

وبعد ذلك قذف قبعته الى الحائط وطرقع باصابعه كالصناجات . فنظر اليه الكاهن عابساً وقال :

– جهان . انت بلا روح .

– في هذه الحالة ، وفقـــاً لرأي ابيقور ينقصني ما لا اعرف من شيء لا اسم له .

– جهان ، يجب التفكير جدياً في اصلاحك .

فصاح الطالب وهو يتطلع دورياً الى اخيه والى أنابيق الموقد :

آه ، هذا . اذن كل شيء مقرّن هنا . الافكار والزجاجات .

– انت على منزلق خطر يا جهان . اتعرف الى اين تسير ؟

فقال جهان : الى الحانة .

– الحانة توصل الى وتد التعذيب .

– انه مصباح كأي مصبـاح آخر . ومن الممكن ان ديوجين وجــد انسانه بهذا .

– ووتد التعذيب يوصل الى المشنقة .

– المشنقة ميزان فيه الانسان في طرف والارض كلها في الطرف الآخر . وجميل ان يكون المرء رجلًا .

– والمشنقة توصل الى نار جهنم .

– انها نار كبرى .

– جهان ، ستكون العاقبة سيئة .

-. لقد كانت البداية حسنة .

في هذه اللحظة سمع وقع خطوات على الدرج فقـــال الكاهن وهو يضع اصبعه على فمه :

ـ اصمت . انه المعلم جاك .

ثم اضاف بصوت منخفض :

ـ اسمع يا جهان . احرص على الا تتكلم عما رأيته وسمعته هنا . اختبىء بسرعة تحت هذا الموقد ولا تتنفس .

فتكوم الطالب تحت الموقد . وهناك جاءته فكرة مثمرة فقال :

ـ بالمناسبة يا اخي كلود . اعطني فلورين لكي لا اتنفس .

ـ اسكت وأعدك به .

ـ يجب ان تعطيني اياه .

ـ خذ اذن .

قال الكاهن ذلك وهو يلقي اليه بكيسه . ودخل جهـــان تحت الموقد . وفُتح الباب .

٥

الرجلان المرتديان السواد

كان الرجل الذي دخل يرتدي ثوباً اسود، وذا سيماء متجهمة. اما ما استلفت نظرة صديقنا جهان الاولى (والذي رتب نفسه في زاويته بحيث يستطيع ان يرى ويسمع كل شيء كما يريد) فهي الكآبة الكاملة البادية على ملابس ووجه هذا القادم الجديد . الا ان هناك شيئاً من العذوبة المنتشرة على ذلك الوجه ، ولكنها عذوبة هرٍ او قاضٍ ، عذوبة تافهة الحلاوة . وكان كثير الشيب ، متغضناً ، يبلغ الستين من عمره . يطرف بعينه ، وحاجبه ابيض ، وشفته متدلية ، وبداه ضخمتان . وحين رأى جهان انه ليس غير ذلك ، اي انه طبيب او قاض دون شك ، وان لهذا الرجل انفاً بعيداً جداً عن الفم ، علامة البلاهة ، حشر نفسه في زاوية جحره ، يائساً لتمضية وقت غير محدود في موقف مزعج كهذا ومع رفقة سيئة كهذه .

الا ان الخوراسقف لم ينهض لهذا الشخص ، بل اشار اليه ان يجلس على مقعد صغير مجاور للباب ، وبعد بضع لحظات من الصمت كان يبدو انه مستمر في تأملٍ سابق ، قال له بشيء من الحماية :

— صباح الخير يا معلم جاك .

فأجاب الرجل الاسود : السلام عليك يا استاذ !

كان في الاسلوبين اللذين لفظت بهما عبارة « معلم جاك » من ناحية وكلمة « استاذ » بالذات من الناحية الاخرى ذلك الفرق بين كلمتي مونسينور ومسيو،

بين السيد والمسود ، انه استقبال العالم لتلميذه .

وتابع الكاهن بعد صمت جديد ، بحيث احترس المعلم جاك من ازعاجه :

- ايه ، هل نجحت ؟

فقال الآخر بابتسامة كئيبة :

- واسفاه يا استاذي ، اني لا ازال انفخ . رماد اكثر ممـــا اريد ولكن بدون ابة شرارة ذهب .

واتى الدوم كلود باشارة ملل وقال :

- لا اكلمك عن هذا يا معلم جاك شارمولو ، بـل عن دعوى ساحرك . اليس مارك سينان كما تدعوه ، هو خازن ديوان المحاسبة ؟ هل اعترف بسحره ، وهل نجح الاستجواب ؟

فأجاب المعلم جاك بابتسامته الحزينة دائماً :

- للأسف ، كلا . لم نحصل على هذه التعزية . ان هذا الرجل حصاة . لقد جعلناه يغلي في سوق الخنازير قبل ان يقول اي شيء . الا اننا لن نوفر شيئاً في سبيل الوصول الى الحقيقة . انه مقطع الاوصال ، وقد وضعنا له جميع اعشاب القديس يوحنا كما كان يقول الممثل الهزلي القديم بلوتوس :

« ضد الابر ، شفرات محماة على النار ، مشانق ، احابيل ، حبال ، سلاسل ، سجن ، اصفاد ، قيود ، اغلال [١] » . فلم يؤثر به شيء . ان هذا الرجل مخيف . وقد اضعت لا تينيتي عنده .

- الم تجد شيئاً جديداً في بيته .

فقال المعلم جاك وهو يبحث في كيسه :

- بلا ، هذا الرق . عليه كلمات لم نفهمها . والمحامي الجنائي السيد فيليب لوليه يعرف القليل من العبرية تعلمها من قضيـــة يهود شارع كنترستان في بروكسل .

---

١ ـ باللاتينية في الاصل .

ونشر المعلم جاك الرق وهو يتكلم . فقال الكاهن :

ـ هاته .

والقى نظرة على هذه المخطوطة وصاح :

ـ سحر بحت يا معلم جاك ! امين ـ هيتان ! إنها صرخة الخفافيش عند وصولهم الى مجمع السحرة . « به ، ومعه ، وفيه[1] » ! انه الامر الذي يقفل به على الشيطان في الجحيم . هكس ، بكس ، مكس ! وهذه من الطب . انت يا معلم جاك وكيل الملك في المحكمة الكنسية . وهذا الرق مرذول .

ـ سنعيد الرجل الى الاستجواب .

ثم اضاف وهو يبحث في كيسه من جديد :

ـ وهذا ما وجدناه ايضاً عند مارك سينان .

انه اناء للعائلة من تلك الآنية التي تغطي موقد الدوم كلود .

وقال الكاهن :

ـ آه ! بوتقة كيماوية !

فقال المعلم جاك بابتسامته الخجول البلهاء :

ـ اعترف لك بانني جربتها على الموقد ولكن نجاحي بها لم يكن افضل من نجاحي ببوتقتي .

واخذ الكاهن يتفحص الاناء وقال :

ـ ماذا حفر على بوتقته ؟ اوك ! اوك ! الكلمة التي تطرد البراغيث ! ان مارك سينان هذا جاهل ! اعتقد انك لم تصنع ذهباً بهذه ! فهي صالحة لتضعها صيفاً في غرفة نومك ، هذا كل ما بالامر !

وقال وكيل الملك :

ـ ما دمنا لا نزال في الخطأ فقد درست المدخل قبل ان اصعد ؛ فهل

---

١ ـ باللاتينية في الاصل ، ويعلق عليها هيغو قائلا انها كلمات من نص القداس وكان لها قيمة سحرية .

سيادتك متأكد ان افتتاح العمل الطبيعي مصور فيه الى جانب اوتيل - ديو وان الصورة التي لها اجنحة في اعقابها ، بين الصور السبع العارية الموجودة على اقدام نوتردام ، هي صورة مركوريوس ؟

فأجاب الكاهن :

- نعم . فأوغسطين نيفو هـو الذي كتبها ، ذلك الطبيب الايطالي الذي كان له شيطان ملتحٍ علّمه كل شيء . وبعـد ، فسننزل ، وسأشرح لك ذلك على النص .

فقال شارمولو وهو ينحني حتى الارض :

- شكراً يا استاذي ، وبالمناسبة ، لقد نسيت ! متى يرضيك ان نلقي القبض على الساحرة الصغيرة ؟

- اية ساحرة ؟

- تلك الغجرية التي تعرفها جيداً ، والتي تأتي كل يوم لترقص في باحـة الكنيسة رغم امر المنع الصادر عن القاضي ! ومعها معزاة تعمرها الشياطين ذات قرنين من صنع الشيطان ، تقرأ ، وتكتب ، وتعرف الحساب مثل بيكاتريس[1] ، الامر الذي يكفي لشنق بوهيميا كلها . والدعوى جاهزة . وستجري حالاً . هيا ! انها لعمري مخلوقة جميلة تلك الراقصة ! اجمل عينين سوداوين ! ياقوتتان من بلاد الغجر . متى نبدأ .

كان الكاهن قد شحب لونه ، وتمتم بصوت لا يكاد يبين ، ثم قال بجهد :

- سأقول لك فيما بعد . اهتم بمارك سينان .

فقال شارمولو مبتسماً :

- كن مطمئناً . سأربطه من جديد على السرير الجلدي عند عودتي . ولكنه انسان شيطان . انه يتعب بيارا توتيرو نفسه الذي يملك يدين اضخم من يدي . وكما قال ذلك الرجل الصالح بلوتوس :

---

١ - فلكي عربي من القرن الثالث عشر (؟) .

« عارٍ ، مقيد ، تزن متة حين تعلق من قدميك[1] » .
والاستجواب بواسطة الرافعة هو افضل ما عندنا ، وسيمر به .
وبدا الدوم كلود مستغرقاً في الذهول . والتفت الى شارمولو وقال :
– يا معلم بيارا ... اريد ان اقول : يا معلم جاك ، اهتم بمارك سينان .
– نعم ، نعم يا دوم كلود . مسكين ذلك الرجل ! سيتعذب مثل مومول.
يا لها من فكرة ايضاً في الذهاب الى مجمع السحرة ! خازن في ديوان المحاسبة مفروض فيه ان يعرف نص شارلمان ، يكون خفاشاً او ساحراً ! – امـا الصغيرة – ازميرالدا كما يدعونهـا ، – سأنتظر اوامرك . – آه ! عندما نمر تحت المدخل ستشرح لي ايضـاً ما يعني البستاني ذو الصورة المسطحة والذي نراه عند دخولنـا الى الكنيسة . أليس هو الباذر ؟ هيه ! بماذا تفكر يا استاذ ؟

ودوم كلود الغارق في أفكاره لم يكن يسمعه . وتبع شارمولو اتجاه نظره فرآه يحدق آلياً بنسيج العنكبوت الكبير المنسوج على النافذة. وفي تلك اللحظة كانت هناك ذبابة دائخـة تبحث عن شمس آذار فجاءت والقت بنفسها في تلك الشبكة والتصقت بها . والعنكبوت الضخمة لدى اهتزاز نسيجها قامت بحركة فجائية خارج صومعتها المركزية وانقضّت بقفزة واحدة على الذبابة وطوتها الى نصفين بواسطة هوائياتهـا الامامية بينما كان خرطومهـا القبيح ينهش رأسها . – يا للذبابة المسكينة ! هكذا قال وكيل الملك في المحكمة الكنسية ، ورفع يده لينقذها . ولكن الكاهن ، وقد افاق مرتعشاً ، امسك بذراعه بعنف مصحوب بتشنج وصرخ :
– دع القدر يأخذ مجراه يا معلم جاك !
والتفت الوكيل مذعوراً ، فقد خيل اليه ان كماشة حديدية امسكت بذراعه . كانت عين الكاهن ثابتة ، شاردة ، ملتهبة ، وبقيت متعلقة بالجماعـة الصغيرة المخيفة المؤلفة من الذبابة والعنكبوت .

---

١ – باللاتينية في الاصل .

وتابع الكاهن بصوت يخيل انه آتٍ من احشائه :

– نعم ، نعم ، هذا رمز لكل شيء . انها تطير ، انها فرحة ، لقد ولدت حديثاً ؛ وهي تبحث عن الربيع ، عن الهواء الطلق ، عن الحرية ؛ اوه ! نعم. ولكن لتصطدم بالوردية المشؤومة ، فتخرج منها العنكبوت ، العنكبوت الشنيعة ! يا للراقصة المسكينة ! يا للذبابة المختارة ! دع الامور تجري يا معلم جاك ! انه القضاء والقدر ! – وااسفاه ! انت العنكبوت يا كلود ! وانت ايضاً الذبابة يا كلود . – انت تطير الى العلم ، الى النور ، الى الشمس . لم يكن لك من همٍ سوى الوصول الى نهار الحقيقة الابدية ؛ ولكن عندما كنت تسرع نحو النافذة الباهرة المفتوحة على العالم الآخر ، على عالم الضوء ، والذكاء، والعلم، ايتها الذبابة العمياء ، ايها العالم المجنون، فانك لم تر ذلك النسيج الدقيق، نسيج العنكبوت الذي مدّه القدر بين النور وبينك . فقذفت بنفسك فيه ، مجنون مسكين ، وانت تتخبط الآن ، الرأس محطم والاجنحة انتزعتها هوائيات القدر الحديدية ! – معلم جاك ! معلم جاك ! دع العنكبوت تقوم بعملها .

فقال شارمولو الذي كان ينظر اليه دون ان يفهم :

– أؤكد لك انني لن المسها . ولكن اترك ذراعي يا استاذ ، من فضلك ! يدك كالكماشة .

ولم يسمعه الكاهن ، وتابع دون ان يحول نظره عن النافذة :

– اوه ! مجنون ! حين تستطيع ان تمزق ذلك النسيج الرهيب بأجنحتك الذبابية تعتقد ان باستطاعتك بلوغ النور ! وااسفاه ! ذلك الزجاج البعيد ، ذلك العائق الشفاف ، ذلك الجدار البلوري الاشد قساوة من سبيكة نحاسية تفصل جميع الفلسفات عن الحقيقة ، كيف تجتازه ؟ يالزهو بالعلم ! كم من حكماء يأتون من بعيد ويحومون حوله ويحطمون جباههم عليه! وكم من اساليب مختلطة تصطدم فتطن بذلك الزجاج الابدي !

وسكت . وبدت تلك الافكار الاخيرة التي نقلها بشكل لاشعوري من نفسه الى العلم انها هدأت من جيشانه . وجعله شارمولو يعود الى الشعور بالواقع بأن وجه اليه هذا السؤال :

– متى تأتي يا استاذ لتساعدني على صنع الذهب ؟ فقد تأخر نجاحي به .
وهز الكاهن رأسه بابتسامة كئيبة وقال :
– يا معلم جاك . اقرأ ميشال بسيلوس [1] « حوار حول قوة وعمل الشياطين » . ان ما نفعله ليس بريئاً كل البراءة .
فقال شارمولو :
– بصوت منخفض يا استاذ . اني اشك بذلك . ولكن يجب على المرء ان يقوم بشيء من تحويل المعادن حين لا يكون سوى وكيل للملك في المحكمة الكنسية ، بأجرة ثلاثين ديناراً في السنة . ولكن لنتكلم بصوت منخفض .
في تلك اللحظة صدمت اذن شارمولو القلقة ضجة صادرة عن فكٍ ومضغٍ ، آتية من تحت الموقد ، فسأل :
– ما هذا ؟
انه الطالب الذي كان شديد الانزعاج والضجر في مخبأه ، وقد توصل الى اكتشاف كسرة خبز قديمة ومثلث من الجبن المتعفن ، فأخذ يأكل بدون تكليف بقصد التعزية والغذاء . وبما انه كان كثير الجوع فقد احدث ضجة كبيرة ، وكان يحرك كل لقمة بقوة ، وهذا ما ايقظ الوكيل وانذره . وقال الكاهن بحدة :
– انه هرّي الذي يقيم وليمة على احدى الفئران تحت .
وهذا الايضاح ارضى شارمولو ، فأجاب بابتسامة محترمة .
– بالفعل فان لكل الفلاسفة الكبار حيوانهم الأليف . وانت تعرف ما قال سرفيوس : « ما من مكان يخلو من عفريته » .
الا ان الدوم كلود الذي كان يخشى بادرة جديدة من جهان ذكّر تلميذه المحترم ان لديهما بعض الصور على المدخل يجب ان يدرساها معاً ، وخرج الاثنان من الصومعة مع « اوف ! » كبيرة اصدرها الطالب الذي بدأ يخاف جدّياً ان تنطبع ركبته بطابع ذقنه .

١ – بسيلوس Psellus : كاتب وعالم بيزنطي من القرن الحادي عشر .

٦

ما يمكن ان تحدثه سبع تجديفات في الهواء الطلق من اثر

هتف جهان وهو خارج من جحره .

– الحمد لك يا رب ! ها قد ذهب المرّان الموّاءن. اوك ! اوك ! هكس ! بكس ! مكس ! البراغيث ، الكلاب المسعورة ! الشيطان ! لقد حفظت من حديثها ما يكفي ! رأسي يطن كجرس . وفضـــلًا عن ذلك جبن متعفن ! ويه ! لننزل ، ولنأخـــذ محفظة الاخ الكبير ولنحول كل ذلك المال الى زجاجات !

وألقى نظرة حنو واعجاب على داخل المحفظة الثمينة ، واصلح من زينتـه ، ومسح حذاءه ، ونفض كميه الأربدين من الرماد ، وصفر لحنـــاً ، واستدار قافزاً ليرى اذا كان قد بقي شيء في الصومعة فيأخذه ، والتقط من هنا وهناك على المقعد بعض التعاويذ من الخرز تصلح لاعطائهــا لإيزابو لاتيري بدلاً من المجوهرات . واخيراً دفع الباب الذي تركه اخوه مفتوحاً بدافع خبث أخير ، وهبط الدرج بقفزات صغيرة كالعصفور .

وفي وسط ظلمات السلم اللولبي دفع بمرفقه شيئاً تنحى جانبـاً وهو يتذمر ، فظنه كازيمودو ، وبدا ذلك له غريباً بحيث هبط من الدرج ممسكاً بخاصرتيه من الضحك . وحين خرج الى الساحة كان لا يزال يضحك .

وحين وجد نفسه على الارض فحص برجله وقال :

- اوه ! يا بلاط باريس الصالح ! يا للدرج الملعون الذي يلهث منه ملائكة سلم يعقوب ! بماذا كنت افكر حـين ذهبت احبس نفسي في ذلك المثقب الحجري الذي يثقب السماء ، ولا كل جبنـاً ملتحياً ، ولأرى ابراج اجراس باريس من كوة !

وخطا بضع خطوات ، ورأى المرين الصائتـين ، اي الدوم كلود والمعلم جاك شارمولو ، في حالة تأمل امام منحوتات المدخل . فاقترب منهما على رؤوس اصابعه ، وسمع الكاهن يقول لشارمولو بصوت منخفض :

- ان غليـوم دي باري هو الذي حفر ايوب على الحجر اللازوردي ذي الحواشي المذهبة . ايوب صورة عن الحجر الفلسفي الذي يجب ان يُجرَّب ويضحّى ايضـاً ليصبح كاملاً ، كما قال ريمون لول : « مع الاحتفاظ بالشكل المفرد تبقى النفس سليمة[1] » .

فقال جهان :

- هذا لا يهمني ، فالحفظة معي .

في تلك اللحظة سمع صوتاً قوياً رنانـاً يقذف وراءه سلسلة ضخمة من التجديفات .

- دم الرب ! بطن الرب ! جسد الرب ! صرة بعلزبول ! اسم البابا ! قرن ورعد !

فهتف جهان :

اقسم بروحي ، ليس هذا سوى صديقي الضابط فوبوس !

واسم فوبوس هذا تناهى الى اذن الخوراسقف في اللحظة التي كان يشرح فيها لوكيل الملك منحوتة التنين الذي يخبىء ذيله في حمّام يخرج منه دخان ورأس ملك ، فارتعش الدوم كلود ، وانقطع عن الكلام مع دهشة شارمولو ، والتفت فرأى اخاه جهان يقترب من ضابط كبير على باب مسكن غونديلوريه .

---

١ - عبارة باللاتينية في الاصل .

لقد كان بالفعل هو الضابط فوبوس دي شاتوبير ، وكان يجدف كوثني .

وقال جهان وهو يأخذ بيده :

– لعمري انك تجدف بحماسة تستحق الاعجاب .

فأجاب الضابط : قرن ورعد !

وقال الطالب : قرن ورعد انت نفسك ! ولكن ايها الضابط الظريف من اين اتاك هذا الكلام اللطيف ؟

فقال فوبوس وهو يهز يده :

– عفواً يا صديقي الطيب جهان ، فالحصان المندفع لا يتوقف بسرعة . اني اجدف راكضاً بسرعة . فأنا آت من عند اولئك النسوة الحذرات . وحين اخرج من عندهن يكون نحري مليئاً بالتجديفات ويجب ان ابصقها او اختنق ، بطن ورعد !

فسأل الطالب : اتريد ان تأتي لنشرب ؟

– بكل طيبة خاطر ولكن ليس معي مال .

– انا معي .

– باه ! اروني ذلك !

فنشر جيهان المحفظة بجلال وبساطة امام عيني الضابط . الا ان الخوراسقف الذي ترك شارمولو في حالة ذهول كان قد جاء اليها ووقف على بضع خطوات منها ، واخذ يراقبها دون ان يفطنا اليه بسبب استغراقها في تأمل المحفظة .

وهتف فوبوس :

– محفظة في جيبك يا جهان ! انها القمر في سطل ماء ، يُرى فيه ولكنه غير موجود . ليس هناك سوى ظله . قسماً بالله ! لنتراهن انها حصى !

فأجاب جهان ببرود : هذه هي الحصى التي اغطي بها جيبي .

ودون ان يضيف كلمة افرغ المحفظة على حجر مجاور ، بهيئة روماني انقذ الوطن ، وقال فوبوس مدمدماً :

والرب الحقيقي ! قطع نقود من جميع الانواع[1] ! هذا يبهر النظر !

وظل جهان وقوراً ثبت الجنان . وكانت بعض القطع قد تدحرجت في الوحل ؛ فانحنى الضابط ليلتقطها وهو في غمرة حماسه ، فأمسك جهان به :

– اوف . ايها الضابط فوبوس دي شاتوبير .

وعدّ فوبوس الدراهم والتفت الى جهان باحتفال وقال :

– اتعلم يا جهان انه يوجد ثلاثة وعشرون فلساً باريزي . محفظة من هذه التي استوليت عليها هذه الليلة في شارع قطع الحلقوم (كوب – غول) ؟

فألقى جهان رأسه الاشقر الاجعد الى الوراء وقال مطبقاً عينيه بازدراء نصف اطباقة :

– لي اخ خوراسقف وأبله .

فصرخ فوبوس :

– وقرن الرب ، الرجل الوقور .

وقال جهان : هيا لنشرب .

فقال فوبوس : الى اين نذهب . انسير الى حانة « تفاحة حواء ؟ » .

– كلا يا حضرة الضابط ، فلنذهب الى حانة « العلم العجوز » . عجوز تنشر عرة إناء . انها لغز ، وانا احب ذلك .

– اف للالغاز ياجهان! الخمر افضل في « تفاحة حواء » . وبعد فالى جانب الباب يوجد كرمة في الشمس تسرني عندما اشرب .

فقال الطالب : لا بأس . سر الى حواء وتفاحتها .

ثم اخذ ذراع فوبوس وقال :

– بالمناسبة، يا ضابطي العزيز لقد قلت الآن اسم شارع « قطع الحلقوم » .

---

١ ـ هنا يذكر هيغو اسماء ستة انواع من العملة الصغيرة المستعملة في تلك الايام وقد اكتفينا بالاشارة اليها لعدم وجود اسماء لها بالعربية .

المعرب

وهذا كلام غير لائق . ونحن لسنا الآن برابرة . بل يقال « قطع العنق » (كوب غورج) .

وسار الصديقان نحو « تفاحة حواء » ولا فائدة من القول انهما التقطا المال اولاً ، وان الخوراسقف تبعهما .

لقد تبعهما عابساً متجهماً . فهل هذا هو فوبوس الذي امتزج اسمه الملعون ، منذ مقابلته لغرنغوار ، بجميع افكاره ? انه لم يكن يعرفه . ولكن ، هذا هو فوبوس اخيراً ، وكان هذا الاسم السحري كافياً ليدفع بالكاهن الى اللحاق بالرفيقين الغافلين بخطى الذئب، مستمعاً الى كلامهما وملاحظاً اقل حركاتهما بقلق منتبه . وبعد ، فلا شيء اسهل من سماع كل ما كانا يقولان ما داما يتكلمان بصوت مرتفع ، غير مباليين بان يستمع المارة الى نصف مناجاتهما . كانا يتحدثان عن المبارزة ، والفتيات ، والاباريق والجنونيات .

وعند عطفة شارع تناهت اليهما ضجة دف باسكي من مفترق طرق مجاور . وسمع الدوم كلود الضابط يقول التلميذ :

– الرعد ! لنضاعف الخطى .

– لماذا يا فوبوس ?

– اخشى ان تراني الغجرية .

– اي غجرية ?

– الصغيرة التي معها معزاة .

– ازميرالدا ?

– بالضبط يا جهان . اني انسى دائماً اسمها الشيطاني . انسرع فسوف تعرفني وانا لا اريد ان تدنو هذه الفتاة مني في الشارع .

– اتعرفها يا فوبوس ?

هنا رأى الكاهن الضابط يضحك وينحني على اذن جهـــان ويقول له بعض الكلمات بصوت منخفض . ثم انفجر فوبوس ضاحكاً وهز رأسه بهيئة المنتصر . وقال جهان :

- اصحيح هذا ؟

فقال فوبوس : قسماً بروحي .

- هذا المساء ؟

- هذا المساء .

- امتأكد انت من انها ستأتي ؟

- ولكن المجنون انت يا جهان ؟ وهل يُشك بأمور كهذه ؟

ايها الضابط فوبوس ، انت دركي سعيد !

وسمع الخوراسقف هذا الحديث كله، فصرّت اسنانه، واجتاحت جسده كله رعشة تبدو للعيون . فتوقف لحظة ، واستند الى احد الانصاب كرجلٍ ثمل ، ثم سار على اثر الشيطانين المرحين .

وفي اللحظة التي ادركهما فيها كانا قد غيّرا الحديث . وسمعهما يغنيان هذه اللازمة بصوت مرتفع :

ابناء الشوارع .

يُعلـّقون كالعجول .

٧

الراهب الشرير

تقوم حـــانة « تفاحة حواء » الشهيرة في حي الجامعـة في زاوية شارعي لاروندبل وبانونيه. وهي قاعة في الطابق الارضي واسعة ومنخفضة جداً ، ذات عقد يستند مسقطه المركزي على عمـــود ضخم من الخشب المدهون بالاصفر ؛ وهناك مناضد في كل مكان، وأوعية كبيرة من التوتياء معلقة بالجدار في متناول الشاربين دائماً ، وكثير من البنات ، وزجاج يطل على الشارع ، وكرمة على الباب . وفوق ذلك الباب لوحة ملونة من الصفيح ، مزينة بتفاحة وامرأة ، صدئة من المطر ، تدور في الهواء على سفود حديدي . ان هذا النوع من دوارة الهواء المطلة على الشارع كان هو الآرمة .

وهبط الليل ، واصبح مفترق الطرق معتماً . والحـانة مليئة بمصابيح كانت تسطع من بعيد ككور في الظلام . وكانت تسمع قرقعة الكؤوس ، وهناك افراط في الأكل والشرب ، وتجديفات ، ومعـــارك يخلص صوتها من خلال الزجاج المكسور . ومن خلال الضباب الذي تنشره حرارة القاعة على الواجهة الزجاجية ، كان يرى احتشاد مئة وجه مشوش ، تنبعث منها ضحكات رنانة بين وقت وآخر. وكان المارة يسيرون الى اعمالهم ويمشون الى جانب هـــذا الزجاج الصاخب دون ان يلتفتوا . الا ان غلاماً صغيراً بأسمال بالية كان في بعض الفترات يقف على رؤوس اصابعه ليبلغ مستند الواجهة ويلقي في الحانـــة تلك الصرخة الساخرة التي كانت تلقى في اثر السكيرين آنذاك :

– او هول ، ساوول ، ساوول ، ساوول [1] !

الا ان هنالك رجلاً كان يروح ويجيء رابط الجأش امام الحانـــة الصاخبة ويتطلع اليها دائماً ولا يبتعد عنها اكثر من ابتعاد قائد كلاب الصيد عن مرقابه، كان يرتدي معطفاً حتى انفه . وكان قـد اشترى هـذا المعطف من بائع الملابس القديمة المجاور لحانة « تفاحة حواء » وذلك ليقي نفسه من برد امسيات آذار ، وربما ليخفي ملابسه . وكان بين وقت وآخر يقف امـــام الزجاج المتعكر ذي الحلقات الرصاصية ، وكان يصغي ، وينظر ، ويفحص برجله .

واخيراً فتح باب الحانة . وهذا ما بدا انه ينتظره . وخرج منه اثنان من الشاربين . وقد لوّن شعاع النور المتفلت من الباب وجهيهما الفرحين بالاحمر للحظة ، وسار الرجل ذو المعطف ليراقبهما تحت احد مداخل البيوت في الناحية الاخرى من الشارع .

وقال احد المخمورين :

– قرن ورعد ! لقد دقت الساعة السابعة ، وهي ساعة موعدي .

فقال رفيقه بلسان ثقيل .

– قلت لك انني لا اسكن في شارع الكلمات السيئة . « رديء من يسكن بين الكلمات السيئة [2] » . اني اسكن في شارع جان بان – موليـه . – انت اقرن اكثر من وحيد القرن اذا قلت عكس ذلك . – وكل واحد يعرف ان من يمتطي مرة واحدة ظهر دب فلا يخاف ابداً . ولكن انفك مائل نحو الحلوى كالقديس جاك لوبيتال .

فقال الآخر :

-- جهان ، يا صديقي ، انت ثمل .

فأجاب الآخر مترنحاً :

---

١ – أبقينا على الجملة بنصها الفرنسي بسبب السجعة . اما ترجمتها فهي : في الهول ، سكارى ، سكارى ، سكارى !

٢ – باللاتينية في الاصل .

– يرضيك ان تقول ذلك يا فوبوس ، ولكن من الثابت ان الصورة الجانبية لوجه افلاطون تشبه وجه كلب الصيد .

لا شك بأن القارىء عرف صديقينا الباسلين ، الضابط والتلميذ . ويبدو ان الرجل الذي كان يرصدهما في الظلام قد عرفهما ايضاً لانه كان يتبع بخطى بطيئة جميع التعرجات التي كان الطالب يجبر رفيقه على صنعها في سيره ، لان الضابط ، وهو سكير اكثر مراناً ، قد احتفظ بهدوئه . اما الرجل ذو المعطف الذي كان يصغي اليهما بانتباه فقد استطاع ان يلتقط الحديث الشيق التالي بكامله :

– حاول اذن ان تمشي مستقيماً يا سيدي حامل البكالوريا . انت تعلم انني يجب ان اتركك . وها هي الساعة السابعة . ولي موعد مع امرأة .

– دعني اذن ، انت ! اني ارى نجوماً وحراباً من نار . وانت كقصر دامارتان المنفجر من الضحك .

– قسماً بثآليل جدتي يا جهان ، ان هـذا هو هذيان ضار . – بالمناسبة يا جهان . الم يبق معك مال ؟

– يا سيدي العميد ليس هناك اي خطأ ، الجزرة الصغيرة .

– جهان ، يا صديقي جهان ! انت تعلم انني على موعد مع تلك الصغيرة على طرف جسر سان ميشال ، وانني لن استطيع ان آخذهـا الا الى بيت لافالورديل ، داعرة الجسر ، ويجب دفع اجرة الغرفة . والفاجرة العجوز ذات الشاربين الابيضين لا تقبل ديناً . ارجوك يا جهان ! هـل شربنا بكل ما في محفظة الخوري من نقود ؟ الم يبق معك اي باريزي ؟

– ان يعي المرء كيف يقضي الساعات الاخرى فذلك من توابل المائـدة الصالحة اللذيذة (١) .

– بطن ومصران ! اعط هدنـةً لأوهامك ! قل لي يا جهان الشيطان .

---

١ – المقطع من مونتاني . والنص الصحيح هو : « أن يعي المرء كيف يبعثر جيداً الساعات الاخرى فهذا من التوابل الحقة اللذيذة للمائدة . هكذا كان يعيش الحكماء » .

ابقي معك شيء من المال ؟ هات او سأفتشك حتى لو كنت مجذوماً كأيوب وجرباً ككيصر !

– ايها السيد ، ان لشارع غاليـــاش طرف على شارع لافيريري والطرف الاخر على شارع تيكسيراندبري .

– ايه ، لا بأس ، نعم ، يا صديقي الطيب جهان ، يا رفيقي المسكين ، شارع غالياش ، حسناً ، حسناً جداً . ولكن باسم السماء عـــد الى صوابك . لا احتاج الا الى فلس باريزي ، وذلك بسبب الساعة السابعة .

صمتاً للرقصة وانتباهاً اللازمة :

حين تأكل الجرذان الهررة ،
يصبح الملك سيداً لأراس ؛
وحين يصبح البحر الكبير ،
متجمداً حتى سان جان ،
فسنرى من فوق الجليد ،
خروج اهالي آراس من مكانهم .

– لا بأس ، ايها التلميذ المعادي المسيح ، يمكن ان تختنق بأمعاء امك .

هكذا صرخ فوبوس ودفع الطالب الثمل بقـوة فانزلق على الجدار وسقط بارتخاء على بلاط فيليب اوغست . وببقية من الشفقة الاخوية التي لا تترك ابداً قلب السكير ، فان فوبوس دحرج جهان برجله على احدى وسائـد الفقراء التي تبقيها العناية الالهية جاهزة في زاوية جميـع انصاب باريس ، والتي يعيبها الاغنياء باحتقار بان يطلقوا عليها اسم « كومة النفايات » . ورتب الضابط رأس جهان على سطح مائل من بقايا الملفوف ، وفي نفس اللحظة ارتفع شخير الطالب بشكل بديـع . الا ان الحقد كله لم ينطفىء في قلب الضابط ، فقال للاديب النائم :

لا يهمني اذا التقطتك عربة الشيطان اثناء مرورها .

وابتعد .

اما الرجل ذو المعطف ، الذي ظل يلاحقهما ، فقد توقف لحظة امام الطالب

المضطجع كأنه في حيرة من امره ؛ ثم تأوه بعمق وابتعد ايضاً على اثر الضابط .

واما نحن فسنترك جهان مثلها نائماً تحت رعاية النجم الجميل وسنتبعها اذا راق ذلك للقارىء .

عند وصول الضابط فوبوس الى شارع سان اندريه ديزارك انتبه الى ان هناك من يلحق به . فقد رأى ، حين التفت صدفة ، نوعاً من الخيال يزحف خلفه على طول الجدران ، فتوقف ، وتوقف الخيال . ومشى فمشى الخيال . ولم يزعجه ذلك الا قليلاً جداً . وقال لنفسه :

– آه ! ليس معي اي فلس .

ووقف امام واجهة مدرسة اوتون . وكان قد رمم في هذه المدرسة ما يدعوه دروسه رسماً خفيفاً . وبدافع من عادة تلميذ مشاكس ظل محتفظاً بها ، فانه لم يكن يمر امام واجهة المدرسة دون ان يلقي على تمثال الكاردينال بيار برتران المنحوت الى يمين المدخل نوعاً من الاهانة التي اشتكى منها كثيراً بريباب في هجاء هوراس : « في الماضي كنت جذع شجرة تين » . وقد كان يودعها كثيراً من الضراوة بحيث ان كتابة « اسقف اوتان » محيت تقريباً . اذن فقد توقف امام التمثال كما هي عادته . وكان الشارع مقفراً . وحين كان يعقد إبزيمه بلا مبالاة وانفه في الهواء رأى الخيال يقترب منه بخطى بطيئة ، متمهلة جداً اتاحت له وقتاً كافياً ليلاحظ ان هذا الخيال يرتدي معطفاً وقبعة . ولما صار بالقرب منه وقف وظل جامداً كتمثال الكاردينال برتران . الا انه علّق على فوبوس عينين ثابتتين مليئتين بذلك النور المبهم الذي يخرج ليلاً من حدقة الهر .

كان الضابط شجاعاً . وما دام السيف بيده فلن يعير اللص الا قليلاً من الاهتمام . ولكن هذا التمثال الذي كان يمشي ، وهذا الرجل المتحجر قد جمداه. وكانت تنتشر آنذاك بين الناس حكايات عن راهب شرير ، يطوف شوارع باريس ليلاً . فعادت هذه الحكاية الى ذاكرته بشكل مشوش . وظل منذهلاً

لبضع دقائق ، واخيراً قطع حبل الصمت محاولاً ان يضحك وقال :

– ايها السيد ، اذا كنت سارقاً ، كما آمل ، فقد احدثت في نفسي تأثيراً كتأثير مالك الحزين وهو يهاجم قشرة جوز . انا يا عزيزي سليل عائلة مفلسة . اذهب الى الناحية الاخرى . فهناك في كنيسة تلك المدرسة خشبة من الصليب الحقيقي موجودة ضمن الفضيات .

وخرجت يد الخيال من تحت معطفه وسقطت على ذراع فوبوس بثقل مخلب نسر . وفي الوقت نفسه قال الخيال :

الضابط فوبوس دي شاتوبير !

فقال فوبوس : كيف بحق الشيطان ! تعرف اسمي !

فقال الرجل ذو المعطف بصوتٍ كأنه خارج من ضريح :

– ليس اسمك فقط ما اعرفه ، ولكني اعرف انك على موعدٍ هذا المساء .

فاجاب فوبوس منذهلًا : نعم .

– في الساعة السابعة .

– بعد ربع ساعة .

– عند لافالورديل .

– بالضبط .

– داعرة جسر سان ميشال .

– القديس ميشال رئيس الملائكة كما تقول الصلاة الدينية .

فدمدم الشيخ :

– كافر ! ومع امرأة ؟

– اعترف بذلك .

– والتي تسمى ...

فقال فوبوس فرحاً ، وقد عادت اليه لامبالاته على درجات :

– ازميرالدا .

عند ذكر هذا الاسم هز مخالب الخيال ذراع فوبوس بهياج .

ـ ايها الضابط فوبوس دي شاتوبير ، انت تكذب .

من استطاع ان يرى في تلك اللحظة وجه الضابط الملتهب ، والوثبة التي قام بها الى الوراء ، والتي كانت من العنف بحيث تخلص من الكماشة الممسكة به ، وسمة الكبرياء حين القى يده على مقبض سيفه ، والجمود الكئيب للرجل ذي المعطف امام هـــذا الغضب ، ان من استطاع ان يرى ذلك لا بد ان يصاب بالهلع . لقد كان ذلك نوعاً من معركة الدون جوان مع التمثال .

وصرخ الضابط :

ـ يا للمسيح والشيطان ! هذا كلام لا يطرق أذن احد افراد عائـــلة شاتوبير الا في النادر ! انك لا تستطيع قوله مرة ثانية .

فقال الخيال ببرود : انت تكذب !

وصر الضابط على اسنانه . راهب شرير ، شبح خرافات ، لقد نسي كل شيء في هذه اللحظة ولم يعد يرى سوى رجل وسوى اهانـــة . فتمتم بصوت يخنقه الهياج :

ـ آه ! ما احسن ذلك !

وسل سيفه ، ثم قال متمتماً لأن الغضب يبعث على الارتعاش كالخوف :

ـ هنا ! حالاً ! السيوف ! دمٌ على هذا البلاط !

الا ان الآخر لم يتحرك . ولكنه حين رأى خصمه قد وقف متأهباً مستعداً للهجوم قال ولهجته تهتز بمرارة :

ـ ايها الضابط ، لقد نسيت موعدك .

ان تصرفات الرجال من امثال فوبوس كالشورباء بالحليب تهدىء غليانهـــا قطرة ماء بارد . وهذا الكلام البسيط خفض السيف الذي كان يلمع في يـــد الضابط . وتابع الرجل :

ـ ايها الضابط ، غداً ، بعد غد ، في مدى شهر ، في مدى عشر سنوات ، ستجدني مستعداً لقطع عنقك ؛ ولكن اذهب اولاً الى موعدك .

فقال فوبوس كأنه يحاول ان يستسلم لنفسه :

– هناك امران يستاطف لقاؤهما في موعد ، السيف والفتاة ؛ ولكني لا ادري لماذا اخسر هذا في سبيل الآخر ما دام باستطاعتي الحصول على الاثنين .

واعاد سيفه الى غمده . وتابع المجهول :

– سر الى موعدك .

فأجاب فوبوس بشيء من القلق :

– شكراً جزيلاً ايها السيد لمجاملتك . بالفعل سيكون عندنا الوقت الكافي غداً لقطع وتفصيل عرى قميص ابينا آدم . واعلم انـــك راضٍ عن السماح لي بتمضية ربع ساعة لطيفة ايضـــاً . واني لآمل ان امددك في الساقية وأصل الى الجميلة في الموعد المعين . اذ من الافضل ان تكون ذا هيئة جميلة وانت تجعل النساء ينتظرنك في مثل هذه الحالة . ولكنك تبدو لي رجل حزم ، ومن الاصح تأجيل اللعبة الى الغد . اذن فأنا ذاهب الى موعدي وهـو في الساعة السابعة كما تعلم . – هنا حك فوبوس اذنـه . – آه ! وقرن الرب ! لقـد نسيت ! ليس معي أي فلس لأفي اجرة المأوى ، والعجوز تريد ان تقبض مقدماً . انها تحذرني.

– اليك ما تدفعه .

وشعر فوبوس بيد المجهول البـــاردة تضع في يده قطعة نقدية كبيرة . ولم يستطع ان يمتنع عن اخذ هذا المال والشد على تلك اليد . وقال :

– والرب الحقيقي ! انت ولد طيب !

فقال الرجل :

– بشرط واحد . اثبت لي انني كنت مخطئاً وانك تقول الصدق . خبئني في احدى الزوايا حيث استطيع ان ارى اذا كانت تلك المرأة هي التي ذكرت اسمهـــا .

فأجاب فوبوس :

– اوه ! لا فرق عندي . سنأخذ الغرفة في سانت – مارت ، وباستطاعتك ان ترى على هواك من البيت الكائن بجانبها .

فأجاب الخيال : تعال اذن .

وقال الضابط :

– انا في خدمتك . ولا ادري اذا كنت السيد الشيطان شخصياً . ولكن لنبق صديقين هذا المساء . وغداً سأدفع لك جميع ديوني ، بالمحفظة وبالسيف .

واخذا يسيران مسرعين . وبعد بضع دقائق اعلنت لهما ضجة النهر انهما اصبحا على جسر سان ميشال المثقل بالبيوت آنذاك . وقال فوبوس لرفيقه :

– اريد اولاً ان أؤويك ثم اذهب بعد ذلك لأبحث عن الجميلة التي يجب ان تنتظرني بقرب الشاتليه الصغير .

لم يجب الرفيق بشيء . ولم يتفوه بأية كلمة وهما يسيران جنباً الى جنب . وتوقف فوبوس امام باب منخفض وصدمه بقوة . فصرخ صوت ادرد :

– من هناك ؟

فأجاب الضابط :

– وجسد الرب ! ورأس الرب ! وبطن الرب !

ففتح الباب حالاً ورأى القادمان عجوزاً ومصباحاً قديماً كانا يرتعشان معاً . كانت العجوز مطوية الى نصفين وترتدي اسمالاً ، مهتزة الرأس ، ذات عينين صغيرتين ، تضع على رأسها خرقة ، وهي متغضنة في كل مكان ، في اليدين في الوجه ، في العنق ، وشفتاها داخلتان تحت لثتها ، ولها حول فمها مراود من الوبر الابيض تكسبها هيئة هر . اما داخل الحجرة الصغيرة فلم يكن اقل خراباً منها . جدران من الطباشير ، واخشاب سوداء في السقف وموقد متهدم . ونسيج عنكبوت في جميع الزوايا ، وفي الوسط قطيع مترنح من المناضد والمقاعد العرجاء ، وطفل قذر في الرماد ، وفي الداخل درج ، او بالاحرى سلّم خشبي يوصل الى باب في السقف . وعندما دخل رفيق فوبوس الغامض الى هذا الوكر رفع معطفه حتى عينيه . الا ان الضابط وهو يجدف كإسماعيلي اسرع « ليجعل الشمس تسطع في دينار » كما قال صديقنا المعجب رنيه ، وقال :

– غرفة القديسة مرتا .

وعاملته العجوز كمونسنيور ووضعت الدينار في احد الادراج . وهو القطعة

النقدية التي اعطاها الرجل ذو المعطف الى فوبوس . وبينما كانت تدير ظهرها اقترب الغلام الصغير الطويل الشعر ، العاري ، الذي كان يلعب في الرماد ، من الدرج واخذ الدينار ووضع مكانه ورقة جافة انتزعها من حزمة حطب .

واشارت العجوز الى الرجلين النبيلين ، كما امتهما ، ان يتبعاها ، وصعدت السلّم امامهما ، وحين بلغت الطبقة العليا وضعت مصباحها على صندوق . وفتح فوبوس باباً يطل على كوخ مظلم ، وهو المعتاد على البيت ، وقال لرفيقه :

– ادخل الى هنا يا صديقي .

فأطاع الرجل ذو المعطف دون ان يجيب بكلمة . واغلق الباب عليه . وسمع فوبوس وهو يقفله بالمزلاج، وبعد لحظة نزل الدرج مع العجوز ، واختفى النور .

٨

فائدة النوافذ المطلة على النهر

وكلود فرولو (لاننا نعتقد ان القارىء ، وهو اكثر ذكاءً من فوبوس ، لم يرَ في كل هذه المغامرة راهباً آخر غير الخوراسقف) اخـــذ يتحسس لبضع لحظات الغرفة المظلمة التي اقفلها الضابط عليه . انها احدى الزوايا التي يحتفظ بها البناؤون احياناً عند نقطة اتصال السطح بالحائط المستند اليه . والمقطع العمودي لهذا الكوخ ، كما دعاه فوبوس بحق ، يعطينا شكلاً مثلثاً . وبعد فليس هناك نافذة ولا كوة ، ومخطط السطح المائل يمنع المرء من البقاء واقفاً . اذن فقــد اقعى كلود على الغبار وفي بقايا الجبس التي كانت تنسحق تحته . كان رأسه ساخناً . وفيما كان يبحث بيديه حوله وجد على الارض قطعة من الزجاج المكسور أسندها الى جبهته فهدأته برودتها قليلاً .

ماذا كان يجري في تلك اللحظة في نفس الخوراسقف المظلمة ؟ هو والرب وحدهما يعرفان ذلك .

وفقاً لأي نظـــام مشؤوم كان يرتب في فكره ازميرالدا ، وفوبوس ، وجاك شارمولو ، واخاه الصغير المحبوب الذي تركه في الوحل ، وطيلسانه كخوراسقف ، وربما سمعته المجرورة الى بيت لافالورديـل ، وكل تلك الصور وهذه المغامرات ؟ لن استطيع ان اقول ، ولكن من المؤكد ان هذه الافكار كانت تشكل في عقله حشداً هائلاً .

كان ينتظر منذ ربع ساعة ؛ وقد كان يخيل اليه انه كبر قرنـاً بكامله .

وفجأة ، سمع قرقعة درجات السلم الخشبي . هناك من يصعد . وفتح البـــاب وظهر ضوء . وكان في باب السقف الذي نخره السوس ثقب واسع ، فألصق وجهه . وكان يستطيع بهذه الطريقة ان يرى كل ما يجري في الغرفة المجاورة . والعجوز الذي يشبه وجهها وجه الهر خرجت اولاً من باب السقف ومصباحها بيدها ، ثم فوبوس عاكفاً شاربيه ، ثم شخص ثالث ، وجـه ازميرالدا الجميل اللطيف . ورآها الكاهن تخرج من الارض كرؤيا باهرة . واضطرب كلود ، وانتشرت سحابة على عينيـــه ، ونبضت شرايينه بقوة . وكان كل شيء يضج ويدور حوله . فلم ير ولم يسمع شيئاً .

وحين عاد الى صوابه ، كان فوبوس وازميرالدا وحيدين جالسين على الصندوق الخشبي بجانب المصباح الذي فجر في عيني الاسقف هذين الوجهين الشابين وفراشاً حقيراً في داخل الغرفة .

وكان بجانب هذا الفراش نافذة زجاجها مشقق كنسيج عنكبوت سقط عليه المطر بحيث يشاهد من خلال هذا الزرد المقطع زاوية من السماء ، والقمر الغارب في البعيد على غطاء من الغيوم الرخوة القاتمة .

كانت الفتاة محمرة الوجه ، قاصرة ، مرتجفة ، واهدابها الطويلة المنخفضة تلون خدودها باللون القرمزي . والضابط الذي لم يجرؤ على رفع نظره اليها كان متهللاً وبحركة آلية ، بحركة لطيفة حمقاء ، كانت ترسم بطرف اصبعها على المقعد خطوطاً غير متلاحمة ، وكانت تتطلع في اصبعها . اما قدمها فلم يكن ظاهراً لأن المعزاة الصغيرة كانت مقعية عليه .

كان الضابط كثير التأنق . وكان في عنقه وفي معصميه باقات من الاوشحة : وهي اناقة مفرطة آنذاك .

وتوصل الدوم كلود بجهد الى استماع ما يقولانه خلال أزيز دمـــه الذي يغلي في صدغيه .

« وحديث العشاق شيء مبتذل . فهو كلمة « احبك » الدائمة ، عبـــارة موسيقية عارية جداً وتافهة جداً بنظر اللامبالين الذين يسمعون ، وحـــين لا

تزخرف بشيء من « الحسنات » . ولكن كلود لم يكن يستمع كلامبال » .

وقالت الفتاة الصغيرة دون ان ترفع عينيها :

– اوه ، لا تحتقرني يا سيد فوبوس . اني اشعر بأن ما افعله خطأ .

فاجاب الضابط بهيئة مجاملة عالية ومتميزة :

– احتقرك ، ورأس الرب ! ولماذا ؟

– لأني تبعتك .

– اذن يا جميلتي فنحن لن نتفاهم بصدد ذلك . ليس علي ان احتقرك ، بل ان اكرهك .

فتطلعت الفتاة اليه بذعر وقالت :

– تكرهني ! ماذا فعلت اذن ؟

– لأني رجوتك كثيراً .

فقالت :

– وااسفاه ! هذا لأنني اخنث بنذر ... فأنا لم اجـــد اهلي ... وستفقد التعويذة فضيلتها . ـ ولكن ماذا يهم ؟ وما حاجتي بالاب والام في الوقت الحاضر ؟

وكانت وهي تتكلم تثبت على الضابط عينيها الكبيرتين السوداوين المبللتين من السرور والحنان .

وصرخ فوبوس :

– الشيطان ، اذا كنت افهمك .

فظلت ازميرالدا لحظة صامتة ، ثم خرجت دمعة من عينيها ، وآهـة من شفتيها ، وقالت : اوه ! يا سيدي ، احبك .

كان يتضوع حول الفتاة عطر من الطهارة وفتنة من الفضيلة الى درجة ان فوبوس شعر انه غير مرتاح الى جانبهـــا . الا ان هذا الكلام جرأه فقال بحدة :

– تحبينني .

والقى ذراعه حول قامة الغجرية . فهو لم يكن ينتظر سوى تلك الفرصة .

ورآه الكاهن . وجرّب برأس اصبعه رأس خنجر كان يخبئه في صدره .

وتابعت الغجرية وهي تبعد بهدوء عن خصرها يدي الضابط اللاصقتين به :

– فوبوس ، انت طيب ، انت كريم ، انت جميل . لقد انقذتني . انا التي ليست سوى فتاة فقيرة ضائعة بين الغجر . لقد مر وقت طويل وانا احلم بضابط ينقذ حياتي . كنت احلم بك قبل ان اعرفك يا فوبوس . وكان لحلمي ظواهر بميزة مثلك ، هيئة عظيمة وسيف . انت تدعى فوبوس ، وهو اسم جميل . احب اسمك . احب سيفك . اسحب سيفك يا فوبوس لأراه .

– طفلة .

قال الضابط ذلك واستل سيفه مبتسماً . فتطلعت الغجرية الى قبضته وشفرته ، وفحصت رقم المقبض بفضول محبب ، ثم قبلت السيف قائلة له :

– انت سيف شجاع . وانا احب ضابطي .

واغتنم فوبوس الفرصة ايضاً ليضع على عنقها الجميل قبلة انهضت الفتاة المحمرّة من الخجل كالكرزة . وصرّ الكاهن بأسنانه في الظلام . وتابعت الغجرية :

– دعني اكلمك يا فوبوس. امش قليلاً لأراك كبيراً واسمع رنين مهازيك. ما اجملك !

ونهض الضابط مجاراةً لها ومؤنباً بابتسامة رضى وقال :

– ولكنك طفلة ! بالمناسبة ايتها الفاتنة ، هل رأيتني بملابس التشريفات ؟

فأجابت : كلا ، مع الأسف !

– ان ذلك هو الجميل .

وجاء فوبوس يجلس بقربها ، ولكن اكثر قرباً من السابق . وقال :

– اسمعي يا عزيزتي .

فضربته الغجرية ضربات خفيفة بيدها الجميلة على فمه وبصبوة ملأى بالجنون ، والكياسة ، والمرح ، قالت :

– كلا ، كلا ، لن اصغي اليك . اتحبني ؟ اريد ان تقول لي اذا كنت تحبـــني .

فهتف الضابط وهو يركع امامها نصف ركعة :

– اجل احبك . يا ملاك حيـاتي ! جسدي ، ودمي ، ونفسي ، كل ذلك لك ، كل ذلك في سبيلك . احبك ، ولم احب غيرك ابداً .

كان الضابط قد ردد هذه العبارات كثيراً من المرات ، وفي عدة ظروف مماثلة ، فهو يقولها بفصاحة ، بدون انقطاع ، بدون خطأ في الذاكرة . ولدى هذا التصريح العاطفي رفعت الغجرية الى السقف القذر الذي يحل محـــل السماء نظرة ملأى بسعادة ملائكية وتمتمت :

– اوه ! هذه هي اللحظة التي يجب الموت فيها .

ووجد فوبوس « اللحظة » مناسبة ليسرق منها قبـلة جديدة تعذّب الكاهن المسكين في زاويته .

وهتف الضابط العاشق :

– الموت ! ماذا قلت يا ملاكي الجميل ؟ انها حالة الحياة او ان جوبتير ليس سوى ولد قذر ! الموت في بدء شيء عذب كهذا ! وقرن الثور ، يا لهـــا من فرحة ! ليس هـــذا . – اسمعي يا عزيزتي سيميلار :. ازميرالدا .. عفـواً ، ولكن لك اسماً اسماعيليـاً بشكل عجيب لا استطيع التملص منه انه شوك يوقفني بعيداً .

فقالت الفتاة المسكينة :

– يا الهي ، انا التي كنت اعتقد ان هذا الاسم جميل نظراً لغرابته ! ولكن ما دام لم يعجبك فاني اريد ان ادعى غوتون .

– آه ! يجب الا نبكي لأمر تافه كهذا يا ظريفتي ! انه اسم يجب الاعتيـاد عليه ، هذا كل ما في الامر ، وحين اتعلمه عن ظاهر قلب فسيجري من تلقاء

نفسه . اسمعي اذن يا عزيزتي سيميلار ، اني اعبدك حتى الألم ، احبك حقيقة ً بشكل اعجوبي . اني اعرف فتاة صغيرة ستنشق ُ غيظاً .

فقاطعته الفتاة الغيورة : من هي ؟

فقال فوبوس : ماذا يفيدنا هذا ؟ اتحبينني ؟

فقالت : اوه !

-- حسناً ، هذا كل شيء . سترين كم احبك انا ايضاً . اريـــد ان يعطيني الشيطان الكبير نبتونوس اذا لم اجعلك اسعد مخلوقة على الارض . سيكون لنا مسكن صغير جميـل في احدى النواحي . وسأجعل جنودي الرماة يطوفون حول نوافذك . وجميعهم فرسان يزرون بفرسان الضابط مينيون . وفي ايديهم اسلحة متعددة [١] سأسير بك الى عجائب الباريسيين في اهراء رولي . وهـــذه بديعة جداً . ثمانون رأس مسلّح ، ثلاثون الف درع ابيض يصل الى الركبتين ومنها ما هو صغير من زرد ؛ وسبع وستون راية لأصحاب الحرف ، وبيـارق البرلمان ، وديوان المحاسبة ، وكنز القادة الكبار ، ومساعدات مالية ؛ واخيراً جهاز الشيطان ! سآخذك لتري السباع في قصر الملك ، وهي حيوانات مفترسة . والنساء كلهن يحببن ذلك .

كانت الفتاة مستغرقة منذ عدة لحظات في افكارها الحلوة ، وتحلم برنة صوته دون ان تسمع معنى كلامه .

وتابع الضابط وهو يحل حزام الغجرية بهدوء :

-- اوه ! ستكونين سعيدة !

فقالت بحدة :

-- ماذا تفعل ؟

لأن « هذا النوع من العمل » انتزعها من احلامها .

واجاب فوبوس :

---

١ -- هنا يعدد هيغو ثلاثة انواع من الاسلحة المستعملة آنذاك وليس لها مثيل بالعربية .

- لا شيء ، كنت اقول فقط انه يجب التخـــلي عن زينة الجنون وزاوية الشارع هذه حين تصبحين معي .

فقالت الفتاة بحنو : حين اصبح معك يا فوبوس .

وعادت مفكرةً صامتة .

ان عذوبتها جرأت الضابط ، فأمسك بقامتها دون ان تمانع ، ثم بدأ يحل ازرار ثوب الفتاة المسكينة محدثاً ضجة خفيفة ويعبث بطوق عنقهـا بحيث ان الكاهن اللاهث رأى من بـــين الثقوب بروز كتف الغجرية العاري المستدير الاسمر ، كالقمر الذي يبرز في الافق من بين الضباب .

وتركت الفتاة فوبوس يقوم بعمله . فقدت بدت انها لم تفطن اليه . وكانت عين الضابط الجريء تلمع .

وفجأة التفتت اليه وقالت بحب لا نهاية له :

فقهني في دينك يا فوبوس .

فهتف الضابط ضاحكاً .

- ديني ! انا ! أفقهك في ديني ! قرن ورعـــد ! ماذا تريدين ان تفعلي بديني ؟

فأجابت : لكي نتزوج .

فاتخذ وجـــه الضابط تعبيراً هو مزيج من الدهشة والازدراء واللامبالاة والعاطفة الداعرة وقال :

آه باه ! وهل سنتزوج ؟

فشحب لون الغجرية وسقط رأسها على صدرها .

وقال فوبوس بحنو :

- ايتها العاشقة الجميلة ، ما هذه الجنونيات ؟ وهـــل الزواج شيء عظيم ؟ انكون اقل حباً اذا لم نبصق شيئاً من اللاتينية في دكان كاهن ؟

واقترب من الغجرية وهو يتحدث بصوته الاكثر عذوبة ، واتخذت يـداه المداعبتان مكانهما حول تلك القامة الناعمـة ، اللدنة ، وازداد لمعان عينيـه ،

وكان كل شيء يشير الى ان السيد فوبوس بلغ احدى تلك اللحظات التي يقوم فيها جوبتير نفسه بكثير من الحماقات ، وان هومير الصالح مضطر للاستعانة بسحابة لنجدته .

الا ان الدوم كلود كان يرى كل شيء . كان الباب مصنوعاً من الواح نخرة تركت بينها ممرات واسعة لنظرته التي تشبه نظرة احد الجوارح . ان هذا الكاهن ذا الجلد الاسمر ، والكتفين العريضين والمحكوم حتى الآن ببتولية الدير الصارمة ، كان يرتعش ويغلي امام ذلك المشهد من الغرام ، والليل ، واللذة . والفتاة الجميلة المستسلمة بغير نظام الى ذلك الشاب المحتدم سكبت رصاصاً في شرايينه . وقد حدثت في داخله حركات غير اعتيادية . وكانت عينه تنغمس بغيرة داعرة تحت جميع تلك الدبابيس المتكسرة . ومن استطاع ان يرى في تلك اللحظة وجه البائس ملتصقاً بالحواجز النخرة لخيل اليه انه يرى وجه نمر ينظر من اعماق قفصه الى ابن آوى يلتهم غزالاً . كانت حدقته تلمع كالشمعة من خلال شقوق الباب .

وفجأة انتزع فوبوس طوق الغجرية بحركة مريعة . والفتاة المسكينة التي ظلت شاحبة حالمة ، استيقظت مرتعشة . وابتعدت فجأة عن الضابط الجسور ، وألقت نظرة على عنقها وكتفيها العارية ، وهي محمرة الوجه ، مشوشة ، صامتة من الخجل ، وشابكت ذراعيها الجميلتين على صدرها لتخفي عريها . وكان يخيل انها تمثال الحياء برؤيتها هكذا صامتة جامدة ، بدون اللهب الذي يحرق خديها . وظلت عيناها منخفضتين .

وكشفت حركة الضابط التميمة الغريبة التي تحملها في عنقها ، فقال الضابط متمسكاً بهذا العذر ليقترب من المخلوقة الجميلة التي اجفلها :

— ما هذا ؟

فأجابت بحدة :

— لا تلمسها ، انها حارستي . هي التي ستجعلني اجد عائلتي اذا ظللت جديرة بها . اوه ! دعني يا سيدي الضابط ! امي ! امي المسكينة ! اين انت ؟ تعالي

لنجدتي ! رحمة يا سيد فوبوس ! أعد الي طوق عنقي .

فتراجع فوبوس وقال بلهجة باردة :

– أوه ! يا آنسة ! ارى تماماً انك لا تحبينني .

فصرخت البائسة المسكينة : لا أحبك !

وفي الوقت نفسه تعلقت بالضابط ليجلس بقربها .

لا احبك يا فوبوس ! ماذا تقول ايها الخبيث لتمزق قلبي ? اوه ! سر ! خذني ! خذ كل شيء ! افعل بي ما تريد . انا لك . وماذا تهمني التميمة ! ماذا تهمني امي ! انت امي ما دمت احبك ! فوبوس ، يا حبيبي فوبوس . اتراني ? هذا انا ، انظر الي . انها تلك الصغيرة التي ترجو الا تطردها ، والتي تأتي ، تأتي من تلقاء نفسها لتبحث عنك . ان روحي . وحياتي، وجسدي ، وشخصي ، كل هذا لك يا ضابطي . لا بأس ! كلا ! لن نتزوج فهذا يزعجك . وبعد ، فمن انا ? ابنة ساقية ، بائسة ، بينما انت يا فوبوس ، انت من النبلاء . شيء جميل فعلاً . راقصة تتزوج ضابطاً ! كنت مجنونة . كلا يا فوبوس، كلا ، سأكون عشيقة لك ، سلوتك ، لذتك متى شئت . فتاة ستصبح لك ، وانا لم اخلق الا لذلك ، ملوثة ، محتقرة ، فاقدة الشرف . ولكن لا يهم . ما دمت محبوبة فسأكون الاكثر كبرياءً والاكثر سروراً بين النساء . وحين اصبح عجوزاً او قبيحة يا فوبوس ، حين لا اعود اصلح لمحبتك يا سيدي ، فستعذبني ايضاً لأخدمك . الأخريات يطرزن لك شالات . وانا الخادمة التي ستعتني بها . ستتركني اصقل مهازيك ، وافرشي سترتك ، وانفض الغبار عن جزمتك . اليس كذلك يا فوبوس ? ستتحلى بهذه الشفقة . وبانتظار ذلك ، خذني ، خذ يا فوبوس ، كل هذا ملك لك... فقط أحبيني... فنحن الغجريات لا يلزمنا سوى ذلك ، الهواء والحب .

وفيا كانت تتكلم هكذا القت ذراعيها حول عنق الضابط وتطلعت اليه من اسفل الى اعلى متوسلة ، وبابتسامة كلها بكاء . وكان عنقها الناعم يحتك بالثوب والمطرزات القاسية ، والقت على ركبتيه جسدها الجميل نصف العاري . اما

الضابط المنتشي فقد الصق شفتيه الملتهبتين بهذين الكتفين الافريقيين الجميلين .
واما الفتاة التي كانت عيناها ضائعتين في السقف وهي منقلبة الى الوراء ، فكانت ترتجف مرتعشة تحت هذه القبلة .

وفجأة رأت رأساً آخر فوق رأس فوبوس ، وجهاً ازرق ضارباً الى السواد، اخضر ، متشنجاً ، بنظرة امرءٍ هالك . وبالقرب من ذلك الوجه يد ممسكة بخنجر . انها وجه ويد الكاهن . فقد حطم الباب وجاء الى هناك . ولم يكن باستطاعة فوبوس ان يراه . والفتاة ظلت جامدة ، متجمدة ، صامتة تحت وطأة هذا الظهور المرعب كيامة ترفع رأسها في اللحظة التي يكون فيها العقاب ناظراً الى عشها بعينيه المستديرتين .

لم تقو حتى على اطلاق صرخة . ورأت الخنجر يهبط على فوبوس ويرتفع مدمّى .

- اللعنة .

قال الضابط ذلك وسقط ارضاً .

واغمي عليها .

في اللحظة التي اطبقت فيها عينيها وتبعثرت كل عاطفة فيها ظنت انها تشعر بملامسة النار لشفتيها ، كانت قبلة اكثر اشتعالاً من حديدة الجلاد المحمّاة .

وحين استعادت حواسها كانت محاطة بجنود الحرس . وحمل الضابط السابح بدمه ، وكان الكاهن قد اختفى . وكانت النافذة الموجودة في داخل الغرفة ، والمطلة على النهر ، مفتوحة على مصراعيها . والتُقط معطف كان يُظن انه للضابط ، وسمعت حولها من يقول هذا الكلام : ان تلك التي طعنت الضابط بالخنجر هي ساحرة .

الكتاب الثامن

١

الدينار المبدول بورقة جافة

كان غرنغوار وبلاط العجائب كله في حالة قلق مميت . فمنذ شهر لم يعرف احد ماذا حل بأزميرالدا . اما ما أحزن دوق مصر ورفاقـــه المتشردين فليس ما حل بعنزاتها ، وهـــذا ما ضاعف من حزن غرنغوار . فقد اختفت الغجرية ذات مساء ، ومنذ ذلك الحين لم تظهر اية اشارة حياة . وقد ذهبت جميـع الابحاث على غير طائل . وقال بعض المتكدين الموبخين لغرنغوار انهم التقوا بها في ذلك المساء سائرة مع ضابط في ضواحي جسر سان ميشال ؛ ولكن هـــذا الزوج على النسق البوهيمي كان فيلسوفاً قليل التصديق ، ومع ذلك فهو يعرف اكثر من اي شخص الى اية درجة كانت زوجته عذراء. وقد استطاع ان يعرف اي حياء حصين كان ينتج من الفضيلتين المؤلفتين من التميمة والغجرية ، وقـــد اجرى عملية حسابية لمقاومة الطهارة للقوة الثانية . اذن فقد كان مطمئناً من هذه الناحية .

الا انه لم يستطع ان يجد تفسيراً لهذا الاختفاء . انه حزن عميق . ولو كان الامر ممكناً لأصيب بالهزال . وكان قد نسي كل شيء حتى اذواقه الادبية ، حتى مؤلفه الكبـير المعنون « وجوه منتظمة وغير منتظمة » والذي كان يحسب انه سيطبعه من اول مـــال يحصل عليه . (لأنه كان يهذي بالمطبعة منذ ما رأى

كتاب « ديداسكالون » لهوغ دي سان فكتور المطبوع بحروف فندلين دي سبير الشهيرة) .

وبينما كان ماراً ذات يوم امام محكمة الجنايات شاهد جمهوراً على احد ابواب قصر العدل ، فسأل شاباً كان خارجاً من هناك :

– ما الخبر ؟

فأجاب الشاب :

– لا ادري يا سيدي ، يقال انهم يحاكمون امرأة قتلت دركياً . كما يبدو ان هناك شيئاً من السحر ، فقــد تدخل الاسقف والقاضي بالقضية ، واخي ، الذي هو الخوراسقف دي جوزا قضى حياته في ذلك . وكنت اريد ان اكلمه ولكني لم استطع الوصول اليه بسبب الجمهور ، الامر الذي عاكسني جداً لأنني بحاجة الى مال .

فقال غرنغوار :

– آسف يا سيد ، كنت احب ان استطيع اعارتـك ؛ ولكن اذا كانت سراويلي مثقوبة فليس ذلك من الدنانير .

ولم يجرؤ على ان يقول للشاب انه يعرف اخاه الخوراسقف ، والذي لم يعد اليه منذ حادث الكنيسة ، وهو اهمال كان يزعجه .

وسار الطالب في طريقه، واخذ غرنغوار يتبع الجمهور الذي كان يصعد سلم القاعة الكبرى . كان يعتقد انه ليس هناك سوى مشهد دعوى جنائيـــة يزيل كآبته ، ما دام القضاة، عادة ، ذوي حماقة مسرّة . وكان الناس الذين اختلط بهم يسيرون ويتدافعون بالمرافق صامتـــين ، وبعد سير بطيء بارد تحت رواق طويل مظلم يتعرج في القصر كالقناة الامعائية لبناية قديمة ، وصل الى جانب باب منخفض ينفتح على قاعة اتاحت له قامته الطويلة ان يرودها بنظرة من فوق الرؤوس المائجة لهذا الجمع الغفير .

كانت القاعة فسيحة ، وقاتمة ، الامر الذي جعلها تبدو اكثر اتساعاً . وكان النهار مولياً ؛ والنوافذ الطويلة المقدسة لا تتيح الدخول الا لشعاع شاحب كان

ينطفيء قبل ان يبلغ القبة ، واعراش ضخمة من الصقالات المنحوتة تبـدو فيها آلاف الصور انها تتحرك في الظـــلام بشيء من التشوش . وكانت عدة شموع مضاءة هنا وهناك على مناضد، تلقي اشعتها على رؤوس كتّاب المحكمة الغارقين في الاوراق. والقسم المتقدم من القاعة كان يشغله الجمهور . والى اليمين والشمال رجال القضاء على مناضد ؛ وعلى منصة في الداخل قضاة كان الصف الاخير منهم غارقاً في الظلمات ؛ وجوه جامدة وعابسة . والجدران مبذورة بأزاهير الزنبق التي لا حصر لها . وفوق القضاة صورة كبيرة للمسيح لا تكاد تبين ، وفي كل مكان رماح وحراب تضع الشموع في اطرافها أسنّة نار .

وسأل غرنغوار احد جيرانه :

-- ايها السيد . من هم اولئك الرجال المصفوفون هناك كأحبار في مجمع ؟

فقال الجار :

— ايها السيد . انهم مستشارو القاعة الكبرى الى اليمين ، ومستشارو التحقيق الى الشمال ؛ والاساتذة باللباس الاسود ، والسادة باللباس الابيض .

فقال غرنغوار :

— وفوقهم هناك ، من هو ذلك الاحمر الضخم الذي يرشح عرقاً ؟

— انه السيد الرئيس .

— وتلك الخراف وراءه ؟

هكذا تابع غرنغوار الذي لم يكن يحب القضاء كما قلنا. وقد ظل على حقده الذي يحفظه لقصر العدل منذ حادث السوء المسرحي .

— انهم السادة مقدمو العرائض في قصر الملك .

— وذلك الهر الاسود الضخم الى اليسار ؟

— انه الاستاذ جاك شارمولو وكيل الملك في المحكمة الكنسية مع السادة القضاة من قبل الاسقف .

وقال غرنغوار :

— هكذا اذن . وماذا يفعل كل اولئك الشجعان هنا ؟

– انهم يقاضون .

– يقاضون من ؟ اني لا ارى متهماً .

– انها امرأة يا سيد ، وانت لا تستطيع رؤيتها لانها تدير لنا ظهرها ، والجمهور يخفيها عنا . انظر ، انها هناك حيث تجد حشداً من الحراب .

وسأل غرنغوار :

– من هي هذه المرأة ؟ اتعرف اسمها .

– كلا يا سيد ، فقد وصلت حديثاً ، واعتقد فقط ان هناك سحراً لأن قاضي الاسقف يحضر الدعوى .

فقال فيلسوفنا :

– هيا ! سنرى كل اولئك المتشرعين يأكلون لحماً بشرياً . انه مشهد كغيره .

وقال الجار ملاحظاً :

– ايها السيد . الا تجد هيئة الاستاذ جاك شارمولو كثيرة العذوبة ؟

فأجاب غرنغوار :

– هوم ! اني احذر من عذوبة ذات منخرين جافين وشفتين دقيقتين .

وهنا فرض الجيران الصمت على المتحدثين ، فقد كانوا يسمعون شهادة هامة .

وقالت عجوز في وسط القاعة يختفي وجهها تحت ملابسها حتى ليخيل انها كومة من الخرق تمشي :

– ايها السادة، ان الأمر صحيح بقدر صحة كوني لافالورديل القاطنة جسر سان ميشال منذ اربعين سنة ، والدافعة الضرائب على الايرادات ، والأتاوات على التركات ، والأتاوات على الارض ، والباب مقابل بيت تاسان كايار الصباغ القائم من ناحية عالية النهر ، – عجوز مسكينة في الوقت الحاضر وفتاة جميلة في الماضي ايها السادة ! – لقد قيل لي منذ بضعة ايام : يا فالورديل لا تديري دولاب مغزلك كثيراً في المساء لان الشيطان يحب ان يمشط بقرنيه مكبّات العجائز .

ومن المؤكد ان اقلهم فظاظة ، ذلك الذي كان في السنة الماضية في ناحيـــة التامبل ، يجوس الآن خلال حي لاسيته ، احذري يا فالوردبل ان يطرق بابك. — وذات مساء ، كنت ادير دولاب مغزلي فطرق بابي . وسألت من الطارق ، فسمعت تجديفة ، ففتحت ، ودخل رجلان . رجل اسود مع ضابط جميـل . ولا يظهر من الاسود سوى عينيه ، جمرتان . وكل ما بقي كان معطفاً وقبعة . وهذا ما قالاه لي : — غرفة القديسة مرتا . — انها غرفتي العليا ايهـــا السادة ، انظف غرفة عندي . وقد اعطياني ديناراً . خبأت الدينار في درجي ، وقلت : — سأشتري بهذا غداً امعاءً من ملحمة لاغلوربيت — وصعدنا — ووصلنـا الى الغرفة العليا ، وبينا كنت مديرة ظهري اختفى الرجل الاسود . وقليلاً مـــا اذهلني . اما الضابط الذي كان جميلاً كسيد كبير فقد نزل معي ، وخرج . وبعـد ما يقتضيه غزل ربع كبة غزل من الوقت ، عاد مع فتاة جميلة ، انهـا دمية تلمع كالشمس اذا كانت تعتمر قبعـة . كان معهـا تيس ، تيس كبير ، اسود او ابيض لا ادري . وهذا ما جعلني افكر . الفتاة لا تهمني ولكن التيس ... اني لا احب هذه البهائم ، ان لها لحى وقروناً ، وهذا يشبه انساناً . وبعد فهذا يشعرني بالسبت[1] . الا انني لم اقل شيئاً . فقد كان الدينار معي . وهذا حق ، اليس كذلك ايهـا السيد القاضي ؟ وأصعدت الفتـاة والضابط الى الغرفة العليا وتركتها وحيدين ، يعني مع التيس . ونزلت وعـدت اغزل . ويجب ان اقول لكم ان بيتي طابقاً ارضياً وطابقاً اولاً ، ويطل من الوراء على النهر كبيوت الجسر الاخرى ، ونافذة الطابق الارضي ونافذة الطابق الاول تطلان على الماء . — اذن كنت على اهبة البدء بالغزل . ولا ادري لماذا فكرت بذلك الراهب الشرير الذي اعاده التيس الى رأسي ، ثم ان الفتاة الجميلة كانت متزينة بشكل وحشي نوعاً . — وفجأة سمعت صرخة من فوق وسقوط شيء على البلاط ، وان النافذة قد فتحت . فركضت الى نافذتي التي هي تحت ورأيت امام عيني مرور كتلة سوداء سقطت في الماء . لقـد كان شبحاً يرتدي ثيـاب

١ — السبت يوم تجمع السحرة ويكون الشيطان متخذاً فيه شكل تيس .

كاهن . وكان القمر مضيئاً . لقد رأيته جيداً . كان يسبح باتجاه حي لاسيته . وعندئذٍ ، وقد اضطربت ، ناديت العسس . ودخل السادة الاثنا عشر[1] في اللحظة نفسها غير عارفين بجلية الامر . وبما انهم كانوا في غاية الانشراح فقد ضربوني . فشرحت لهم الامر . وصعدنا وماذا وجدنا ؟ غرفتي كلها ملطخة بالدم ، والضابط ممدد بطوله مع خنجر في عنقه . فقلت : — حسناً ، سوف احتاج الى اكثر من خمسة وعشرين يوماً لغسل الخشب . ويجب حكه ، وهذا مخيف — وُحمِل الضابط ، يا للشاب المسكين ! وكانت الفتاة مختلة الثياب — انتظروا . اما الاسوأ فهو اني حين اردت اخذ الدينار في الغد لأشتري الامعاء وجدت مكانه ورقة جافة !

وسكتت العجوز . وانتشرت همهمة رعب بين الحاضرين . — وقال جار لغرنغوار :

— ذاك الشبح ، وذاك التيس ، كل هذا يدل على السحر .

وأضاف آخر :

— وتلك الورقة الجافة !

وقال ثالث :

— لا شك بانها ساحرة متفقة مع الراهب الشرير لسلب الضابط .

وغرنغوار نفسه لم يكن بعيداً عن ان يجد كل هذا مرعباً وقريباً من المعقول .

وقال السيد الرئيس بجلال :

— ايتها المرأة فالورديل ، ألم يبق لديك ما تقولينه للعدالة ؟

فأجابت العجوز :

— كلا يا سيدي . الا ما جاء في التقرير من ان بيتي حقير ، اعوج ونتن . ففي هذا الكلام اهانة بالغة . وبيوت الجسر ليست ذات فخامة ظاهرة بسبب

---

[1] — كان عدد رقباء العسس اثني عشر .

كثرة السكان ولكن المحامين يسكنونها ، وهم اناس اغنياء متزوجون من نساء جميلات نظيفات جداً .

ونهض القاضي الذي كان تأثيره على غرنغوار كتأثير تمساح وقال :

– الهدوء ! ارجو السادة الا ينسوا ان خنجراً وجد مع المتهمة – ايتها المرأة فالورديل ، هل اتيت بتلك الورقة الجافة التي تحول اليها الدينار الذي اعطاك الشيطان اياه ؟

فأجابت : نعم يا سيدي ، لقد وجدتها . هذه هي .

ونقل احد المباشرين الورقة الجافة الى التمساح الذي اتى باشارة حزينة من رأسه ، واوصلها الى الرئيس الذي ارسلها الى وكيل الملك في المحكمة الكنسية بشكل انها قامت بدورة في القاعة . وقال الاستاذ جاك شارمولو :

– انها ورقة حور . برهان جديد على السحر .

وتناول الكلام احد المستشارين :

– ايتها الشاهدة . لقد صعد رجلان في نفس الوقت الى بيتك . الرجل الاسود الذي رأيته اولاً يختفي ثم يسبح في السين بملابس كاهن ، والضابط – فمن منهما اعطاك الدينار ؟

ففكرت العجوز هنيهة وقالت : انه الضابط .

وفكر غرنغوار :

– آه ! هذا ما يجعلني احتار في يقيني .

الا ان الاستاذ فيليب لوليه المحامي فوق العادة من قبل الملك تدخل من جديد وقال :

– اذكّر السادة ان الضابط المقتول صرّح في افادته المكتوبة على فراشه بأن تفكيره كان مشوشاً في اللحظة التي دنا فيها الرجل الاسود . وان من الممكن ان يكون هو الراهب الشرير . واضاف بأن الشبح استعجله كثيراً ليذهب ويختلي بالمتهمة ، وعلى اثر ملاحظة من الضابط انه بدون مال ،

اعطاه ديناراً دفعه الضابط المذكور الى لافالورديل . اذن فالدينار هو عملة جهنمية .

هذه الملاحظة القاطعة بدت انها بددت جميع شكوك غرنغوار وشكوك المتشككين من المشاهدين .

وأضاف محامي الملك وهو يجلس :

- لدى السادة ملف المستندات وباستطاعتهم الرجوع الى اقوال فوبوس دي شاتوبير .

ووقفت المتهمة لدى سماعها هذا الاسم . وارتفع رأسها فوق الجمهور . وعرف غرنغوار المذعور ازميرالدا .

كانت شاحبة ؛ وشعرها الذي كان في الماضي مضفوراً بشكل بديع ومزيناً بقطع نقدية ، كان متهدلاً على غير ترتيب ؟ وشفتاها زرقاوان وعيناها المتقعرتان تخيفان ويا للأسف .

وقالت بهذيان :

فوبوس ! اين هو ؟ ايها السادة قبل ان تقتلوني اخبروني اذا كان لا يزال حياً :

فأجاب الرئيس :

- اسكتي يا امرأة ، فقضيتنا ليست هنا .

فقالت وهي تضم يديها المزيلتين ، وقد سُمع صليل قيودها مرتعشاً على طول ثوبها :

- اوه ! بداعي الشفقة ، اخبروني اذا كان حياً .

فقال المحامي بنشوة :

- حسناً ! انه يموت . - أمسرورة انت ؟

فسقطت المسكينة على مقعدها دون صوت ، دون دموع ، بيضاء كوجه من شمع . وانحنى الرئيس نحو رجل جالس عند قدميه يعتمر قبعة ذهبية ويرتدي ثوباً اسود ، وفي عنقه سلسلة ، وفي يده مخصرة .

ايها المباشر ، ادخل المتهمة الثانية .

والتفتت جميع العيون نحو باب صغير ُفتح ، ومع خفقات قلب غرنغوار ُفتح ممرٌ لمعزاة جميلة ذات قرنين وأرجل ذهبية . ووقفت البهيمة الأنيقة لحظة على العتبة ، مادة عنقها كأنها واقفة على رأس صخرة وتحت نظرها افق واسع . وفجأة شاهدت الغجرية فقفزت فوق المنضدة ومن فوق رأس احـــد كتاب المحكمة وبوثبتين اصبحت عند ركبتيها ، ثم تقلبت بكياسة على قدمي سيدتها متلمسة كلمة او مداعبة ؛ ولكن المتهمة ظلت جامدة . ودجالي المسكينة لم تحظ بأية نظرة .

وقالت العجوز فالورديل :

– ولكن ... انها بهيمتي الشنيعة . وأعرف الاثنين جيداً .

وتدخل جاك شارمولو قائلاً :

– اذا راق للسادة فسنلجأ الى استجواب المعزاة .

لقد كانت فعلاً هي المتهمة الثانية . ولا شيء اسهل آنذاك من اقامة دعوى سحر على حيوان . ونجد بين كثير من الدعاوى في حسابات دائرة المحاكم عام ١٤٦٦ تفصيلاً عجيباً لنفقات دعوى جيليه – سولار وخنزيرته اللذين « نفذ بهما الحكم لتقصيراتهما » في كورباي . وكان فيها كل شيء . ثمن الحفر لدفن الخنزيرة والخمسماية حزمة حطب المأخوذة من مرفأ مورسان ، وثلاثة بانت[1] Pinte من الخمر والخبز ، آخر وليمة للمحكوم تقاسمها اخوياً مع الجلاد ، حتى احد عشر يوماً من حراسة وتغذية الخنزيرة بأجرة ثمانيـــة دنيه باريزي كل يوم . واحياناً كانوا يسيرون الى ابعد من البهائم – فالشرائع التي سنهـا شارلمان ولويس لوديبونير تنزل عقوبات خطيرة بالاشباح الملتهبـــة التي تتيح لنفسها الظهور في الهواء .

الا ان النائب العام في المحكمة الكنسية صرخ :

– اذا كان الشيطان الذي يعمر هذه المعزاة والذي قاوم جميع العزائم يصر على

---

١ – كيل قديم للموائع .

رقاه المؤذية ، واذا أرعب المحكمة بها ، فاننا ننذره باننا سنضطر الى طلب المشنقة او المحرقة له .

وسال العرق البارد من غرنغوار . واخذ شارمولو دف الغجرية الباسكي عن المنضدة ، وقدمه بطريقة خاصة الى المعزاة وسألها :

– كم الساعة ؟

فتطلعت المعزاة اليه بعين ذكية ، ورفعت رجلها المذهبة وضربت سبع ضربات . لقد كانت الساعة بالفعل هي السابعة . واجتاحت الجمهور حركة رعب . اما غرنغوار فلم يستطع ان يسيطر على نفسه وصرخ عالياً :

– انها تضيع نفسها ! أنتم ترون جيداً انها لا تعرف ما تفعل .

فقال المباشر بحدة :

– صمتاً ايها الفلاحون في طرف القاعة .

وبحركات الدف نفسها جعل جاك شارمولو المعزاة تقوم بعدة اعمال مضحكة اخرى عن تاريخ اليوم والشهر والسنة الخ ... كان القارىء قد شاهدها قبلًا . وبدافع من الوهم البصري الخاص بالمناقشات القضائية فان هؤلاء المشاهدين انفسهم ، الذين صفقوا اكثر من مرة على مفترق الطرق لأعمال دجالي البريئة ، قد اصابهم الرعب منها تحت قباب قصر العدل . فقد كانت المعزاة هي الشيطان .

وازداد الامر سوءاً حين افرغ وكيل الملك على البلاط كيساً من الجلد مليئاً بالاحرف المتحركة كانت دجالي تحمله في عنقها ، فقد شوهدت المعزاة وهي تستخرج بقدمها من الحروف الهجائية المتبعثرة ذلك الاسم المشؤوم : فوبوس . وذلك السحر الذي كان الضابط ضحيةً له قد ثبت بشكل قاطع، اما الغجرية ، تلك الراقصة الفاتنة التي بهرت المارة في كثير من المرات بظرفها ، فلم تكن سوى خفاش ظلامي .

وبعد ، فانها لم تبدِ اية اشارة حياة، لا حركات دجالي الظريفة ، ولا تهديد المحكمة ، ولا لعنات المشاهدين الخفية ، ما من شيء كان يصل الى تفكيرها .

واضطر احد الرقباء ، لكي يوقظها ، ان يهزهـا دون شفقة ، وان يرفـع الرئيس صوته باحتفال :

– ايتهـا الفتاة ، انت من العرق الفجري ، وقـد انصرفت الى الرقى المؤذية . فقد اقدمت بالاشتراك مع المعزاة المسحورة الداخلة في الدعوى ، في ليل ٢٩ اذار الماضي على قتل وطعن ضابط في فرقـة رماة الملك ، فوبوس دي شاتوبير ، بالاشتراك مع قوى الظلام ، مستعينة بسحرك ومعزاتك . أتصرّين على الانكار ؟

فصرخت الفتاة وهي تخبىء وجهها بيديها :

ما افظع ذلك ! يا عزيزي فوبوس ! انه الجحيم !

وسأل الرئيس ببرود : اتصرين على الانكار ؟

نعم ، انكر .

قالت ذلك بلهجة مرعبة ، وكانت قد وقفت وعيناها تقدح شرراً .

وتابع الرئيس بحزم :

- اذن كيف تفسرين الوقائع الراسية عليك ؟

فأجابت بصوت متقطع :

– لقد سبق وقلت لكم . لا ادري . هناك راهب جهنمي يلاحقني !

فقال القاضي : انه لكذلك . فهو الكاهن الشرير .

– اوه ! ايها السادة ! لست سوى فتاة مسكينة .

فقال القاضي : من بلاد الغجر .

وتناول الاستاذ جاك شارمولو الكلام بلطف :

– بالنظر لعنـــاد المتهمة المؤلم ، فاني اقترح اللجوء الى تطبيق اساليب الاستجواب .

فقال الرئيس : موافق .

واقشعر جسد الفتاة كله ، الا انها وقفت استجابـةً لأمر حاملي الحراب ، وسارت بخطوة ثابتة ، يتبعها شارمولو وكهنة المحكمة الاسقفية ، بين صفين من

حملة الرماح ، نحو باب فتح فجأة وأغلق عليها، وكان تأثيره على غرنغوار الحزين كتأثير حلقوم مخيف قد التهمها .

وعندما اختفت تناهى الى الاسماع ثغاء شاكٍ . انها المعزاة الصغيرة التي كانت تبكي .

ورفعت الجلسة . ولاحظ احد المستشارين ان السادة قد تعبوا وان انتظار نهاية التعذيب امر يطول ، فأجاب الرئيس ان على القاضي ان يعرف كيف يضحي بنفسه في سبيل واجبه .

وقال قاض هرم :

– لقد قدمت الحقيرة المنكّدة الكريهة نفسها للتعذيب ونحن لم نتناول طعامنا بعد !

٢

تتمة الدينار المبدول بورقة جافة

بعد عدة درجات صعوداً ونزولاً في اروقة مظلمة تضاء بالمصابيح في وضح النهار ، فان ازميرالدا المحاطة دائماً بموكبها المأتمي دفعها رقباء جند القصر الى غرفة مشؤومة . وهذه الغرفة المستديرة الشكل كانت تشغل الطابق الارضي من احد ابراجه الضخمة التي لا تزال تتجاوز طبقة العمارات الحديثة حيث غطت باريس الجديدة على القديمة . لم يكن هناك اية نافذة لهذا القبو الصغير ، ولا اية فتحة اخرى سوى المدخل ، والغرفة منخفضة ينفذ اليهـــا بواسطة باب حديدي ضخم . الا ان الانارة لا تنقصها . فهناك فرن اقيم في سماكة الجدار ، أُشعلت فيه نار عظيمة كانت تملأ القبو بانعكاساتها الحمراء وتجرد شمعةً بائسة موضوعةً في احدى الزوايا من كل تألق . وكانت المسلفة الحديدية المستعملة في اقفال الفرن مرفوعة في تلك اللحظة ، ولا تُظهر من فوهة النافذة المشتعلة على الجدار المظلم سوى الطرف الاسفل من بلاطـــه كصفٍ من الاسنان السوداء ، الحادة ، المتباعدة ، الامر الذي يجعل الأتون يشبه احد افواه التنين التي تقذف النار في الاساطير . وعلى الضوء المتفلت منها رأت السجينة حول الغرفة آلات مرعبة لم تعرف طرق استعمالها . وفي الوسط مُدَّ فراش من الجلد موضوع على الارض ، ويتدلى عليه سير فيه إبزيم، مربوط بحلقة نحاسية يعض عليها مسخ افطس منحوت في قفل القبو . وهناك كمّاشات ، وملاقط ، وحدائد عريضة للمحراث تملأ داخل الفرن وتحمى على الجمر مختلطاً بعضها ببعض ، وألق الاتون الدامي لم يكن ينير

في الغرفة كلها سوى برقشة اشياء مرعبة .
كان هذا الجحيم هو ما يدعى ببساطة « غرفة الاستجواب » .
وكان بيارا تورتيرو الجلاد جالساً بلا مبالاة على السرير . وكان خادماه ، وهما عفريتان بوجه مربّع ومريئة من جلد مغلفة بالقماش ، يحركان الحدائد على الجمر .
وكانت الفتاة قد استعادت شجاعتها . ولكنها حين دخلت الى تلك الغرفة اصابها الرعب . وكان رقباء جند قاضي القصر يقفون صفاً واحداً في ناحية ، وكهنة المحكمة الاسقفية في الناحية الاخرى . وهناك في احدى الزوايا كاتب ومحبرة ومنضدة . واقترب الاستاذ جاك شارمولو من الغجرية بابتسامة كثيرة العذوبة وقال :
— اتصرين يا عزيزتي على الانكار ؟
فاجابت بصوت خافت : نعم .
فقال شارمولو :
— في هذه الحالة يؤلمنا جداً ان نستجوبك بكثير من إلحاح ما كنا لنريده . — تفضلي بالجلوس على هذا السرير . — افسح مكاناً للآنسة يا معلم بيارا ، واقفل الباب .
ونهض بيارا مزمجراً وقال متمتماً :
— لو اقفلت الباب لانطفأت ناري .
فقال شارمولو :
— لا بأس يا عزيزي دعه مفتوحاً .
الا ان ازميرالدا ظلت واقفة . فذلك السير الجلدي الذي طوى كثيراً من البؤساء كان يخيفها . وجمد الرعب لسانها . وظلت مشدوهة بلهاء ، وباشارة من شارمولو اخذهـا الخادمان واجلساها على السرير ، ولم يؤذياها ، ولكن حين لمسها هذان الرجلان ، وحين شعرت بملامسة الجلد أحسّت بان دمها كله يعود الى قلبها. وألقت نظرة شارده في جوانب الغرفة فخيل اليها انها ترى كل ادوات

التعذيب الشنيعة تلك تمشي نحوها من جميع الجهات لتتسلق جسدها كله وتعضها وتقرصها . وهـــذه الادوات بين كل ما رأت حتى الآن كأنها الخفافيش والحرش[1] والعناكب بين الحشرات والعصافير .

وسأل شارمولو : اين الطبيب ؟

فأجاب ثوب اسود لم تكن شاهدته بعد : هنا .

فارتعشت .

وتابع صوت النائب العام في المحكمة الكنسية ملاطفاً !

– للمرة الثالثة ، اتصرين على انكار الوقائع المتهمة بها ؟

لم تستطع هذه المرة الا ان تشير برأسها ، فقد خانها الصوت .

وقال شارمولو : اتصرين ؟ اذن انا يائس ، ولكن يجب ان اقـــوم بواجب وظيفتي .

وقال بيارا فجأة :

– من اين نبدأ يا حضرة وكيل الملك ؟

فتردد شارمولو لحظة راسماً كشرة مبهمة لشاعر يبحث عن قافيـــة .

وقال اخيراً :

– بالحذاء العالي[2] !

وشعرت المسكينة ان الله والناس قد تخلوا عنها ، فسقط رأسها على صدرها كشيء لا حياة فيه وليس في ذاته اية قوة .

واقترب منها الجلاد والطبيب معاً . وفي الوقت نفسه اخذ الخادمان يبحثان في خزانة سلاحها الفظيعة .

وارتجفت المسكينة لدى سماعها صليل هذه الحدائد المرعبة كضفدعة ميتة مكهربة ، وتمتمت بصوت منخفض لم يسمعه احد :

---

١ – ضرب من الحشرات .

٢ – الحذاء العالي Brodequin جهاز يعذبون به رجلي المحكوم .

-- اوه ! يا عزيزي فوبوس !

ثم عادت الى الاستغراق في جمودها وصمتها الرخامي . وكان من شأن هذا المشهد ان يزق كل القلوب الاخرى ما عدا قلوب القضاة. حتى ليخيل انها روح مسكينة خاطئة يعذبها الشيطان تحت نافذة الجحيم القرمزية . والجسد البائس الذي ستنشب به كل هذه المنحلة الرهيبـــة من المناشير والدواليب ومركبات العذاب الحديدية ، والكائن الذي ستحركه ايدي الجلادين الخشنة والكماشات ، كان اذن تلك المخلوقة الحلوة ، البيضاء ، الرقيقة . حبة من الذرة أسلمتها العدالة البشرية الى طاحونة التعذيب الهائلة لتحطمها !

وعرّت ايدي خدم بيارا تورتيرو الخشنة ذلك الساق البديع بقسوة ، تلك القدم الصغيرة التي طالما ادهشت المارة برشاقتها وجمالهـــا على مفترق شوارع باريس .

ودمدم الجلاد وهو يتأمل هذه الاشكال الكثيرة الظرافة الكثيرة الرقة :

— هذا مؤسف !

ولو كان الحوراسقف حاضراً لتذكر بالتأكيد رمزه عن العنكبوت والذبابة . ورأت البائسة من خلال سحابة انتشرت على عينيهـا اقتراب « حذاء التعذيب » ، ثم رأت قدمها المعلّبة بين الحدائد تختفي تحت الجهاز الرهيب . وحينئذٍ أعاد الرعب اليها القوة فصرخت بشدة :

— انزعوا هذا عني !

ووقفت مشعثة الشعر وصرخت : الرحمة !

واندفعت خارج السرير لترتمي على قدمي وكيـل الملك . ولكن قدمهـا كانت ممسوكة بكتلة الخشب الثقيلة والحديد ، وهبطت على حذاء التعذيب اكثر تحطماً من نحلة وضع رصاصٌ على جناحيها .

وباشارة من شارمولو اعيدت الى السرير وضبّطت يــدان ضخمتان على خصرها الرقيق السير الذي كان معلقاً في القبة . وسأل شارمولو بوداعته الهادئـة :

– مرة اخيرة ، هل تعترفين بوقائع القضية ؟
– انا بريئة .
– اذن كيف تفسرين يا آنسة ظروف جرمك الثابتة ؟
– للأسف يا مولاي ، لا ادري .
– اذن انت تنكرين ؟
– كل شيء .

فقال شارمولو لبيارا : قم بعملك .

فأدار بيارا قبضة الرافعة وعاد ضغط الحذاء . وصرخت المسكينة احدى تلك الصرخات الهائلة التي ليس لها اي اسم في اية لغة بشرية .

وقال شارمولو لبيارا : توقف .

ثم قال للغجرية : أتعترفين ؟

فصرخت الفتاة البائسة :

– بكل شيء . أعترف ! اعترف ! الرحمة !

لم تكن قد أجرت حساباً لقواها وهي تجابه الاستجواب . مسكينة تلك الفتاة التي كانت الحياة عندها حتى الآن مرحة ، حلوة ، عذبة ، فقد تغلب عليها أول ألم صادفته .

وقال وكيل الملك ملاطفاً :

– تفرض علي الانسانية ان اقول لك انك باعترافك تنتظرين الموت .

فقالت : آمل ذلك .

وعادت الى السقوط على السرير الجلدي ، محتضرة ، منطوية ، متعلقة بالسير المشبك على صدرها .

وقال المعلم بيارا وهو يرفعها :

– ايه يا جيلتي . تمالكي قليلاً . انك تشبهين الخروف الذهبي الموجود في عنق السيد دي بورغونيه .

ورفع جاك شارمولو صوته :

– اكتب ايها الكاتب . – ايتها الفتاة الغجرية ، اتعترفين بمساهمتك في ولائم مجمع السحرة ، ورقي الجحيم المؤذية مع اشباح المجرمين والاقنعة وخفافيش الظلام ؟ اجيبي .

فقالت بصوت هامس كان كلامها فيه يضيع في نَفَسها : نعم .

– اتعترفين بأنك رأيت الكبش الذي اظهره بعلزبول في السحب ليجمع السحرة والذي لم يره الا السحرة ؟

– نعم .

– اتعترفين بأنك تعبدين رؤوس بوفومه ، تلك الاصنام المقيتة لفرسان الهيكل ؟

– نعم .

– هل لك علاقة عادية مع الشيطان بشكل معزاة اليفة مضمومة الى الدعوى ؟

– نعم .

– واخيراً اتقرين وتعترفين انك قتلت ضابطاً يدعى فوبوس دي شاتوبير بمساعدة الشيطان والشبح الذي يدعوه العامة الراهب الشرير في ليل التاسع والعشرين من آذار الماضي ؟

فرفعت الى القاضي عينيها الكبيرتين الثابتتين ، مجيبة بشكل آلي ، دون تشنج او اهتزاز : نعم .

كان من الراهن ان كل شيء قد تحطم فيها .

وقال شارمولو : اكتب ايها الكاتب .

ثم توجه الى الزبانية قائلاً :

– ليفك وثاق السجينة وليؤت بها الى قاعة المحكمة .

وعندما انتزع الحذاء من رجل السجينة فحص وكيل الملك لدى المحكمة

الكنسية رجلها التي لا تزال متخدرة من الألم ، وقال :

- هيا ! ليس هناك ضرر كبير . فقد صرخت في الوقت المناسب . - لا يزال بامكانك ان تنكري يا جميلة .

ثم التفت نحو رفاقه قضاة المحكمة الاسقفية وقال :

- اخيراً أنيرت العدالة ! وهذا ما يرّوح عن النفس ايها السادة ! وستشهد لنا الآنسة اننا تصرفنا بكل لطف ممكن .

٣

نهاية الدينار المبدول بورقة جافة

حين دخلت الفتاة شاحبة عارجة الى قاعة المحكمة ، استقبلتها همهمة عامة من السرور . فمن ناحية المشاهدين ، تلك العاطفة من الملل الذي شعر بالرضا ، العاطفة التي يشعر بها المرء في المسرح عند نهاية الاستراحة الاخيرة في المسرحية المزلية حين يرتفع الستار ، شاعراً ان النهاية ستبدأ . ومن ناحية القضاة هو الامل بقرب تناول طعام العشاء . وكذلك المعزاة الصغيرة فقد ثغت سروراً، وارادت ان تركض نحو سيدتها ، ولكنها كانت مربوطة الى المقعد .

وكان الليل قد اقبل . والشموع التي لم يزدد عددها كانت تلقي قليلاً من النور لا تكاد تظهر معه جدران القاعة . وكان الظلام فيها يغلف جميع الاشياء بنوع من الضباب . ولا يخرج منه سوى قلة من وجوه القضاة الجامدة . وكانوا يستطيعون ان يروا تجاههم في نهاية القاعة الطويلة نقطة من البياض المبهم منفصلة عن القاع القاتم . انها المتهمة .

كانت قد جرّت نفسها الى مكانها . وحين وصل شارمولو بعظمة الى مكانه ، جلس ، ثم نهض وقال دون ان يظهر كثيراً من الغرور بنجاحه :

– لقد اعترفت المتهمة بكل شيء .

فقال الرئيس : ايتها الفتاة الغجرية . هل اعترفت بجميع اعمالك من سحر وبغاء وقتل على شخص فوبوس دي شاتوبير ؟

فانقبض قلبها . وسمعت وهي تنتحب في الظلام . واجابت بضعف :

– كل ما تريدون ، ولكن اقتلوني بسرعة .

فقال الرئيس :

– ايها السيد وكيل الملك في المحكمة الكنسية . ان المحكمة مستعدة لسماعك في ادعاءاتك .

فأبرز الاستاذ شارمولو دفتراً مخيفاً واخذ يقرأ ، بحركات قوية ، وتحريك الحروف بنبرة مرافعة مبالغ فيها ، خطبة باللاتينية تراكمت فيها جميع براهين الدعوى على عبارات شيشرونية مبنية على استشهادات من بلوت اديبه المزلي المفضل . ونحن نأسف لعدم استطاعتنا تقديم تلك القطعة الممتازة لقرائنا . وقد بدأها الخطيب بعمل رائع . وكان العرق يخرج من الجبهة ومن عيني الرأس قبل ان يتم الاستهلال . وفجأة، توقف في منتصف فقرة جميلة، واصبح نظره الهادىء عادة ، والكثير البلادة ، صاعقاً ، فصرخ .

– ايها السادة (بالفرنسية هذه المرة لان ما يقوله غير موجود بالدفتر) ،ان الشيطان مشترك في هذه القضية وهاهو يحضر مناقشاتنا ويهزأ من جلالها . انظروا !

وكان وهو يتكلم هكذا يشير بيده الى المعزاة الصغيرة التي رأت حركات شارمولو فظنت فعلاً ان من المناسب القيام بمثلها ، فقعدت على مؤخرتها مقلدة قدر المستطاع ، بقدميها الاماميتين ورأسها الملتحي ، الايماءات المؤثرة التي يقوم بها وكيل الملك في المحكمة الكنسية .

وهذه احدى مواهبها اللطيفة ، اذا تذكرنا . وهذا الحادث ، هذا « البرهان » الاخير كان مفعوله كبيراً . فربطت قدما المعزاة ، واستعاد وكيل الملك خيط فصاحته .

وكانت خطبته طويلة جداً ، ولكن خاتمة الكلام تستحق الاعجاب . وهذه هي العبارة الاخيرة منها ؛ على ان يضاف اليها صوت الاستاذ شارمولو الابح وحركته اللاهثة .

– لهذا السبب ايها السادة ، وبحضور خفاش ظلامي ثبتت صحة وجوده ،

كانت الجريمة واضحة ، والقصد الجنائي موجود . فباسم الكنيسة المقدسة نوتردام دي باري ، التي لها ملء الحق بالمحاكمة من كل نوع ، عالية ومنخفضة ، في تلك الجزيرة الخالية من الشوائب في حي لاسيته. وبموجب فحوى المحاكمات الحالية نعلن اننا نطلب اولاً بعض التعويضات المالية . ثانياً ، كفارة مشرفة امام المدخل الرئيسي للكنيسة الكاتدرائية نوتردام ؛ ثالثاً ، حكماً يعدم بمقتضاه ذلك الخفاش الليلي ومعزاته ، اما في الساحة التي يدعوها العامة ساحة غريف ، واما على مخرج الجزيرة على نهر السين ، بالقرب من طرف الحديقة الملكية [1].

واعتمر قبعته وجلس .

وتأوه غرنغوار قائلاً :

– وااسفاه ! لاتينية منحطة !

ونهض رجل آخر بثوب اسود بقرب المتهمة . انه احد المحامين . فبدأ القضاة الجائعون بالتذمر . وقال الرئيس :

– ايها المحامي . اختصر .

فاجاب المحامي .

– سيدي الرئيس . بما ان الخاطئة اعترفت بالجريمة فليس لي سوى كلمة واحدة اقولها للسادة . هذا نص من قانون الافرنج : « اذا اكل احد الخفافيش الظلامية رجلاً عن اقتناع بذلك يغرّم بدفع مبلغ ثمانية آلاف دنيه ، اي مائتي فلس ذهبي » . وارجو من المحكمة ان تحكم على موكلتي بالغرامة .

فقال محامي الملك غير العادي .

– هذا نص ملغى .

فأجاب المحامي : اني انفي ذلك .

وقال احد المستشارين :

– لنلجأ الى التصويت ! فالجريمة واضحة والوقت متاخر .

---

١ – هذه الفقرة كلها باللاتينية في الاصل .

وجلأوا الى الاقتراع دون ان يتركوا الغرفة . وتبين القضاة رأي الآخرين، فقد كانوا من امرهم على عجل . ورؤيت رؤوسهم المعتمرة قبعـات تتكشف واحداً اثر واحد في الظلام لدى السؤال المشؤوم الذي كان يوجهه الرئيس اليهم بصوت منخفض . وبدت المتهمة المسكينة كأنها تنظر اليهم ، ولكن عينيهـا المضطربة لم تكن ترى .

واخذ الكاتب يكتب ؛ ثم قدم رقماً طويلاً الى الرئيس .

وحينئذ سمعت البائسة الشعب يتحرك ، والحراب تتصادم وصوتاً جليديـاً يقـول :

ايتها الفتاة الغجرية . في النهار الذي يعينه مولانا الملك ، وعند الظهر ، ستقادين في عربة ، بالقميص ، عارية القدمين ، والحبل في عنقك ، الى امـام بوابـة نوتردام الكبرى، وستقدمين كفّارة مشرفة وفي يدك مشعال من شمع وزنه ليبرتان ، وتقادين من هناك الى ساحة غريف حيث تشنقين وتخنقين على مشنقة المدينة . وكذلك معزاتك . وستدفعين للمحكمة الاسقفية ثلاثة اسود ذهبية ، كتعويض عن الجرائم التي ارتكبتها واعترفت بهـا ، من الشعوذة ، والسحر ، والفجور ، والقتل على شخص السيد فوبوس دي شاتوبير . وليتـولّ الله روحك !

فتمتمت المسكينة : اوه ! يا له من حلم !

واحست بايدٍ قاسية تمضي بها .

٤

دع كل امل[١]

لتكون العمارة تامة في القرون الوسطى يجب ان يكون منها تحت الارض بقدر ما هو فوقها ، الا اذا كانت مبنية على مجموعة اوتاد مغروزة كنوتردام . فللقصر والحصن والكنيسة قعر مزدوج دائماً . وفي الكاتدرائية يكون هـذا القصر بشكل كاتدرائية اخرى تحت الارض ، منخفضة ، مظلمة ، خفية ، عمياء وصماء ، تحت صحن الكنيسة الاعلى المفعم بالنور، والمدوي بالارغن والاجراس ليلاً ونهاراً ؛ وفي بعض الاحيان يكون قبوراً . اما في القصور والقلاع فيكون سجناً. وفي بعض الاحيان ايضاً يكون قبراً،ويكون الاثنين معاً احياناً. وتلك الأبنية المتينة التي شرحنا سابقاً نسق تشكيلها وبناءها لم يكن لها اسس،بل اذا صح القول ، جذور تتشعب في الارض الى غرف واروقة وادراج كما هو البنـاء الاعلى . وهكذا ، فالكنائس والقصور والقلاع يغمرها التراب الى نصفها . واقبية العمارة تكون عمارة اخرى يهبط المرء اليها بدلاً من ان يصعد، وتركب طبقاتها تحت الارض تحت كومة الطبقات العليا من البناية ، كتلك الغابات والجبال التي تنعكس في المياه اللامعة لبحيرة واقعـة تحت الغابات والجبال الموجودة على الضفة .

كانت هذه الابنية التحتية سجوناً في حصن القديس انطوان ، وفي قصر

١ – يقول دانتي ان هذه العبارة مكتوبة على باب الجحيم ، وقـد وردت باللاتينية في الاصل .

العدل في باريس ، وفي اللوفر . وتزداد طبقات هذه السجون ضيقة وظلمة كلما غاصت في التراب . انها مناطق تتدرج فيهـــا انواع الرعب ، ولم يجد دانتي افضل منها لجحيمه . وهذه الاقماع من السجون تنتهي عـــادة الى قعر حفرة منخفضة يشبه الدن، وضع دانتي الشيطان فيه ، اما المجتمع فيضع فيه المحكومين بالاعدام . وكل حياة تدفن هناك فعليها ان تودع النهار والهواء والحياة . لانها لن تخرج من هناك الا الى المشنقة او المحرقة . وفي بعض الاحيـــان تتن . والعدالة البشرية تطلق على هـذا اسم « نسيان » . وبين النـاس والمحكوم ، يشعر هذا بان كومة من الحجارة ، والسجانين ، والسجن بكامله ، تثقـل على رأسه ، وليس الحصن الكثيف سوى قفل ضخم معقّد يقفـــل عليه خارج عالم الاحياء .

في اعماق دنٍ من هـذا النوع ، في الزنزانات المظلمة التي حفرهـا القديس لويس ، في احد مخابيء التورنيل ، وضعت ازميرالدا المحكوم عليها بالشنق ، خوفاً من هربها ، مع وجود قصر العدل العملاق فوق رأسها . ذبابة مسكينة ليس باستطاعتها ان تحرك اقل شيء فيها .

لقد كانت العناية الالهية والمجتمع غير عادلين دون شك ، لأن أبهةً كهذه من الشقاء والعذاب لم تكن ضرورية لتحطيم مخلوقة هشة مثلها .

كانت هناك ، ضائعة في الظلمات ، مدفونة ، مخفية ، محجوبة . وقد يصاب بالرعشة من يتخيلها في مثل هذه الحالة، بعد ان رآها تضحك وترقص في الشمس. باردة كالليل ، باردة كالموت ، لا نسمة هواء تداعب شعرها ، ولا ضجة بشرية في اذنها ، ولا ألق نهار في عينيها ، منطوية الى قسمين ، مسحوقـة بالسلاسل ، مقعية بالقرب من جرة وقطعة خبز على قليل من القش في مستنقع ماء تكوّن تحتها بما يرشحه السجن ، دون حركة ، دون تنفس تقريباً ، حتى تكاد لا تشعر بـألم . وفوبوس ، والشمس ، والظهر ، والهواء الطلق ، وشوارع باريس ، والرقص على التصفيق، وثرثرات الحب العذبة مع الضابط، ثم الكاهن، والخنجر، والدم ، والعذاب ، والمشنقة ، كل هـــذا كان يعاود المرور في ذهنها ، تارة

كرؤيا مغنّاة ومذهبة ، وطوراً ككابوس شنيع ؛ ولكن ذلك لم يكن سوى صراع رهيب مبهم يضيع في الظلام ، او كموسيقى بعيدة تعزف على الارض فوق ولا يمكن سماعها في الاعماق التي سقطت البائسة فيها .

ومن حين وجودها هناك لم تستيقظ ولم تنم . ففي هذا البؤس ، في هـذا السجن ، لم يكن باستطاعتها تمييز السهر من النوم ، والحلم من الواقع ، وكذلك النهار من الليل . كل هذا كان ممتزجاً، محطماً ، طافياً ، منتشراً بشكل مشوش في فكرها . انها لم تكن تشعر ، ولا تعرف ، ولا تفكر . وكل ما في الامر انها كانت تحلم . وما من مخلوقة حية مثلها كانت مرتبطة بالعدم مسبقاً .

هكذا كانت ، متخدرة ، متجمدة ، متحجرة ، لا تكاد تلاحظ سوى مرتين او ثلاثة جلبة باب سقف قد انفتح فوقها في احدى النواحي ، دون أن يفسح مجالاً لدخول اي ضوء . وكانت هناك يد تقذف اليها منه كسرة خبز سوداء . أما الاتصال الوحيد الذي بقي لها مع الناس ، فهو زيارة السجان الدورية .

الا ان شيئاً واحداً كان لا يزال يشغل أذنها بصورة آلية . كانت الرطوبة فوق رأسها ترشح من خلال حجارة القبة المتعفنة، وفي فترات متساوية ، وتنفصل عنها قطرة ماء . وكانت تصغي ببلادة الى الصوت الذي تحدثه تلك القطرة من الماء وهي تسقط في المستنقع الى جانبها .

تلك القطرة من الماء الساقطة في ذلك المستنقع ، كانت هي الحركة الوحيدة التي لا تزال تحدث حولها ، وهي الساعة الوحيدة التي تسجل الوقت ، والضجة الوحيدة التي تصل اليها من كل ما على سطح الارض من ضجيج .

ولكي نقول كل شيء ، فقد كانت تحس ايضاً بين وقت وآخر ، وفي تلك البالوعة من الوحل والظلام ، بشيء بارد يمر جيئة وذهاباً على قدمها او على ذراعها . فكانت ترتعش .

لم تكن تعرف كم مضى عليها من الوقت هناك . كانت تذكر قرار اعدام لفظ في احد النواحي ضد واحد من الناس ، ثم حملت ، واستيقظت متجمدة

من البرد في الظلام والصمت . وقد حبت على يديها ، فقطعت عندئـذٍ حلقات حديدية كعبيها ورنت السلاسل . وعرفت ان كل ما حولها جدران ، وان تحتها بلاطة مغطاة بالماء وحزمة قش. ولكن بدون مصباح ولا نافذة . وعندئذ جلست على ذلك القش ، ولكي تغير الوضع احياناً كانت تجلس على آخر درجة من درج حجري موجود في سجنها . وجربت مرة ان تعد الدقائق السوداء التي كانت تقيسها لها قطرة الماء ، ولكن هذا الشغل الكئيب لدماغ مريض ما لبث ان انقطع من تلقاء نفسه في رأسها وتركها في حالة ذهول .

واخيراً ، ذات نهار او ذات ليل (لأن لنصف الليـــل ووقت الظهر نفس اللون في ذلك الضريح) ، سمعت فوقها جلبة اشد من تلك التي يحدثها البواب عادةً حين يحمل اليها الخبز والجرة . فرفعت رأسها ورأت شعاعاً محمراً يمر من خـــلال شقوق ذلك النوع من الباب او النافذة المصنوعة في قبة المخبأ . وفي الوقت نفسه سُمع صليل الحديد الثقيل . وصرّت النافذة على رزّاتها الصدئة ، فالتفتت ورأت مصباحاً ويداً ، والقسم الاسفل من جسم رجلين ؛ فقد كان الباب كثير الانخفاض فـلا تستطيـع ان ترى رأسيها . وأضرَّ بهـا النور بقوة فأطبقت عينيها .

وحين فتحتها كان الباب قد اغلق . وكان المصباح موضوعـــاً على احدى درجات السلّم ، ورجل وحيد كان واقفاً امامهـا ، ينسدل على جسده برنس اسود حتى قدميه ، ويغطي وجهه قناع من نفس اللون . ولم يكن يُرى شيء من شخصه ، لا وجه ولا يداه . كفن طويل اسود ينتصب واقفاً الا ان المرء يشعر بان هناك شيئاً يتحرك تحته . فحدقت بضع دقائق بهذا النوع من الشبح . الا ان الاثنين لم يتكلما ، كأنها تمثالان يتجابهان . وكان يبدو ان هنـــاك شيئين فقط يعيشان في القبو ، فتيـل المصباح المتوقد بسبب الرطوبـة والجو ، وقطرة الماء الساقطة من القبة والتي كانت تقطع بصوتها الرتيب هـــذا الزفير المنتظم من اللهب وتجعل ضوء المصباح يرتجف بتموجٍ ذي مركز مشترك على ماء المستنقع الممتزج بالزيت .

واخيراً قطعت السجينة الصمت وسألت :

- من انت ؟

- كاهن .

وبعثت الكلمة ، واللهجة ورنة الصوت فيها الرعشة . وتابع الكاهن بصوت خافت : أأنت مستعدة ؟

- لماذا ؟

- للموت .

فقالت : اوه ! ايكون قريباً ؟

- غداً .

اما رأسها الذي ارتفع سروراً فقد عاد وارتمى على صدرها ، وتمتمت :

- انه لوقت طويل ! ماذا يضيرهم لو جعلوه اليوم ؟

فسألها الكاهن بعد صمت :

اذن انت يائسة ؟

فأجابت : أشعر ببرد شديد .

وامسكت قدميها بيديها . وهي حركة مألوفة لدى البؤساء الذين يشعرون بالبرد ، وقد رأينا قبلاً حبيسة برج رولان تقوم بها . وكانت اسنانها تصطك .

وبدا الكاهن انه يجيل عينيه في الزنزانة من تحت غطاء رأسه ، وقال :

- بدون نور ! ولا نار ! وفي الماء ! هذا امر رهيب !

فاجابت بهيئة مندهشة اكسبها اياها الشقاء :

- نعم ، النهار لجميع الناس فلماذا لم أُعطَ سوى الليل ؟

فقال الكاهن بعد صمت طويل :

- اتدرين لماذا انت هنا ؟

فقالت وهي تمر بأصابعها الهزيلة على جفونها كأنها تساعد ذاكرتها :

- اعتقد انني عرفت السبب ، ولكني لا اعرفه ابداً .

وفجأة اخذت تبكي كطفل . وقالت :

– اريد ان اخرج من هنا يا سيدي ، اشعر بالبرد والخوف . وهناك حشرات تصعد على طول جسدي .

– حسناً ، اتبعيني .

قال ذلك وامسك بذراعها . كانت الفتاة تشعر بالبرد حتى في احشائها ، ومع ذلك فقد احدثت فيها هذه اليد تأثير البرد . فتمتمت :

– اوه ! انها يد الموت المجلّدة .. من انت اذن ؟

فرفع الكاهن غطاء رأسه . وتطلعت . انه ذلك الوجه المشؤوم الذي كان يلاحقها منذ زمن طويل ، ذلك الرأس الشيطاني الذي ظهر لها عند لافالورديل من فوق رأس فوبوس المحبوب ، وتلك العين التي رأتها للمرة الاخيرة تلمع بقرب خنجر .

هذا الظهور ، الدائم الشؤم بنظرها ، والذي كان يدفعها من شقاء الى شقاء حتى اوصلها الى العقوبة ، قد ايقظها من خدرها . وبدا لها ان القناع السميك الذي يلف ذاكرتها قد تمزق . وجميع تفاصيل مغامرتها المحزنة ، منذ المشهد الليلي عند لا فالورديل حتى الحكم عليها في قصر التورنيل ، قد عادت دفعة واحدة الى ذهنها غير غامضة ولا مشوشة كما كانت سابقاً ، بل مميزة ، نامية ، مقطعة ، خافقة ، راعبة . ان تلك التذكارات نصف الممحية ، والمنسية تقريباً ، قد احياها هذا الوجه القاتم الموجود امامها ، كما ان اقتراب النار من الورقة البيضاء يظهر الحروف غير المنظورة التي كتبت بحبر سري . لقد بدا لها ان جميع جراح قلبها قد انفتحت ونضحت بالدم دفعة واحدة . وصرخت ، ويداها على عينيها وهي ترتجف متشنجة :

آه ! انه الكاهن !

ثم اسقطت ذراعيها وقد خمدت شجاعتها وظلت جالسة منخفضة الرأس وعينها متطلعة الى الارض ، صامتة ، لا تزال ترتجف .

وكان الكاهن ينظر اليها بعين حدأة طافت ودارت في اعالي السماء حول قبّرة مسكينة متلبدة بين القمح ، ثم ظلت مدة طويلة تضيق دوائر طيرانها

الرهيبة وهي صامتة ، لتنقض فجأة على فريستها كسهم البرق وتمسك بها مختلجة بين مخالبها .

واخذت تتمتم بصوت منخفض :

– اكمل ! اكمل ! هات الضربة الاخيرة !

واغرقت رأسها برعب بين كتفيها كالنعجة التي تنتظر ضربة سكين الجزار . وقال اخيراً :

– اذن انا اسبب لك الرعب ؟

فلم تجب . وقال مكرراً :

– هل اسبب لك الرعب ؟

فتقلصت شفتاها كأنها تبتسم وقالت :

– نعم ، الجـــلاد يسخر من المحكوم عليه . انه يلاحقني منذ شهور ، ويهددني ، ويخيفني ! كم كنت سعيدة بدونه يا ربي ! انه هو الذي ألقـاني في هذه الهاوية ! يا للسماء ! هو الذي قتل ... هو الذي قتله ! حبيبي فوبوس !

وهنا انفجرت بالبكاء ورفعت عينيها الى الكاهن وقالت :

– اوه ! ايها البائس . من انت ؟ ماذا فعلت لك ؟ اذن انت تكرهني كثيراً ؟ وااسفاه ! ماذا الك عندي ؟

فصرخ الكاهن : احبك .

وتوقفت دموعها فجأة . وتطلعت اليه بنظرة بلهاء. اما هو فقد ركع امامها وشملها بنظرة ملتهبة وصرخ :

– اتسمعين ؟ احبك .

فقالت البائسة وهي ترتعش :

– يا له من حب !

فأجاب :

– حب رجل هالك .

وظل الاثنان صامتين بضع دقائق ، مسحوقين تحت أثقال تأثرهما ، هو مجنون ، وهي بلهاء .

وقال الكاهن اخيراً وقد عاد اليه هدوء غريب :

— اسمعي . ستعرفين كل شيء . سأقول لك ما لم اجرؤ على قوله لنفسي حتى الآن حين كنت استجوب ضميري سراً في تلك الساعات العميقة من الليل حيث الظلام شديد ويبدو لنا ان الله لا يرانا . اسمعي . قبل ان التقي بك ايتها الفتاة كنت سعيداً .

فتأوهت بصوت ضعيف قائلة : وانا ايضاً !

— لا تقاطعيني . — نعم كنت سعيداً . او على الاقل كنت اعتقد ذلك . كنت طاهراً ، ونفسي مليئة بالنور الصافي . ليس هناك رأس كان يرتفع اكثر كبرياء واكثر اشعاعاً من رأسي . وكان الكهنة يستشيرونني حول الطهارة ، والعلماء حول العلم . نعم ، كان العلم كل شيء بالنسبة الي . لقد كان اخاً ، واخاً يكفيني . ولم تأتني افكار اخرى إلا مع تقدم العمر . واكثر من مرة كان لحمي يتأثر لمجرد مرور امرأة . ان تلك القوة لجنس الرجل ودمه ، والتي كنت اعتقد انني خنقتها مدى الحياة وانا يافع ، رفعت اكثر من مرة سلسلة النذور الحديدية التي تدمغني ، انا البائس ، بحجارة المذبح الباردة . ولكن الصوم ، والصلاة ، والدرس ، وتقشف الدير ، اعادت الروح سيدة للجسد . ثم كنت اتجنب النساء ، ولم يكن علي الا ان افتح كتاباً حتى يختفي من دماغي كل الدخان الدنس امام تألق العلم . وبقليل من الدقائق ، كنت اشعر بهروب الاشياء الارضية الكثيفة بعيداً ، واعود فأجد نفسي هادئاً ، مبهوراً ، صافياً بوجود اشعاع الحقيقة الابدية المطمئن ، وما دام الشيطان لم يرسل لمهاجمتي سوى اشباح مبهمة من النساء كانت تمر متفرقة امام عيني ، في الكنيسة، في الشوارع، في الحقول ، ولا تعود الي في احلامي ، فانني كنت اتغلب عليه بسهولة . واأسفاه ! اذا كان النصر قد افلت مني فان الخطأ يقع على الرب الذي لم يصنع الانسان والشيطان بقوى متعادلة . — اسمعي ففي ذات يوم ...

هنا توقف الكاهن وسمعت السجينة تأوهات خرجت من صدره واحدثت صوت حشرجة وانتزاع . وقال متابعاً :

— ... كنت ذات يوم مستنداً الى نافذة صومعتي... — اي كتاب كنت اقرأ اذن ؟ — كنت اقرأ . والنافذة تطل على ساحة . فسمعت صوت طبل وموسيقى . وغضبت لازعاجي في احلامي وتطلعت الى الساحة . ان ما رأيته كان آخرون غيري قد رأوه ، الا انه مشهد لم يصنع لاجل العيون البشرية . فهناك ، في وسط الشارع . وكان الوقت ظهراً . — والشمس مشرقة . — كانت مخلوقة ترقص ، مخلوقة كثيرة الجمال لو كانت موجودة حين اصبح الرب رجلاً لفضلها على العذراء ، واختارها أماً له ، وتمنى ان يولد منها ! كانت عيناهـــا سوداوين رائعتين ، وهناك بعض الشعرات التي اخترقتهـا الشمس وسط شعرها الاسود كانت تشقرّ كخيوط ذهبية . وكان قدماها يختفيان في حركاتها كأشعة دولاب يدور بسرعة . وحول رأسها ، وفي غدائرها السوداء صفائح معدنيـة تتوهج كالشمس ، وتشكل على جبهتها تاجاً من النجوم . وثوبها المبذور بصفائح ذهبية وفضية صغيرة كان يتلألأ بالازرق تغرز فيه الف شرارة كليلة صيف . وذراعاها اللدنان الاسمران ينعقدان وينحلاّن حول قامتها كوشاحين . وكان شكل جسدها ذا جمال اخاذ . اوه ! يا للصورة الرائعة التي كانت تنفصـــل كشيء ساطع في النور حتى في الشمس ! وااسفاه ، ايتها الفتاة ! لقد كنت انت . انها مفاجأة منتش مفتون . لقد تطلعت اليك . تطلعت بشكل انني ارتعشت رعباً . فقد شعرت ان القدر امسك بي .

وتوقف الكاهن الضيق النفس لحظة ، ثم تابع :

— ... حاولت وانا لا ازال مفتتناً نصف افتتان ، ان اتعلق بشيء واحفظ نفسي من سقطتي ، فتذكرت مكائد الشيطان التي نصبها لي في السابق . الا ان جمال المخلوقة الماثلة امامي كان فوق الجمال البشري ، فهو جمال لا يأتي الا من السماء او الجحيم . ولم تكن فتاةً عاديةً جبلت من طينتنا البشرية وأنيرت بفقر من الداخل بشعاع نفس امرأة متذبذب . لقـــد كانت ملاكاً ! ولكن من

الظلام ، ولكن من النار وليس من النور . وفي اللحظة التي كنت افكر بذلك رأيت الى جانبك معزاة ، بهيمة من مجمع السحرة كانت تنظر الي ضاحكة . وقد جعلت لها شمس الظهيرة قروناً من نار . وعندئذ توقعت فخ الشيطان ولم اشك ابداً انك آتية من الجحيم ، وانك لم تأت منه الا لهلاكي . لقد اعتقدت بذلك .

وهنا تطلع الكاهن في وجه السجينة واضاف ببرود :

- ولا ازال اعتقد بذلك . - الا ان السحر عمل عمله شيئاً فشيئاً ، وكان رقصك يدور في دماغي ، وشعرت بالرقى المؤذية السرية تكتمل في نفسي ، ونام فيها كل ما يجب ان يستيقظ . وقد وجدت لذة في ان اجعل هذا النوم يأتيني كأولئك الذين يموتون في الثلج . وفجأة بدأت تغنين . ماذا باستطاعتي ان افعل ، انا البائس ؟ كان غناؤك اكثر سحراً من رقصك . اردت ان أهرب . مستحيل . كنت مسمّراً ، كانت جذوري غارزة في الارض . وكان يخيل الي ان رخام البلاط صعد الى ركبتي ، ويجب ان يبقى الى النهاية . كانت رجلاي من جليد ، ورأسي في غليان . ويمكن انك اشفقت اخيراً علي فكففت عن الغناء واختفيت . واختفى انعكاس الرؤيا المبهرة ورنة الموسيقى الساحرة تدريجياً من عيني ومن اذني . وحينئذٍ سقطت في زاوية النافذة اكثر تصلباً واكثر ضعفاً من تمثال قد اقتُلع . وايقظني جرس صلاة الغروب ، فنهضت وهربت ، ولكن مع الاسف ! كان في داخلي شيء قد سقط ولا يستطيع النهوض ثانية ، شيء مما يحدث بغتة ولا يمكن الهرب منه .

ووقف قليلاً ثم تابع :

- نعم ، منذ ذلك اليوم اصبح في داخلي رجل ما كنت لأعرفه . لقد اردت استعمال جميع ادويتي ، الدير ، المذبح ، الشغل ، الكتب . جنون ! اوه ! ليرنّ العلم في الفراغ حين يصطدم يائساً برأسٍ مليء بالعاطفة ! اتدرين ايتها الفتاة ماذا كنت ارى منذ ذلك الوقت كل يوم بين الكتاب وبيني ؟ انت ، خيالك ، صورة الظهور الساطع الذي اجتاز الفضاء ذات يوم امامي . ولكن

تلك الصورة لم يكن لها نفس اللون ؟ فقد كانت قاتمة ، محزنة ، ظلامية كالدائرة السوداء التي تلاحق وقتاً طويلاً نظر الحمقاء التي حدّقت بالشمس .

لم استطع التخلص من الاغنية التي كنت اسمعها دائماً تطن في رأسي ، واشاهد دائماً الاقدام ترقص على كتاب الصلاة ، واشعر دائماً في الليل ، في الحلم ، بشكلك ينزلق على لحمي ، واردت ان اراك وألمسك ، واعرف من انت ، وارى اذا كنت سأجدك تشبهين الصورة المثالية التي بقيت لي منك ، فأحطم حلمي بالواقع . وعلى كل حال كنت آمل بانطباع جديد يمحو الاول ، لان الاول اصبح غير محتمل بالنسبة الي . وبحثت عنك ورأيتك . يا للبؤس ! حين رأيتك مرتين اردت ان اراك الف مرة، ان اراك دائماً . وحينئذٍ – كيف اوقف منحدر الجحيم هذا ؟ -- حينئذٍ لم اكن ملكاً لنفسي . والطرف الآخر من الخيط الذي ربطني فيه الشيطان بالاجنحة كان قد عقده بقدمك . واصبحت مبهماً تائهاً مثلك . وكنت انتظرك تحت مداخل البيوت ، وأرصدك في زاوية الشوارع ، وأرقبك من اعلى برجي . وفي كل مساء كنت ادخل من جديد في نفسي وانا اكثر فتنة واكثر يأساً ، واكثر سحراً ، واكثر ضياعاً .

ولقد رأيت من انت ، غجرية ، بوهيمية ، جيتان ، زنغارا ، فكيف اشك بالسحر ؟ اسمعي . لقد ساورني الامل في ان تنقذني الدعوى من الفتنة . هناك ساحرة سحرت برونو داست فأحرقها وشفي . كنت اعرفه ، وكنت اريد ان اجرب الدواء . جربت اولاً ان امنعك من الدخول الى صحن كنيسة نوتردام آملاً ان انساك اذا لم تعودي . فلم تكترثي ورجعتِ ، ثم فكرت باختطافك . وحاولت ذلك ذات ليلة . كنا اثنين وأمسكنا بك آنذاك حين جاء ذاك الضابط المنكود وانقذك . وهكذا بدأ شقاؤك وشقائي وشقاؤه . واخيراً ، وانا غير مدرك ما اعمل وما سيحل بي ، وشيت بك الى المحكمة الاسقفية . كنت اعتقد انني سأشفى مثل برونو داست . وكنت افكر ايضاً بشكل مشوش ان الدعوى ستسلمك لي ، وانني سآخذك في السجن ،

وسأحصل عليك لانك لا تستطيعين الافلات مني هنا ، وان علي ان املكك انا بدوري بعدما ملكتني وقتاً طويلًا . والانسان حين يفعل الشر يجب ان يفعله كله ، ومن الجنون التوقف في الوسط في العمل الشنيع . ان لطرف الجريمة هذيان سرور . وكاهن وساحرة بامكانها ان يذوبا لذةً على حزمة قش في زنزانة .

اذن فقد وشيت بك . ومنذ ذلك الوقت كنت اخيفك عند لقائي بك . والمؤامرة التي نسجتها ضدك ، الزوبعة التي كدستها على رأسك كانت تتفلت مني بشكل تهديدات وبروق . الا اني ما زلت متردداً . فقد كان لمشروعي نواحي راعبة تجعلني اتراجع .

من الممكن ان اقلع عنه ، ومن الممكن ان يجف تفكيري الشنيع في دماغي دون ان يحمل ثمرة . كنت اعتقد ان علي دائماً ان اتابع او اقطع هذه الدعوى . ولكن كل تفكير سيء يكون خالياً من الرحمة ويريد ان يصبح عملًا ؛ ولكن هنا ، حيث كنت اعتقد انني عظيم القدرة ، كان القدر اشد قوة مني . واسفاه ! وااسفاه ! انه الذي اخذك وأسلمك الى دواليب الآلة المرعبة التي بنيتها في الظلام ! اسمعي . لقد بلغت النهاية .

فذات يوم – في نهار شامس آخر ، – رأيت رجلًا يمر امامي وهو يلفظ اسمك ويضحك ، والفجور في عينيه . يا للعنة ! وتبعته . وانت تعرفين الباقي .

وسكت . اما الفتاة فلم تستطع ان تجد سوى كلمة :

– اوه ! يا عزيزي فوبوس !

فقال الكاهن وهو يمسك يدها بعنف :

– ليس هذا الاسم ! لا تلفظي هذا الاسم ! أوه ! كلانا بائس . وهذا الاسم هو الذي اضاعنا ! او بالاحرى اهلكنا بعضنا بعضاً بلعب القدر الذي لا يمكن تفسيره . – انك تتألمين ، اليس كذلك ؟ ويعتريك البرد ، وجعلك الليل عمياء ، والزنزانة تحيط بك . ولكن لا بد ان يكون في اعماق نفسك

بعض الضوء ، ولو لم يكن سوى حبك الطفولي لهذا الرجل الفارغ الذي كان يلعب بقلبك ! بينما انا ، انني احمل السجن داخل نفسي ، وفي داخل نفسي الشتاء ، والجليد ، واليأس ، الليل في نفسي . اتعرفين كم تعذبت ؟ اني حضرت دعواك . كنت جالساً على مقعد القضاة . نعم ، تحت ثوب من ملابس الكاهن يوجد التواءات احد الهلكى . وكنت هناك حين جيء بك ؛ وكنت هناك حين استجوبوك . — مغارة ذئاب ! لقد كانت هي جريمتي ، مشنقتي التي رأيتها تنتصب ببطء على جبهتك . وكنت هناك عند كل شاهد ، وعند كل برهان ، وعند كل مرافعة . كنت استطيع ان اعد كل خطوة من خطواتك على الطريق المؤلم . وكنت هناك ايضاً عندما أقدم ذلك الحيوان المفترس . — اوه ! لم اكن اتوقع التعذيب . — اسمعي . لقد تبعتك في غرفة الالم ، ورأيتك تخلعين ملابسك ، وايدي الجلاد الفظيعة تحركك وانت نصف عارية . ورأيت قدمك . ذلك القدم الذي كنت اود ان اطبع عليه قبلة واحدة مقابل امبراطورية ثم اموت . ذلك القدم الذي اشعر بكثير من اللذة وهو يسحق رأسي . رأيته يوضع في الحذاء الرهيب الذي يجعل من اعضاء اي كائن حي وحلاً دامياً . اوه ! بائس ! بينما كنت ارى ذلك ، كنت احمل تحت ملابسي خنجراً أحرث به صدري . ولدى الصرخة التي انطلقت منك غرزته في لحمي ؛ ولدى الصرخة الثانية كان سيدخل في قلبي ! انظري . اعتقد انه لا يزال ينزف دماً .

وفتح قفطانه وكان صدره بالفعل ممزقاً كما لو كان بأظافر نمر . وفي خاصرته جرح عريض لم يندمل جيداً .

وتراجعت السجينة من الرعب . وقال الكاهن :

— اوه ! ايتها الفتاة ! اشفقي علي ! اتظنين نفسك بائسة ، واأسفاه ! واأسفاه ! انت لا تعرفين ما هو البؤس . اوه ! ان تحب امرأة ! ان تكون كاهناً ! ان تكون مكروهاً ! الحب بكل ما في النفس من فورة ، والشعور بانك تعطي مقابل اقل ابتسامة منها دمك ، وأحشاءك ، وسمعتك ، وسلامتك ،

والخلود والابدية ، تلك الحياة الدنيا والحياة الاخرى ؛ والتحسر لأنك لم تكن ملكاً ، عبقرياً ، امبراطوراً ، ملاكاً ، إلهاً لتضع اعظم عبد تحت قدميها ، تعانقها ليلاً ونهاراً باحلامك وافكارك ؛ وتراها مدللة ً بملابس جندي ! ولا تملك ان تقدم لها سوى جبة قذرة لكاهن تخافه وتتقزز منه ! وتكون موجوداً بغيرتك وهياجك حين تجزل العطاء لبائس صلف ، أبله ، من كنوز الحب والجمال ! وترى هذا الجسد الذي يحرقك شكله ، والصدر الكثير الحلاوة ، واللحم المرتعش المحمر ّ تحت قبلات رجل آخر ! اوه ايها السماء ! تحب قدمها ، ذراعها ، كتفها ، وتحلم بشرايينها الزرقاء وبشرتها السمراء الى درجة بقائك منطوياً على نفسك ليالي كاملة على بلاط صومعتك ، ثم ترى جميع ما تحلم به من ملاطفات لها تنتهي الى العذاب ! ولا تنجح الا في ان تجعلها تنام على السرير الجلدي ! اوه! هذه هي الكمّاشات الحقيقية المحماة في نار جهنم ! اوه ! سعيد ذلك الذي يُنشر بين لوحين ، ويجزّأ بين اربعة خيول ! - انت تعرفين ما هي هذه العقوبة التي جعلوك تقاسينها في الليالي الطويلة ، وشرايينك التي تغلي ، وقلبك المنفطر ، ورأسك المحطم ، واسنانك العاضّة على يديك ؛ جلادون متكالبون يديرونك دون انقطاع ، كما على مشواة حامية، على فكرة حب وغيرة ويأس ! رحمة ً ايتها الفتاة ! هدنة للحظة ! قليل من الرماد على تلك الجمرة ! اتوسل اليك ان تمسحي العرق السائل بقطرات كبيرة على جبهتي ! ايتها الطفلة ! عذبيني بيد ، ولكن لاطفيني بالاخرى ! اشفقي علي ايتها الفتاة ! اشفقي علي !

وتقلب الكاهن في الماء على البلاط واخذ يضرب رأسه بزوايا الدرجات الحجرية . وكانت الفتاة تصغي اليه ، وتنظر اليه ، وعندما سكت منهوكاً لاهثاً ، رددت بصوت منخفض :

– اوه ! يا عزيزي فوبوس !

وجر الكاهن نفسه نحوها على ركبتيه ، وصرخ :

– اتضرع اليك ، اذا كان لديك شيء من المحبة فلا ترفضيني ! اوه! احبك !

انا بأس ! حين تلفظين ذلك الاسم ايتها المنكودة فكأنك تسحقين جميع عروق قلبي بين اسنانك ! الرحمة ! ان كنت آتية من الجحيم فسأذهب اليه معك ، اني افعل كل شيء لاجل ذلك . والجحيم حيث تكونين يصبح جنةً لي . ورؤيتك اكثر فتنة في نظري من رؤية الله ! اوه ! قولي ! الا تريدينني ؟ أعتقد ان الجبال ستتحرك في اليوم الذي ترفض فيه امرأة حباً كهذا . اوه ! لو شئت ! اوه ! كم باستطاعتنا ان نكون سعداء ! سنهرب ، - سأجعلك تهربين ، - سنذهب الى مكانٍ ما ، سنبحث عن مكان على الارض تكون فيه الشمس والاشجار والسماء الزرقاء اكثر وجوداً . سنحب بعضنا بعضاً ، وسنسكب روحينا الواحدة في الاخرى . وسيكون لدينا عطش لا يرتوي من انفسنا ونروي غليله مشتركين وبدون انقطاع من ذلك الكأس الذي لا ينضب من الحب .

فقاطعته بضحكة مرعبة متفجرة قائلة :

- انظر اذن يا ابي . هناك دم وراء اظافرك .

فظل الكاهن بضع لحظات منذهلاً ، وعينه محدقة بيده . واخيراً تابع كلامه بعذوبة غريبة :

- لا بأس ! حقريني ، اسخري مني ، ارهقيني . ولكن تعالي ، تعالي . لنسرع . قلت لك ان مشنقة ساحة غريف موعدها غداً ، اتعلمين ؟ انها دائماً على استعداد . ما افظع هذا ! ان اراك تسيرين في تلك العربة ! اوه ! الرحمة ! - لم اشعر الى اية درجة احبك كما شعرت الآن . - اوه ! اتبعيني . سيكون لديك الوقت الكافي لتحبيني بعد ان انقذك . وستكرهينني ايضاً بقدر ما تشائين . ولكن تعالي . غداً ! غداً ! المشنقة ! عقابك ! اوه ! اهربي ! ووفّريني .

وامسك بذراعها ليجرها وهو شارد الفكر . فتطلعت اليه بعينها الثابتة وسألت :

- ماذا حل بحبيبي فوبوس ؟

فقال الكاهن وقد افلت ذراعها :

– آه ! انت بدون شفقة .

فرددت ببرود : ماذا حل بفوبوس ؟

فصرخ الكاهن : لقد مات .

فقالت ، وهي جليدية جامدة :

– مات ! اذن ماذا تحدثني عن الحياة ؟

اما هو فلم يسمعها ، وكان يقول كأنه يحدث نفسه :

– اوه ! نعم ! يجب ان يكون قد مات . لقد انغرس النصل كثيراً . اعتقد انني لمست القلب برأسه . اوه ! لقد كنت اعيش حتى طرف الخنجر !

وانقضت الفتاة عليه كنمرة هائجة ودفعته على درجات الدرج بقوة غير طبيعية وهي تصرخ :

– اذهب ايها المسخ ! اذهب ايها القاتل ! دعني اموت ! ليشكل دمنا نحن الاثنين لطخة ابدية على جبهتك ! ان اكون لك ، ايها الكاهن ! ابداً ! ابداً ! لن يجمعنا شيء حتى ولا الجحيم . اذهب ايها اللعين . ابداً !

وترنح الكاهن على الدرج وخلّص قدميه من طيات ثوبه وهو صامت ، واخذ مصباحه ، وصعد متمهلاً الدرجات الموصلة الى الباب ؛ وفتح ذلك الباب وخرج .

وفجأة رأت الفتاة رأسه يعود الى الظهور ، وكان ذا تعبير مخيف ، وصرخ بحشرجة هياج ويأس :

– اقول لك انه مات !

فسقطت ووجهها باتجاه الارض ؛ ولم يعد يسمع في الزنزانة سوى زفرات قطرة الماء التي كانت تبعث الاختلاج في المستنقع في الظلام .

٥

الأم [1]

لا اعتقد ان هناك في الدنيا شيئاً ادعى للضحك من الافكار التي تستيقظ في قلب ام لدى رؤية حذاء ولدها . ولا سيما اذا كان الحذاء حذاء العيد ، وايام الآحاد ، والعماد ، الحذاء المطرز الى ما تحت النعل ، حذاء لم يخطُ الطفل به اية خطوة بعد . هذا الحذاء فيه الكثير من الظرافة والصغر ، ويستحيل عليه السير الا بنظر الام التي كأنها ترى فيه طفلها . فهي تبتسم له ، وتقبله ، وتحدثه ، وتتساءل اذا كان من الممكن فعلًا ان يكون القدم صغيراً بهذا الشكل ؛ واذا كان الطفل غائباً فيكفي حذاء صغير جميل ليعود الكائن الحلو الرخص الى امام عينيها . تظن انها تراه ، فتراه بكامله ، حياً ، مرحاً ، بيديه الرقيقتين ورأسه المستدير ، وشفتيه النقيتين ، وعينيه الصافيتين ببياضها الازرق. واذا كان الوقت شتاء فهو هناك يدب على البساط ،ويتسلق مقعداً صغيراً بعناء ، وترتجف الام خوفاً من اقترابه من النار . واذا كان الفصل صيفاً فانه يزحف في الدار ، في الحديقة ، وينتزع العشب من بين البلاط ويتطلع بسذاجة الى الكلاب والخيول الكبيرة دون خوف ، ويلعب بالاصداف والزهور ، ويسبب التوبيخ للبستاني الذي يجد الرمل في حاشية الحديقة والتراب في الممرات. كل شيء يضحك ، ويلمع ، وكل شيء يلعب حوله مثله ، حتى نسمة الهواء

---

١ – عنوان هذا الفصل في المخطوطة : « عطش الثأر » .

وشعاع الشمس اللذان يلعبان متنافسين في ضفائر شعره اللعوب. ان الحذاء يُري الام كل ذلك ويجعلها تذيب قلبها كما تذيب النار الشمع .

ولكن حين يُفقد الولد ، فان تلك الالوف من صور المرح ، والفتنة والحنو التي تتزاحم حول الحذاء الصغير تصبح اشياء مخيفة . والحذاء الجميل المطرز ليس سوى اداة تعذيب يسحق قلب الام الى الابد . انه دائماً نفس العرق الذي يهتز ، العرق الاكثر عمقاً ، والاكثر حساسية ؛ ولكنه شيطان يقرصها بدلاً من ملاك يلاطفها .

وذات صباح ، عندما ارتفعت شمس ايار في احدى تلك السموات الزرقاء الفاتحة حيث غاروفالو[1] يحب ان يعين اعماله في إنزال الصليب ، فان حبيسة برج رولان سمعت جلبة عجلات ، وخيول ، وحدائد في ساحة غريف . فاستيقظت قليلًا ، وعقدت شعرها على اذنيها لكي لا تسمع واخذت تتأمل وهي راكعة ذلك الشيء العادم الحياة الذي كانت تعبده منذ خمس عشرة سنة . هذا الحذاء الصغير ، وقد قلت ذلك قبلًا ، كان هو الكون بالنسبة اليها . وكان تفكيرها منحصراً فيه ويجب الا يخرج منه الا الى الموت. اما ما كانت تقذفه نحو السماء من اللعنات اللاذعة والشكاوى المؤثرة ، والتضرعات والدموع ، بشأن تلك اللعبة من الساتان الوردي ، فان قبو برج رولان وحده يعرفها . ولم ينتشر يأس بهذا القدر على شيء اكثر لطافة وأكثر ظرافة .

في ذلك الصباح بدا ألمها متفلتاً بشكل اكثر عنفاً من عادته . وقد تناهى صوتها الى الخارج وهي تنوح بصوت مرتفع رتيب يجرح القلب . وكانت تقول :

– اوه يا بنيتي ! ابنتي ! ابنتي الصغيرة العزيزة المسكينة ! اذن لن اراك ابداً . اذن انتهى كل شيء ! يخيل الي دائماً ان ما جرى كان البارحة ! يا الهي ، يا الهي . لتستعيدها بهذه السرعة ما كان يجب ان تعطيني اياها .

---

١ – بنفانوتوتيزي الملقب بغاروفالو : رسام ايطالي (١٤٨١ – ١٥٥٩) .

اذن فأنت لا تعرف ان ابناءنا ينتمون الى بطوننا ، وان الأم التي تفقد ولدها تفقد ايمانها بالله ? — آه ! انا البائسة لانني خرجت في ذلك النهـار ! يا رب ! يا رب ! لتنتزعها مني هكذا يجب الا تكون رأيتني معها ابـــداً حين كنت ادفئها فرحةً بناري ، وحين كانت تضحك لي وهي ترضع ، وحين كنت ارفع قدميهــــا الصغيرين الى صدري حتى شفتي ? اوه ! لو كنت رأيت ذلك يا إلهي لكنت اشفقت على فرحي ، ولما كنت انتزعت مني الحب الوحيد الذي بقي في قلبي ! اكنت اذن مخلوقة بائسة بهذا الشكل يا رب حتى لم تستطع ان تنظر الي قبل ان تحكم علي ? — وااسفاه ! وااسفاه ! هذا هو الحذاء ؛ ولكن اين القدم ? اين الباقي ? اين الطفلة ? ابنتي ? ابنتي ، ابنتي ! ماذا فعـــلوا بك ? يا رب ، ردها علي ، فقد دميت ركبتاي منذ خمس عشرة سنة وانا اصلي لك ، يا ربي ، الا يكفي هذا ? ردها علي ولو ليوم ، لساعة ، لدقيقة ، لدقيقة يا رب ! وبعد ذلك اقذف بي الى الشيطان ، الى الابد ! اوه ! لو كنت اعرف اين انسحب ذيل ثوبك لتعلقت به بيدي الاثنتين ؛ يجب ان تعيـــد إلي طفلتي ! الم يستثر حذاؤها الصغير الجميل شفقتك يا رب ? انستطيـع ان تحكم على ام بهذه العقوبـة طوال خمس عشرة سنة ? ايتها العذراء الصالحة ، يا عذراء السماء ! طفلي يسوع لي ، لقد أخذ مني ، سُرق مني ، وأكل عند منبت الخلنج ، وشُرب دمـه ، ومُضغت عظامه ؛ ايتها العذراء الصالحة اشفقي علي ! ابنتي ! اني بحاجـــة الى ابنتي . ماذا يفيدني اذا كانت في الجنة ? اني لا اريد ملاكك ، بل اريد ابنتي ! اني لبؤة واريد شبلي . — اوه ! سألتوي على الارض . سأحطم الحجر بجبهتي ، وسأهلك . سألعنك ايهــــا الرب اذا احتفظت لي بابنتي ! انت ترى ذراعيّ مكدودتين يا رب . الا يشفق الله علي ? — اوه ! لا تعطني سوى الملح والخبز الاسود على ان تعـود ابنتي وتبعث في نفسي الدفء كالشمس ! وااسفاه ! الله ربي ، لست سوى خاطئة صغيرة ؛ ولكن ابنتي تجعلني نقية . كنت مليئـــة بالدين في سبيل حبها ؛ وكنت اراك من خلال ابتسامتها كما من فتحـــة في السماء . — اوه ، لو استطيع مرة واحدة فقط ، مرة واحدة ايضاً ، ان ألبس

هذا الحذاء لرجلها الصغيرة الوردية وأموت ، ايتهـــا السيدة العذراء ، وانا اباركك ! آه ! خمس عشرة سنة ! انها الآن كبيرة ! يا للطفلة المسكينة ! ماذا ! اذن صحيح بانني لن اراها حتى ولا في السماء ! لأنني لن اذهب الى السماء . أوه ، اي شقاء هذا في قولي ان هذا حذاؤها ، ولا يكون بعد ذلك شيء !

وارتمت المسكينة على الحذاء ، وهو عزاؤها ويأسها منذ كثير من السنين ، وتمزقت احشاؤها نحيبـــاً كاليوم الاول . وكل يوم هو اليوم الاول بنظر الام التي تفقد طفلها . وهذا الألم لا يشيخ وثيـــاب الحداد تفنى وتبيضّ . ولكن القلب يظل اسود .

في تلك اللحظة ، مرت اصوات نضرة مرحة لاولاد امـــام الجحر . وفي كل مرة يقرع الاولاد نظرها واذنها كانت الام المسكينة تسرع الى الزاوية الاكثر ظلاماً من قبرها حتى ليخيل انها تحاول ان تغمس رأسهـــا في الحجر حتى لا تسمعهم . اما في هذه المرة فبالعكس ، اذ انتصبت مرتجفة واصغت بشراهة . وقد قال احد الاولاد :

– اليوم ، سيشنقون غجرية .

وبالقفزة الفجائية لذلك العنكبوت الذي رأيناه ينقض على ذبابة عنـــد اهتزاز نسيجه ، فقد ركضت الى نافذتهـــا المطلة على ساحة غريف كما نعلم . وبالفعل ، فقد كان هناك سلّم منصوب بقرب المشنقة الدائمة ، وكان رئيس العمـــل منهمكاً باصلاح السلاسل الصدئة بسبب المطر . وهناك بعض الناس حولها .

واصبح جمهور الاولاد الضاحك بعيداً . وبحثت الحبيسة بعينيها عن احـد المارة لتسأله . فشاهدت بجانب مقرها كاهناً يتظاهر بقراءة كتاب الصلاة العام . ولكنه كان مشغولاً به اقل من انشغاله بالمشنقة التي كان يلقي عليها بين وقت وآخر نظرة قاتمة شرسة . فعرفت به الخوراسقف دي جوزا ، الرجل المقدس ، فسألته :

-- من سيشنقون هناك يا ابي ؟
فتطلع اليها الكاهن ولم يجب . وكررت سؤالها فقال :
- لا ادري .
فقالت الحبيسة :
- لقد كان هنا اولاد يقولون انها غجرية .
فقال الكاهن : اعتقد ان نعم .
وعندئذ انفجرت باكيت لاشانت فلوري بضحكة ضبع . وقال الخوراسقف :
- اذن انت تكرهين الغجر كثيراً ايتها الاخت ؟
فهتفت الحبيسة :
- اجل اكرههن . فهن خفافيش ظلام ، سارقات اطفال ! وقد التهمن ابنتي ، ولدي ، ولدي الوحيد ! لم يبق لي قلب ، فقد اكلنه !
كانت مخيفة . وكان الكاهن يتطلع اليها ببرود . وتابعت :
- هناك واحدة بشكل خاص اكرهها وألعنها ؛ انها صبية بعمر ابنتي لو لم تأكل امها ابنتي . وفي كل مرة تمر هذه الافعى الشابة من امام صومعتي فانها تقلب دمي .
فقال الكاهن المتجمد كتمثال ضريح :
-- حسناً ايتها الاخت ، افرحي ، انها هي التي سترينها تموت .
وسقط رأسه على صدره وابتعد متمهلاً .
ولوت الحبيسة ذراعيها من الفرح وصرخت :
- لقد تنبأت لها بانها ستصعد الى المشنقة ؛ شكراً ايها الكاهن .
واخذت تسير بخطوات عريضة امام حديد نافذتها ، مشعثة الشعر ، ملتهبة العين ، صادمة الجدار بكتفها كذئبة في قفص أصابها الجوع منذ وقت طويل وشعرت باقتراب ساعة الطعام .

٦

قلوب ثلاثة رجال صنعت بطرق مختلفة

إلا ان فوبوس لم يكن ميتاً . فرجال من هذا النوع حياتهم قاسية . وحين قال الاستاذ فيليب لوليه محامي الملك الاستثنائي لازميرالدا : « انه يموت » كان ذلك عن خطأ او عن مزاح . وحين ردد الخوراسقف على المحكومة : « انه مات » فالواقع انه لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك ولكنه كان يعتقد به ، ويعتمد عليه ، ولا يشكّ به ، ويرجو حدوثه . لقد كان من الصعب عليه ان يعطي المرأة التي يحبها اخباراً حسنة عن منافسه . وكل انسان مكانه يفعل مثله .

ولا يعني ذلك ان جرح فوبوس لم يكن خطراً ، ولكنه كان اقل مما توهم الكاهن . فالطبيب الذي حمله اليه جنود الحرس في اللحظة الاولى ظل خائفاً على حياته ثمانية ايام ، وقد قال له ذلك باللاتينية . والشباب يتفوق دائماً ؛ ولمت الطبيعة بلحية الطبيب وانقذت المريض ، وهذا امر يحدث غالباً رغم التخمينات والتشخيصات . بينما كان لا يزال مضطجعاً على فراش الطبيب الذي تعرض لاستجوابات فيليب لوليه الاولى ومحققي المحكمة الاسقفية ، الامر الذي ازعجه جداً . وفي صباح يوم جميل ، شعر بتحسن فترك مهاميزه الذهبيين أجرة للطبيب الصيدلي وهرب . وبعد ، فهذا لم يحدث اي اضطراب للتحقيق في القضية . فالقضاء في تلك الايام كان قليلاً ما يهتم بوضوح ونظافة الدعوى الجنائية ، شرط ان يشنق المتهم ، وهذا كل ما كان يلزمه ، يضاف الى ذلك ان لدى

القضاة اثباتات كافية ضد ازميرالدا . فقد كانوا يعتقدون ان فوبوس قد مات . وان كل شيء قد قيل .

وفوبوس من ناحيته لم يهرب بعيداً . بل ذهب ، بكل بساطة ، ليلتحق بفرقته المستقرة في كو - ان - بري ، في ايل دي فرانس على بضع مراحل من باريس .

وبعد كل ذلك لم يكن يحلو له ان يظهر بشخصه في هذه الدعوى . فقد كان يشعر شعوراً غامضاً انه سيكون ذا مظهر مضحك فيها . وفي اعماقه كان يفكر كثيراً بالقضية كلها . ولما كان غير ورع ومتمسكاً بالخرافات ككل جندي فانه لم يكن سوى جندي حين يستجوب نفسه حول هذه المغامرة ، ولم يكن مطمئناً من ناحية المعزاة ، وحول الطريقة الغريبة التي التقى فيها بازميرالدا ، وحول الطريقة التي لا تقل غرابة حين جعلته يعرف حبها ، وحول صفتها كغجرية ، واخيراً حول الراهب الشرير . كان يستشف في هذه الحكاية سحراً اكثر من الحب ، وعلى الارجح فالساحرة يمكن ان تكون هي الشيطان ؛ واخيراً مهزلة ، او لكي نتكلم لغة ذلك العصر ، لغز غير لطيف كان يلعب فيه دوراً احمق ، دور الضربات والسخريات . وكان الضابط خجلاً بذلك . وكان يشعر بهذا النوع من الخجل الذي حدده لافونتين بشكل معجب :

« خجول كثعلب أسرته دجاجة [1] » .

ومع ذلك فكان يأمل ان لا تشيع القضية ، وان يظل اسمه غائباً فيها ، ولا يُلفظ هذا الاسم الا قليلاً وعلى كل حال ان لا يدوي خارج محكمة تورنيل . وفي ذلك لم يخطىء . ولم يكن يوجد آنذاك « صحف محاكم » وبما انه لم يكن يمر اسبوع دون ان يُلقى مزيف نقود على الماء الغالي ، او تشنق ساحرة ، او يُحرق ملحد في احدى « عدالات » باريس التي لا تحصى ، فقد

---

١ - خرافة الثعلب واللقلق .

كان الناس معتادين على رؤية تيميس[١] Themis الاقطاعية المرمة على جميع مفارق الطرق وهي عارية الذراعين ، مشمرة الكمين تقوم بعملها بالمداري والسلالم وأوتاد التعذيب ، بحيث لا يكاد الناس يلتفتون اليها . وكان علية القوم في ذلك الزمن لا يكادون يعرفون اسم المحكوم الذي كان يمر في زاوية الشارع . اما عامة الشعب فقد كانوا يشبعون من هذه الاطعمة الغليظة . وكان تنفيذ حكمٍ يعتبر حادثاً عادياً في الطريق العام كمطفأة الفحام ومسلغ السالخ . ولم يكن الجلاد سوى نوع من الجزار ، ولكنه اكثر تجهماً .

اذن فقد أراح فوبوس عقله بسرعة من ناحية ازميرالدا الساحرة او سيميلار كما كان يقول ، وكذلك من ناحية طعنة خنجر الغجرية او الراهب الشرير (قليلاً ما كان يهمه) ومن ناحية الدعوى وما ينتج عنها . ولكن منذ ما اصبح قلبه خالياً من هذه الناحية ، فان صورة فلور دي لي عادت اليه . ان قلب الضابط فوبوس كالطبيعة في ذلك الزمن ، يخشى الفراغ .

اذن فقد كانت اقامته في كو - ان - بري تافهة ، وهي قرية من البياطرة ورعاة البقر ذوي الايدي المشققة . حبل طويل من المساكن الحقيرة والاكواخ تحيط بالطريق الكبرى من الجهتين الى مسافة نصف فرسخ ؛ انها اخيراً « ذيل[٢] » .

كانت فلور دي لي هي غرامه قبل الاخير ، وهي فتاة جميلة مع بائنة جذابة .

اذن ففي صباح جميل وقد شفي تماماً ، معتقداً ان قضية الغجرية يجب ان تكون قد انتهت وتنوسيت تماماً بعد مرور شهرين ، وصل الفارس العاشق الى باب مسكن غونديلوريه وحصانه يضرب الارض بقائمتيه الاماميتين .

ولم يلقِ بالاً لحشدٍ عديد كان يلهو في باحة الكنيسة امام مدخل

---

١ - الهة العدالة . وكانت تمثل مع ميزان .

٢ - لأن اسم القرية (كو - ان - بري) اي ذيل في بري .

نوتردام ؛ فقد تذكر انهم في فصل الشر ، وافترض وجود موكب او عيد العنصرة او اي عيد ، فربط جواده في حلقة البوابة وصعد فرحاً الى خطيبته الجميلة .

وكانت وحيدة مع امها .

وكانت فلور دي لي لا يزال يثقل على قلبها مشهد الساحرة ومعزاتها وأبجديتها الملعونة وكذلك تغيب فوبوس الطويل . الا انها حين رأت ضابطها يدخل وجدته حسن المنظر ، بسترة جديدة ، وحمالة سيف لامعة ، وهيئة عاطفية جعلتها تحمرّ من السرور . وكانت الآنسة النبيلة اكثر فتنة من اي وقت مضى . كان شعرها الاشقر البديع مضفراً بشكل فاتن ، وترتدي ثوباً ذا لون ازرق سماوي يلائم البيضاوات تمام الملائمة ، وهي ذات دلال علمتها اياه كولومب . وكانت عينها غارقة في ذلك الاسترخاء الغرامي الذي يلائمها .

وفوبوس الذي لم يرَ شيئاً من الجمال منذ حزمات حطب كو – ان – بري ، اسكرته فلور دي لي ، وهذا ما اكسب ضابطنا نسقاً ملاطفاً مغازلاً ما لبث ان اصلح امره مع خطيبته . اما السيدة غونديلوريه نفسها ، الجالسة دائماً بشكل امومي على مقعدها الكبير ، فلم يكن عندها من القوة ما يجعلها توبخه . واما توبيخات فلور دي لي فقد تلاشت مع الاحاديث العذبة التي تشبه هديل الحمام .

كانت الفتاة جالسة بقرب النافذة تطرز دائماً قطعتها المسماة مغارة نبتونوس . ووقف الضابط مستنداً الى ظهر مقعدها . وقالت موجهةً اليه توبيخاتها المداعبة بصوت منخفض :

– ماذا حدث لك اذن منذ شهرين ايها الشرير ؟

فاجاب فوبوس وقد ازعجه السؤال قليلًا :

– اقسم لك انك جميلة الى درجة انك تجعلين رئيس الاساقفة يحلم بك .

فلم تستطع ان تمنع نفسها من الابتسام .

– هذا جميل . هذا جميل ايها السيد . دع جمالي جانباً وأجبني . جمال بديع حقيقة .
– لقد استدعيت الى المعسكر يا ابنة عمي الجميلة .
– واين هذا ، من فضلك ؟ لماذا لم تأت لوداعي ؟
– في كو – ان – بري .
كان فوبوس مسروراً لأن السؤال الاول ساعده على التهرب من الثاني .
– ولكنه مكان قريب ايها السيد . فلماذا لم تأت لرؤيتي ولو مرة واحدة ؟ هنا تضايق فوبوس جدياً .
– لأن ... الخدمة ... وثم ... يا ابنة عمي الفاتنة كنت مريضاً .
فقالت برعب : مريض !
– نعم ... جريح .
وشاع الاضطراب الشديد في كل كيان الفتاة المسكينة . وقال فوبوس بلا مبالاة :
– اوه ! لا تراعي . انه امر تافه . مشاجرة ، ضربة سيف ؛ ماذا يهمك هذا ؟
فصرخت فلور دي لي رافعة عينيها المبللتين بالدموع :
– ماذا يهمني هذا ؟ اوه ! انك لا تعني ما تقول ! ما هي ضربة السيف هذه ؟ اريد ان اعرف كل شيء .
– لا بأس يا جميلتي العزيزة . لقد تشاجرت مع ماهي فادي ، اتعرفينه ؟ الضابط الملازم في سان جرمان – ان – لاي ، وترك كل منا في جلد رفيقه بضع بوصات من الجراح . هذا كل شيء .
كان الضابط الكاذب يعلم جيداً ان قضية تتعلق بالشرف تبرز دائماً الرجل في عيني المرأة . وبالفعل ، فقد كانت فلور دي لي تتطلع في وجهه متأثرة من الخوف ، والسرور والاعجاب . الا انها لم تكن قد اطمأنت بشكل كاف ، فقالت :
– ارجو ان تكون قد شفيت تماماً يا عزيزي فوبوس ! اني لا اعرف ماهو

فادي هذا ولكنه رجل شرير . وما سبب هذه المشاجرة ؟

وهنا ، فان فوبوس الذي لم تكن مخيلته الا ضعيفة في الابداع ، بدا لا يعرف كيف يتخلص من مأثرته البطولية .

– اوه ! وما يدريني ؟ شيء تافه ، جواد ، حديث !

ثم هتف ليغير موضوع الحديث :

- يا ابنة العم الجميلة . ما هي تلك الضجة في باحة الكنيسة ؟

واقترب من النافذة وقال :

– اوه ! يا إلهي ، يا ابنة العم الجميلة ، ما اكثر الناس في الساحة ؟

فقالت فلور دي لي .

– لا ادري . يبدو ان هناك ساحرة ستقدم كفّارة مشرفة هذا الصباح امام الكنيسة وبعد ذلك ستشنق .

كان الضابط يعتقد ان قضية ازميرالدا قد انتهت ولذلك لم يتأثر الا قليلاً جداً من كلام فلور دي لي . الا انه القى عليها سؤالاً او سؤالين :

– ما اسم هذه الساحرة ؟

فأجابت : لا ادري .

– وماذا يقال انها فعلت ؟

فهزت هذه المرة كتفيها البيضاوين وقالت : لا ادري .

وقالت الام :

– اوه ! ايها الرب يسوع ! هناك كثير من الساحرات يُحرقن دون معرفة اسمائهن . والبحث عن اسمائهن كالبحث عن معرفة كل سحابة في السماء . وبعد ، فيستطيع المرء ان يكون مطمئناً . فالرب يمسك سجله .

وهنا نهضت السيدة المحترمة وجاءت الى النافذة وقالت :

– يا الله ! معك حق يا فوبوس . هذا مشهد من عامة الشعب . يوجد منهم حتى على السطوح ، وليتمجد اسم الرب ! – اتعرف يا فوبوس ؟ هذا يذكرني بأيامي الجميلة . دخول الملك شارل السابع ، حيث وُجد كثير من الناس

ايضاً . – لا اعرف في اية سنة . – حين احدثك عن هـذا ، اليس كذلك ؟ وتأثير هذا عليك كتأثير شيء قديم ، اما علي فكشيء حديث . – اوه ! لقد كان الشعب آنذاك افضل مما هو اليوم . وقد وقف بعض منـه على الشرفات الكائنة في أعلى جدران باب القديس انطوان . كان الملك مردفاً الملكة وراءه ، وبعد جلالتيهما تأتي جميع السيدات وراء جميع السادة . واذكر ان ذلك كان يستثير الضحك كثيراً . فقد كان الى جانب امانيون دي غارلاند القصير القامة السيد ماتيفلون ، وهو فارس عملاق قتل الانكليز بالاكداس . لقد كان ذلك جميلاً جداً . موكب يضم جميع نبلاء فرنسا براياتهم التي تبدو للعـين حمراء . وكان مع هؤلاء رايات ومع اولئك بيارق . وما ادراني ؟ والسيد دي كالان براية ، وجان دي شاتو موران ببيرق ؛ والسيد دي كوسي ببيرق، وعليه ثياب اكثر من اي رجل من الآخرين باستثناء الدوق دي بوربون... واأسفاه! مما يثير الاسى ان يفكر المرء بأن كل هذا كان موجوداً ولم يبق منه شيء .

لم يكن العاشقان يصغيان الى الارملة المحترمة . وكان فوبوس قد عاد يسند مرفقه الى مسند كرسي خطيبته . وهو مركز بديع يستطيع نظره منه ان يتغلغل في جميع فتحات طوق فلور دي لي . وكان هذا الطوق ينفتح قليلاً لأي سبب فيتيح له رؤية كثير من الاشياء اللذيذة ، ويترك له امر تخمين اشيـاء اخرى كثيرة ، بحيث ان فوبوس الذي بهرته هـذه البشرة ذات الانعكاس الحريري كان يقول في نفسه : – كيف يمكن للمرء ان يحب شيئـاً آخر غير فتـاة بيضاء ؟ وكان الاثنان يلزمان الصمت . والفتاة ترفع اليـه بـين وقت وآخر عينين منتشيتين حلوتين ، وشعرهـا يمتزج بشعاع شمس الربيع .

وقالت فلور دي لي بصوت منخفض :

– فوبوس ، يجب ان نتزوج في مدى ثلاثة اشهر . اقسم لي انك لم تحب ابداً امرأة اخرى غيري .

– اقسم لك يا ملاكي الجميل !

اجابها بذلك ، وقد انضم نظره الولهان الى لهجة صوته الصادقة ليقنع فلور دي لي . ومن المحتمل انه كان يصدق نفسه في هذه اللحظة .

الا ان الام الطيبة المفتونة برؤية الخطيبين على اتفاق تام خرجت من الغرفة لبعض الاعمال المنزلية . وفطن فوبوس الى ذلك . وقد شجعت تلك الخلوة الضابط المغامر فصعدت الى دماغه افكار كثيرة الغرابة . ان فلور دي لي تحبه ، وهو عريسها ، وهي وحيدة معه ، وهكذا استيقظ تذوقه القديم لها ، ليس بكل نضارته ، بل بكل حدته ؛ وبعد فليست جريمة كبرى ان يأكل المرء قمحه وهو لا يزال عشباً ؛ ولا اعرف اذا كانت هذه الافكار قد جالت في ذهنه . ولكن ما هو اكيد هو ان فلور دي لي شعرت بالخوف فجأة من تعبير نظراته . فتطلعت حولها ولم تر امها ، فقالت محمرة الوجه قلقة :

– يا الهي ! اشعر بالحر !

فأجاب فوبوس :

– اعتقد ان وقت الظهر ليس ببعيد . والشمس مزعجة . وليس لنا الا ان نسدل الستائر .

فصرخت الفتاة المسكينة :

– كلا ، كلا ، بالعكس ، فانا بحاجة الى الهواء .

وكغزالة شعرت بانفاس كلاب الصيد ، نهضت وركضت الى النافذة وفتحتها ، ثم هرعت الى الشرفة .

وتبعها فوبوس وقد احس بالمعاكسة .

كانت ساحة كنيسة نوتردام التي تطل الشرفة عليها ، كما نعلم ، تمثل في تلك اللحظة مشهداً مشؤوماً وغريباً حوّل فجأة طبيعة فلور دي لي الخجول الى رعب .

هناك حشود كثيرة تزدحم في جميع الشوارع المتاخمة وتملأ الساحة . والجدار الصغير المرتفع الى حد يمكن الاستناد اليه والمحيط بالباحة لم يكن كافياً للاحتفاظ بتلك الباحة حرةً لو لم يضاعف بسياج كثيف من رقباء الجند وفي

ايديهم البنادق . وبفضل هذه الغابة من الحراب والبنادق ظلت الساحة فارغة . والمدخل يحرسه رجال من حملة حراب الاسقف . وابواب الكنيسة الواسعة كانت مغلقة بعكس النوافذ العديدة المطلة على الساحة ، والتي كانت مفتوحة حتى النوافذ العليا التي يطل منها الوف من الرؤوس المكدسة كأكوام القذائف في مكان وضعت فيه المدافع .

وكان المنظر السطحي لهذا تجمع الغفير رمادي اللون ، قذراً ، ترابياً ، والمشهد الذي ينتظره كان من ميزاته انه يستخرج ويدعو اكثر الناس قذارة . ولا شيء اشنع من الضجة المتفلتة من منمنمة القبعات الصفراء والشعر القذر . كانت الضحكات في هذا الحشد اكثر من الصرخات ، والنساء اكثر من الرجال . وكانت بعض الاصوات الخشنة المهتزة تخترق الجلبة العامة بين وقت وآخر .

. . . . . .

– هيه ! هل سيشنقونها يا ماهي باليفر ؟

– ايها الاحمق ، انها الكفّارة المشرفة ، بالقميص ! والرب سيبصق اللاتينية في وجهها ! هذا ما يحدث دائماً هنا ، عند الظهر ، اما اذا كنت تريد المشنقة فاذهب الى ساحة غريف .

– سأذهب بعد ذلك .

. . . . . .

– قولي اذن يابوكاندري . اصحيح انها رفضت الكاهن المعرّف ؟

– يبدو انه صحيح يا بيشانيه .

– اترين الوثنية !

. . . . . .

هذه هي العادة ايها السيد . فقاضي القصر يسلم المذنب لتنفيذ الحكم بعد

ان محاكم . فاذا كان علمانياً يسلمه لحاكم باريس . واذا كان اكليركياً فالى المحكمة الاسقفية .

– شكراً يا سيد .

وقالت فلور دي لي :

– اوه ! يا الهي ! يا للمخلوقة المسكينة !

ان هذه الفكرة ملأت بالألم تلك النظرة التي كانت تلقيها على الناس . والضابط المهتم بها اكثر من اهتمامه بهذه الكدسة من اللحوم كان يدعك حزامها من الوراء متحبباً ، فالتفتت متوسلة مبتسمة وقالت :

– ارجوك ، دعني يا فوبوس . لو دخلت والدتي لرأت يدك !

في تلك اللحظة دقت ساعة نوتردام ببطء معلنة وقت الظهر . وسرت تمتمة رضا بين الجمهور . وما كادت آخر اهتزازات الدقة الثانية عشرة تتلاشى حتى كانت جميع الرؤوس تموج كالامواج تحت هبة ريح ، وارتفعت صيحة شديدة من الشارع والنوافذ والسطوح :

– هذه هي :

وضعت فلور دي لي يديها على عينيها لكي لا ترى ، فقال لها فوبوس :

– اتريدين ان ندخل ابنتها الفاتنة ؟

فأجابت : كلا .

وعيناها اللتان اطبقتهما من الخوف عادت وفتحتها بداعي الفضول . وجاءت عربة يجرها جواد نورمندي وتحيط بها كوكبة من الفرسان بأثواب بنفسجية ذات صلبان بيضاء الى الساحة من شارع القديس بيار اوبوف . ففتح لها رقباء الحرس ممراً بين الناس بسياطهم . والى جانب العربة كان يسير بعض ضباط العدالة والشرطة على خيولهم . وهم معروفون من ملابسهم السوداء وطريقتهم الخرقاء في الاستواء على السرج . وكان الاستاذ جاك شارمولو يعدو على رأسهم .

وفي العربة المشؤومة فتاة جالسة موثقة اليدين وراء ظهرها ، دون كاهن بجانبها ، وكانت بالقميص ، وشعرها الطويل الاسود (كانت العادة آنذاك الا يقص الشعر الا بالقرب من المشنقة) يسقط متناثراً على عنقها وكتفيها نصف المكشوفين .

ومن خلال ذلك الشعر المتموج الاكثر لمعاناً من ريش غراب ، كان يُرى حبل رمادي خشن ، ملوي ومعقد ، يخدش ترقوتها الطريئة ويلتف حول عنقها البديع كدودة ارض على زهرة . وتحت هذا الحبل تلمع تعويذة صغيرة مزدانة بخرزات صفراء تُركت لها دون شك لانهم لا يرفضون طلباً لمن سيموتون . وكان باستطاعة المشاهدين الواقفين في النوافذ ان يشاهدوا في داخل العربة ساقيها العاريين اللذين كانت تحاول اخفاءهما تحتها بدافع آخر غريزة للمرأة . وعلى قدميها معزاة صغيرة موثقة . وكانت المحكومة تمسك قميصها المعلق بشكل سيء باسنانها ، ويخيل انها لا تزال تتألم في شقائها لعرضها هكذا شبه عارية على جميع العيون ، واأسفاه ! ان الخجل لم يخلق لارتعاشات كهذه .

وقالت فلوردي بحدة للضابط :

– يا يسوع ! انظر يا ابن العم العزيز ! انها تلك الغجرية الشنيعة صاحبة المعزاة !

والتفتت نحو فوبوس وهي تتكلم . كانت عيناه محدقتين بالعربة . وكان كثير الشحوب ، وقال متلعثماً :

– اية غجرية صاحبة المعزاة ؟

فقالت فلوردي لي : كيف ؟ الا تتذكر ؟

فقاطعها فوبوس :

– لا اعرف ماذا تقولين .

وخطا خطوة ليدخل ، ولكن غيرة فلوردي لي التي تحركت قبلاً بكثير من القوة بسبب هذه الغجرية نفسها قد استيقظت . وألقت عليه نظرة ملأى بالحذر وسبر الاغوار . وتذكرت في هذه اللحظة ، ولكن بشكل مشوش ،

انها سمعت من يتحدث عن ضـــابط ذي علاقة بدعوى هذه الساحرة ، فقالت لفـوبوس :

– ما بك ؟ يخيل الي ان هذه المرأة ازعجتك .

فحاول فوبوس ان يضحك وقال :

– انا ! ابداً .. آه نعم .

فقالت بكبرياء :

– ابق اذن ، ولنر حتى النهاية .

وأرغم الضابط المشؤوم على البقاء . اما ما بعث فيه شيئاً من الاطمئنان فهو ان المحكومة لم توفع نظرها عن ارض عربتها . انها ليست سوى ازميرالدا. لقد كانت دائماً جميلة وهي في احط دركات الخزي والشقاء ، وكانت عيناهـــا الكبيرتان السوداوان تبدوان اكثر كبراً بسبب هزال خديها ؛ وكان منظر وجهها الجانبي نقياً سامياً . كانت تشبه ما كانته قبلاً كما تشبه عذراء مازاكسيو عذراء من صنع رافايل : اكثر ضعفاً ، واكثر رقة ، واكثر هزالاً .

وبعد ، لم يبق فيها شيء لم تصبه الهزة بشكل او بآخر ولم تتقـــاذفه الظروف ، باستثناء خجلها ، ما دام الذهول واليأس قد حطماها بشكل عميق . كان جسدها يتقلقل في جميع نواحـي العربة كشيء ميت او محطم . وكان نظرها كئيباً ومجنوناً . وقد شوهدت دمعة في حدقتها ، ولكنهـا جامدة ، او متجمدة اذا صح القول .

الا ان الكوكبة المأتمية اجتازت الجمهور وسط صرخات الفرح والمواقف الفضولية . ويجب القول في كل مرة ، لأكون مؤرخاً مخلصاً ، ان الكثيرين ممن رأوها بهذا الجمال وهذا الارهاق ، حتى الأكثر قسوة بينهم ، قد اعترتهم الشفقة . وكانت العربة قد دخلت الى باحة الكنيسة .

وتوقفت امام المدخل المركزي ، ووقف الحرس صفاً على الجانبين بشكل تأهب لمعركة . وصمت الجمهور ، وفي وسط هذا الصمت المليء بالاحتفـال والقلق ، دار مصراعا البوابة الكبرى على رزاتها التي كانت تصر كصوت

مزمار ، وكأن ذلك جرى من نفسه. وحينئذٍ بدت بكل طولها تلك الكنيسة العميقة القاتمة المغمورة بالسواد ولا ينيرها سوى بضع شمعات تهتز في البعيد على المذبح ، مفتوحة كفم كهف وسط الساحة ذات النور الباهر . وفي الداخل في ظل صدر الكنيسة ، يستشفّ صليب ضخم من الفضة مثبت على قماش اسود متدلٍ من سقف القبة الى البلاط . وكان صحن الكنيسة مقفراً . الا ان بعض تحركاتٍ لرؤوس الكهنة في مقاعد الخورس البعيدة كانت تبدو للعيان . وفي لحظة افتتاح الباب الكبير تناهى من الكنيسة ترتيل وقور ، رنان ، ورتيب كان يقذف بشكل نفخات على رأس المحكومة شذرات من المزامير المأتمية :

« ... لن اخشى هذا الشعب المحتشد حولي بالالوف ؛ قف يا رب ! انقذني يا الله !

انا غاطس في وحل الهاوية ، دون سند متين . »

وفي الوقت نفسه كان هناك صوت آخر منفرد عن الجوقة يستهل على درج المذبح هذه التقدمة الكئيبة :

« من يسمع كلامي ويؤمن بمن ارسلني فله الحياة الابدية ولا يأتي الى المحاكمة ؛ ولكنه ينتقل من الموت الى الحياة . »

هذا الترتيل الذي كان ينشده بعض الشيوخ المختفين في ظلماتهم من بعيد على تلك المخلوقة الجميلة المليئة بالشباب والحياة ، والتي داعبها نسيم الربيع العليل ، والمغمورة بنور الشمس ، كان جناز الموت .

وكان الشعب يستمع بكل حواسه .

وبدت البائسة المشدوهة انها فقدت بصرها وتفكيرها في احشاء الكنيسة المظلمة . وكانت شفتاها البيضاوان تتحركان كأنها تصلي ، وحين اقترب منها خادم الجلاد ليساعدها على النزول من العربة سمعها تردد بصوت منخفض هذه الكلمة : فوبوس .

وحل وثاق يديها وانزلقت مصحوبة بعنزتها التي حل وثاقها ايضاً ، والتي كانت تثغو من الفرح لانها اصبحت حرة ، وسارت حافية القدمين على البلاط

القاسي حتى اسفل درجات المدخل . وكان الحبل المربوط الى عنقها ينسحب وراءها ، كأنه افعى تتبعها .

وعندئذ انقطع الترتيل في الكنيسة ، وتحرك في الظلام صليب ذهبي كبير وخيط من الشموع . وسمع صليل حراب السويسريين المبرقشين وبعد بضع لحظات جاء بوقار موكب طويل من الكهنة والشمامسة بحلة القداس باثوابهم الدينية نحو المحكومة وهم يرتلون ، وامتد هذا الموكب امام نظرها ونظر الجمهور . ولكن نظرها استقر على رجل يسير تماماً في المقدمة بعد حامل الصليب ، فقالت بصوت منخفض وهي ترتجف :

— اوه ! هو ايضاً ! الكاهن !

وبالفعل فقد كان هو الخوراسقف . وكان الى شماله وكيل المرتل والى يمينه المرتل نفسه وهو مسلح بعصا وظيفته . كان يتقدم ورأسه منقلب الى الوراء ، وعيناه ثابتتان مفتوحتان وهو يرتل بصوت قوي :

« من اعماق الهاوية صرخت ، وسمعت صوتي .

وألقيتني في الهاوية في قلب البحر . والموج احاط بي [1] . »

وفي اللحظة التي ظهر فيها الى النور تحت المدخل الكبير وهو يلف نفسه بغفارة واسعة من الفضة مقطعة بصليب اسود ، كان كثير الشحوب حتى ان اكثر من واحد بين الجمهور اعتقد انه احد اساقفة الرخام الراكعين على حجارة الخورس الضريحية وقد نهض وجاء يستقبل على عتبة القبر تلك التي ستموت .

وهي لم تكن اقل شحوباً ولا اقل جموداً كالتمثال . ولم تفطن الى انهم وضعوا في يدها شمعة ثقيلة صفراء مضاءة ، ولم تكن تسمع صوت الكاتب العادي وهو يقرأ مضمون الكفّارة المشرفة المشؤوم ؛ وحين قيل لها ان تجيب « آمين » ، اجابت « آمين » ، ولكي يعود اليها شيء من الحياة ومن القوة

---

١ ـ من اقوال يونان (يونس) النبي .

احتاجت الى ان ترى الكاهن وهو يشير لحراسها ان يبتعدوا وتقدم نحوهـــا منفرداً .

عندئذ شعرت بدمها يغلي في رأسهـــا ، واشتعلت بقية من الغيظ في تلك النفس التي كانت متخدرة باردة .

واقترب الخوراسقف منها متمهلا . وحتى في تلك النهاية ، فقد رأته يجيل في عريها عيناً طافحة بالفجور ، والغيرة ، والرغبة . ثم قال لها بصوت مرتفع :

– ايتها الفتاة ، هل طلبت من الله الغفران لأخطائك وذنوبك ؟

ثم انحنى على اذنها ، واضاف (بينما كان المشاهدون يعتقدون انـــه يتلقى اعترافاتها الاخيرة) : اتريدينني ؟ ما زال باستطاعتي انقاذك .

فحدقت فيه وصرخت : اذهب ايها الشيطان او أشي بك .

فأخذ يبتسم ابتسامة مرعبة وقال :

– لن يصدقك احد . – لن تفعلي شيئاً سوى اضافة فضيحة الى الجريمة . – اجيبي بسرعة ، أتريدينني ؟

– ماذا فعلت بعزيزي فوبوس ؟

فأجاب الكاهن : مات .

في تلك اللحظة رفع الكاهن البائس رأسه بحركة آلية ، ورأى في الطرف الآخر من الساحة ، على شرفة بيت غونديلوريه ، الضابط واقفاً بقرب فلور دي لي ، فترنح ، ووضع يده على عينيه ، وتطلع ايضاً ، وتمتم لعنة ، وتشنجت كل قسماته بشكل عنيف ، وقال بين اسنانه :

– اذن موتي انت . ولن تكوني لأي انسان .

وحينئذ رفع يده على الغجرية وصرخ بصوت مأتمي :

« اذهبي ايتها الروح المتشككة وليرحمك الله ! » .

انها الصيغة الرهيبة التي جرت العادة ان تنتهي بها هذه الاحتفالات القاتمة . وهي الاشارة المتفق عليها بين الكاهن والجلاد .

وركع الناس .

وقال الكهنة الذين ظلوا تحت قوس المدخل : يا رب ارحم .

وردد الجمهور : « يا رب ارحم » بتلك الدمدمة التي تسرع فوق جميع الرؤوس كهدير بحر هائج .

وقال الخوراسقف :

-- آمين .

وادار ظهره للمحكومة . وسقط رأسه على صدره ، وتصالبت يداه والتحق بموكب الكهنة ، وبعد لحظة رؤي يختفي ، مع الصليب ، والشموع والملابس الكهنوتية تحت اقواس الكنيسة الضبابية . وصوته الرنان يتلاشى تدريجياً في الخورس وهو ينشد هذا المقطع اليائس :

« جميع اعاصيرك وامواجك مرت علي » (يونان) .

وفي الوقت نفسه ، فان صليل رماح السويسريين المنقطع الذي كان يتلاشى شيئاً فشيئاً تحت اعمدة باحة الكنيسة كان تأثيره كتأثير مطرقة ساعة تدق آخر ساعة للمحكومة .

الا ان ابواب نوتردام ظلت مفتوحة تتيح رؤية الكنيسة فارغة ، حزينة ، بحالة حداد ، بدون شموع ولا اصوات .

وظلت المحكومة جامدة في مكانها ، منتظرة ما سوف يفعلونه بها . وقد احتاج الامر الى ان يقوم احد الرقباء من ذوي المقارع بانذار المعلم شارمولو الذي انهمك اثناء هذا المشهد كله بدراسة المنحوتات الناتئة في البوابة الكبرى التي تمثل تضحية ابراهيم وفقاً لرأي البعض ، والعملية الفلسفية التي تمثل الشمس بالملاك ، والنار بحزمة حطب ، والصانع بابراهيم ، وفقاً لرأي البعض الآخر .

وبُذل جهد كبير لانتزاعه من هذه التأملات . ولكنه التفت اخيراً ، ولدى اشارة قام بها اثنان يرتديان الاصفر اقترب خادما الجلاد من الغجرية ليربطا يديها .

اما البائسة فقد استولى عليها اسف محزن على الحياة اثناء صعودها الى العربة

المشؤومة والسير الى محطتها الاخيرة ، فرفعت عينيها الحراوين الجافتين نحـو السماء ، نحو الشمس ، نحو الغيوم الفضية المقطعة هنا وهناك بشكل متوازيات الاضلاع ومثلثات زرقاء ثم خفضتها على ما حولها ، على الارض ، على الجمهور ، على البيوت ... وفجأة ، حين ربط الرجل الاصفر معصميها ، اطلقت صرخة رهيبة ، صرخة فرح . فهناك على تلك الشرفة ، في زاوية الساحة ، شاهدته ، هو ، صديقها ، سيدها فوبوس ، انها الرؤيا الاخيرة في حياتها ! لقد كذب القاضي ؛ انه هو بالتأكيد ، وليس عندها ادنى شك في ذلك . كان هنـاك ، جميلاً ، حياً ، يرتدي ملابسه الساطعة ، والريشة في رأســه ، والسيف الى جانبه .

وصرخت : فوبوس ! يا عزيزي فوبوس !

وارادت ان تمد نحوه ذراعيهـا المرتجفتين من الحب والنشوة ، ولكنهما كانا موثقين .

وعندئذ شاهدت الضابط يتجهم ، والى جانبه فتاة جميلة تستند اليه وتتطلع فيه بشفقة مزدرية وعينين ثائرتين . ثم لفظ فوبوس بعض كلمات لم تصل اليها ، واختفى الاثنان بسرعة وراء زجاج الشرفة الذي انغلق .

وصرخت بوله :

– فوبوس ! اتصدق ذلك ؟

وخطرت لها فكرة شنيعة . فقد تذكرت انها حكمت بسبب مقتل فوبوس دي شاتوبير .

لقد تحملت كل شيء حتى الآن . ولكن هذه الضربة الاخيرة كانت قاسية جداً . وسقطت على البلاط دون حراك .

وقال شارمولو :

– هيا ! احملوها الى العربة ، ولننته !

لم يلاحظ احد حتى الآن ، في رواق تماثيل الملوك المنحوتة ، رأساً فوق اقواس المدخل ، متفرجاً غريباً تفحص كل شيء حتى الآن ببرود ، بعنق

يمتد ، ووجه مشوّه . ولولا لباسه الغريب الاحمر والبنفسجي لحسبوه احد تلك المسوخ الحجرية التي تخرج من افواهها ، منذ ستماية سنة ، ميازيب الكاتدرائية الطويلة . هذا المتفرج لم يفته شيء مما جرى منذ الظهر امام مدخل نوتردام . ومنذ اللحظات الاولى ، ودون ان يفكر احد بمراقبته ، كان قد ربط بقوة حبلاً طويلاً معقداً بأحد اعمدة الرواق ، وكان طرفه ينسحب على الدرج المسطح تحت ، وبعد ان فعل ذلك اخذ ينظر باطمئنان ويصفّر بين وقت وآخر حين يمر شحرور امامه . وفجأة ، وفي اللحظة التي اخذ فيها خدم رئيس العمل ينفذون امر شارمولو ، اجتاز حاجز الرواق ، وامسك الحبل بالقدمين والركبتين واليدين ، ثم شوهد ينزلق على واجهة الكنيسة كقطرة مطر تنزلق على طول لوح زجاج ، ويركض نحو الجلادين بسرعة هر سقط عن سطح ، وألقاهما ارضاً تحت قبضتيه الضخمتين ، ثم اختطف الغجرية بيد ، كما يمسك طفل بلعبته ، وبوثبة واحدة بلغ الكنيسة رافعاً الفتاة فوق رأسه وصارخاً بصوت رهيب :

— ملجأ !

لقد جرى ذلك بسرعة حتى لو انه جرى ليلاً لكان بالامكان رؤيته على لمعة برق واحدة .

وردد الجمهور : ملجأ ! ملجأ !

وجعلت العشرة آلاف عملية تصفيق عين كازيمودو الوحيدة تسطع بالسرور والفخر .

وهذه الهزة جعلت المحكومة تعود الى وعيها . فرفعت جفونها ، ورأت كازيمودو ، ثم اطبقتها بسرعة كأنها خائفة من منقذها .

وظل شارمولو منذهلاً ، وكذلك الجلادون والحرس كلهم . وبالفعل فان المحكومة اصبحت مصانة داخل سور نوتردام . وكانت الكنيسة ملجأ . وكل قضاء بشري يتلاشى على عتبتها .

وكان كازيمودو قد وقف تحت المدخل الكبير . وبدا قدماه العريضان

متينين على بلاط الكنيسة كالاعمدة الرومانية الثقيلة . وكان رأسه الكبير الاشعر غارقاً بين كتفيه كرأس الاسود التي لها لبدة وليس عنق . وكان يمسك بالفتاة مختلجة معلقة بيديه الخشنتين كعلم ابيض ؛ وكان يحملها بكثير من الحيطة كأنه يخاف ان يحطمها او يذويها . وكأنه يشعر انها شيء رقيق لذيذ وثمين مصنوع لأيدٍ غير يديه . وكان يبدو انه لا يجرؤ على لمسها حتى ولو بالنفس . ثم فجأة ، ضمها بقوة بين ذراعيه ، على صدره المقرّن ، كماله ، ككنزه ، كما يجب ان تفعل ام هذه الطفلة ؛ وعينه التي تشبه عين العفريت ، متطلعة بها ، تفيض عليها حنواً ، وألماً ، وشفقة ، ثم ترتفع فجأة ملأى بالبروق . وكانت النساء يضحكن ويبكين ، والجمهور يفحص بأرجله من الحماسة . فقد كان لكازيمودو جماله في تلك اللحظة ، لقد كان جميلاً ، هو ، ذلك اليتيم ، ذلك اللقيط ، ذلك الطريد ، وشعر انه عظيم وقوي ، فكان يتطلع في وجه هذا المجتمع الذي كان منفياً منه ، والذي تدخل فيه بقوة ، تدخل في تلك العدالة البشرية التي انتزع منها فريستها ، في تلك النمور المرغمة على المضغ في الفراغ ، في أولئك الزبانية ، وأولئك القضاة ، وأولئك الجلادين وكل قوة الملك التي حطمها ، هو الوضيع ، بقوة الله .

بعد بضع دقائق من النصر كان كازيمودو قد تغلغل في الكنيسة مع حمله . اما الشعب المحب لكل عمل بطولي فكان يبحث عنه بالعيون تحت صحن الكنيسة القاتم ، آسفاً لأنه ابتعد بسرعة عن صيحات الاعجاب . وفجأة رأوه يعود الى الظهور في احد اطراف رواق ملوك فرنسا وكان يجتازه راكضاً كالمجنون ، رافعاً ما اكتسبه على ذراعيه ، صارخاً : ملجأ !

وانفجر الجمهور بالتصفيق من جديد . وبعد ان اجتاز الرواق عاد الى التغلغل داخل الكنيسة . وبعد لحظة عاد الى الظهور على السطح الاعلى ، والغجرية دائماً بين ذراعيه ، ودائماً يركض بجنون ، ودائماً يصرخ : ملجأ ! والجمهور يصفق . واخيراً ظهر للمرة الثالثة على قمة برج الجرس الكبير ؛ وبدا من هناك انه يري المدينة كلها بكبرياء تلك التي انقذها ، وصوته الراعد ، ذلك

الصوت الذي لا يُسمع الا في النادر ولا يسمعه ابداً ، ردد ثلاث مرات بجنون وبحيث وصل الى السحب : ملجأ ! ملجأ ! ملجأ !

وصرخ الشعب من ناحيته :

– نويل ! نويل !

وهذا الهتاف الضخم سار ليدهش على الضفة الاخرى ذلك الجمهور المحتشد في ساحة غريف ، والحبيسة التي كانت تنتظر دائماً وعينها مصوبة الى المشنقة .

الكتاب التاسع

١

حمّى

لم يكن كلود فرولو في نوتردام عندما قطع ربيبه فجأة العقدة المشؤومة التي ربط الخوراسقف المسكين الغجرية بها وربط نفسه . فقد دخل الى السكرستيا[1] وخلع الكتونة والغفارة والبطرشيل ، والقى الجميع بين يدي خادم الكنيسة المندهش ، وخرج من باب الدير السري ، وأمر نوتياً من محلة تيران ان ينقله الى الضفة اليسرى من السين . وغاص في شوارع حي الجامعة الوعرة غير عارف الى اين يسير ، ملتقياً لدى كل خطوة بعصابات من الرجال والنساء يحثون الخطى بفرح نحو جسر سان ميشال على امل ان « يصلوا على الوقت » ليشاهدوا شنق الساحرة . وكان شاحب الوجه ، شارد الفكر ، اكثر اضطراباً ، واكثر عمى ، واكثر نفوراً من عصفوراً ليلي قد افلت وتبعه جمهور من الاولاد في وضح النهار . لم يكن يعرف اين صار ، وبماذا يفكر . كان يحلم ، ويسير ، ويمشي ، ويركض على طول الشارع حسب الصدفة ، غير مختار ، ولكنه مدفوع فقط الى الامام بساحة غريف ، بساحة غريف الرهيبة التي كان يشعر بشكل مشوش انها في اثره .

١ — المكان الذي تحفظ به الآنية المقدسة في الكنيسة .

وهكذا ارتقى جبل القديسة جنفياف ، وخرج اخيراً من المدينة من باب سان فكتور ، وتابع هربه ما دام باستطاعته ان يرى عند التفاته دائرة ابراج الجامعة وبيوت الضاحية القليلة ؛ ولكن حين اخفت ثنية من الارض باريس كلها عنه ، حين اصبح باستطاعته الاعتقاد انه على بعد مئة فرسخ ، في الحقول ، في قفر ، وقف ، وبدا له انه يتنفس .

وحينئذٍ تزاحمت في ذهنه افكار مخيفة . لقد رأى داخل نفسه بوضوح ، وارتعش . فكر بتلك الفتاة البائسة التي اهلكته واهلكها . وأجال بصراً شارداً في الطريق المزدوج الملتوي الذي قضى القدر عليهما ان يسيرا فيه حتى نقطة التقائهما ، وحيث حطمهما دون شفقة ، الواحد ضد الآخر . وفكر بجنون النذورات الابدية ، وباطل العفة ، والعلم ، والدين ، والفضيلة ، وبعدم فائدة الرب . وغاص بقلب فرح في الافكار السيئة . وكان كلما تقدم في انغماسه فيها يشعر بانفجار ضحكة شيطانٍ في نفسه .

وحين كان ينقب هكذا في نفسه ، ويرى اي مكان فسيح اعدته الطبيعة في هذه النفس للعواطف ، ضحك بكثير من المرارة . وحرك في اعماق قلبه كل غضبه ، كل شراسته ، وعرف بلمحة عينٍ باردةٍ لطبيبٍ يفحص مريضاً ان ذلك الحقد ، وتلك الشراسة ليسا سوى الحب المفسود ؛ وان الحب ، ذلك المصدر لكل فضيلة عند الانسان ، يتحول الى اشياء رهيبة في قلب كاهن ، وان رجلاً مكوّناً مثله ، يصبح شيطاناً بصيرورته كاهناً . وعندئذ ضحك بشكل رهيب وعاد فجأة الى الشحوب وهو يتأمل الناحية الاكثر شؤماً في تلك العاطفة المشؤومة في ذلك الحب القارص ، السام ، المبغض ، الحاقد الذي يقود الواحدة الى المشنقة ، والآخر الى الجحيم : هي محكومة بالموت ، وهو ملعون هالك .

ثم عاوده الضحك حين فكر ان فوبوس لا يزال حياً ؛ وان الضابط يعيش بعد كل شيء ، وانه رشيق مسرور يرتدي اجمل سترة ، ومعه عشيقة جديدة جاء بها لترى شنق العشيقة القديمة . وتضاعف ضحكه عندما فكر بكائنات

حية كان يريد لها الموت ، الا ان الغجرية ، وهي الكائن الوحيد الذي لا يكرهه ، كانت الوحيدة التي لم يخطئها الموت .

وعندئذ انتقل تفكيره من الضابط الى الشعب . وشعر بغيرة من نوع لم يسمع به احد . فقد فكر ان الشعب ايضاً ، الشعب بكامله ، رأى المرأة التي يحبها ، وهي بالقميص ، شبه عارية . والتوى ذراعه وهو يفكر ان تلك المرأة التي استشف وحده شكلها في الظلام وكان ذلك له سعادة متناهية ، قد عرضت في وضح النهار ، في وقت الظهر ، على جميع الشعب ، مرتدية الملابس التي ترتديها في ليلة لذة . فبكى من الغضب على جميع تلك الغوامض الغرامية الدنيوية ، الملوثة ، العارية ، المهتوكة الستر الى الابد . وبكى من الغضب وهو يتصور عدد النظرات الدنسة التي وجهت الى ذلك القميص المعقود بشكل سيء ؛ وان تلك الفتاة الجميلة ، تلك الزنبقة العذراء ، ذلك الكأس من الحشمة والملذات والذي لم يجرؤ على ان يقرب شفتيه منه الا وهو يرتجف ، قد تحول الى نوع من الطاسة العامه ، حيث جاء اسوأ عامة باريس من لصوص ومتسولين ليشربوا معاً لذة دنسة فاسدة .

وحين حاول تكوين فكرة عن السعادة التي كان من الممكن ان يجدها على الارض لو لم تكن غجرية ، ولو لم يكن كاهناً ، ولو لم يكن فوبوس موجوداً ، ولو انها احبته ؛ حين تصور ان حياة من الصفاء والحب كانت ممكنة له ايضاً ، وان هنا وهناك على وجه الارض في تلك اللحظة ازواجاً سعداء ضائعين في احاديث طويلة تحت اشجار الليمون ، وعلى ضفاف السواقي ، مع شمس مشرفة على المغيب ، في ليلة زاهرة ؛ وانه ، لو اراد الله ، لاستطاع ان يكوّن معها احد هؤلاء الازواج المباركين ؛ حين يفكر بكل ذلك يفيض قلبه بالحنو وباليأس .

اوه ! هي ! انها هي ! انها تلك الفكرة الثابتة التي تعود دون انقطاع ، والتي كانت تعذبه ، وتعض دماغه ، وتمزق احشاءه . انه لم يكن يأسف ، لم يكن يتوب ؛ وكل ما فعله قبلاً فهو مستعد ان يفعله ايضاً . كان يجب ان

يراها بين يدي الجلاد افضل من ان يراها بين يدي الضابط،ولكنه كان يتعذب؛ كان يتعذب الى درجة انه ينتزع قبضة من شعره ليرى اذا كان شعره لم يشب بعد .

وهناك هنيهة كان يمر بباله انها هي الهنيهة التي كانت فيها السلسلة الشنيعة تشد عقدتها حول ذلك العنق الواهن الظريف . وهذه الفكرة كانت تجعل العرق يتصبب من جميع مسام جسده .

وهناك هنيهة اخرى يتمثل فيها ، وهو يضحك على نفسه ضحكة شيطانية ، ازميرالدا كما رآها اول يوم ، حية ، لامبالية ، فرحة ، متزينة ، راقصة ، مجنحة ، متناسقة ، وازميرالدا في آخر يوم ، بالقميص ، والحبل في عنقها ، صاعدة متمهلة ، بقدميها العاريين ، سلّم المشنقة ذا الزوايا ؛ لقد تخيل هاتين اللوحتين بشكل جعله يطلق صرخة مخيفة .

وبينما كانت هذه العاصفة من اليأس تقلب ، وتحطم ، وتنتزع ، وتحني ، وتستأصل كل شيء في نفسه ، فانه كان ينظر الى الطبيعة حوله . لقد كان عند قدميه بعض الدجاجات تنبش الاشواك بمناقيرها ، والجعلان المتنوعة تركض في الشمس ، وفوق رأسه بعض السحب الشهباء الرمادية تهرب في سماء بيضاء . وفي الافق يخترق سهم برج دير سان فكتور منحنى مسلته الاردوازية ، وطحان تلة كوبو ينطلع الى دوران اجنحة مطحنته العاملة وهو يصفر . ان كل هذه الحياة العملية ، المنظمة ، الهادئة المكوّنة حوله بألف شكل قد آذته فعاد الى الهـــروب .

اذن ظل يركض خلال الحقول حتى المساء . وهذا الهرب من الطبيعة ، من الحياة ، من نفسه ، من الانسان ، من الله ، من كل شيء ، دام طول النهار . كان احياناً يرتمي ووجهه الى الارض ، وينتزع القمح الاخضر بأظافره ، واحياناً كان يقف في شارع مقفر في قرية ، وكانت افكاره لا تحتمل بحيث كان يأخذ رأسه بكلتا يديه محاولاً انتزاعه من بين كتفيه ليحطمه على البلاط .

وحوالي الساعة التي تميل فيها الشمس فحص نفسه من جديد فوجد انه

مجنون تقريباً . والعاصفة التي استمرت في نفسه منذ اللحظة التي اضاع فيها الامل والارادة بانقاذ الغجرية ، تلك العاصفة لم تترك في ضميره اية فكرة سليمة ، اية فكرة واقفة . كان عقله يحتضر فيها مهدماً تهديماً كاملاً تقريباً . ولم يبق في فكره سوى صورتين مميزتين : ازميرالدا والمشنقة . وكل ما بقي فهو اسود . وهاتان الصورتان المتقاربتان كانتا تمثلان له مجموعة مخيفة . وكلما وجه اليها ما بقي عنده من انتباه وتفكير يراهما يكبران وفقاً لتقدموهمي، الواحدة بالظرافة ، والفتنة ، والجمال والنور ، والاخرى بالرعب ، بنوع ان ازميرالدا تبدو له في النهاية كنجمة ، والمشنقة كذراع ضخم معرّى من اللحم .

وهناك شيء يستلفت النظر ، هو ان فكرة الموت الجدية لم تساوره اثناء كل هذا العذاب . كان المسكين مكوّناً هكذا . انه يتمسك بالحياة . وربما كان يرى الجحيم وراءها .

واستمر النهار في التلاشي . والكائن الحي الذي لا يزال موجوداً فيه، فكر بالعودة بشكل مشوش . كان يعتقد انه بعيد عن باريس ؛ ولكن حين اتجه اليها ادرك انه كان يدور حول سور الجامعة فقط . وسهم برج سان سوبليس ومسلات سان جرمان دي بريه المرتفعة الثلاث كانت تتجاوز الافق الى يمينه . فسارمن تلك الناحية.وحين سمع كلمة «من هناك» تصدر عن حرس رئيس الدير حول خندق سان جرمان المدني، انعطف وسار في طريق سنح له بين مطحنة الدير ومستشفى الجذام في القرية . وبعد بضع لحظات وجد نفسه على تخوم مرج اوكليرك . وهذا المرج كان مشهوراً بالجلبة التي كانت تحدث فيه نهاراً وليلاً ؛ فهو آفة رهبان سان جرمان الفقراء . « من يكون آفة لرهبان سان جرمان دي بريه ، فان الاكليركيين يقيمون دائماً رؤساء جدداً للمشاجرات. [1]» وكان الكاهن يخشى ان يلتقي بأحد منهم ؛ كان يخاف كل وجه بشري ؛ فتجنب الجامعة ، وضيعة سان جرمان ، وكان يريد ألاّ يدخل في الشوارع الا متأخراً

---

١ ـ عبارة استشهد بها دي برول ، وهي باللاتينية في الاصل .

قدر استطاعته . ومشى في مرج اوكايرك ، واخذ الطريق المقفر الذي يفصله عن ديو – نوف وبلغ اخيراً ضفة الماء . ووجد الدوم كلود هناك نوتياً صعد به السين لقاء بعض الدراهم حتى طرف حي لاسيته ، وألقاه على ذلك اللسان الارضي المهجور الذي كان القارىء قد رأى غرنغوار وهو يحلم عليه ، والذي يمتد الى ما وراء حدائق الملك على موازاة جزيرة المار لى البقر .

ان هدهدة الزورق الرتيبة وخرير الماء خدَّرا كلود البائس الى حد ما . وحين ابتعد النوتي ظل واقفاً ببلاهة على الرمل ، ناظراً امامه ، غير مدرك الاشياء الا من خلال ذبذبات مضخمة تصنع له نوعاً من الفانوس السحري . وليس من النادر ان يُحدث التعب الناجم عن الالم الشديد هذا التأثير على العقل .

كانت الشمس قد غابت وراء برج نيل المرتفع . انها هنيهة الغسق . وكانت السماء بيضاء والنهر ابيض . وبين هذين البياضين كانت ضفة السين اليسرى التي كانت عينه عالقة بها تلقي كتلتها القاتمة ، وتستدق شيئاً فشيئاً لدى الرؤية ، وتغوص في ضباب الافق كسهم اسود . كانت مثقلة ببيوت لا يميز منها سوى الخيال المظلم المنتصب في الظلمات على بياض السماء والماء . وهنا وهناك نوافذ بدأت تتلألأ كفجوات جمر . وتلك المسلة العظيمة السوداء المنعزلة بين البساطين الابيضين للسماء والنهر الكثير العرض في ذلك المكان كان لها على الدوم كلود تأثير غريب شبيه بما يشعر به رجل نائم على الارض على ظهره عند اقدام برج اجراس ستراسبورغ متطلعاً الى الابرة الضخمة تغوص في غياهب الغسق فوق رأسه. الا ان كلود هو الذي كان واقفاً هنا والمسلة هي التي كانت نائمة ؛ ولما كان النهر ، وهو يعكس السماء ، يمدد الهوة تحته ، فان الرأس (الجغرافي) الفسيح كان يبدو مندفعاً بجرأة في الفراغ كسهم الكاتدرائية . وكان الانطباع هو نفسه . وكان لهذا الانطباع من الغرابة والعمق بحيث بدا انه برج جرس ستراسبورغ ذاته ، ولكن برج جرس ستراسبورغ المرتفع فرسخين ، شيء لا يصدق ، ضخم ، لا يقاس بغيره ، عمارة لم ترَ مثلها عين

انسان ، برج بابل . ومداخن البيوت ، وشرفات الاسوار ، وجملونات السطوح المشذبة ، وسهم كنيسة الاوغسطينيين ، وبرج نيل ، وكل هذه الطنوف التي تثلم الصفحة الجانبية للسلة العملاقة ، كانت تضيف الى الوهم ، وهي تتلاعب بالعين بشكل غريب ، قصاصات منحوتات كثيفة وخيالية . وكلود ، وهو في حالة الهذيان التي وجد نفسه فيها، ظن انه يرى بعينيه الحيتين برج جرس الجحيم؛ وآلاف الاضواء المنتشرة على ارتفاع البرج الرهيب بدت له كمداخل الآتون الداخلي الفسيح ؛ والاصوات والجلبات التي تتفلت منــــه بدت له صرخات وحشرجات . وعندئذٍ احس بالخوف ، فوضع يديه على اذنيه حتى لا يسمع ، وادار ظهره حتى لا يرى ، وابتعد بخطوات واسعة عن الرؤيا المخيفة .

ولكن الرؤيا كانت في داخله .

وحين دخل في الشوارع كان المارة المتدافعون بالمرافق على ألق واجهات الدكاكين يحدثون فيه تأثير ذهابٍ وايابٍ ابديٍ للاشباح حوله . كان في اذنيه ضجيج غريب . واوهام غير عادية تشوش عقله . ولم يكن يرى البيوت ، ولا الشارع ، ولا العربات ، ولا الرجال ولا النساء ، بل خليط من اشياء غــــير محدودة كان بعضها يمتزج بالبعض الآخر عند اطرافها.وفي زاوية شارع لاباريللري يوجد دكان بقالة ، وإفريزها ، وفقاً للعادة العريقة في القدم ، مجهز في محيطه بدوائر من الحديد الابيض تتدلى منهـا دائرة من المصابيح الخشبية تتصادم في الريح مقعقعة كالصناجات . فظن انه يسمع في الظلام اصطدام باقـــة هياكل مونفوكون العظمية .

وتمتم :

– اوه ! تدفعها رياح الليل ليصطدم بعضها ببعض ، وتمزج ضجة سلاسلها بضجة عظامها ! يمكن انها هنا ! بين هذه الهياكل العظمية !

كان والهاً لا يعرف الى اين يسير . وقد وجد نفسه بعد بضع خطوات على جسر سان ميشال . وكان هناك ضوء ونافذة في طابق ارضي ، فاقترب . ومن خلال زجاج مشقق رأى قاعة قذرة ايقظت في ذهنه ذكرى مشوشة . ففي

تلك القاعة المضاءة بشكل سيء بقنديل هزيل ، كان يوجد شاب اشقر وناضر ، ذو وجه مرح ، يعانق مقهقهاً فتاة متبرجة بشكل وقح . وبالقرب من القنديل عجوز تغزل وتغني بصوت مرتجف . وبما ان الشاب لم يكن يضحك بشكل دائم ، فان اغنية العجوز كانت تصل قطعاً الى الكاهن . كانت مزيجاً من المبهم والمخيف .

غريف ، تنبح ، غريف تتحرك !
إغزل ، إغزل ، يا مغزلي ،
اغزل حبل الجلاّد
الذي يصفر في الساحة .
غريف تنبح ، غريف تتحرك !

يا حبل القنّب الجميل !
ابذر من إيسي حتى فانفر
قنّباً وليس قمحاً .
فالسارق لم يسرق
حبل القنّب الجميل !

غريف تتحرك ، غريف تنبح !
لترى ابنة المتعة
مشنوقة بالمشنقة الرمصاء ،
والنوافذ هي عيون .
غريف تتحرك ، غريف تنبح !

وكان الشاب يضحك ويداعب الفتاة . اما العجوز فهي لافالورديل ؛ والفتاة

من البنات العموميات ؛ والشاب هو اخوه الصغير جهان .

وظل يتطلع . فهذا المشهد كغيره .

ورأى جهان يذهب الى نافذة في داخل القاعة ويفتحها ، ويلقي نظرة على الرصيف حيث كانت تلمع في البعيد الف نافذة مضيئة ، وسمعه يقول وهو يغلق النافذة :

– قسماً بروحي ! لقد اصبح الوقت ليلاً . والبورجوازيون يضيئون مصابيحهم والله نجومه .

ثم عاد جهان نحو البغيّ وكسر زجاجة كانت على المنضدة وهو يهتف :

– انها الآن فارغة . وليس معي مال ! يا صديقتي ايزابو . لن اكون مسروراً من جوبتير الا حين يبدل حلمتي ثديك البيضاوين بزجاجتين سوداوين . وذلك لأجعلك ترضعين من خمر بون نهاراً وليلاً .

وقد اضحكت هذه المزحة الجميلة بنت الهوى . وخرج جهان :

ولم يتسع الوقت للدوم كلود الا بأن يرتمي ارضاً لئلا يلتقي بأخيه ، ويتطلع في وجهه فيعرفه . ومن حسن الحظ كان الشارع مظلماً ، وكان الطالب ثملاً . ومع ذلك فقد لمح الكاهن نائماً على الارض في الوحل فقال :

– اوه ! هذا واحد عاش اليوم عيشة مرحة .

وحرك الدوم كلود برجله ، الا ان الكاهن حبس انفاسه ، وتابع جهان :

– ايها السكير الميت. هيا ، انه ملآن . عَلَقة حقيقية منفصلة عن برميل .

واضاف وهو ينحني :

– انه اصلع . وهو عجوز ! يا لهرم السعيد !

وسمعه الدوم كلود يبتعد قائلاً :

– سيّان ! العقل شيء جميل واخي الخوراسقف سعيد جداً لكونه حكيماً وذا مال .

عندئذ نهض الخوراسقف وركض بسرعة نحو كنيسة نوتردام حيث راى ابراجها الضخمة تنبجس في الظلام فوق البيوت .

وحين وصل لاهثاً الى ساحة بارفي تراجع ولم يجرؤ على رفع عينيه الى العمارة المشؤومة ، وقال بصوت منخفض :

– اوه ! اصحيح ان امراً كهذا حدث هنا اليوم ، وفي هذا الصباح بالذات ؟

الا انه جازف بالتطلع الى الكنيسة . كانت واجهتها مظلمة ، والسماء وراءها تتألق بالنجوم . وهلال القمر الذي زال من الافق كان قد توقف في تلك اللحظة على قمة البرج الايمن ، وبدا جاثماً كعصفور لامع على حافة الحاجز المقطع كورق الخندقوق الاسود .

كان باب الدير مغلقاً . ولكن الخوراسقف يحمل دائماً مفتاح البرج حيث يوجد مختبره ، فاستعمله ليدخل الى الكنيسة .

وجد في الكنيسة ظلام الكهف وصمته . ومن الظلال الكبرى المتساقطة من جميع النواحي بذيول عريضة ، عرف ان طنافس احتفال الصباح لم تكن قد رفعت بعد . والصليب الفضي الكبير يتلألأ في اعماق الظلمات ، وقد ذرت عليه بعض النقاط اللامعة كدرب المجرة في تلك الليلة المأتمية . اما نوافذ الخورس الطويلة فكانت تبدي الطرف الاعلى من اقواسها فوق زينة الستائر السوداء ، حيث زجاجها الذي يخترقه شعاع القمر لم يكن فيه سوى الوان الليل القليلة الضياء ، نوع من البنفسجي والابيض والازرق وهي الالوان التي لا توجد صبغتها إلا على وجوه الموتى . وحين رأى الكاهن حول الخورس رؤوس الاقواس الشاحبة ظن انه يرى تيجان اساقفة هالكين . فأغمض عينيه ، وحين فتحهما ظن ان ذلك دائرة من الوجوه الشاحبة تتطلع اليه .

وهرب خلال الكنيسة فخيل اليه حينئذٍ ان الكنيسة ايضاً تهتز وتتحرك ، وتتنفس ، وتعيش ، وان كل عمود كبير اصبح قدماً ضخماً يضرب الارض بمسوطه Spatule الحجري العريض ، وان الكاتدرائية الجبارة ليست سوى نوع

من الفيل الاعجوبي الذي ينفخ ويمشي على اعمدة بدلاً من الاقدام ، وبرجاها كالخرطومين ، وستارها الواسع الاسود كسرج فاخر .

وهكذا وصلت الحمّى والجنون الى درجة من الشدة بحيث ان العالم الخارجي لم يكن بنظر المنكود سوى نوع من الرؤيا المنظورة ، الملموسة ، المخيفة .

ووجد شيئاً من العزاء لفترة وجيزة . وبينما كان يغوص في النواحي المنخفضة شاهد ألقاً اخر وراء كتلة كثيفة من الاعمدة . فركض اليه كأنه نجم . انه القنديل الضعيف الذي ينير كتاب الصلاة العمومي نهاراً وليلاً في نوتودام وراء شبكته الحديدية . والقى نفسه بشراهة على الكتاب المقدس آملاً ان يجد فيه بعض العزاء او بعض التشجيع . كان الكتاب مفتوحاً على هذا المقطع من سفر ايوب حيث استقرت عينه عليه : « ومر روح امام وجهي ، وسمعت نفساً خفيفاً قفّ له شعر جسدي » .

ولدى هذه التلاوة المحزنة شعر بما يشعر به الاعمى وقد لدغته العصا التي التقطها . فتخاذلت ركبتاه تحته وسقط على البلاط مفكراً بتلك التي ماتت في النهار . وشعر كأن دخاناً هائلاً يمر ويصب في دماغه بحيث خُيّل اليه ان رأسه اصبح احدى مداخن الجحيم .

ويبدو انه ظل وقتاً طويلاً في ذلك الوضع غير مفكر بشيء ، غارقاً مستسلماً ليد الشيطان . واخيراً عاد اليه شيء من القوة ، ففكر بان يذهب ويلتجيء الى البرج بالقرب من خادمه المخلص كازيمودو . فنهض ، وبما انه كان خائفاً ، فقد اخذ قنديل كتاب الصلاة لينير طريقه . وهذا تدنيس للمقدسات . ولكنه كان في حالة لا يهتم معها بهذا الامر التافه .

وتسلق درج الابراج متمهلاً ، مليئاً برعب خفي نشره في المارّة القلائل في ساحة بارفي ذلك النور الغامض المنبعث من قنديله الصاعد متأخراً من كوة الى كوة في اعلى برج الجرس .

وفجأة شعر ببعض الرطوبة على وجهه ووجد نفسه تحت باب اكثر الأروقة

ارتفاعاً . كان الهواء بارداً ؛ والسماء مثقلة بالغيوم حيث نصالها البيضاء كانت تتزاحم وتتحطم عند زواياها وتتشكل ذوبان الجليد في نهر خلال الشتاء . اما الهلال الغارق وسط هذه السحب فكان يشبه سفينة سماوية مسجونة في جليد الهواء .

وخفض بصره وتأمل لحظة خلال حديد الاعمدة الصغيرة التي تجمع البرجين ، في البعيد ، وخلال شفٍّ من الضباب والدخان ، تلك المجموعة الصامتة لسطوح باريس الحادة التي لا تحصى ، والمتزاحمة الصغيرة كأمواج بحر هادىء في ليلة صيف .

وكان القمر يلقي شعاعاً ضعيفاً يكسب السماء الزرقاء صبغة رمادية .

في تلك اللحظة رفعت الساعة صوتها المتواتر الشديد . لقد دقت معلنة انتصاف الليل . وفكر الكاهن بوقت الظهر . لقد عادت الساعات الاثنتي عشرة .

وقال لنفسه بصوت منخفض :

- اوه ! يجب ان تكون الآن باردة !

وفجأة اطفأت قنديله هبة ريح ، وفي الوقت نفسه تقريباً شاهد في الزاوية المقابلة من البرج ظهور شبح ، بياض ، شكل امرأة . فارتعش . وكان الى جانب تلك المرأة معزاة صغيرة تمزج ثغاءها بآخر ثغاء للساعة .

كانت شاحبة ، قاتمة . وكان شعرها يتساقط على كتفيها كما في الصباح . ولكن ليس في عنقها حبل ، وليست يداها موثقتين . كانت حرة. كانت ميتة.

انها ترتدي البياض وعلى رأسها قناع ابيض .

كانت آتية نحوه ، متمهلة ؛ تتطلع الى السماء ، والمعزاة غير الطبيعية تتبعها . فشعر انه حجر ، وانه ثقيل جداً على الهرب . ولدى كل خطوة كانت تخطوها الى الامام كان يخطو خطوة الى الوراء . وكان هذا كل شيء . ودخل تحت القبة المظلمة من الدرج متجمداً لفكرة امكان دخولها ايضاً . ولو فعلت ذلك لمات من الرعب .

وبالفعل ، فقد وصلت الى امام باب الدرج ، وتوقفت بضع لحظـــات ، وتطلعت في الظلام ، ولكن دون ان يبدو عليها انها رأت الكاهن ، ومرت . لقد بدت له اكبر مما كانت وهي حية ؛ ورأى القمر من خلال ثوبها الابيض ؛ وسمع تنفسها .

وحين مرت ، اخذ يهبط الدرج متمهلاً كالشبح ، ظانـاً انه شبح ايضاً ، شارداً ، مسترسل الشعر ، وقنديله المطفأ لا يزال في يده . وفي اثناء هبوطـه الدرج اللولبي سمع بوضوح صوتاً يضحك ويردد في اذنه :

- «.. ومر روح امام وجهي، وسمعت نفساً خفيفاً قف» له شعر جسدي» .

٢

احدب ، اعور ، اعرج .

كل مدينة في القرون الوسطى ، وكل مدينة في فرنسا حتى عهد لويس الثاني عشر ، كان لها ملاجئها . وهذه الملاجيء ، بين طوفان القوانين الجزائية والسلطات القضائية البربرية التي كانت تفيض على المدينة ، كانت نوعاً من الجزر المرتفعة فوق مستوى العدالة البشرية . وكل مجرم يقترب منها فانه ينجو . وفي كل ناحية كان يوجد من الملاجيء بقدر ما يوجد من اماكن الشنق . وكان هذا تطرفاً في عدم العقاب الى جانب تطرف في العقوبات . امران سيئان يحاولان اصلاح نفسيهما الواحد بواسطة الآخر . فقصور الملـــك ، وقصور الامراء ، والكنائس بوجه خاص كان لها حق الملجأ . واحياناً مدينة بكاملها يراد اعادة تأهيلها بالسكان فيجعلون منها ملجأ مؤقتاً . ولويس الحادي عشر جعل باريس ملجأ عام ١٤٦٧ .

والمجرم ما يكاد يضع رجله في الملجأ حتى يصبح مقدساً ؛ ولكن يجب ان يحرص على الا يخرج منه . فأية خطوة خارج المكان المقدس تعيده الى السقوط في الموج . والدولاب ، والمشنقة ، والصاري تقيم حراسة جيدة حول مكان اللجوء ، مترصدة فريستها دون انقطاع كسمك القرش حول السفينة . وقد شوهد محكومون داهمهم الشيب في محبسهم ، او على درج قصر ، او في ارض دير ، وتحت مدخل كنيسة ؛ وبهذه الطريقة يكون الملجأ سجناً كغيره . وكان يحدث احياناً ان يصدر عن البرلمـــان قرار احتفالي ينقض حق اللجوء ويعيد

المحكوم الى الجلاد ؛ ولكن هذا الامر كان نادراً . والبرلمانات تنفّر الاساقفة ، وحين كان هذان الثوبان يحتكان فان لعب ثوب القاضي لم يكن جميلًا مع جبة الاسقف . الا انه احياناً ، كما في قضية قتلة بني – جان جلاد باريس ، وفي قضية لمري روسو قاتل جان فاليه ، فان القضاء كان يقفز فوق الكنيسة ويسير الى تنفيذ احكامه ؛ ولكن ، باستثناء قرار البرلمان ، فالويل لمن ينتهك حرمة مكان اللجوء بالسلاح ! ونحن نعرف كيف كانت ميتة روبير دي كليرمون ماريشال فرنسا وجـــان دي لون ماريشال دي شامبانيه ؛ ولم يكن المقصود آنذاك سوى من يدعي بيران مارك ، وهو غلام صراف ، وقاتـــل بائس ، ولكن الماريشالين كانا قد حطما ابواب سان ميري ، وهنا كانت الفظاعة .

ويوجد حول الملاجيء نوع من الاحترام ، حسب التقليد ، تصاب بـــه الحيوانات احياناً . ويحدثنا إيموان ان عبداً رقيقاً طرده داغوبير فالتجأ بقرب قبر القديس دنيس ، وتوقفت الكلاب عن مطاردته وهي تنبح .

وكان في الكنائس عادة مكان معد لاستقبال المتوسلين . ففي عام ١٤٠٧ بني لهم نيقولا فلاميل على قباب القديس جاك ديلابوشيري غرفة كلفته اربـع ليرات وستة سول وستة عشر دنيه باريزي .

اما في كنيسة نوتردام فهي صومعة موجودة في نهاية النواحي المنخفضة تحت انصاف القناطر ، قبالة الدير ، وبكلمة اوضح ، في المكان الذي انشأت فيه زوجة بواب الابراج الحالي حديقة هي بالنسبة لجنائن بابل المعلقة كالخس بالنسبة لشجرة النخيل ، وكالحاجبة بالنسبة لسميراميس .

هناك وضع كازيمودو ازميرالدا بعد ركضه الجموح المنتصر على الابراج وفي الاروقة . ولم تسترجع الفتاة وعيها طوال مدة هذا الركض ، بل كانت نصف نائمة ونصف مستيقظة ، لم تشعر بشيء سوى انها كانت تصعد في الهواء ، وانها تطفو فيه ، وتطير فيه ، وان شيئاً ما كان يرفعها فوق الارض . وبين وقت وآخر كانت تسمع الضحكة المتفجرة ، وصوت كازيمودو الداوي في اذنها ؛ وفتحت عينيها نصف فتحة ، وعندئذ رأت تحتها بشكل غـامض باريس المبرقشة

بالوف من سطوحها القرميدية والآجر كفسيفساء حمراء وزرقاء ، وفوق رأسها وجه كازيمودو المخيف الفرح . عندئذٍ اطبقت جفونها ؛ كانت تعتقد ان كل شيء قد انتهى وانهم نفذوا بها الحكم اثناء اغمائها ، وان الروح المشوهة التي اشرفت على مصيرها قد استعادتها وحملتها ، ولم تكن تجرؤ على النظر اليها ، واستسلمت لمصيرها .

ولكن حين وضعها قارع الاجراس المشعث الشعر اللاهث في غرفة اللجوء ، وحين شعرت بيديه الضخمتين تفكان بهدوء الحبل الذي ايبس ذراعيها ، شعرت بذلك النوع من الهزة التي توقظ ركاب سفينة تصطدم بالارض في ليلة مظلمة . واستيقظت افكارها ايضاً وعادت اليها واحداً واحداً . ورأت انها في كنيسة نوتردام . وتذكرت انها انتزعت من يدي الجلاد ، وان فوبوس حي ، وانه لا يحبها ؛ وهاتان الفكرتان ، وقد نشرت احداهما كثيراً من المرارة على الاخرى ، تمثلتا معاً للمحكومة المسكينة ، فالتفتت الى كازيمودو الذي كان واقفاً امامها ، وقالت له :

— لماذا انقذتني ؟

فتطلع اليها بقلق كأنه يحاول ادراك ما كانت تقوله له . واعادت سؤالها . وعندئذ القى عليها نظرة حزينة بعمق وهرب .

وبقيت مندهشة :

وعاد بعد لحظات حاملاً صرة القاها على قدميها . انها ملابس كانت بعض النسوة المحسنات قد القينها لأجلها على عتبة الكنيسة . وعندئذ خفضت بصرها فرأت نفسها شبه عارية ، فاحمر وجهها وعادت اليها الحياة .

وبدا كازيمودو انه شعر بشيء من هذا الخجل ، فغطى عينه بيده العريضة وابتعد مرة ثانية ولكن بخطى متمهلة .

واسرعت بارتداء الملابس . لقد كان ثوباً ابيض بخمار ابيض . ثياب راهبة مبتدئة في اوتيل ديو .

وما كادت تنتهي حتى رأت كازيمودو يعود . كان يحمل سلة تحت ابطه

وفراشاً تحت الآخر . وكان في السلة زجاجة وخبز وبعض المؤن . وضع السلة على الارض وقال :

- كلي !

ثم مد الفراش على البلاط وقال : نامي .

لقد جاء قارع الاجراس بطعامه الخاص وفراشه .

ورفعت الغجرية عينيها اليه لتشكره ؛ ولكنها لم تستطع ان تنطق بكلمة . فقد كان الشيطان المسكين مرعباً عن حق . فخفضت رأسها بارتعاشة خوف . وعندئذ قال لها .

- قد اخفتك . انا بشع جداً ، اليس كذلك ؟ لا تنظري الي . اصغي الي فقط . في النهار ستبقين هنا ؛ وفي الليل تستطيعين التجول في جميع انحاء الكنيسة ؛ ولكن لا تخرجي من الكنيسة لا نهاراً ولا ليلاً لانك ستهلكين . سيقتلونك وسأموت .

فتأثرت ورفعت رأسها لتجيبه ، ولكنه اختفى . ووجدت نفسها وحيدة حالمة بالكلام الغريب الذي فاه به هذا الكائن البشع ، ومع ذلك فهو عذب .

ثم تفحصت غرفتها . كانت غرفة بستة اقدام مربعة ، مع كوة صغيرة وباب على مخطط السطح المنحني قليلاً من الحجارة المسطحة . وهناك عدة ميازيب ذات وجوه حيوانية كانت تبدو مختفية حولها مادة عنقها لتراها من الكوة . وعلى حافة سطحها شاهدت اعلى الوف المداخن التي يتصاعد منها امام ناظريها دخان جميع نيران باريس . وهو مشهد كئيب للغجرية المسكينة ، اللقيطة ، المحكومة بالاعدام ، المخلوقة اليائسة ، دون وطن ، ولا عائلة ، ولا بيت .

وفي اللحظة التي بدت لها فيها عزلتها اكثر ايلاماً من اي وقت مضى شعرت برأس اشعر ملتحٍ ينزلق بين يديها وعلى ركبتيها ، فارتجفت (كان كل شيء يخيفها الآن) ، وتطلعت . انها المعزاة المسكينة الرشيقة دجالي التي هربت على اثرها في اللحظة التي بعثر فيها كازيمودو شرزمة شارمولو . والتي استمرت

تداعب قدميها منذ اكثر من ساعة دون ان تستطيع الحصول على نظرة . لقد غمرتها الغجرية بالقبلات وهي تقول :

– اوه ! دجالي ، لكني نسيتك ! اذن انت تفكرين بي دائماً! اوه ! انت لست عقوقة !

واخذت تبكي كما لو ان يداً غير منظورة رفعت الثقل الذي كان يحصر الدموع في قلبها منذ امد طويل ؛ وبقدر ما كانت دموعها تسيل كانت تشعر ان كل ما في المها من حدة ومرارة كان يسيل مع هذه الدموع .

وجاء المساء فوجدت الليل كثير الجمال ، والقمر كثير العذوبة . وقامت بدورة في الرواق المرتفع المحيط بالكنيسة . وشعرت من جراء ذلك ببعض العزاء بينما بدت لها الارض هادئة وقد رأتها من ذلك الارتفاع .

٣

أصـــم

عندما استيقظت في الصباح لاحظت انها نامت نوماً عميقاً . وقد ادهشها هذا الأمر الغريب . فقد مر وقت طويل فقدت فيه عادة النوم وكان شعاع فرحٌ من اشعة الشمس الشارقة يدخل من كوتها ويلامس وجهها . وفي الوقت نفسه رأت شيئاً اخافها ، صورة كازيمودو البائسة ، فأغمضت عينيها بشكل لا ارادي، ولكن عبثاً ؛ كانت تعتقد دائماً انها ترى من خلال جفونها الوردية ذلك القناع العفريتي الاعور الأدرد . وحينئذٍ ، وقد ابقت عينيها مطبقتين ، سمعت صوتاً خشناً يقول لها بلطف :

– لا تخافي ، انا صديقك . جئت لأرى اذا كنت تنامين . وهذا لا يسبب لك اي ضرر . اليس انني اتيت لأراك تنامين ؟ ماذا يضيرك ان اكون هنا عندما تكونين مطبقة العينين؟ والآن انا ذاهب. اني اقف وراء الحائط تستطيعين ان تفتحي عينيك .

كان هناك شيء اكثر شكاية من هذا الكلام ، هو تلك اللهجة التي قيل بها . وتأثرت الغجرية ففتحت عينيها . لم يكن بالفعـل في الكوة . فسارت الى تلك الكوة ورأت الاحدب المسكين رابضـاً في زاوية من الجدار ، في وضع مؤلم خاضع . وبذلت جهداً لتتغلب على الاشمئزاز الذي يوحيه اليهـا وقالت بلطف : تعال .

وظن كازيمودو من حركة شفاه الغجرية انها تطرده ؛ عندئذٍ نهض وانسحب

وهو يعرج ، متمهلاً ، محطم الرأس دون ان يجرؤ على رفع نظره المليء بالالم الى الفتاة . فصرخت :

– تعال !

ولكنه استمر في الابتعاد، فاندفعت خارج الغرفة وركضت اليه وامسكت بذراعه . وحين شعر كازيمودو بلمسها له ارتجف بجميع اعضائه . ورفع عينه المتوسلة ، ورأى انها ادنته منها ، فتألق وجهه بالفرح والحنو . وكانت تريد ان تدخله الى غرفتها ولكنه اصر ان يبقى على العتبة قائلاً :

– كلا ، كلا ، ان البومة لا تدخل وكنة القبّرة .

وجلست بكياسة على فراشها مع معزاتها النائمة عند قدميها . وظل الاثنان جامدين بضع لحظات ، متأملين بصمت ، هو ذلك الجمال العظيم وهي ذلك القبح العظيم . وفي لحظة كانت تكتشف في كازيمودو مزيداً من التشويه . وكان نظرها ينتقل من الركبتين المعوجتين الى الظهر المحدودب، الى العين الوحيدة ولم تستطع ان تفهم وجود كائن مرسوم بهذا الشكل الاخرق . الا ان شيئاً من الحزن والعذوبة كان منتشراً في كل ذلك بحيث بدأت تعتاد عليه .

وقطع الصمت اولاً فقال :

– اذن فقد دعوتني لأرجع ؟

فأتت باشارة ايجابية من رأسها وهي تقول : نعم

ففهم اشارة الرأس وقال كأنه يتردد في الاكمال :

– واأسفاه ! هذا لأنني ... انا اصم .

فهتفت الغجرية معبرة عن شفقة عطوف :

– يا للرجل المسكين !

فأخذ يبتسم بألم وقال :

– انت ترين انه لا ينقصني سوى هذا، اليس كذلك؟ نعم، انا اصم، هكذا خلقت ، وهذا رهيب ، اليس صحيحاً ؟ انت كثيرة الجمال ، انت !

كان في لهجة البائس عاطفة كثيرة العمق من بؤسه بحيث لم تأنها القوة لتقول

كلمة . ومع ذلك فهو لن يسمعها . وتابع :

— ابداً ، لم أر بشاعتي كما اراها الآن . حين اقارن نفسي بك فاني اشفق على نفسي ، انا المسخ المسكين البائس ! يجب ان يكون تأثيري عليك كتأثير حيوان . قولي . — انت ، انت شعاع شمس ، قطرة ندى ، صداح عصفور ! اما انا فشيء رهيب ، لا رجل ولا حيوان ، بل شيء اكثر قساوة ، واكثر تمرغاً تحت الاقدام ، واكثر تشوهاً من حصاة !

ثم اخذ يضحك ، وكانت هذه الضحكة شيئاً مؤثراً جداً . وتابع :

— نعم ، انا اصم . ولكنك ستكلمينني بالحركات والاشارات . لي معلم يحدثني بهذه الطريقة . ثم ، انني سأعرف ارادتك بسرعة من حركة شفتيك ومن نظرتك .

فقالت مبتسمة :

— حسناً ! قل لي لماذا انقذتني ؟

فتطلع اليها بانتباه وهي تتكلم واجاب .

— لقد فهمت . انت تسألينني لماذا انقذتك . انك نسيت ذلك المنكود الذي حاول اختطافك ذات ليلة ، ذلك المنكود الذي حملت اليه العون في الغد على وتد التعذيب الشائن . قطرة ماء وبعض الشفقة ، وهذا اكثر مما استطيع وفاءه بحياتي كلها . لقد نسيت ذلك البائس ؛ اما هو فقد تذكر .

كانت تصغي اليه بحنو عميق . وكانت دمعة تجول في عين قارع الاجراس ولكنها لم تسقط منها . فقد بدا انه يجد نوعاً من الشرف في التهامها .

وتابع حين زال خوفه من سقوط هذه الدمعة :

— اسمعي ، عندنا هنا ابراج كثيرة الارتفاع ، والرجل الذي يسقط منها يموت قبل ان يلمس البلاط ؛ فحين يروق لك ان اسقط منها فليس عليك الا ان تقولي كلمة . واشارة من عينك تكفي .

ونهض . هذا الكائن الغريب ايقظ في الغجرية شيئاً من الرحمة ، مهما بلغ بها البؤس . فأشارت اليه ان يبقى . فقال :

– كلا . يجب الا امكث طويلاً . لا اكون مرتاحاً حين تنظرين الي . واذا كنت لم تلفتي وجهك عني فان ذلك بدافع الشفقة . سأذهب الى مكان استطيع ان اراك منه دون ان تريني . هذا افضل .

وسحب من جيبه صافرة معدنية صغيرة وقال :

– خذي . عندما تكونين بحاجة الي ، وعندما تريدين ان آتي ، وعندما لا يصيبك كثير من الرعب لرؤيتي ، فصفري بهذه . اني اسمع هذه الضجة .

ووضع الصافرة على الارض وهرب .

٤

فخار وبلور[١]

وتتابعت الايام .

وعـــاد الهدوء شيئاً فشيئاً الى نفس ازميرالدا . والألم الشديد ، كالفرح الشديد ، شيء عنيف يدوم قليلاً . وقلب الرجل لا يستطيـع ان يظل طويلاً في احد الاطراف . كانت الغجرية قد تعذبت كثيراً بحيث لم يكن قد بقي لها من ذلك سوى الدهشة .

ومع السلامة عاد اليها الأمل . لقد كانت خارج المجتمع ، خارج الحيـاة ، ولكنها كانت تشعر بشكل مبهم ان عودتها اليها ان تكون مستحيلة . كانت كالميتة التي تحتفظ بمفتاح قبرها .

وكانت تشعر بان الصور المخيفة التي لازمتها طويلاً اخذت تبتعد عنها تدريجياً وجميـع الاشباح الفظيعة ، وبيارا تورتيرو ، وجاك شارمولو قد امحت كلها من ذهنها ، حتى الكاهن نفسه .

ثم ان فوبوس لا يزال حياً . كانت متأكدة من ذلك ، فقد رأته . وحياة فوبوس كانت كل شيء . وبعد سلسلة الهزات المشؤومة التي هدمت كل شيء فيها ، لم تجد ما يزال قائماً في نفسها سوى شيء واحد ، سوى عاطفة ، حبهـــا للضابط ، ذلك لأن الحب كشجرة تنمو من تلقاء نفسها ، وتقذف جذورهـــا

---

١ ــ كان العنوان الاصلي في المخطوطة : « الاناءان » .

عميقــةً في كل كياننا ، وفي اغلب الاحيان تستمر في الاخضرار على قلب متهدم .

اما ما يتعذر تفسيره فهو ان هذه العاطفة كلما كانت عمياء يزداد تماسكها ولا تكون اكثر صلابة الا عندما تصبح بدون مبرر .

ومما لا شك فيه ان الغجرية لم تكن تفكر بالضابط دون مرارة ، وان من الشناعة ان يُخدع ، هو نفسه ؛ وان يؤمن بأمر يستحيل حدوثه ، وان يعتقد ان طعنة الخنجر اتته من تلك التي تبذل الف حياة في سبيله . ولكن يجب الا تلومه كثيراً ؛ الم تعترف « بجريمتها » ؟ الم تخضع للعذاب وهي المرأة الضعيفة ؟ ان الخطأ منها . كان عليها ان تدعهم يقتلعون اظافرها دون ان تفوه بكلمة . واخيراً ، ان ترى فوبوس مرة واحدة ، دقيقة واحدة ، لن يلزم سوى كلمة ، سوى نظرة لافهامه الحقيقة ، لإعادته . انها لم تكن تشك بذلك. وكانت ايضاً تشغل بالها بكثير من الامور الغريبة ، بصدفــة وجود فوبوس يوم تقديم الكفارة المشرفة . والفتاة التي كان معها . انها اخته دون شك . تعليل غير معقول ولكنها اكتفت به ، لانها بحاجة الى الاعتقاد ان فوبوس كان يحبها دائماً ولا يحب غيرها . الم يقسم لها على ذلك ؟ وماذا يلزمها اكثر من هذا ؟ هي الساذجة السريعة التصديق ؟ وثم في هذه القضية ، الم تكن الظواهر ضدها اكثر مما هي ضده ؟ اذن فقد كانت تنتظر . كانت تأمل .

ولنضف ان الكنيسة ، تلك الكنيسة الفسيحة التي تلفها من جميع النواحي ؛ وتحرسها ، وتنقذها ، كانت هي نفسها عامل تهدئة . فالخطوط الاحتفالية لذلك البناء ، والوضع الديني لجميع الاشياء التي تحيط بالفتاة ، والافكار الورعــة الصافية التي تصدر من جميع مسام هذا الحجر ، اذا صح القول ، كان يؤثر عليها دون ان تعلم . فقد كان للعمارة ايضاً ضجيج ذو بركة وجلال ، يهدىء تلك النفس المريضة . والترتيل الرتيب للمحتفلين بالقداس ، واجوبــة الشعب للكهنة ، غير الواضحة حيناً والراعدة حيناً آخر ، وارتجاج الزجاج المتناسق ، والارغن المتفجر كمئة بوق ، والاجراس الثلاثة الطنانة كقفران من النحال

الكبيرة ، وكل تلك الجوقة التي يقفز عليها سلّم موسيقي ضخم صاعد ونازل دون انقطاع من جمهور الى برج الدرج ، كانت تُصمّ ذاكرتها ومخيلتها وألمها . وكانت الاجراس على الخصوص تهدهدها . وكانت تلك الاجهزة الواسعة كمغناطيس قوي ينتشر عليها بامواج كبيرة .

وكل شمس مشرقة كانت تجدها اكثر هدوءاً ، وافضل تنفساً ، واقل شحوباً . وبقدر اندمال جراحها الداخلية يزداد تفتح ظرفها وجمالها على وجهها ولكن بشكل اكثر استجماعاً واكثر استراحة . وعادت اليها نفسيتها الاولى ايضاً ، وشيء من مرحها وكشرتها الجميلة ، ومحبتها لمعزاتها ، وذوقها للغناء ، وحياؤها . وكانت تعتني بارتداء ملابسها صباحاً في زاوية مسكنها خوفاً من ان يراها احد سكان العلالي المجاورة من الكوة .

وحين يسمح لها تفكيرها بفوبوس بشيء من الوقت كانت تفكر بكازيمودو احياناً . لقد كان هو الرباط الوحيد ، العلاقة الوحيدة ، الاتصال الوحيد الذي بقي لها مع الناس ، مع الاحياء . يا للبائسة ! لقد كانت خارج الدنيا اكثر من كازيمودو ! لم تكن تفهم شيئاً عن الصديق القريب الذي منحتها الصدفة اياه . وفي اغلب الاحيان كانت تلوم نفسها على عدم عرفان الجميل الذي يغمض عينيها . ولكنها بالتأكيد لم تكن تستطيع الاعتياد على قارع الاجراس المسكين . فقد كان شديد القبح .

وكانت قد تركت على الارض الصافرة التي اعطاها اياها . وهذا لم يمنع كازيمودو من معاودة الظهور بين وقت وآخر في الايام الاولى . وكانت تبذل جهدها لئلا تدير وجهها باشمئزاز عندما يأتي ويجلب لها سلة الطعام او جرة الماء ، ولكنه كان دائماً يفطن لأقل حركة من هذا النوع ، وعندئذ يذهب حزيناً .

وذات مرة جاء حين كانت تداعب دجالي . فظل بعض الوقت مفكراً امام هذه الجماعة البديعة المؤلفة من المعزاة والغجرية .. واخيراً قال وهو يهز برأسه الثقيل السيء التكوين :

كانت مصيبتي في انني لا ازال كثير الشبه بالانسان ، واريد ان اكون بهيمة كاملة كتلك المعزاة .

فرفعت اليه نظرها مندهشة . ورد على هذه النظرة :

– اوه ! انا اعلم لماذا .

ثم ذهب .

ومرة اخرى وقف بباب الغرفة (حيث لم يكن يدخلها ابداً) بينما كانت ازميرالدا تغني اغنية اسبانية قديمة لا تفقه معنى كلامها ولكنها بقيت في اذنهـا لأن الغجريات كن يهدهدنها بها وهي طفلة . ولدى رؤية هذا الوجـه البشع الذي ظهر فجأة في منتصف اغنيتها ، فان الفتاة انقطعت عن الغنـــاء بحركة رعب لاإرادية . فسقط قارع الاجراس المسكين راكعاً على عتبة الباب ضاماً يديه الضخمتين الناقصتين متوسلاً . وقال بألم :

– اوه ! اتوسل اليك ، استمري ولا تطرديني .

فلم تشأ ان تحزنه ، وتابعت اغنيتها وهي ترتجف . الا ان ذعرها تبدد شيئاً فشيئاً واستسلمت تمام الاستسلام لتـــأثير اللحن الكئيب الرتيب الذي كانت تغنيه . اما هو فظل راكعاً على ركبتيه ، ضاماً يديه ، كأنه في حالة صلاة ، منتبهاً ، ملتقطاً انفاسه ، ونظره مستقر على حدقتي الغجرية اللامعتين . حتى ليخيل انه يسمع اغنيتها من عينيها .

ومرة اخرى جاء اليها بهيئة خرقاء حيية ، وقال بجهد :

– اصغي الي . عندي ما اقوله لك .

فأتت باشارة تفيد انها مصغية اليه . وعندئذ اخذ يتأوه ، وفتح شفتيـه نصف فتحة ، وبدا للحظة مستعداً للكلام ، ثم نظر اليها وأتى باشارة سلبية من رأسه ، وانسحب متمهلاً وجبهته في يده ، تاركاً الغجرية مندهشة .

وكان بين الاشخاص الغريبة المنحوتة في الجدار واحد يحبه بشكل خاص ويبدو في اغلب الاحيان انه يبادله النظرات الاخوية . وقد سمعتـه الغجرية مرة يقول له :

– اوه ! لماذا لم اكن حجراً مثلك !

واخيراً ذات يوم ، في الصباح كانت ازميرالدا قد تقدمت حتى حافة السطح وتطلعت الى الساحة من فوق سطح سان - جان لرون . وكان كازيمودو هناك وراءها . لقد وقف هكذا من تلقاء نفسه ليوفر بقدر الامكان على الفتاة الغم من رؤيتـه . وفجأة ارتجفت الغجرية . وسطعت دمعة وبريق سرور معـــاً في عينيها ، وركعت على حافة السطح ومدت ذراعيهـــا باضطراب نحو الساحة صارخـــة :

– فوبوس ! تعال ! تعال ، كلمة ، كلمة واحدة بحق السماء ! فوبوس ! فـوبوس !

وصوتها ، ووجهها ، وحركتها ، وكل شخصها كان ذا تعبير مؤثر لغريق يعطي اشارة الضيقة لسفينة مسرورة تمر بعيداً في شعاع شمس الافق .

وانحنى كازيمودو على الساحة ورأى ان موضوع هذا التوسل الحنون الهاذي كان شاباً ، ضابطاً ، فارساً جميلاً ، متألقاً بالسلاح والزينة كان يمر وهو يثب وثباً خفيفاً في نهاية الساحة ويحيي بزينة من ريش سيدة جميلة مبتسمة في شرفتها. وبعد ، فالضابط لم يسمع البائسة التي نادته ، فقد كان بعيداً جداً .

ولكن الاصم المسكين كان يسمعها. ورفعت صدره آهة عميقة ، واستدار. كان قلبه مليئاً بجميع الدموع التي التهمها ؛ واصطدمت قبضتـــاه المتشنجتان برأسه ، وحين سحبها كان في كل يد منها قبضة من الشعر الامغر .

اما الغجرية فلم تعره اي انتبـــاه . وكان يقول بصوت منخفض صاراً بأسنانـــه :

– اللعنة ! هكذا يجب ان يكون المرء ! فهو ليس بحاجة الا ان يكون جميلاً من الخارج !

الا انها ظلت راكعة على ركبتيها وهي تصرخ ببلبلة غير عادية :

– اوه ! ها هو يترجل عن الجواد ! انه على وشك الدخول الى ذلـــك

البيت !فوبوس!انه لا يسمعني. فوبوس ! ما اخبث هذه المرأة التي تحدثه في الوقت الذي اناديه ! فوبوس ! فوبوس !

كان الاصم ينظر اليها . وكان يفهم هذه الايماءات . وقد امتلأت عين قارع الاجراس المسكين بالدموع ، ولكنه لم يدع اية قطرة تجري . وفجأة سحبها بطرف كمها بهدوء . فالتفتت ، وابدى سيماء الاطمئنان ، وقال لها :

– اتريدين ان اذهب وابحث عنه ؟

فصرخت صرخة فرح وقالت :

– اوه ! اذهب ! سر ! اركض ! بسرعة ! ذلك الضابط ! ذلك الضابط ! جئني به ! وسأحبك !

وقبلت ركبتيه . ولكنه لم يستطع ان يمنع نفسه من هز رأسه بألم وقال بصوت ضعيف :

– انا ذاهب لآتيك به .

ثم ادار رأسه وأسرع بخطى كبيرة تحت الدرج تخنقه العبرات .

وعندما وصل الى الساحة لم يرَ سوى الجواد الجميل المربوط على باب مسكن غونديلوريه . وكان الضابط قد دخله .

ورفع بصره نحو سطح الكنيسة . كانت ازميرالدا دائماً هناك في نفس المكان ، في نفس الموقف . فأشار اليها بحركة حزينة من رأسه . ثم اسند ظهره الى احد انصاب مدخل بيت غونديلوريه ، عازماً على انتظار خروج الضابط .

كان في بيت غونديلوريه يوم من تلك الايام الاحتفالية التي تسبق العرس . وقد رأى كازيمودو دخول كثير من الناس ولم يشاهد خروج احد . ومن وقت لآخر كان يتطلع نحو السطح . كانت الغجرية مثله لم تتحرك . وجاء احد الخدم المكلفين بالخيل وفك الجواد وادخله الى اصطبل البيت .

ومضى النهار كله هكذا . كازيمودو على النصب ، وازميرالدا على السطح. وفوبوس دون شك على قدمي فلوردي لي .

واخيراً جاء الليل ؛ ليل بدون قمر ، ليل مظلم . وحدق كازيمودو نظره بأزميرالدا الا انها لم تكن سوى بياض في الغسق ؛ ثم لاشيء . لقد امّحى كل شيء . واصبح كل شيء اسود .

ورأى كازيمودو نوافذ بيت غونديلوريه تنار من اعلى الى اسفل واجهة البيت . ورأى النوافذ الاخرى في الساحة تنار الواحدة بعد الاخرى ؛ ورآها ايضاً تنطفيء حتى الاخيرة منها . فقد ظل طوال الامسية في مكانه . والضابط لم يخرج . وحين دخل آخر المارة الى بيوتهم ، وحين انطفأت جميع نوافذ البيوت الاخرى ، ظل كازيمودو وحده في الظلام . وآنذاك لم يكن هناك اي ضوء في باحة نوتردام .

الا ان نوافذ بيت غونديلوريه ظلت مضاءة الى ما بعد منتصف الليل . وكازيمودو الجامد المنتبه رأى على الزجاج ذي الالف لون مرور جمهور من الظلال الحية الراقصة . ولو لم يكن اصم ، بعد ان تلاشت جلبة باريس ، لسمع بوضوح اكثر فأكثر ضجة حفلة وضحك وموسيقى في داخل منزل غونديلوريه .

ونحو الساعة الواحدة صباحاً بدأ المدعوون ينسحبون . وكان كازيمودو المغلّف بالظلام يراهم جميعهم وهم يمرون تحت المدخل المنار بالمشاعل . ولم يكن الضابط بينهم .

كان مليئاً بالافكار الكئيبة . وكان بين لحظة واخرى يتطلع في الهواء كأولئك الذين يتضجرون . وكانت سحب كبيرة سوداء ، ثقيلة ، ممزقة ، متصدعة ، تتعلق كالارجوحات الحريرية تحت قوس الليل الزاهر حتى ليخيل انها نسيج عنكبوت قبة السماء .

في احدى تلك اللحظات رأى فجأة ، وبطريقة غامضة ، انفتاح نافذة الشرفة التي يتقاطع حاجزها الحجري فوق رأسه . والباب الزجاجي الواهي فتح ممراً لشخصين وانغلق وراءهما دون ضجة . كانا رجلاً وامرأة . ولم يتوصل كازيمودو دون جهد لمعرفة الضابط الجميل في الرجل ، وفي المرأة تلك السيدة

الشابة التي رآها في الصباح ترحب بالضابط من فوق تلك الشرفة . كان المكان مظلماً تماماً . وقد سقط ستار قرمزي مزدوج وراء الباب عند انغلاقه بحيث لا يدع اي نور من البيت يصل الى الشرفة .

وبدا الشاب والفتاة ، بقدر ادراك الاصم الذي لم يكن يسمع اية كلمة من حديثهما ، انهما مستسلمان لمناجاةٍ حنون . وبدت الفتاة انها سمحت للضابط ان يطوق خصرها بذراعيه ، وقد قاومت القبلة بشيء من العذوبة .

وكان كازيمودو يشاهد من اسفل هذا المشهد الذي يسر منظره بقدر ما يجب ان يكون بمنجى من العيون . وكان يتأمل هـذه السعادة وذلك الجمال بمرارة . وبعد ، فالطبيعة لم تكـن خرساء عند الشيطان المسكين ، ومهما كان عموده الفقري ملتوياً بشكل رديء فانه لم يكن اقل ارتعاشاً من غيره . كان يفكر بالحصة الحقيرة التي اعطتها العناية له ، والمرأة ، والحب ، واللذة ، كانت تبدو امام عينيه ابداً ، وانه لم يكن يصنع شيئاً سوى رؤية هنـــاء الآخرين . ولكن ما كان يمزق قلبه اكثر من غيره في هذا المشهد ، مـــا كان يمزج السخط بغضبه الحزين ، هو التفكير بالعذاب الذي يصيب الغجرية لو كانت ترى . وصحيح ان الليل كان كثير السواد ، وان ازميرالدا ، لو كانت باقية مكانها . (وهو لا يشك في ذلك) لكانت بعيدة جداً . وانه هو نفسه لا يكاد يميز العاشقين في الشرفة . وكان هذا عزاء له .

الا ان حديثهما اشتدت حرارته . كانت الفتاة تبدو انها ترجو الضابط ان لا يطلب منها اكثر من ذلك . وكازيمودو لم يميز من كل هذا سوى الايدي الجميلة المضمومة ، والابتسامات الممزوجة بالدموع ، ونظرات الفتاة المرفوعـة الى النجوم ، وعيني الضابط المتوقدتين المتطلعتين اليها .

ومن حسن الحظ ، بعد ان اصبحت مقاومة الفتاة ضعيفة ، ان فتح باب الشرفة فجأة ، وظهرت سيدة عجوز ، فبدت الفتاة الجميلة مضطربة ، واتخذ الضابط هيئة الغاضب . ودخل الثلاثة .

وبعد لحظة ، كان جواد يفحص برجليه تحت المدخل ، والضابط اللامع ،

الملتف بعطفه البلي ، مر بسرعة امام كازيمودو .

وتركه قارع الاجراس يتجاوز زاوية الشارع ، ثم اخـــذ يركض وراءه بخفة القرد صارخاً :

– هيه ! ايها الضابط !

ووقف الضابط وقال وهو يلمح في الظلام ذلك النوع من الوجه المخلع الذي يركض نحوه مهتزاً :

– ماذا يريد مني هذا الخبيث ؟

الا ان كازيمودو وصل اليه وامسك بعنان جواده بجرأة وقال :

– اتبعني ايها الضابط . هناك من يود ان يكلمك .

فدمدم فوبوس :

– .. اليكم هذا العصفور الدميم الاشعث الذي يبدو لي انني رأيته في احدى النواحي . هولا ! يا معلم ! اتريد ان تترك رسن الجواد ؟

فأجاب الاصم :

– ايها الضابط . الا تسألني من ؟

فاجاب فوبوس متضجراً :

– قلت لك ان تترك جوادي. ماذا يريد هذا الحقير المتعلق برأس جوادي؟ هل تحسب جوادي مشنقة ؟

وكازيمودو الذي لم يخطر له ان يترك رسن الجواد وطن نفسه على ان يعيده الى الوراء . غير قادر على تفسير مقاومة الضابط ، فأسرع يقول له :

– تعال ايها الضابط . ان امرأة تنتظرك .

وأضاف بجهد : امرأة تحبك

فقال الضابط :

– يا له من شخص من خشب ! يعتقد اني مضطر للذهاب الى جميع النساء المغرمات بي ! او اللواتي يقلن له ذلك ! – وبالصدفـة ، اذا كانت تشبهك يا

وجه المر الصائت ! – قل لمن ارسلتك انني على اهبة الزواج وان تذهب الى الشيطان .

فصرخ كازيمودو معتقداً انه يستطيع التغلب على تردده بكلمة :

– اسمع ، تعال يا سيدي ، انها الغجرية التي تعرفها .

وبالفعل ، فقد كان لهذه العبارة تأثير كبير على فوبوس، ولكن ليس التأثير الذي كان ينتظره الاصم . ولنتذكر ان ضابطنا المغازل كان قد انسحب مع فلور دي لي قبل ان ينقذ كازيمودو المحكومة من يدي شارمولو ببضع لحظات . ومنذ ذلك الوقت ، وفي جميع زياراته لمنزل غونديلوريه ، كان يحرص على الا يتحدث عن المرأة ذات الذكرى المؤلمة بالنسبة اليه ؛ وفلور دي لي من ناحيتها لم تر من حسن السياسة ان تقول له ان الغجرية ما تزال حية . اذن فقد كان فوبوس يعتقد ان سيميلار المسكينة ميتة وقد مر شهر او شهران على ذلك . ولنضف ان الضابط منذ بضع لحظات كان يفكر في ظلام الليل العميق بالبشاعة غير الطبيعية والصوت الضريحي للرسول الغريب ، ان نصف الليل قد مر ، والشارع مقفر كذلك المساء الذي دنا فيه الراهب الشرير منه ، وان جواده كان ينفخ وهو يتطلع الى كازيمودو .

وصرخ مرتعباً :

– الغجرية ! هكذا اذن ، هل اتيت من العالم الآخر ؟

ووجه اليه فوبوس رفسة شديدة بجزمته في صدره .

ولمعت عين كازيمودو . واتى بحركة لينقضّ على الضابط ، ثم قال متصبراً :

– اوه ! ما اسعدك لوجود من يحبك !

وشد على كلمة « من » وترك رسن الحصان قائلاً :

– اذهب !

ووخز فوبوس الجواد بمهازيه وهو يجدف. ورآه كازيمودو يغوص في ضباب الشارع . وكان الأصم المسكين يقول بصوت منخفض :

– اوه ! أيرفض ذلك ؟

ودخل الى كنيسة نوتردام ، واشعل مصباحه وصعد الى البرج. وكما كان يعتقد ، فالغجرية ما زالت في نفس المكان .

وشاهدته من بعيد فركضت اليه وصرخت وهي تضم يديها الجميلتين بألم :

– وحدك !

فقال كازيمودو ببرود :

– لم استطع ان اجده .

فقالت بحدة :

– كان يجب ان تنتظره طول الليل .

ورأى حركتها الغاضبة وادرك اللوم ، فقال خافضاً رأسه :

– سأرصده مرة ثانية بشكل افضل .

فقالت : اذهب .

وتركها . كانت غير راضية عنه . وكان يجب ان تسيء معاملته فذلك افضل من ان يسبب لها الحزن . لقد احتفظ بالألم كله لنفسه .

ومنذ ذلك اليوم لم تعد الغجرية تراه . فقد انقطع عن المجيء الى غرفتها . وكانت تستشف احياناً وجه قارع الاجراس يتطلع اليها بكآبة من فوق قمة برج . وما ان تشاهده حتى يختفي .

وعلينا ان نقول انها كانت قليلة الحزن من هذا الغياب اللاارادي للاحدب المسكين . وكانت شاكرة له على ذلك في اعماق قلبها . اما كازيمودو فلم يتوهم شيئاً بهذا الصدد .

انها لم تكن تراه ، ولكنها كانت تشعر بوجود روح صالحة حولها . كانت مؤونتها تتجدد بيد غير منظورة اثناء نومها . وذات صباح وجدت على نافذتها قفص عصافير . وكان في غرفتها منحوتة تشيع فيها الخوف . وقد ذكرت ذلك اكثر من مرة امام كازيمودو . وذات صباح (لأن كل هذه الامور كانت تحدث ليلاً) لم ترها ، فقد حطمت . وذاك الذي تسلق الى ان بلغ تلك المنحوتة فقد اضطر ان يخاطر بحياته .

وفي بعض الاحيان ، في المساء ، كانت تسمع صوتاً مختبئاً تحت النافذة التي يدخل منها الهواء الى برج الجرس وهو يغني ، كأنه يهدهدها لتنام ، اغنية حزينة غريبة ، انها ابيات دون قافية كما يستطيع اصم ان ينظمها :

لا تنظري الى الوجه ،
ايتها الفتاة ، بل انظري الى القلب .
فقلب الشاب الجميل غالباً ما يكون مشوهاً :
وهناك قلوب لا تحتفظ بالحب .

ايتها الفتاة ، ان الصنوبر ليس جميلاً ،
ليس جميلاً كالحور ،
ولكنه يحتفظ بأوراقه شتاءً .

واأسفاه ! ما فائدة قول ذلك ؟
فالذي ليس جميلاً مخطىء بكينونته ؛
فالجمال لا يحب سوى الجمال ،
ونيسان يدير ظهره لكانون الثاني .

الجمال تام .
الجمال يستطيع كل شيء .
الجمال هو الوحيد الذي لا يوجد نصف وجود .

الغراب لا يطير الا نهاراً ،
والبوم لا يطير الا ليلاً ،
والبجعة تطير نهاراً وليلاً .

وعندما استيقظت في الصباح رأت على نافذتها إنائين مليئين بالزهور . احدهما من بلور كثير الجمال كثير السطوع ولكنه مصدع بحيث تسرب منه الماء الذي ملىء به ، وذبلت الزهور الموجودة فيه ، والآخر اناء فخاري ، خشن ، عادي، ولكنه احتفظ بكل ما وضع فيه من ماء ، وظلت الزهور فيه نضرة حمراء .

لا ادري اذا كان ذلك عن قصد ، ولكن ازميرالدا اخذت الباقة الذابلة واحتضنتها طوال النهار .

في ذلك النهار لم تسمع غناء الصوت الصادر من البرج ، ولم تبدِ سوى القليل من الاهتمام . وكانت تقضي ايامها في مداعبة دجالي ، ومراقبة باب منزل غونديلوريه ، ومناجاة فوبوس بصوت منخفض، وتفتيت خبزها لطيور السنونو.

واخيراً انقطعت عن التطلع ، وانقطعت عن سماع كازيمودو . فقارع الاجراس المسكين بدا انه اختفى من الكنيسة . الا انها ذات ليلة ، ولم تكن نائمة بل كانت تفكر بضابطها الجميل ، سمعت آهة بالقرب من غرفتها ، فخافت ونهضت ، ورأت على ضوء القمر كتلة مشوهة نائمة بالعرض امام بابها . انه كازيمودو الذي كان نائماً على حجر .

٥

مفتاح الباب الاحمر

علم الكاهن من الاشاعات بأية طريقة عجائبية أنقذت الغجرية . وحين عرف ذلك لم يعلم حقيقة شعوره . فقد كان سوّى اموره على اساس موت ازميرالدا. وبهذا كان مطمئناً وقد بلغ اعماق الالم الممكن . والقلب البشري (وكان الدوم كلود قد تأمل كثيراً في هذه الامور) لا يستطيع ان يحتمل سوى كمية معينة من اليأس . وحين تمتلىء الاسفنجة يمر البحر فوقها دون ان يدخل اليها دمعة واحدة زيادة .

ازميرالدا ميتة ، والاسفنجة مبللة ، وكل شيء قد قيل للدوم كلود على هذه الارض . ولكن ان يشعر بانها حية ، وفوبوس ايضاً ، فهذه آلام تبدأ من جديد ، وهناك الهزات ، وضرورة اختيار احد الامرين ، والحياة . وكان الدوم كلود قد تعب من كل ذلك .

حين عرف بهذا الخبر حبس نفسه في صومعته في الدير . ولم يظهر لا في محاضرات الشريعة ، ولا في القداديس . فقد اغلق بابه في وجه الجميع حتى الاسقف . وظل محتجباً بهذا الشكل عدة اسابيع . وظنوه مريضاً . وكان مريضاً بالفعل .

ماذا كان يفعل في غرفته ؟ وبأية افكار كان المنكود يتخبط ؟ اكان يقوم بمعركة اخيرة مع عاطفته الرهيبة ؟ اكان يدبر مخططاً اخيراً من الموت لها ومن الضياع له ؟

واخوه جهان ، اخوه العزيز ، ولده المدلل ، جاء مرة الى الباب وطرقه ، واقسم ، وتوسل ، وذكر اسمه عشر مرات . الا ان كلود لم يفتح .

كان يقضي اياماً كاملة ووجهه ملتصق بزجاج نافذته . ومن هذه النافذة في الدير كان يرى مسكن ازميرالدا ، وغالباً ما كان يراها هي نفسها مع معزاتها ، واحياناً مع كازيمودو . وكان يلاحظ الاعتناءات البسيطة للاصم القبيح ، وطاعته ، وطرقه الدقيقة الخاضعة مع الغجرية . وتذكر ، لأن ذاكرته قوية ، والذاكرة مصدر عذاب للغيورين ، تذكر نظرة قارع الاجراس الغريبة التي القاها على الراقصة ذات مساء . وكان يتساءل عن السبب الذي دعا كازيمودو لانقاذها . كان شاهداً على الف مشهد صغير بين الغجرية والاصم ، حيث الايماءات التي رآها من بعيد وفسرها وفقاً لعاطفته ، بدت له كثيرة الحنو . وكان يحذر من غرابة النساء . وعندئذ شعر ، وبشيء من الابهام ، ان غيرةً لم يكن ينتظرها قد استيقظت عنده، غيرة كانت تجعله يحمر خجلاً وتقززاً . الضابط ، معقول ، اما هذا ! لقد قلبت هذه الفكرة كيانه .

كانت لياليه رهيبة . فمنذ ما علم ان الغجرية ما تزال حية اختفت افكار الشبح والقبر الباردة التي سيطرت عليه يوماً بكامله . وعاد اللحم ينخسه . وانطوى على سريره شاعراً ان الفتاة السمراء قريبة منه .

وفي كل ليلة كانت مخيلته الهاذية تمثل له ازميرالدا في جميع الاوضاع التي كانت تزيد من غليان شرايينه . كان يراها متمددة على الضابط المطعون بالخنجر ، وعيناها مطبقتان ، وعنقها الجميل العاري مغطى بدم فوبوس في تلك اللحظة من اللذة التي طبع فيها الكاهن علِى شفتيها الشاحبتين تلك القبلة التي شعرت البائسة بحرارتها رغم انها كانت نصف ميتة . ورآها تتعرى بوحشية بأيدي المكلفين بالتعذيب ، يوم عريت ووضعت رجلها الصغيرة في الحذاء ذي البراغي الحديدية ، وساقها الناعم المستدير ، وركبتها الرشيقة البيضاء . ورأى

ايضاً تلك الركبة العاجية الباقية وحدها خارج جهاز تورتيرو الرهيب . وتخيل اخيراً الفتاة بالقميص ، والحبل في عنقها ، عارية الكتفين ، حافية القدمين ، شبه عارية ، كما رآها في آخر يوم . هذه الصورة من اللذة جعلت قبضتيه تتشنجان وتسري رعشة في جميع فقاره .

وذات ليلة غلى دمه في شرايينه بعنف كبتول وكاهن بحيث عضّ على وسادته ، وقفز خارج سريره ، والقى فضلة على قميصه ، وخرج من صومعته ، وقنديله بيده ، نصف عارٍ ، مدلهاً ، ملتهب العين .

كان يعرف اين يجد مفتاح الباب الاحمر الموصل بين الدير والكنيسة ، وكان معه بصورة دائمة كما نعلم مفتاح درج الابراج .

٦

تابع مفتاح الباب الاحمر

في تلك الليلة كانت ازميرالدا نائمة في غرفتها ، مليئة بالنسيان ، والامل ، والافكار العذبة . كانت تنام منذ فترة حالمة بفوبوس ، كما هي حالتها دائماً ، حين خيل اليها انها تسمع ضجة حولها . كان نومها خفيفاً وقلقاً ، نوم عصفور ، يوقظها اي شيء . ففتحت عينيها ، وكان الليل مظلماً . الا انها رأت من نافذتها وجهاً يتطلع اليها . وكان هناك قنديل ينير هذا الظهور . وعندما رأى هذا الوجه ان ازميرالدا شاهدته اطفأ المصباح . الا ان الوقت اتسع للفتاة لتراه . فأطبقت جفونها من الرعب وقالت بصوت خافت :

– اوه ! الكاهن !

وعاد اليها كل شقائها الماضي بسرعة البرق . وسقطت على سريرها متجمدة . وبعد لحظة شعرت على طول جسدها باحتكاك جعلها ترتجف وتقف مستيقظة مهتاجة من جلستها .

كان الكاهن قد انزلق الى جانبها وطوقها بذراعيه .

وارادت ان تصرخ فلم تستطع . الا انها قالت بصوت مرتجف ومنخفض من شدة الغضب والرعب :

– اذهب ايها المسخ ! اذهب ايها القاتل !

فتمتم الكاهن طابعاً شفتيه على كتفها : الرحمة ! الرحمة !

فأمسكت رأسه الأصلع بكلتا يديها وبما بقي من الشعر وحاولت ان تبعد قبلاته كما لو انها لذعات .

وردد المنكود :

الرحمة ! لو كنت تعرفين نوع حبي لك ! انه نار ، رصاص ، عذاب ، الف سكين في قلبي !

– واوقف ذراعيها بقوة تفوق قوة البشر . فقالت وهي في اشد حالات الاضطراب :

– اتركني او ابصق في وجهك .

فتركها وقال :

اهينيني ! اضربيني . كوني رديئة ! افعلي ما تريدين ! ولكن ارجوك ان تحبيني !

عندئذ ضربته بهياج ولد ، وشددت يديها الجميلتين لتدمي وجهه .

– اذهب ايها الشيطان !

وكان الكاهن المسكين يصرخ وهو ينقلب عليها ويجيب على ضرباتها بالمداعبات :

– أحبيني ! أحبيني ! اشفقي علي !

وشعرت انه اشد قوة منها . وقال وهو يصر بأسنانه :

– يجب الانتهاء من ذلك .

كانت مقهورة ، مختلجة ، محطمة ، بين ذراعيه ، تحت تصرفه . وكانت تشعر بيدٍ داعرة تشرد على جسدها ، فبذلت جهداً اخيراً واخذت تصرخ :

– النجدة ! الي ! خفاش ! خفاش !

ولم يأت احد . كانت دجالي وحدها مستيقظة تثغو بقلق .

وقال الكاهن لاهثاً : اسكتي !

وفجأة ، والغجرية تتخبط وهي ترجف ، التقت يدهـا بشيء معدني بارد . لقد كانت صافرة كازيمودو . فأمسكتها بتشنج امل ، وحملتها الى شفتيها وصفرت فيها بكل ما بقي لها من قوة . فرددت الصافرة صوتاً واضحاً ، حاداً ، ثاقباً ، فقال الكاهن :

ـ ما هذا ؟

وفي اللحظة نفسها تقريباً شعر ان يداً قوية اختطفته ! كانت الغرفة مظلمة فلم يستطع ان يميز بوضوح من يمسك به هكذا ؛ ولكنه سمع اسناناً تصرّ من الهياج . وكان هناك ما يكفي من نور متبعثر في الظلام ليرى لمعان شفرة ساطور عريضة فوق رأسه .

وظن الكاهن انه شاهد كازيمودو . وافترض ان ذلك لا يمكن ان يكون الا هو . وتذكر انه عثر وهو داخل بصرة كانت ممددة على عرض الباب من الخارج . وبما ان القادم الجديد لم يفه بكلمة فلم يكن يعرف سوى الظن . وانقض على الساعد الممسك بالساطور صارخاً :

-- كازيمودو .

لقد نسي في تلك اللحظة من الضيق ان كازيمودو اصم .

وبلمحة عين كان الكاهن على الارض وشعر بركبة من رصاص تضغط على صدره . ومن الطابع المقرن لهذه الركبة عرف كازيمودو . ولكن ما العمل ؟ كيف عرفه كازيمودو ؟ ان الليل يجعل من الاصم اعمى .

لقد اصبح من الهلكى . فالفتاة العديمة الشفقة كالنمرة الهائجة لا تتدخل لتنقذه . وكان الساطور يقترب من رأسه . واللحظة حرجة . وفجأة اصاب غريمه شيء من التردد ، وقال بصوت خفي :

ـ لن اضع على عاتقها دماء !

لقد كان بالفعل هو صوت كازيمودو .

عندئذ شعر الكاهن باليد الضخمة تجره من رجله خارج الغرفة . هناك

يجب ان يموت . ولكن من حسن حظه كان القمر قد ارتفع منذ بضع لحظات .

وحين اجتازا عتبة الغرفة سقط شعاعه الشاحب على وجه الكاهن ، وتطلع كازيمودو في وجهه ، فاجتاحته رجفة ، وترك الكاهن وتقهقر .

اما الغجرية التي تقدمت الى عتبة الغرفة فقد رأت بدهشة ان الادوار تغيرت فجأة . فالكاهن الآن هو الذي يهدد ، وكازيمودو هو الذي يستعطف .

والكاهن الذي ارهق الأصم باشارات الغضب والتوبيخ اشار اليـــه بعنف ان ينسحب .

فخفض الأصم رأسه ، ثم جاء وركع على ركبتيه امام باب الغجرية وقال بصوت رزين مستسلم :

– اقتلني اولاً يا مولاي وافعل بعد ذلك ما يحلو لك .

وقدم للكاهن ساطوره وهو يتكلم . فضاع صواب الكاهن وارتمى فوقه ، ولكن الفتاة كانت اسرع منه . اذ انتزعت السكين من يد كازيمودو وانفجرت ضاحكة مهتاجة ، وقالت للكاهن :

اقترب !

كانت يدها ترفع الساطور . وظل الكاهن متردداً ... انها تضرب دون شك . وصرخت به :

– لن تجرؤ على الاقتراب ايها الجبان !

ثم اضافت بتعبير لا يرحم ، عالمة بالتأكيد انها ستغرز الف حديدة محمّاة في قلب الكاهن :

آه ! اني اعلم ان فوبوس لم يمت !

فقلب الكاهن كازيمودو على الارض برفسة ، وعاد الى الاختفاء تحت قوس الدرج وهو يرتجف من الهياج .

وبعدمـــا ذهب التقط كازيمودو الصافرة التي انقذت الغجرية ، وقال وهو يعيدها اليها :

– لقد صدأت .

ثم تركها لوحدها .

وسقطت الفتاة منهوكة على سريرها ، مضطربة بسبب هذا المشهد العنيف ، واخذت تبكي وتنتحب . لقد عاد افقها واصبح مشؤوماً .

والكاهن من ناحيته دخل الى صومعته وهو يتلمس طريقه .

وحدث ما كان منتظراً ، فقد اصبح الدوم كلود غيوراً من كازيمودو .

وردد عبارته المشؤومة مفكراً :

– لن ينالها احد .

الكتاب العاشر

١

عدة افكار متتابعة جيدة لغرنغوار في شارع البرناردبين

منذ ما رأى بيير غرنغوار كيف تسير كل هذه القضية ، وان مما لا شك فيه ان هناك حبلا ، وشنقاً ، ومكاره اخرى ستحل باشخاص هذه المهزلة الرئيسيين ، لم يعد مهتماً بالدخول فيها . والصوص ، الذين ظل يعتبر كآخر نتيجة انهم افضل رفقة في باريس ، استمروا على اهتمامهم بالغجرية . وقد رأى هذا الامر بسيطاً جداً من ناحية اناس مثلها لم يكن لهم نصب اعينهم سوى شارمولو وتورتيرو ، والذين لم يكونوا يجبّون مثله في الاماكن الخيالية على جناحي بيغازوس [١] .

وقد علم من احاديثهم ان زوجته ذات الجرة المكسورة قد التجأت الى كنيسة نوتردام . وكان مرتاحاً لذلك . ولكنه لم يحاول حتى الذهاب لرؤيتها . لقد كان يفكر احياناً بالمعزاة الصغيرة ، وهذا كل شيء . وبعد ، فقد كان في

---

١ – بيغازوس Pegasus : حصان مجنح ولد من دم ميدوز حين قطعت برسيه رأسه .

النهار يقوم ببعض العاب القوى ليعيش ، وفي الليل كان يؤلف مذكرات ضد اسقف باريس، لانه تذكر انه تبلل من دواليب طاحونته، ويحفظ له الكراهية. وكان يهتم ايضاً بشرح المؤلف الجميل لبودري الاحمر اسقف نويون وتورناي « حول تشذيب الحجارة » ، الامر الذي اكسبه ذوقاً عظيماً في فن البناء ؛ وهو ميل حل في قلبه محل عاطفته نحو العلم العام حيث لم يكن سوى ملحق طبيعي،ما دام هناك رباط وثيق بين العلم العام والبناء وقد انتقل غرنغوار من محبة فكرة الى محبة شكل هذه الفكرة .

وذات يوم توقف بالقرب من سان جرمان لوكسيروا ، على زاوية بيت يدعى « سلطة الاسقف » الذي يواجه بيتاً آخر يدعى «سلطة الملك » وكان في بيت « سلطة الاسقف » كنيسة بديعة من القرن الرابع عشر يطل طرفها وراء المذبح على الشارع . وكان غرنغوار ، وهو يتفحص المنحوتات الخارجية بورع ، في احدى تلك اللحظات من المتعة الانانية ، المتعصبة ، السامية ، حيث لا يرى الفنان في العالم سوى الفن ويرى العالم في الفن . وفجأة ، شعر بيد توضع على كتفه بخشونة . فالتفت . انه صديقه القديم ، معلمه القديم ، السيد الخوراسقف .

وظل منذهلاً . فمنذ وقت طويل لم يرَ الخوراسقف ، والدوم كلود كان واحداً من اولئك الرجال المشهورين العاطفيين وملاقاته تخل دائماً بتوازن فيلسوف ارتيابي .

ولزم الخوراسقف الصمت بضع لحظات بينما كان غرنغوار يتلهى بمراقبته ، فرأى الدوم كلود متغيراً تماماً ، شاحباً كصباح يوم من ايام الشتاء ، والعينان متقعرتان ، والشعر ابيض تقريباً . واخيراً قطع الكاهن الصمت قائلاً بلهجة مطمئنة ولكنها جليدية :

– كيف صحتك يا معلم بيير ؟

فأجاب غرنغوار :

– صحتي ! هيه ! يمكن قول هذا وذاك عنها ، ولكن المجموع جيد . فأنا لا اتناول كثيراً من اي شيء . اتعرف يا استاذ ؟ ان سر الصحة حسب رأي

هيبوقراط هو « الاعتدال بالطعام والشراب والنوم والحب [١] » .

فقال الكاهن وهو يتطلع في وجه غرنغوار :

– أليس لديك اي هم يا معلم بيير ؟

– لعمري ، كلا .

– وماذا تفعل الآن ؟

– كما ترى يا استاذي . افحص مقطع هذه الحجارة والطريقة التي حفر بها هذا النحت الناتىء .

فأخذ الكاهن يبتسم ، بتلك الابتسامة المرة التي لا ترفع سوى طرف الفم وقال :

– وهل يسلّيك هذا ؟

فهتف غرنغوار : انه الفردوس .

ثم انحنى على المنحوتات بهيئة مبهورة لمعلم الظاهرات الحية وقال :

– الا تجد مثلاً هذا التحول التافه منفّذاً بكثير من المهارة ، وتكلف الدقة ، والصبر ؟ انظر الى ذلك العمود الصغير . فحول اي تاج عمود رأيت اوراقاً اكثر نضارة وافضل مداعبة بالمقص! اليك تلك المنحوتات الثلاث البارزة لجان ميلليفان . وهي ليست اجمل ما صنعته تلك العبقرية العظيمة. ومع ذلك ، فالسذاجة ، وحلاوة الوجوه ، ومرح المواقف ، وتصوير اللباس وتلك الظرافة التي لا يمكن شرحها والتي تمتزج في جميع تلك العيوب تجعل الصور الصغيرة كثيرة البهجة ، كثيرة الدقة . الا تجد ذلك مسلياً ؟

فقال الكاهن : اجل !

وقال الشاعر بحماسته الثرثارة :

– لو رأيت داخل الكنيسة ! منحوتات في كل مكان . وهو كثيف كقلب ملفوفة ! وصدر الكنيسة ذو طريقة كثيرة الورع وخصوصية بحيث انني لم ار

١ – عبارة باللاتينية في الاصل .

مثلها في الخارج .

فقاطعه الدوم كلود :

— اسعيد انت اذن ؟

فأجاب غرنغوار بحدة :

— من ناحية الشرف نعم ! في باديء الامر احببت نساء ثم حيوانات . والآن احب الحجارة . وهذا مسلٍّ كالنساء والحيوانات ، واقل غدراً . فوضع الكاهن يده على جبهته . كانت هذه هي حركته المعتادة ، وقال :

— بالحقيقة !

فقال غرنغوار : هناك متع !

واخذ ذراع الكاهن الذي تركه يسير ، وادخله تحت برج درج بيت «سلطة الاسقف » ، وقال :

-- هذا درج ! في كل مرة اراه اكون سعيداً. انه درج على النسق الاكثر بساطة والاكثر ندرة في باريس . والدرجات كلها منزوعة الوجه من تحت . ويقوم جمالها وبساطتها على اتساع هذه وتلك بحيث يبلغ القدم او ما يقاربه . وهي متشابكة ، متداخلة ، معلّبة ، مدمجة ، منسقة ، مرصعة ، منقوشة بحيث تتصل نقوش الواحدة بالاخرى . ومتعاضة بشكل هو حقيقة ثابت وظريف .

— الا ترغب بشيء ؟

— كلا .

— الا تأسف على شيء ؟

-- لا أسف ولا رغبة . لقد نظمت حياتي .

فقال كلود :

— ما ينظمه الناس تبلبله الامور .

فقال غرنغوار :

— انا فيلسوف بيروني . واجعل كل شيء متوازناً .

– وكيف تربح معاشك ؟
– لا ازال اصنع هنا وهناك ملاحم ومآسي . اما ما يأتيني بالمال اكثر من غيره فهي الصناعة التي تعرفني فيها يا استاذ . – حمل اهرام من الكراسي باسناني .
– المهنة غريبة على فيلسوف .
فقال غرنغوار :
– هذا من التوازن ايضاً . عندما يكون لدى المرء فكرة فانه يجدهـــا في كل شيء .
فأجاب الخوراسقف : اعرف ذلك .
وتابع الكاهن بعد صمت : ومع ذلك فأنت بائس بما فيه الكفاية .
– بائس ، نعم ، تعيس ، لا .
في تلك اللحظة سمعت جلبـــة خيول ورأى محدثانا في طرف الشارع مسير فرقة من رماة الملك ، رافعي الرماح والضابط على رأسها . كانت الكوكبة لامعة رنانة على البلاط .
وقال غرنغوار للكاهن :
– ما اكثر تطلعك الى هذا الضابط !
– هذا لاعتقادي باني اعرفه .
ما اسمه ؟
فقال كلود : اعتقد انه يدعى فوبوس دي شاتوبير .
– فوبوس ! اسم ذو فضول ! هناك ايضاً فوبوس كونت دي فوا . اذكر اني عرفت فتاة لا تقسم الا بفوبوس .
فقال الكاهن :
– تعال . عندي ما اقوله لك .
منذ مرور تلك الفرقة ظهرت بعض الارتعاشات تحت قنـاع الخوراسقف الجليدي ، فأخذ يمشي . وتبعه غرنغوار معتاداً على طاعته ككل من اقترب من

هذا الرجل المليء بالتسلط. ووصلا وهمـــا صامتان الى شارع البرناوديين الذي كان مقفراً . وتوقف الدوم كلود فيه . وسأله غرنغوار :

– ما عندك لتقوله لي يا استاذي ؟

فقال الكاهن بهيئة تفكير عميق :

– الم تجد ملابس هؤلاء الفرسان الذين رأيناهم اجمل من ملابسي وملابسك؟

فهز غرنغوار رأسه وقال :

– لعمري! ان ثوبي الاصفر والاحمر افضل عندي من تلك القشور الحديدية والفولاذية . لذة جميلة ان تحدث وانت تمشي نفس الضجة التي يحدثهـــا رصيف فيراي بواسطة هزة ارضية !

– الم يساورك الحسد اذن يا غرنغوار من هؤلاء الابنـــاء الجميلين في ملابس الحرب ؟

– حسدٌ من مـاذا يا سيدي الخوراسقف ؟ من قوتهم ، من سلاحهم ، من نظامهم ؟ ان الفلسفة والاستقلال مع الثياب الرثة لأفضل من ذلك. احب ان اكون رأس ذبابة افضل من ان اكون ذيل اسد .

فقال الكاهن الحالم : هذا غريب . ومع ذلك فالملابس الجميلة جميلة .

ورآه غرنغوار مفكراً فتركه ليذهب ويبدي اعجابه بمدخل بيت مجاور .

وعاد وهو يضرب بيديه . وقال :

– لو كنت اقل انشغالاً بملابس الحرب الجميـــلة يا سيدي الخوراسقف لرجوتك ان تذهب وترى ذلك الباب . كنت اقولها دائماً ، بان لبيت السيد اوبري اروع مدخل في العالم .

وقال الكاهن :

– ماذا فعلت يا بيار غرنغوار بتلك الراقصة الغجرية الصغيرة ؟

– ازميرالدا ؟ سرعان ما غيرت الحديث .

– الم تكن زوجتك ؟

– نعم ، بواسطة جرة مكسورة . وكان ذلك لمدة اربع سنوات .

واضاف غرنغوار وهو ينظر الى الحوراسقف بهيئة نصف ساخرة :

– بالمناسبة . الا تزال تفكر بها دائماً ؟

– وانت ، الا تفكر بها ابداً ؟

– قليلاً . – عندي كثير من الامور ! يا الهي ، ما كان اجمل تلك المعزاة الصغيرة !

– وتلك الغجرية ، الم تنقذ حياتك ؟

– هذا والله صحيح .

– حسناً . ماذا حل بها ؟ وماذا فعلت في سبيلها ؟

– لن اقول لك . اعتقد انها شنقت .

– اتعتقد ذلك ؟

– لست واثقاً . لقد كنت انسحب من اللعب حين اراهم يريدون شنق الناس .

– اهذا كل ما تعرفه عنها ؟

– انتظر اذن . قيل لي انها التجأت الى كنيسة نوتردام ، وانها هناك في امان . وانا مسرور من ذلك . ولم استطع ان اكتشف اذا كانت المعزاة نجت معها . وهذا كل ما اعرف عنها .

فصرخ الدوم كلود . وصوته الذي كان حتى الآن منخفضاً ، بطيئاً ، وشبه خفي ، اصبح داوياً :

– سأعلمك المزيد . هي التجأت فعلاً الى نوتردام. ولكن العدالة ستستعيدها في مدى ثلاثة ايام وستشنق في ساحة غريف . فهناك قرار من البرلمان .

فقال غرنغوار : هذا خبر محزن .

وبطرفة عين عاد الكاهن بارداً وهادئاً . فقال الشاعر :

– ومن هو ذاك الشيطان الذي تسلّى بطلب قرار الاعادة ؟ اما كان بالمستطاع ترك البرلمان مرتاحاً ؟ وما الضرر في التجاء فتاة مسكينة الى تحت قناطر نوتردام الى جانب اعشاش السنونو ؟

فاجاب الخوراسقف : يوجد في الدنيا شياطين .

ولاحظ غرنغوار : انه لأمر مسيء شيطاني .

وتابع الكاهن بعد صمت : اذن ، فقد انقذت حياتك ؟

– كدت اشنق عند اصدقائي اللصوص الطيبين . وسيسؤهم اليوم ان يعلموا بذلك .

– الا تريد ان تفعل شيئاً من اجلها ؟

– لا اطلب افضل من ذلك يا دوم كلود . ولكن لو أوذيت بسبب هذه القضية ؟

– وما يهم ؟

– باه ! ما يهم ! انت رجل طيب يا استاذي ! لقد بدأت بتأليف كتابين كبيرين .

وضرب الكاهن جبهته . ورغم الهدوء الذي كان يتظاهر به فقد كانت حركة تكشف اضطرابه الداخلي بين وقت وآخر ، وقال :

– وكيف تنقذها ؟

فأجاب غرنغوار : اجيبك يا استاذي Il Padelt ، وتعني بالتركية : « املنا بالله » .

وكرر الكاهن الحالم : كيف تنقذها ؟

فضرب غرنغوار جبهته بدوره :

– اسمع يا استاذي ، ان لي خيالاً خصباً . سأجد لك الوسائل . لو طلبت رحمة الملك ؟

– من لويس الحادي عشر ؟ رحمة ؟

– ولماذا لا ؟

– اسهل عليك ان تأخذ من النمر عظمة .

واخذ غرنغوار يبحث عن حلول جديدة :

– ايه ، حسناً . اليك هذا ! اتريد ان اقدم عريضة الى القابلات اصرح فيها بأن الفتاة حامل ؟

هذا الكلام جعل حدقة الكاهن المتقعرة تقدح الشرر .

حامل ؟ غريب هذا ! اتعرف شيئاً عن ذلك ؟

وخاف غرنغوار من هيئته فأسرع يقول :

– اوه ! كلا ، انا ! كان زواجنا بواسطة اناس من الخارج . وقد ظللت في الخارج . ولكن اخيراً يمكن الحصول على مهلة .

– جنون ! فضيحة ! اصمت .

فدمدم غرنغوار : انت مخطىء بغضبك . بالامكان الحصول على مهلة . هذا لا يضير احداً ، وفيه كسب اربعين دنيه باريزي للقابلات اللواتي هن نساء فقيرات .

لم يكن الكاهن يسمعه . وتمتم :

ومع ذلك يجب ان تخرج من هناك . القرار قابل التنفيذ في مدى ثلاثة ايام ؛ ومع ذلك فكازيمودو هذا لم يحصل على قرار ! ان للنساء اذواقاً فاسدة .

ورفع صوته :

– يا معلم بيار . لقد فكرت ملياً وليس هناك سوى وسيلة واحدة لانقاذها .

– ما هي ؟ فأنا لم ار شيئاً .

– اسمع يا معلم بيار . تذكر انك مدين لها بحياتك . اني اقول لك فكرتي بصراحة . الكنيسة مراقبة نهاراً وليلاً . ولا يستطيع ان يخرج منها الا من رأوه داخلاً اليها . باستطاعتك ان تدخل . ستأتي . وسأدخلك اليها وتتبادلا الملابس . هي تأخذ سترتك وانت تأخذ تنورتها .

فقال الفيلسوف ملاحظاً :

– الامر بسيط جداً حتى الآن . وبعد ؟

– وبعد ؟ ستخرج هي بملابسك ، وتبقى انت بملابسها . وربما شنقت ، ولكنها تكون قد نجت .

فحك غرنغوار اذنه بهيئة فيها الكثير من الجد ، وقال :

– هذه فكرة لم تكن لتأتيني من تلقاء نفسها .

ولدى اقتراح الدوم كلود غير المنتظر فان وجه الشاعر المنفتح المتسامح اكمدّ فجاة كمنظر طبيعي في ايطاليا حين تهب ريح معاكسة وتسحق سحابة على الشمس .

– هيه يا غرنغوار . ما قولك بالوسيلة ؟

– اقول يا استاذي ، ان شنقي ليس محتملاً ولكنه حتمي .

– هذا لا يعنينا .

– فقال غرنغوار : يا للطاعون !

– انها انقذت حياتك . وهذا دين يجب ان تدفعه .

– هناك ديون اخرى كثيرة لم ادفعها .

– يا معلم بيار . هذا امر لازم حتماً .

كان الكاهن يتكلم بشيء من السلطة . واجاب الشاعر مذعوراً :

– اسمع يا دوم كلود . انك متمسك بهذه الفكرة ، وانت مخطىء . وانا لا ادري لماذا اشنق نفسي مكان انسان آخر .

ما الذي يجعلك شديد التعلق بالحياة ؟

– آه ! الف سبب .

– ما هي من فضلك ؟

– ما هي ؟ الهواء ، السماء ، الصباح ، المساء ، ضوء القمر ، اصدقائي اللصوص . ونحورنا الساخنة ، ودراسة عمارات باريس الجميلة ، وتأليف ثلاثة كتب كبيرة ، منها واحد ضد الاسقف وطواحينه ، وما ادراني ؟ كان اناكزاغوراس يقول انه كان في الدنيا ليظهر اعجابه بالشمس . ثم اني املك

السعادة في قضاء ايامي كلها من الصباح الى المساء مع رجـــل عبقري هو انا ، وهذا لطيف جداً .

فدمدم الكاهن : رأس يصلح لصنع الجلاجل . ايه تكلم . هذه الحيـاة التي جعلتها جذابة جداً ، من حفظها لك ؟ الى من انت مدين بتنفس هذا الهواء ، ورؤية هذه السماء واستطاعتك ان تلهي عقلك الذي يشبه عقل القبرة بالاباطيل والجنونيات ؟ اين يمكن ان تكون بدونها ؟ اذن انت تريد ان تموت ، هـي التي انت عائش بواسطتها ؟ لتمت تلك المخلوقة ، الجميلة ، العذبة ، المعبودة ، الضرورية لنور العالم ، الاكثر ألوهة من الله ! بينما انت ، نصف عاقل ونصف مجنون ، رسم خفيف تافه لشيء ما ، نوع من النبات يعتقد انه يسير ويعتقد انه يفكر ، سوف تستمر في العيش مع الحياة التي سرقتها منها ، عديم الفـائدة كشمعة في وقت الظهر ؟ هيا . قليل من الشفقة يا غرنغوار ! كـن كـريماً بدورك ، انها هي التي كانت البادئة .

كان الكاهن حاد اللهجة . واصغى اليه غرنغوار اولاً بهيئة غامضة ، ثم رق قلبه وانتهى برسم كشرة فاجعة على وجهه الشديد الشحوب الذي يشبه وجه وليد مصاب بمغص . وقال محاولاً انزال دمعة :

– انت مؤثر . حسناً ! لقد فكرت بذلك . انها لفكرة غريبة تلك التي ساورتـك .

ثم تابع بعد صمت :

وبعد ، من يدري ؟ ربما لا يشنقونني . ليس من يخطب يتزوج دائماً . عندما يجدونني في تلك الغرفة مرتدياً لباساً مضحكاً ،بالتنورة والقلنسوة النسائية، ربما ينفجرون ضاحكين . وثم ، اذا شنقوني ، لا بأس ! الحبل ، انها ميتـة كغيرها . ميتة جديرة بعاقل ظل متأرجحاً طوال حياته ، ميتة ليست لحماً ولا سمكاً ، كروح الارتيابي الحقيقي ، ميتة مطبوعة بطـابع البيرونيـة والتردد ، تحتل المكان الوسط بين السماء والارض ، وتتركك معلقاً ، انها ميتة فيلسوف، وربما كنت مكرساً لها سلفاً . بديع ان يموت المرء كما عاش .

وقاطعه الكاهن :

- امتفقان نحن ؟

فتابع غرنغوار بحماسة :

- ما هو الموت الذي يأخذ كل شيء ؟ لحظة سيئة ، ضريبة . انتقال شيء تافه الى لا شيء . وقد سأل احدهم سرسيداس ، المصاب بمرض العظمة ، اذا كان يموت باختياره ، فأجاب . ولماذا لا ؟ لأنني بعد موتي سأرى اولئك الرجال العظام ، فيثاغورس بين الفلاسفة ، وهكتوس بين المؤرخين ، وهوميروس بين الشعراء ، واولمب بين الموسيقيين .

فقدم الخوراسقف يده اليه وقال :

- اذن اتفقنا ؟ ستأتي غداً .

هذه الحركة اعادت غرنغوار الى وضعيته ، فقال بلهجة رجل متيقظ :

آه ! لعمري كلا ! ان اشنق ! هذا مستحيل . لا اريد .

اذن وداعاً .

واضاف الخوراسقف بين اسنانه : سأجدك .

وفكر غرنغوار :

- لا اريد ان يعود هذا الشيطان ويجدني .

وركض وراء الدوم كلود وقال :

- قف يا سيدي الخوراسقف ، لا حرد بين اصدقاء قدماء ! انك تهتم بهذه الفتاة . اريد ان اقول بزوجتي . حسناً . وقد تخيلت خطة لاخراجها سليمة من نوتردام . اما وسيلتك فاني اكرهها الى النهاية ، انا غرنغوار . لو كان عندي وسيلة اخرى ، انا ! اخطرك بان وحياً متألقاً نزل علي في هذه اللحظة . لو كان عندي فكرة ملائمة لسحبها من تلك الخطوة الرديئة دون ان اعرّض عنقي لأقل عقدة انشوطة ! ماذا كنت ستقول ؟ الا يكفيك هذا ؟ امن اللازم ان اشنق لتكون مسروراً ؟

كان الكاهن قد انتزع ازرار جبته من الملل وقال :

– جدول كلام ! ما هي وسيلتك ؟

فأجاب غرنغوار متحدثاً الى نفسه، لامساً انفه بسبابته علامة التأمل :

– نعم .. انه لكذلك ! اللصوص اولاد شجعان .. وقبيلة الغجر تحبها . سوف ينهضون لدى اول كلمة . لا شيء اسهل من ذلك . مساعدة . ستخطف بسهولة بواسطة الفوضى . منذ مساء الغد . لن يطلبوا شيئاً افضل من ذلك .

وقال الكاهن وهو يهزه :

– الوسيلة . تكلم .

فالتفت غرنغوار نحوه بجلال وقال :

– دعني اذن ! ها انت ترى انني انظم شعراً .

وفكر ايضاً بضع لحظات . ثم اخذ يصفق لفكرته صارخاً : شيء معجب ! نجاح اكيد !

وقال كلود بغضب : الوسيلة .

وكان غرنغوار متهللاً فقال :

– تعال لأقول لك ذلك بصوت منخفض . مكيدة مضادة حازمة تنقذنا كلنا من القضية . والله ! يجب الاعتراف بانني لست ابله .

ثم قاطع نفسه قائلاً :

– آه هذا ! وهل المعزاة الصغيرة مع الفتاة ؟

– نعم . ليأخذك الشيطان .

– ايه انها ستشنق هي ايضاً ، اليس كذلك ؟

– وما يعنيني هذا ؟

– نعم سوف يشنقونها . لقد شنقوا خنزيرة في الشهر الماضي . والجلاد يحب ذلك لانه يأكل لحم البهيمة بعد الشنق . خسارة دجالي الجيلة ! يا للحمل المسكين الصغير .

فصرخ الدوم كلود :

– اللعنة ! انت هو الجلاد . اي وسيلة انقاذ وجدتها ايها الشيطان ؟ اكان

يجب ان اجعلك تلذ فكرتك بواسطة الملقط ؟

– انها رائعة يا استاذ ! اليكها .

وانحنى غرنغوار على اذن الكاهن وكلمه بصوت منخفض ، ملقياً نظرة قلقة من اول الشارع الى آخره حيث لم يمر احد. وعندما انتهى،امسك الدوم كلود يده وقال ببرودة :

– حسناً . الى الغد .

فردد غرنغوار : الى الغد .

وعندما ابتعد الخوراسقف من ناحية سار هو من الناحية الاخرى محدثاً نفسه بصوت منخفض .

– انها لقضية تدعو الى الفخر يا سيد غرنغوار . لا يهم . لم يقل احد ان يخشى المرء المشاريع الكبيرة عندما يكون صغيراً . لقد حمل بيتون ثوراً كبيراً على كتفيه . وعصافير ام سكعكع والدخلة والقليعي تجتاز الاوقيانوس .

٢

اعمل لصاً

عند دخول الخوراسقف الى الدير وجد على باب صومعته اخاه جهان دي مولان ينتظره وكان يبدد ضجر الانتظار برسمه على الجدار وبالفحم صورة جانبية لأخيه الاكبر مزدانة بأنف متجاوز الحد .

وبالجهد تطلع الدوم كلود الى اخيه ، فقد كانت لديه احلام اخرى . ان ذلك الوجه الفرح التافه الذي كان تألقه يعيد البشاشة في كثير من المرات الى سيماء الكاهن القاتمة كان الآن عاجزاً عن اذابة الضباب الذي يزداد تكاثفه كل يوم على تلك النفس الفاسدة ، المنتنة ، الراكدة .

وقال جهان بخجل : جئت لأراك يا اخي .

فلم يرفع الخوراسقف عينيه اليه وقال : وبعد ؟

فقال المداهن :

– انت كثير الطيبة معي يا اخي ، وتقدم الي نصائح قيمة بحيث اعود اليك دائماً .

– وبعد ؟

– واسفاه يا اخي . لقد كنت على حق عندما كنت تقول لي : جهان ! جهان ! « لقد تركت علم العلماء ونظام التلامذة[١] » جهان ، كن عاقـــلاً ، جهان ، كن عالماً ، جهان ، لا تقضي الليل خارج المدرسة دون مناسبة شرعية

١ – عبارة باللاتينية في الاصل .

وفرصـــة من الاستاذ . لا تضرب البيكاردين . لا تفسد كعهار امي على قش المدرسة . جهان ، ليكن عقابك بتصرف المعلم . جهان ، اذهب في جميع الامسيات الى الكنيسة ورتل فيها ورداً مع آية وموعظة للسيدة صاحبة المجـــد العذراء مريم . والأسفاه ! كم كانت هذه نصائح ممتازة !

– وبعد ؟

– يا اخي . انت ترى مذنباً ، مجرماً ، بائساً ، فاجراً ، رجلا مفرطاً ! يا اخي العزيز، ان جهان جعل من نصائحك اللطيفة قشاً ونفايات تداس بالارجل . وقد عوقبت تماماً على ذلك ، والرب عادل بشكل غير عادي . ومـا دام معي مال فاني افرط بالجنون والحياة المرحة . اوه ! كم ان الفجور بديع في الوجـه وقبيح وقاتم من الخلف ! والآن لا املك اي ابيض ، وقد بعت غطاء مائدتي وقميصي ومنشفتي ، مقابل كثير من الحياة المرحة ! الشمعة الجميلة انطفأت ولم يبق لي سوى الفتيل الشنيـع من الشمع الذي يدخل دخانـه في انفي . الفتيات يسخرن مني . اني اشرب الماء. وقد انهال علي توبيـخ الضمير والدائنون بالجلد .

وقال الخوراسقف : والباقي ؟

– واسفاه ! يا اخي العزيز جداً . اريد ان احيا افضل حياة . فجئت اليك مشبعاً بالندامة . انا تائب ، معترف ، أضرب صدري بقبضتي ضربات شديدة . وقد كنت على حق عندما كنت تريد ذات يوم ان اصبح حامل اجازة ونائباً لمرشد معهد تورشي . وها انا اشعر الآن بدعوة لطيفة لهذه الغاية . ولكن ليس لدي حبر ، ويجب ان اشتريه ؛ وليس لدي اقلام ، ويجب ان اشتريها ؛ وليس لدي اوراق ، وليس لدي كتب ، ويجب ان اشتريها من جديد . انني بحاجـة كبرى لقليل من المال لأجل ذلك. وقد جئت اليك يا اخي وقلبي مليء بالندامة.

– اهذا كل شيء ؟

فقال الطالب : نعم ، قليل من المال .

– ليس معي .

فقال الطالب عندئذ بهيئة وقورة ومصممة في الوقت نفسه :

– حسناً يا اخي . يسوؤني ان اقول لك ان هناك من ناحية اخرى عروضاً واقتراحات قد عرضت علي . الا تريد ان تعطي مالاً . كلا ؟ – في هذه الحالة سأجعل من نفسي لصاً .

وحين لفظ هذه الكلمة اتخذ هيئة اجاكس ، منتظراً ان يرى الصاعقة تسقط على رأسه .

الا ان الخوراسقف قال ببرود :

– إعمل لصاً .

فحياه جهان تحية عميقة وهبط درج الدير وهو يصفر .

وحين مر في ساحة الدير تحت نافذة صومعة اخيه سمع تلك النافذة تفتح ، فرفع رأسه ورأى رأس الخوراسقف الصارم يبرز من الفتحة . وقال الدوم كلود :

– اذهب الى الشيطان ! هذا آخر مالٍ تناله مني .

وفي الوقت نفسه القى الكاهن الى جهان محفظة احدثت في جبهـــة الطالب حدبة كبيرة ذهب بعدهـــا غاضباً مسروراً معـــاً ككلب يرجم بعظم لا يزال فخّه فيه .

٣

ليعش المرح !

من الممكن ان القاريء لم ينس ان جزءاً من بلاط العجائب كان مسدوداً بالجدار القديم لسور المدينة الذي بدأ عدد كبير من ابراجه يتساقط خراباً منذ ذلك الوقت . الا ان احد هذه الابراج حوّله اللصوص الى مكان للملذات . وكانت هناك حانة في القاعة السفلى والباقي في الطبقات العليا . وكان هذا البرج هو النقطة الاكثر حياة ، وبالنتيجة الاكثر شناعة في وكر اللصوص . كان نوعاً من قفير بشع يطنّون فيه ليلاً ونهاراً . وفي الليل عندما تنام كل فضالة الكدية ، عندما لا تبقى اية نافذة مضيئة على واجهة الساحة المرعبة ، وحين لا تسمع اية صرخة في تلك الاكواخ التي لا تعد ، من منملات اللصوص والبنات والاولاد المسروقين ، والبناديق ، فان البرج المرح كان يُعرف من الضجة التي يحدثها ، ومن النور القرمزي الذي يتفلت ، اذا صح القول، من جميع مسامه ، وهو يشع من المنافذ ، والنوافذ وشقوق الجدران الملأى بالحراذين .

فالقبو اذن كان هو الحانة. وكانوا يهبطون اليه بواسطة باب منخفض ودرج اكثر تصلباً من تفعيلة كلاسيكية . وعلى الباب ، عوضاً عن الآرمة ، لخبطة رسم فاخرة تمثل سولات جديدة ودجاجات مفتولة مع هذه النكتة الجناسية تحتها : « الى قارعي الاجراس في سبيل الموتى » .

وذات مساء . عندما كان جرس اطفاء النور ومنع التجول ليلاً يقرع في

جميع ابراج باريس ، فان رقباء العسس ، لو اتيح لهم الدخول الى بــلاط العجائب الرهيب لاستطاعوا ملاحظة الضوضاء الصادرة عن حانة اللصوص اكثر من المعتاد ، ولرأوا انهم يكثرون من الشرب ويقسمون بشكل افضل . وفي الخارج ، في الساحة ، كانت هناك جماعات تتحدث بصوت منخفض ، كأنها تتآمر على مقصد عظيم . وهنا وهناك صعلوك مقعٍ يشحذ شفرة رديئـــة على البلاط .

الا ان الخمر والقمار في الحانة نفسها كانا الهية قوية للافكار التي كانت تشغل وكر اللصوص . وفي ذلك المساء ، وقد كان من الصعب معرفة جلية الامر من احاديث السكارى ، الا ان هيئتهم كانت اكثر مرحاً من المعتاد ، وعند التماع قطعة سلاح بين الساقين كان يُرى معهم منجل ، فـــأس ، سيف عريض ذو حدين ، او كلاّب سلاح قديم .

والغرفة ذات الشكل المستدير كانت فسيحة جداً ، ولكن المنافذ محشورة جداً والشاربين كثيرو العدد ، بحيث ان كل ما تضمه الحانة من رجـــال ، ونساء ، ومقاعد ، وجرار بيرة ، ومن كان يشرب ، ومن كان ينـام ، ومن كان يلعب ، والصحيحي الاجسام ، والعرج ، كان كل ذلك يبدو متكـدساً بفوضى فيها من النظام والتناسق ما في كومة من اصداف المحار . وهناك بعض الشحوم المضاءه على المنافذ ؛ ولكن نور الحانة الحقيقي ، ذلك الذي يقوم فيهـا مقام الثريا في قاعة اوبرا ، فهي النار . كان ذلك القبو كثير الرطوبة التي لا تفسح مجالاً لاطفاء الموقد حتى في الصيف ، وهو موقد واسع ذو وجه منحوت، تبرز منه مساند حديدية ثقيلة للحطب واجهزة مطبخ مع نار عظيمة ممزوجـــة بالحطب والفحم ، تمد ليلاً في شوارع القرية اخيلة نوافـــذ الكور الحمراء على الجدران المواجهة . وهناك كلب كبير يجلس بوقـار في الرماد ، كان يدير امام الجمر سفوداً مثقلاً باللحوم .

ومهما كانت الفوضى ، فقد كان بالامكان ان نميز ، بعـد النظرة الاولى ، ثلاث جماعات رئيسية في هذا الجمع الغفير ، تتزاحم حول ثلاثة اشخاص عرفهـم

القاريء قبلاً . وأحد هؤلاء الاشخاص ، وكان يرتدي لباساً غريباً ذا مطرزات شرقية كثيرة ، هو ماتياس هونغادي سبيكالي دوق مصر وبوهيميا. كان الخبيث جالساً على منضدة ، متصالب الساقين ، واصبعه في الهواء ، وهو يوزع علومه بصوت مرتفع في السحر الابيض والاسود على كثير من الوجوه الفاغرة الاشداق والمحيطة به . وهناك حشد آخر يتكاثر حول صديقنا القديم ملك الطون الباسل ، المسلح من رأسه الى قدميه . وكان كلوبان ترويفو يحدث بصوت منخفض وهيئة كثيرة الحذر مخططاً لنهب برميل ضخم مليء بالاسلحة ، والمشقوق شقاً عريضاً امامه ، حيث يخرج منه بالجملة فؤوس ، وسيوف ، وعبوات بارود ، ودروع من زرد ، ونصال رماح ، وسهام بكثرة . وكان كل واحد يأخذ من الكومة ما يلائمه . وقد تسلح الاولاد انفسهم ، حتى المقعدون، لبسوا الصفائح الحديدية والدروع ، كانوا يمرون بين سيقان السكارى كالخنافس الضخمة [1] .

واخيراً ، حشد ثالث ، وهو الاكثر صخباً ، والاكثر بشاشة ، والاكثر عدداً ، كان يزحم المقاعد والمنافذ التي يخطب ويقسم في وسطها صوت يشبه الزمر ويخرج من تحته سلاح ثقيل كامل من الخوذة حتى المهاميز . وهذا الشخص الذي كان يضع مجموعة الاسلحة على جسده ، كأنها مثبتة بالبراغي ، كان مختفياً تحت ملابس الحرب بحيث لا يرى من شخصه سوى انف وقح احمر ، اخنس ، وضفيرة من الشعر الاشقر ، وفم وردي ، وعينان جريئتان . وحزامه مليء بالسيوف القصيرة والخناجر ، وسيف كبير الى جانبه ، وقوس فولاذي صدىء الى شماله ، ووعاء كبير للخمر امامه ودون ان نذكر الى يمينه فتاة ضخمة خليعة . كانت جميع الافواه المحيطة به تضحك ، وتجدف ، وتشرب .

وانضف عشرين جماعة ثانوية ، وبنات وغلمان الخدمة الراكضين وعلى

---

١ ـ وردت في هذه الفقرة اسماء اسلحة قديمة ليس لها مثيل او اسماء بالعربية كما اعلم .

رؤوسهم اوعية ، واللاعبين الجالسين حول الكلل والماريل [1] والزهر وبعض الالعاب الاخرى ، والمشاجرات في زاوية ، والقبلات في زاوية اخرى . فاذا اضفنا كل هذا يتكون عندنا فكرة عن تلك المجموعة التي يتأرجح عليها الف نار عظيمة مشتعلة ترقص على جدران الحانة الف خيال مشوش غريب .

اما الضجة فكانت اشبه بداخل جرس يدق دقات عظيمة .

والوليمة ، حيث تزفر امطار من الشحم ، كانت تملأ بضغائنها المستمر الفترات الفاصلة ما بين تلك الالوف من المحاورات التي تتشابك في القاعة من طرف الى طرف .

وهناك بين الضجيج ، في داخل الحانة ، على مقعد الموقد الداخلي ، فيلسوف كان في حالة تأمل ، ورجلاه في الرماد ، وعينه على جذوة النار . انه بيير غرنغوار .

وكان كلوبان ترويفو يقول لجماعته من الارغو :

– هيا ، بسرعة . لنسرع ، تسلحوا ! سنسير بعد ساعة .

وهناك فتاة كانت تدندن :

مساء الخير يا ابي ويا امي !

الاخيرون يطفئون النار .

وهناك لاعبان بالورق كانا يتجادلان ، وكان الاكثر احمراراً بينهما يصرخ مظهراً قبضته للآخر :

– ايها الخادم ! سأدمغك بطابع السباتي ، وسيصبح بامكانك ان تحل محل ميستيجري [2] Mistigri في العاب ورق مولانا الملك .

وزعق نورمندي معروف من لهجته الخنّاء :

– اوف ! اننا مكدسون هنا كقديسي كيوفيل [1] Caillouville .

وقال دوق مصر لمن حوله بصوت حاد :

---

١ – لعبة يسميها الاطفال في لبنان « الاكس » .

٢ – الشاب السباتي في ورق اللعب .

- يا ابنائي . ان ساحرات فرنسا يسرن الى مجمع السحرة دون مكنسة ولا شحم ولا دابة يمتطينها ، بـل ببعض الكلمات السحرية فقط . وساحرات ايطاليا معهن دائماً تيس ينتظرهن على بابهن . وكلهن حريصات على الخروج بواسطة المدخنة .

وكان صوت الصعلوك الشاب المدجج بالسلاح من القدم الى الرأس يسيطر على الضوضاء ، وكان يصرخ :

- نويل ! نويل ! اسلحتي الاولى اليوم ! لص ! انا لص ! وبطن المسيح ! اسكبوا لي لأشرب ! - يا اصدقائي ، انا ادعى جهان فرولو دي مولان ، وانا من النبلاء. وانا من الرأي القائل ان الله لو كان دركياً لأصبح نهاباً. يا اخوتي، سنقوم بغزوة جميلة . نحن شجعان . محاصرة الكنيسة ، خرق الابواب واخراج الفتاة الجميلة منها ، وانقاذها من ايدي القضاة ، وانقاذها من الكهنة ، وهـدم اسوار الدير ، واحراق الاسقف في اسقفيته . سنفعل ذلك في وقت اقل من الوقت الذي يستنفذه الحاكم في اكل ملعقة شورباء . ان قضيتنا عادلة . سننهب كنيسة نوتردام وينتهي كل شيء . وسنشنق كازيمودو . اتعرفون كازيمودو ايتها الآنسات ؟ هل رأيتنه وهو يلهث على الجرس الكبير يوم عيد العنصرة ؟ وقرن الاب ! هذا جميل جداً ! اذ يخيل انه شيطان يمتط جواداً على حلقوم. - اصغوا الي يا اصدقائي. انا لص في اعماق قلبي، وانا من الأرغو بروحي، وقد ولدت في كاغو Cagou . كنت كثير الغنى واكلت اموالي . كانت امي تريد ان تجعل مني ضابطاً وابي شماساً ، وعمتي مستشاراً في التحقيـق ، وجدتي مسجلا لوثائق الملك ، وعمتي الكبرى خازناً ذا ثوب قصير . اما انا فقـد جعلت من نفسي لصاً . قلت ذلك لوالدي الذي بصق لعنتـه في وجهي . وقلت ذلك لأمي التي اخذت تبكي وهي السيدة العجوز ، ويسيل لعابها كتلك الحطبة الكبيرة على ذلك المسند في الموقد. ليعش المرح ! انا هارب حقيقي من بيساتر[1] Bicétre .

---

١ - بيساتر : ملجأ للعجزة وفاقدي الاهلية في مقاطعة السين .

ايتها الساقية . يا صديقتي هاتي كأساً آخر ! لا يزال معي ما ادفعه . لا اريد خمراً من سوريسن Suresne لأنه يؤذي نحري . احب ان اتغرغر بسلّة !

وكان الحشد يصفق ضاحكاً . وحين رأى الطالب ان الجلبة تتضاعف حوله هتف :

– اوه ! ما اجمل هذه الجلبة ! هيجان شعبي لشعب هائج !

وعندئذ اخذ يغني ، وكأن عينه غارقة في الذهول ، بلهجة كاهن قانوني يستهل صلاة :

– اي تراتيل ! اي آلات ! اي ألحانٍ هنا ترن دون نهاية ! وتُسمع حلوةً كالعسل ، آلات الاناشيد ، وألذّ لحن ملائكي ، واناشيد معجبة بين الاناشيد[1] » .

ثم قاطع نفسه قائلا :

– يا بائعة مآكل الشيطان ، هاتي عشائي .

ومرت فترة صمت ارتفع اثناءها صوت دوق مصر الخشن وهو يعلّم اتباعه من الغجر :

– ... ان ابن عرس يدعى اودين ، والثعلب يدعى القدم الازرق او راكض الغابات ، والذئب القدم الاشهب او القدم المذهب ، والدب يدعى العجوز او الجد . ان قلنسوة عفريت تخفي عن العيون وتجعل الاشياء غير منظورة . – وكل ضفدع يعمّد يجب ان يرتدي المخمل الاحمر والاسود ، وجلجل في عنقه وجلجل في قدميه . والعرّاب يمسك رأسه ، والعرابة مؤخرته . – والشيطان سيدراغازوم هو الذي يملك السلطة ليجعل الفتيات يرقصن عاريات .

فقاطعه جهان :

– قسماً بالقداس ! اريد ان اكون الشيطان سيدراغازوم .

---

١ – هذه العبارة كلها باللاتينية في الاصل .

الا ان اللصوص استمروا في تسلحهم وهم يتهامسون في الطرف الآخر من الحانة . وقال غجري :

- تلك المسكينة ازميرالدا ! انها اختنا . - يجب سحبها من هناك .

وقال متسول ذو قسمات يهودية :

- الا تزال في نوتردام ؟

- نعم .

فهتف المتسول :

- حسناً ! ايها الرفاق . الافضل من ذلك ان هناك تمثالين في كنيسة القديسين فيربول وفيروسيون ، الاول للقديس جان بابتيست والآخر للقديس انطوان . وكلاهما من ذهب ، ويزنان معاً سبعة عشر مارك ذهباً وخمسة عشر استيلان Estellins والقاعدة من الفضة المذهبة وتزن سبعة عشر مارك وخمسة اونس . اني اعرف ذلك لأني صائغ .

وهنا جيء لجهان بعشائه ، فهتف وهو يستلقي على عنق الفتاة جارته :

قسماً بالقديس فول دي لوك الذي يسميه الشعب القديس غوغيلو ، انا سعيد تماماً . وامامي هنا احمق يتطلع بهيئة ارشيدوق امرد . وهذا واحد الى يساري اسنانه طويلة الى درجة انها تغطي ذقنه . ثم انني امثل الماريشال دي جيه de Gié في حصار بونتواز ، وساعدي الايمن مستند الى حلمة ثدي . — وبطن محمد ! ايها الرفيق ! كأنك بائع بيض وتأتي لتجلس بقربي ! انا من النبلاء ايها الصديق ، والبضاعة تتنافى مع النبل . اذهب من هنا . — هولا هيه! انتم الآخرون ! لا تتضاربوا ! كيف ، يا بابتيست كروك وازون ، انت ذو الانف الكثير الجمال تكاد تعرضه لخطر قبضات هذا الاحمق الضخمة ! احمق ! أن يكون لك انف ، فهذا لم يُعط لأي كان . — انت إلهية حقاً يا جاكلين قاضمة الاذن . من المؤسف الا يكون لك شعر . هولا ! انا ادعى جهان فرولو ، واخي هو خوراسقف . ليأخذه الشيطان ! كل ما اقوله لكم هو

الحقيقة . وحين اصبحت لصاً تنازلت مسروراً عن نصف بيت في الجنة وعدني اخي به . « بارفي مشتق من الفردوس[1] » وانا اذكر النص . وعندي اقطاعة في شارع تيرشاب والنساء كلهن يعشقنني ، وهذا صحيح صحة القول القائل : ان القديس إلوا كان صائغاً ممتازاً ، وان المهن الخمس لمدينة باريس الطيبـــة هي : الدباغون ودابغو الجلود الرقيقة وتبييضها وحفظ نعومتها، وصنّاع حمائل السيوف، وصانعو المحفظات ، والكادحون الراشحون عرقاً . وان القديس لوران قـــد أحرق بقشور البيض . واقسم لكم ايها الرفاق :

انني لن اشرب الفلفل
طوال السنة اذا كنت اكذب !

يا فاتنتي . القمر مضيء . انظري هناك من النافـذة كيف تدعـك الريح الغيوم! هكذا افعل بطوق عنقك. — ايتها الفتيات اضربن الاولاد والشموع. — يا للمسيح ومحمد ! ماذا اكلت يا جوبتير ! اوهيه ! ايتهـا الحيزبون ان الشعر الموجود على رؤوس فاجراتك نجده في عجتك . ايتها العجوز ، اني احب العجة الصلعـاء . ليجعلك الشيطان فطساء ! يا له من فنـدق بعلزبولي تتمشط البغايا فيه بالفرتيكات !

قال ذلك وكسر صحنه على البلاط واخذ يغني بصوت مرتفع :

قسماً بدم الرب ،
اني لا املك .
ايماناً ولا قانوناً ،
لا سبداً ولا لبداً ،
لا ملكاً ،
ولا إلهاً !

وكان كلوبان ترويفو قد انتهى منتوزيـع السلاح،فاقترب من غرنغوار الذي

---

١ — عبارة لاتينية في الاصل فيها لعب بالكلمات .

كان يبدو غارقاً في احلام عميقة ، ورجلاه على سفود . وقال ملك الطون :

- ايها الصديق بيير . والشيطان بماذا تفكر ؟

فالتفت غرنغوار نحوه بابتسامة كئيبة وقال :

- اني احب النار يا سيدي العزيز . لا للسبب المبتذل بان النار تدفيء ارجلنا او تسلق شورباءنا، بل لان فيها شررات . احياناً اقضي ساعات وانا انظر الى الشرر ، فأكتشف الف شيء في تلك النجوم التي ترصع داخل الموقد الاسود . هذه النجوم ايضاً هي عوالم .

فقال اللص :

- يا للرعد اذا كنت افهمك ! اتدري كم الساعة ؟

فأجاب غرنغوار : لا ادري .

فأقترب كلوبان عندئذ من دوق مصر وقال :

- ايها الرفيق ماتياس ، الربع ساعة ليست ملائمة . يقال ان الملك لويس الحادي عشر موجود في باريس .

فقال الغجري العجوز :

سبب آخر لانقاذ اختنا من مخالبه .

فقال ملك الطون :

- انت تتكلم كرجل يا ماتياس . ومع ذلك فسنعمل بمهارة . ليس هناك مقاومة نخشاها في الكنيسة . فالكهنة كالأرانب ، ونحن في قوة . وسيعاق جماعة البرلمان حين يأتون لأخذها ! وامعاء البابا ! لا اريد ان تشنق الفتاة الجميلة !

وخرج كلوبان من الحانة .

واثناء ذلك كان جهان يهتف بصوت ابح :

- انا اشرب ، وآكل . انا ثمل ، انا جوبتير ! ايه ! يا بيير ضارب النبوت ، لو تنظر الي ايضاً كما تفعل الآن فسأنفض انفك بطرف السبابة .

اما غرنغوار من ناحيته فقد انتزع من تأملاته واخذ يتأمل المشهد الثائر الصاخب المحيط به متمتماً بين اسنانه :

– « الخمر والسكر الصاخب شيئان من الفجور [١] » . واأسفاه ! كم انا على حق بعدم الشرب . والقديس بنوا يقول وقد اجاد : « الخمرة تدفع الحكماء انفسهم الى المروق من الدين » .

في تلك اللحظة عاد كلوبان وصرخ بصوت راجد : نصف الليل !

ولدى هذه الكلمة التي كان تأثيرها كتأثير صوت النفير على فرقة عسكر في حالة توقف ، اسرع جميع اللصوص رجالاً ونساءً واطفالاً جماعات خارج الحانة محدثين جلبة عظيمة بفعل الاسلحة والحديد .

وكان القمر محجوباً .

وكان بلاط العجائب مظلماً . ولم يكن هناك اي ضوء . الا انه لم يكن مقفراً . فقد كان يميز فيه جمهور من الرجال والنساء يتحدثون بصوت منخفض . وكان يُسمع طنينهم ، ويُرى لمعان كل نوع من السلاح في الظلمات . وصعد كلوبان على حجر كبير وصرخ .

– الى صفوفكم يا جماعة الأرغو . الى صفوفكم يا غجر ! الى صفوفكم يا ابناء الجليل .

وحدثت حركة في الظلام . وتشكل الحشد الكبير بشكل عمود . وبعد بضع دقائق رفع ملك الطون صوته وقال :

– الآن ، الزموا الصمت لنجتاز باريس ! كلمة المرور هي : « مشعال صغير تافه » ! لن تضاء المشاعل الا في نوتردام ! سيروا .

بعد عشر دقائق كان فرسان العسس يهربون مذعورين امام موكب طويل من الرجال السود الصامتين الذين كانوا ينحدرون باتجاه جسر اوشانج ، خلال الشوارع الملتوية التي تخترق حي الهال الكثيف من جميع النواحي .

---

٢ – العبارتان باللاتينية في الاصل .

٤

صديق أخرق

في تلك الليلة نفسها لم ينم كازيمودو . فقد انتهى من القيام بدورته الاخيرة في الكنيسة . ولم يكن قد لاحظ وهو يقفل الابواب ان الخوراسقف مر بالقرب منه واظهر شيئاً من الغضب وهو يراه يرتج ويضع الاقفال باعتناء على الابواب الحديدية الضخمة التي تكسب مصاريعها العريضة متانة السور . وكانت هيئة الدوم كلود اكثر قلقاً من المعتاد . وبعد ، فمنذ المغامرة الليلية في الحجرة اصبح يسيء معاملة كازيمودو باستمرار . وكان يقسو عليه ويضربه احياناً ولكن ما من شيء كان يزعزع الخضوع ، والصبر ، والاستسلام المتفاني لقارع الاجراس المخلص . كان يتألم من كل اعمال الخوراسقف ، اهانات ، تهديدات ، ضربات ، دون ان يتمتم بلوم ، دون ان يظهر شكوى . وكل ما في الامر هو انه كان يتبعه بعينيه قلقاً حين كان الدوم كلود يصعد درج البرج ولكن الخوراسقف كان قد اقلع من تلقاء نفسه عن معاودة الظهور امام الغجرية .

في تلك الليلة اذن ، بعد ان القى كازيمودو نظرة على اجراسه المساكين ، الترو كين ، على جاكلين ، وماري ، وتيبول ، صعد حتى قمة البرج الشمالي ، وهناك ، وضع قنديله على الرصاص مغلقاً تمام الاغلاق ، واخذ يتطلع الى باريس . وقد قلنا ان الليل كان شديد الظلام . وباريس التي لم تكن مُنارة في

ذلك العصر ، كانت تعرض للعين كتلة مبهمة سوداء ، مقطوعة هنا وهناك بخط السين المنحني الابيض . ولم يكن كازيمودو يرى النور الا في نافذة عمارة بعيدة يرتسم منظرها الجانبي الغامض القاتم فوق السطوح من ناحية باب القديس انطوان. وهناك ايضاً كان يوجد من يسهر[1] .

وفيما كان قارع الاجراس يجيل نظره الوحيد في ذلك الافق من الضباب والليل ، شعر في داخله بقلق لا تفسير له . وكان على اهبة الاستعداد منذ عدة ايام . فقد كان يرى رجالاً ذوي قسمات عابسة يطوفون دون انقطاع حول الكنيسة ولا يفارق نظرهم ملجأ الفتاة . وفكر ان هناك مؤامرة تدبر ضد اللاجئة المسكينة . وتخيل وجود حقد شعبي ضدها كما هو الامر معه ، وان من الممكن حدوث شيء . وكان يبقى في برج الجرس متوصداً « حالماً في حلمه » كما يقول رابليه . وعينه بالدور على الحجرة وعلى باريس ، قائماً بحراسة اكيدة ككلب امين ، مع الف حذر في عقله .

وفجأة ، بينما كان يدقق النظر بالمدينة الكبرى بتلك العين التي جعلتها الطبيعة ، بنوع من التعويض ، حادة باستطاعتها ان تنوب عن الاجهزة الاخرى التي تنقص كازيمودو ، بدا له ان شبح رصيف بليتري القديمة فيه شيء غريب ، وان هناك حركة على تلك النقطة بحيث ان خط الحواجز المفصول بالسواد على بياض الماء لم يكن مستقيماً وهادئاً وشبيهاً بخط الارصفة الاخرى ، ولكنه كان يتموج في النظر كأمواج نهر ، او كرؤوس جماعة من الناس في حالة المسير .

في اللحظة التي كان فيها كازيمودو ينهك نفسه في التخمينات بدا له ان الحركة عادت الى الظهور في شارع بارفي الممتد عامودياً في حي لاسيته على واجهة كنيسة نوتردام . واخيراً ، ومع ان الظلام كان كثيفاً ، رأى رأس عمود يخرج من ذلك الشارع ، وبلحظة انتشر في الساحة جمهور لا يمكن تمييز اي شيء منه في الظلام سوى انه جمهور .

---

١ — هو لويس الحادي عشر في الباستيل . (انظر الفصل التالي) .

كان لهذا المشهد تأثيره المرعب ، ومن الراجح ان هذا الموكب الغريب الذي يبدو كثير الاهتمام بالتواري تحت ظلام عميق ، لم يكن يحتفظ بصمت اقل عمقاً . الا ان ضجة ما لا بد ان تتفلت منه ، وليست سوى ضجة وقع اقدام . ولكن هذه الضجة لم تكن تصل الى صديقنا الاصم . وهذا الجمع الغفير الذي لا يكاد يرى منه شيئاً ويسمع شيئاً كان يتحرك ويسير قريباً منه ويؤثر فيه تأثير حشد من الاموات ، صامت ، لا يمس ، ضائع في الدخان . وبد له انه يشاهد تقدم ضباب مليء بالرجال نحوه ، ويرى تحرك اطياف في الظلام .

عندئذٍ عادت اليه مخاوفه ، وتمثلت في ذهنه فكرة محاولةٍ ضد الغجرية . وشعر بشكل مشوش . انه يقترب من موقف عنيف . وفي تلك اللحظة الحرجة حاول ان ينصح نفسه بتعقل افضل وبإدراك اكثر، الامر الذي لم يكن منتظراً من دماغ سيء التنظيم . هل يجب عليه ان يوقظ الغجرية ؟ ايسهل لها الهرب ؟ من اين ؟ كانت الشوارع آمنة . وكانت الكنيسة محصورة بالنهر ، وليس هناك زورق ؟ ولا مخرج . – لم يبق لديه سوى تصميم واحد ، ان يُقتل على عتبة نوتردام ، ويقاوم على الاقل ، الى ان تأتي نجدة ، ان كان هناك نجدة ، ولا يزعج نوم ازميرالدا وسوف توقظ البائسة متأخرة لكي تموت . وبعد ان استقر على هذا العزم اخذ يدرس « الخصم » بكثير من الطمأنينة .

وبدا الجمهور انه يكبر كل لحظة في شارع بارفي . وقد ادرك انه لم يُحدث سوى ضجة قليلة لان النوافذ على الشوارع والساحة ظلت مغلقة . وفجأة سطع نور . وفي لحظة فان سبعة او ثمانية مشاعل منارة كانت تطوف على الرؤوس وتهز في الظلام باقاتها اللهبية . وعندئذٍ رأى كازيمودو بوضوح في شارع بارفي ، حشداً هائلاً من الرجال والنساء بثياب بالية يسيرون مسلحين بمناجل كبيرة ، ورماح،ومشاذب، وحراب تلمع الالوف من اسنتها. وهنا وهناك مذاري سوداء تشكل قروناً لتلك الوجوه الشنيعة . انه يتذكر بشكل مبهم هذا الحشد من

الناس وظن انه يعرف جميع الرؤوس التي حيته منذ بضعة اشهر كبابا المجانين . وهناك رجل يحمل بيده مشعلاً ، او بالأحرى سوطاً ، وقد صعد على نصب وبـدا انه يخطب . وفي الوقت نفسه قام الجيش الغريب ببعض التحركات العسكرية كأنه اتخذ مراكزه حول الكنيسة . والتقط كازيمودو مصباحه ونزل الى السطح الواقع بين الابراج ليرى عن قرب ويدبر وسائل الدفاع .

ووصل كلوبان ترويفو الى امام بوابة نوتردام العالية ، وكان بالفعل قد صفّ قطيعه للمعركة . ومع انه لم يكن ينتظر اية مقاومة ، إلا انه اراد ، كقائد حكيم ، ان يحتفظ بنظام يتيح له تشكيل جبهة عند اللزوم ضد هجوم مفاجيء من العسس او من فرقة الأونز – فان[1] Onze-vingts اذن فقد رتب فرقته بنوع انك لو نظرت اليها من اعلى او من بعيد لأمكنك القول انها المثلث الروماني في معركة اكنوم ، او رأس خنزير الاسكندر ، او زاوية غوستاف اودولف الشهيرة . وكانت قاعدة هذا المثلث تستند الى نهاية الساحة بنوع انها تسد شارع بارفي ؛ وأحد الاضلاع يتم بأوتيل ديو والضلع الآخر بشارع القديس بيير اوبوف . وكان كلوبان ترويفو قد تمركز في قمة المثلث مع دوق مصر ، وصديقنا جهان ، والرجال الاكثر جرأة .

وهذه المجازفة التي يقوم بها اللصوص في تلك اللحظة على كنيسة نوتردام ليست بالامر النادر في مدن القرون الوسطى . وما نسميه اليوم « شرطة » لم يكن موجوداً آنذاك . وفي المدن الشعبية ، والعواصم بشكل خاص، لم يكن هناك سلطة مركزية واحدة منظمة . فقد بنى النظام الاقطاعي تلك المقاطعات الكبيرة بشكل غريب . فالمدينة كانت عبارة عن تجمع الف امارة تقسمها الى

---

١ – فرقة مؤلفة من ٢٢٠ رجلا من الرماة المكلفين باعمال الشرطة . واونز – فان اي ١١ × ٢٠ = ٢٢٠ .

اقسام من كل الأشكال ومن كل حجم . ومن هنا جاء وجود الف شرطي متناقضين ، اي انه لا وجود للبوليس . وفي باريس مثلاً ، بصرف النظر عن المئة والواحد والاربعين سيداً من مدعي الاتاوات فقد كان يوجد خمسة وعشرون من مدعي القضاء والاتاوة [1] معاً ، منذ اسقف باريس الذي كان له مئة وخمسون شارعاً ، حتى رئيس دير نوتردام ديشان الذي كان له اربعة . وكل هؤلاء الاقطاعيين الذين يتمتعون بسلطة القضاء لا يعترفون الا اسمياً بسلطة الملك الاقطاعية . وكان للجميع الحق بادارة الطرق العمومية ، وكلهم كانوا في قصورهم . ولويس الحادي عشر ، ذلك العامل الدائب الذي بدأ بشكل واسع بهدم البناء الاقطاعي الذي استمر به ريشليو ولويس الرابع عشر لمصلحة الملكية ، واتمه ميرابو لمصلحة الشعب ، ان لويس الحادي عشر هذا قد حاول كثيراً تمزيق شبكة الامارات التي تغطي باريس قاذفاً الجميع بعنف من خلال امرين او ثلاثة للشرطة العامة . وهكذا ففي عام ١٤٦٥ صدر امر للسكان ، عند مجيء الليل ، ان يضيئوا نوافذهم بالشموع ، وان يحبسوا كلابهم تحت طائلة الشنق ؛ وفي السنة نفسها صدر امر باغلاق الشوارع في المساء بسلاسل حديدية ومنع حمل السيوف او اسلحة هجومية ليلاً في الشوارع . ولكن جميع هذه المحاولات من التشريع المحلي ادركها العفاء في قليل من الوقت وسقطت . فالبورجوازيون تركوا الهواء يطفيء شموعهم في نوافذهم ، وتركوا كلابهم تشرد ؛ والسلاسل الحديدية لم تمد الا في حالة الحصار ؛ ومنع حمل السيوف لم يحدث تغييراً آخر سوى تغيير اسم شارع « قطع الحلقوم » باسم « قطع العنق » ، وهذا تقدم راهن ! وجهاز السلطة القضائية الاقطاعية القديم ظل قائماً ؛ كدسة ضخمة من المحاكم والامارات تتشابك في المدينة وتتزاحم ، وتتصالب ، ويعلق بعضها في شباك البعض الآخر ، وتأكل بعضها البعض ؛ غابة من العسس لا فائدة منها ، وكذلك من نواب العسس ومن ضد

---

١ ـ هذه طبقات في النظام الاقطاعي القديم يطول شرحها .

العسس [1] كانت اللصوصية والسلب والشغب تمر من خلالها بيد مسلحة .
اذن ، وفي هذه الفوضى ، لم تكن مهاجمة قسم من العامة لقصر او فندق او بيت في الاحياء المأهولة عملاً غريباً . وفي معظم الحالات لا يتدخل الجيران في القضية الا اذا وصل النهب الى بيوتهم . وكانوا يسدون الآذان عن اطلاق البنادق ، ويقفلون مصاريع نوافذهم ، ويرتجون ابوابهم ، ويتركون المعركة تنتهي بواسطة العسس او بدونهم . وفي الصباح كان يقال في باريس !
- لقد اغتصبت اموال إتيين باربيت هذه الليلة . - لقد هوجم الماريشال دي كليرمون . الخ . وليست فقط البيوت الملكية كالوفر ، والقصر الملكي ، والباستيل ، والتورنيل كان فيها فتحات في الجدران وفوق الابواب ، بل جميع بيوت السادة كالبتي بوربون ، واوتيل دي سانس ، وقصر انغوليم . الخ .. اما الكنائس فتحرسها قداستها ، الا ان بعضاً منها كان محصناً ولكن كنيسة نوتردام لم تكن كذلك . وكان رئيس سان جرمان دي بريه يجعل لديره فتحات كأنه بارون . وكان عنده ايضاً كثير من النحاس انفق منه في صنع قذائف المنجنيقات اكثر مما انفق في صنع الاجراس . وكان حصنه لا يزال يُرى عام ١٦١٠ . اما اليوم فما يكاد يبقى منه سوى كنيسته .
ولنعد الى نوتردام .
عندما انتهت الترتيبات الاولى . وعلينا ان نقول على شرف التنظيم اللصوصي ان اوامر كلوبان نفذت بصمت وبدقة تستحق الاعجاب . ورئيس العصابة الفاضل صعد على سور باحة الكنيسة ورفع صوته الأجش الفظ ملتفتاً نحو نوتردام ، محركاً مشعاله الذي يُظهر ويُخفي عن العيون واجهة الكنيسة المحمرّة بسبب تلاعب الهواء به وبسبب الدخان المتصاعد منه ويغلفه في كل لحظة :
-- اني اوجه الكلام اليك ، انت يا لويس دي بومون ، اسقف باريس ،

---

١ - يبدو انها تشكيلات عسكريه للحراسة .

والمستشار في محكمة البرلمان ، انا كلوبان ترويفو ، ملك الطـون ، القويصر الكبير ، امير الارغو ، واسقف المجانين ، اقول : ان اختنا التي حكم عليها خطأ بسبب السحر ، قد التجأت الى كنيستك ؛ وانت ملزم بتأمين الملجــأ والحماية لها ؛ الا ان محكمة البرلمان تريد استرجاعها ، وانت رضيت بذلـك ، بحيث انها ستشنق غداً في ساحة غريف لولا وجود الله واللصوص . اذن فقد اتينا اليك ايها الاسقف . فاذا كانت كنيستك مقدسة فاختنا مقدسة ايضـاً ؛ واذا لم تكن اختنا مقدسة ، فكنيستك ايضاً كذلك . ولهذا السبب ننذرك باعادة الفتاة الينا اذا اردت انقاذ كنيستك ، والا فاننا سنستعيد الفتاة وننهب الكنيسة . هذا ما سوف يحدث . واشعاراً بذلك اغرس رايتي هنا ، وليحفظك الله يا اسقف باريس !

من المؤسف ان كازيمودو لم يستطع ان يسمع هذا الكلام الذي القي بنوع من الجلال العابس الوحشي . وقد قدم احد اللصوص علمه الى كلوبان الذي غرسه بين بلاطتين بشكل احتفالي . وكان عبارة عن مذراة تتدلى من اسنانها قطعة جيفة مدمّاة .

وبعد ذلك التفت ملك الطون ، وراح يجيل عينيـه في جيشه ، وهو حشد وحشي كانت نظرات افراده تلمع اكثر من الحراب . وبعد وقفـة استمرت لحظة ، صرخ :

– الى الامام يا ابنائي ! الى العمل ايها المقاتلون !

ثلاثون رجلاً اشداء ، ذوو عضلات مربّعــة ووجوه كوجوه الحدادين صانعي الاقفال ، خرجوا من الصفوف يحملون المطارق ، والملاقط والقضبـان الحديدية على اكتافهم ، وساروا نحو باب الكنيسـة الرئيسي ، وصعـدوا على الدرج ، وجثموا على القوس وهم يعالجون الباب بالملاقط والرافعات . وتبعهم جمهور من اللصوص لمساعدتهم او للنظر اليهم . وكانت درجات المدخل الاحدى عشرة مزدحمة بهم .

الا ان الباب قاوم جيداً ، فقال احدهم :

– يا للشيطان! انه قاس وعنيد !

وقال آخر :

– انه قديم وغضاريفه صلبة كالقرون .

وقال كلوبان :

– تشجعوا ايها الرفاق . اراهن برأسي مقابل حذاء انكم ستفتحون الباب وتأخذون الفتاة وتعرّون المذبح قبل ان يستيقظ اي خادم في الكنيسة . اسمعوا . اعتقد ان القفل قد اختل .

وقاطعت كلوبان فرقعة هائلة دوت خلفه في تلك اللحظة . فالتفت . لقد سقط من السماء جسر خشبي ضخم فسحق دزينة من اللصوص على درج الكنيسة ، وقفز على البلاط محدثاً دوي مدفع ، كاسراً هنا وهناك سيقاناً بين جمهور اللصوص الذين تبعثروا وهم يطلقون صراخ الرعب . وبلمحة عين اصبح سور باحة الكنيسة فارغاً . اما المقاتلون فقد تركوا الباب مع ان حنايا عقد المدخل كانت واقية لهم . وكلوبان نفسه تقهقر مسافة محترمة عن الكنيسة .

وصرخ جهان :

– نجوت باعجوبة . لقد احسست بالريح ، ورأس الثور !

ولكن بيير القاتل قد قُتل .

ويستحيل وصف الدهشة الممزوجة بالرعب التي سقطت مع ذلك الجسر الخشبي على اللصوص . فقد ظلوا بضع دقائق واعينهم محدقة في الهواء ، لقد اخافتهم هذه القطعة الخشبية اكثر من العشرين الفاً من رماة الملك ، ودمدم دوق مصر :

– والشيطان ! هذا ما يُشتّم منه رائحة السحر .

وقال اندريه الأحمر :

– ان القمر هو الذي القى علينا هذه الحطبة .

وقال فرنسوا شانترون :

– بهذا ، يقال ان القمر صديق للعذراء !

وهتف كلوبان :

– قسماً بألف بابا انكم حمقى كلكم .

ولكنه لم يكن يعرف كيف يفسر سقوط اللوح الخشبي .

ولم يكن بالامكان تمييز شيء على الواجهة التي لا يصل نور المشاعل الى قمتها. وكان اللوح الخشبي ملقى في وسط الباحة . وكان يُسمع انين البؤساء الذين تلقوا صدمته الاولى وقد انطوت بطونهم مقطوعة الى نصفين على زاوية الدرجات الحجرية .

وتلاشت الدهشة الاولى فوجد ملك الطون اخيراً تفسيراً بدا لرفاقه قريباً من المعقول :

– وحلقوم الرب ! ايدافع الكهنة ؟ اذن الى النهب ! الى النهب !

– الى النهب !

ردد الحشد ذلك بصيحة مهتاجة وأطلقت مقذوفات الاقواس الفولاذية على واجهة الكنيسة .

واستيقظ سكان البيوت المجاورة الوادعين على هذا الدوي . ورؤيت عدة نوافذ تفتح ، وقلانس ليلية وايدٍ تحمل الشموع تظهر في النوافذ . وصرخ كلوبان :

– صوّبوا على النوافذ !

فأغلقت النوافذ حالاً . والبورجوازيون المساكين الذين لم يتوفر لهم الوقت الكافي ليلقوا نظرة مشدوهة على هــذا المشهد من الاضواء والصخب عادوا يرشحون عرقاً من الخوف الى قرب نسائهم ، متسائلين اذا كان مجمع السحرة منعقداً الآن في باحة نوتردام ، أم انه هجوم يقوم به البورغينيونيون كما حدث عام ٦٤ . وعندئذ فكر الازواج بالسرقة ، والزوجات بهتك الاعراض ، وكان الجميع يرتجفون .

وردد جماعة الأرغو : الى النهب !

ولكنهم لم يجرؤا على الاقتراب . كانوا ينظرون الى الكنيسة ، وينظرون الى الجسر الخشبي . كان هذا لا يتحرك ، والعمارة محتفظة بهيئتها الهادئة المقفرة. ولكن شيئاً ما كان يجمد اللصوص .

وصرخ ترويفو :

- الى العمل اذن ايها المقاتلون ! لنكسر الباب !

فلم يخط احد اية خطوة .

وقال كلوبان :

- لحية وبطن ! هؤلاء رجال يخافون جسراً خشبياً .

فقال له احد المقاتلين :

- ايها القائد ، ليس الجسر الخشبي هو الذي يقلقنا بل الباب الذي خيط كله بالحواجز الحديدية وملاقطنا لا تستطيع شيئاً .

فسأل كلوبان :

- ماذا يلزمكم لحرقه اذن ؟

- آه ! يلزمنا آلة لهدم الجدران .

وركض ملك الطون ببسالة الى اللوح الخشبي الضخم ووضع رجله عليه وصرخ :

- هذه واحدة . فالكهنة هم الذين ارسلوه اليكم .

ثم توجه الى الكنيسة وحيا تحية ساخرة قائلاً :

- شكراً يا معشر الكهنة .

وكان لهذا التبجح اثره . فقد انقطع سحر اللوح الخشبي . واستعاد اللصوص شجاعتهم ؛ اما الجسر الخشبي الثقيل الذي رفعته كالريشة مائتان من السواعد القوية ، فقد انقض بمزيد من الهياج على الباب الكبير الذي جرب اللصوص ان يهزوه قبلاً . وفي الضوء القليل الذي كانت تنشره مشاعل اللصوص القليلة على الساحة ، فان رؤية هذا اللوح الخشبي الطويل الذي يحمله جمهور من الرجال كانوا

يسرعون راكضين باتجاه الكنيسة ، تبعث على التخيل ان وحشاً ضخماً ذا الف رجل يهاجم الحجر العملاق منخفض الرأس .

ورن الباب ، الذي نصفه معدني ، كطبل ضخم لدى صدمة الجسر الخشبي ، ولم ينشق، ولكن الكنيسة كلها اهتزت، وسُمعت زمجرة تجاويف البناء العميقة . وفي اللحظة نفسها بدأ مطر من الحجارة الضخمة ينهمر من اعلى الواجهة على المهاجمين . فصرخ جهان :

– يا للشيطان ! هل الابراج تهز حواجزها على رؤوسنا ؟

ولكن الامر بالوثوب قد صدر ، واعطى ملك الطون المثل . من المؤكد ان الاسقف هو الذي يدافع ، والباب لن يُقتحم الا بكثير من الهياج رغم الحجارة التي كانت تشق الجماجم يميناً وشمالاً .

ولوحظ ان هذه الحجارة كانت تسقط حجراً حجراً ، ولكن تتابعها قريب. وكان جماعة الارغو يشعرون باثنين منها معاً ، واحد على سيقانهم والآخر على رؤوسهم . وقليل منها لم يحدث إصابة . وقد نتج عن ذلك طبقة عريضة من الموتى والجرحى يسيل دمهم ويختلجون تحت اقدام المهاجمين الذين ازداد هياجهم فكانوا يتجددون دون انقطاع . واستمر الجسر الخشبي في ضربه الباب في فترات منتظمة كضرب الجرس ، واستمرت الحجارة بالتساقط والباب بالجئير .

وقد ادرك القارىء دون شك ان هذه المقاومة غير المنتظرة التي اسخطت اللصوص كانت آتية من كازيمودو .

ومن سوء الحظ فان الصدفة خدمت الأصم الشجاع . فعندما هبط الى السطح بين الابراج كانت الافكار مشوشة في رأسه . وقد ركض لبضع دقائق في طول الرواق ذاهباً آيباً كالمجنون ، مشاهداً من اعلى كتلة اللصوص الكثيفة المستعدة للانقضاض على الكنيسة ، سائلاً الشيطان او الله ان ينقذ الغجرية . وأتته فكرة الصعود الى البرج الجنوبي ليقرع جرس الخطر ؛ ولكن قبل ان يستطيع وضع الجرس في حالة اهتزاز ؛ قبل ان يتمكن صوت ماري الضخم

من قذف صيحة واحدة فان باب الكنيسة يكون قد اخترق عشر مرات . انها بالضبط تلك اللحظة التي كان فيها المقاتلون يتقدمون نحو الباب مع صانع الاقفال . ما العمل ؟

وتذكر فجأة ان بعض البنّائين كانوا قد عملوا طول النهار في اصلاح جدار وصقالة وسقف البرج الجنوبي . وكان ذلك شعاعاً من نور . فقد كان الجدار من حجر ، والسقف من رصاص ، والصقالة من خشب ، تلك الصقالة العجيبة الكثيرة الكثافة التي كانت تدعى : « الغاب » .

وركض كازيمودو الى ذلك البرج . وبالفعل فقد كانت الغرف الداخلية ملأى بالمواد . فهناك مدقات لحجارة البناء ، وصفائح من رصاص مدرجة على شكل اسطوانات ، وحزمات من الالواح الخشبية ، واخشاب متينة فصّلها المنشار ، واكوام من الانقاض . مخزن سلاح كامل .

وكانت اللحظة حاسمة . والكلاّبات والمطارق تشتغل تحت .

وبقوة زادها الشعور بالخطر عشرة اضعاف ، رفع احد تلك الجسور ، وهو انقلها واطولها ، واخرجه من احدى النوافذ ، ثم عاد وامسكه من خارج البرج وجعله ينزلق على زاوية الحاجز المحيط بالسطح وتركه يسقط في المهواة . والصقالة الضخمة ، في هذا السقوط على ارتفاع مئة وستين قدماً ، كشطت الجدار ، وكسرت المنحوتات ، ودارت على نفسها كجناح مطحنة يدور من تلقاء نفسه عبر الفضاء . واخيراً لامست الارض . وارتفعت الصرخة الرهيبة ، اما الجسر الاسود وهو يقفز على البلاط فقد كان اشبه بأفعى تثب .

ورأى كازيمودو اللصوص يتفرقون عند سقوط الخشب ، كالرماد امام نفخة ولد ، فاغتنم فرصة رعبهم ، وبينما كانوا يتطلعون متشائين الى الكتلة الساقطة من السماء ويعورون عيون قديسي حجر البوابة بسهام الاقواس والقذائف ، كان كازيمود يكدس انقاضاً وحجارة وحجارة صغيرة وهو صامت، حتى اكياس آلات البنائين ، وذلك على حافة الحاجز الذي قذف منه الجسر الخشبي .

وما ان بدأوا بضرب الباب الكبير حتى كان بَرَد من الحجارة الصغيرة يتساقط ، وخيل اليهم ان الكنيسة تتهدم من تلقاء نفسها على رؤوسهم .

وقد يصاب بالهلع من اتيح له ان يرى كازيمودو في تلك اللحظة . فبصرف النظر عما نضد من قذائف على الجدار ، فقد كوّم كومة من الحجارة على السطح نفسه . وحين استنفدت الحجارة الصغيرة المكومة على الحرف الخارجي بدأ بالكومة . وعندئذ كان ينحني وينهض وينحني من جديد ويعود ايضاً الى النهوض بفعالية لا تصدق . وكان رأسه العفريتي الكبير ينحني من فوق الحاجز ، ثم يسقط حجر ضخم،ثم آخر ، ثم آخر . وبين وقت وآخر كان يتبع بنظره حجراً جميلاً ، وعندما يراه يقتل جيداً كان يقول : هون !

الا ان شجاعة اللصوص لم تخمد . والباب السميك الذي كانوا منهمكين به اهتز اكثر من عشرين مرة تحت ثقل آلتهم الخشبية الذي ضاعفته قوة مئة رجل . كانت صفحات المصاريع تقضقض ، والنقوش تطير نتفاً ، ولدى كل صدمة كانت الرزّات تقفز مهتزة على محاورها ، والواح الخشب تختل .والخشب يتساقط مسحوقاً مطحوناً بين حبك الحديد . ومن حسن حظ كازيمودو ان فيه من الحديد اكثر مما فيه من الخشب .

الا انه كان يشعر ان الباب الكبير يترنح . ومع انه لم يكن يسمع ، فان كل ضربة من آلة الهدم الخشبية كانت تنعكس في تجاويف الكنيسة وفي احشائه معاً . ومن الاعالي كان يرى اللصوص ، وقد امتلأوا نصراً وهياجاً ، يهددون بقبضاتهم واجهة البناء المظلمة ، فيخشى على الغجرية وعلى نفسه اجنحة البوم التي كانت تهرب طائرة فوق رأسه .

ولم يعد مطر الانقاض كافياً لرد المهاجمين .

في تلك اللحظة من القلق ، لاحظ تحت الحاجز الذي كان يسحق منه جماعة الارغو ، ميزابين طويلين من حجر مفتوحين رأساً فوق الباب الكبير . وفتحة هذين الميزابين الداخلية تنتهي على بلاط السطح . فجاءته فكرة .وركض يبحث عن حزمة حطب في غرفته المخصصة لقارع الاجراس ، ووضع على هذه

الحزمة حزمات من الالواح الخشبية واسطوانات من الرصاص ، وهي ذخائر لم يستعملها بعد . ثم رتب جيداً هذه المحرقة امام ثقب الميزابين واشعل النـــار بواسطة قنديله .

اثناء ذلك انقطعت الحجارة عن السقوط . وانقطع اللصوص عن التطلع الى الهواء . وكانوا يتزاحمون صاخبين حول الباب الكبير وهم يلهثون كقطيع من كلاب الصيد يقتحم على الخنزير البري مأواه . وينتظرون الضربـــة الكبرى بارتعاش ، تلك الضربة التي ستشقه . وهؤلاء المنتظرون كانوا اكثر قرباً من الباب ليستطيعوا الاندفاع اولاً عند فتحه في تلك الكاتدرائية الثرية ، في ذلك الحوض الواسع الذي تكدست فيه ثروات ثلاث قرون . وكانوا يذكـّرون بعضهم البعض ، بزمجرة وفرح وشهية ، بالصلبان الفضية الجميلة ، والاثواب الفاخرة من البروكار ، وانصاب القبور الجميلة المذهبة وابهة الخورس العظيمـة ، والحفلات الباهرة ، واعياد الميلاد المتألقة بالمشاعل ، واعياد الفصح الساطعـــة بالشمس ، وجميع تلك الاحتفالات الرائعة حيث صناديق ذخائر القديسين ، والشمعدانات ، وحقة القربان ، وبيوت القربان المقدس ، وصناديق بقايا اجساد القديسين ، كانت تنقش المذابح بقشرة من الذهب والالماس . وبالتأكيد ، في تلك اللحظة الجميلة ، فإن فصائل اللصوص هذه [1] كانت تفكر بنهب كنيسة نوتردام اكثر من تفكيرها بانقاذ الغجرية . ونعتقد ان ازميرالدا بالنسبة لعدد كبير منهم لم تكن سوى ذريعة ، اذا كان اللصوص بحاجة الى ذريعة .

وفجأة، وفي اللحظة التي كانوا يتجمعون فيها لبذل جهدٍ اخير حول آلة هدم الباب ، وكل منهم قد تمالك ووتّر عضلاته ليقدم كل قوته للضربـة الحاسمة ، ارتفع بينهم عواء اكثر هولاً من الذي انفجر وتلاشى تحت لوح الخشب . اما اولئك الذين لم يكونوا يصرخون ، الذين لا يزالون احياء ، فقـد رأوا نوفرتين

---

١ – هنا يذكر المؤلف اسماء اربعة اجناس من هؤلاء اللصوص ولا يوجد بالعربية مـا يقابلها كما نعلم .

من الرصاص الذائب تسقطان من اعلى العمارة الى المكان الاكثر ازدحاماً .
وانخسف هذا البحر من الرجال تحت المعدن الغالي الذي احدث في النقطتين اللتين سقط فيهما ثقبين اسودين داخنين في الجمهور ، كما يفعل الماء الحار بالثلج .
وقد رؤي بينهم محتضرون نصف متكلسين يتحركون ويجأرون من الألم .
وهناك حول هذين الفوارتين الرئيسيتين قطرات من ذلك المطر الراعب كانت تتناثر على المهاجين وتدخل في الجماجم كمثاقب من اللهب . لقد كانت ناراً ثقيلة امطرت على هؤلاء البؤساء الوفاً من حبات البَرَد .

كانت الصيحات مؤثرة . وهربوا على غير نظام . وألقوا اللوح الخشبي على الجثث ، وكان الاكثر جرأة هو الاكثر خجلاً . واصبحت باحة الكنيسة فارغة للمرة الثانية .

كانت جميع العيون مرتفعة الى اعلى الكنيسة . وكان ما رأوه خارقاً للعادة . فعلى قمة الرواق الاكثر ارتفاعاً ، كانت لهبة عظيمة اكثر ارتفاعاً من الوردية الوسطى تتصاعد بين برجي الاجراس تصحبها عاصفة من الشرر ولهب عظيم ، غير منتظم ، هائج ، كانت الريح تحمله مزقاً بين الدخان .
وتحت تلك اللهبة ، تحت الحاجز القاتم الذي يبدو فيه الجمر بشكل السباقي في ورق اللعب ، يوجد ميزابان فمها فم مسخ كانا يلفظان دون انقطاع ذلك المطر الساخن الذي يفرّق سيلانه الفضي على ظلمات الواجهة الداخلية . وفوارتا الرصاص المائع ، بقدر اقترابها من الارض ، كانتا تتسعان بشكل باقات ، كالماء الذي ينبجس من الف ثقب في المصفاة . والابراج الضخمة فوق اللهب ، كان يُرى لكل منها وجهان فجّان مقطوعان ، الاول اسود والثاني احمر .
وتبدو اكثر كبراً من كل ضخامة الظل الذي تقذفه في السماء . اما منحوتاتها العديدة من الشياطين والتنانين فكانت تتخذ مظهراً مأتمياً . وضوء اللهب المضطرب كان يجعلها تبدو للعين متحركة . وهناك افاعي بدت كأنها تضحك وميازيب كأنها تعوي ، وحرابي تنفخ في النار ، وحيوانات مسيخة تعطس في الدخان . وبين هذه المسوخ التي أُيقظت من سباتها الحجري بواسطة ذلك اللهب

وتلك الضجة ، واحد كان يمشي ويظهر بين وقت وآخر وهو يمر على جبهـة المحرقة الحامية كخفاش امام شمعة .

ولا شك في ان هذه المنارة الغريبة ايقظت من بعيد حطـّاب تلال بيساتر الذي هاله ان يرى ظل ابراج نوتردام الضخم يترنح على خلنجياته .

وساد صمت راعب بين اللصوص لم يكن يُسمع اثناءه سوى صراخ استغاثة الكهنة المسجونين في ديرهم ، وقد كانوا اكثر قلقاً من خيول في اسطبل يحترق، وسوى الضجة الخافتة لنوافذ فتحت بسرعة واغلقت بسرعة اكثر ، والبلبلة الداخلية للبيوت ولأوتيل ديو ، والريح في اللهب ، وآخر حشرجة المحتضرين ، والاحتدام المستمر لمطر الرصاص على البلاط .

وكان اللصوص الرئيسيون قد انسحبوا الى تحت مدخل بيت غونديلوريه وعقدوا مجلساً للتشاور . وكان دوق مصر الجالس على احد الانصاب يتأمل بخوف ديني تلك المحرقة السحرية المتألقة على ارتفاع مائتي قدم في الهواء . وكان كلوبان ترويفو يعض قبضتيه الضخمتين بهياج .

ودمدم الغجري العجوز ماتياس هونغادي سبيكالي .

- يا للكنيسة الضخمة الجنية !

وقال مخادع اشمط :

– وشاربي البابا ! اليكم ميازيب كنيسة تبصق عليكم رصاصاً مذاباً افضل من شرفات لكتور .

وصرخ دوق مصر :

– اترون ذلك الشيطان الذي يروح ويجيء امام النار ؟

فقال كلوبان :

– بالتأكيد ! انه قارع الاجراس الملعون ، انه كازيمودو .

وهز الغجري رأسه وقال .

– اني اقول لكم انه الروح سابناك ، المركيز الكبير ، شيطان التحصينات . ان شكله شكل جندي مسلح ، ورأس اسد . احياناً يمتطي

جراداً شنيعاً ، ويحوّل الرجال الى حجارة يبني منها ابراجاً . ويأمر على خمسين فرقة . انه هو ، وقد عرفته . وهو يرتدي احياناً ثوباً جميلاً من الذهب مرسوماً على نسق الاتراك .

وسأل كلوبان : اين بلفينيه ديلتوال ؟

فأجابت لصة : لقد مات !

وكان اندريه الاحمر يضحك ضحكة بلهاء ويقول :

– ان نوتردام تزود اوتيل ديو بالشغل .

وقال ملك الطون وهو يفحص برجله .

– اما من وسيلة اذن لاقتحام هذا الباب ؟

فأراه دوق مصر بحزن جدولي الرصاص الساخن اللذين لم ينقطعا عن تخطيط الواجهة السوداء كمكبين من الفوسفور وقال متأوهاً .

– لقد رؤيت كنائس تدافع عن نفسها هكذا . فكنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية منذ اربعين سنة القت هلال محمد ثلاث مرات الى الارض هازة قبابها التي هي رؤوسها . وغليوم دي باري الذي بنى هذه كان ساحراً .

فقال كلوبان :

– ايجب اذن ان نذهب بشكل يستثير الشفقة كخدم الطريق العام ، تاركين هنا اختنا التي سيشنقوها غداً هؤلاء الذئاب المعتمرون القبعات ؟

واضاف لص نأسف لعدم معرفتنا اسمه :

– والسكرستيا حيث يوجد احمال من الذهب !

ثم تابع :

– لنحاول مرة اخرى . لن ندخل من الباب . يجب ايجاد نقطة الضعف في تحصينات الجنية العجوز ، ثقب ، حفرة ، باب سري ، اي مفصل كان .

وقال كلوبان :

– من منكم عنده فكرة ؟ سأعود الى ذلك . وبالمناسبة ، اين الطالب الشاب جهان الذي كان مثقلاً بالحديد ؟

فأجاب احدهم : لقد مات دون شك انما لم نعد نسمع ضحكه .
وعبس ملك الطون وقال :
– لا يهم ! لقد كان تحت الحديد قلب شجاع . – والمعلم بيير غرنغوار ؟
فقال اندريه الاحمر :
– ايها القائد كلوبان . لقد هرب قبل ان نبلغ جسر او شانجور .
ففحص كلوبان برجليه :
– وحلقوم الرب ! هو الذي دفعنا وتركنا هنا في منتصف المهمة . – ثرثار جبان ، يعتمر حذاء !
وصرخ اندريه الاحمر الذي كان يتطلع الى شارع بارفي :
– ايها القائد كلوبان . اليك الطالب الشاب .
فقال كلوبان :
ليتمجد اسم بلوتو . ولكن بحق الشيطان ماذا يسحب وراءه ؟
انه جهان فعلاً ، وكان يركض باسرع مما تسمح له ثيابه الثقيلة كفارس ، ويجر بشجاعة سلماً طويلاً على البلاط ، وهو يلهث اكثر من نملة مربوطة الى قشة اطول منها بعشرين مرة .
وصرخ الطالب :
– النصر ! هذا سلّم يستعمله من ينزلون البضائع في مرفأ سان لندري .
واقترب كلوبان منه وقال :
– ايها الولد ! وقرن الرب ! ماذا تريد ان تفعل بهذا السلّم ؟
فأجاب جهان لاهثاً :
– لقد حصلت عليه . كنت اعرف مكان وجوده . – تحت اهراء بيت الضابط الملازم . يوجد هناك فتاة اعرفها ، وتجدني جميلاً ككيوبيد . – لقد استخدمتها لأحصـــل على السلّم ، والسلّم معي . – جاءت تفتح لي وهي بالقميص .
– فقال كلوبان :

- نعم . ولكن ماذا تريد ان تفعل بهذا السلّم ؟

فتطلع جهان اليه بهيئة خبيثة ماهرة ، وفرقع بأصابعه كالصناجات . كان رائعاً في هذه اللحظة . فقد كان على رأسه احدى تلك الخوذات المثقلة بالزينة الخيالية في اعلاها من القرن الخامس عشر ، والتي كانت ترعب العدو . كانت خوذته شائكة بعشرة مناقير من الحديد بحيث كان باستطاعة جهان منافسة النعت الرهيب « مجهز بعشرة مهاميز[1] » في سفينة نستور الهوميرية .

- ما اريد ان افعله يا ملك الطون المبجل ؟ اترى ذلك الصف من التماثيل ذات الهيئة البلهاء هناك فوق البوابات الثلاث ؟

- نعم ، وبعد ؟

- انه رواق ملوك فرنسا .

فقال كلوبان : ماذا يفيدني هذا ؟

- انتظر اذن ! يوجد في طرف ذلك الرواق باب لم يقفل الا بالمزلاج . وبواسطة هذا السلم اصعد اليه واكون في الكنيسة .

دعني اصعد اولاً ايها الولد .

- كلا ايها الرفيق ، فالسلم لي . تعال . ستكون الثاني .

فقال كلوبان الشرس :

ليخنقك بعلزبول ، لا اريد ان اكون بعد احد .

- اذن ابحث عن سلّم آخر يا كلوبان .

واخذ جهان يركض في الساحة جاراً سلّمه وهو يصرخ :

- الي يا اولاد !

ونصب السلّم بلحظة واسنده الى حاجز الرواق الاسفل فوق احدى البوابات الجانبية . وهتف اللصوص هتافات عظيمة وازدحموا في الاسفل ليصعدوا . ولكن جهان احتفظ بحقه ووضع رجله على الدرجات اولاً . وكانت

---

١ - عبارة باليونانية في الاصل .

المسافة طويلة . ورواق ملوك فرنسا اليوم مرتفع ما يقارب الستين قدماً فوق الشارع . ودرجات السطح الاحدى عشرة لا تزال مرتفعة. وصعد جهان متمهلًا بنعه سلاحه الثقيل ، فيمسك الدرجة بيد ، وسلاحه بالاخرى . وحين اصبح في منتصف السلم القى نظرة كئيبة على رجـــال الارغو الاموات المنثورين على الدرج وقال :

– واأسفاه ! يا لها من كومة جثث جديرة بالنشيد الخامس من الالياذة !

ثم تابع صعوده ، وتبعه اللصوص ، على كل درجـة واحد منهم . ورؤية هذا الخط من الظهور المدرعة الذي يرتفع متموجاً في الظلام يبعث على الظن انه افعى ذات قشور فولاذية تنتصب ضد الكنيسة . وجهان الذي يشكل الرأس ويصفر كان يكمل هذا الوهم .

وبلغ اخيراً شرفة الرواق واجتازها بكثير من الرشاقة خـــلال تصفيق اللصوص جميعهم . وهكذا اصبح سيداً للقلعة فصرخ صرخة فرح . وفجأة وقف متحجراً . فقد شاهد وراء تمثال لأحد الملوك كازيمودو مختبئاً في الظلام وعينـه تقدح شرراً .

وقبل ان يضع محاصر ثان رجله في الرواق وثب الاحدب الرهيب الى رأس السلّم، وبدون ان يقول كلمة ، امسك بطرف قائمتيه بيديه القويتين ورفعها ، وابعدهما عن الجدار ، وأرجح لحظة بين هتاف القلق ذلك السلّم الطويـــل المنطوي المزدحم باللصوص من اعلى الى اسفل . وفجأة ، وبقـوة غـير انسانية قذف بذلك العنقود من الرجال في الساحة . ومرت لحظة كان فيهـا اكثرهم جرأة يرتجفون . والسلم المقذوف الى الوراء ظل لحظة مستقيماً وواقفاً ، وبدا متردداً ، ثم تذبذب ، وفجأة رسم قوس دائرة مخيفـــاً يبلغ شعاعه ثمانين قدماً ، وسقط على البـلاط مع حمـله من اللصوص وذلك بأسرع من جسر متحرك تقطع سلاسله . وكان سيـل من اللعنات ، ثم تلاشى كل شيء . وانسحب بعض البؤسـاء المبتوري الاعضـاء وهم يتراجعـون من تحت اكوام الموتى .

وتبعت صرخات النصر الاولى جلبة الم وغضب بين المحاصرين . وكان كازيمودو يتطلع غير مهتم ، ورفقاه مستندان الى الحاجز . وكانت هيئته هيئة ملك عجوز ذي شعر طويل في نافذته .

كان جهان فرولو في وضعية حرجة. فقد كان في الرواق مع قارع الاجراس الرهيب ، وحده ، يفصله عن رفاقه جـــدار عمودي ارتفاعه ثمانون قدماً . وحين كان كازيمودو يلعب بالسلّم ، ركض الطالب الى الباب السري الذي كان يظنه مفتوحاً. لم يكن مفتوحاً، فقد اقفله الأصم وراءه عند دخوله الى الرواق. وعندئذ اختبأ جهان وراء ملك حجري ، غـير متجرىء على التنفس ، مواجهـاً الاحدب المسخ بهيئة مرتعبة ، كذلك الرجل الذي كان يغازل زوجة حارس معرض الوحوش وذهب مساءً الى موعد غرامي فأخطأ الجدار في تسلقه ووجد نفسه امام دب ابيض .

في اللحظات الاولى لم ينتبـــه الأصم اليه ؛ ولكنه التفت اخيراً وانتصب واقفاً . فقد شاهد الطالب .

وأعد جهان نفسه لصدمة قاسية ، ولكن الأصم ظل جامداً ؛ الا انه التفت نحو الطالب الذي كان ينظر اليه .

وقال جهان :

– هو ! هو ! ما بك تنظر الي بتلك العين العوراء الكئيبة ؟

وفيما كان الشيطان يتكلم هكذا اعد قوسه ، وصرخ :

– كازيمودو ؟ سأغير لقبك . ستدعى الأعمى .

واندفعت الطلقة . وصفر السهم المنطلق ونشب في ذراع الاحدب الايسر . وكان اهتمام كازيمودو به كاهتمام الملك فارامون بخدش . ورفع يـده الى السهم وانتزعه من ذراعه وكسره بهدوء على ركبتيه الضخمة ، ثم رمـاه او بالاحرى القى القطعتين على الارض . ولكن الوقت لم يتسع لجهان ليسحب سهماً ثانياً ، فقد نفخ كازيمودو بشدة عندما انكسر السهم ، ووثب كالجرادة ، وسقط على الطالب الذي تسطع سلاحه على الحائط بضربة واحدة .

وعندئذ شوهد امر رهيب في ذاك الظلام الذي يطفو نور المشاعل عليه ، فقد امسك كازيمودو بيده اليسرى ذراعي جهان الذي شعر بهلاكه فلم يأت بحركة ، ونزع الاصم عنه باليد اليمنى قطع سلاحه الواحدة بعد الاخرى ، صامتاً ، وببطء خبيث ، السيف ، الخناجر ، الخوذة ، الدرع ، واغطية الذراعين ، حتى كأنه قرد يقشر جوزة . فقد ألقى كازيمودو قشرة الطالب الحديدية قطعة قطعة على قدميه .

وحين رأى الطالب انه اصبح منزوع السلاح ، والثياب ، ضعيفاً وعارياً في تينك اليدين الرهيبتين ، لم يحاول ان يكلم هذا الاصم ، ولكنه اخذ يضحك في وجهه مستهزئاً ، ويغني بلا مبالاته الجريئة ، كولد في السادسة عشرة من سنه ، تلك الاغنية الشائعة بين افراد الشعب آنذاك :

ان مدينة كامبريه

مرتدية اجمل الحلل

فقد نهبها مارافان ...

ولم يكمل . فقد رؤي كازيمودو واقفاً على حاجز الرواق ، ممسكاً رجلي الطالب بيدٍ واحدة ، وقد جعله يدور فوق الهاوية كالمقلاع . وسمعت ضجة كضجة علبة كبيرة تنفجر على حائط ، ورؤي شيء يسقط حيث توقف على ارتفاع ثلث سقطته على احد طنوف العمارة . انه جسد ميت ظل معلقاً هناك ، منطوياً الى قسمين ، محطم الضلوع ، فارغ الجمجمة .

وارتفعت صرخة رعب بين اللصوص . وصرخ كلوبان :

ـ الثأر !

واجاب الجمهور : الى النهب . هجوم ! هجوم !

وحدثت عندئذٍ ولولة مدهشة امتزجت فيها جميع اللغات وجميع اللغات العامية ، وجميع اللهجات . فقد زاد موت الطالب المسكين من حرارة ذلك الجمهور ، واجتاحه الخجل والغضب لإخفاقه هذا الوقت الطويل امام كنيسة وبسبب احدب . ووجد المهاجمون السلالم ، وضاعفوا المشاعل . وببضع دقائق

رأى كازيمودو المشدوه تلك المنملة الرهيبة تصعد من جميع النواحي لمهاجمة كنيسة نوتردام . والذين لم يكن معهم سلالم كان معهم حبال معقدة ، ومن لم يكن معهم حبال كانوا يتسلقون بواسطة نتوءات المنحوتات . وكانوا يتعلقون بأسمال بعضهم البعض ، ولم يكن هناك وسيلة لمقاومة هذا المد الصاعد من الوجوه الراعبة . وقد زاد الهيجان من لمعان تلك الوجوه الوحشية ؛ وكانت جباههم الترابية ترشح عرقاً ؛ وعيونهم تلمع كالبرق. وكل تلك الكشرات ، كل تلك البشاعات كانت تحاصر كازيمودو . حتى ليخيل ان كنيسة اخرى ارسلت كلابها، وشياطينها، وحيواناتها الاسطورية الاكثر غرابة لمهاجمة نوتردام . وكان ذلك كطبقة من المسوخ الحية على مسوخ واجهة البناء الحجرية .

وأضيئت الساحة بالوف المشاعل . وهذا المشهد غير المنتظم ، المختبىء حتى الآن في الظلام قد اشتعل فجأة بالنور . وكانت الباحة تتألق وتقذف اشعة في السماء . والمحرقة المشتعلة على السطح المرتفع ما تزال تحترق وتضيء المدينة في البعيد . وخيال البرجين الضخمين السنامي بعيداً على سطوح باريس يشكل في هذه الانارة تجويفاً واسعاً من الظل . وبدت المدينة قلقة. وهناك دقات اجراس كانت تجأر بالشكوى . وكان اللصوص يولولون ، ويلهثون ، ويجدفون ، ويصعدون . وكازيمودو العاجز ضد اعداء بهذه الكثرة ، والمرتعش خوفاً على الغجرية ، كان يطلب اعجوبة من السماء ويلوي ذراعيه من اليأس ، وقد رأى الوجوه الهائجة تزداد قرباً من رواقه .

٥

المعتزل الذي يراجع لويس
ملك فرنسا حساباته فيه

وربما لم ينس القاريء ان كازيمودو قبل ان يشاهد عصابة اللصوص في تلك الليلة وهو يراقب باريس من اعلى برج جرسه ، لم ير فيها ما يتألق سوى ضوء واحد كان ينفصم كالنجمة على زجاج الطابق الاعلى من بناية عالية قاتمة ، بجانب باب القديس انطوان . كانت هذه البناية هي الباستيل ، وتلك النجمة هي شمعة لويس الحادي عشر .

كان الملك لويس الحادي عشر فعلاً في باريس منذ يومين . وكان عليه ان يواصل سيره في الغد الى قلعته مونتيل ليتور . ولم يظهر سوى مرات قصيرة ونادرة في مدينته الطيبة باريس ، غير شاعر حوله بكثير من الزنزانات والمشانق والرماة الايكوسيين .

لقد جاء هذا النهار لينام في الباستيل . فغرفته الكبرى في اللوفر ومساحتها خمسة تواز مربعة ، وموقدها الكبير المثقل باثني عشر حيواناً ضخماً وثلاثة عشر نبياً ، وسريره الكبير بقياس احد عشر قدماً باثني عشر ، كان كل هذا قليلاً ما يرضيه . وكان يتلاشى في جميع هذه العظمات . وهذا الملك البورجوازي الطيب كان يفضل الباستيل مع غرفة صغيرة وفراش صغير . ثم ان الباستيل كان اكثر مناعة من اللوفر .

وتلك « الغرفة الصغيرة » التي احتفظ بها الملـــك لنفسه في سجن الدولة الشهير كانت واسعة بما فيه الكفاية وتشغل الطابق الاكثر ارتفاعـــاً من برج صغير مدمج في برج الحصن . وهو مكان بشكل مستدير ، مفروش بحصر من القش اللامع ، ومسقوف باخشاب مزدانة بازهار الزنبق المصنوعة من قصدير مذهّب ، مع مسافة ملونة بين الاخشاب ، ومصفح بخشبيات ثمينـة مبذورة بورود صغيرة من القصدير الابيض ومدهونة باللون الاخضر المـرح المصنوع من عشبة « حي العالم Orpin » واللونين الاصفر والنيلي .

ولم يكن فيها سوى نافذة ، وقوس مستطيل مشبّك بسلك الشبهان وقضبان حديدية ، الا انها مظلمة بسبب زجاج جميل رسمت عليه اشعرة الملك والملكة ، وكانت قيمة كل مصراع اثنين وعشرين سولاً .

وليس لها سوى مدخل ، وهو باب حـديث ذو قوس منخفض في الوسط مجهز بستار من الداخل ، ومن الخارج بأحد تلك المداخل المصنوع من خشب ارلندة ، هياكل واهنة من الخشب مفتوحة بشكل غريب ، وكانت لا تزال تُرى بكثرة في المساكن القديمة منذ مئة وخمسين سنة . وقد قال سافـــال بيأس : « مهما كان شيوخنا يشوهون ويزعجون الاماكن الا انهم لا يريدون اضعافها ويحفظونها رغماً عن كل فرد » .

ولا يوجد في هذه الغرفة شيء مما تؤثث به المساكن العادية . فلا مقاعد ، ولا ما ترفع عليه الاسرة ، ولا مقاعد منجدة ، ولا مواطىء مشتركة بشكل صندوق ، ولا مواطىء جميلة تسندها اعمدة وما يقابل الاعمدة ، وثمن القطعة اربعة سول . ولم يكن يرى فيها سوى كرسي مطوي ذي ذراعين ، بديـع جداً : خشبه مدهون باللون الوردي على ارضية حمراء ، والمقعـــد قرمزي مزخرف بشراريبات طويلة من الحرير أُدخل فيها الوف من المسامير الذهبية . ووجود هذا المقعد وحده يظهر ان شخصاً واحداً له الحق بالجلوس في الغرفة . وبجانب المقعد ، على مقربة من النافذة يوجد منضدة مغطاة بغطاء عليه رسوم عصافير . وعلى هذه المنضدة محبرة مبقعـــة بالحبر ، وبعض الرقوق ، وبعض

الاقلام ، واناء للشرب من الفضة المنقوشة . وفي مكان ابعد قليلاً مدفأة للرجلين ، ومركع للصلاة من المخمل القرمزي مزين بالذهب . واخيراً في الداخل سرير بسيط من النسيج الموشّى الاصفر والاحمر القاني ، دون زينة ولا تحبيك بالخيوط ؛ والشرابات بدون تصنع . وهذا السرير ، المشهور لانه يحمل النوم والأرق للويس الحادي عشر ، هو الذي كانت رؤيته لا تزال ممكنة منذ مائتي سنة عند احد مستشاري الدولة ، حيث رأته السيدة بيلو العجوز،المشهورة في سيريس تحت اسم آريسيدي و « الاخلاق الحية » .

في اللحظة التي ادخلنا فيها القارىء الى هذا المعتزل كان مظلماً جداً . فقد دقت اشارة إطفاء النور منذ ساعة ، والوقت ليل ، ولا يوجد سوى شمعة متذبذبة موضوعة على المنضدة لتنير على خمسة اشخاص محتشدين في الغرفة بوجوه مختلفة .

والاول الذي يسقط النور عليه كان سيداً يرتدي ملابس فاخرة ، من رداء يصل الى الركبتين ، وثوب قصير مخصّر قرمزي اللون مخطط بالفضة ، ورداء ذي كمين واسعين ، على كتفيه زينة تغطي الساعد حتى المرفق ، وهو من الجوخ المذهب ذو رسوم سوداء . وهذا اللباس الرائع الذي يتساقط النور عليه كان يبدو مصقولاً باللهب في جميع طياته . وكان على صدر الرجل الذي يرتديه اشعرة مطرزة بالالوان الحية : شريط بشكل زاوية حادة مصحوب بإيل على شكل قرن . وترس صغير عليه شعار الشرف قريب الى يمين فرع زيتون والى شمال قرن إيل . وهذا الرجل يحمل في حزامه خنجراً ثميناً قبضته الحمراء منقوشة بشكل الزينة الموحودة في اعلى الخوذة ويعلوها تاج الكونتية . وكانت هيئته سيئة وسمته ذات كبرياء ، ورأسه مرتفع . وتظهر الغطرسة على وجهه من اول نظرة ، والحيلة من النظرة الثانية .

كان عاري الرأس وفي يده ورقة طويلة ، واقفاً وراء المقعد ذي الذراعين الذي كان جالساً عليه شخص يرتدي لباساً غريباً سيئاً ، وجسده منطو الى قسمين بشكل قط ، وركبتاه الواحدة على الاخرى ، ومرفقه على المنضدة .

ولنتصور فعلاً ، على الجلد القرطبي الثمين ، رضفتين قفداوين ، وفخذين هزيلين تغطيها ثياب رثة من نسيج صوفي اسود ، والنصف الاعلى ملفوف بثوب من الكتان ذي فروة يظهر فيها الجلد اكثر من الوبر ؛ واخيراً ، لنكمل ، قبعة قديمة مشبعة بالدهن من اردأ جوخ اسود محاطـــة بإبزيم دائري من الدمى الرصاصية . هذا مع طاقية قذرة لا تكاد تمر منها شعرة ، وهذا كل ما يمكن تمييزه من الشخص الجالس . كان يبقي رأسه منحنياً على صدره بحيث لا يُرى شيء من وجهه المحجوب بالظل ، الا ما كان من ارنبة انفه التي يسقط عليها شعاع نور ، والتي يجب ان تكون طويلة . ويُعرف انه هرم من هزال يده المتغضنة . انه لويس الحادي عشر .

وعلى مسافة قصيرة وراءهما كان رجلان يتحدثان بصوت منخفض ويرتديان ملابس اهل الفلاندر التي لم تكن مختفية تماماً في الظلام بحيث ان اي واحد من الذين حضروا تمثيل مسرحية اللغز لغرنغوار يستطيع ان يعرف فيهما اثنين من مبعوثي الفلاندر الرئيسيين ، غليوم ريم الموظف الاديب في حكومة غانـد ، وجاك كوبنول صانع الجوارب الشعبي . ونذكر ان هذين الرجلين كانا ضالعين في سياسة لويس الحادي عشر السرية .

واخيراً في الداخل ، بالقرب من الباب ، يقف في الظلام جامداً كالتمثال ، رجل قوي ذو اعضاء مكتّلة وعدة عسكرية ، ورداء واسع الكمين عليه اشعرة الشرف ، ووجهه مربـع مثقوب بعينين على صفحة الرأس ، مشقوق بفم واسع ، ويخبىء اذنيه تحت واقيين من الهواء مصنوعين من الشعر السبط ، بدون جبهة ، يشتمل على الكلب والنمر معاً .

وكان الجميع مكشوفين باستثناء الملك .

والسيد الموجود بقرب الملك كان يقرأ له نوعاً من المذكرات الطويلة التي بدا جلالته انه يستمع اليها بانتباه . وكان الفلاندريان يتهامسان . ودمدم كوبنول :

– وصليب الرب ! لقد تعبت من الوقوف . الا يوجد كرسي هنا ؟

فأجابه ريم باشارة سلبية مصحوبة بابتسامة رصينة .
وقال كوبنول ، بائساً لاضطراره الى خفض صوته :
– وصليب الرب ! تحدوني رغبة شديـدة بالجلوس على الارض ، متصالب الساقين ، كصانع جوارب ، كما افعل في دكاني .
– انتبه جيداً يا معلم جاك .
– ايه يا معلم غليوم . الا يمكن هنا سوى الوقوف على القدمين ؟
فقال ريم :
– او على الركبتين .
في هذه اللحظة ارتفع صوت الملك ، فسكتا .
– اثواب خدمنا بخمسين سول ، ومعاطف خدم تاجنا باثنتي عشرة ليرة ؟ اذن هكذا ! اسكب الذهب بالاطنان ! اأنت مجنون يا اوليفيه ؟
وحين كان يتكلم هكذا رفع العجوز رأسه فرؤيت اصداف طوق القديس ميشال الذهبية تلمع في عنقه . وكانت الشمعة تنير تماماً جانب وجهه المعروق الشرس . وقد انتزع الورقة من يدي الشخص الآخر ، وصرخ وهو يجيل عينيه المتقعرتين على الدفتر :

– لقد خربتنا ! ما كل هذا ؟ وما حاجتنا ببيت عجيب كهذا ؟ كاهنان اجرة كل منهما عشر ليرات بالشهر وخادم كنيسة بمائة سول ! وخادم غرفة بتسعين ليرة في السنة ! واربعة مساعدين للمطبخ اجرة كل منهم مئة وعشرون ليرة بالسنة ! وحامل رمح ، وبستاني ، وخازن سلاح وخادمان للمقبوضات بعشر ليرات شهرياً لكل منهم ! وصبيـــان للمطبخ بثمان ليرات ! وسائس ومساعداه باربع وعشرين ليرة بالشهر ! وحمال ، وحلواني ، وخباز ، وسائقا عربة ، لكل منهم ستون ليرة بالسنة ! ومارشال معامل الحديد بمئة وعشرين ليرة ! ورئيس غرفة اموالنا بألف ومائتي ليرة، والمراقب خمسماية ! وما ادراني، انا .. هذا فوران ! ان رواتب خدمنا تعرض فرنسا للنهب ! وجميع مخزونات الوفر من اموال سوف تذوب بنار هذه النفقات ! سنبيع اواني موائدنا ! وفي

السنة القادمة اذا اعارنا الله ونوتردام الحياة (هنا يرفع قبعته) فسنشرب ماءنا بطاسة من قصدير !

وفيما كان يقول ذلك كان يلقي نظرة على وعاء الشرب الفضي الذي كان يلمع على الطاولة ، وسعل ، وتابع :

يا معلم اوليفيه ، ان الامراء الذين يحكمون امارات كبيرة ، كملوك واباطرة ، يجب الا يجعلوا النفقة المفرطة تتكاثر في بيوتهم ، لأن النار تندلع من هناك في الاقاليم . — اذن ، يا معلم اوليفيه ، اقبض يدك ، وقد انذرتك. فنفقاتنا تزداد في جميع السنوات . ونحن غير راضين عن هذه الامور ، فكيف بحق الله ، لم تتجاوز النفقات ستة وثلاثين الف ليرة حتى عام ٧٩ . وفي عام ٨٠ بلغت ثلاثة واربعين الفاً وستماية وتسع عشرة ليرة ، اني احفظ الرقم في رأسي ، — وفي عام ٨١ بلغت ستة وستين الفاً وستماية وثمانين ليرة ؛ وهذه السنة ، قسماً بايمان جدي ، ستبلغ ثمانين الف ليرة ! لقد تضاعفت في اربع سنوات ! وهذا فظيع !

وتوقف وقد ضاقت انفاسه . ثم تابع بحدة :

— لا ارى حولي سوى اناس يسمنون على هزالي ! انكم تمتصون اموالي من جميع المسام .

ولزم الجميع الصمت انها احدى تلك الغضبات التي يتركونها لتأخذ مداها . وتابع :

— هذا مثل تلك العريضة باللاتينية لإمارة فرنسا ، لكي نقرر ما يسمونه اعباء التاج الكبرى ! اعباء بالفعل ! اعباء تسحق ! آه ! ايها السادة ! تقولون باننا لسنا ملكاً ، لنملك « بدون اي ضابط لخدمة المائدة ولا ضابط لسكب الخمور[1] » سنجعلكم ترون ذلك . باسك ديو ! لو لم نكن ملكاً !

---

١ ـ عبارة باللاتينية في الاصل .

هنا ابتسم لشعوره بسلطته ، وتلطف مزاجـــه السيء ، والتفت الى الفلاندريين قائلاً :

– اترى ايها الرفيق غليوم ؟ فرئيس الخبازين ، ورئيس السقاة ، ورئيس غرفة الملك ، ووزير العدل لا يساوون اقل خادم . – احفظ هذه ايها الرفيق كوبنول : – لا يصلحون لشيء . وبقاؤهم هكذا بدون فائدة حول الملك فان تأثيرهم علي كتائير الانجيليين الاربعة الذين يحيطون بوجه ساعة القصر الكبرى، والذين جددهم فيليب بريل . انهم متحلون بالذهب ولكنهم لا يعيّنون الساعة، ويمكن للابرة ان تستغني عنهم .

وظل لحظة مفكراً ، ثم اضاف هازاً رأسه الهرم :

– هو ! هو ! قسماً بنوتردام ، انا لست فيليب بريل ولن اطلي اصحاب الاقطاعات بالذهب . انا من رأي الملك ادوارد القائل : انقذ الشعب واقتـل السادة . استمر يا اوليفيه .

والشخص الذي اشار اليه بهذا الاسم استعاد الدفتر من يديه وأخـذ يقرأ بصوت مرتفع :

– « ... الى آدم تينون ، مستخدم في مكتب حامـل اختـام حاكمية باريس ، لأجل المال ، طريقة وصور الاختام المذكورة التي صنعت من جديد لأن الاختام السابقة لم تعد صالحة للاستعمال بسبب قدمها وعدم صلاحهـا . اثنتا عشر ليرة باريزي .

« الى غليـوم فرير ، مبلغ اربـع ليرات واربعـة عشر سول باريزي ثمن اتعابه واجرته لانه اطعم وغذى الحمائم في برجي الحمام الموجودين في قصر تورنيل طوال اشهر كانون الثاني وشباط وآذار من هـذه السنة ؛ ولاجل ذلك اعطي سبع كيلات من الشعير .

« الى أحد رهبان الفرنسيسكان ، لاجل اعتراف مجرم ، اربعـــة سول باريزي » .

كان الملك يصغي ، ويسعل من وقت لآخر ، وعندئذ يرفع اناء الشرب الى

شفتيه ويشرب جرعة وهو يكشر .

– « .. في هذه السنة ، وبأمر القضاء ، نفخ في البوق ست وخمسون صرخة على مفترق طرق باريس . – حساب للتسديد .

« بسبب التنقيب والبحث في بعض الاماكن ، في باريس وفي الخارج ، عن اموال قيل انها مخبأة، ولكن البحث لم يسفر عن شيء . – خمس واربعون ليرة باريزي » .

فقال الملك :

– دفن دينار لاستخراج درهم !

«... لوضع ستة الواح زجاج ابيض في المكان الموجود فيه القفص الحديدي في قصر تورنيل ، – ثلاثة عشر سول . بأمر من الملك في يوم المسوخ ، لصنع وتسليم اربعة تروس لسلاح السيد المذكور ، مقبّعـــة باطار وردي ، ست ليرات . ثمن كمّين جديدين لرداء الملك القصير القديم ، عشرون سول . – ثمن علبة شحم لدهن احذية الملك ، خمسة عشر دنيه . – حظيرة جديـــدة لإقامة خنانيص الملك السود ، ثلاثون ليرة باريزي . – عدة حواجز معدنية والواح خشبية وابواب في السقف صنعت لسجن اسود القديس بولس ، اثنتان وعشرون ليرة » .

وقال لويس الحادي عشر :

– هذه حيوانات غالية الثمن . لا يهم ! انها ابهة جميلة للملك . هنـاك اسد كبير امغر احبه للطفه . – هـل رأيته يا معلم غليوم ؟ يجب ان يكون لدى الامراء من هذه الحيوانات العجيبـة . ونحن الملوك يجب ان تكون كلابنا اسوداً وهررنا نموراً . الكبير يسير الى التيجـان . وفي زمن وثنيي جوبتير ، حين كان الشعب يقدم للكنائس مئة ثور ومئة نعجة ، كان الاباطرة يعطون مئة اسد ومئة نسر . لقد كان ذلك وحشياً وكثير الجمال . وكان الملوك فرنسا دائماً ذلك الزئير حول عروشهم . الا انهم سيعترفون لي بالفضل وبانني لا ازال انفق من المال على ذلك اقل منهم ، وانني معتدل جداً بالاسود والدببة والفيلة

والفهود . اكمل يا معلم اوليفيـــه ، فقد اردنا ان نقول ذلك لأصدقائنـــا الفلاندريين .

وانحنى غليوم ريم انحناء عميقاً بينما كان لكوبنول ، بهيئته الفظة ، هيئة تلك الدببة التي كان يتحدث عنها صاحب الجلالة . اما الملك فلم يلاحظ ذلك . وقد غمس شفتيه في اناء ماء الاعشاب وبصق ما شربه قائلاً :

– بواه ! يا له من ماء يجلب الغم !

واستمر الذي كان يقرأ :

« لإطعام ساعٍ خبيث مسجون منذ ستة اشهر في المسلخ بانتظار معرفة مصيره . ست ليرات واربعة سول » .

فقال الملك مقاطعاً :

– ما هذا ؟ إطعام من يراد شنقه ! قسماً بالرب ! لن اعطي سولاً واحداً لهذه التغذية ، – تفاهم يا اوليفيه في الامر مع السيد ديستوتفيل ، ومنذ هذا المساء اعدوا لي تجهيزات عرس هذا الشهم على مشنقة . استمر .

ورسم اوليفيه علامـــة بإبهامه على مادة « الساعي الخبيث » وانتقـــل الى غيره :

– « الى هنريه كوزان رئيس تنفيذ الاعمال العليا لقضاء باريس ، مبلغ ستين سول باريزي ، يحددها له ويأمر بهـــا السيد حاكم باريس ، بسبب شرائه ، بناء على امر السيد الحاكم ، سيفــاً كبيراً لتنفيذ حكم الاعـدام وقطع رؤوس الاشخاص الذين ادانهم القضـاء بسبب عدم جدارتهم ، والسيف مجهز بغمده وبكل ما يتعلق به ؛ وكذلك فقد اصلح واشترى غمداً جديداً للسيف القديم الذي كان قد انشدخ وانثلم عند تنفيذ حكم الاعـدام بالسيد لويس دي لكسمبورغ و ... » .

فقاطعه الملك :

– يكفي . اني اوقع على دفع هذا المبلغ بطيبة خاطر . هـذه نفقات لا أراها . ولست بآسف ابداً على هذا المال . – تابع .

- « لصنع قفص كبير جديد ... » .

فقال الملك وقد امسك ذراعي مقعده بيديه الاثنتين .

- آه ! كنت اعرف تماماً انني اتيت الى هذا الباستيل لأمرٍ ما . - انتظر يا معلم اوليفيه ، اريد ان ارى القفص بنفسي . وستقرأ لي النفقات اثنـــاء تفحصي له . - ايها السادة الفلاندريون . تعالوا وانظروا هذا . انه عجيب .

وعندئذ نهض ، واستند الى ذراع محدثـه ، واشار الى الاخرس الواقف امام الباب ليسبقه ، وللسيدين الفلاندريين ليتبعاه ، وخرج من الغرفة .

وانضم الى الحاشية الملكية على باب المعتزل رجال مسلحون مثقلون بالحديد، وخدم رقيقو البنية يحملون المشاعل . وسار الموكب بعض الوقت في داخـل البرج المظلم الذي تخترقه ادراج واروقة حتى في سماكة الجدران . وكان قائد الباستيل يسير امام الجميـع ويفتح الكوى امام الملك الهرم المريض المقوس الظهر الذي كان يسعل وهو يسير .

كانت جميـع الرؤوس مجبرة على الانحناء عند كل نافـذة باستثناء رأس الهرم الذي احنته السنون . وكان يقول بين لثتيه ، لانه لم يكن له اسنان :

هوم ! نحن الآن على استعداد تام لولوج باب القبر . للبـاب المنخفض مارٌ منحنٍ .

واخيراً ، وبعد ان اجتازوا النافذة الاخيرة المثقلة بالاقفال بحيث قضـوا ربـع ساعة في فتحها ، دخلوا الى قاعة مرتفعة واسعـة ذات قبو ، ورأوا في وسطها ، على ضوء المشاعل ، مكعباً ضخماً كثيفاً من البناء والحديد والخشب . وكان مجوفاً من الداخل . انه احد تلك الاقفاص الشهيرة لمسجوني الدولة والتي تدعى « بنات الملك » وكان في الجدران الداخلية نافذتان او ثلاث نوافـذ صغيرة مشبكة بقضبان حديدية كثيفة لا يرى الزجاج منهـا . والباب بلاطـة كبيرة من الحجر المسطح كما في القبـور ، من تلك الابواب التي لا تستعمل الا للدخول . الا ان الميت هنا كان حياً .

اخذ الملك يسير متمهلاً حول البناء الصغير وهو يتفحصه باعتناء . بينما المعلم اوليفيه الذي يتبعه كان يقرأ المذكرات بصوت مرتفع :

– « لصنع قفص جديد كبير خشبي من الالواح الضخمة ، والهياكل والاخشاب التي تسند خشب السقف ، بطول تسعة اقدام وعرض ثمانية وارتفاع سبعة بين السقف والارض الخشبية ، مصقول ومشبك بالحديد وكان في غرفة موجودة في احد ابراج القديس انطوان . وقد وضع وسجن في هذا القفص بأمر من مولانا الملك سجين كان اولاً في قفص قديم متداع هرم . وقد استعمل في القفص المذكور ستة وتسعون لوحاً خشبياً جديداً بمددة واثنان وخمسون قائمة ، وعشرة جسور للسقف بطول ثلاثة تواز ؛ واشتغل تسعة عشر نجاراً لنحت وفتح وتشذيب كل الخشب المذكور وذلك في ساحة الباستيل طوال عشرين يوماً » .

فقال الملك وهو يضرب الصقالة بقبضته :

– من قلب خشب السنديان الجميل !

وتابع الآخر :

– « ... ودخل في هذا القفص مائتان وعشرون قضيباً من الحديد بطول تسعة اقدام وثمانية ، وما زاد على ذلك فبطول وسط مع القطع المستديرة والحواجز الرصاصية المثقوبة في مدخل الانبوب والمستعملة لتلك القضبان ، وكل هذا الحديد يبلغ ثلاثة آلاف وسبعماية وخمس وثلاثين ليرة ؛ عدا ثمانية مثلثات من الحديد تستعمل لربط القفص المذكور مع الكلاليب والمسامير التي تزن بمجموعها مائتين وثمان عشرة ليرة من الحديد دون ان نذكر شبكات نوافذ الغرفة التي وضع فيها القفص ، والحواجز الحديدية لباب الغرفة ، واشياء اخرى .. »

فقال الملك .

– اليكم كثيراً من الحديد لاستيعاب خفة روح !

« ... وثمن الجميع ثلاثماية وسبع عشرة ليرة وخمسة سول

وسبعة دنيه » .

فصرخ الملك : باسك ديو !

ويبدو ان احداً قد استيقظ في داخل القفص ازاء هذا التجديف المفضل عند لويس الحادي عشر ، وسمعت سلاسل تقشر خشب الارض محدثة ضجة ، وارتفع صوت ضعيف كان يبدو انه خارج من القبر :

– مولاي ! مولاي ! الرحمة .

ولم يكن بالمستطاع رؤية من فاه بهذا الكلام .

وتابع لويس الحادي عشر :

– ثلاثمائة وسبع عشرة ليرة وخمسة سول وسبع دنيه !

لقد جمّد الصوت المحزن الخارج من القفص جميع الحاضرين والمعلم اوليفيه نفسه . اما الملك فكان وحده الذي لم تدل هيئته على انه سمع شيئاً . وبأمر منه ، تابع المعلم اوليفيه قراءته ، واستمر جلالته في تفحص القفص ببرود .

– « ... وفضلاً عن ذلك فقد دفع لبنّاءٍ صنع الثقوب لوضع حديد النوافذ ، وخشب ارض الغرفة التي فيها القفص ، لأن خشب الارضية لم يستطع حمل هذا القفص بسبب ثقله ، سبع وعشرون ليرة واربعة عشر سول باريزي ... »

وعاد الصوت الى الانين :

– الرحمة ! يا مولاي ! اقسم لك بان الكاردينال دانجيه هو الذي قام بالخيانة وليس انا .

فقال الملك :

– البنّاء جلف . اكمل يا اوليفيه .

– « ... ولنجّارٍ ، لأجل نوافذ ، واسرة ، وسرج مثقوب ، واشياء اخرى ، عشرون ليرة ، وسولان باريزي .. »

واستمر الصوت ايضاً :

– واأسفاه ! يا مولاي . الا تصغي اليّ ؟ احتج اليك بانني لست الذي

كتب ذلك الشيء الى المونسنيور دي غوبان ، ولكنه السيد الكاردينال لابالو !

ولاحظ الملك :

– النجّار مرتفع الثمن . هل هذا كل شيء ؟

– كلا يا مولاي . « ... ولزجّاج لاجل زجاج الغرفة المذكورة ، ستة واربعون سول وثمانية دنيه باريزي ... »

– الرحمة يا مولاي . الا يكفي ان جميع اموالي اعطيت لقضاتي ، واواني مائدتي الى السيد دي تورسي ، ومكتبتي الى المعلم بيير دوريول ، وطنافسي الى حاكم روسيون ؟ انا بريء . وها قد مضى علي اربعة عشر عاماً وانا ارتجف من البرد في قفص من حديد . الرحمة يا مولاي ! ستكافئك السماء على ذلك .

فقال الملك .

– كم المجموع يا معلم اوليفيه ؟

ثلاثمائة وسبع وستون ليرة وثمانية سول وثلاثة دنيه باريزي .

فصرخ الملك :

– قسماً بالسيدة ، انه قفص يجلب العار .

وانتزع الدفتر من يدي المعلم اوليفيه واخذ يحسب بنفسه على اصابعه متفحصاً الدفتر والقفص دورياً . الا ان نحيب السجين كان مسموعاً . كان ذلك محزناً في الظلام ، وكانت الوجوه تتطلع الى بعضها البعض وقد شحب لونها .

– اربعة عشر عاماً يا مولاي ! اربعة عشر عاماً ! منذ شهر نيسان ١٤٦٩ . بإسم ام الرب المقدسة ، يا مولاي ، اصغ الي ! كنت طوال هذا الوقت تتمتع بحرارة الشمس . وانا ، المزيل ، الن ارى النهار ابداً ؟ الرحمة يا مولاي ! كن رحيماً . ان الرأفة فضيلة ملكية جميلة تقطع مجاري الغضب . اتعتقد يا صاحب الجلالة انها ستكون مسرةً عظيمة في ساعة الموت للملك لم يدع اية اهانة دون عقاب ؟ اني لم اخن جلالتك يا مولاي . انه السيد دانجيه . في رجلي سلسلة ثقيلة جداً وفي طرفها كرة كبيرة من الحديد اكثر ثقلاً مما يجب .

هيه ! مولاي ! اشفق علي !

فقال الملك وهو يهز رأسه :

– ألاحظ يا اوليفيه انهم حسبوا علي صاع الجبس بعشرين سول وهو لا يساوي الا اثني عشر . عليك ان تراجع هذه المذكرة .

وادار ظهره للقفص ، واخذ يستعد للخروج من الغرفة . الا ان السجين البائس ، نظراً لابتعاد المشاعل والضجة ، ظن ان الملك ذهب فصرخ بيأس :

مولاي ، مولاي .

واغلق الباب ، ولم ير شيئاً ولم يُسمع صوت مقفل النوافذ الأجش الذي كان يغني في اذنيه هذه الاغنية :

المعلم جان بالو
خسر رؤية
اسقفياته ؛
والسيد دي فردان
ليس له واحدة ؛
والكل مسرعون .

وكان الملك يصعد صامتاً الى معتزله ويتبعه موكبه مرتعباً من أنات المحكوم الاخيرة . وفجأة التفت جلالته الى حاكم الباستيل وقال :

– بالمناسبة . اما من احد في هذا القفص ؟

فأجاب الحاكم مندهشاً من السؤال :

– بالتأكيد يا مولاي .

– من هو اذن ؟

– السيد اسقف فردان .

كان الملك يعرف ذلك اكثر من اي شخص . ولكنها عادة غريبة . وقال بهيئة ساذجة كمن يفكر لأول مرة :

– آه ! غليوم دي هارانكور . صديق السيد الكاردينال لابالو . اسقف

شيطان !

وبعد بضع لحظات فتح باب المعتزل ثم أطبق من جديد على خمسة اشخاص رآهم القاريء في بدء هذا الفصل وكانوا قد استعادوا اماكنهم ، وحديثهم بصوت منخفض ، ومواقفهم .

اثناء غياب الملك وضعت على منضدته بعض الرسائل ففك ختمها بنفسه . ثم اخذ يقرأها بسرعة ، الواحدة بعد الاخرى ، ويشير الى المعلم اوليفيه ، الذي بدا انه يقوم عنده بوظيفة وزير ، ان يأخذ قلماً . ودون ان يطلعه على محتوى الرسائل بدأ يملي عليه بصوت منخفض الأجوبة التي كان هذا يكتبها منزعجاً وهو راكع امام المنضدة .

وكان غليوم ريم يلاحظ .

وكان الملك يتكلم بصوت منخفض بحيث لا يسمع الفلاندريون شيئاً مما يمليه الا ان تكون شذرات منفردة من هنا وهناك لا تكاد تفهم ، مثل : حفظ الاماكن الخصبة بواسطة التجارة والمجدبة بالمصانع . - العمل على ان يرى السادة الانكليز منجنيقاتنا الاربعة ، لندن ، لابرايان ، بور ان برمي ، وسان اومير .. -المدفعية سبب لأن تشتعل الحرب الآن بشكل اكثر صواباً ..- الى السيد دي برسوير ، صديقنا .. - الجيوش لا تستقيم بدون الضرائب .. الخ .

ومرة رفع صوته قائلاً :

- بإسك ديو ! السيد ملك صقلية يختم رسائله على شمع اصفر كملك فرنسا ، ربما اخطأنا بالسماح له . ان ابن عمي دي بورغونيه الجميل لم يكن يعطي اشعرة الشرف رخيصة . ان عظمة البيوت تتوطد في سلامة الامتيازات . سجل هذه ايها الرفيق اوليفيه .

ومرة اخرى قال :

- اوه ! اوه ! يا للرسالة الكبرى ! ماذا يطلب منا اخونا الامبراطور ؟

وجالت عيناه على الرسالة قاطعاً قراءته باصوات التعجب :

- بالتأكيد ! الدول الالمانية كبيرة وقوية بشكل يكاد لا يصدق .

ولكننا لا ننسى المثل القديم : اجمل كونتية هي الفلاندر ؛ واجمل دوقية هي ميلان ؛ وأجمل مملكة هي فرنسا . اليس كذلك ايها السادة الفلاندريون ؟

هذه المرة انحنى كوبنول مع غليوم ريم ، فقد تدغدغت النزعة الوطنية عند صانع الجوارب .

وهناك رسالة اخيرة جعلت لويس الحادي عشر يتجهم ويصرخ :

– ما هذا ؟ شكاوي وطلبات ضد جنودنا في بيكارديا ! اكتب يا اوليفيه بسرعة الى الماريشال دي روول . لتتراخ الانظمة . وليقم الدرك المكلفون بالاوامر ، ونبلاء الاقاليم ، والرماة الاحرار ، والسويسريون بانزال اذى لا ينتهي بالقرويين . على وجل الحرب الا يكتفي بالاموال التي يجدها في بيوت الفلاحين ، بل يجب ان يضايقهم بضربات شديدة بالعصا او بالسوط ؛ وان يذهب في طلب الخمر من المدينة ، والسمك والبقالة واشياء اخرى كثيرة . وليعرف السيد الملك بذلك . ولنجنب شعبنا المحاذير ، والسرقة والنهب . وان هذه ارادتنا قسماً بنوتردام ! وانه فضلاً عن ذلك لا يروق لنا ان يرتدي اي عازف كمان للرقص ، او حلاق ، او اجير حرب ملابس امير ، من المخمل والجوخ والحرير وحلقات الذهب . وان هذه التبجحات مكروهة من الله . وان نكتفي ، نحن النبلاء ، برداء من الجوخ بستة عشر سول الأون [١] الباريسي . ويستطيع السادة خدم العسكر ان يتدنوا الى هنا ايضاً . استدع واصدر الأمر . الى السيد روول ، صديقنا . حسناً .

املى هذه الرسالة بصوت مرتفع ، ونبرة متينة ، وببعض الهزات . وفي اللحظة التي انتهى فيها فتح الباب لمرور شخص جديد اسرع مذعوراً الى الغرفة وهو يصرخ :

– مولاي ! مولاي ! هناك ثورة شعبية في باريس !

فانقبض وجه لويس الحادي عشر الرصين ؛ ولكن ما بان من تأثره اختفى

---

١ – اون Aune : مقياس قديم يوازي ١١٨ سم تقريباً .

كالبرق ، فتبالك ، وقال بصرامة مطمئنة :

- ايها الرفيق جاك . لقد دخلت فجأة !

فاجاب الرفيق جاك لاهثاً :

- مولاي ! مولاي ! هناك تمرد !

كان الملك قد نهض . وامسك ذراعه بشدة وقال له في اذنه بشكل يسمعه وحده ، وبغضب مكتوم ، ونظرة محرقة باتجاه الفلاندريين .

- اخرس ، او تكلم بصوت منخفض .

وفهم القادم الجديد ، واخذ يروي له بصوت منخفض حكاية منفّرة كان الملك يسمعها بهدوء ، بينما كان غليوم ريم يوجه انتباه كوبنول الى وجه وثياب القادم ، وقبعته المبطنة ، ومعطفه القصير ، وثوبه المخملي الاسود الدال على انه رئيس في ديوان المحاسبة .

وما كاد هـــذا الشخص يعطي الملك بعض الايضاحات حتى هتف لويس الحادي عشر وهو ينفجر ضاحكاً :

- حقيقةً ! تكلم بصوت مرتفع ايها الرفيق كواكتيه ! ماذا اصابك حتى تتكلم هكذا بصوت منخفض ؟ ان نوتردام تعلم بانه ليس لدينا ما نخفيــه عن اصدقائنا الفلاندريين الطيبين .

ولكن يا مولاي ...

- تكلم بصوت مرتفع :

وظل الرفيق كواكتيه صامتاً من المفاجأة . وقال الملك :

- اذن تكلم يا سيد . هـل احدث القرويون اضطراباً في مدينتنا الجميـلة باريس ؟

- نعم يا مولاي .

وتقول ان هذا الاضطراب قام ضد السيد قاضي قصر العدل ؟

فاجاب الرفيق متمتماً وهو لا يزال متخدراً من التغـير المفاجىء الذي لا تفسير له والذي حدث في افكار الملك .

واجاب لويس الحادي عشر :

– واين التقى العسس بهذا الجمع الغفير ؟

– اثناء سيري من التروباندوري الكبرى نحـو جسر اوشانجور التقيت بهم . كما اني اتيت الى هنا تلبية لأوامر جلالتكم ، وقد سمعت بعضاً منهم يصرخون : ليسقط قاضي القصر .

– واية اضرار يشكون من القاضي ؟

فقال الرفيق جاك :

آه ، انه سيدهم .

– حقيقة !

– نعم يا مولاي ، انهم صعاليك بلاط العجائب . وقد مر وقت طويل وهم يشتكون من القاضي ، وهم من اقطاعته ، ولا يريدون الاعتراف به لا كقاض ولا كمكلف بشرطة الشوارع .

فقال الملك بابتسامة رضا حاول اخفاءها عبثاً :

– نعم !

وتابع الرفيق جاك :

– في جميع عرائضهم الى البرلمان كانوا يزعمون بانه ليس لهم سوى سيدين : جلالتكم وربهم الذي هو الشيطان كما اعتقد .

فقال الملك : هيه ! هيه !

وفرك يديه ، وضحك تلك الضحكة الداخلية التي تؤلق الوجه . ولم يستطع اخفاء سروره مع انه حاول ذلك . ليس هنـــاك شخص يفهم منه شيئاً ، حتى ولا المعلم اوليفيه . وقد ظل صامتاً برهة بهيئة مفكرة ، ولكنها فرحة ، وسأل فجأة :

– هل هم في قوة ؟

فاجاب الرفيق جاك : نعم بالتأكيد يا مولاي .

– كم ؟

– ستة آلاف على الاقل .
– ولم يستطع الملك ان يمنع نفسه من القول : حسناً . ثم تابع :
– هل هم مسلحون ؟
– فؤوس ورماح ومعاول وجميع انواع السلاح العنيف .
لم يظهر الملك انه متأثر من هـذا العرض . وظن الرفيق جاك ان من واجبه ان يضيف :
– اذا لم ترسلوا جلالتكم نجدة سريعة للقاضي فهو هالك .
فقال الملك بلهجة جدية مزيفة :
– سنرسل . بالتأكيد سنرسل . فالسيد القاضي صديقنا . ستة آلاف ! انهم شياطين جسورون . والجسارة بديعة ونحن مستاؤن جداً من ذلك . ولكن عندنا قليل من الناس حولنا هذه الليلة . وسنفعل ذلك غداً صباحاً .
فصاح الرفيق جاك :
– حالاً يا مولاي ! سيتسع الوقت لنهب مركز القضاء عشرين مرة ، وتنتهك الامارة ، ويُشنق القاضي . لأجـل الله يا مولاي ! ارسل النجدة قبل صباح غد .
فتطلع الملك في وجهه وقال :
– قلت لك غداً صباحاً .
لقد كانت احدى تلك النظرات التي لا جواب عليها .
وبعد صمت ، رفع لويس الحادي عشر صوته :
– يا رفيقي جاك . اتريد ان تعرف ذلك ؟ ماذا كانت ...
ثم تابع :
– ما هي صلاحيات القاضي الاقطاعية ؟
– مولاي . ان لقاضي القصر شارع لا كالندر حتى شارع هربري ، وساحة سان ميشال والاماكن التي يسميها العامة لوميرو الكائنة بقرب كنيسة نوتردام ديشان (هنا رفع لويس الحادي عشر حافة قبعته) وعدد هذه المنازل ثلاثة

عشر . ثم بلاط العجائب ، ثم لامالاديري المسماة لابانليو ، ثم جميع الاراضي المرتفعـــة التي تبدأ من تلك المالاديري وتنتهي عند باب سان جاك . بهذه الاماكن المتنوعـــة فهو ناظر طرقات وقاضٍ عالٍ وسط ودون ، وسيد ممتلىء .

فقال الملك وهو يحك اذنه اليسرى بيده اليمنى :

– اوبه ! هذا يشكل طرفاً صالحاً لمدينتي ! آه ! ان السيد القاضي « كان » ملكاً على كل ذلك !

ولم يصحح قوله هذه المرة ، بل استمر ، حالماً ، كأنه يحدث نفسه :

– ما اجمل كل هذا ايها السيد القاضي ! ان بين اسنانك قطعة لطيفـــة من باريسنا .

وفجأة حدث انفجار .

– باسك ديو! ما هم هؤلاء الناس الذين يدعون انهم مناظرو طرقات وقضاة وامراء وسادة عندنا ؟ ولهم مكوسهم على كل قطعـــة ارض مهما صغرت ، وقضاؤهم وجلادهم في كل مفترق طرق بين شعبنا ؟ بنوع ان الفرنسي يعـــد ملوكاً بقدر ما يرى من المشانق كما كان الاغريقي يعتقد بوجود آلهـــة بقدر الينابيـع ، والفارمي بقدر ما يرى من النجوم ! بالتأكيد ، هـذا امر سيء . والفوضى لا تعجبني . واريد ان اعلم اذا كانت رحمـــة الله هي التي جعلت في باريس مناظر طرق غير الملك ، وعدالة غير برلماننا ، وامبراطوراً غيرنا في هذه الامبراطورية ! قسماً بايمان روحي ! يجب ان يأتي اليـوم الذي لا يبقى فيـه في فرنسا غير ملك واحد ، وسيد ، وقاض ، وقاطع رأس واحد ، كما انه لا يوجد في الفردوس سوى إله واحد .

ورفع ايضاً قبعته واستمر ، حالماً دائماً ، بهيئة ولهجة صياد يهيج كلابه ويطلقها :

– حسناً يا شعبي ! بشجاعة ! حطم هؤلاء السادة المزيفين ! قم بالعمـل !

هيا ! هيا ! إنهبهم ، اشنقهم ! اسلبهم! اتريدون ان تكونوا ملوكاً ايها السادة؟ سر ايها الشعب ! سر !

هنا انقطع فجأة . وعض شفته كأنه يريد التقاط فكرته نصف الماربة ، متطلعاً بالدور الى كل من الاشخاص الخمسة المحيطين به . وفجأة امسك قبعته بكلتا يديه وتطلع اليها وقال لها :

اوه ! سوف احرقك اذا كنت تعرفين ما في رأسي !

ثم عاد يجيل حوله من جديد نظراً منتبهاً قلقاً كالثعلب الداخـــل الى وجاره خلسة :

– لا يهم ! ننجد السيد القاضي . ومن سوء الحظ ليس عندنا سوى القليل من الجنود في هذه اللحظة ضد حشد كبير من العامة . يجب الانتظار حتى الغد. سيعاد النظام الى المدينة وسيُشنق بقساوة كل من يُقبض عليه .

وقال الرفيق كواكتيه :

– بالمناسبة يا مولاي ، وقد نسيت ذلك بسبب الاضطراب الاول . لقد قبض العسس على اثنين من قادة العصابة . اذا اردتم جلالتكم ان تروا هـــذين الرجلين فهما هنا .

فصرخ الملك :

– اذا كنت اريد رؤيتهما ؟ كيف ! باسك ديو ! تنسى شيئاً كهذا ؟ – اركض بسرعة ، انت يا اوليفيه ، وهاتهما .

فخرج المعلم اوليفيه وعاد بعد لحظة مع الاسيرين المحاطين بالرماة . وكان للاول وجه ضخم ابله ، ثمل ومندهش . وكان يرتدي الاسمال ويمشي طاوياً ركبتيه ، جاراً رجله . اما الثاني فكان ذا وجه شديد الشحوب ، مبتسماً ، وقد عرفه القارىء قبلًا .

وتفحصهما الملك برهة دون ان يفوه بكلمة ، ثم وجه الكلام الى الاول :

– ما اسمك ؟

– جيفروا بانسيبورد .

– مهنتك ؟
– لص .
– ماذا ذهبت تفعل في ذلك العصيان الملعون ؟
فتطلع اللص الى الملك مؤرجحاً ذراعيه بهيئة حمقاء . كان واحداً من تلك الرؤوس السيئة التوافق والذكاء فيها كالنور تحت المطفأة . وقال :
– لا اعلم . ساروا فسرت .
– الم تذهبوا لمهاجمة ونهب سيدكم قاضي القصر بشكل مهين ؟
– اعلم انهم ذهبوا لأخذ شيء من عند احد الناس . هذا كل شيء .
وقدم احد الجنود منجلاً أُخذ من اللص . وسأله الملك :
– اتعرف هذا السلاح ؟
– نعم ، هذا منجلي . فأنا زارع كروم .
واضاف لويس الحادي عشر مشيراً الى السجين الثاني :
– اتعترف ان هذا الرجل رفيق لك ؟
– كلا ، لا اعرفه ابداً .
فقال الملك :
- يكفي .
واشار باصبعه الى الشخص الصامت الجامد بقرب الباب والذي جعلنا القارىء يلاحظه :
– ايها الرفيق تريستان ، هذا الرجل لك .
فانحنى تريستان لرميت . واصدر امراً بصوت منخفض لاثنين من الرماة فاصطحبا اللص المسكين .
الا ان الملك اقترب من السجين الثاني الذي كان يرشح عرقاً وسأله :
– اسمك ؟
– بيار غرنغوار يا مولاي .
– مهنتك ؟

– فيلسوف يا مولاي .
كيف تسمح لنفسك ايها الحقير بالذهاب لمحاصرة صديقنا السيد قاضي القصر، وما عندك لتقوله بشأن هذه البلبلة الشعبية ؟
– لم اكن فيها يا مولاي .
– هكذا اذن ايها الغلام الرديء ! الم يقبض عليك العسس مع تلك الرفقة السيئة ؟
– كلا يا مولاي . هناك خطأ . انه القدر . انا كاتب مآسي . واتوسل الى جلالتك يا مولاي ان تسمعني . انا شاعر ، ومن مرض ابناء مهنتي السير ليلاً في الشوارع . مررت من هناك هذا المساء . انها فرصة كبرى . فأوقفت خطأ . انا بريء من تلك العاصفة المدنية . وقد رأت جلالتك ان اللص لم يعرفني . اني اتوسل الى جلالتك .
فقال الملك بين جرعتين من اناء الشرب :
– اسكت . فقد حطمت رأسنا .
وتقدم تريستان لوميت واشار الى غرنغوار باصبعه قائلاً :
– مولاي ، ايمكن ان نأخذ هذا ايضاً ؟
فاجاب الملك بلا مبالاة :
– بالتأكيد . لا أرى في ذلك بأساً .
فاجاب غرنغوار :
– اما انا فأرى كثيراً .
كان فيلسوفنا في هذه اللحظة اكثر اخضراراً من زيتونة . فقد رأى في هيئة الملك الباردة اللامبالية انه لا سبيل له الا في شيء مؤثر جداً . فارتمى على قدمي لويس الحادي عشر هاتفاً ، بحركات بائسة :
– مولاي ! ستتلطف جلالتكم بالاصغاء الي . مولاي ! لا تنفجروا رعداً على هذا الشيء التافه مثلي . فصاعقة الله الكبرى لا تقذف نبتة خس . مولاي، انت عاهل جليل كثير القدرة . اشفق على رجل فقير فاضل اكثر قصوراً عن

اضرام تمرد من قطعة جليد عن اعطاء شرارة ! ايها الملك الكثير الرحمة ، الافراط في الحلم فضيلة الاسد والملك . واأسفاه ! ان القسوة تنفر النفوس ، ونفخات الريح الشمالية العنيفة لا تضطر المار الى ترك معطفه. ولكن الشمس ، وهي تعطي من اشعتها شيئاً فشيئاً تدفئه وتجعله يخلع ثيابه ليبقى في القميص . مولاي ، انت الشمس . وانا اعترض لدى سيدي ومولاي ، فانا لست لصاً رفيقاً ، سارقاً ، مخلاً بالنظام . وليس التمرد وقطع الطريق من اجهزة ابولو . ولست انا الذي اذهب والقي نفسي بين تلك الجموع التي تنفجر ضوضاء وفتناً . انا صاحب اقطاعة مخلص لجلالتكم . فنفس الغيرة التي يشعر بها الزوج بسبب شرف زوجته ، والعاطفة الحادة التي يشعر بها الابن محبة لوالده ، يجب ان يتحلى بها صاحب الاقطاعة لاجل مجد مليكه ، ويجب ان ينحل غيرة على بيته وفي سبيل زيادة خدمته . وكل عاطفة اخرى تستفزه لا تكون سوى جنون . هذه هي يا سيدي مبادئي في الدولة . اذن لا تحكم علي كثائر وناهب بسبب ثوبي المهترىء على المرفقين . اذا عفوت عني يا مولاي فسأجعله يهترىء على الركبتين وانا اصلي لله صباحاً ومساءً لأجلك ! واأسفاه ! انا لست كثير الغنى، وهذا صحيح . انا فقير نوعاً . ولكني لست فاسداً بسبب ذلك . وليس الخطأ مني. وكل فرد يعرف ان الغنى الفاحش لا تستخرج منه آداب جميلة. وان اكثر الناس استهلاكاً للكتب الصالحة لا يكون عندهم نار كبيرة للشتاء . والمحاكمة الوحيدة التي يقوم بها المحامي تأخذ كل الربح ولا تترك للمهن العلمية الاخرى سوى القش . هناك اربعون مثلاً ممتازاً تدور حول معطف الفلاسفة المثقوب . اوه ! يا مولاي ! ان الرأفة هي النور الوحيد الذي يستطيع انارة داخل النفس الكبيرة . الرأفة تحمل المشعال امام جميع الفضائل الاخرى . وبدونها فهم عميان يبحثون عن الله تلمساً . والرحمة التي هي الرأفة نفسها تنشىء محبة الرعايا التي هي اقوى حرس لشخص الامير . ماذا يضيرك يا مولاي ، ماذا يضير جلالتك الباهرة ان يزداد الفقراء واحداً على الارض؟ فيلسوف فقير بريء، غائص في ظلمات المصيبة بجيبه الفارغة التي تطن على بطنه الأجوف . ومع ذلك

يا مولاي فأنا اديب . والملوك العظام يضيفون الى تيجانهم لؤلؤة بحماية الادب . لم يكن هر كيل يزدري لقب موزاجيت ، وماتياس كورفان كان يكرم جان دي مونوويال زينة الرياضيات . ولكنها طريقة سيئة ان نحمي الادب ونشنق الادباء . يا لها من لطخة سوداء للاسكندر لو انه شنق ارسطو ! وهذا الحظ لن يكون ذبابة صغيرة على وجه شهرته لتجميلها ، بل قرح لتشويهها . مولاي ! لقد نظمت قصيدة تهنئة مناسبة بعرس الآنسة دي فلاندر ومولاي ولي العهد المعظم . وهذا ليس فتيلاً لإضرام التمرد . وترى جلالتكم انني لست كويتباً ، وانني درست دراسة غاية في الجودة ، واني اتحلى بفصاحة طبيعية عظيمة . اعف عني يا مولاي . ولو فعلت ذلك لقمت بعمل جميل لنوتردام واقسم لك انني مملوء رعباً لفكرة كوني مشنوقاً !

وفيما كان غرنغوار الحزين يفوه بهذا الكلام اخذ يقبل حذاء الملك . وكان غليوم ريم يقول لكوبنول بصوت منخفض :

– يفعل حسناً بزحفه على الارض ، فالملوك كجوبتير كريت ليس لهم آذان الا في ارجلهم .

واجاب صانع الجوارب بدون ان يهتم بجوبتير كريت ، وهو يرسم ابتسامة ثقيلة ، وعينه متطلعة الى غرنغوار :

– اوه ! ما احسن هذا ! اظن انني اسمع حافظ الختم هوغونيه يسألني الرحمة .

وحين توقف غرنغوار اخيراً وهو يلهث ، رفع رأسه مرتجفاً نحو الملك الذي كان يحك بظفره بقعة على ركبة سرواله . ثم اخذ جلالته يشرب من الاناء . وبعد ، فلم يفه بكلمة ، وهذا الصمت كان يعذب غرنغوار . واخيراً تطلع الملك اليه وقال :

– يا له من صخّاب مخيف !

ثم التفت الى تريستان لرميت وقال :

– باه ! اتركه .

فانقلب غرنغوار على قفاه مرتجفاً من الفرح .

وزمجر تريستان :

مطلق السراح ! الا تريد جلالتكم ان نبقيه قليلاً في القفص ؟

فقال لويس الحادي عشر :

– ايها الرفيق ! اتعتقد اننا نصنع اقفاصاً كهذه بقيمة ثلاثمائة وسبع وستين ليرة وثمانية سول وثلاثة دنيه لأمثال هذه العصافير ؟ اترك لي حالاً هذا النائم على التبن (كان لويس الحادي عشر يحب هذه الكلمة التي تشكل مع عبارة « باسك ديو » اساس مزاجه) وشيعه الى الخارج بصفعة .

فهتف غرنغوار :

– يا له من ملك كبير !

وخوفاً من امر معاكس امرع نحو الباب الذي فتحه له تريستان رغماً عنه . وخرج الجنود معه وهم يدفعونه امامهم بضربات شديدة من قبضاتهم ، تحمّلها غرنغوار كفيلسوف ارتيابي حقيقي .

وكان مزاج الملك الرائق ظاهراً في كل شيء منذ اخبروه عن التمرد ضد القاضي . وهذه الرأفة غير المألوفة لم تكن علامة سيئة على ذلك . اما تريستان لرميت فكان في زاويته عابساً ككلب رأى ولم يحصل .

الا ان الملك كان يضرب فرحاً باصبعه على ذراع مقعده نشيد جسر اودبير. لقد كان اميراً كتوماً ولكنه يعرف ان يخفي همومه اكثر من سروره . وظواهر السرور الخارجية هذه بسبب خبر جيد كانت احياناً تذهب بعيداً ؛ وهكذا ، عند موت شارل المتهور ، نذر حواجز فضية لسان مارتان دي تور ؛ وعند اعتلائه العرش نسي تنظيم مأتم والده .

وهتف جاك كواكتيه فجأة :

– هيه ، يا مولاي ! ماذا صار بحدة المرض الذي استدعتني جلالتك من اجله ؟

فقال الملك :

-- اوه ! الحقيقة اني اتألم كثيراً يا رفيقي . اذني تصفر ، وامشاط النار تكشط صدري .

فأخذ كواكتيه يد الملك وجس نبضه بهيئة جديدة .

وقال ريم بصوت منخفض :

-- انظر يا كوبنول ، ها هو بين كواكتيه وتريستان ، هذا كل بلاطه . طبيب له ، وجلاد للآخرين .

وبينما كان كواكتيه يجس نبض الملك اكسب وجهه هيئة مذعورة شيئاً فشيئاً . وكان لويس الحادي عشر ينظر اليه بشيء من القلق . وكان كواكتيه يظهر اغتمامه . اذ لم يكن للرجل الشجاع من مزرعة سوى صحة الملك السيئة . وكان يستثمرها بافضل ما يستطيع . واخيراً تمتم :

-- اوه ! هذا خطير فعلاً .

فقال الملك قلقاً : اليس كذلك ؟

وتابع الطبيب : نبض سريع ، لاهث ، ضاجّ ، غير منتظم[1] .

-- باسك ديو !

-- هذا يمكن ان يذهب بصاحبه قبل ثلاثة ايام .

فصرخ الملك :

-- نوتردام ! والدواء ايها الرفيق ؟

-- اني افكر فيه يا مولاي .

وجعل لويس الحادي عشر يمد لسانه . وهز رأسه ، وكشر . واثناء هذا التصنع قال فجأة :

-- بالتأكيد يا مولاي ! يجب ان اقول لك انه يوجد ريع شاغر لبعض المداخيل ، وان لي ابن اخ .

فأجاب الملك :

---

١ -- باللاتينية في الاصل .

– اني اعطي دخلي لإبن اخيك ايها الرفيق جاك ولكن اصحب لي هذه النار من صدري .

فقال الطبيب .

– ما دامت جلالتكم كثيرة الرأفة فلن ترفض ان تساعدني قليلاً ببناء بيتي في شارع القديس اندريه ديزارك .

فقال الملك : هيه !

فتابع الطبيب :

انا على وشك الافلاس . وسيكون مؤسفاً الا يكون للبيت سطح . لا لأجل البيت الذي هو بسيط وبورجو زي جداً بل لاجل رسوم جهان فوربول التي تصفح جدرانه . هناك ديانا تطير في الهواء ، ولكنها ممتازة ، نضرة ، رقيقة ، عملها بسيط . والرأس مكسو بشكل جيد ومتوج بهلال ، والبشرة ناصعة البياض تبعث الرغبة في اولئك الذين يتطلعون اليها بفضول . وهناك ايضاً سيريس . وهي صنم جميل جداً . جالسة على حزمات من القمح وعلى رأسها اكليل ظريف من السنابل مشبك بنبات القعباروں وبازهار اخرى . وليس بالامكان رؤية شيء اكثر صباً من عينيها ولا اكثر استدارة من ساقيها ، ولا اكثر نبلاً من هيئتها ، ولا افضل زينة من تنورتها . انها احدى تلك الجمالات الاكثر براءة والاكثر كمالاً من كل ما انتجه منقاش .

ودمدم لويس الحادي عشر :

– ايها الجلاد ، الى اين تريد ان تصل ؟

– يلزمني سقف فوق هذه الصور يا مولاي ، ومع انه امر تافه فليس معي مال .

– وكم سيكلف سقفك ؟

– ولكن ... سقف من النحاس مزخرف ومذهب، الفا ليرة على الاكثر.

فصرخ الملك :

– آه ! القاتل ! انه لا ينتزع مني سناً لا يكون الماسة .

فقال كواكتيه :
– ايكون لي سقفي ؟
– نعم ، واذهب الى الشيطان ، ولكن اشفني .
فانحنى جاك كواكتيه باحترام عميق وقال :
– مولاي ، انه دواء سينقذك . سنقوم بتطبيق وسائل الدفاع الكبرى على الكلى ، تلك الوسائل المؤلفة من مرهم الزيت والشمع ، وحبة ارمينيا ، وآح البيض ، والزيت والخل . وستستمر على احتساء شراب الحشائش . ونحن ضامنون جلالتك .
الشمعة التي تضيء لا تجتذب سوى ذبابة صغيرة . والمعلم اوليفيه الذي رأى الملك في حالة سخاء وظن ان الوقت ملائم ، اقترب بدوره وقال :
– مولاي .
فقال لويس الحادي عشر : ماذا ايضاً .
– مولاي ، جلالتكم تعلم ان المعلم سيمون رادان قد مات .
– وبعد ؟
– وكان مستشاراً للملك لشؤون قضاء الخزينة .
– وبعد ؟
– مولاي ، مركزه شاغر .
حين كان المعلم اوليفيه يتكلم تحلت صورته المتعالية عن الامائر المتكبرة الى الامائر المنحطة . وهو التبديل الوحيد الذي يقوم به وجه واحد من الحاشية الملكية . وتطلع الملك في وجهه وقال بنبرة جافة :
– فهمت .
ثم تابع :
– يا معلم اوليفيه ، كان الماريشال دي بوسيكو يقول : لا عطية إلا من ملك ولا سمك الا في البحر . وارى انك من رأي السيد بوسيكو . والآن اسمع . فذاكرتنا جيدة : في عام ٦٨ جعلنا منك خادماً لغرفتنا ؛ وفي عام ٦٩

حارساً للقصر جسر القديس كلود مقابل مئة ليرة تورنوا (وقد اردتها باريزي) وفي تشرين الثاني عام ٧٣ ، وبموجب رسائل معطاة الى جرجول، عيّناك حارساً حامل سلاح لغابة فانسين بدلاً من جيلبر آكل ؛ وفي عام ٧٥ منحناك حق استعمال غابة روفراي لوسان كاود مكان جاك لومير ؛ وفي عام ٧٨ أجلسناك بكل كياسة ، وبواسطة شهادات رسمية مختومة بالشمع الاخضر على الطرف المزدوج ، على دخل قيمته عشر ليرات باريزي لك ولزوجتك ، من ساحة التجار حتى مدرسة سان جرمان ؛ وفي عام ٧٩ منحناك حق استعمال غابة سينار بدلاً من ذلك المسكين جهان ديز ؛ ثم جعلناك قائداً لقصر لوش ؛ ثم حاكم سان كنتان ، ثم ضابط جسر مولان حيث دعيت بلقب كونت . ومن كل خمسة سول غرامة يدفعها كل حلاق في يوم عيد لك منها ثلاثة ولنا ما يفضل عنك . واردنا ان نغير اسمك « ليموفيه[1] » الذي يشبه هيئتك . وفي عام ٧٤ منحناك، رغم استياء نبلائنا الشديد ، اشعرة شرف ذات الف لون تجعل منك صدر طاووس . باسك ديو ! ألست ثملاً ؟ اليس صيد السمك جميلاً وعجائبياً ؟ الا تخاف ان تقلب سمكة واحدة زورقك ؟ ستودي بك الغطرسة يا رفيقي . الغطرسة يعقبها دائماً الخراب والعار . اعتبر هذا واسكت .

ان هذا الكلام الذي قيل بصرامة اعاد هيئة المعلم جاك اوليفيه الغاضبة الى الوقاحة فتمتم بصوت شبه مرتفع .

-- حسناً ، يبدو الملك مريضاً اليوم ولذلك فهو يعطي الطبيب كل شيء .

ولويس الحادي عشر البعيد عن ان يثيره هذا الهذيان ، تابع بشيء من اللطف :

-- نسيت ايضاً انني جعلت منك سفيراً في غاند الى جانب مدام ماري .

ثم اضاف وهو يلتفت الى الفلاندريين :

---

١ — بالفرنسية le Mauvais اي الرديء .

نعم ايها السادة . لقد كان هذا سفيراً .

ثم تابع موجهاً الكلام الى المعلم اوليفيه :

- هنا يا رفيقي ، يجب الا نغضب ، فنحن اصدقاء قدماء . وقد اصبح الوقت متأخراً ، وأنهينا عملنا . احلق لي .

مما لا شك فيه ان قراءنا لم ينتظروا حتى الآن ليعرفوا في « المعلم اوليفيه » ذلك الفيغارو[1] الرهيب الذي اشركته العناية ، صانعة المآسي الكبيرة ، في مهزلة لويس الحادي عشر الطويلة الدامية . ولن نتصدى هنا لإظهار هذه الصورة الغريبة . وكان لحلاق الملك هذا ثلاثة اسماء . ففي البلاط يدعونه بشكل مهذب اوليفيه الإبل الامر ؛ وبين الشعب اوليفيه الشيطان . ويدعى باسمه الحقيقي اوليفيه الرديء .

اذن ظل اوليفيه الرديء جامداً ، مظهراً استياءه من الملك ، ناظراً نظرة منحرفة الى جاك كواكتيه . وكان يقول بين اسنانه :

- نعم ، نعم ! الطبيب !

فاجاب لويس بسذاجة غريبة :

- ايه ! نعم ، الطبيب . للطبيب من الحظوة اكثر منك . وهذا بسيط جداً . فهو يستولي على الجسم كله اما انت فلا تمسكنا الا بالذقن . مر ، يا حلاقي المسكين . فهذا سيحصل مرة ثانية . ماذا كنت تقول اذن وماذا تصبح مهمتك لو كنت كالملك شيلبريك الذي كان من حركته انه يمسك ذقنه بيده ؟ هيا يا رفيقي . اهتم بوظيفتك واحلق لي . وابحث عما يلزمك .

---

١ - الفيغارو : شخصية خلقها بومارشيه وتلعب دوراً كبيراً في « حلاق اشبيلية » وفي « زواج الفيغارو » . وهو حلاق انتقل الى خدمة الكونت ألمافيغا . وهو اريب حاذق ، وصاحب مكائد . وجعل منه رمز لرجل من عامة الشعب يناضل ضد امتيازات النبلاء . المعرب

ورأى اوليفيه ان الملك اخذ يضحك ، وان ليس هناك من وسيلة لاغضابه ، فخرج مزمجراً لتنفيذ اوامره .

ونهض الملك واقترب من النافذة . وفجأة فتحها بحدة غير عادية وصرخ وهو يضرب بيديه :

– اوه ! نعم . هناك احمرار في السماء فوق المدينة . انه القاضي يحترق . لا يمكن ان يكون الا كذلك . آه ! يا شعبي الطيب ! ها انت تساعدني اخيراً على تهديم السيادات !

وعندئذ التفت نحو الفلاندريين وقال :

– ايهـــا السادة ، تعالوا وانظروا ذلك . اليست ناراً تلك التي تسبب الاحمرار ؟

فاقترب الغانديان . وقال غليوم ريم :

– نار عظيمة .

وأضاف كوبنول الذي تألقت عيناه فجأة :

– اوه ! هذا يذكرني بحريق بيت السيد دامبيركور . يجب ان تكون هناك انتفاضة كبرى .

– اتظن ذلك يا معلم كوبنول ؟

وكانت نظرة لويس الحادي عشر اكثر مروراً من نظرة صانع الجوارب .

– اليست مقاومتها صعبة ؟

– وصليب الرب يا مولاي ، ان جلالتكم ستحطم هناك كثيراً من فرق المحاربين .

فاجاب الملك :

– آه ! انا ! الأمر يختلف . لو كنت اريد .

فاجاب صانع الجوارب بجرأة :

– لو ان هذه الانتفاضة كما افترض لتطلبت منك الكثير .

فقال لويس الحادي عشر :

– ايها الرفيق ، بفرقتين من جنودي مع بعض المدافع يتم القضـــاء على رعاع القرويين .

وبدا صانع الجوارب جريئاً في مجابهة الملك رغم الاشارات التي كان يوجهها اليه غليوم ريم :

– مولاي . ان السويسريين هم قرويون ايضـاً . والسيد الدوق دي بورغونيه كان نبيلاً كبيراً . وكان يحتقر اولئك الرعاع. وفي معركة غرانسون يا مولاي كان يصرخ : يا رجال المدفعية ! اطلقوا النـار على هؤلاء الفلاحين الدنيئي النسب . وكان يقسم بالقديس جورج . ولكن الحاكم شارنا كتال انقض على الدوق الجليل بدبوسه وشعبه . وعند الالتقاء بالفلاحين ذوي جلود الجواميس اللوامع فان الجيش البورغوني الشهير تصدع كالزجاج عندما تصدمه حصاة . وكان هناك كثير من الفرسان الذين قتلهم هؤلاء الجبناء . وقد وجد السيد شاتوغويون ، اكبر سيد في بورغونيه ، قتيلاً مع جواده الكبير الاشهب في مرج صغير في احدى الغياض .

فقال الملك .

– ايها الصديق . انت تتكلم عن معركة . والامر يتعلق بعصيان . سأنجح في ذلك عندما يحلو لي ان اعبس .

واجاب الآخر بلا مبالاة :

– هذا ممكن يا مولاي . وفي هـذه الحالة تكون ساعة الشعب لم تحن بعد .

واعتقد غليوم ريم ان من واجبه التدخل فقال :

– يا معلم كوبنول . انك تكلم ملكاً شديد القوة .

فأجاب صانع الجوارب برزانة :

– اعلم ذلك .

وقال الملك :

– دعه يتكلم يا صديقي ريم . اني احب هذا الكلام الصريح . كان ابي شارل السابع يقول ان الحقيقة مريضة . اما انا فاعتقد انها كانت ميتة ، وانها لم تجد معرّفاً . ان المعلم كوبنول ينبيوني .

وعندئذ وضع يده بدالة على كتف كوبنول :

– اذن كنت تقول يا معلم جاك ؟

– اقول يا مولاي انك على حق تقريباً ، وان ساعة الشعب لم تأت بعد الى عندك .

فتطلع لويس الحادي عشر بعينه النافذة :

– ومتى ستأتي هذه الساعة يا معلم !

– ستسمعها تدق .

– في اي ساعة حائط من فضلك ؟

وكوبنول ، بهيئته المطمئنة الخشنة ، جعل الملــــك يقترب من النافذة وقال :

– اسمع يا مولاي ! هنا يوجد برج ، وبرج لدق جرس الخطر ، ومدافع ، وبورجوازيون ، وجنود . فحين يدق جرس الخطر ، وتزمجر المدافع ، وينهار البرج محدثاً ضجة عظيمة ، ويعوي البورجوازيون والجنود ويقتل بعضهم بعضاً ، تكون هي الساعة التي تدق .

واصبح وجه لويس قاتماً وحالماً ، وظل جامداً لحظة ، ثم ضرب بيديه بلطف كمن يربت على كفل جواد ، وقال :

– اوه ! كلا . لن تنهار بسهولة ياباستيلي الطيب ، اليس كذلك ؟

والتفت بحركة فجائية نحو الفلاندري الجريء :

– هل رأيت تمرداً في حياتك يا معلم جاك ؟

فقال صانع الاحذية :

– نعم رأيت .

فقال الملك :

– ماذا تصنع لتقوم بتمرد ؟

فأجاب كوبنول :

– آه ! ليس بالامر الكثير الصعوبة . هناك مئة طريقة . والامر ليس

نادراً . ثم طباع السكان . فطباع سكان غاند سهلة الاستعمال للتمرد . انهــم يحبون دائماً ابن الامير ، اما الامير فلا . حسناً ! افترض ذات صباح انهم يدخلون الى دكاني ويقولون : ايها الأب كوبنول ، يوجد هذا ويوجد ذاك . ان مدموازيل دي فلاندر تريد انقاذ وزرائها ، والقاضي يضاعف العقوبة ، او شيئاً آخر . اما ما يريدون ، فأن اترك العمل واخرج من مصنعي ، واسير في الشارع ، واصرخ : الى النهب ! ويوجد دائماً برميل مشقوق اصعد عليه واقول بصوت مرتفع اول ما يأتيني من كلمات ، اقول ما يخطر على بالي ؛ وحين يكون المرء من الشعب يا مولاي يظل معــه شيء يود قوله : وعندئذ ، يتجمعون ، ويصرخون ، وتدق الاجراس ، ويتسلح القرويون بسلاح الجنود ، وينضم اليهم من في السوق ، ويذهبون ! سيكون هكذا دائماً ما دام هناك سادة في الامارات ، وبورجوازيون في القرى ، وفلاحون في البلاد .

فسأل الملك :

— وضد من تعلنون العصيان هكذا ؟ ضد قضاتكم ؟ ضد سادتكم ؟

— احياناً . ذلك وفقاً للظروف . وفي بعض الاحيان ضد الدوق ايضاً .

وراح لويس الحادي عشر ليجلس ويقول بابتسامة :

آه ! هنا لا يعلنون العصيان حتى الآن إلا ضد القضاة !

في تلك اللحظة عاد اوليفيه الابل الى الدخول. وكان يتبعه خادمان يحملان زينة الملك ؛ ولكن ما اثار دهشة لويس الحادي عشر ، هو انه كان مصحوباً ، فضلاً عن ذلك ، بحـــاكم باريس وفارس العسس اللذين يبدوان مذعورين . وكانت هيئة الحلاق الحاقد مذعورة ايضاً ، ولكنه مسرور في داخله . وقـــد بدأ بالكلام :

— مولاي . استميح جلالتـــك عفواً عن البلبلة الجديدة العظمى التي انقل اخبارها .

فالتفت الملك بحدة جعلت ارجل مقعده تقشر حصير ارض الغرفة ، وقال: ماذا تود ان تقول ؟

فأجاب اوليفيه الايل بهيئة رديئة لرجل يفرح بنقل خبر ضربة عنيفة :

– مولاي ، تلك الانتفاضة الشعبية ليست على قاضي القصر .

– على من اذن ؟

– عليك يا مولاي .

فانتصب الملك العجوز واقفاً مستقيم الجسم كالشاب وقال :

– اوضح يا اوليفيه ، اوضح ! واحفظ رأسك جيداً يا رفيقي ، لأنني اقسم لك بصليب سان لو انك اذا كذبت علينا في هذه الساعة فان السيف الذي قطع عنق السيد دي لوكسمبورغ لم ينثلم كثيراً ليعجز عن نشر رأسك !

كان القسم رهيباً . ولويس الحادي عشر لم يقسم بصليب سان لو الا مرتين في حياته .

وفتح اوليفيه فمه ليجيب : مولاي .

فقاطعه الملك بعنف :

– إركع ! وانت ياتريستان اسهر على هذا الرجل !

فركع اوليفيه وقال ببرود :

– مولاي ، هناك ساحرة حكمت عليها محكمة البرلمان بالموت ، فالتجأت الى كنيسة نوتردام . واراد الشعب استرجاعها بالقوة . والسيد الحاكم والسيد فارس العسس موجودان هنا ليكذباني اذا لم تكن هذه هي الحقيقة . ان كنيسة نوتردام هي التي يحاصرها الشعب .

فقال الملك بصوت منخفض ، شاحبا مرتجفاً من الغضب :

– نعم هكذا ! نوتردام ! انهم يحاصرون سيدتي في كاتدرائيتها نوتردام ! انهض يااوليفيه . الحق معك . سأكلفك بمهمة سيمون رادان ، الحق معك . فالهجوم موجه الي . والساحرة تحت حماية الكنيسة ، والكنيسة تحت حمايتي . انا الذي كنت اعتقد ان الامر يتعلق بالقاضي ! اذن فهو ضدي !

وعندئذ ، وقد اعاده الغضب شاباً ، اخذ يمشي بخطوات كبيرة . لم يكن يضحك . كان مخيفاً ، وكان يروح ويجيء ، فقد تحول الثعلب الى ضبع ، وبدا مختنقاً لا يستطيع الكلام ، وكانت شفتاه تتحركان ، وقبضتاه المعروقتان تتشنجان ، وفجأة رفع رأسه ، وبدت عينه المقعرة مـــلأى بالضوء ، وتفجر صوته كالبوق :

– انزل يدك ياتريستان ! انزل يدك على هؤلاء الاوغاد ! سر يا صديقي تريستان ! اقتل ! اقتل ! اقتل !

وحين مضت هذه الثورة جاء وجلس ، وقال بهياج بارد منقبض :

... هنا يا تريستان ! بالقرب منا في ذلك الباستيل توجد رماح الفيكونت دي جيف الخمسون ، وهي تساوي مئة وخمسين جواداً . ستأخذها . وتوجد ايضاً فرقة الرماة بقيادة السيد دي شاتوبير ، ستأخذهـا . وانت رئيس الماريشالية ، وعندك رجال حاكميتك ، ستأخذهم . وستجد في نزل سان بول اربعين من الرماة من الحرس الجديد التابع لولي العهد ، ستأخذهم . وستسرع بكل ذلك الى نوتردام . آه ! ايها السادة قرويّو باريس ، لقد القيتم بأنفسكم هكذا ضد تاج فرنسا ، وقدامة نوتردام ، وسلامة هذه الجمهورية ! استأصل ياتريستان ! استأصل ! واحرص على ان لا يفلت احد الا لمقبرة مونفوكون .

وانحنى تريستان قائلاً :

– حسناً يا مولاي !

واضاف بعد صمت :

– وماذا افعل بالساحرة ؟

فجعل هذا السؤال الملك يفكر ، وقال :

– آه ! الساحرة ! ماذا يريد الشعب ان يفعل بها يا سيد ديستوتفيل ؟

فاجاب حاكم باريس :

– اتخيل يا مولاي انه ما دام الشعب جاء لينتزعها من ملجأها في نوتردام ، فهذا يعني انه مستاء من عدم عقابها وانه يريدها ان تُشنق .

وبدا الملك مفكراً تفكيراً عميقاً ، ثم توجه بالكلام الى تريستان لرميت .

– حسناً ايها الرفيق ، استأصل الشعب واشنق الساحرة .

فقال ريم لكوبنول بصوت منخفض :

– هكذا ، معاقبة الشعب لانه اراد ، والعمل وفقا لهذه الادارة .

واجاب تريستان :

– يكفي يا مولاي ، واذا كانت الساحرة لا تزال في نوتردام فهل يجب اخذها رغم الملجأ ؟

فقال الملك وهو يحك اذنه :

– باسك ديو ! الملجأ ! مع ذلك يجب ان تشنق هذه المرأة .

وكأن فكرة دقيقة استولت هنا عليه . فركع على ركبتيه امام مقعده ، وخلع قبعته ووضعها على المقعد ، وتطلع بورع الى احدى تلك التعاويذ الرصاصية الموجودة عليها ، وقال ضاماً يديه :

– اوه ! نوتردام دي باري ، يا سيدتي اللطيفة ، سامحيني . لن افعلها الا هذه المرة . يجب معاقبة تلك المجرمة . واؤكد لك ايتها السيدة العذراء ، يا سيدتي الطيبة ، انها ساحرة ليست جديرة بحمايتك المحبوبة . وانت تعلمين يا سيدتي ان كثيراً من الامراء الانقياء جداً قد تجاوزوا امتياز الكنائس في سبيل مجد الله وضرورة الدولة . فسان هونج ، اسقف انكلترا سمح للملك ادوارد ان يأخذ ساحراً من كنيسته . والقديس لويس الفرنسي ، سيدي ، قد خرق للسبب نفسه حرمة كنيسة السيد سان بول ؛ والسيد الفونس ابن ملك اورشليم ، خرق حقوق كنيسة سان سيبولكر . اذن سامحيني هذه المرة يا نوتردام دي باري . لن اعيدها ابداً وسأقدم لك تمثالاً جميلاً من الفضة شبيهاً بالتمثال الذي اعطيته السنة الماضية لنوتردام ديكوي . آمين .

ورسم اشارة الصليب ، ونهض ، واعتمر قبعته ، وقال لتريستان :

– اسرع يا رفيقي . خذ السيد دي شاتوبير معك . وليقرع جرس

الانذار . ستسحق الشعب وتشنق الساحرة . هذا امري . وآمل ان تقوم انت بتحقيق التنفيذ . وستقدم لي حساباً على ذلك . هيا يا اوليفيه ، لن انام هـــذه الليلة . احلق لي .

وانحنى تريستان لرميت وخرج . وعندئذ امر باشارة من يــــده ريم وكوبنول بالانسحاب وقال :

– ليحفظكم الله ايها السادة اصدقائي الفلاندريون الطيبون . اذهبوا وخذوا قليلا من الراحة ، فالليل يتقدم ونحن اقرب الى الصباح منا الى المساء .

فانسحب الاثنان وبلغا مأواهما يقودهما ضابط الباستيل . وكان كوبنول يقول لغليوم ريم :

– هوم ! لقد ضجرت من هذا الملك الذي يسعل ! وقد رأيت شارل دي بور غونيه ثملا وكان اقل شراسة من لويس الحادي عشر المريض .

فأجاب ريم :

– يا معلم جاك ، ذلك لأن خمر الملوك اقـل شراسة من شراب مـــاء الحشائش .

٦

سوسنة صغيرة في باغينو

حين خرج غرنغوار من الباستيل المحدر في شارع القديس انطوان بسرعة جواد هارب . ووصل الى باب بودوايه فمشى رأساً الى الصليب الحجري القائم في وسط الساحة حيث استطاع ان يميز في الظلام صورة رجل يرتدي ويعتمر السواد كان جالساً على درجات الصليب ، وقال غرنغوار :

– اهذا انت يا استاذ ؟

فنهض الرجل الاسود وقال :

– موت وآلام ! لقد جعلتني اغلي يا غرنغوار . فالرجل الموجود على برج سان جرفيه صرخ معلناً الساعة الواحدة والنصف صباحاً .

فأجاب غرنغوار :

– اوه ! ليس الخطأ مني ، ولكنه خطأ عسس الملك . وقد نجوت منهم . اني اخفق دائماً في ان أُشنق . وهذا حظي .

فقال الآخر :

– تخفق في كل شيء . ولكن هيا بسرعة . امعك كلمة المرور ؟

– تصور يا استاذ انني رأيت الملك ، وقد اتيت من هناك . انه يرتدي سروالاً من كتان . انها مغامرة .

– اوه ! يا لك من مكب كلام ! ماذا فعلت لي مغامرتك ؟ أمعك كلمة المرور التي وضعها اللصوص ؟

– معي . كن مطمئناً . انها « سوسنة صغيرة في باغينو » .

حسناً ! وبغير ذلك لا نستطيع التغلغـــل حتى الكنيسة . فاللصوص يسدون الشوارع ، ومن حسن الحظ انهم لاقوا مقاومة . وربمـــا سنصل في الوقت المناسب .

– نعم ، يا استاذ . ولكن كيف ندخل الى نوتردام ؟

– معي مفتاح الابراج .

– وكيف نخرج منها .

– يوجد خلف الدير باب صغير يوصل الى تيران ، ومن هناك في المـاء ، فقد اخذت مفتاح الباب وربطت زورقاً هناك هذا الصباح .

فقال غرنغوار :

– لقد اخفقت جداً في ان أشنق !

فقال الآخر :

– ايه بسرعة ! هيا ؟

وانحدر الاثنان بخطوات عريضة نحو حي لاسيته .

٧

شاتوبير يأتي منجداً

وربما يتذكر القارىء الموقف الحرج الذي تركنا فيه كازيمودو . فالأصم الشجاع الذي هوجم من جميع الجهات فقد ، ان لم يكن كل شجاعة ، فعلى الاقل كل امل في انقاذ الغجرية ، وليس نفسه ، لانه لم يكن يفكر بنفسه . وكان يركض هائماً في الرواق . وكنيسة نوتردام تكاد تصبح نهبة بأيدي اللصوص . وفجأة ملأ الشوارع المجاورة عدو خيول ، ومع خيط طويل من المشاعل وعمود كثيف من الفرسان الراكضين بغاية السرعة مشرعي الرماح ، فإن هذه الجلبات المتزايدة انصبت في الساحة كالعاصفة :

ــ فرنسا ! فرنسا ! اقطعوا دابر القرويين الغلاظ ! شاتوبير جاء منجداً ! حاكمية ! حاكمية !

ونكص اللصوص المذعورون على اعقابهم .

وكازيمودو الذي لم يكن يسمع ، رأى السيوف مشهرة ، والمشاعل وحديد الأسنة ، وكل هذه الكوكبة التي عرف على رأسها الضابط فوبوس ، ورأى تشوش اللصوص ، والذعر عند البعض ، والاضطراب عند افضلهم ، فاستعاد من هذه النجده غير المأمولة كثيراً من القوة بحيث قذف الى خارج الكنيسة اول المهاجمين الذين وصلوا الى الرواق .

انهم بالفعل جنود الملك وقد اتو .

وعمل اللصوص بشجاعة ، فدافعوا عن انفسهم دفاع اليائسين . فقد هوجموا

من الامـــام من شارع القديس بيير اوبوف ، ومن الخلف من شارع بارفي ، وحوصروا في نوتردام التي لا يزالون يهاجمونها ، والتي يدافـع عنها كازيمودو ، كانوا محاصِرين ومحاصَرين معاً في تلك الوضعية التي وجد نفسه فيهـــا الكونت هنري دار كور في حصار توران الشهير ١٦٤٠ بين الامير توماس دي سافوا الذي كان يحاصر والمركيز دي ليغانيز الذي كان يحاصره . « محاصرو تيران هم في نفس الوقت محاصرون » كما تقول الكتابة على قبره .

كان القتال رهيباً . لحم الذئب اسنان كلب كما يقول ماتيو . ففرسان الملك ، وفي وسطهم فوبوس دي شاتوبير ، كانوا يعملون ببسالة ، لا يعفون عن احد . ومن افلت من حد السيف تناولته الشفار ، واللصوص ، وهم مسلحون بشكل سيء ، كانوا يزبدون ويعضون . كانوا رجـالاً ونساء واطفالاً ينقضون على ارداف الخيل وصدورها ويتعلقون بهـــا كالهررة بالاسنان واظافر القوائم الاربع . وآخرون كانوا يسدّون وجوه الرماة بضربات المشاعل ، وغـــيرهم ينشبون الكلاليب الحديدية في اعناق الفرسان ويجذبونهم نحوهم ، ومن يسقط يقطعونه ارباً .

ولوحظ واحد في يده منجل كبير لامع ظل يحصد طويلاً قوائم الخيول . وكان رهيباً . كان يغني اغنية مخنخنة ، ويقذف منجله ويعيده دون انقطاع ، وفي كل ضربة يرسم حوله دائرة كبيرة من الاعضاء المقطوعة . وهكذا كان يتقدم الى المكان الاكثر احتشاداً بالفرسان بتمهـــلٍ مطمئن ، وتأرجح رأس وتنفسٍ منتظمٍ لحصّاد يحصد حقلاً من القمح . انه كلوبان ترويفو وقـــد صرعته طلقة بندقية .

وفتحت النوافذ من جديد ، واشترك الجيران في العمل بعـد ان سمعوا صرخات الحرب يطلقها رجال الملك . وكانت الطلقات تنهال من جميع الطوابق كالمطر على اللصوص . وكانت ساحة بارفي ملأى بدخـان كثيف كانت طلقات البنادق تخدده بالنار . وكانت واجهة نوتردام تميز بشكل مشوش ، وكذلك اوتيل ديو المقفر ، مع بعض المرضى الضعفـــاء الذين كانوا يتطلعون من اعلى

سطحه المرصع بالكوى .

وأخيراً خضع اللصوص . فالتعب ، وعدم وجود السلاح الجيد ، والرعب من هذه المفاجأة ، واطلاق البنادق من النوافذ ، وصدمة رجال الملك الباسلة ، كل هذا فت في عضدهم ، فاخترقوا خط المهاجمين واخـــذوا يهربون في جميـع الاتجاهات تاركين في ساحة باريني سداً من الموتى .

وكازيمودو الذي لم ينقطع لحظة عن القتال سقط راكعاً على ركبتيه ورفع يديه الى السماء حين رأى هذه الهزيمة ؛ ثم ركض ثملاً من الفرح وصعد بسرعة الطير الى تلك الغرفة التي منع الاقتراب منها بكثير من البسالة ، ولم يكن لديه سوى فكرة واحدة ، هي ان يركع امام تلك التي انقذها مرة ثانية .

وحين دخل الغرفة ألفاها فارغة .

الكتاب الحادي عشر

١

الحذاء الصغير [١]

حين كان اللصوص يهاجمون الكنيسة كانت ازميرالدا نائمة .

الا ان الضوضاء المتزايدة باستمرار حول العمارة والثغاء القلق لمعزاتها التي استيقظت قبلها ، ايقظاها من نومها . فاستوت جالسة ، وأصغت ، وتطلعت ، ثم اندفعت خارج الحجرة مرتعبة من الألق والضجة . ورأت ان منظر الساحة، وما تراه يتحرك فيها ، وفوضى هذا الهجوم الليلي ، وذلك الجمهور الشنيع القافز كجمع من الضفادع ، يظهر نصف ظهور في الظلام ، ونقيق هذا الحشد الأبح ، وتلك المشاعل القليلة الحمراء الراكضة المتصالبة على ذلك الظل كنيران الليل التي ترمم خطوطاً على سطح المستنقع المغطى بالضباب ، وهذا المشهد كله كان تأثيره عليها كتأثير معركة خفية مشتجرة بين اشباح السحرة ووحوش الكنيسة الحجرية . ولما كانت متشربة منذ الطفولة خرافات القبيلة الغجرية فقد كانت فكرتها الاولى انها فاجأت كائنات الليل الغريبة وهي تقوم بالرقى المؤذية . وعندئذ ركضت مرتعبة تتلبد في غرفتها ، سائلة فراشها الحقير كابوساً اقل رهبة .

---

١ – العنوان الاول لهذا الفصل في المخطوطة هو : « الحذاء الصغير او المعزاة الناجية » .

وتبددت اولى ادخنة الخوف شيئاً فشيئاً ؛ ومن الضجة المتزايدة باستمرار ، ومن عدة علامات واقعية اخرى ، شعرت انها مجتاحة بكائنات بشرية وليس بأطياف . وعندئذ تحول خوفها الى شكل آخر دون ان يزداد . وفكرت بامكان حصول انتفاضة شعبية لانتزاعها من ملجئها . وفكرة عودتها الى الحياة من جديد ، والامل ، وفوبوس الذي تستشفه دائمـــاً في مستقبلها ، والعجز العميق بسبب ضعفها ، وانسداد باب الهرب ، دون اي سند ،واهمالها،وعزلتها، وكل هذه الافكار والوف اخرى غيرها كانت ترهقها . كانت قد سقطت على ركبتيها ، ورأسها على سريرها ، ويداها مضمومتان على رأسها ، مليئة بالقلق والرعشة ، ومع انها غجرية ملحدة ، وثنية ، فقد كانت تطلب الرحمة وهي تنتحب من الإله المسيحي وتتوسل الى مضيفتها نوتردام . لأن المرء ، ولو كان يؤمن بشيء ، تمر به لحظات في الحياة يتخذ فيها دين المعبد الماثل امامه .

وظلت ساجدة هكذا وقتاً طويلا ، مرتجفة في الواقع اكثر ممـــا كانت تصلي ، وتتناج لاقتراب انفاس الجماهير الغاضبة منها شيئاً فشيئاً ، غير مدركة شيئاً من هذا الهيجان ، جاهلة ما يدبّر ، وما يُصنع ، وما يراد ، ولكنهـــا كانت تستشعر منفذاً مرعباً .

في وسط هذا القلق سمعت وقع اقدام بقربها . فاستدارت . هناك رجلان احدهما يحمل مصباحاً ، وكانا قد دخلا الى حجرتها . فصرخت صرخة خفيفة . وقال صوت لم يكن مجهولاً لديها :

– لا تخشي شيئاً ، هذا انا .

فسألت : من انت ؟

بيير غرنغوار .

وطمأنها هذا الاسم ، فرفعت عينيها وعرفت الشاعر . ولكن كان الى جانبه وجه اسود مقنّع من الرأس الى القدم ادهشها سكوته .

وقال غرنغوار بنبرة لائمة :

– آه ! لقد عرفتني دجالي قبلك !

وبالفعل ، فان المعزاة الصغيرة لم تنتظر غرنغوار حتى يسمي نفسه . فما كاد يدخل حتى راحت تحتك بركبتيه بجنو ، غامرة الشاعر بالملاطفــة وبالوبر الابيض لانها كانت في حالة تبديل الشعر وبادلها غرنغوار الملاطفة .

وقالت الغجرية بصوت منخفض :

– من معك هناك ؟

فاجاب غرنغوار :

– كوني مطمئنة . انه احد اصدقائي .

وعندئذ اقعى الفيلسوف على البلاط بعد ان وضع المصباح على الارض وهتف بحماسة وهو يضم دجالي بين ذراعيه :

– اوه ! انها بهيمة ظريفة دون شك ممتازة بنظافتهـا اكثر من عظمتها ، ولكنها حاذقة فطنة ، تكتب كمعلم قواعد اللغة ! لنر يا عزيزتي دجـالي ، الم تنسي شيئاً من ألعابك الجميلة ؟ كيف يفعل الاستاذ جاك شارمولو ؟

ولم يتركه الرجل الاسود ان يكمل . فقد اقترب من غرنغوار ودفعه بكتفه بقسوة ، فنهض غرنغوار قائلاً :

– صحيح ، نسيت اننا متعجلون . الا انه ليس سبباً يا معلمي لارغام الناس بهذا الشكل . – يا ابنتي العزيزة الجميلة ، ان حياتك وحياة دجالي في خطر ، اذ يراد استرجاعك . ونحن اصدقاؤك اتينا لإنقاذك . اتبعينا .

فهتفت باضطراب : اهذا صحيح ؟

– نعم ، صحيح كل الصحة . تعالي بسرعة .

فتمتمت :

– اريد ذلك بكل طيبة خاطر . ولكن لماذا لا يتكلم صديقك ؟

فقال غرنغوار :

– آه ! ذلك لان اباه وامه كانا غريبي الاطوار فجعلا مزاجه صموتاً .

وكان من اللازم ان تكتفي بهذا الايضاح . وامسك غرنغوار بيدهـا ، والتقط رفيقه المصباح ومشى في المقدمة . وكان الخوف قد خدّر الفتـاة

فتركتها يقودانها . وسبقتهم المعزاة واثبة ، فرحة جداً برؤية غرنغوار الذي جعلته يتعثر في كل لحظة تدخل فيها قرنيها بين ساقيه . وكان الفيلسوف يقول لدى كل مرة لا يقع فيها :

– هذه هي الحيـــاة ، ان افضل اصدقائنا في الغالب هم الذين يسببون سقوطنا !

وهبطوا درج الابراج بسرعة ، واجتازوا الكنيسة الملأى بالظلام والوحدة ، الرنانة من الضجة ، الامر الذي يشكل تناقضاً رهيباً . وخرجوا الى ساحة الدير من الباب الاحمر . وكان الدير مهجوراً ، فقد هرب الرهبان الى الاسقفيـــة ليصلّوا فيها صلاة مشتركة ؛ وكانت الساحة فارغة ، وبعض الخدم المجفلين كانوا متلبدين في الزوايا المظلمة . فساروا نحو الباب الصغير الموصل من تلك الساحة الى تيران . وفتحه الرجل الاسود بمفتاح معه . ويعرف قراؤنا ان تيران هولسان اوضي محاط بالجدران من ناحية لاسيته ، ويخص مجلس رهبان نوتردام ، ويكمل الجزيرة في الشرق وراء الكنيسة . ووجدوا ذلك الربض مقفراً تماماً . والضوضاء كانت هناك قليلة في الهواء . وكانت جلبة هجوم اللصوص تصل اليهم اكثر تشويشاً وأقل صخبـــاً . والهواء الطري الذي يتبع خيط الماء كان يحرك اوراق الشجرة الوحيدة المغروسة على رأس تيران محدثاً ضجة . الا انهم كانوا ما يزالون قريبين جداً من الخطر . فالعمارات الاكثر قرباً منهم كانت هي الدار الاسقفيــة والكنيسة . وكان في الاسقفيـة فوضى داخلية كبيرة ، وكتلتها الظلامية كانت كلها مخططة بالانوار المتراكضة فيهـا من نافذة الى نافذة ؛ شأنها شأن من يحرق اوراقاً فتبقى كومة داكنـــة من الرماد فيها شرارات حية تقوم بألف سباق غريب . والى جانب ذلك تقوم ابراج نوتردام الضخمة وقد رؤيت من الوراء مع صحن الكنيسة الطويلة المقامة عليه هذه الابراج والمقطعة بالسواء على الألق الاحمر العريض الذي يملأ الباحة ، وتشبه مسندين ضخمين لنار العمالقة .

وما يُرى من باريس من جميع الجهات كان يتأرجح لدى النظر في ظل

ممزوج بالضوء . ولرامبوانت لوحة ذات ارضية كهذه .

ومشى الرجل ذو المصباح بخط مستقيم الى طرف تيران . وكان يوجد هناك ، على آخر حافة الماء ، بقايا نخرة لسياج من اوتاد مشبكة بالالواح الخشبية حيث كرمة منخفضة تظهر بعض الاغصان الهزيلة الممتدة كأصابع يد مفتوحة . وفي الخلف ، في الظل الناتج عن هذا العريش ، يوجد زورق مخبأ . واشار الرجل الى غرنغوار ورفيقته ان ينزلا فيه ، وتبعتهم المعزاة . ونزل الرجل اليه آخر الجميع . ثم قطع قاس الزورق وابعده عن الارض بكلاّبة طويلة ، وأمسك بمجذافين ، وجاس في المقدمة يجذف بكل قواه نحو عرض النهر . والسين سريع جداً في ذلك المكان ، وقد لاقى كثيراً من الجهد لترك رأس الجزيرة .

كانت اولى اعتناءات غرنغوار عند دخوله المركب هي ان يضع المعزاة على ركبتيه ، وجلس في المؤخرة ، والفتاة التي كان الرجل المجهول يوحي اليها قلقاً لا يمكن تحديده جاءت تجلس ملتصقة بالشاعر .

وحين احس شاعرنا باهتزاز الزورق ، صفق بكفيه ، وقبّل دجالي بين قرنيها وقال :

— اوه ! ها قد نجونا نحن الاربعة .

واضاف بهيئة مفكر عميق :

— احياناً يحتاج المرء الثروة واحياناً الحيلة للخروج من المجازفات الكبرى .

كان الزورق يسير وئيداً نحو الضفة اليمنى . وكانت الفتاة تراقب الرجل المجهول برعب خفي . وقد سد باعتناء ضوء مصباحه الخلفي ، واصبح يبدو في الظلام كالشبح على مقدمة الزورق . وقلنسوته المنخفضة دائماً تشكل له نوعاً من القناع . وفي كل مرة يفتح ذراعيه يجذف ، حيث يتدلى كمّان عريضان اسودان ، يخيل انهما جناحا خفاش كبيران . وبعد ، فلم تكن تحدث في الزورق ضجة اخرى سوى ذهاب واياب المجذاف ممتزجاً بالف ثنية ماء على

طول الزورق .

وهتف غرنغوار فجأة .

– قسماً بروحي ! نحن نشطاء ومسرورون كالأسكالاف [1] Ascalaphe ! ونلزم صمت الفيثاغوريين او السمك ! باسك ديو ! يا اصدقائي . اريد ان يكلمني احد . الصوت البشري موسيقى في الاذن البشرية . لست انا من قال هذا ، بل ديديم الاسكندري ، وهي كلمات شهيرة . من المؤكد ان ديديم الاسكندري ليس فيلسوفاً رديئاً . كلمة يا ابنتي الجميلة ! قولي لي كلمة ، ارجوك . بالمناسبة ، كانت لك كشرة صغيرة غريبة ؛ الا تزالين تصنعينها ؟ اتعرفين يا صديقتي ان للبرلمان سلطة كاملة على اماكن اللجوء ، وانك كنت معرضة لخطر كبير في مسكنك في نوتردام ؟ وأسفاه ! العصفور الصغير تروخيلوس يصنع عشه في فم التمساح . ها هو القمر قد عاد الى الظهور يا استاذ . بشرط الا يشاهدونا ! لقد قمنا بعمل يستحق الشكر لانقاذنا الآنسة ، ومع ذلك فسيشنقوننا بأمر الملك لو قبضوا علينا . وأسفاه ! ان الاعمال البشرية تحمل على محملين ، يصيبون مني ما يتوجونه منك . فلان يعجب بقيصر الذي يوبخ كاتيلينا . اليس كذلك يا استاذي ؟ ما قولك بهذه الفلسفة ؟ انا املك فلسفة الغريزة ، فلسفة الطبيعة ، « كما يملك النحل الهندسة [2] . » هيا ، ما من شخص يجيب . بالمزاجيكما الرديئين ! يجب ان اتكلم لوحدي . هذا ما نسميه في المأساة المونولوج . باسك ديو ! اخبركم بأني رأيت الملك لويس الحادي عشر واني حفظت منه هذا القسم . باسك ديو اذن ! انهم يصدرون دائماً عواءً فخوراً في حي لاسيته . انه ملك قبيح رديء هرم ، ملتف بالفراء . وهو مدين لي دائماً بثمن قصيدتي في العرس . هذا على الاكثر اذا لم يشنقني هذا المساء . انه بخيل على افاضل الناس . وكان عليه ان يقرأ كتب

١ – شخص من الميثولوجية الاغريقية كان يتحول الى بومة .

٢ – باللاتينية في الاصل .

سلفيان دي كولونيه الاربعة « ضد البخل » . وبالحقيقة ! انه ملك ضيق بتصرفاته مع رجال الادب ويقوم باعمال قاسية بربرية . انه اسفنجة لأخذ المال المفروض على الشعب . وتوفيره هو الطحال الذي ينتفخ من هزال جميع الاعضاء الاخرى . وكذلك فالشكاوى ضد قساوة الزمن تصبح تمتمات ضد الامراء . تحت ذلك الملك الورع تقضقض المذاري بالمشنوقين ، وتنتن قطع الخشب من الدم . والسجون تتشقق كالبطون الكثيرة الامتلاء . لهذا الملك يد تأخذ ويد تشنق . انه وكيل السيدة الجباية والسيدة المشنقة . والكبار يعرّون من رتبهم ، والصغار مرهقون دائماً باعباء ساحقة جديدة . انه امير متجاوز الحد . اني لا احب هذا الملك ، وانت يا استاذي ؟

وترك الرجل الاسود الشاعر الثرثار ينتقد . واستمر في صراعه ضد التيار العنيف الشديد الذي يفصل مؤخرة حي لاسيته عن مقدمة جزيرة نوتردام التي نسميها اليوم جزيرة القديس لويس .

وتابع غرنغوار فجأة :

— بالمناسبة يا استاذي ، عندما وصلنا الى الساحة بين اولئك اللصوص المسعورين هل لاحظت ذلك الشيطان الصغير المسكين الذي كان خادمك الأصم يسحق دماغه على حاجز رواق الملوك ؟ ان نظري منخفض ولم استطع معرفته . اتعرف من يكون ؟

لم يجب المجهول بكلمة . ولكنه انقطع فجأة عن التجذيف ، ووهنت ذراعاه كأنهما محطمتان ، وسقط رأسه على صدره . وسمعته ازميرالدا يتنهد بتشنج . فارتجفت من ناحيتها . كانت قد سمعت هذه التنهدات قبلاً .

والزورق المتروك لمصيره سار به التيار بضع لحظات ، ولكن الرجل الاسود انتصب اخيراً وامسك بالمجذافين وراح يصعد ضد التيار . وتجاوز رأس جزيرة نوتردام وسار نحو محطة بور افوان .

وقال غرنغوار :

— آه ! هذا مسكن باربو هناك . اليك يا استاذ ، انظر . ذلك الحشد من

السطوح السوداء التي تشكل زوايا غريبـة ، هنـاك ، تحت تلك الكدسة من الغيوم المنخفضة ، المتبكة ، القذرة ، الوسخة ، حيث القمر مسحوق ومنتشر كمح بيضة كسرت قشرتها . انه منزل جميل . ويوجد كنيسة متوجة بعقد صغير مليء بزخارف مقطعة جيداً . وفوق ، بامكانك ان ترى برج الجرس المثقوب بشكل دقيق جداً . ويوجد ايضاً حديقة مستحبة مشتملة على بركـة ، وبيت الطيور ، وغرفة للحديث ، ومنتزه عام، ومتاهة من الممرات المتشابكة ، وبيت الحيوانات المتوحشة ، وعدد من الممرات الكثيفـة تستلطفهـا فينوس كثيراً . ويوجد ايضاً شجرة معيبة يدعونها « الفاجرة » لانها استعملت لملذات اميرة شهيرة وقائد للجيش الفرنسي ظريف وذي قلب طيب . واأسفـاه ! نحن الفلاسفة الفقراء بالنسبة لقائد جيش كقطعة ارض مربعـة مغروسة بالملفوف والجزر بالنسبة لحديقة اللوفر . وبعد ، فماذا يهم ؟ فالحياة البشرية ، للكبـار ولنا ، ممزوجة بالخير والشر . الألم دائماً الى جانب السرور ، تفصيلة يونانيـة لاتينية الى جانب تفصيلةٍ مركبة من مقطـــع واحد طويل يليه مقطعان صغيران . يجب ان اقص عليك هذه الحكاية يا استاذي عن منزل باربو . لقـد انتهت بطريقة فاجعة . كان ذلك عام ١٣١٩ في ايام الملك فيليب الخـامس ، اطول ملوك فرنسا . واخلاقيـة التاريخ هي في ان نزعـات الجسد مفسدة ومضرة. يجب الا نطيل النظر الى زوجة بجار مها كانت دغدغة حواسنا شديدة من جمالها . والزنا فكرة داعرة جداً . والزنا رغبـة حارة في لذة الغير . — اوهيه ! ها ان الضجة تتضاعف هناك !

وبالفعل فقد ازدادت الضوضاء حـــول نوتردام . كانوا يصغون . وسمعت صرخات النصر بوضوح . وفجأة انتشر مئة مشعال كانت تؤلق خوذات الرجال المسلحين في الكنيسة في جميع ارتفاعاتها ، على الابراج ، على الاروقـة ، تحت القناطر النصفية . وبدت المشاعل انها تبحث عن شيء ؛ ثم ان الهتافات المتباعدة كانت تتناهى بوضوح الى الهاربين :

— الغجرية ! الساحرة ! الموت للغجرية !

وتركت البائسة رأسها يسقط على يديها ، واخذ المجهول يجذف بشدة نحو الضفة . الا ان فيلسوفنا كان يفكر . كان يضم المعزاة بين ذراعيـــه ويبتعد بهدوء عن الغجرية التي كانت تزداد التصاقاً بـــه ، كأنه الملجأ الوحيد الذي بقي لها .

من المؤكد ان غرنغوار كان في حيرة عنيفة . كان يفكر ان المعزاة ايضاً ستشنق « وفقاً للتشريع الموجود » اذا قبض عليها ، وان هـــذا سيكون خسارة كبرى . يا لدجالي المسكينة ! انـه يستكثر محكومتين تتعلقان به ، وان رفيقه اخيراً لا يطلب افضل من ان يأخذ الغجرية على عاتقه . ونشبت بين افكاره معركة عنيفة كان اثناءهـا ، كجوبتير في الاليـاذة ، يزن الغجرية والمعزاة دورياً . وكان ينظر اليهما الواحـــدة بعد الاخرى بعينين مبللتين بالدمع قائلاً بينه وبين نفسه :

– ومع ذلك فلا استطيـع انقاذ الاثنتين .

وانذرته هزة بان القارب بلغ الضفة . وكانت الضوضاء الرهيبة لا تزال تملأ حي لاسيته . ونهض المجهول وجاء الى الغجرية واراد ان يأخذ ذراعها ليساعدها على النزول ، فدفعته وتعلقت بكم غرنغوار الذي دفعها من ناحيته وهو المشغول بالمعزاة . وعندئذ قفزت وحدها من الزورق . كانت كثيرة الاضطراب بحيث لم تكن تعرف ماذا تفعل،والى اين تذهب.وظلت لحظة هكذا منذهلة، متطلعة الى جريان الماء . وحين عادت قليلاً الى نفسها كانت وحيدة مع المجهول . ويبدو ان غرنغوار اغتنم فرصة النزول من الزورق لينسلل مع معزاته بين مجموعـــة بيوت غرنيه سيرلو .

وارتعشت الغجرية المسكينة حـين رأت نفسها وحيدة مع ذلك الرجـل . وارادت ان تتكلم ، تصرخ ، تنادي غرنغوار . كان لسانها جامداً في فمها ولم يخرج من شفتيها اي صوت . وفجأة شعرت بيد المجهول على يدها ، لقد كانت يداً باردة قوية . فصرت اسنانها واصبحت اكثر شحوباً من شعاع القمر الذي يلقي نوره عليها . لم يقل الرجل اية كلمة ، بل اخذ يصعد بخطوات كبيرة

نحو ساحة غريف ممسكاً بيدها . في تلك اللحظة شعرت بشكل غامض ان القدر قوة لا تقاوم . لم يكن فيها اي نشاط ، فتركت نفسها تنقاد راكضة بينما هو يمشي . وكان الرصيف في ذلك المكان يسير صعداً . ومع ذلك فقد كان يخيل اليها انها تهبط منحدراً .

تطلعت الى جميع الجهات . ليس هناك اي مار . كان الرصيف مقفراً تماماً . لم تكن تسمع ضجة ، ولا تشعر بتحرك بشر الا في لاسيته الصاخبة المحمرة التي لم تكن منفصلة عنها الا بساعدٍ من السين ، حيث كان اسمها يتناهى اليها ممزوجاً بصرخات الموت . وكان ما بقي من باريس منتشراً حولها بكدسات عظيمة من الظلال .

الا ان المجهول كان يجرها دائماً بنفس الصمت ونفس السرعة . لم تجد في ذاكرتها اي مكان كانت تسير فيه . واثناء مرورها امام نافذة مضاءة بذلت جهداً ، وتشددت فجأة وصرخت :

– النجدة !

والبورجوازي صاحب النافذة فتحها ، وظهر بقميص النوم مع مصباحه وتطلع الى الرصيف بهيئة بلهاء ، ولفظ بعض كلمات لم تسمعها ، واغلق مصراع النافذة . انه آخر ألق من الامل قد انطفأ .

ولم يفه الرجل الاسود بأي مقطع . كان ممسكاً بها جيداً ، وقد اخذ يزيد من سرعة مشيته فلم تقاوم وتبعته محطمة .

وكانت تستعيد شيئاً من القوة بين وقت وآخر وتقول بصوت تقطعه رجة البلاط ولهاث الركض :

– من انت ؟ من انت ؟

فلم يجب .

وهكذا وصلا ، وهما سائران على طول الرصيف ، الى ساحة كبيرة . كان هناك شيء من نور القمر . انها ساحة غريف . وكان يبدو في منتصفها نوع

من الصليب الاسود المنتصب . انهـــا المشنقة . لقد عرفت كل ذلك ورأت اين هي .

- اوه ! كنت اعرف جيداً انه هو ايضاً !

انه الكاهن . وكانت هيئته كشبحه . وكان ذلك بسبب ضوء القمر . ويبدو انه لا يُرى سوى اشباح الاشياء من هذا الضوء . وقال لها :

- اسمعي .

فارتجفت لرنة هذا الصوت المشؤوم الذي لم تسمعه منـــذ وقت طويل . واستمر . كان يتكلم بتلك الارتجاجات المقتضبة اللاهثة التي تكشف رجاتهـا عن هزات داخلية عميقة :

- اسمعي ، نحن هنا ، وسأكلمك . هذه ساحة غريف . هنا نقطة نهائية . لقد اسلمنا القدر لبعضنا البعض . وسأقرر مصير حيـاتك ؛ انت من روحي . هذه ساحة وليلة لا يُرى من ورائها شيء . اصغي الي اذن . سأقول لك . قبل كل شيء لا تحدثيني عن فوبوسك (حين كان يقـــول ذلك كان يروح ويجيء كرجل لا يستطيع البقاء في مكان ، وجذبها اليه) لا تكلميني عنه . اترين ؟ اذا لفظت هذا الاسم فلا ادري ماذا اصنع ، ولكنه سيكون رهيباً .

قال ذلك وعاد الى السكون كالجسم الذي يجد مركز ثقله . ولكن لم يقلّ الاضطراب الذي تكشف عنه كلماته . وانخفض صوته تدريجياً :

- لا تديري رأسك هكذا . اصغي الي . انهـا قضية جدية . اليك اولاً ما حدث في الماضي . لن يكون كل هذا موضع ضحك ، واقسم لك . ماذا كنت اقول اذن ؟ ذكريني به ! آه ! هناك قرار من البرلمان يعيدك الى المقصلة . وقـــد جئت لأنقذك من ايديهم ، ولكن ها هم يلاحقونك . انظري .

ومد ذراعه نحو حي لاسيته . وبالفعل فقد بدا التفتيش مستمراً فيـــه . والضوضاء تقترب . وبرج بيت الملازم ، القائم قبالة ساحة غريف ، كان مليئ

بالضجة والنور . وقد رؤي جنود يركضون على الرصيف المقابل بمشاعل وصرخات تقول :

- الغجرية ! اين الغجرية ؟ الموت ! الموت !

- ترين جيداً انهم يلاحقونك وانني لا اكذب عليك . انا احبك . - لاتفتحي فمك ، لا تكلميني ابداً اذا كنت ستقولين لي انك تكرهينني . لقد عزمت على الا اسمع ذلك . - اني انقذتك . - دعيني اكمل اولاً . - باستطاعتي انقاذك حالاً . لقد اعددت كل شيء . والارادة لك . وباستطاعتي تلبية هذه الارادة .

وقاطع نفسه بعنف :

- كلا ، ليس هذا ما يجب قوله .

وركض وجعلها تركض لانه لم يتركها . كان يسير رأساً الى المشنقة ، ودلها عليها باصبعه ، وقال ببرود :

- اختاري بيننا نحن الاثنين .

فانتزعت نفسها من يديه وسقطت على اسفل المشنقة معانقة ذلك السند المأتمي ، ثم لفتت رأسها الجميل نصف لفتة وتطلعت الى الكاهن من فوق كتفها، حتى ليخيل انها العذراء المقدسة على قدم الصليب . كان الكاهن قد ظل دون حركة واصبعه لا تزال مرفوعة نحو المشنقة ، محتفظاً بحركته كأنه تمثال .

واخيراً قالت له الغجرية :

- انها تخيفني اقل منك .

عندئذ اسقط ذراعه ببطء وتطلع الى البلاط بضنى عميق ، وتمتم :

- لو استطاعت هذه الحجارة ان تتكلم لقالت هذا رجل كثير الشقاء .

وتابع . والفتاة الراكعة امام المشنقة ، والغارقة في شعرها الطويل ، تركته يتكلم دون ان تقاطعه . لقد اصبحت لهجته الآن شاكية وعذبة تتناقض بشكل مؤلم مع خشونة قسماته المتعالية .

-- انا احبك . اوه ! مع ذلك فهذا صحيح كل الصحة . اذن لن يخرج شيء من هذه النار التي تحرق قلبي ! واأسفاه ! ايتها الفتاة . ليلاً ونهاراً ، نعم ، ليلاً ونهاراً . الا يستحق ذلك اي شفقة ؟ انه حب الليل والنهار ، اقول لك ، انه عذاب . اوه ! اتألم كثيراً ، يا ولدي المسكين ! انه امر جدير بالرأفة ، أؤكد لك . انت ترين اني اكلمك بهدوء ، ولكني احب الا تصابي بهذا الرعب مني . اخيراً ، رجل يحب امرأة ، ليس الخطأ منه ! اوه ! يا الهي ! كيف ! الن تغفري لي اذن ؟ اتكرهينني دائماً ! اذن انتهى كل شيء ! ان هذا يجعلني رديئاً كما ترين ، ومخيفاً لنفسي ! انك لا تنظرين الي وحدي فقط ! من الممكن انك تفكرين بشيء آخر بينما اكلمك واقفاً ومرتعشاً على حدود ابديتنا نحن الاثنين ! خصوصاً لا تكلميني عن الضابط ! ماذا ! سوف ارتمي على قدميك ! ماذا ! سوف اقبّل ، ليس قدميك ، لانك لا تريدين ، بل التراب الذي تحت قدميك . ماذا ! سأنتحب كطفل ، سأنتزع من صدري ، ليس الكلام، بل قلبي واحشائي لأقول لك انني احبك. سيصبح كل شيء بلافائدة! ومع ذلك فليس في نفسك سوى الحنو والرأفة ، انت مشعة بأجمل عذوبة ، انت بكاملك حلوة ، طيبة ، متسامحة وفاتنة . واأسفاه ! لست رديئة الا معي وحدي ! اوه ! لهذا القدر !

وخبأ وجهه بيديه . وسمعته الفتاة يبكي . لقد كانت المرة الاولى . وهكذا كان اكثر تعاسة واكثر توسلاً وهو واقف ، يهزه النحيب ، منه وهو راكع . لقد بكى هكذا فترة من الوقت . وتابع بعد ان ذهبت الدموع الاولى :

هيا ! لا اجد كلاماً . مع انني فكرت جيداً بما سأقوله لك . واني الآن ارتجف وارتعش . اني اخفق في اللحظة الحاسمة . اشعر بشيء سام يلفنا ، وانا اتلجلج بالكلام . اوه ! اريد ان اسقط على البلاط اذا لم تشفقي علي وعلى نفسك . لا تحكمي علينا بالموت نحن الاثنين . لو تعرفين كم احبك ! وأي قلب هو قلبي ! اوه ! يا له من هروب من كل فضيلة ! يا له من تخلٍّ يائس عن

نفسي ! دكتور ، واستهزىء بالعلم . نبيل ، وامزق اسمي ؛ كاهن ، واجعل من كتاب القداس وسادة للفجور . ابصق في وجه ربي ! كل هذا لأجلك ، يا ساحرة ! لأكون اكثر جدارة بجحيمك ! وانت لا تريدين هلاكاً ! اوه لأقول لك كل شيء ! اكثر ايضاً ، شيئاً اكثر هولاً . اوه اكثر هولاً !

وعندما فاه بهذه الكلمات الاخيرة اصبحت هيئته اكثر شروراً . فسكت لحظة وتابع كمن يحدث نفسه ، وبصوت قوي :

- قايين ، ماذا فعلت بأخيك ؟

وصمت ايضاً . ثم تابع :

- ما فعلته به يا رب ؟ لقد التقطته ، وانشأته ، وغذيته ، واحببته ، وعبدته ، وقتلته ! نعم ، يا رب ، لقد سحق رأسه امامي على حجر بيتك ، وذلك بسببي ، بسبب هذه المرأة ، بسببها .

ثم لم يعد لسانه يلفظ اي صوت مفهوم مع ان شفتيه كانتا تتحركان .وفجأة هبط على نفسه كشيء ينهار ، وظل على الارض دون حركة ، ورأسه بين ركبتيه . واعاده الى صوابه مسة خفيفة من الفتاة التي سحبت قدمها من تحته . وأمرّ ببطء يده على خديه المتقعرين ، وتطلع بذهول لبضع لحظات في اصابعه المبللة وتمتم :

- ماذا ! لقد بكيت !

والتفت فجأة الى الغجرية بقلق لا يمكن شرحه وقال :

- واأسفاه ! تنظرين الي ببرود وانا ابكي ! ايتها الطفلة ؛ اتعلمين ان هذه الدموع هي حمم ؟ اذن صحيح ؟ لا يؤثر فينا شيء من الرجل الذي نكرهه . ترينني اموت وتضحكين . اوه ! انا لا اريد ان تموتي ! كلمة ! كلمة واحدة من الغفران ! لا تقولي انك تحبينني ، قولي فقط انك تريدين ذلك ، وهذا سيكفي ، وسأنقذك . وإلا .. اوه ! الوقت يمر . اتوسل اليك بكل ما هو مقدس لا تنتظري ان اعود حجراً كتلك المشنقة التي تطلبك ايضاً ! فكرّي بانني امسك مصيرنا نحن الاثنين بيدي ، وانني مجنون ، وهذا رهيب ، وانني

استطيع ان اسقط كل شيء . وان تحتنا هاوية لا قرار لها ، ايتها البائسة ، وحيث سقطتك ستتبع سقطتي طوال الابدية ! كلمة طيبة ! قولي كلمة ! لا شيء سوى كلمة !

ففتحت فمها لتجيبه فأسرع وركع على ركبتيه امامها ليلتقط بتعبد كلامها الذي يمكن ان يكون رقيقاً ، والذي سيخرج من شفتيها . فقالت له :

- انت قاتل !

فأخذها الرجل مهتاجاً بين ذراعيه واخذ يضحك ضحكة كريهة وقال :

- لا بأس ، نعم ! قاتل ! وستكونين لي . انت لا تريدينني كعبد وستكونين لي كسيد . ستكونين لي . عندي مأوى سأجر ّك اليه . ستتبعينني ، يجب ان تتبعيني او اسلمك ! يجب ان تموتي يا جميلة او تكونين لي ! تكونين للكاهن ! تكونين للمارق من الدين ! تكونين للقاتل ! منذ هذ! الليلة ، اتسمعين هذا ؟ هيا ! شيء من السرور ! هيا قبليني ايتها المجنونة ! القبر او سريري .

كانت عيناه تتوقد بالدنس والغضب وفمه الشهواني جعل عنق الفتاة يحمر ّ . كانت تتخبط بين ذراعيه فغمرها بقبلات مزبدة . وصرخت :

– لا تعضني ايها الوحش اوه ! يا للراهب البغيض النتن ! دعني ! سأقتلع شعرك القبيح الاشيب وألقيه قبضات في وجهك .

فاحمر ، وشحب لونه ، وتركها وتطلع اليها عابساً ، فظنت نفسها منتصرة وتابعت :

– قلت لك انني لحبيبي فوبوس . وان فوبوس هو من احب ، وان فوبوس هو الجميل ؛ وانت ايها الكاهن ، انت هرم ! انت بشع ! اذهب .

فصرخ صرخة عنيفة كالبائس الذي وضعت عليه حديدة محماة ، وقال من خلال صرير اسنانه :

– موتي اذن !

ورأت نظرته الرهيبة ، وارادت ان تهرب ، فأمسك بها، وهزها ، والقاها ارضاً وسار بخطى سريعة نحو زاوية برج رولان وهو يجرها وراءه على البلاط بيديها الجميلتين .

وحين وصل الى هناك التفت نحوها وقال :

– مرة اخيرة ، اتريدين ان تكوني لي ؟

فأجابت بقوة : كلا .

عندئذ صرخ بصوت مرتفع :

– غودول ! غودول ! هذه هي الغجرية ! خذي بثأرك !

وشعرت الفتاة انها أمسكت من مرفقها . فتطلعت . انه ذراع معروق خرج من كوة في الجدار وامسك بها كيدٍ حديدية .

وقال الكاهن :

– امسكي جيداً ! انها الغجرية الهاربة . لا تفلتيها . سأذهب وادعو رقباء الجند . وسترينها مشنوقة .

واجابت على تلك الكلمات الدامية ضحكة من الحنجرة خارجة من داخل الجـــدار :

– هه ! هه ! هه !

ورأت الغجرية الكاهن يبتعد راكضاً باتجاه جسر نوتردام وكانت تسمـــع كوكبة من الفرسان في تلك الجهة .

كانت الفتاة قد عرفت الحبيسة الرديئة ، فحاولت التخلص وهـي تلهث من الرعب ، فالتوت، واختلجت عدة اختلاجات احتضار ويأس ، ولكن الاخرى كانت تمسكها بقوة غريبة . والاصابع العظيمة الهزيلة التي تؤلمهـا كانت تتشنج على لحمها وتنضم الى بعضها البعض حول الذراع ، حتى ليخيل ان هذه اليد كانت مثنية الاطراف على الذراع . كانت اكثر من سلسلة ، واكثر من غـل ، واكثر من حلقة حديدية . لقد كانت كماشة ذكية وحيـــة تخرج من الجدار .

وخارت قواها فسقطت على الجدار . وحينئذٍ انتابهـا الخوف من الموت . ففكرت بجمال الحياة ، والشباب ، ومنظر السماء ، ومظاهر الطبيعة ، والحب ، وفوبوس ، وبكل ما يهرب وبكل مـا يقترب ، وبالكاهن الذي وشى بهـا ، وبالجلاد الذي سيأتي ، وبالمشنقة الموجودة هناك . عندئذ شعرت بالرعب يسري في جسدها حتى جذور شعرهـا ، وسمعت الضحكة المأتميـة للحبيسة التي كانت تقول لها بصوت منخفض :

– هه ! هه ! هه ! ستُشنقين !

والتفتت الى الكوة وهي بحالة احتضار ، ورأت وجه الحبيسة الاشقر خلال الحواجز . وقالت بدون روح تقريباً :

– ماذا فعلت لك ؟

فلم تجب الحبيسة بل اخذت تهمهم بنبرة مغنّاة ، هائجة وساخرة :

– يا ابنة الغجر ! يا ابنة الغجر ! يا ابنة الغجر !

واسقطت ازميرالدا البائسة رأسها تحت شعرها ، مدركة ان علاقتها ليس مع كائن بشري .

وفجأة صرخت الحبيسة . كأن سؤال الغجرية احتاج الى كل هـذا الوقت ليصل الى تفكيرها :

– ماذا فعلت ؟ تقولين ! آه ! ما فعلته لي ، ايتها الغجرية ! حسنـــاً ! اسمعي . كان لي طفلة ، انا ! اترين ؟ كان لي طفلة ! طفلة ، اقول لك ! ابنـة صغيرة جميلة ! ابنتي انياس .

قالت ذلك شاردةً ومقبّلةً شيئاً ما في الظلام:

– حسناً ! اترين يا ابنة الغجر ؟ لقد اخـذوا طفلتي . سرقوا ولدي ، لقـد اكلوا ولدي . هذا ما فعلتِه لي .

فأجابت الفتاة كالحمل :

– واأسفاه ! ربما لم اكن قد ولدت بعد آنذاك !

فقالت الحبيسة :

.. اوه ! نعم ! يجب ان تكوني قد ولدت . كنت مولودة . انها من سنك ! هكذا ! منذ خمس عشرة سنة وانا هنا ، خمس عشرة سنة وانا اتعذب، خمس عشرة سنة وانا اصلي ، خمس عشرة سنة وانا اضرب رأسي بالجدران الاربعة . اقول لك ان الغجريات هن اللواتي سرقنها مني ، اتسمعين هذا ؟ واكلنها باسنانهن . الك قلب ؟ تصوري ما يكون طفل يلعب ، طفل يرضع ، طفل ينام . انه كثير البراءة ! حسناً ! هكذا ، هكذا اخذوني ، قتلوني ! والله يعرف جيداً ! واليوم دوري ، سآكل غجرية . اوه ! كم كنت اعضك جيداً لو لم تكن هذه القضبان الحديدية تمنعني . ورأسي كبير ! يا الصغيرة المسكينة ! بينا كانت تنام ! اذا كانوا ايقظوها عندما اخذوها تكون قد صرخت كثيراً ، ولم اكن هناك ! آه ! ايتها الامهات الغجريات ، لقد اكلتن ابنتي ! هيا وانظرن ابنتكن !

وعندئذ اخذت تضحك او تصر بأسنانها ، فقد تشابه الامران على ذلك الوجه الهائج . وبدأ النهار يطلع . وهناك شعاع من الرماد كان ينير هذا المشهد بشكل مشوش . واصبحت المشنقة ظاهرة اكثر فأكثر في الساحة . وفي الناحية الاخرى ، نحو جسر نوتردام ، كانت المحكومة المسكينة تظن انها تسمع اقتراب ضوضاء كوكبة من الفرسان .

وصرخت ضامّة يديها وقد سقطت على ركبتيها ، مشعثة الشعر ، والهة ، مجنونة من الرعب :

– ايتها السيدة ! اشفقي علي . انهم آتون . لم افعل شيئاً . اتريدين ان تريني اموت بهذه الطريقة الرهيبة امام عينيك ؟ انت شفوقة وانا واثقة من ذلك . هذا رهيب . دعيني اهرب . اتركيني . الرحمة ! لا اريد ان اموت هكذا !

فقالت الحبيسة :

– ردي علي ابنتي !

– الرحمة ! الرحمة !

– ردي علي ابنتي !

– اتركيني بحق السماء !

– ردي علي ابنتي .

هذه المرة ايضاً سقطت الفتاة من جديد ، منهوكة ، مقطعة ، ونظرهـــا زجاجي كنظر واحدٍ في الحفرة . وتمتمت :

– واأسفاه ! انت تبحثين عن ابنتك ، وانا ابحث عن اهلي .

وتابعت غودول :

– ردي علي صغيرتي انياس ! الا تعرفين ابن هي ! اذن موتي ! سأقول لك ، كنت واحدة من بنات اللذة ، وكانت لي طفلة ، واخذوا طفلتي ، انهن الغجريات . هاانت ترين جيداً انه يجب ان تموتي . حين تأتي امـك الغجرية في طلبك فسأقول لها : ابنها الام ، انظري الى تلك المشنقة ! او ردي علي ابنتي . اتعرفين ابن هي ابنتي ؟ سأريك . هذا هو حذاؤها ، كل ما بقي لي . اتعرفين ابن الفردة الثانية ؟ اذا كنت تعرفين فقولي لي ، ولو كانت في الطرف الآخر من الارض فسأذهب الى هناك باحثة عنها سائرة على ركبتي .

وفيا كانت تتكلم هكذا ، ارت الغجرية ، بذراعها الآخر الممدود خارج الكوة ، الحذاء الصغير المطرز ، وكان لا يزال هناك بقية من النهـار تسمـح بتمييز الشكل والالوان .

فقالت الغجرية وهي ترتجف :

– اريني هذا الحذاء . يا رب ! يا رب !

وفي الوقت نفسه فتحت بسرعة ، وبيدها الحرة ، الكيس الصغير المزخرف بالخرز الاخضر ، والذي تحمله في عنقها .

ودمدمت غودول :

– هيا ! هيا ! انبشي تميمتك الشيطانية !

وفجأة انقطعت عن الكلام ، وارتجفت بكل جسدهـا وصرخت بصوت خارج من اعماق احشائها :

- ابنتي !

كانت الغجرية قد سحبت من الكيس الصغير حذاءً صغيراً شبيهاً بالآخر تمام الشبه . وكان مربوطاً بهذا الحذاء رق كتبت عليه هذه العبارة :

عندما يوجد الشبيه

امك تمد لك ذراعيها .

وبأقل من الوقت الذي يستلزمه البرق ، قارنت الحبيسة الحذائين ، وقرأت ما كتبت على الرق وألصقت بقضبان الكوة الحديدية وجهها المتــألق بسرور سماوي صارخة :

- ابنتي ! ابنتي !

واجابت الغجرية : امي !

هنا نقلع عن التصوير .

وكان الجدار والقضبان الحديدية بينهما ، فصرخت الحبيسة :

- اوه ! اراها ولا اقبّلها ! يدك ! يدك !

فمدت الفتاة اليها ذراعها من خلال الكوة ، وانقضت الحبيسة على تلــك اليد ، وعلقت عليها شفتيها وظلت هكذا غارقة في هــذه القبلة غير مظهرة اية علامة حياة سوى نحيب يرفع خاصرتيها بين وقت وآخر . كانت تبكي بدموع غزيرة ، صامتة ، في الظلام ، كمطر الليل . لقد افرغت الام المسكينة بامواج على تلك اليد المعبودة بئر الدموع الاسود العميق الذي كان في داخلها ، وحيث رشح كل ألمها قطرةً قطرةً منذ خمس عشرة سنة .

وفجأة نهضت ، وابعدت شعرها الطويل الاشيب من فوق جبهتها ، ودون ان تفوه بكلمة ، اخذت تهز بيديها قضبان حجرتها هائجــة اكثر من لبؤة . وقاومت القضبان الحديدية . عندئذ ذهبت تبحث في زاوية حجرتها عن بلاطة كبيرة تستعملها كوسادة ، وقذفتها على القضبان بكثير من العنف بحيث تحطم واحد منها قاذفاً الف شرارة . وضربة ثانيــة كسرت تماماً الصليب الحديدي القديم الذي كان يشبك الكوة . وعندئذ اكملت بيديها الاثنتين كسر وابعاد

بقايا القضبان الحديدية الصدئة . هناك لحظات تكون فيهــا ليدي امرأة قوة تفوق قوة البشر .

وانفتح الممر ، واحتاج ذلك اقل من دقيقــة . وامسكت ابنتهــا من وسط جسمها وسحبتها الى حجرتها وتمتمت :

– تعالي لأنتشلك من الهاوية .

حين اصبحت ابنتها في الحجرة وضعتها بهدوء على الارض ثم اخذتهـــا من جديد وحملتها بين ذراعيها كما لو انها لم تكن سوى صغيرتها انيـاس . وكانت تروح وتجيء في المسكن الضيق ، منتشية ، مجنونة ، مسرورة ، صـــارخة ، مغنية ، مقبّلة ابنتها ، تحملها ، وتنفجر ضاحكة ، دامعة العين ، وكل ذلـك دفعة واحدة وبحدة . وكانت تقول :

– ابنتي ! ابنتي ابنتي معي ، ها هي . لقد اعادها الله الي . وانتم ، تعالوا كلكم ! هل هناك احد ليرى ان ابنتي معي ؟ يا للرب يسوع ما اجملها ! لقـد جعلتني انتظر خمس عشرة سنة يا ربي ، ولكن كان ذلك لتعيدهـا الي جميلة . اذن فالغجريات لم يأكلنها ! من كان يقول ذلـــك ؟ بنيتي ! بنيتي ! قبليني . هؤلاء الغجريات الطيبات ! احب الغجريات . هذا انت اذن . لهذا اذن كان قلبي يثب كلما كنت تمرين . انا التي كنت احسب ذلك بغضـــاً ! سامحيني يا عزيزتي انياس ، سامحيني . كنت تجدينني كثيرة الرداءة ، اليس كذلـك ؟ احبك . علامتك الصغيرة في عنقك ، الا تزال موجودة ؟ لنر . انهـا فيه دائماً . اوه ! انت جميلة ! انا التي صنعت لك هاتين العينين الجميلتين يا آنسة . قبليني . احبك . اصبحت لا اهتم ان يكون للامهات الاخريات اولاد . اني الآن اسخر منهن . وليس عليهن الا ان يأتين . هذه ابنتي . اليكن عنقها ، عينيها ، شعرها ، يدها ، جدوا لي شيئاً جميلاً كهذا ! اوه ! اؤكد لكن انه سيكون لها محبون ، هذه ! بكيت خمس عشرة سنة . وذهب فيها كل جمالي ، وعـاد اليها . قبليني .

وامسكت عنها الف خطاب آخر وكانت لهجتها اجمل ما فيها . وأخلّت

بملابس الفتاة الى درجة انها احمرت خجلاً ، ومسدت شعرها الحريري بيدهـا ، وقبلت قدمها ، وركبتها ، وجبهتها ، وعينيها ، وكان كل شيء يدهشهـا . وتركتها الفتاة تفعل ما تشاء مرددة بتواتر وبصوت منخفض وبعذوبـة لا نهاية لها :

– امي !

وقالت الحبيسة مقاطعةً كلامها بالقبلات :

– ترين يـا صغيرتي ، ترين اني سأحبـك كثيراً . سنذهب من هنـا . سنكون سعيدتين جداً . فقد ورثت شيئاً ما في ريمس ، في بلادنا . اتعرفين ريمس ؟ آه ! كلا ، انت لا تعرفين ذالك ، انت ، فقد كنت صغيرة جداً ! لو تعرفين كم كنت جميلة يوم كان عمرك اربعة اشهر ! قدمـان صغيران كانوا يأتون لرؤيتها من إبرناي التي تبعد سبعة فراسخ ! كانـ لنا حقل ، وبيت ، كنت أنيمك في سريري . يـا ربي ! يـا ربي ! من كان يعتقد ذلـك ؟ ابنتي معي !

وقالت الفتاة وقد وجدت اخيراً القوة على الكلام مع تأثرها :

– اجل يا امي ! لقد قالت لي الغجرية ذلك . كانت هناك غجرية صالحة منا ماتت في السنة الماضية ، وكانت دائمة الاعتناء بي كأنها مرضعة . وهي التي وضعت لي هذا الكيس الصغير في عنقي . وكانت تقول لي دائمـاً : احرصي يا صغيرة على هذه الجوهرة . انها كنز . ستجعلك تجدين امك . انت تحملين امك في عنقك . لقد تنبأت الغجرية بذلك .

وضمت الحبيسة ابنتها بين ذراعيها من جديد :

– تعالي اقبلك·! انت تقولين ذلك بشكل لطيف . عندما نصبح في بلادنا سنضع الحذاء الصغير في قدمي الطفل يسوع في الكنيسة . نحن مدينتان بذلك للعذراء المقدسة . يا الهي ! ما اجمـل صوتـك ! حين كنت تكلمينني الآن ، لقد كان موسيقى . آه يا الهي ! لقد وجدت طفلتي . ولكن هل هذه الحكاية ممكنة التصديق ؟ ان الانسان لا يموت من شيء لأنني لم امت من الفرح .

ثم اخذت تصفق بيديها وتضحك وتصرخ :
– سنكون سعداء !

في تلك الساعة دوت الحجرة بصليل سلاح وركض خيول يبدو انها آتية على جسر نوتردام وتتقدم على الرصيف شيئاً فشيئاً ، فارتمت الغجرية بقلق بين ذراعي الحبيسة قائلة :

– انقذيني ! انقذيني يا امي . ها هم قد اتوا .

فشحب لون الحبيسة وقالت :

– يا السماء ! ماذا تقولين ؟ لقد نسيت ! انهم يلاحقونك . ماذا فعلت اذن ؟

فأجابت الطفلة البائسة :

– لا ادري ولكني محكومة بالموت .

فقالت غودول مترنحة كأنها اصيبت بضربة صاعقة :

– بالموت !

ثم رددت هذه الكلمة ببطء ناظرة الى ابنتها بعينها الثابتة .

وقالت الفتاة والهة :

– نعم يا امي . انهم يريدون قتلي . وهاهم قد أتوا ليأخذوني . وهذه المشنقة لاجلي . انقذيني ! انقذيني ! لقد وصلوا . انقذيني !

ظلت الحبيسة بضع لحظات جامدة كأنها متحجرة ، ثم حركت رأسها علامة الشك ، وفجأة انطلقت بضحكة ، ولكنها ضحكتها الرهيبة التي عادت اليها :

– هو ! هو ! كلا . ما تقولينه هو حلم . آه ! نعم . لقد اضعتها . ودام ذلك خمس عشرة سنة . ثم وجدتها ، ودام ذلك دقيقة ! وسوف يأخذونها مني من جديد ، ذلك لأنها الآن جميلة ، كبيرة ، ولأنها تكلمني ، وتحبني . الآن يأتون ليأكلوها امام عيني انا امها ! اوه ، كلا ! هذه امور ليست ممكنة . والله لا يسمح بها .

وبدا هنا ان الكوكبة قد توقفت . وسمع صوت بعيد يقول :

– من هنا يا سيد تريستان ! يقول الكاهن اننا سنجدها في جحر الجرذان .

وعادت الضجة الى سابق عهدها .

وانتصبت الحبيسة واقفة وهي تصرخ بيأس :

-- اهربي ! اهربي يا ابنتي ! لقد تذكرت كل شيء . انت على حق . انه موتك ! يا للهول ! اللعنة ! اهربي .

ووضعت رأسها في الكوة وسحبته بسرعة وقالت بصوت منخفض ، مقتضب ، مألمي ، ضامّة بتشنج يد الغجرية الميتة اكثر منها حية :

– ابقي ولا تتنفسي . الجنود في كل مكان . لا يمكنك الخروج ، فقد سطع ضوء النهار .

كانت عيناها جافتين محترقتين ، وظلت لحظة صامتة . الا انها كانت تمشي بخطوات كبيرة في الحجرة وتقف بعض الفترات لتنتزع قبضات من شعرها الاشيب لتعود الى تقطيعه باسنانها .

وفجأة قالت :

انهم يقتربون . سأكلمهم . اختبيء في تلك الزاوية ، فلن يروك . سأقول لهم انك هربت وانني تركتك .

ووضعت ابنتها ، لانها كانت تحملها ، في زاوية من الحجرة لا تُرى من الخارج ، واجلستها وسونها باعتناء حتى لا يتجاوز قدمها ولا يدها الظلام . وحلّت لها شعرها الاسود ونشرته على ثوبها الابيض لتغطيه ، ووضعت امامها جرتها وبلاطتها ، وهما الاثاث الوحيد الموجود عندها ، متخيلةً ان هذه الجرة وتلك البلاطة ستخبئانها . وحين انتهى كل ذلك ركعت على ركبتيها وهي اكثر اطمئناناً ، واخذت تصلي . وكان النهار الذي لا يزال في طور البزوغ يترك كثيراً من الظلام في جحر الجرذان .

في تلك اللحظة مر صوت الكاهن ، ذلك الصوت الجهنمي ، بالقرب من

الحجرة صارخاً :

– من هنا ايها الضابط فوبوس دي شاتوبير :

وأتت ازميرالدا المتلبدة في زاويتها بحركة لدى سماعها هذا الاسم وهذا الصوت ، فقالت غودول :

– لا تتحركي .

وما كادت تنتهي حتى وقفت حول الحجرة جلبة رجال وسيوف وخيول . فنهضت الام بسرعة وتمركزت امام الكوة لتسدها ، فرأت شرذمة كبيرة من الرجال المسلحين ، مشاةً وفرساناً ، مصفوفين في ساحة غريف . وقد ترجل قائدهم عن جواده وجاء نحوها . وقال هذا الرجل ذو الوجه الشرس :

– ايتها العجوز ، اننا نبحث عن ساحرة لنشنقها . وقد قيل لنا انها عندك.

فاتخذت الام المسكينة هيئة لامبالية جهد استطاعتها واجابت :

– لا اعرف الكثير عما تريد قوله .

واجاب الآخر :

– ورأس الرب ! ماذا كان يقول اذن ذلك الخوراسقف الأشده ؟ اين هو ؟

فقال احد الجنود :

– لقد اختفى يا سيدي .

فقال القائد :

– انت ايتها العجوز المجنونة ، لا تكذبي علي . لقد اعطوك ساحرة لتحفظيها ، فماذا فعلت بها ؟

ولم تشأ الحبيسة ان تنكر كل شيء خوفاً من اثارة الشكوك واجابت بنبرة صادقة فظة :

– اذا كنت تتكلم عن فتاة كبيرة علقوها بيدي منذ لحظة فسأقول لك انها عضتني فأفلتّها . هذا كل شيء . دعوني مرتاحة .

فكشر القائد كشرة دالة على خيبة امل وقال :

– لا تكذبي علي ايتها الشبح العجوز . انا ادعى تريستــان لرميت ، وانا رفيق الملك .. تريستان لرميت ، اتسمعين ؟

ثم اضاف وهو يتطلع الى ساحة غريف حوله :

.. انه اسم له صدى هنا .

فأجابت غودول وقد استعادت الأمل :

– لو كنت الشيطان لرميت لما كان عنـدي شيء آخر اقوله لـك ، فأنا لا اخافك .

فقال تريستان :

– ورأس الرب ! هذه امرأة ثرثارة ! آه ! الفتـاة الساحرة هربت ! ومن اين ذهبت ؟

فأجابت غودول بلهجة لامبالية :

– من شارع دي موتون على ما اعتقد .

فـــادار تريستان رأسه واشار الى فرقته بالاستعداد للسير . وتنفست الحبيسة الصعداء .

وقال احد الرماة فجأة :

– سيدي ، سل الحبيسة العجوز لماذا تفككت قضبان حديد نافذتها بهـذا الشكل .

واعاد هذا السؤال القلق الى قلب الام البائسة ، الا انها لم تفقد كل حضور بديهتها فتمتمت :

– كانت هكذا دائماً .

فقال الجندي :

– باه ! كانت البارحة تشكل صليباً جميلاً اسود يدعو الى التقوى .

وألقى تريستان نظرة جانبية على الحبيسة وقال :

– اعتقد ان المرأة الثرثاره تضطرب !

فشعرت المنكودة ان كل شيء يتوقف على اظهار الحزم ، فأخذت تضحـك

والموت في نفسها . والامهات يملكن امثال هذه القوى ، وقالت :
– باه ! هذا الرجل ثمل . منذ اكثر من سنة صدمت مؤخرة عربة حجارة نافذتي وكسرت قضبانها ، حتى انني شتمت السائق .
فقال جندي آخر :
– هذا صحيح ، فقد كنت حاضراً آنذاك .
يوجد دائماً في كل مكان اناس يرون كل شيء . وهذه الشهادة غير المأمولة من الجندي بعثت الحياة في الحبيسة التي جعلها هذا الاستجواب تجتـــاز مهواة على حد سكين .
ولكنها كانت محكومة بتناوب مستمر من الامل والذعر .
وقال الجندي الاول :
– لو كانت عربة هي التي فعلت ذلك لوجب ان تكون قطع القضبان الحديدية مدفوعة الى الداخل بينما هي الى الخارج .
فقال تريستان للجندي :
– هه ! هه ! لك انف محقق في قصر الشاتيليه . اجيبي على ما قال ايتها العجوز .
فصرخت من اليأس وبصوت مليء بالدموع رغماً عنها :
– يا الهي ! اقسم لك يا سيدي ان العربة هي التي حطمت هذه القضبان الحديدية . وقد سمعت ان هذا الرجل رآها . ثم . ماذا يعني هذا بالنسبـــة لغجريتكم ؟
فدمدم تريستان : هوم !
وقال الجندي المفتتن بمديح الحاكم :
– ان كسور الحديد كلها جديدة !
فهز تريستان رأسه ، وشحب لونها .
– كم قلتِ مر من الوقت على هذه العربة ؟
– شهر ، وربما خمسة عشر يوماً يا مولاي . لا ادري شيئاً .

فلاحظ الجندي : قالت اولاً انه قد مر اكثر من سنة .

وقال الحاكم : هذا امر فيه التباس .

فصرخت وهي ملتصقة بكوتها ، مرتجفة من ان يدفعه الشك الى ادخال رأسه والتطلع في حجرتها .

– مولاي . اقسم لك انها عربة هي التي حطمت هذا الحديد . واقسم لك بملائكة الفردوس المقدسين . واذا لم تكن عربة فاني اريد ان اكون هالكة الى الابد وانكر الله !

فقال تريستان بنظرته الفاحصة :

انك تضعين كثيراً من الحرارة في هذا القسم !

وشعرت المرأة المسكينة باطمئنانها يتلاشى شيئاً فشيئاً . لقد ارتكبت حماقات وكانت تدرك برعب انها لم تقل ما كان يجب ان يقال .

هنا وصل جندي آخر وهو يصيح :

– مولاي . ان الجنية العجوز تكذب . فالساحرة لم تهرب من شارع دي موتون . وسلسلة الشارع ظلت ممدودة طوال الليل . وحارس السلسلة لم ير احداً يمر .

وتريستان الذي كانت تزداد قسماته عبوساً في كل لحظة ، سأل الحبيسة :

– ما قولك في ذلك ؟

وحاولت ايضاً ان تجابه هذا الموقف الجديد فقالت :

– اني لا اعلم يا مولاي . من الممكن ان اخطىء . واعتقد انها اجتازت الماء .

فقال الحاكم :

– انها الجهة المقابلة . الا انه ليس هناك دلالة كبيرة على انها ارادت الدخول الى حي لاسيته حيث يلاحقونها . انت تكذبين ايتها العجوز .

واضاف الجندي الاول :

– ثم انه ليس هناك زورق لا في هذه الجهة ولا في الاخرى .

فاجابت الحبيسة مدافعة عن ارضها خطوة خطوة :
– ربما مرت سباحة .
فقال الجندي : وهل تسبح النساء ؟
وقال تريستان بغضب :
– ورأس الرب ! ايتها العجوز انت تكذبين ! انت تكذبين . اني اشعر بالرغبة في ترك تلك الساحرة هنا لأشنقك انت . وربع ساعة من الاستجواب ربما تسحب الحقيقة من نحرك . هيا ! عليك ان تتبعينا .
فتمسكت بهذا الكلام بجشع وقالت .
– كما تشاء يا مولاي . افعل . افعل . الاستجواب . اريده جيـــداً . خذني . بسرعة ، بسرعة ، لنذهب حالاً .
وكانت تفكر : اثناء ذلك الوقت تهرب ابنتي .
فقال الحاكم :
– وموت الرب ! يا لها من شهية لعربة العذاب . لا افهم شيئـــاً من هذه المجنونة .
وخرج من الصفوف رقيب من العسس هرم ذو شعر اشيب ووجه كلامه الى الحاكم :
– انها مجنونة فعلاً يا مولاي ! ليس الخطأ منهـــا اذا كانت قد افلتت الغجرية ، لأنها لا تحب الغجريات . لقد مضى علي خمس عشرة سنة وانا اقوم بالحراسة واسمعها في جميع الامسيات تبدي غضبها من نساء الغجر بشتائم لا نهاية لها . واذا كانت تلك التي تلاحقها هي الراقصة الصغيرة ذات المعزاة كما اعتقد ، فانها تكرهها بشكل خاص .
وبذلت غودول جهداً لتقول :
– هذه بشكل خاص .
واكدت شهادة رجال العسس المجمع عليها اقوال الرقيب الهرم . وتريستان لرميت اليائس من عدم استخراجه شيئاً من الحبيسة ، ادار لها ظهره ، ورأته

بقلق لا يوصف يسير متمهلاً نحو جواده . وكان يقول بين اسنانه :

ـ هيا ، لنرحل . لنواصل البحث . لن انام اذا لم تشنق الغجرية .

الا انه تردد بعض الوقت قبل ان يمتطي جواده . وكانت غودول تختلج بين الحياة والموت حين رأته يجيل حول الساحة تلك السمة القلقة لكلب صيد يشعر بجحر البهيمة بقربه ويقاوم الابتعاد . واخيراً هز رأسه وقفز على السرج ، وتمدد قلب غودول المحصور بشكل راعب ، وقالت بصوت منخفض ملقية نظرة على ابنتها التي لم تجرؤ على التطلع اليها منذ اصبحت هنا :

ـ لقد نجت !

كانت الفتاة المسكينة قد ظلت كل هذا الوقت في زاويتها ، دون تنفس ، دون حركة وفكرة الموت منتصبة امامها . ولم يفتها شيء من المشهد بين غودول وتريستان ، وكان قلق والدتها يتجاوب صداه في نفسها . فقد استمعت الى جميع القضقضات المتابعة للخيط الذي يبقيها معلقة فوق الهاوية ، وقد اعتقدت عشرين مرة انها تراه ينقطع ، وبدأت اخيراً تتنفس ، وشعرت بقدمها على ارض ثابتة .. في تلك اللحظة سمعت صوتاً يقول للحاكم :

ـ كوربيف ! ليس هذا من شأني ايها السيد الحاكم ، انا رجل السلاح ، اشنق الساحرات ! . فأوباش الشعب تحت . واتركك تقوم بالمهمة لوحدك . وستجد من الافضل ان ألتحق بفرقتي لانها بدون قائد .

كان هذا الصوت صوت فوبوس دي شاتوبير . لقد كان ما يعتلج في نفسها فائق الوصف . اذن كان هنا ، صديقها ، حاميها ، سندها ، ملجأها ، فوبوسها! فنهضت ، وقبل ان تستطيع والدتها ان تمنعها ، ارتمت على الكوة صارخة :

ـ فوبوس ! الي يا عزيزي فوبوس !

وفوبوس لم يكن هناك . فقد اجتاز مسرعاً زاوية شارع لا كوتيلري . ولكن تريستان لم يكن قد ذهب .

وارتمت الحبيسة على ابنتها مزمجرة ، وسحبتها الى الوراء بعنف ، غارزة اظافرها في عنقها . ام نمرة لا تراها من قريب . ولكن كان ذلك متأخراً فقد

رآها تريستان ، وصرخ بضحكة تظهر جميع اسنانه ، جـاعلاً وجهه يشبه حلقوم ذئب :

– هه ! هه ! فأرتان في المصيدة !

وقال الجندي : كنت اشك في ذلك .

وربت كريستيان على كتفه قائلاً : انت هر جيد .

ثم اضاف : اين هنريه كوزان ؟

فخرج رجل من صفوفهم لم يكن مرتدياً ملابس الجنود ولا سحنتهم .وكان يرتدي ملابس نصف رمادية ونصف سمراء ، سبط الشعر ، بأكمام من جلد ، وفي يده الضخمة حزمة من الحبال . كان هذا الرجل يرافق دائماً تريستان الذي كان يرافق لويس الحادي عشر .

وقال تريستان لرميت .

– ايها الصديق ، احدس ان هذه هي الساحرة التي نبحث عنهـا . ستشنقها لي .

– هل سلّمك معك ؟

فاجاب الرجل :

– هناك سلم تحت اهراء بيت الاعمدة .

ثم قال مشيراً الى المشنقة الحجرية :

ستشنقها على تلك المشنقة ؟

– نعم .

فقال الرجل بضحكة كبيرة اكثر وحشية من ضحكة الحاكم :

– هو ! هه ! لن يكون لدينا طريق طويل لنقطعه .

وقال تريستان :

– اسرع . وبعدها سنذهب .

الا ان الحبيسة لم تكن قد قالت اية كلمة منذ مـا رأى تريستان ابنتهـا وضاع كل امل. فقد القت بالفجرية المسكينة نصف ميتة في زاوية القبو وعادت

الى مكانها على النافذة ، ويداها مستندتان الى زاوية سطح العمود كمخلبين . وفي تلك المنية رؤيت وهي تجيل نظرها ببسالة في كل هؤلاء الجنود . فقد عادت وحشية مجنونـــة . وحين اقترب هنريه كوزان من المسكن ابدت له وجهاً وحشياً تماماً ، فتقهقر ، وقال وهو يعود الى الحاكم :

- ايها يجب ان نشنق يا سيدي ؟

- الصبية .

- هذا افضل ، لأن العجوز تبدو عسيرة .

وقال رقيب العسس الهرم :

- يا للراقصة الصغيرة المسكينة ذات المعزاة !

واقترب هنريه كوزان من النافذة ، وقد خفضت عين الام عينه ، فقال بخجل : ايتها السيدة .

فقاطعته بصوت منخفض مهتاج :

- ماذا تطلب ؟

فقال : ليس انت ، بل الاخرى .

- اي اخرى ؟

- الصبية .

فأخذت تهز رأسها صارخة :

- لا يوجد احد ! لا يوجد احد ! لا يوجد احد !

فاجاب الجنود :

- بلى . انت تعرفين ذلك تماماً . دعيني آخذ الصبية اما انت فلا اريد ان اوذيك .

فقالت بضحكة غريبة :

- آه ! لا تريد ان تؤذيني ، انا !

- اتركي لي الاخرى يا سيدتي فالحاكم هو الذي يريد ذلك .

فكررت بهيئة جنونية : لا يوجد احد .

فأجاب الجلاد :

اقول لك بلى . لقد رأينا كلنا انكما اثنان .

فقالت الجيسة ضاحكة :

– اولى بك ان تنظر . ادخل رأسك من النافذة .

فتفحص الجلاد اظافر الام ولم يجرؤ .

وصرخ تريستان الذي صف جنوده بشكل دائرة حول جحر الجرذان وظل على جواده بقرب المشنقة : اسرع .

فعاد هنريه الى الحاكم مرة اخرى مضطرباً ، ووضع حبله على الارض وفتل قبعته بيديه بهيئة بلهاء وسأل :

– من اين ندخل ؟

– من الباب .

– لا يوجد باب .

– من النافذة .

– ضيقة جداً .

فقال تريستان بغضب :

– وسّعها . اما معك معاول ؟

كانت الام من داخل جحرها تنظر وهي واقفة . لم تكن تأمل بشيء ولا تعرف ماذا تريد ، ولكنها لا تريد ان تؤخذ ابنتها منها .

وراح هنريه كوزان يبحث عن صندوق آلات الاعمال الدنيا تحت اهراء بيت الاعمدة . وسحب من هناك السلّم المزدوج ووضعه على المشنقة . وتسلح خمسة او ستة رجال من اتباع الحاكم بالمعاول والرافعات . وسار تريستان معهم نحو النافذة . وقال الحاكم بنبرة صارمة

– ايتها العجوز ، سلّمينا تلك الفتاة عن طيبة خاطر .

فتطلعت اليه كأنها لم تفهم ، فقال :

– ورأس الرب ! ما بك اذن لتمنعي هذه الساحرة من ان تشنق كما

اراد الملك ؟

فأخذت البائسة تضحك ضحكتها الوحشية وقالت :

– ان ما بي ، هو انها ابنتي .

لقد بعثت اللهجة التي لفظت بها هذه الكلمات الرعشة حتى في هنريه كوزان نفسه . وقال الحاكم :

– يؤلمني ذلك ، ولكنها ارادة الملك .

فصرخت مضاعفة ضحكتها الرهيبة :

– ماذا يهمني ملكك ؟ اقول لك انها ابنتي !

فقال تريستان : اثقبوا الجدار .

لفتح طاقة ذات عرض كاف كان يكفي ازالة مدماك من الحجارة تحت النافذة . وحين سمعت الأم المعاول والرافعات تقوض قلعتها ، اطلقت صرخة راعبة ثم اخذت تدور بسرعة مخيفة في مسكنها . وهي عادة الحيوان الوحشي الذي وضع في قفص . لم تكن تقول شيئاً ، ولكن عينيها كانتا تلتهبان . اما الجنود فقد تثلجت اعماق قلوبهم .

وفجأة اخذت بلاطتها ، وضحكت ، وألقتها بيديها الاثنتين على الشغيلة ، ولكن البلاطة المقذوفة بشكل سيء ، لأن يديها كانتا ترتجفان ، لم تصب احداً ، واستقرت تحت قوائم جواد تريستان . فصرت باسنانها .

ومع ان الشمس لم تكن قد طلعت بعد فقد كان نور النهار قوياً ، وكانت صبغة وردية جميلة تبهج المداخن القديمة النخرة في بيت الاعمدة . انها الساعة التي تنفتح فيها النوافذ الاكثر بكوراً في المدينة الكبيرة بسرور على السطوح . وهناك بعض القرويين ، وبعض بائعي الفاكهة ، ذاهبون الى السوق على حميرهم ، وقد بدأوا يجتازون ساحة غريف ، حيث توقفوا لحظة امام هذه الشرذمة من الجنود المكدسين حول جحر الجرذان ، وتأملوهم بدهشة ومضوا في طريقهم .

كانت الحبيسة قد ذهبت تجلس بقرب ابنتها ، وغطتها بجسدها ، وبقيت

امامها جاحظة العينين مصغية الى الفتـــاة المسكينة التي لم تتحرك والتي كانت تتمتم بصوت منخفض ، وكل مـــا كانت تقوله هو : فوبوس ! فوبوس وبقدر تقدم عمل الهادمين كانت الام تتراجع آلياً وتحصر ابنتها بالحائط اكثر فأكثر . وفجأة رأت الحبيسة الحجر يهتز (لانها كانت تقف للحراسة ولم تفارقه بنظرها) ، وسمعت صوت تريستان يشجع الشغيلة . عندئذ خرجت من الوهن الذي سقطت فيه منذ لحظات وصرخت ، وبينما كانت تتكلم كان صوتها يمزق الاذن تارةً كالمنشار ، وطوراً يتلجلج كما لو ان جميع اللعنات كانت تتزاحم على شفتيها لتنفجر دفعة واحدة .

– هو ! هو ! هو ! ولكن هذا رهيب ! انتم لصوص . اتريدون حقيقـةً ان تأخذوا ابنتي مني ؟ اقول لكم انها ابنتي ! اوه ! الجبناء ! اوه ! الجلادون الخدم ! القتلة القذرون البائسون ! النجدة ! النجدة ! النار ! ولكن سيأخذون ابنتي هكذا . من هو اذن ذلك الذي يدعونه الرب الطيب ؟

وعندئذ توجهت بالكلام الى تريستان ، مزبدة ، شاردة البصر ، على قوائمها الاربع كالفهدة ، متنفشة :

– اقترب قليلاً وخذ ابنتي . الا تفهم ان هذه المرأة تقول لك انها ابنتها ؟ اتدري ما يعني ان يكون للمرء ولد ؟ هه ! ايها الذئب الطماع . الم تكن ابداً مع ذئبتك ؟ الم يكن لك جرو ؟ واذا كان لك صغار الا تشعر بتحرك شيء في داخلك وهم يعوون ؟

فقال تريستان :

– اسقطوا الحجر فلم يعد يمسكه شيء .

ورفعت الرافعات المدماك الثقيل . وكان هـذا ، كما قلنـا ، آخر متراس للام ، فارتمت فوقه ، وارادت ان تبقيه ، وخدشت الحجر باظافرها ، ولكن الكتلة الكثيفة التي حركها ستة رجال أفلتت منها وانزلقت بهدوء حتى الارض على طول الرافعات الحديدية .

ورأت الام ان المدخل قد تم صنعه ، فسقطت امام الفتحة بالعرض سادّةً

الثقب بجسدها ، ملوية ذراعيها ، صادمة البلاط برأسها ، صارخة بصوت أبح من التعب لا يكاد يسمع :

- النجدة ! الى النار ! الى النار !

وقال تريستان بعدم اكتراث :

- والآن خذوا الإبنة .

وتطلعت الام الى الجنود بطريقة رهيبة جعلتهم يميلون الى التقهقر اكثر من التقدم . وقال الحاكم :

- هيا اذن ! هنريه كوزان ، انت !

فلم يخط احد خطوة .

فجدف الحاكم قائلاً :

- ورأس المسيح ! جنودي يخافون من امرأة !

فقال هنريه :

- اتسمي هذه امرأة يا سيدي ؟

وقال آخر : لها لبدة اسد !

فقال الحاكم :

- هيا ! الفتحة واسعة كفاية . ادخلوا اليها ثلاثة ، كما في ثقب بونتواز . ولننته . ومن يتقهقر اولاً اقطعه نصفين .

ووقع الجنود بين الحاكم والام ، والاثنان يهددان ، فترددوا قليلاً ثم اجمعوا امرهم وتقدموا نحو جحر الجرذان .

وحين رأت الحبيسة ذلك انتصبت فجأة على ركبتيها ، وأبعدت شعرها عن وجهها ، ثم اسقطت يديها المزيلتين المخدشتين على فخذيها .. وعندئذ انهمرت دموع عظيمة ، الواحدة بعد الاخرى ، كانت تتساقط بواسطة غضن على طول خديها كسيل يجري في المسيل الذي حفره . وفي الوقت نفسه اخذت تتكلم ولكن بصوت كثير التوسل ، كثير العذوبة ، كثير الخضوع ، وكثير التأثير بحيث ان كثيراً من الشرطة القدماء حول تريستان من الذين اكلوا اللحم

البشري كانوا يمسحون عيونهم :

– ايها السادة ! ايها السادة الرقباء ، كلمة ! انه امر يجب ان اقوله لكم . انها ابنتي ، أترون ؟ ابنتي العزيزة الصغيرة التي أضعتها ! اسمعوا . انها قصة. تصوروا انني اعرف جيداً السادة الرقباء . كانوا دئماً لطفاء معي يوم كان الغلمان الصغار يقذفونني بالحجارة لأنني كنت احيا حياة حب . أترون ؟ ستتركون لي ابنتي عندما تعرفون ! انا ابنة مسكينة من بنات الهوى . والغجريات هن اللواتي سرقنها مني ، بحيث انني احتفظت بحذائها خمس عشرة سنة . انظروا ، هذا هو . كان قدمها هكذا . في ريمس ! لاشانتفلوري ! شارع فول – بين ! ربما كنتم تعرفون ذلك هي انا . في شبابكم آنذاك ، لقد كان وقتاً جميلًا . وكان المرء يقضي ربع ساعة طيبة . ستشفقون علي ، اليس كذلك يا سادة ؟ لقد سرقها الغجريات مني وخبأنها عني خمس عشرة سنة . وكنت اظنها ميتة . تصوروا ياصدقائي الطيبين اني كنت اظنها ميتة . قضيت خمس عشرة سنة هنا ، في هذا القبو ، دون نار في الشتاء . وهذا قاس . والحذاء الصغير العزيز المسكين ! لقد صرخت كثيراً حتى اصغى الله الي . وهذه الليلة رد علي ابنتي . انها اعجوبة من الله . لم تكن ميتة . لن تأخذوها مني ، انا متأكدة . حتى لو كنت انا لما قلت شيئاً ، ولكن هي ، طفلة في السادسة عشرة ! اتركوا لها الوقت الكافي لترى الشمس ! ماذا فعلت لكم ؟ لا شيء . ولا انا . لو كنتم تعلمون انه ليس لي سواها ، وانني عجوز ، وانها بركة ارسلتها الي العذراء المقدسة . وثم ، انتم طيبون كلكم . لم تكونوا تعرفون انها ابنتي . اما الآن ، فانكم تعرفون ذلك . اوه ! احبها ! ايها السيد الحاكم الكبير ، احب ان تثقب احشائي ولا ان تخدش في اصبعها ! انت الذي تدل هيئتك على سيد طيب ! ما اقوله الآن يوضح لك الامر ، اليس كذلك ؟ اوه ! لو كان لك ام يا سيدي ! انت القائد ، دع لي ابنتي ! اعتبر اني اتوسل اليك راكعة ، كما يتوسل المرء للمسيح ! لن اطلب شيئاً من احد ، فأنا من ريمس ايها السادة . عندي حقل صغير من عمي ماهيه برادون . انا لست متسولة . لا اريد شيئاً ،

بل اريد ولدي ! اوه ! اريد الاحتفاظ بولدي ! والله الذي هو السيد لم يرجعها عبثاً . والملك ، تقول الملك ! لن يسبب هذا له كثيراً من السرور بان تقتل ابنتي الصغيرة ! ثم ان الملك طيب ! انها ابنتي ! انهـا ابنتي ! لي ، وليست هي للملك . وليست لكم ! اريد الذهاب ! اريد الذهـاب ! تريد الذهاب ! واخيراً تمر امرأتان ، واحدة هي الام والاخرى هي الابنة ، ويتركونها تمران! دعونا نمر . نحن من ريمس . اوه ! انتم كثيرو الطيبة ايها السادة الرقبـــاء . احبكم كلكم . لن تأخذوا ابنتي . هذا مستحيل ! اليس هذا مستحيلاً ؟ ولدي ! ولدي !

لن نحاول ان نعطي فكرة عن حركتها ، ولهجتهـا ، والدموع التي كانت تشربها وهي تتكلم ، واليدين اللتين ضمتها ثم لوتها ، والابتسامات المحزنـــة ، والنظرات الغارقة ، والآهات ، والتنهدات ، والصرخـات البائسة المؤثرة الـتي كانت تمزجها باقوالها غير المنظمة ، المجنونة ، المفككة . وعندما سكتت عبس تريستان لرميت . وقد فعل ذلك ليخفي دمعة قد تدحرجت من عينه التي تشبـه عين النمر . الا انه تغلب على هذا الضعف وقال بلهجة مقتضبة :

– هذه ارادة الملك .

ثم انحنى على اذن هنريه كوزان وقال له بصوت منخفض :

– إنته بسرعة .

فقد شعر الحاكم الرهيب ان القلب ينقصه هو ايضاً .

ودخل الجلاد والرقباء الى الحجرة فلم تبـد الام اية مقاومة الا انهـا جرت نفسها الى جـانب ابنتها وارتمت عليهـــا دون وعي . ورأت الغجرية الجنود يقتربون ، فبعث الخوف من الموت الحياة فيها وصرخت بنبرة من الشقـاء لا يمكن شرحها :

– امي ! لقد جاؤا . دافعي عني .

فاجابت الام بصوت منطفىء :

– نعم يا حبي . ادافع عنك .

وضمتها بشدة بين ذراعيها ، وغمرتهـا بالقبلات . وكانت الاثنتان على

الارض ، الام على الابنة ، يشكلان منظراً يستحق الشفقة .

واخذ هنريه كوزان الفتاة من وسطها تحت كتفيها الجميلين . وحين شعرت بتلك اليد صرخت : هيه ! واغمي عليها . والجلاد الذي سكب دموعه العظيمة دمعة دمعة عليها اراد ان يرفعها بين ذراعيه. وحاول ان يفصل الام التي عقدت يديها حول خصر ابنتها . ولكنها كانت متعلقة بابنتها بشدة ويستحيل فصلها عنها . عندئذ جر هنريه كوزان الفتاة خارج الحجرة والام بعدها . وكانت الام مغمضة العينين ايضاً .

وارتفعت الشمس في تلك اللحظة ، وكان في الساحة كتلة كافية من الشعب كانوا ينظرون من بعيد ذاك الذي يُجر هكذا نحو المشنقة . فقد كانت هذه هي طريقة الحاكم تريستان في تنفيذ احكام الاعدام . كان من عادته ان يمنع الفضوليين من الاقتراب .

ولم يكن في النوافذ اي شخص ، بل كان يُرى فقط من بعيد ، على قمة نافذة ابراج نوتردام المطلة على ساحة غريف ، رجلان منفصلان بالسواد عن سماء الصباح الصافية ويبدوان انهما ينظران .

ووقف هنريه كوزان مع ما يجره عند قدم السلّم المشؤوم ، وكان يتنفس مجهداً فالامر يثير شفقته . ووضع الحبل حول عنق الفتاة المعبود . وشعرت الطفلة البائسة بملامسة القنب الرهيبة ، فرفعت جفونها ورأت الاذرع المعروقة للمشنقة الحجرية ممتدة فوق رأسها . وعندئذ اهتزت وصرخت بصوت مرتفع يمزق القلب :

– كلا ! كلا ! لا اريد .

والام التي كان رأسها مخبأ وضائعاً تحت ملابس ابنتها لم تفه بكلمة ، بل رؤي جسدها كله يرتعش ، وسُمعت وهي تضاعف قبلاتها لابنتها . واغتنم الجلاد هذه الفرصة ليحل بسرعة عقدة الذراع التي كانت تحتضن المحكومة . فتركته يفعل ذلك سواء اكان بدافع الإنهاك ام بدافع اليأس . وحينئذ حمل الفتاة على كتفيه حيث كانت المخلوقة الفاتنة تسقط بشكل ظريف مطوية الى

قسمين على رأسه الكبير . ثم وضع قدمه على السلّم ليصعد .

في تلك اللحظة فتحت الام الجاثمة على البلاط عينيها . وبدون ان تصرخ . انتصبت بهيئة مخيفة ، ثم انقضت على يد الجلاد كالوحش على فريسته ، وعضته . كان ذلك كالبرق . وعوى الجلاد من الالم . وركض الجنود ، وسحبوا بالجهد يده الدامية من بين اسنان الام . فلزمت الصمت العميق ، ودفعوها بقسوة ، ولوحظ ان رأسها سقط ثقيلاً على البلاط ، فأنهضوها وسقطت من جديد . ذلك لانها كانت ميتة .

والجلاد الذي لم يترك الفتاة اخذ يصعد السلم من جديد .

٢

المخلوقة البديعة المرتدية البياض

« دانتي »

حين رأى كازيمودو الغرفة فارغة وان الغجرية ليست فيها ، وانها اختطفت بينما كان يدافع عنها ، أمسك شعره بيديه . وفحص برجليه من المفاجـأة والألم . ثم اخذ يركض في جميع انحاء الكنيسة باحثاً عن غجريته ، عاويـاً بصرخات غريبة في جميع زوايا الجدار ، باذراً شعره الاحمر على البلاط . انها تماماً تلك اللحظة التي دخل فيها رماة الملك الى نوتردام منتصرين ، باحثين عن الغجرية . وساعدهم كازيمودو في ذلك دون ان يساور الأصم المسكين اي شك في مقاصدهم المشؤومة . كان يعتقد ان اعداء الغجرية هم اللصوص . وقد قاد بنفسه تريستان لرميت الى جميع المخابىء الممكنة ، وفتح له الابواب السرية ، وما وراء المذابح ، والسكرستيات الخلفية . ولو كانت البـائسة لا تزال موجودة لكان هو الذي أسلمها . وحين اخمد التعب من عدم وجود شيء همة تريستان الذي لا تخمد همته بسهولة ، استمر كازيمودو في البحث لوحده ،وطاف الكنيسة عشرين مرة ، مئة مرة ، طولاً وعرضاً ، ومن اعلى الى اسفـل ، صاعداً ، نازلاً ، راكضاً ، منادياً ، صارخاً ، شامّاً ، مفتشاً ، منقباً ، مدخلاً رأسه في جميع الثقوب ، دافعاً المشعال تحت جميع العقود ، يائساً ، مجنونـاً .

ولم يكن الذكر الذي فقد انثاه اكثر زمجرة ولا اكثر شروداً . واخيراً ، حين تأكد ، تمام التأكيد ، انها ليست موجودة ، وان الواقع هو انهم سرقوها منه ، صعد درج الابراج متمهلا ، ذلك الدرج الذي تسلقه بكثير من الحدة والظفر يوم انقذها . ومر في نفس الاماكن ، منخفض الرأس ، دون صوت ، دون دموع ، دون نفس تقريباً . كانت الكنيسة مقفرة من جديد وغارقة في صمتها . فقد تركها الرماة ليطاردوا الساحرة في حي لاسيته . وكازيمودو الباقي وحيداً في نوتردام الفسيحة التي كانت قبل لحظة محاصرة وصاخبة ، سار في طريق الغرفة التي نامت فيها الغجرية عدة اسابيع تحت حراسته . وباقترابه منها تخيل امكان وجودها فيها ، وحين رأى ، من عطفة الرواق الموصل الى سطح الجهات المنخفضة ، المسكن الضيق بنافذته الصغيرة وبابه الصغير ، متلبداً تحت نصف قنطرة كبيرة كوكنة عصفور تحت غصن ، انهار قلب الرجل المسكين ، واستند الى عمود حتى لا يقع . فقد تخيل امكان عودتها ، وان جنية اعادتها دون شك ، وان هذا المسكن كثير الهدوء والامان والسحر لتكون فيه . ولم يجرؤ على ان يخطو خطوة خوفاً من تحطيم وهمه . وكان يقول لنفسه في نفسه :

— نعم ، ربما تنام او تصلي . فلا نزعجها .

واخيراً جمع شجاعته ، وتقدم على رؤوس اصابعه ، وتطلع ، ودخل . فارغة ! كانت الغرفة دائماً فارغة . واعاد الأصم البائس الكرة بخطى متمهلة ، ورفع السرير وتطلع تحته كما لو ان بامكانها الاختباء بين البلاط والفراش ، ثم هز رأسه وظل مشدوهاً . وفجأة سحق مشعاله بقدمه في فورة غضب ، ودون ان يقول كلمة ، دون ان يتنهد ، اسرع راكضاً بكل قوته وضرب رأسه في الجدار وسقط على البلاط دون وعي .

وحين افاق ارتمى على السرير ، وتدحرج عليه وقبّل بجنون المكان الذي لا يزال دافئاً حيث نامت الفتاة ، وظل فيه بضع دقائق جامداً كأنه سيموت هناك ، ثم نهض سابحاً بالعرق ، لاهثاً ، مجنوناً ، واخذ يصدم الجدران برأسه

بالانتظام الرهيب لمضرب اجراسه ، وبعزم امرىء يريد تحطيمه . واخيراً سقط مرة ثانية ، منهوكاً ؛ وحبا على ركبتيه الى خارج الغرفة ، واقعى في مواجهة الباب في وضع اندهاش . وظل هكذا اكثر من ساعة دون ان يأتي بحركة ، وعينه متطلعة الى الغرفة المقفرة ، اكثر عبوساً واكثر تفكيراً من ام جالسة بين مهد فارغ وتابوت ملآن . لم يكن يلفظ اية كلمة ؛ فقط ، في فترات طويلة كانت انتحابة تحرك بعنف كل جسده ، ولكنها انتحابة بدون دموع ، كبروق الصيف التي لا تحدث لعلمة .

وبحث في اعماق احلامه اليائسة عمن يمكن ان يكون خاطف الغجرية غير المنتظر ، فبداله قبل كل شيء ان يفكر بالخوراسقف . لقد تذكر ان الدوم كلود هو وحده الذي معه مفتاح للدرج الموصل الى الغرفة ، وتذكر محاولاته الليلية مع الفتاة والتي ساعده عليها في المرة الاولى ، ومنعه في الثانية . وتذكر آلاف التفاصيل ولم يبق عنده شك في ان الخوراسقف هو الذي اخذ الغجرية منه . الا ان احترامه للكاهن ، والاعتراف بالجميل ، والاخلاص ، ومحبة هذا الرجل ، كان لها جذور عميقة جداً في قلبه وكانت تقاوم ، حتى في هذه اللحظة، اظافر الغيرة واليأس .

كان يفكر ان الخوراسقف قد فعل ذلك . وغضب الدم والموت الذي كان يشعر به ضد اي رجل آخر في اللحظة التي كان المقصود فيها هو كلود فرولو ، تحول عند الاصم المسكين الى تزايد الألم .

وفي اللحظة التي استقر فكره فيها هكذا على الكاهن ، وكان الفجر قد انار القناطر النصفية ، رأى في الطابق الاعلى من نوتردام ، في المنعطف الذي يشكله الحاجز الخارجي الذي يدور حول صدر الكنيسة ، وجهاً كان يمشي ، وكان هذا الوجه آتياً من ناحيته ، فعرفه . لقد كان هو الخوراسقف . كان كلود يسير بخطوة رزينة ومتمهلة ، ولم يكن يتطلع امامه وهو يمشي ، كان يتجه نحو البرج الجنوبي ، ولكن وجهه كان ملتفتاً الى ناحية ، نحو ضفة السين اليمنى . وكان يرفع رأسه كأنه يحاول ان يرى شيئاً ما من فوق السطوح . والبومة في

الغالب هذه الوضعية المنحرفة ، تطير نحو نقطة وتتطلع باخرى . — وهكـذا مر الكاهن فوق كازيمودو دون ان يراه .

والأصم الذي جمّده هذا الظهور الفجائي ، رآه يدخل تحت باب درج البرج الجنوبي . ويعرف القارىء ان هذا البرج هو الذي يُرى منـــه قصر البلدية . ونهض كازيمودو وتبـع الخوراسقف .

صعد كازيمودو درج البرج لمجرد الصعود ، وليعرف لماذا ارتقـاه الكاهن . وبعد ، فان قارع الاجراس المسكين لم يكن يدري ماذا يفعل، هو كازيمودو، ولا ما يقول ، ولا ما يريد . كان مليئاً بالغضب ومليئاً بالخوف ، فالخوراسقف والغجرية يتصادمان في قلبه .

حين وصل الى قمة البرج ، وقبل ان يخرج من ظلام الدرج ويدخـل الى السطح ، تفحص بحذر مكان وجود الكاهن . كان هذا مديراً ظهره اليه .وهناك حاجز مثقوب لدخول الضوء يحيط بسطـح برج الجرس . والكاهن الذي كانت عيناه مصوبتين الى المدينة كان صدره مستنداً الى صدر جهات الحاجز الاربـع المطل على جسر نوتردام .

وتقدم كازيمودو بخطى الذئب وراءه ، وراح ينظر الى ما كان ينظر اليه . كان انتباه الكاهن منصبـــاً على موضع آخر بحيث لم يسمع الاصم وهو يمشي بقربه .

انه لمنظر بديـع فـــاتن منظر باريس ، باريس يومذاك على الخصوص ، منظورة من اعلى ابراج نوتردام على ألق فجر صيفي طري . يمكن ان نكون في تموز في ذلك النهار ، وكانت السماء صافية تماماً . وبعض النجوم المتأخرة كانت تنطفىء فيها على نقاط متنوعة . وكانت هناك واحدة شديدة التألق في الشرق في اصفى سماء . وكانت الشمس على اهبة البزوغ . وبـدأت باريس تتحرك . ونور كثير البياض كثير الصفاء أسال بحيوية امـام العين جميـع سطوح آلاف بيوتها المائلة للشرق . والظل العملاق لأبراج الاجراس كان يسير من سطح الى سطح من طرف المدينة الكبرى الى الطرف الآخر . وكان يوجد آنذاك احياء

تتكلم وتحدث ضجة . هنا دقة جرس ، وهناك ضربة مطرقة ، وتحت ، قرقعة عربة تسير . وكانت بعض الادخنة قد بدأت تفيض هنـــا وهناك على جميع وجوه السطوح كأنها خارجة من شقوق ارض فسيحة يخرج منها بخار الكبريت. والنهر الذي يغضن ماءه على قناطر كثير من الجسور ، وعلى رأس كثير من الجزر ، كان متموجاً بثنيات فضية . وحول المدينة ، خارج الاسوار ، يضيع النظر في دائرة كبيرة من الأبخرة القطنية يبدو خلالهـــا بشكل مشوش خط السهول اللامحدود وانتفاخ التلال اللطيف . وكل نوع من الضوضاء الطافية كان يتبعثر على هذه المدينة نصف المستيقظة . وفي ناحية الشرق كانت ريح الصبــاح تطرد خلال السماء بعض السوائح المنتزعة من جزة ضباب التلال .

وفي ساحة بارفي بعض النسوة اللواتي يحملن في ايديهن طـــاسات الحليب ويشرن بدهشة الى التلف الغريب الذي اصاب باب نوتردام الكبير ، والى ساقيتين من الرصاص متجمدتين بين شقوق الحجارة الرملية . وكان ذلك هو كل ما بقي من صخب الليل ، والمحرقة التي اشعلها كازيمودو بين الابراج قد انطفأت . وكان تريستان قد نظف الساحة وأمر بالقاء الاموات في السين . فالملوك امثال لويس الحادي عشر يعتنون بغسل البلاط بسرعة بعد كل مجزرة .

وخارج حاجز البرج . وبشكل اوضح تحت النقطة التي وقف فيها الكاهن ، كان يوجد احد تلك الميازيب الحجرية المشذبة بشكل خيالي وكانت تنفش العمارات القوطية ، وفي شق من هذا الميزاب غرستان جميلتان مزهرتان من المنثور ، هزهما النسيم وبعث فيها الحياة ، تقومان بتحيات مرحة . وفوق الابراج ، في الاعالي ، بعيداً في اعماق السماء ، كانت تسمع صرخات عصافير صغيرة .

ولكن الكاهن لم يكن يسمع او يرى شيئاً من كل ذلك . كان من اولئك الرجال الذين ليس عندهم صباحات ، ولا عصافير ، ولا زهور . وفي ذلك الافق الفسيح الذي يتخذ كثيراً من المظاهر حوله ، كان تأمله مركزاً على

نقطة واحدة .

وكان كازيمودو متحرقاً ليسأله عما فعل بالغجرية . ولكن الخوراسقف كان يبدو في تلك اللحظة خارج العالم . وكان بشكل ظاهر في احدى تلك الدقائق العنيفة من الحياة حيث لا يشعر المرء اثناءها بأنهيار الارض . العينان مثبتتان بشكل لا يتغير على مكان معين . وقد ظل جامداً صامتـــاً ؛ وهذا الصمت ، وذلك الجمود كان فيهما شيء رهيب بحيث ان قارع الاجراس المتوحش ارتعش امامه ولم يجرؤ على الاصطدام به . فقط ، وهذه ايضاً طريقة في استجواب الخوراسقف ، تبـع اتجاه شعاعه النظري ، وبهذه الطريقة سقط نظر الاصـــم المنكود على ساحة غريف .

وهكذا رأى ما كان الخوراسقف ينظر اليه . كان السلّم منصوباً بقرب المشنقة الدائمة . وكان في الساحة بعض الناس وكثير من الجنود . وهناك رجل يجر على البلاط شيئاً ابيض تعلق به شيء اسود . وقـد وقف هذا الرجل عند اسفل المشنقة .

وهنا حدث شيء لم يره كازيمودو جيداً . وليس ذلك لأن عينه الوحيدة لم تحتفظ بمداها الطويل ، بل كان هناك جندي ضخم يمنعه من تمييز كل شيء . الا ان الشمس ظهرت في هذه اللحظة ، وفاضت موجة من النور من فوق الافـق حتى ليخيل ان جميـع رؤوس باريس ، من مسلات ومداخن وجملونات ، قـــد اشتعلت فيها النار دفعة واحدة .

واخذ الرجل يصعد السلّم . وعندئذٍ رآه كازيمودو بوضوح . كان يحمـل امرأة على كتفه ، فتاة صغيرة ترتدي ثوباً ابيض ، وكانـ في عنق هذه الفتاة انشوطة . لقد عرفها كازيمودو . انها هي .

وهكذا وصل الرجل الى اعلى السلّم ، وهناك اصلح الانشوطة . وقد ركع الكاهن هنا على الحاجز ليرى بشكل افضل .

وفجأة دفع الرجل السلّم بعقبه . وكازيمودو الذي انقطع عن التنفس منذ

هنيهات رأى الطفلة المنكودة تتأرجح في طرف الحبل على علو توازين [1] فوق البلاط ، مع الرجل الجاثم بقدميه على كتفيها . ودار الحبل على نفسه عدة دورات ، ورأى كازيمودو سريان التشنجات على طول جسم الغجرية . وكان الكاهن من جهته ، ممتد العنق ، والعين خارج الرأس ، يتأمل هذه الجماعة الرهيبة المؤلفة من الرجل والفتاة ، من العنكبوت والذبابة .

في اكثر اللحظات رهبة ، انفجرت ضحكة شيطان ، ضحكة لا تحدث الا عندما لا يكون المرء انساناً ، على وجه الكاهن القاتم . ولم يسمع كازيمودو هذه الضحكة ولكنه رآها وتقهقر قارع الاجراس بضع خطوات وراء الخوراسقف ، وفجأة اندفع نحوه بغضب شديد ، وبيديه الضخمتين دفعه من ظهره الى الهاوية التي كان الدوم كلود منحنياً عليها .

وصرخ الكاهن : اللعنة !

وسقط .

والميزاب الذي كان هو فوقه اوقفه في سقطته . فقد تعلق به بيدين بائستين ، وفي اللحظة التي فتح فيها فمه ليطلق صرخة ثانية رأى على حافة الحاجز فوق رأسه وجه كازيمودو الرهيب الثائر . عندئذ صمت .

كانت الهاوية تحته . سقطة من ارتفاع اكثر من مائتي قدم ، وهناك البلاط . لم يفه الخوراسقف بأية كلمة في هذه الوضعية الراعبة ، ولم يطلق اية زفرة ، لكنه التوى فقط على الميزاب بجهد عظيم ليصعد ، ولكن يديه لم تجدا ما تتعلقان به على الغرانيت ، وكانت قدماه تخططان الجدار المسودّ دون ان تؤثرا فيه . ويعرف الذين صعدوا الى ابراج نوتردام ان هناك انتفاخاً في الحجر تحت الحاجز تماماً . وتحت تلك الزاوية الداخلة كان يتلاشى الخوراسقف المنكود . ولم تكن القضية قضية جدار عمودي ، بل جدار كان يهرب تحته .

---

١ – تواز Toise : مقياس قديم طوله ستة اقدام .

ولم يكن على كازيمودو ليسحبه من الهاوية الا ان يمد يده ، ولكنه كان ينظر اليه فقط ، وينظر الى ساحة غريف ، وينظر الى المشنقة ، وينظر الى الغجرية . وكان الاصم مسنداً مرفقيه الى الحاجز في المكان الذي كان الخوراسقف فيه قبل هنيهة . وهناك لم يفصل نظره عن الشيء الوحيد الذي كان له في الدنيا ، في تلك اللحظة ، كان جامداً ، وصامتاً كرجل مصعوق ، وجدول طويل من الدموع يسيل بصمت من تلك العين التي لم تكن قد سكبت حتى الآن سوى دمعة واحدة .

كان الخوراسقف يلهث ، وجبهته العالية ترشح عرقاً ، واظافره مدمّاة على الحجر ، وركبتاه مخدشتان من الجدار . وكان يسمع جبته المعلقة بالجدار تقضقض وتتفتق لدى كل هزة يهزها بها . ولزيادة الشقاء فان هذا الميزاب كان منتهياً بانبوب من الرصاص كان يلتوي تحت ثقل جسده . وكان الخوراسقف يشعر ان هذا الانبوب ينطوي ببطء . وكان البائس يقول لنفسه انه عندما تتحطم يداه من التعب ، وعندما تتمزق جبته ، وعندما يلتوي هذا الرصاص ، يجب ان يسقط ، وقد امسك الرعب باحشائه وفي بعض الاحيان كان يتطلع بشرود الى نوع من السطح موجود على انخفاض عشرة اقدام وقد تشكل من بعض عوارض النحت ، وكان يسأل السماء في اعماق نفسه الشقية ان يتمكن من انهاء حياته على هذه الفسحة ذات القدمين المربعين حتى لو دامت هذه الحياة مائة سنة . وتطلع مرة تحته الى الساحة ، الى الهاوية ، ولكن الرأس الذي رفعه اغمض عينيه ، ووقف شعر رأسه .

كان صمت هذين الرجلين رهيباً . وبينما كان الخوراسقف يحتضر على بعد بضعة اقدام منه بهذا الشكل الرهيب ، كان كازيمودو يبكي ، ويتطلع الى ساحة غريف .

ورأى الخوراسقف ان خلجاته كلها لم تفد شيئاً سوى انها تهز نقطة استناده الهشة التي بقيت له . فعزم على الا يتحرك . لقد كان هناك ، معانقاً الميزاب ، يتنفس بجهد ، لا يتحرك ابداً ، لا يقوم بحركات اخرى سوى ذلك التشنج

الآلي للبطن والذي يشعر به المرء في الاحلام عندما يظن انه شعر بالسقوط . وكانت عيناه الجامدتان مفتوحتين بشكل مريض مندهش . وكان يخسر ارضه شيئاً فشيئاً واصابعه تنزلق على الميزاب ، ويزداد شعوره بضعف ذراعيه وثقل جسده . واعوجاج الرصاص الذي يمسك به كان يزداد فرضة كل لحظة نحو الهاوية . وكان يرى تحته ، وهذا شيء رهيب ، سطح سان جان لورون صغيراً كبطاقة مطوية نصفين . وكان يتطلع الى الواحدة بعد الاخرى من منحوتات البرج العديمة الاحساس ، معلقة مثله فوق الهاوية ولكن دون خوف من ناحيتها ولا شفقة عليه . كل شيء حوله كان من حجر ؛ وامام عينيه المسوخ الفاغرة الافواه ؛ وتحت ، في الاعماق ، في الساحة ، البلاط ؛ وفوق رأسه كازيمودو يبكي .

وكان في الباحة بعض جماعات من الفضوليين الشجعان الذين كانوا يبحثون باطمئنان ليعرفوا من يمكن ان يكون ذلك المجنون الذي يتسلى بهذه الطريقة الغريبة . وسمعهم الكاهن يقولون ، لان اصواتهم كانت تصل اليه واضحة وضعيفة :

- ولكن سيدق عنقه .

وكان كازيمودو يبكي .

واخيراً ازبد الخوراسقف من السخط والرعب ، وادرك ان لا فائدة من شيء ، الا انه جمع كل ما بقي له من قوة للقيام بجهد اخير ، فتصلب على الميزاب ، ودفع الجدار بركبتيه وعلق يديه بشق في الحجارة ، وتوصل الى التسلق مقدار قدم واحد تقريباً ، ولكن هذا الارتجاج طوى فجأة السن الرصاصي الذي كان يستند اليه . وفي اللحظة نفسها انشقت الجبة . وعندئذ ، وقد شعر بفقد كل شيء تحته ، ولم يبق لديه سوى يديه المتصلبتين الخائرتين المتمسكتين بشيء ما ، اغمض المنكود عينيه وافلت الميزاب . وسقط .

والسقطة من هذا الارتفاع نادراً ما تكون عمودية ، فالخوراسقف المقذوف في الفراغ سقط اولاً ورأسه الى اسفل ويداه ممدودتان ، ثم دار عدة دورات

على نفسه . ودفعه الهواء الى سطح بيت حيث بدأ المنكود يتحطم . الا انه لم يكن قد مات حين وصل الى السطح . وقد رآه قارع الاجراس يحاول التمسك بحائط الجلون باظافره . ولكن السطح كثير الانحناء ، ولم يبق لديه قوة ، فتزحلق بسرعة على السطح كقرميدة انفصلت عن اخواتها ، وراح يقفز على البلاط . وهناك لم يتحرك .

عندئذ رفع كازيمودو عينه الى الغجرية التي كان يرى جسدها معلقاً في المشنقة ، وهي تختلج في البعيد تحت ثوبها الابيض آخر اختلاجات الاحتضار ، ثم اسقطها على الخوراسقف الممدد في اسفل البرج وليس له شكل بشري ، وقال بنحيب رفع صدره العميق :

– اوه ! كل ما كنت احب !

٣

زواج فوبوس

في مساء ذلك النهار ، حين جاء ضباط الاسقف العدليون يرفعون عن بلاط باحة بارفي جثة الخوراسقف المقطعة الاوصال ، كان كازيمودو قد اختفى من نوتردام .

وسرت اشاعات كثيرة حول هذه المغامرة . ولم يساور الشك احداً في مجيء ذلك اليوم حيث كازيمودو ، اي الشيطان ، يجب ان يذهب بكلود فرولو ، اي الساحر ، وذلك حسب اتفاقهما . وحدسوا بانه حطم الجسد ليأخذ النفس ، كالقرود التي تكسر القشرة لتأكل الجوزة .

ولهذا السبب لم يدفن الخوراسقف في ارض مقدسة .

ومات لويس الحادي عشر بعد سنة في شهر آب ١٤٨٣ .

اما بيير غرنغوار فقد توصل الى انقاذ المعزاة ، ونال نجاحاً في كتابة المأساة . ويبدو انه بعد ان تذوق علم الفلك ، والفلسفة ، وفن العمارة ، والكيمياء ، وجميع الجنونيات ، عاد الى فن المأساة الذي هو اكثر جنوناً من الجميع . وهذا ما كان يدعوه « صنع نهاية مأساتية » . وهذا ما قرىء عن موضوع انتصاراته المسرحية منذ عام

١٤٨٣ في الحسابات « العــادية » : « الى جهـان مارشان وبيير غرنغوار ، نجار ومؤلف ، اللذين صفا وألـّفــا اللغز » المقدم في شاتليه باريس عند دخول السيد القاصد الرسولي ، ونظـّما اشخاصاً يرتدون الملابس بالاضـافة الى ان « اللغز » المذكور كان مطلوباً ، وكذلك صنع صقالات كانت ضرورية . ولعمل ذلك ، مئة ليرة » .

وفوبوس دي شاتوبير ايضاً لاقى نهاية فاجعة ، فقد تزوج .

٤

زواج كازيمودو

قلنـــا ان كازيمودو اختفى من نوتردام يوم موت الغجرية والخوراسقف . وبالفعل فلم يره احد ، ولم يعرف ماذا جرى له .

في الليلة التي تبعت تنفيذ حكم الموت بازميرالدا ، فان رجال الاعمال الدنيـا فصلوا جسدها عن المشنقة وحملوه حسب العادة الى قبو مونفوكون .

وكانت مونفوكون كما يقول سوفال : «اقدم وأروع مشنقة في المملكة» . وبين ضواحي التامبل وسان مارتان ، على بعد مئـــة وستين تواز عن اسوار باريس ، وعلى مرمى القوس عن لاكورتي ، كان يرى على قمة سهل فسيح لا يدركه البصر ، مرتفع ارتفاعاً كافياً ليشاهد عن بعد بضعة اميال من جميـــع الجهات ، بناء ذو شكل غريب يشبـــه دائرة سلتية ، حيث تقدم فيـه الاضاحي ايضاً .

لنتصور ، على رأس تـلة صغيرة من الجبس ، متوازي المستطيلات كبير من العمارة ، ارتفاعه خمسة عشر قدماً ، وعرضه ثلاثون ، وطوله اربعون ، مـع باب ، بحاجز خارجي وسطح ؛ وعلى هذا السطح ستة عشر عموداً ضخمـاً من الحجر غير المشذب ، واقفة ، بارتفاع ثلاثين قدماً ، مرتبـــة بشكل صف من الاعمدة حول ثلاث من جهات كتلة الحجارة التي تحملها . مربوطـة فيما بينها ، وفي قمتها ، بجسور خشبية متينة تتدلى منها سلاسل بين فسحـة واخرى ؛ وفي كل هذه السلاسل هياكل عظمية ؛ وفي الجوار ، في السهل ، صليب حجري

ومشنقتان من الدرجة الثانية تبدوان انها تنبتان غرزةً حول المذراة المركزية ؛ وفوق كل ذلك ، في السماء ، طيران مستمر للغربان . هذه هي مونفوكون .

في نهاية القرن الخامس عشر كانت المشنقة الرهيبة التي يعود تاريخها الى عام ١٣٢٨ هرمة جداً . وكانت الجسور الخشبية نخرة ، والسلاسل صدئة ، والاعمدة خضراء من التعفن ، ومداميك الحجر المشذّب كانت كلها مشققة عند نقاط التقائها ، والعشب نابت على ذلك السطح الذي لا تلمسه الاقدام . لقد كان وجهاً جانبياً رهيباً على السماء وجه هذا الاثر التذكاري ؛ وفي الليل على الخصوص ، حين يكون هناك شيء من نور القمر على تلك الجماجم البيضاء ، او عندما ترضرض ريح الشمال المسائية الجماجم والهياكل العظيمة وتحرك كل ذلك في الظلام . وكان يكفي لتلك المشنقة الموجودة هناك ان تجعل من الجوار كله اماكن مشؤومة .

والكتلة الحجرية المستعملة كقاعدة للعمارة البغيضة كانت جوفاء ، فقد حُفر فيها قبو واسع مقفل بشبكة حديدية قديمة مختلفة ، حيث كانت تلقى ، ليس فقط البقايا البشرية التي كانت تفصل عن سلاسل مونفوكون ، بل اجساد جميع المنكودين الذين ينفذ فيهم حكم الموت على مشانق باريس الدائمة الاخرى . في ذلك المستودع العميق للجثث حيث كثير من الغبائر البشرية والجرائم قد تنتنت معاً ، فان كثيراً من عظماء العالم ، وكثيراً من الابرياء جاءوا بالتتابع يحملون عظامهم ، منذ أنغيران دي ماريني الذي دشن مونفوكون وكان عادلاً .

اما فيما يتعلق باختفاء كازيمودو الغامض فهذا كل ما استطعنا اكتشافه .

سنتان تقريباً او ثمانية عشر شهراً بعد الحوادث التي انهت هذه القصة ، عندما جاؤوا يطلبون في قبو مونفوكون جثة اوليفيه الايل الذي شنق قبل يومين ، والذي منحه شارل الثامن الرحمة بان يدفن في سان لوران مع افضل رفقة ، وجدوا بين كل هذه الهياكل العظمية الشنيعة هيكلين عظميين يمسك واحد منهما بالآخر ومتعانقين بشكل غريب . وأحد هذين الهيكلين ، وهو هيكل امرأة ، كان لا يزال عليه بعض خرق ثوب من قماش كان ابيض

اللون ، ورأوا حول عنقها طوقاً من حب الادريزارك [١] ، مع كيس صغير حريري مزين بخرز اخضر كان مفتوحاً وفارغاً . وهذه الاشياء كانت زهيدة القيمة بحيث لم يشأ الجلاد اخذهـــا دون شك . والهيكل الآخر الذي يحضن الاول معانقاً بشدة كـــان هيكل رجل . وقد لوحظ ان عموده الفقري منحرف ، والرأس غارق بين عظمي الكتف ، وساق اقصر من الآخر . ومع ذلك فليس فيه اي قطع في فقرة عنقه . ومن الراهن انـــه لم يشنق . اذن ، فالرجل الذي يعود اليه هذا الهيكل جاء ومات هناك . وحين ارادوا فصله عن الهيكل الذي يعانقه سقط غباراً [٢] .

---

١ ـ نبات ينتج ثمراً فيه نوى قاسية تستعمل عقوداً واطواقاً .

٢ ـ ملاحظة من فكتور هيجو على الصفحة الاخيرة من مخطوطتـه : « ١٥ كانون الثاني ١٨٣١ الساعة السادسة والنصف مساء » .

فهرست

ص

الكتاب السابع

الكتاب الثامن

الكتاب التاسع

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع
دار الابجدية للطباعة والنشر
بيروت – هاتف ٢٣٨١٧٤
في شهر آب (اغسطس) ١٩٦٩

منشورات عويدات ١٤٢ / ٨ / ١٩٦٩

صدر عن منشورات عويدات

سلسلة

مكتبة الفكر الجامعي

مستقبل التربية في العالم العربي	الدكتور جميل صليبا
فلسفتنا (نقد)	محمد باقر الصدر
الاجماع في التشريع الاسلامي	محمد صادق الصدر
تاريخ الفلسفة الاسلامية	هنري كوربان
ابن سينا والنفس البشرية (نقد)	الدكتور البير نصري نادر
المسألة الفلسفية	الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا
المنطق	الدكتور جميل صليبا
تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصور الحديثة	اندريه كريسون
مدخل الى فلسفة ديكارت	الدكتور كمال يوسف الحاج
تأملات ميتافيزيقية(فرنسي وعربي)	رنيه ديكارت
تاريخ الفلسفات الكبرى	بيير دو كاسيه
من الجوهر الى الوجود	الدكتور كمال يوسف الحاج
آفاق الفكر المعاصر	غايتان بيكون
الفلسفة الفرنسية من ديكارت الى سارتر	جان فال
مدخل الى علم الاجتماع	أرمان كوفيليه
المجتمع الصناعي	ريمون آرون
صراع الطبقات	» »
في الدكتاتورية	موريس دوفرجيه

امل القرن العشرين الكبير	جان فوراستيه
معايير الفكر العلمي	« «
حضارة عام ١٩٧٥	« «
تطور المجتمعات البشرية	ألفريد سوفي
الرأي العام	« «
الانسان المتمرد	ألبير كامو
الانسان	جان روستان
الامومة والبيولوجيا	« «
القنبلة الذرية ومصير الانسان	كارل ياسبرس
مدخل الى تاريخ العلاقات الدولية	رينوفان ودوروزيل
مدخل الى علم السياسة	جان مينو
تاريخ الرواية الحديثة	ألبيريس
الاتجاهات الادبية في القرن العشرين	«
أدباء من الشرق والغرب	عيسى الناعوري
المذاهب الادبية الكبرى في فرنسا	فيليب فان تيغيم
معجم الادب المعاصر	بيار دي بواديفر
الادب الفرنسي الجديد	غايتان بيكون
الرومنطيقية في الادب الفرنسي	ف . ل . سولنيه
تاريخ الادب الفرنسي في القرن العشرين	بيار هنري سيمون
فن الدراما	ميشال ليور
جغرافية العالم الاجتماعية	ليون شانصوريل
جغرافية العالم الاجتماعية	بيار جورج
« « الزراعية	« «
الادارة	برنار غورنيه
الخ ...	

صدر عن منشورات عويدات

من التراث الغربي

★ الاب غوريو	بلزاك
★ الناعقون	»
★ كلومن	ميريمه
★ الاحمر والاسود	ستاندال
★ مدام بوفاري	فلوبير
★ سلمبو	»
★ ارض الرجال	سانت اكزوبيري
★ مزيفو النقود	اندريه جيد
★ قوت الارض	» »
★ تيريز ديكيرو	فرنسوا مورياك
★ صحراء الحب	» »
★ الوضع البشري	اندريه مالرو
★ الغزاة	» »
★ الحانة	اميل زولا
★ قارع الاجراس	فيكتور هيغو

VICTOR HUGO

NOTRE DAME DE PARIS

TEXTE TRADUIT EN ARABE

PAR

BAHIGE CHAABAN

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Liban

VICTOR HUGO

NOTRE DAME DE PARIS

TEXTE TRADUIT EN ARABE

PAR

BAHIGE CHAABAN

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Liban

الثمن : ١٠ ل. ل. او ما يعادلها